

الإفك
كتاب
١٥٩

هـ.ج. ولز

معالم تاريخ الانسانية

ترجمة: عبد العزيز توفيق جاويد

المجلد الرابع

الهيئة المصرية
العامة للكتاب



مَعَالِمُ تَارِيخِ الْإِنْسَانِيَّةِ

الألف كتاب الثاني

الإشراف العام
و. سمير برهان
رئيسة مجلس الإدارة

رئيس التحرير
المستشار المظلي

مستشار التحرير
أحمد صليحة

الإشراف الفني
محمد قطيب

الإخراج الفني
علياء أبو شادي

مكتبة المؤلف والنشر

H. G. WELLS.

هـ.ج. ولز

معالم تاريخ الإنسانية

ترجمه

عبد العزيز توفيق جاويد

المجلد الرابع

في التاريخ الحديث

(١٦٠٠ - ١٩٦٥)



الهيئة المصرية العامة للكتاب

١٩٩٤

هذه ترجمة لكتاب

The Outline of History
Being A Plain History of Life and Mankind
By
H. G. WELLS.

محتويات الكتاب

صفحة

| | |
|-----------------------------|-------|
| محتويات الكتاب | ١ - ٢ |
| فهرس الصور والخرائط | ٣ - ٤ |
| كلمة المترجم | ٥ - ٦ |
| كلمة المترجم للطبعة الثانية | ٧ - ٨ |

الكتاب الثاني

عصر الدول العظمى

الفصل الرابع والثلاثون : أمراء وبرلمانات ودول ...

| | |
|--|------|
| ١ - الأمراء والسياسة الخارجية | ١٠٦٧ |
| ٢ - الجمهورية الهولندية | ١٠٧٠ |
| ٣ - « الإنجليز » | ١٠٧٥ |
| ٤ - إنقسام ألمانيا واضطرابها | ١٠٨٩ |
| ٥ - أبهة الملكية العظمى في أوروبا | ١٠٩٣ |
| ٦ - الموسيقى في القرنين السابع عشر والثامن عشر | ١١٠٥ |
| ٧ - التصوير في القرنين السابع عشر والثامن عشر | ١١٠٧ |
| ٨ - نمو فكرة الدول العظمى | ١١١٠ |
| ٩ - جمهورية بولندة المتوجة ومصيرها | ١١١٦ |
| ١٠ - أول تخاطف على الإمبراطوريات وراء البحار | ١١٢٠ |
| ١١ - بريطانيا تسود الهند | ١١٢٤ |
| ١٢ - تقدم روسيا إلى المحيط الهادى | ١١٣٠ |
| ١٣ - رأى جيبون في العالم في ١٧٨٠ | ١١٣٣ |
| ١٤ - الهدنة الاجتماعية تشارف نهايتها | ١١٤١ |

الفصل الخامس والثلاثون : الجمهوريات الديمقراطية الجديدة بأمريكا وفرنسا

| | |
|---|------|
| ١ - متاعب نظام الدولة العظمى | ١١٥١ |
| ٢ - المستعمرات الثلاث عشرة قبل عصيانها | ١١٥٣ |
| ٣ - الحرب الأهلية تفرض على المستعمرات فرضاً | ١١٦٠ |
| ٤ - حرب الاستقلال | ١١٦٦ |
| ٥ - دستور الولايات المتحدة | ١١٦٩ |

— ب —

صفحة

| | | |
|------|--|------|
| ٦ - | المظاهر الدائيه لدسور الولايات المتحدة | ١١٧٦ |
| ٧ - | الفكرة البورة فى فرنسا | ١١٨٤ |
| ٨ - | ثورة سنة ١٧٨٩ | ١١٨٩ |
| ٩ - | الجمهورية الفرنسية المتوجة ٨٩ - ٩١ | ١١٩١ |
| ١٠ - | ثورة البعاقبة | ١٢٠١ |
| ١١ - | جمهورية البعاقبة ١٧٩٢ - ١٧٩٤ | ١٢١٢ |
| ١٢ - | حكومة الإدارة | ١٢١٩ |
| ١٣ - | توقف التعمير وفجر الاشتراكية المصرية | ١٢٢٣ |
| | الفصل السادس والثلاثون : سيرة نابليون بونابرت | |

| | | |
|-----|---|------|
| ١ - | أسرة بونابرت فى كورسيكا | ١٢٣٣ |
| ٢ - | بونابرت قائداً جمهورياً | ١٢٣٤ |
| ٣ - | نابليون قنصلا أول ١٧٩٩ - ١٨٠٤ | ١٢٤٠ |
| ٤ - | نابليون الأول إمبراطوراً من ١٨٠٤ - ١٨١٤ | ١٢٤٦ |
| ٥ - | المئة يوم | ١٢٥٧ |
| ٦ - | خريطة أوروبا فى ١٨١٥ | ١٢٦١ |
| ٧ - | طراز الإمبراطورية | ١٢٦٧ |

الفصل السابع والثلاثون : حقائق القرن التاسع عشر وخيالاته

| | | |
|------|--|------|
| ١ - | الانقلاب الآلى | ١٢٦٩ |
| ٢ - | العلاقة بين الانفلايين الآلى والصناعى | ١٢٨١ |
| ٣ - | اختبار الفكرات فى ١٨٤٨ | ١٢٨٩ |
| ٤ - | تطور فكرة الاشتراكية | ١٢٩٢ |
| ٥ - | عيوب الاشتراكية بوصفها خطة للجماعة الإنسانية | ١٣٠١ |
| ٦ - | كيف أثر مذهب داروين فى الفكرات الدينية والسياسية | ١٣٠٩ |
| ٧ - | فكرة القومية | ١٣١٩ |
| ٨ - | المعرض الكبير فى ١٨٥١ | ١٣٢٤ |
| ٩ - | سيرة حياة نابليون الثالث | ١٣٢٥ |
| ١٠ - | لنكولن والحرب الأهلية فى أمريكا | ١٣٣٦ |
| ١١ - | الحرب الروسية التركية ومعاودة برلين | ١٣٤٨ |
| ١٢ - | الدافع الثانى على الإمبراطوريات وراء البحار | ١٣٥٠ |
| ١٣ - | السابقة الهندية فى آسيا | ١٣٦٢ |
| ١٤ - | تاريخ اليابان | ١٣٦٦ |
| ١٥ - | ختام فترة التوسع وراء البحار | ١٣٧٢ |
| ١٦ - | الإمبراطورية البريطانية فى ١٩١٤ | ١٣٧٤ |
| ١٧ - | التصوير والنحت فى القرن التاسع عشر | ١٣٧٧ |
| ١٨ - | الموسيقى فى القرن التاسع عشر | ١٣٨٣ |
| ١٩ - | نهوض القصة إلى المرتبة العليا فى الأدب | ١٣٨٥ |

(ج)

صفحة

الفصل الثامن والثلاثون : كارثة الاستعمار العصري

- ١ - السلام المسلح قبل الحرب العظمى ١٣٩٨
- ٢ - ألمانيا العيصريه ١٤٠٠
- ٣ - الروح الاستعمارية في بريطانيا وإيرلندا ١٤١٣
- ٤ - النزعات الاستعمارية في فرنسا وإيطاليا واللقان ١٤٢٨
- ٥ - روسيا تصبح دولة ملكيه عظمى ١٤٣٠
- ٦ - الولايات المتحدة والفكرة الاستعمارية ١٤٣٢
- ٧ - الأساسات المباشرة للحرب العظمى ١٤٣٧
- ٨ - خلاصة للحرب العظمى حتى ١٩١٧ ١٤٤٤
- ٩ - الحرب العظمى منذ أنهار روسيا إلى الهدنة ١٤٥٦

الفصل التاسع والثلاثون : عشرون سنة من التردد

- ١ - دور إجهاد خلقي ١٤٦٤
- ٢ - الرئيس ولسون في فرساي ١٤٧٢
- ٣ - دستور عصبة الأمم ١٤٨٦
- ٤ - معاهدات ١٩١٩ - ١٩٢٠ ١٤٩٠
- ٥ - البلشمية في روسيا ١٤٩٨
- ٦ - دولة إيرلندا الحرة ١٥١٠
- ٧ - الشرفان الأقصى والأدنى ١٥١٧
- ٨ - الدبون والنقود والنشيت ١٥٢٧
- ٩ - الانهيار العظيم في ١٩٢٩ ١٥٣٣
- ١٠ - المأساة الأسانية ١٥٤٦
- ١١ - قيام النازية ١٥٥٣
- ١٢ - العالم ينحدر نحو الحرب ١٥٦١

الفصل الأربعون : الحرب العالمية الثانية

- ١ - مجرى الحرب ١٥٦٨
- ٢ - مستقبل البشرية ١٥٩٥
- جدول تاريخي ١٦٠٥
- التعريف بالمتحجم ١٦٣٧
- كشاف أيجدى للكتاب ١٦٣٨

فهرس الصور والخرائط

- ١٦٩ - صورة كروموبل
- ١٧٠ - خريطة أوربا بعد صلح وستفاليا ١٦٤٨
- ١٧١ - صورة لويس الرابع عشر
- ١٧٢ - خريطة أوربا في ١٧١٤
- ١٧٣ - خرائط تقسيم بولندة
- ١٧٤ - خريطة بريطانيا وفرنسا وأسانيا في أمريكا ١٧٥٠
- ١٧٥ - خريطة المستعمرات الأجنبية الرئيسية بالهند في أواخر القرن ١٧
- ١٧٦ - خريطة الهند في ١٧٥٠
- ١٧٧ - صورة فولتير
- ١٧٨ - خريطة المستعمرات الأمريكية إلى ١٧٦٠
- ١٧٩ - خريطة لمدينة بوسطن وما يتجاوزها ١٧٧٥
- ١٨٠ - خريطة امتداد الاستيطان في الولايات المتحدة ١٧٩٠
- ١٨١ - صورة بنيامين فرانكلين
- ١٨٢ - جورج واشنطن
- ١٨٣ - خريطة خنطة الفرار إلى قارن
- ١٨٤ - خريطة موقف فرنسا الحرب سبتمبر ١٧٩٢
- ١٨٥ - خريطة حملة نابليون على مصر
- ١٨٦ - صورة الإمبراطور نابليون
- ١٨٧ - صورة القيصر إسكندر الأول
- ١٨٨ - خريطة إمبراطورية نابليون حوالى ١٨١٠
- ١٨٩ - خريطة أهم غزوات نابليون
- ١٩٠ - خريطة أوربا بعد مؤتمر فيينا
- ١٩١ - خريطة الوضع الطبيعي لأوربا السياسية
- ١٩٢ - صورة كارل ماركس
- ١٩٣ - صورة روبرت أوين
- ١٩٤ - صورة الأرباب الضليون في القرن التاسع عشر
- ١٩٥ - خريطة أوربا من ١٨٤٨ إلى ١٨٧١
- ١٩٦ - صورة غاربالدو
- ١٩٧ - خريطة ملكة إيطاليا ١٨٦١
- ١٩٨ - صورة بيسارك
- ١٩٩ - صورة نابليون الثالث
- ٢٠٠ - صورة لنكولن وحفيده
- ٢٠١ - خريطة البلقان بعد معاهدة برلين ١٨٧٨
- ٢٠٢ - خريطة لآسيا

كلمة المترجم

اليوم وقد استنوت « المعالم » كتاباً عربياً ، يلتفت إلينا ولز نحن معشر العرب من بين أطباق السماوات العلى التى تسكنها روحه بين العباقره والناغبين ، وميبب بنا « هاؤم اقرءوا كتابيه » .

واليوم يتردد صوته فى أجوائنا التى خفت فيها كل صوت نبيل منذ قرون الإسلام الأولى ، يتردد جهوراً مدوياً كأنه النفخ فى الصور « إني لسعيد إذ أديت نحو الإنسانية واجبي ، وبذلت لها دعوتى ، ورضيت لها مذهبي وفكرتى » .

واليوم يحق لولزان تبوئه البشرية مكاناً عالياً ، وأن تضمه بين أبنائها المخلصين وأفذاذها الخالدين . فقد قضى نصف عمره فى الحذب عليها والمنافحة عن مصالحها والدعوة إلى صلاح أمرها وتمحيض النصيح لها .

واليوم يستطيع ولزان يسامى الهداة الملهمين بأنه ظل يحمل مشعل رسالته مضئاً ذاكياً وهاجاً نصف قرن كامل من الزمان . وهى فترة لم تتح فى العصر الحديث لصاحب دعوة ولم تنهياً لمرشد ذى رسالة .

واليوم يستطيع القارئ أن يستعرض مع ولز مشاهد الحياة منذ هوادى بواكيرها ومستهل تباشيرها ، إذ هى هزة نشأت بإذن العلى القاهر فى ذلك الماء الذى جعل منه كل شىء حى ، هزة لا يكاد يقوم لها أثر ولكنها الأثر كل الأثر ، هزة ما زالت الأيام ترعاها والليالى تهدهدها حتى تمثلت على طول الحقب بشراً سوياً . ذلكم هو الكائن الذى حارت البرية فيه ، والذى هو حيوان مستحدث من جماد كما يقول شيخ المعرة ، هذا الكائن الضعيف بقوته القوى بحكمته الثائر بغريزته المتمرد الجبار بطبيعته القابل للصلاح بفطرته ، هو منذ خليفته مصدر للشغب ومثار للفتن . بسببه فسق الشيطان عن أمرربه فغوى . وحل بالأرض فأفسد فيها وسفك فيها الدماء وكانت من قبله مطهرة من كل رجس ، ولم يزل هذا دأبه حتى يومنا هذا ، تفتنه هوائجه ويزين له حب شهواته ، والله فى عليائه يرسل له رسله وأنبياءه فما كف عن غيه ولا أقنع .

واليوم من لنا بمن يشهد روحه النبيلة أننا أخذنا بدعوته ، وأيقنا أن التاريخ وحده واحدة ، وأن ركب الحضارة نهر واحد متدارك اللجج متلاحق الفيضات ، وأنه إن هذا

يومية أو ألم به شيء من الفينيس ، فلا بد أن يتدفق في ناليه ويعود سيرته من جريان وتلاطم
واضطراب ، وأن البشرية عالم من السوركتلة واحدة متحركة دائماً إلى الأمام في حركة
واحدة تجمعها جميعاً ونجم شملها في عالمنا العصري الذي أصبح بعضه إلى بعض أقرب
من حبل الوريد .

والعصر الذي يستهل به كتابنا هذا كان ، كما يقول بعض أفذاذ الزمان ، أمثل
الأزمان وأسوأها ، وأحكمها وأحقها ، وأشدها نوراً وأشدها حلوة . كان عصر
الإيمان وعصر الكفر والإلحاد ؛ وكان ينطوي على ربيع الأمل والرحاء وخريف اليأس
والقنوط ؛ وكان عصر ملكية عظمى باغية وكثرة عظمى مهيضة ؛ عصر رقي بلغ الذروة
وجهل أنزل الناس إلى الخضيض ؛ وكان دهر عز شامخ واستبداد داس كرامة الإنسان
بالنعال ؛ يوم كان صاحب الدين يلاحق أخاه ليدخله في دينه وإلا فله الموت والعذاب ؛
ويوم كان الغنيّ العزيز ينفى من الصرائب والتبعات ويهبط بها الفقير الخانع تمد بصرك
فتجد في مكان كل شيء وتسرح الفكر فتجد إلى جواره لا شيء .

وجاءت الثورة الفرنسية لأن ذئب الإستقرارية كان ينهش كلب العامة ، فما كاد
الكلب ينتصر ويقطع رأس الذئب وذنبه ، حتى انقلب هو كذلك ذئباً أشد ما يكون
عواء وإزعاجاً ولعلة بلسانه وولوجاً به في دماء الأبرياء .
وأي مبادئ الثورة الفرنسية ؟ أين الإخاء والحرية والمساواة ؟ لقد ذهبت في
أطباق الهواء هباء وراحت طرائق قديداً .

وهذه مغالقة قوى الطبيعة تفتتح منذ أوليات القرن التاسع عشر ، إذ أخذ عقل ذلك
البحار يتسلل إليها رويداً رويداً . فعرف كيف يستذل البخار ، ولم يلبث أن جعله مطية
ذلولاً وعسيفاً ذليلاً . وانتقل منه إلى عناصر الطبيعة عنصراً بعد عنصراً يدرسها ويتحكم
فيها ويستبد بها ، حتى أصبح يفعل بها ما يشاء ويستخدمها أنى شاء .

وأبطره العلم حتى زعم أن ليس فوقه عليم ، واستهوته المادة حتى أنسى الروح
وما لها من قيام معلوم ، ولجج به الطغيان فبغى في الأرض يستعبد أهلها ويتخذ بعضهم
شيعة . وسلط على أخيه الإنسان مناجل القناء ، وأخذ يستغله استغلال السوائم يمتلك
منه وطنه ويستأثر بخيراته دونه بعد أن يفدحه عملاً ، ويحرم عليه نعمة التمتع بما وهبه

- ط -

الله لكافة مخلوقاته من حرية . لأن داعى الاستعمار قد أحصه عن كل ضمير وأعماه .
واحتاج العلم إلى مواد الطبيعة يصنعها ويبدعها ، فإذا استوت سلعة مصنوعة
استوجبت سوقاً يتلقفها . وبشمت أوربا بما أنتجت لها دواليب المصانع فخرجت تهرول
تلتمس مشترياً . ونحول الشراء والبيع في أقطار الشرق المنكودة من السلع إلى
الشعوب ، فحيثما حل الأوربي فثم الاستعمار الغيظ . وتلفتت دول أوربا بعضها إلى
بعض ، فإذا بعضها قد سبق وأرسى أسسه ووطد في أقطار العالم أقدامه ، وإذا بعضها
الآخر قد تخلف . وثار في النفوس ما ركب فيها من حشع . فالسابق يريد أن يستأثر ،
واللاحق يبتغى لقمة يسد بها جوعته . فأما من عدا الأوربيين فتعسا لهم وثبوراً .

فهذا الأسود المسكين وذاك الأصفر أو النحاسي المنكود ! ما بالهم يظن إليهم
الأبيض كأنهم من حثالة السوائم ، أو من خشاش الأرض ؟ وفيهم الضن بالعلم عليهم
والاستئثار به دونهم حتى لا يقولوا به فينازعوه سيادته التي زعم أن الله آثره بها وحده ؟
وهذه بريطانيا لماذا تثب على مصر فتحرمها نعمة الحرية بدرية واهية ، والله يعلم
والناس يعلمون أن الحقيقة غير الذريعة ، وأن الهدف إن هو إلا فتح السوق ، وقطع
الطريق ، والاستئثار بما في البلاد من خير وثمار

وكيف يكون النفط في أرض إيران ومالكنته الحكومة البريطانية مستخفية من وراء
تلك الشركات ، وما هي بشركات ولكنها خدع وذر للرماد في العيون .

والإنسان لا جرم يظن أن رآه تقوى فيعود بهذه القوة على إخوانه من بنى الإنسان
حرباً يهزمه فيها ويفتك به . ولا يطبق المغلوب على الهزيمة صبراً ، فهو يترسد الغالب
ويتربص به الدوائر ، ويعده له معدات الفتك والفناء ، ويستخدم له ما استطاع من
وسائل العلم والعلماء ، ثم ينفجر بها حرباً ضروساً عاتية ، يريد أن يجعلها للأولى الجولة
الثانية ، ولم يدر أنه هدم الكون على أعدائه ونفسه وسعى بيديه إلى حفر رمسه ، فإذا
انقضت الجولة الثانية كرسست جهود العالم للثالثة وأعد لها من المبيدات والمهلكات
ما لا يتصوره عقل ، وما كان يعد قبل ذلك من بعيد الخيالات . وانقسم العالم كدأبه
فإذا هو محور وديموقراطية ، ثم أخذ الطرفان بعضهما بتلاييب بعض ، هذا ينسف
وذاك يدك ويقصف ، حتى استلقت البشرية بأجمعها جريحة مهيضة ضعيفة دامية ،
قد نزت من الدماء ما لا قبل للأيام برده ، وأزهقت من الأرواح شباباً ما كان أجدره

— ي —

بأن يحيا لبسعد بالحياة ، وما كان أشد حاجة العالم إلى سواعده الفتية في البناء والتعمير
لا في الفتك والتخريب .

والمالية والملكية والنقود ، ما خطبهن وما بال آثارهن عميقة في حياة الفرد
والجماعة ؟ وما بالهن ينتجن المشاكل الاجتماعية والمذاهب الاقتصادية المتناحرة
والمعسكرات الشيوعية والرأسمالية المتقاتلة ؟ وما بالهن يحيرن الإنسان ويبلبلن فكره
ويذهبن به كل مذهب ؟ وهل من سبيل إلى علاج لدأهن الويل ؟

* * *

ألا إن البشرية أصبحت مخيرة بين أمرين فيما أن تأتلف فتعيش أو تختلف فتهلك .
على البشرية أن تأتلف مكونة حكومة اتحادية للعالم أجمع ليس فيها قوى ولا ضعيف
ولا استعمار ولا مستعمرات ، بل تكون كلها الولايات العالمية المتحدة ، كل دولة لها
حكومتها وإدارتها الداخلية ، وكل دولة منهن خاضعة لتلك الحكومة المركزية التي
وظيفتها التصدير والتوريد ، وضبط النظام في البر والبحر والجو ، وإرساء أسس
الديموقراطية الصحيحة ، والاطمئنان على احترام روح الدساتير وإجراء الانتخابات
البرلمانية النزينة وإنتاج المجالس النيابية الممثلة للشعوب أصدق تمثيل ، وتعليم أفراد العالم
قاطبة إلى مستوى موحد عام من العلم .

ألا وإن على البشرية أن تتناسى أحقادها القديمة وتعصباتها الدينية والعنصرية ،
وأن يشعر الجميع أنهم أبناء قرية واحدة كبرى هي هذه الدنيا التي عليها نعيش ،
فما اختلاف الألوان ولا الأدبان بعيب في طبيعتها جميعاً ، ولكن العيب في الناس وفيما
يذهب إليه الناس من مذاهب تنطوى على الغل والحقْد أو التجبر والتحكم ، فالناس
جميعاً إخوان ، والدين بالفطرة خير ، فكيف ينجم عن الخير الشر ؟

إن ولز يقف من كل ذلك موقف المحب المحذر لا موقف المتطير المنذر ، فإن حافزه
حب لا تشاؤم ، ولذا فهو يهدي الناس بوعى وقوة وحمة وإخلاص هي السرفيا أوقى
من بعد الصيت ونباهة الذكر في الناس .

إن ولز هو بشير الإصلاح إلى هذه البشرية المادية . يريد أن يأخذ بيدها إلى قديم
الروحانية وأن يدعوها إلى التخلي عن ذميم الأخلاق وإلى الاستمسك بكرم المبادئ
الخلقية . فالمادية إذا طغت ولدت حرباً ، والروحانية إذا سادت خلقت على الأرض

— ك —

حبة وسلاماً ، وحولتها من دار للشقاء إلى دار نعيم ووثام ، وأعادت إلى الإنسانية فردوسها المفقود ، وسعادت بها الصائغة ، وسلامها المنشود .

ومن عجب أن ولز لا يترك علماً ولا فناً ولا تقدماً ولا أدباً إلا أرخ له وكتب عنه ، ولا حادثة ذات أثر في تاريخ البشرية ولا ملكاً أو عظيماً خلد اسمه في ذاكرة البشر إلا نوه به ناسجاً ذلك كله بهذه المبادئ الإنسانية الرفيعة ومنتجاً منها شيئاً رائع النقش أخاذ الإبداع .

فأنت لا تفف في إعجابك به عند حد ، ولا تثلب حتى تفتنح بوجهة نظره وإخلاصه ، ثم أنت حين تقرأ كتابه وتنعم فيه النظر وتدبر ما فيه من آيات ، تشعر بأن من المحزن حقاً أن عظماء الدول وأصحاب الرأي فيها لم يأخذوا إلا مؤخرراً جداً بهذه المبادئ النبيلة التي دعت إليها الأديان السماوية قديماً والتي يبثها ولز في كل سطر من سطور كتابه . ولكن حسبك عزاء أن ميثاق الأطلسي الذي أصدره روزفلت وميثاق سان فرانسيسكو وحقوق الإنسان تكاد تكون ثمرة المباثره لتعاليم ولز في هذا الكتاب وغيره .

ولا يذهبن عن فطنة القارئ أن ولز كاتب عميق عويص ، يعبر عن فكر عميق عويص ، لذلك نرجو أن يتدبر كل فقرة من فقرات ولز ، وأن يزن بفكره كل كلمة يقرأها فيه ، لأنه مثقف يكتب لكل مثقف مثله . وأنت أيها القارئ — مهما تكن مهنتك أو مزاجك في الحياة — واجد في هذا الكتاب ما يروقك بل ما يروحك ، وواجد فيه حيثما تصفحت فائدة فكرية تعود عليك وواجد أنك كلما أمعنت فيه نظراً زدت منه أثراً .

فن زعم أنه لن يجد التاريخ نقياً صافياً ، منزهاً من كل دخل ، مبرئاً من كل هوى ، مصفى من كل تحيز فليمدد بسبب إلى سماء « المعالم » ؛ ومن كان يريد خلاصة وافية لثقافة الدهور يضمها إلى ثقافته ويزيدها بها صقلاً فلينبهل من مناهل ولز العذبة ؛ ومن كان يريد أن يتعلم كيف يكون مواطناً حراً ذا رأى في إدارة شئون بلاده فليفد من ولز ؛ ومن كان من رجال السياسة يريد أن يتعلم نزاهة الحكم ، وصراحة العمل ، واحترام رأى الأغلبية ، وتقديس الدساتير ، والتخلي عن المكياقلية البغيضة والدس والتآمر — فليتخذ من ولز رائده وهاديه .

لـ

وما أبدع أن تجلس إليا جلسة التلميد الخاشع من أستاذه العظيم ، لكي تخرج بعد ذلك مثقفاً ناصع العقل ، وموالمناً بالعالم رحب الأفق فسيح النظرة ، عديم التعصب ، عارفاً بحقوق وكرامتك مؤدياً لواجبك ومؤمناً بالديموقراطية .

وبعد فإذا لقي القارئ بعض العسر في استيعاب ولز ومتابعة عميق أفكاره فليصبر وليصابر فإن ما سيبدله في ذلك من جهد واصطبار ثمن قليل لما سيجنيه من التزكى بشمرات ذلك العقل الملهم الفياض .

عبد العزيز نوفيق هاوير

مصر الجديدة في { ٩ أبريل ١٩٤٢
١٤ رجب ١٣٧١

كلمة المترجم للطبعة الثانية

عندما صدرت الطبعة الأولى من هذا الكتاب لبيت اسنجاية جبهة من جمهور القراء من عشاق أدب ولز رثافته ورسالته الإنسانية ، وكان رواج الكتاب في الأقطار الشقيقة أعظم منه في مصر بلدنا العزيز ، وهو أمر عجبت له كثيراً وأسفنت له أكثر ، ويوم صدرت الطبعة الأولى من الكتاب كان فيه من المفاهيم والتعبيرات التقدمية ما أعتقد أنه كان ولا جرم سابقاً لأوانه ففيه مثلاً : التطور والتطوير . والتنمية والتخطيط ، والتأميم والحكم المحلي ، ووحدة البشرية والدولة العالمية المتحدة ، إلى غير ذلك مما كان بعض الناس في العالم أجمع يرفضونه بوصفه من شططحات الخيال أو على الأقل يناقضونه أو لا يسمعون في أبسط الظروف .

ولكن الأيام حققت معظم نبوءات ولز بعد أن ظل زميله ومعاصره برناردشو نفسه يسخر منه ومنها أكثر من نصف قرن . وها هي ذى الإنسانية تنهد اليوم من الحقائق ما كان يعد وهما بعيداً في ١٩٣٠ . فقد انحسر الاستعمار عن إفريقيا بعد أن ركز نفسه فيها واطمأن عند طرده من آسيا ، أنه واحد فيها الأرض الخصبة البكر التي يرتع فيها ويهطع . وأخذت جميع الشعوب تؤمن بنفسيها وتؤمن من ثم بحقوقها ، فتتخذ الديمقراطية أساساً والاشتراكية منهجاً والمساواة بين الطبقات دعامة وتوزيع العلم على الجميع والاعتماد عليه في رفع مستوى المعيشة ركازاً والنهوض باقتصاد الأمة مبدأ وعقيدة . وأخذت المصالح تجمع الأمم في اتجاهات إن كانت ضيقة الأفق الآن وكانت الأغراض منها غير كريمة في بعض الحين ، ففقد أخذ هذان العيان يزايلاهما إلى حد كبير . فهناك السوق الأوروبية (وهي مثل سيئ) وتهدف إلى ما وراءها من الوحدة الأوروبية المنشودة . وهناك وحدة أفريقيا التي بدت نواتها على يد المؤتمر الأفريقي . وهي لن تلبث حتى تجمع بين دولها في الحكومات بعد أن قربت بين أممها الأمانى والآلام وجمعت بينها في الأهداف والخطط السياسية . وهناك وحدة العرب التي التأمت على يد الرئيس جمال عبد الناصر . وهناك الدعوة إلى منع الحرب وإلى الحياد الإيجابي وعدم الانحياز التي تزعمها جمهوريتنا الفتية وتسابق في عقد مؤتمراتها إلى غير ذلك مما يحده القارئ موضعاً في هذا الكتاب كدعوة ومتسلفاً كنبوءة وممثلاً في جو الحياة كحقيقة .

- ن -

وقد نقحت هذه الطبعة، تنقيحاً شاملاً، فضلاً عن أنها ضبطت على أحدث طبعات الكتاب في الإنجليزية (١٩٥٦) . وهى الطبعة التى قال فى مقدمتها المستر رايموند بوستجيت الذى تولى إصدارها إنه جمع فيها كل المواد التى أعلها المؤلف لضمها إلى طبعة حديثة ، كان المؤلف نفسه يز مع إصدارها بجامعة لتعقيباته على أحداث أربعينات القرن . وكان تاريخ صدور الطبعة التى نقلتها إلى العربية (١٩٣٧) فكأنها لم تكن تحتوى على أحداث الحرب العظمى الثانية ، الأمر الذى ألجأنى إلى أن أنتهج نفس السبيل الذى سلكها المستر رايموند بوستجيت حيث نقلت تاريخ تلك الحرب عن كتاب « موجز تاريخ العالم » الذى أصدر المؤلف نفسه طبعة منه قبيل وفاته . كما أكملت ما فى تلك الطبعة من نقص بما نقلته عن المؤلف نفسه وبذلك استكملت تاريخ الحرب العالمية الثانية ، ومن ثم فإن الوضع الجديد لآخر طبعات الكتاب الإنجليزية اقتضى تعديل جميع الأجزاء الأخيرة من الكتاب مرة ثانية . فتعدل الفصل ٣٩ وأضيف الفصل الأربعون وألغى ذيل الكتاب القديم .

وكدأبى فى الطبعة الثانية من أجزاء هذا الكتاب ذيلته بكشاف أبجدى وأضفت إليه من الصور والخرائط ما اقتضته ظروف الحرب الثانية .

ولأشكر للسادة أعضاء لجنة التأليف والترجمة والنشر جميل عنايتهم بهذا الكتاب الذى يمثل الثقافة الرفيعة والفكر التقدمى الكريم ولا يسعنى إلا أن أبذل الشكر جزيلاً عاطراً إلى الأستاذ الكبير محمد فريد أبو حديد على عنايته الكريمة بفحص هذه الطبعة وإسداء التوجيهات المرشدة . ولأختتم كلمتى هذه أؤكد للقارئ أنى أفدت من نقل الكتاب فائدة ثقافية وفكرية ومذهبية اشتراكية ديمقراطية ، أرجو أن تعود على كل من يطلع عليه من أبناء الضاد .

كما أنى أشهد القارئ أنى أنارق ولنز فراق الأسف راجياً أن يما الله فى الأجل حتى أرى رسالته قد تحققت ودعوته قد آمن بها الناس جميعاً وحتى أستطيع أن أظهر الطبعة الثالثة من الكتاب فى مجلد واحد يستعرض به القارئ موكب الحضارة الإنسانية متكاملة بين دفئى سفر محدود .

والله الموفق للسداد

ع . ن . ج .

مصر الجديدة فى ١٤ يناير ١٩٦٥

الكتاب الثاني

عصر الدول العظمى

الفصل الرابع والثلاثون

أمراء وبرلمانات ودول

- ١ - الأمراء والسياسة الخارجية .
- ٢ - الجمهورية الهولندية .
- ٣ - » الإنجليزية .
- ٤ - انقسام ألمانيا واضطرابها .
- ٥ - أبهة الملكية العظمى في أوروبا
- ٦ - الموسيقى في القرنين السابع عشر والثامن عشر .
- ٧ - التصوير في القرنين السابع عشر والثامن عشر .
- ٨ - نمو فكرة الدول العظمى .
- ٩ - جمهورية بولندا المتوجة ومصيرها .
- ١٠ - أول تخاطف على الإمبراطوريات وراء البحار .
- ١١ - بريطانيا تسود الهند .
- ١٢ - تقدم روسيا إلى المحيط الهادى .
- ١٣ - رأى جيون في العالم في ١٧٨٠ .
- ١٤ - الهدنة الاجتماعية تشارف نهايتها .

١ - الأمراء والسياسة الخارجية

تبعنا في الفصل السابق بزوغ فجر مدنية جديدة ، هي المدنية ذات الطابع الحديث التي أصبحت في العصر الحالى تعم العالم أجمع . وهى لا تزال إلى الآن شيئاً ضخماً لم تستوله قسماً ، ولم تتخط في يومنا هذا بواكير أدوار النمو والتطور . وشهدنا فكركى العصور الوسطى عن الإمبراطورية الرومانية المقدسة وعن الكنيسة الكاثوليكية - بوصفهما صورتين للقانون والنظام العام - تذويان - عند مستهل ذلك الفجر . وهما إنما تزولان من الوجود بحكم نوع من الضرورة قضت بذلك حتى يتهيأ للناس معاودة صوغ الأفكار الداعية إلى قيام قانون واحد ونظام واحد صوغاً جديداً يشمل العالم برمته . وبينما كان التقدم يلم بكل ميدان من ميادين المصالح الإنسانية الأخرى ، جاء زمان أدى فيه زوال هاتين الفكرتين السياسيتين العامتين وهما الكنيسة والإمبراطورية ، إلى معالم تاريخ الإنسانية جء -

تدلى الأوضاع السياسية إلى مجرد الملكية الاستبدادية المطلقة وإلى القومية الملكية ذات الطراز المقدوني .

وجاءت فترة توقف فيها بالفعل تماسك الروابط الإنسانية ، وهى طور من تلك الأطوار التى كان يسميها كتاب الحوليات^(١) من الصينيين « عصور الاضطراب » . ولبت فترة التوقف هذه أمداً يعادل المدة الممتدة بين سقوط الدولة الرومانية الغربية وبين تنويع شermann فى روما . وما زلنا حتى اليوم نعيش فى ظلالها ولعلها أشفت على نهايتها . وأقول « لعلها » لأننا لانستطيع حتى الآن أن نجزم بذلك . وكانت الأفكار المسيطرة القديمة قد تحطمت ، وظهر خليط من المشروعات والمقترحات الجديدة غير المجربة أخذ يبلبل عقول الناس وأفعا لهم ، لذا اضطّر العالم فى الوقت نفسه أن يرتد على عقبه فيطلب الزعامة على أساس التقاليد القديمة : تقاليد الأمير الفرد . ذلك أن الناس لم يكن أمامهم من محجة بيئة المعالم يستطيعون أن يضربوا فيها بقدم ، وكان الأمير بين أيديهم .

شهدت خاتمة القرن السادس عشر أرجاء العالم كافة ، وقد سادتها الملكية التى تنزع إلى الحكم المطلق . فكانت ألمانيا وإيطاليا مقسمتين إلى رقاع صغيرة من الإمارات الاستبدادية (الأوتوقراطية) . وكان الحكم فى أسبانيا استبدادياً بالفعل . ولم يصل العرش يوماً فى إنجلترا إلى مثل قوته آنذاك ، حتى إذا تقدم القرن السابع عشر كانت الملكية الفرنسية قد أصبحت على الأيام أعظم دولة فى أوروبا وأشدّها تماسكاً . وما نحن بقادرين على أن نسجل هاهنا أطوار رفعتها وما مر بها من تقلبات .

وكانت تحتشد فى كل بلاط زمر من الوزراء يلعبون دوراً مكيفاً ضد منافسيهم فى الدول الأخرى . والسياسة الخارجية هى الوظيفة الطبيعية للبلاط والملك . ويكاد وزراء الخارجية يكونون أهم الشخصيات البارزة الزعيمة فى تاريخ القرنين السابع عشر والثامن عشر كله . وهم الذين دأبوا على إلقاء أوروبا فى أتون حُمى من الحروب .

(١) كتاب الحوليات (Annals) هم الذين يدونون التسجيلات السنوية للأحداث .
(المترجم)

وكانت نفقات الحروب في ازدياد باهظ ، فلم تعد الجيوش بعد مكونة من مجندين غير مدربين ولم تعد جموعاً من فرسان الإقطاع يجلبون معهم خيلهم وسلاحهم وأتباعهم ، بل أخذت تشتد حاجة هذه الجيوش إلى المدفعية ؛ وأصبحت تتكون من جنود يتناولون أجوراً يلحون في طلبها ؛ كانوا جنوداً محترفين متأئين حذاقاً ؛ يقومون بالحصارات الطويلة ، ويحتمون إقامة التحصينات المحكمة . فزادت نفقات الحرب في كل مكان واستدعت الزيادة المستمرة في فرض الضرائب .

وهنا حدث أن اشتبكت هذه الملكيات ، ملكيات القرنين السادس عشر والسابع عشر — في نزاع بينها وبين قوى للحرية جديدة غير مكتملة النضج في المجتمع . إذ تلفت الأمراء حولهم فوجدوا أنفسهم لا يتحكمون في حياة رعاياهم ولا أموالهم . بل وجدوا مقاومة مزعجة للضرائب التي كانت ضرورية لا مندوحة عنها إذا شاءوا لا اعتداءاتهم ومخالفاتهم السياسية أن تتواصل . وأصبحت الشؤون المالية شبحاً كريهاً في كل قاعة يجتمع فيها مجلس . وكان العاهل من الوجهة النظرية هو المالك لبلاده . فقد أعلن جيمس الأول ملك إنجلترا (١٦٠٣) أنه « لما كان من الكفر والتجديف أن يعترض الناس على قدرة الله ، فإن من الوقاحة والاحتقار الكبير أن يعترض أحد الرعايا على ما يستطيع الملك فعله ، أو أن يقول إن ملكاً لا يستطيع أن يفعل هذه أو تلك » .

ولكنه وجد في الواقع — كما قدر لولده شارل الأول (١٦٢٥) أن يجد بصورة أقوى أثراً مما وجد أبوه — أن في ملكه عدداً كبيراً من أصحاب الأرض والتجار ، وهم أشخاص لهم وزنهم ولهم ذكاؤهم ، قد رسموا حداً محدوداً لمطالب الملك ووزرائه ومقتضياتهم . كانوا على استعداد للرضا بحكمه إذا مكّنوا هم أنفسهم أن يكونوا ملوكاً وأقبالا لأراضيهم وأعمالهم وتجارتهم وما إلى هذا بسبيل . ولكنهم لا يقبلون عدا ذلك شيئاً .

وكان هناك تطور مماثل لهذا في كل أرجاء أوروبا . فمن دون الملوك والأمراء كان هؤلاء الأقبال الصغار ، وأعني بهم أصحاب الأملاك والنبلاء والمواطنين (المداينين) الأغنياء ومن إليهم ، الذين كانوا يظهرون آنذاك لمولاهم الأمير نفس المقاومة التي

أبداها ملوك ألمانيا وأمراؤها للإمبراطور . وكانوا يرمون إلى تحديد الضرائب بقدر ما كانت تضغط على أشخاصهم ، وأن يكونوا أحراراً في ديارهم وضياعهم . وكان من أثر انتشار الكتب والقراءة وازياد الاتصال بين الناس ، أن تمكن هؤلاء الأقبال الصغار ، أقبال الأملاك والتجارة من إنشاء مجتمع فكري متطور ودعم أركان المقاومة فيه بصورة لم يكن لها نظير في أية مرحلة من المراحل التي مرت بتاريخ الإنسانية كله . كانوا نزاعين في كل مكان أن يقاوموا الأمير ، ولكنهم لم يجدوا في كل بقعة نفس اليسر في المقاومة المنظمة . فلن الظروف الاقتصادية والتقاليد السياسية في الأراضي المنخفضة وإنجلترا جعلت هذين القطرين أول من جعل الحصومة بين العاهل والمالك موضع البحث للوصول إلى حل ناجع لها .

وفي بادئ الأمر كان « جمهور » القرن السابع عشر هذا ، جمهور أصحاب الأملاك ، قليل الاحتفال بالسياسة الخارجية . ذلك أنهم لم يستشعروا أول الأمر كيف أنها تؤثر فيهم . فلم يريدوا أن يشغلوا أنفسهم بها فقد سلموا بأنها شئون الأمراء والملوك . ومن ثم لم يحاولوا قط التحكم في معقدات السياسة الخارجية ، ولكن حدث أنهم اشتبكوا مع النتائج المباشرة لهذه المعقدات ، فقد اعترضوا على الضرائب الفادحة ، وعلى التدخل في شئون التجارة ، وعلى الحبس التعسفي ، وعلى تحكم الملك في الضمائر . وعلى أساس هذه المسائل نزلوا حومة الكفاح ضد التاج .

٢ - الجمهورية الهولندية

كان انفصال الأراضي المنخفضة عن الملكية المطلقة بداية سلسلة من تلك المنازعات التي استمرت طوال القرنين السادس عشر والسابع عشر . بيد أنها كانت تختلف في تفاصيلها اختلافاً بالغاً تبعاً للخصائص المحلية والعنصرية ، ولكنها كانت كلها من حيث الجوهر تمرداً على السلطان الشخصي « للأمير » وعلى توجيهه السياسي والديني .

كانت منطقة الراين الأدنى بأكملها مقسمة في القرن الثاني عشر بين عدد من

صغار الحكام ، وكان السكان من أرومة ألمانية دنيا (Low German)^(١) من دونها أساس كلتيّ قديم ، وتحالطهم عناصر دانيمركية متأخرة عهداً شديدة الشبه بما في بلاد الإنجليز من خليط . وكان الإفريز الجنوبي الشرقي لهذا الإقليم ينطق بلهجات فرنسية ؛ على حين تنطق كتلة السكان بلغات فريزية وهولندية ولغات ألمانية دنيا أخرى . ولقد ظهرت الأراضي المنخفضة ظهوراً كبيراً في الحروب الصليبية . فإن جود فرى البويوني (of Bouillon) الذي استولى على بيت المقدس (في الحملة الصليبية الأولى) كان بلجيكيّاً . كما أن مؤسس ما يسمى بالأسرة اللاتينية في القسطنطينية (الحملة الصليبية الرابعة) هو بالدوين أمير فلاندر . (وإن أطلق عليهم اسم الأباطرة اللاتينيين ، لأنهم كانوا يظهرون الكنيسة اللاتينية) .

ونمت مدن ضخمة في الأراضي المنخفضة إبان القرنين الرابع عشر والخامس عشر : منها غنت وبروج وإيپر وأترخت وليدِن وهارلم وما إليها . وتطورت في هذه المدن « حكومات مجالس بلدية » شبه مستقلة وطبقة من رجال المدن المتعلمين . ولن نشغل القارئ بما سنع بين الأسرات المالكة من صدف ربطت شئون الأراضي المنخفضة ببورغنديا (فرنسا الشرقية) ، وانتهت إلى انتقال السلطان الأعلى عليها إلى ميراث الإمبراطور شارل الخامس .

وفي عهد شارل انتشرت إلى الأراضي المنخفضة المبادئ البروتستانتية التي كانت عند ذاك تعم ألمانيا . واضطهد شارل الناس في شيء من الشدة ، ولكنه ما لبث في (١٥٥٦) ، كما أسلفنا أن ترك الأمر إلى ولده فيليب (فيليب الثاني) . وسرعان ما أصبحت سياسة فيليب الخارجية الناشطة — وقد كان مشتبكاً بحرب مع فرنسا — مصدر شر آخر بينه وبين نبلاء الأراضي المنخفضة وأهل مدنها ، لأنه اضطّر أن يلجأ إليهم طالباً المعونة . فنصب النبلاء العظام أنفسهم على رأس مقاومة شعبية عامة ، يفودهم وليم الصامت ، أمير أورانج ، وكونتا لاجوننت وهورن ، وصار يستحيل فيها التفريق بين الاعتراض على فرض الضرائب والاعتراض على الاضطهاد

(١) راجع ص ١٤٠ ج ١ من المعالم ط ٢ . والأورمة الألمانية الدنيا هي التي كانت تسكن سهل ألمانيا الشامي المنخفض ولغتهم تسمى باللهجة الألمانية الدنيا . (المترجم)

الدينى . وفى أول الأمر لم يكن النبلاء العظام من البروتستانت ، ولكنهم اعتنقوا ذلك المذهب عندما اشتدت حدة النزاع مرارة . أما الشعب فكان من قبل بروتستانتيًا متعصبًا .

وعقد فيليب العزم على أن يحكم الأراضي المنخفضة وضمائر أهلها جميعًا . فأرسل إليهم نخبة مختارة من الجنود الأسبان واستعمل على البلاد نبيلًا اسمه ألفا ، وهو أحد أولئك الرجال « الصارمين » الذين لا تعرف الرحمة إلى قلوبهم سبيلا والذين يحطمون الحكومات والملوكيات . فطفق يحكم البلاد ردهًا من الزمان بقبضة من حديد ، ولكن اليد الحديدية تبث فيما تمسه من جسم روحًا من حديد ، ففي (١٥٦٧) جهرت كل الأراضي المنخفضة بالعصيان . وأخذ ألفا يُعمل القتل والانتهاك والمذابح على غير طائل . وأعدم الكونتان إيجونت وهورن . فأصبح وليم الصامت زعيم الهولنديين الأكبر ، ومليكمهم فى الواقع .

واستمر الكفاح فى سبيل الحرية زمانًا طويلًا يتخلله كثير من التعقيد ، ومن الجدير بالذكر أن العصاة ظلوا متعلقين فى كل أدوار الكفاح بالقول بأن فيليب الثانى إنما هو ملكهم — على شريطة أن يرضى أن يكون ملكًا معقولًا محدود السلطان . ولكن فكرة الملكية المقيدة كانت فكرة كريهة المذاق لدى أصحاب التيجان فى أوروبا وقتذاك ، وأخيرًا دفع فيليب بالمقاطعات المتحدة التى نطلق عليها اليوم اسم هولندا ، إلى النزوع نحو الحكم الجمهورى . وليلحظ القارئ أن ذلك النزوع ظهر فى هولندا وليس فى الأراضي المنخفضة جمعاء . ذلك أن القسم الجنوبى من الأراضي المنخفضة وهو بلاد البلجيكيك كما يسمى ذلك القطر الآن ، ظل حتى نهاية الكفاح ولاية إسبانية وكاثوليكية العقيدة أيضًا .

ويمكن أن يتخذ حصار الكمار (١٥٧٣) كما يصفه موتلى^(١) ، مثالًا على ذلك النضال الطويل الفظيع بين الشعب الهولندى الصغير وبين موارد الاستعمار الكاثوليكي التى كانت ما تزال كبيرة ضخمة . كتب ألفا إلى فيليب يقول :

(١) فى كتابه "Rise of the Dutch Republic" .

« إذا استوليت على آل كمار فلن أدع فيها على قيد الحياة فرداً . ولسوف أضع النصل في كل رقبة . . . » والآن وقد تمت أمام أعينهم مدينة هارلم المجردة من أسلحتها والحاوية على عروشها ، وكأني بها شعباً يتنبأ لهم بمصيرهم ، فإن رجال آل كمار الذين يعدون على الأصابع والذين أغلقوا عليهم أبوابها تهبّثوا لأسوأ الظروف . وكان صديقهم البحر هو مناط أملهم الأكبر . ذلك بأن الفتحات الهائلة التي يمكن بواسطتها غمر المقاطعة الشمالية بغاية السرعة ، لم تكن إلا على مبعده أميال قليلة . فلو أنهم فتحوا هذه البوابات وهدموا بعض جسور الماء لجعلوا المحيط يحارب في صفهم . ومع ذلك فقد كانت موافقة الأهليين لازمة للحصول على تلك النتيجة ، إذ أن تلف كل المحاصيل التي في الحقول يكون عند ذاك محققاً . وكانت المدينة محوطة بالمحاصرين إحاطة وثيقة جعلت من العسير عليهم أن يجدوا رسولا يقوم بتلك المهمة الخطرة . وأخيراً تقدم للقيام بهذه المغامرة نجار يدعى پتر فان درماي .

« وسرعان ما تخرجت الأمور في داخل المدينة المحصورة . فقد كانت تحدث في كل يوم خارج الأسوار مناوشات غير حاسمة . ثم حدث آخر الأمر في اليوم الثامن عشر من سبتمبر أن أصدر الدون فردريك في الساعة الثالثة بعد الظهر أمراً بالهجوم ، بعد ضرب المدينة بالمدافع ضرباً متواصلاً دام اثنتي عشرة ساعة تقريباً . وبالرغم مما مر به من خيرة دامت سبعة شهور في هارلم فإنه ظل يعتقد أن من المحقق أن يأخذ المدينة اكتساحاً . وحدث الهجوم في نفس الوقت على كل من البوابة الفريزية والبرج الأحمر في الجهة المقابلة . وكان على رأس الهجوم فرقتان من نخبة الجند وصلتا وشيكا من لومبارديا ، وهما تزلزلان الجو بصيحات أفرادهما معبرين عن ثقتهما بنصرهن قريب . وكانت تظاهرن قوة جارفة من الجنود المنظمة . بيد أنه لم يحدث قط في تاريخ هارلم القريب ، أن قوبلت هجمة بصدور أثبت جناحاً وأشجع أفئدة . فإن كل رجل به نسمة من حياة كان متخذاً مكانه على الأسوار . وكانت الجماعات المهاجمة تقابل بالمدافع والقرايبات والغدارات ؛ وكان الماء الحار والقار والزيت المغلي والرصاص المصهور والجحر الحى تصب عليهم في كل لحظة صباً . وكانت مئات من الأطواق المقيّرة والحماة تلقى بمهارة حول أعناق الجنود ، الذين حاولوا عبثاً أن

يخلصوا أنفسهم من تلك الأطواق النارية ، في حين أنه لم يكن أحد من المهاجمين يكاد يضع قدمه على الثغرة حتى يتلقاه سكان المدينة بالسيوف والخناجر وينكسوه على أم رأسه في الخندق .

« وتجدد الهجوم ثلاث مرات بحدة وقوة لا تلبس وصد كذلك ثلاث مرات بمضاءة وجلد لا هوادة معهما . واستمرت العاصفة هوجاء أربع ساعات . ولم يغادر واحد من المدافعين مكانه طيلة تلك المدة ، إلا أن يسقط عنه صريعاً أو جريحاً . ونفخ في البوق نفخة الارتداد ، وانسحب الأسبان عن الأسوار مندحرين تمام الاندحار ، مخلفين وراءهم في الخنادق ما لا يقل عن ألف قتيل ، أما أهل المدينة فلم يقتل منهم إلا ثلاثة عشر من السكان وأربعة وعشرون من الحامية وقد روى حامل العلم سوليز الذى صعد على ثغرة السور مدة لحظة قصيرة ونجا بحياته بمعجزة حين قذف به من الأسوار ، أنه لم ير عندما أشرف على المدينة خوذة ولا سرجاً : بل شهد نفرأ من الناس البسطاء المظهر يرتدون عموماً ثياب صيادى السمك . ومع ذلك فإن هؤلاء الصائدين البسطاء قد دحروا محنكة جنود ألفا .

« وفي نفس الوقت كان الحاكم سونوى قد فتح كثيراً من جسور الماء ، فأخذت الأرض في المنطقة المجاورة للمعسكر تصبح بركا ، وإن كان الفيضان الداهم لم يحدث حتى آنذاك . ودب ديبب القلق في الجنود وامتألت نفوسهم بالشكس والتمرد . ولم تذهب مهمة النجار عبثاً »

فإنه عاد إلى المدينة يحمل بعض الرسائل . ولكنه فقد تلك الرسائل إما على وجه الصدفة أو التدبير — وهو في طريقه إلى المدينة — فوقعت في يد ألفا . وكانت تحوى وعداً صريحاً من دوق أورانج بغمر البلاد بالماء غمراً يجعل الجليش الأسباني بأكمله من المغرقين . وكان هذا الأمر يغرق في نفس الوقت معظم محصول الهولنديين وماشيتهم . ولكن ألفا عندما اطلع على تلك الوثائق لم ينتظر حتى تفتح عليه بوابات أخرى . وسرعان ما أخذ رجال الكمار البواسل يتصايحون ويهتفون — حين شهدوا الأسبان بأخذون أهبة الرحيل والتفرق .

١٠٧٥

واتخذت حكومة هولندا المحررة شكل جمهورية من الأشراف تحت رئاسة بيت أورانج . وكان « مجلس الطبقات States General » أقل تمثيلا لهيئة المواطنين بأكملها من البرلمان الإنجليزي ، الذى سنقص عليك فيما يلى قصة كفاحه مع التاج .

ومع أن أسوأ أدوار الكفاح انقضت بعد آلكمار ، فإن هولندا لم تصبح مستقلة بالفعل حتى (١٦٠٩) ، ولم يعترف باستقلالها اعترافاً تاماً كاملاً إلا فى معاهدة وستفاليا فى (١٦٤٨) .

٣ - الجمهورية الإنجليزية

يبدأ النزاع الصريح الذى قام به مالك العقار مناهضاً عدوان « الأمير » فى إنجلترا منذ عهد قديم يرجع إلى القرن الثانى عشر . ودور الكفاح الذى علينا أن ندرسه الآن إنما هو الذى ابتدأ بمحاولات هنرى السابع والتامن وخلفائهما ، إدوارد السادس ، ومارى وإليزابيث جعل حكومة إنجلترا « ملكية شخصية^(١) » من الطراز الشائع بالقارة الأوروبية . واشتد الكفاح حدة عندما حدث تبعاً لمصادفات المصاهرة فى الأسرة المالكة ، أن أصبح جيمس ملك اسكتلندا ، هو جيمس الأول ملك إنجلترا واسكتلندا على السواء (١٦٠٣) ، وأخذ يتكلم على المنوال الذى اقتبسناه عنه آنفاً عن « حقه الإلهى » فى أن يفعل ما يشتهى .

ولكن لم يحدث قط أن كان طريق الملكية الإنجليزية سهلاً معبداً . ففى كل العاهليات التى أقامها غزاة الإمبراطورية الشماليون والألمانيون كان هناك تقاليد لجمعية شعبية تجمع ممثلى الشعب ذوى النفوذ من الرجال لحفظ حرياتهم العامة ، ولم تكن تلك الجمعية أنشط فى أى منها حياة منها فى إنجلترا . فكانت لفرنسا تقاليداً الخاصة بجمعية « الطبقات الثلاث Estates » وكان لأسبانيا كورتيزها . بيد أن الجمعية الإنجليزية كانت تتسم بسمة خاصة من ناحيتين : أولاهما أنها كانت تسند إلى

(١) الملكية الشخصية أو الفردية هى الاستبدادية المطلقة التى يجتمع فيها الحكم فى شخص الملك .
(المترجم)

تصريح يتخذ صفة الوثيقة
ويحتوى على حقوق معينة
أولية وعامة ؛ وثانيهما أنها
كانت تضم « فوارس
مقاطعات » منتخبين كما تضم
نواباً عن المدن منتخبين
أيضاً . وكانت الجمعيتان
الفرنسية والأسبانية تتألفان
من العنصر الأخير دون
الأول .



(شكل ١٦٩) صورة كرموبل

وهاتان الخصيصتان جعلتا للبرلمان الإنجليزى قوة خاصة فى كفاحه مع العرش .
والوثيقة المعنية إنما هى « الماجنا كارتا » أى العهد الأعظم ، وهو تصريح أخذ غصباً
من الملك جون (١١٩٩ - ١٢١٦) ، وهو أخو الملك ريتشارد قلب الأسد
(١١٨٩ - ١١٩٩) وخليفته ، وذلك بعد العصيان الذى قام به البارونات فى (١٢١٥) .
وهو يكرر عدداً من الحقوق الجوهرية التى جعلت من إنجلترا دولة قانون لا دولة ملك .
وهو قد أبى على الملك التسلط على الممتلكات والحرية الشخصية لكل نوع من أنواع
المواطنين - اللهم إلا أن يكون ذلك برضاء نظراء ذلك المواطن .

فأما وجود ممثلى المقاطعة المنتخبين فى البرلمان الإنجليزى - وهى الخصيصة الثانية
فى حالة بريطانيا - فقد نجم عن بدايات بسيطة جداً ، وحيدة لا مضرّة منها . إذ يبدو
أن الفرسان كانوا يستدعون من المقاطعات أو أقسام الريف إلى المجلس الوطنى ليشهدوا
بمقدرة نواحهم على دفع الضرائب . وكان يرفعهم إلى ذلك المكان من هم أدنى منهم مرتبة
من الأعيان وأصحاب الأملاك وشيوخ القرى فى نواحهم فى زمان يرجع إلى (١٢٥٤) ،
فينوب عن كل مقاطعة فارسان . فألهمت هذه الفكرة سيمون دى مونت فورت ،

وكان في ثورة ضد هنري الثالث ، خليفة جون . أن يدعو إلى المجلس الوطني فارسين عن كل مقاطعة ، وممادين لكل مدينة أو بندر انتخا^(١) . وواصل هذا العمل إدوارد الأول خليفة هنري الثالث ، إذ أنه كان يلوح في نظره وسيلة ملائمة تمكنه من الاتصال المالي بالمدن النامية .



(شکل ۱۷۰)

وأبدي الفرسان ورجال المدن في بادئ الأمر قدراً جسيماً من عدم الرغبة في

(١) البندر الانتخابي : لفظة أُطلقتها للدلالة على Borough ومعناها المدينة التي ترسل عنها نوابا في البرلمان . (المترجم)

حضور البرلمان ، ولكنهم أدركوا شيئاً فشيئاً القوة التي يملكوها في اتخاذ رفع الظلم عن الناس شرطاً لمنح الاعتمادات المالية .

وكان هؤلاء ممثلو ملاك العقارات العامة في المدن والريف يسمون باسم « العموم Commons » . وكانوا يعقدون جلساتهم ويتناقشون في الأمور من زمن قديم جداً أو قل منذ البداية ، بمعزل تام عن كبار اللوردة والأساقفة . وهكذا نمت في إنجلترا جمعية نيابية تمثيلية ، هي مجلس العموم ، إلى جانب جمعية أخرى من الأساقفة والنبلاء هي مجلس اللوردة . ولم يكن هناك فارق جوهري عميق يفرق بين هيتي الجمعيتين . إذ أن كثيراً من فرسان المقاطعة رجال لهم قيمتهم ووزنهم ، وربما بلغوا من الثراء والنفوذ مبلغ النبلاء وبينهم كذلك أبناء النبلاء وأشقاؤهم ، على أن مجلس العموم كان في جملة أمره هو الجمعية الأدنى إلى الشعبية .

وأظهر هذان المجلسان منذ البداية ، وبخاصة مجلس العموم ، ميلاً إلى ادعاء الحق الكامل في فرض الضرائب على البلاد . وأخذوا بالتدريج يوسعان دائرة اختصاصهما من النظر في المظالم إلى نقد شئون المملكة كلها .

ولسنا بمتوسمين التقلبات التي ألت بقوة البرلمان الإنجليزي وهيئته إبان حكم ملوك آل تيودور ، (أعنى هنري السابع والثامن وإدوارد السادس وماري وإليزابيث) ، على أنه يتضح للقارئ مما قلناه ، أنه عندما أعلن جيمس استيوارت آخر الأمر ادعاءه الصريح للحكم المطلق الأوتوقراطي ، وجد التجار والنبلاء والاحتلمانية المستقلون الإنجليز ، بين أيديهم وسيلة تقليدية شريفة مختبرة لمقاومته لم يكن عند أي شعب في أوروبا نظير لها .

وهناك خصيصة أخرى للنضال السياسي الإنجليزي ، هي انفصاله النسبي عن الكفاح العظيم بين الكاثوليك والبروتستانت ، وهو الكفاح الذي كانت نيرانه مشبوبة في كل أرجاء أوروبا . حقاً إنه اختلطت بالكفاح الإنجليزي منازعات دينية واضحة المعالم جداً ، ولكنه كان في جوهره نضالاً سياسياً بين الملك والبرلمان ، مجسماً في طبقة المواطنين أصحاب الأملاك الخاصة . على أن الشعب والتاج كانا من الناحية الرسمية

من الآخذين بالإصلاح الديني كما كانا من البروتستانت . نعم إن كثيراً من الناس في الجانب الأول (أعني الشعب) كانوا بروتستانت ، من طراز يحترم الكتاب المقدس ولا يقيم وزناً للنظام الكهنوتي ، وهو الطراز الذي يمثل الإصلاح الديني كما تراه الشعوب ، وأن الملك كان الرئيس الإسمي لكنيسة من نوع خاص تعترف بالعشاء الرباني وتقوم على نظام الكهنوت ، وهي كنيسة إنجليزية رسمية ، التي تمثل الإصلاح الديني كما يراه الأمراء^(١) ولكن هذه الحصومة لم تحجب بأية حال أسس الكفاح الجوهري .

وكان الكفاح بين الملك والبرلمان قد وصل بالفعل إلى دور حاد قبل وفاة جيمس الأول في (١٦٢٥) ، ولكنه لم يبلغ ذروته ، ويصل إلى الحرب الأهلية إلا في حكم ولده شارل الأول . وفعل شارل باضطراب كل ما يتوقع من ملك في ذلك الموقف ، بالنظر إلى قلة الرقابة البرلمانية على السياسة الخارجية . فإنه زج بالمملكة في حرب مع كل من أسبانيا وفرنسا ، ثم جاء يطلب من بلاده المدد آملاً أن يتغلب الشعور الوطني على ما توقّر في النفوس من كراهية طبيعية لإعطائه المال . فلما أن رفض البرلمان إمداده بالمال ، طلب من كثير من رعاياه بعض القروض ، وحاول أن يفرض على الناس ألواناً مماثلة من هذه الفرائض غير القانونية .

فأدى هذا بالبرلمان إلى إصدار وثيقة لا تنسى أبداً (١٦٢٨) ، هي « ملتمس الحقوق Petition of Rights » ذكره فيها بالعهد الأعظم وأكد القيود القانونية على سلطة الملك الإنجليزي ، وأنكر حقه في جباية الفرائض من أي إنسان أو سجنه أو معاقبته ، أو أن ينزل جنوده على حساب الناس ، — دون اتخاذ الإجراءات القانونية الواجبة .

إن ملتمس الحقوق عرض قضية البرلمان الإنجليزي . والميل إلى عرض القضية ، كان على الدوام خصيصة من الخصائص الإنجليزية الملحوظة جداً . وعندما كان

(١) انظر ص ٩٧٩ ج ٣ من المعالم الطبعة الثانية .

الرئيس ولسون أثناء الحرب العظمى (١٩١٤ - ١٨) يمهّد لكل خطوة من خطوات سياسته « بمذكرة » ، كان يسير في نهج أعظم التقاليد الإنجليزية وقاراً .

وتصرف شارل مع هذا البرلمان تصرف المتعسف المتغطرس - فحله في (١٦٢٩) ، وظل أحد عشر عاماً يحكم بلا برلمان . ويجمع الضرائب جمعاً غير قانوني ، ولكنها لم تكن تفي بغرضه وإذا أدرك أن في الإمكان أن تستعمل الكنيسة أداة لنشر الطاعة ، عين لود رئيساً لأساقفة كانتربوري وبدا يصبح على رأس كنيسة إنجلترا ، وهو رجل من كبار رجال الكنيسة عدواني الطبع ، وينطوى على كثير من صفات القسيس ومن يؤمنون « بالحق الإلهي » .

وفي (١٦٣٨) حاول شارل أن يبسط طابع الكنيسة الإنجليزية الذي يجمع بين البروتستانتية والكاثوليكية ، إلى مملكته الأخرى الإسكتلندية ، التي كان تباعدها وانفصالها عن الكاثوليكية أتم وأشمل ، والتي كانت تتخذ صورة من المسيحية لا تقوم على نظام كهنوتي ولا تعترف بالعشاء الرباني ، وهي الكنيسة البريزبتريرية Presbyterian^(١) ، التي تأسست بوصفها الكنيسة القومية . فثار الإسكتلنديون ، وتمردت الجنود الإنجليزية التي جمعها شارل لمقاتلتهم .

وكان الإفلاس --- وهو في كل الأزمان النتيجة الطبيعية لكل سياسة خارجية طموح - قاب قوسين منه أو أدنى . واضطر شارل حين لم يعد لديه مال ولا جنود جديرة بالثقة ، أن يدعو آخر الأمر برلماناً (١٦٤٠) . ولكنه حل ذلك البرلمان في السنة نفسها ، وهو المعروف بالبرلمان القصير . ثم حاول الاستعانة بمجلس من النبلاء في يورك (١٦٤٠) ، ثم استدعى في نوفمبر من نفس السنة آخر برلمان له .

واجتمعت هذه الهيئة ، وهي البرلمان الطويل ، وهي في حالة تهيؤ للنضال . فقبضت على لود ، رئيس أساقفة كانتربوري ، واتهمته بالخيانة . ونشرت ما يسمى .

(١) البريزبتريرية هي كما ترى الكنيسة الإسكتلندية الرسمية . وهي تقوم على إدارة الشؤون الدينية والكنيسة بواسطة الكهول والشيوخ سواء أكانوا من رجال الدين أم لم يكونوا . وقد قامت على تعاليم جون كالفن . (المترجم)

« بالاعتراض الأكبر » ، وكان تقريراً مفصلاً شاملاً لقضية البرلمان ضد شارل . وأصدر البرلمان مشروع قانون (Bill) — اتخذ به التدابير اللازمة لاجتماع البرلمان مرة في كل ثلاث سنين على الأقل ، سواء استدعاه الملك أم لم يستدعه . وحاكم أكابر وزراء الملك الذين أعانوه على الحكم مثل ذلك الزمان الطويل بلا برلمان ، وبخاصة الإيرل سترافورد .

فدبر الملك إنقاذاً لاسترافورد — مؤامرة للاستيلاء بالجيش فجأة على لندن . ولكن المؤامرة اكتشفت ، وسارع البرلمان إلى إصدار مشروع القانون القاضي بإدانة سترافورد وسط عاصفة عظيمة من الهياج الشعبي . ودب الخوف من جماهير لندن إلى قلب الملك شارل الأول ، الذي لعله كان من أسفل من جلسوا على العرش البريطني وأشدهم خيانة . ولكي يموت سترافورد حسب الأصول القانونية السليمة ما لم يكن بد من أن يوافق الملك على القرار . فوافق الملك وقطعت رأس سترافورد .

وكان الملك في الوقت نفسه ياتمر في الخفاء ويبحث عن المعونة في مواطن غريبة ، ينشدها بين الإيرلنديين الكاثوليك وبين الخونة من الإسكتلنديين . وأخيراً لجأ إلى مظهر للعنف ضعيف . فذهب إلى دار البرلمان ليعتقل خمسة من أنشط خصومه . فدخل إلى مجلس العموم واعتلى منصة الخطابة . وكان مستعداً لإلقاء خطبة جريئة عن الخيانة ، ولكنه عندما رأى أماكن خصومه الخمسة خالية ، أرتج عليه واضطرب وتكلم في جمل متقطعة . إذ علم أنهم ارتحلوا عن مدينته الملكية وستمنستر ، وبلحوا إلى مدينة لندن التي كان لها مجلس بلدية يحكمها حكماً ذاتياً . وتحدثه لندن . وبعد ذلك بأسبوع قام رجال حرس لندن المدربون بتوصيل هؤلاء الأعضاء الخمسة إلى دار البرلمان بوستمنستر في موكب عظيم من مواكب النصر ، ولكي يتجنب الملك جو الصخب والعداء الذي صحب الحادث ، غادر قصر هوايت هول إلى وندسور . وعندئذ استعد كل من الفريقين صراحاً للحرب .

وكان الملك هو الرئيس التقليدي للجيش وقد جرت عادة الجند بطاعة الملك . وكانت لدى البرلمان موارد أعظم . ورفع الملك لواءه في نوتنجهام في مساء يوم مظلم عاصف من أغسطس (١٦٤٢) .

وعقبت ذلك حرب أهلية طويلة عنيدة ، كان الملك فيها مستحوذاً على أكسفورد والبرلمان على لندن . وكان النجاح يتنقل من جانب إلى جانب ، ولكن الملك لم يستطع قط أن يطبق على لندن ، كما لم يستطع البرلمان أن يستولى على أكسفورد . وكان يقل من عزم كل من الخصمين وجود أتباع من المعتدلين الذين « لم يكونوا يحبون الاشتطاط في الأمور » .

وبرز من بين قادة البرلمان ، رجل اسمه أوليفر كرومويل ، كان قد جمع ثلة من الفرسان وارتفع إلى رتبة جنرال . ويصفه معاصره اللورد وارويك بأنه رجل بسيط يرتدى بدلة من قماش عادى صانعها خياط « رينى ردىء » . لم يكن مجرد جندى مقاتل ، بل كان منظماً عسكرياً ، أدرك ما عليه كثير من القوات البرلمانية من حالة دنية ، ونصب نفسه لإصلاحها . وكان لفرسان الملك تلك التقاليد الحميلة ، تقاليد الفروسية والولاء . وكان البرلمان شيئاً جديداً عسيراً على الأفهام ليست له تقاليد تقارن بتلك . قال كرومويل « إن معظم جنودكم إنما هم خدمة وسقاة كهول واهنو القوى ، فهل تظنون أن أرواح مثل هؤلاء الأشخاص الأسافل الأدنياء ، تستطيع يوماً أن تقاتل الحنطانية الذين ملأ أعطافهم الشرف والشجاعة والعزم ؟ » .

ولكن هناك شيئاً أقوى وأحسن من الفروسية الجذابة في العالم ، وذلك هو الحراسة الدينية . ولذا نصب كرومويل نفسه ليجمع فرقة من « الرباينيين الأتقياء » . وكان لا بد لهم من أن يكونوا رجالاً جادين معتدلين في حياتهم . وكان لا بد لهم فوق كل شيء من أن يكونوا رجالاً ذوي عقيدة قوية . فتجاهل جميع التقاليد الاجتماعية وجمع ضباطه من بين كل طبقة . قال : « إنى لأفضل أن أحصل على ضابط بسيط يرتدى بدلة ريفية حمراء ، ويعرف الذى من أجله يحارب ويحب ما يعرف ، على ما تسمونه چنتلماناً وليس بشيء عدا ذلك » .

واكتشفت إنجلترا بين ظهرانيها قوة جديدة هي الحرس الحديدى . كان السعاة والحوذية وربابنة السفن يتولون فيها قيادة عليا ، إلى جوار أبناء البيوتات . وأصبحوا النموذج الذى حاول البرلمان أن يبنى على منواله من جديد جيشه بأكمله . وكان

الحديديون هم العمود الفقري « للنموذج الجديد » . واجتاحت هؤلاء الرجال أمامهم فرسان الملك من مارستون مور إلى نيسي . وأخيراً وقع الملك أسيراً في قبضة البرلمان . ورغم ما جرى بذلت محاولات لتسوية الأمور هدفها ترك الملك في عرشه بشكل ما ، ولكن شارل كان رجلاً قدرت عليه العواقب المحزنة ، فهو لا ينقطع عن تدبير الخطط ؛ « رجلاً بلغ من إفك أنه لا يجوز أن يثق به إنسان » . وكان الإنجليز ينساقون نحو موقف جديد في تاريخ العالم ، وجب فيه أن يحاكم ملك على خيانتة شعبه وأن يقضى فيه بحكم .

والحق أن جميع الثورات — شأن هذه الثورة الإنجليزية — إنما تدفعها نحو العجلة المتهورة تصرفات الحاكم ومحاولته استعمال القوة والحزم استعمالاً يتجاوز حدود القانون . وتنقذ معظم الثورات بحكم نوع من الضرورة نحو خاتمة أشد تطرفاً مما كان يستشف من الخلاف الأصلي . ولم تكن الثورة الإنجليزية استثناء لهذا الأمر . والإنجليز بطبعهم شعب ميال إلى الصلح والتفاهم بل هم قوم مترددون ، والراجح أن الغالبية العظمى منهم كانت ما تزال تريد أن يظل الملك ملكاً وأن يكون الناس أحراراً ، وأن يرقد الأسود والخراف بعضهم إلى جوار بعض في سلام وحرية . ولكن الجيش ذا الطراز الجديد لم يكن في استطاعه أن يراجع . فلن تكون هناك إذا ما عاد الملك إلى عرشه ذرة من الشفقة نحو هؤلاء السعاة والحوزية الذين وطئوا چنتلمانية الملك بنحيوهم . وعندما شرع البرلمان في التفاوض من جديد مع المحتال الملكي ، تدخل الطراز الجديد . فطرده الكولونيل برايد ثمانين عضواً من أعضاء البرلمان الإنجليزي كانوا يميلون إلى الملك ، ثم قدمت البقية الباقية غير القانونية وهي البرلمان الأبتري (Rump Parliament) ، الملك إلى المحاكمة .

ولكن الواقع أن الملك كان مقدراً عليه من قبل قضاء لا مرد له . فلما أن رفض مجلس اللوردة قانون المحاكمة ، أعلن البرلمان الأبتري عند ذلك « أن الأمة إنما هي في ظل الله مصدر كل السلطات العادلة » وأن « العموم في إنجلترا أصحاب السلطة العليا في هذا الشعب » ، وإذ افترض المجلس الأبتري أنه هو نفسه العموم — فإنه واصل معالم تاريخ الإنسانية جء .

المحاكمة . وحكم على الملك بأنه « طاغية وخائن وقاتل وعدو لبلاده » . وأخذ في صباح أحد أيام شهر يناير (١٦٤٩) إلى مشنقة ، أقيمت خارج نوافذ قاعة ولائمه الخاصة في هوايت هول . وهناك قطعت رأسه . فمات وعليه سيما التقوى وضرب من الإشفاق على الذات نبيل — وذلك بعد إعدام استرافورد بثمانية أعوام ، وبعد ست سنوات ونصف مضت في حرب أهلية مدمرة ، سببها كلها تقريباً بلا استثناء خروجه على القانون .

والحق إن هذا الذي عمله البرلمان كان عملاً فظيلاً مربعاً . فلم يسمع الناس بمثله قط في العالم من قبل . نعم إن الملوك كثيراً ما قتل أحدهم الآخر ؛ وإنما كان قتل الأب أو الأخ والاغتياي وسائل اختص بها الأمراء ؛ فأما أن يقوم فريق من الشعب ، ويحكم ويحاكم ملكه في جد وتعمد متهماً إياه بعدم الولاء وإثارة الشر والخيانة ، ويحكم بإدانته ثم يقتله ، فأمر بث الذعر في كل بلاط في أوربا . ذلك أن البرلمان الأبتري تجاوز ما يطيقه ضمير زمانه وفكراته . وكأنما خرج من إحدى الغابات سرب من الأطباء فأسر أحد النور وقتله — وهي جريمة مخالفة للطبيعة . فطرد قيصر روسيا السفير الإنجليزي من بلاطه . واتخذت فرنسا وهولندا تصرفات عدائية صريحة . ووقفت إنجلترا منزلة أمام العالم ، مبيلة يوثنها ضميرها بجرمها .

ومضى ربح من الزمان تهباً فيه للمزايا الشخصية لأوليشر كرومويل ولنظام الجيش الذي أنشأ وقوته ، أن تصون لانجلترا النهج الجمهوري الذي سلكته . وكان الإيرلنديون الكاثوليك قاموا بمذبحة في الإنجليز البروتستانت النازلين في إرلندة ، وعند ذاك قمع كرومويل بشدة عزيمة الإيرلنديين العصاة . وفيما عدا رهبانا بأعيانهم قتلوا أثناء الهجوم العنيف على دروجيدا فإن جنوده لم يقتلوا إلا الرجال الذين يحملون السلاح بأيديهم . ولكن فظائع المذبحة كانت ماتزال قوية الأثر في ذهنه ، ولذا لم تبد من جانبه أية رحمة في المعركة ، ومن ثم لا تفتأ ذكراه يتقد لهيبها في أذهان الإيرلنديين ، الذين يطول تذكرهم لما يصيبهم من النوازل .

وبعد إيرلندة ، جاء درر اسكتلندة ، حيث مزق كرومويل جيشاً ملكياً في معركة دنبار (١٦٥٠) .

ثم صرف نهباه إلى هولندا ، وهى القطر الذى نهز فى حماة فرصة الانقسامات بين الإنجليز واتخذها ذريعة لإيقاع الأذى بهم كمنافسين له فى التجارة . وكان الهولنديون آنذاك سادة البحر ، فكان قتال الأسطول الإنجليزى من ثم غير مضمون العاقبة . ولكن حدث بعد سلسلة من الحروب البحرية العنيدة أن طرد الهولنديون من البحار البريطانية ، وحل الإنجليز محلهم بوصفهم الدولة البحرية العظمى . وأصبح حتماً مقررأ على السفائن الهولندية والفرنسية أن تخفض لها راياتها . وذهب أسطول إنجليزى إلى البحر الأبيض ، وكان أول قوة بحرية إنجليزية دخلت تلك المياه ؛ فأصلحت كثيراً من الحيف الواقع على أرباب السفن الإنجليز من توسكاني ومالطة ، وأطلقت قنابلها على وكر القرصان التونسي وحطمت أسطول القرصنة — الذى تعود فى أيام شارل وتراخيه أن يصل حتى شواطئ كورنوال وديثون ليقطع الطريق على السفن ويحمل الرقيق إلى إفريقيا .

وتدخلت كذلك ذراع إنجلترا القوية لمساعدة البروتستانت فى جنوب فرنسا ، وكان دوق سافوى يطاردهم ويفتك بهم . ثم وجدت كل من فرنسا والسويد والدانمارك أن من الحكمة أن يتغلبن على نفورهن الأول من « قتل العاهل » فتحالفن مع إنجلترا . ونشبت الحرب مع أسبانيا ، ودمر الأميرال الإنجليزى العظيم بليك أسطول المعادن^(١) الأسباني فى تاناريف فى إقدام وجرأة لا يكاد يصدقها عقل . فإنه هاجم البطاريات البرية . فكان بذلك أول رجل « جعل السفن تخدش كبرياء قلاع الشواطئ » . (ومات فى ١٦٥٧ ، ودفن دير وستمنستر ، ولكن نبش عظامه بعد عودة الملكية بأمر من شارل الثانى ، ونقلت إلى كنيسة القديس مارجرىيت بوستمنستر) . تلك هى الصورة التى نقشها إنجلترا لنفسها أمام عين العالم أثناء أيامها الجمهورية الوجيزة .

وفى اليوم الثالث من سبتمبر (١٦٥٨) توفى كرومويل أثناء عاصفة هوجاء لم يفتها أن تبلغ من نفوس أصحاب الخرافات كل مبلغ . وما كادت يده القوية تجمد عن

(١) المستعمل فى نقل المعادن النفيسة المغتصبة من أمريكا . (المترجم)

الحركة ، حتى نحاذلت بريطانيا عن تلك المحاولة السابقة لأوانها لتحقيق إنشاء دولة تقوى قوامها الأحرار من الرجال ؛ ففي (١٦٦٠) رحب الناس في إنجلترا بعودة شارل الثاني ابن شارل « الشهيد » بكل مظاهر حفاوة الولاء الشخصي المحبة إلى قلوب الإنجليز ، وتراجعت البلاد عن كفايتها العسكرية والبحرية كأنها التائم إذ يستيقظ ويتمطى ويتنأب بعد حلم عنيف حاد . قضى على اليبوريتان (المتطهرين) وانتهى أمرهم . وعادت إنجلترا المرحمة سيرتها الأولى ، وفي (١٦٦٧) دخلت سفن الهولنديين — وقد عادت إليهم سيادة البحر ثانية — في نهر التاميز حتى وصلت جرافثند Gravesend وأحرقت أسطولا^(١) إنجليزيا في الميدواى .

يقول بيبس في يومياته : « وفي الليلة التي أحرق فيها الهولنديون سفننا ، تعشى الملك فعلا مع مولاي الليدى كاستيل مين ، وهناك جن جنونهم وهم يطاردون فراشة مسكينة » .

وتناول شارل منذ ساعة عودته (١٦٦٠) ، زمام شئون الدولة الخارجية بين يديه ، و (١٦٧٠) عقد محالفة سرية مع لويس الرابع عشر الفرنسي ، تعهد فيها أن يجعل السياسة الإنجليزية الخارجية تابعة تماماً لسياسة فرنسا مقابل جعل سنوى مقداره مئة ألف جنيه . وكانت دنكرك التي سبق أن استولى عليها كرومويل قد بيعت قبل ذلك إلى فرنسا . وكان الملك رياضياً عظيماً ، وله الولع الإنجليزي الصحيح بمشاهدة سباق الخيل ، ولعل أبلغ آثاره في الدلالة على خصائصه حلبة السباق في نيوماركت .

وقد استطاع شارل بفضل فكاخته السهلة ، الاحتفاظ مدى سنى حياته بالعرش البريطانى ، ولكنه وصل إلى ذلك بالتزام الحيلة وخطة التفاهم والمسالمة ، حتى إذا خلفه في (١٦٨٥) أخوه جيمس الثاني ، الذى كان كاثوليكياً مخلصاً ، وكان أغبي من أن يدرك التحديد الخفى الذى يحد من سلطة الملكية * إنجلترا ، عاد النزاع القديم بين البرلمان والملك حدته الأولى .

(١) الميدواى : نهر صغير بإنجلترا يصب في نهر التاميز . (المترجم)

ونصب هيجيمس نفسه لإرغام مملكته على العودة إلى الاتحاد الديني مع روما .
 وإذا به في ١٦٨٨ يتخذ طريق الحرب إلى فرنسا . على أن اللوردة الكبار والتجار
 والاحتلالية كانوا في هذه المرة أحرص من أن يسمحو بأن يقذف بهم هذا التمرد على
 الملك إلى أيدي كولونيل برايد آخر أو كرومويل آخر . وكانوا استدعوا آنفاً ملكاً
 آخر هو وليم أمير أورانج ليحل محل الملك . وتم التغيير سريعاً . ولم تحدث أية حزب
 اهلية — اللهم إلا في إرلندة — ولم تنطلق في البلاد أية قوة ثورية أكبر من هذه .

وليس هنا مجال البحث في دعوى وليم بالعرش ، أو بالحرى في ادعاء زوجته
 ماري به ، فإن هذا موضوع فني بحت — كما يقولون — ؛ ولا كيف حكم وليم
 الثالث وماري ، ولا كيف حدث بعد ذلك أن الملك الأرمل وليم حكم وحده ردهاً
 من الزمان ، ثم انتقل العرش إلى آن (١٧٠٢ — ١٧١٤) أخت ماري . ويلوح
 أن آن كانت تنظر بعين العطف إلى عودة الملك إلى أسرة استيوارت ، ولكن اللوردة
 والعموم الذين كانوا عند ذاك المسيطرين على الشؤون الإنجليزية ، فضلوا أن يليهم
 ملك أقل كفاية . إذ كان في الإمكان أن يقام نوع من الادعاء على العرش لمنتخب
 هانوفر ، الذي أصبح ملكاً على إنجلترا باسم جورج الأول (١٧١٤ — ١٧٢٧) .
 كان ألمانياً قحاً لا يعرف اللغة الإنجليزية ، واجتلب معه إلى البلاط الإنجليزي حشداً
 من النساء الألمانيات والحشم الألمان ؛ وبمقدمه حلت بالحياة العقلية في البلاد فترة خمود
 وركود وزال عنها الصقل ، ولكن انعزال البلاط عن الحياة الإنجليزية كان أعظم
 ما يزيكه لدى كبار ملاك الأراضي وأصحاب المصالح التجارية ، بل كان الميزة التي
 من أجلها خاصة استقدموه .

ودخلت إنجلترا مرحلة يسميها اللورد بيكونزفيلد باسم مرحلة « أوليجركية
 البندقية »^(١) ؛ وكانت ناصية السلطة العليا مستقرة بين يدي البرلمان الذي كان يسيطر
 عليه آنذاك مجلس اللوردة ، وذلك لأن فن الرشوة ودراسة طرائق طبخ الانتخابات ،

(١) الأوليجركية : هي حكومة هيئة صغيرة من الرجال تمسك زمام السلطة العليا بإحدى الدول .
 (المنزجم)

الذين رفعهما إلى درجة عالية السير روبرت والبول ، سلبت مجلس العموم حريته وقوته الأصليتين . فإنه استخدم طرقاً خبيثة ماهرة قصرت الأصوات البرلمانية من الناجحين . فقد ترسل مدن قديمة تحوى نفراً قليلاً من السكان أو هى لا تحوى أحداً قط عضواً أو عضوين (فكان لمدينة ساروم القديمة ناخب واحد لا يقيم فيها ، وليس بها أحد من السكان وينوب عنها مع ذلك نائبان) ، على حين لم يكن أحد يمثل على الإطلاق بعض المراكز الجديدة الآهلة بالسكان . وأفضى الإصرار على وجوب امتلاك الأعضاء مؤهلاً عقارياً ضخماً ، أن زادت ضيقاً على ضيق ، الفرص المتاحة للعموم الذين يتكلمون بلسان العامة معبرين عن حاجات السوق .

وعقب جورج الأول جورج الثانى (١٧٢٧ - ١٧٦٠) الشديد التشبه به ، وبموته أتيح لإنجلترا من جديد ملك مولود فى إنجلترا ، ويستطيع أن يتكلم الإنجليزية بدرجة من الجودة متوسطة وهو حفيده جورج الثالث . وسنحدثك فى فصل تال عن محاولة هذا الملك استرداد بعض السلطات الملكية الكبرى .

ذلك موجز لقصة الكفاح الذى حدث بإنجلترا إبان القرنين السابع عشر والثامن عشر بين العوامل الثلاثة الكبرى فى مشكلة الدولة العصرية ، أى بين التاج وأصحاب الأملاك الخاصة وتلك القوة المهمة ، التى ما تزال عمياء جاهلة ، وهى قوة الناس العوام الخالص . وهذا العامل الأخير لا يبدو حتى الآن إلا فى اللحظات التى تهتز فيها البلاد اهتزازاً أشد ما يكون عمقاً ، ثم لا يلبث أن يعود إلى الأعماق . ولكن نهاية القصة تعد حتى ذلك الوقت نصراً تاماً جداً لصاحب الأملاك الخاصة البريطانى على أحلام الحكم المطلق المكيافلى وخططه . وأصبحت إنجلترا وعلى رأسها الأسرة الهانوفرية « جمهورية متوجة » ، على حد تسمية جريدة التايمز لها فى الآونة الأخيرة . فإنها صاغت طريقة جديدة للحكم ، هى الحكم البرلمانى ، الذى يذكرنا من نواحى كثيرة بمجلس السناتو والجمعية الشعبية لدى الرومان ، ولكنه حكم أرسخ قديماً وأشد كفاية لاستخدامه طريقة التمثيل النيابى مهما يكن ذلك الاستخدام محدوداً . وكان أن قُدر لجمعيةها فى وستمنستر أن تصبح « أم البرلمانات » فى كافة أقطار العالم .

وقد أمسك البرلمان الإنجليزي وما يزال ممسكاً بحبال التاج بقسط وغير من العلاقة بين ناظر القصر وبين الملوك الميروثنجيين . وهم يرون في الملك شخصاً للرسميات غير مستول ، ورمزاً حياً للنظام الملكي والإمبراطوري .

ولكن يظل الشيء الكثير من القوة كامناً في تقاليد التاج وهيبته ، وإن في اعتلاء السلوك الهانوفرين المسمين بجورج ، ووليم الرابع (١٨٣٠) ، وفيكتوريا (١٨٣٧) ، وإدوارد السابع (١٩٠١) وجورج الخامس (١٩١٠) وإدوارد الثامن (١٩٣٦) ، لأسلوباً يخالف تماماً ملوك الميروثنجيين الضعفاء . فقد مارس هؤلاء الملوك جميعاً على درجات متفاوتة في شئون الكنيسة ، والهيئات العسكرية والبحرية ، والسياسة الخارجية ، نفوذاً لم يقلل من شأنه كونه غير ذى حدود تحدده .

٤ - انقسام ألمانيا واضطرابها

لم يجلب انهيار الفكرة القائلة بمسيحية موحدة ، في أى قطر من أقطار أوروبا ، عواقب أوخم مما جره على ألمانيا ، وطبيعى أن يتبادر إلى ظن الإنسان أن الإمبراطور ، وقد كان ألماني الأرومة ، في كل حالة الأسرات الأولى وحالة آل هابسبرج ، كان لا بد أن يتطور به الأمر حتى يصبح المليك القومى في دولة تتكلم الألمانية . على أنه كان مما جلبته المصادفة من نكد الطالع على ألمانيا ، أن لم يظل أباطرتها قط ألمانين . فإن فردريك الثانى آخر سلالة آل هوهنشتاوفن ، كان كما رأينا ، صقلياً نصف مستشرق . وأصبح آل هابسبرج بالمصاهرة والميل ، ممثلين في شخص شارل الخامس ، بورغندي الروح بادئ ذى بدء ، ثم أسبانيها . وبعد موت شارل الخامس أخذ أخوه فرديناند النمسا والإمبراطورية ، وأخذ ابنه فيليب الثانى أسبانيا والأراضى المنخفضة وجنوب إيطاليا . ولكن السلالة النمسية ، كانت كاثوليكية عنيدة في كثراتها ، ممسكة بزمام معظم ميراثها على الجلود الشرقية متورطة لذلك أعماق التورط في الشئون الهنغارية ودافعة الجزية للأتراك شأن فرديناند وخليفته ، لذا لم تحتفظ لنفسها بأى سلطان على شئون الألمان الشماليين بما فيهم من نزعة إلى البروتستانتية ، وأواصر بلطيقية واتجاه نحو الغرب ، وجهلهم بالخطر التركى أو عدم اهتمامهم به .

وما كان أصحاب السلطان من الأمراء والدوقة والمنتخبين والأساقفة الأمراء وأشباههم ، الذين كانت أملاكهم تقطع أوصال ألمانيا في القرون الوسطى إلى مرقعة تكبد البصر بأجزائها الممزقة ، — بمعادلين في الحقيقة للملك لإنجلترا وفرنسا بل كانوا على التقريب في مستوى كبار أصحاب الأراضي من الدوقات والنبلاء بفرنسا وإنجلترا . ولم يكن فيهم واحد حتى (١٧٠١) يحمل لقب « ملك » ، وكان الكثير من ممتلكاتهم أضال في الحجم والقيمة من الأملاك الكبيرة التي يملكها بعض النبلاء البريطانيين . وكان مجلس الدايت الألماني شبيهاً بمجلس الطبقات (States Genseral) أو مثيلاً لبرلمان ليس فيه نواب منتخبون . حتى أن الحرب الأهلية العظيمة التي شبت للفور في ألمانيا ، وهي حرب الثلاثين سنة (١٦١٨ — ٤٨) ، كانت في جوهرها أوثق قرين وشبهاً بالحرب الأهلية في إنجلترا (١٦٤٣ — ٤٩) ، وبحرب الفرونند (١٦٤٨ — ٥٥) ، (وهي عصبة النبلاء الإقطاعيين ضد الملوك في فرنسا) ، — مما يبدو على ظاهرها لأول وهلة .

وفي كل هاته الحالات كان التاج إما كاثوليكيًا أو نزاعاً إلى الكاثوليكية ، ووجد الأمراء المعاندون أن ميلهم الفردي ، ينزع بهم نحو نزعة پروتستانتية . ولكن على حين حدث في إنجلترا وهولندا أن النبلاء البروتستانت والتجار الأغنياء فازوا في النهاية فوزاً مبيتاً ، وكان نجاح التاج في فرنسا أكمل وأوى ، فإن الإمبراطور في ألمانيا لم يبلغ من القوة والسيادة مبلغاً كافياً ، ولا كان لدى الأمراء البروتستانت من الوحدة والتنظيم فيما بينهم ، ما يكفل لأحد الطرفين نصراً نهائياً . وانتهت الحال هناك تتمزق أوصال ألمانيا .

ومما زاد الكفاح الألماني تعقيداً اشتباك شعوب غير ألمانية متنوعة فيه ، وهي البوهيميون والسويديون (الذين كانت لهم ملكية پروتستانتية جديدة نشأت تحت جوستافوس فازا كنتيجة مباشرة للإصلاح الديني) . وأخيراً تدخلت الملكية الفرنسية ، وقد انتصرت نهائياً على نبلاتها ، فعصدت البروتستانت وإن كانت كاثوليكية ، رامية بذلك إلى غاية واضحة هي الحلول محل آل هابسبرج في رئاسة الإمبراطورية .

وقد ترتب على طول أمد الحرب ، وعدم جريانها على امتداد جبهة محددة ، لتناثرها في كل أرجاء إمبراطورية قوامها الرقاع : فنن پروتستات هنا وكاثوليك هنالك - أن تحولت إلى حرب من أقصى الحروب وأشدّها تدميراً ، حرب لم تشهد أوروبا لها مثيلاً منذ أيام الغارات الهمجية . وليس يقوم شرها الخاص في القتال ، بل فيما يلزم القتال من ويلات . فإنها حدثت في زمن تطور فيه التكتيك العسكري إلى حد جعل المجندين العاديين غير ذوى غناء حيال المشاة المحترفين المدربين . فإن إطلاق الجماعات النار دفعة واحدة من القرايبنات إلى مبعدة بضع عشرات من الياردات قضى على الفارس الفرد ذى الدروع السابغات ، بيد أن هجمات جموع الفرسان المنظمة كانت ما تزال تستطيع أن تشتت شمل أى مشاة ، لم تصل في تدريبها إلى درجة كافية من الصلابة الآلية . فإن المشاة بقرايبناتهم التى لا بد من حشو أنابيبها بين لحظة وأخرى لم تكن لتستطيع أن تقيم من النار سياجاً متواصلاً ينفى بتشتيت فرسان ذوى عزم وصرامة قبل وصول هجمتهم إلى هدفها وإنزالهم ضربتهم . ومن ثم كان لازماً عليهم أن يقابلوا الصدمة وقوفاً أو راكعين خلف جدار براق من الخوازيق أو السونكيات . وكان لا بد لهم في هذا من تنظيم عظيم وخبرة كبيرة ؛ وكانت المدافع الحديدية ما تزال صغيرة الحجم كما لم تكن وفيرة العدد جداً ، ولم تكن تقوم حتى آنذاك بدور حاسم في الحرب . نعم لأنها كانت تستطيع أن « تشق خطوطاً » في صفوف المشاة ، ولكنها لم تكن لتستطيع في سهولة أن تحطمها وتبددها ، إن هي كانت قوية العزم جيدة التدريب .

وكانت الحرب في مثل تلك الظروف موكولة تماماً إلى جنود مدربين محترفين ، وكانت مسألة أعطيائهم أمراً يعادل في أهميته لدى قواد ذلك الزمان أهمية مسألة الميرة والدخيرة . وبينما الكفاح الطويل يجر قدميه جراً من طور إلى طور ، وتتفاقم معه محنة البلاد المالية ؛ كان قواد كل من الجانبين مضطرين أن يرجعوا بالانتهاج على المدن والقرى ، رغبة في أخذ المؤن والتعويض عن متأخرات أعطيائ جنودهم . ومن ثم أخذ جندهم يتحولون رويدا رويدا إلى مجرد مناسر تعبش على حساب البلاد نهبا واستلابا ، وأوجدت حرب الثلاثين سنة تقاليد من الانتهاج والسلب بوصفهما عملية

قانونية في الحرب ومن انتهاك الحرمات بوصفه امتيازاً للجندى ، وهى تقاليد لوث سمعة ألمانيا الطبية حتى الحرب العظمى (١٩١٤) .

إن الفصول الأولى من كتاب « مذكرات فارس Memoirs of a Cavalier » تأليف « دانيال ديفو » ، بما حوت من وصف رائع لمذبحة ماجدبورج وحريقها ، لتعير القارئ فكرة عن طريقة الحروب في ذلك الزمان ، أحسن جداً من أى كتاب رسمى في علم التاريخ . إذ بلغت البلاد من الخراب حداً حمل الفلاحين على الكف عن الزراعة ، وكان ما يستطاع حصده من المحصولات السريعة غير المنتظمة يخفى فور جمعه ، وأصبحت جماهير غفيرة من النساء الطاويات والأطفال الجائعين ممن يتبعون معسكرات الجيوش ، حاشية من اللصوص إلى جانب الناهبين الأشد خشونة وشراسة . فما أن انتهى الكفاح حتى كانت كل ألمانيا قد أُمست خراباً ياباً . ولم تتخلص أوروبا الوسطى تخلصاً تاماً من هذه السرقات والمفاسد المدمرة إلا بعد قرن من الزمان .

ولن نسمعنا ها هنا إلا أن نذكر اسمى تلى (Tille) ووالنشتين (Wallenstein)، قائدى النهب الكبيرين في جانب أسرة هابسبرج ، وجوستاف أدولف ملك السويد أسد الشمال ونصير البروتستانت الذى كان يحلم بأن يجعل من بحر البلطيق « بحيرة سويدية » . ولكن جوستاف أدولف قتل ساعة نصره الحاسم على والنشتين في لوتز (١٦٣٢) ، وقتل والنشتين في (١٦٣٤) .

وفي (١٦٤٨) اجتمع الأمراء والسياسيون بين ظهراني ذلك الدمار الذى حاكته أيديهم ، اجتمعوا لترقيع شئون أوروبا الوسطى في صلح وستفاليا . وبهذا الصلح استحال قوة الإمبراطور إلى شبح أو خيال ، وترتب على استلحاق فرنسا للأتراس أن وصلت إلى نهر الراين . وأصبح في حوزة أمير ألماني هو منتخب براندنبرج سليل آل هوهنزرن قدر عظيم من الأراضي جعل بين يديه أعظم قوة ألمانية تلى قوة الإمبراطور ، وهى قوة سرعان ما أصبحت (١٧٠١) ، مملكة بروسيا .

١٠٩٣

واعترفت معاهدة وستفاليا أيضاً بحقيقتين مقررتين من زمان مديد ، وهما الانفصال
عن الإمبراطورية والاستقلال التام لكل من هولندا وسويسرة .

٥ - أهمية الملكية العظمى في أوروبا

افتتحنا هذا الفصل بقصتي قطرين ، هما الأراضي المنخفضة وبريطانيا ، اللتين
نجحت فيهما مقاومة المواطن الخاص لهذا الطراز الجدي من الملكية ، وهى الملكية
المكثافية ، التى أخذت تنشأ عن انهيار المسيحية الخلقى . وانكن الملكية الفردية فى
فرنسا والروسيا وفى كثير من أنحاء ألمانيا وإيطاليا — فى سكسونيا وتوسكانى مثلاً
لم تُصد وتظهر على مثل تلك الدرجة . بل الواقع أنها وطدت نفسها بوصفها النظام
الأوروبى السائد أثناء القرنين السابع عشر والثامن عشر . بل لقد كانت الملكية فى
هولندا وبريطانيا آخذة بأسباب استرجاع قوتها أثناء القرن الثامن عشر . (فأما
بولندا فلها ظروف خاصة ، وإنا لمعالجوها فى فصل تال) .

ولم يكن ثمة « عهد أعظم » (ماجنا كارتا) فى فرنسا ، ولا كان للحكم
البرلمانى بها مثل تلك التقاليد المحددة النعالة . أجل كان هناك نفس تعارض المصالح
بين التاج من ناحية وبين أصحاب الأراضي والتجار من ناحية أخرى ، ولكن هؤلاء
لم يكن لهم متجمع (أى مكان اجتماع) معترف به ، ولا كان لهم أسلوب للوحدة
كريم . لقد شكلوا المعارضة للتاج ألواناً ، وأنشأوا عُصبة للمقاومة ، — كذلك
شأن « الفروند »^(١) ، الذين كانوا يكافحون الملك الشاب لويس الرابع عشر ووزيره
العظيم مازارين ، على حين كان شارل الأول يقاتل لاستنقاذ حياته فى إنجلترا —
ولكن الأمر انتهى فى (١٦٥٢) بأهم هزيمة نهائية بعد حرب أهلية . وعلى
حين حدث فى إنجلترا بعد تأسيس بيت هانوفر أن مجلس اللوردات وتابعه مجلس

(١) وحوب الفروند : هى الحروب الأهلية الفرنسية (١٦٤٨ - ٥٣) وتقع فى مرحلتين :
محاولة برلمان باريس فى (١٦٤٨ - ٤٩) تحديد سلطات الملكية وثورة كبار النبلاء برئاسة كونديه
على حكم مازارين فى (١٦٥٠ - ٥٣) . (المترجم)



(شكل ١٧١) صورة لبوس الرابع عشر

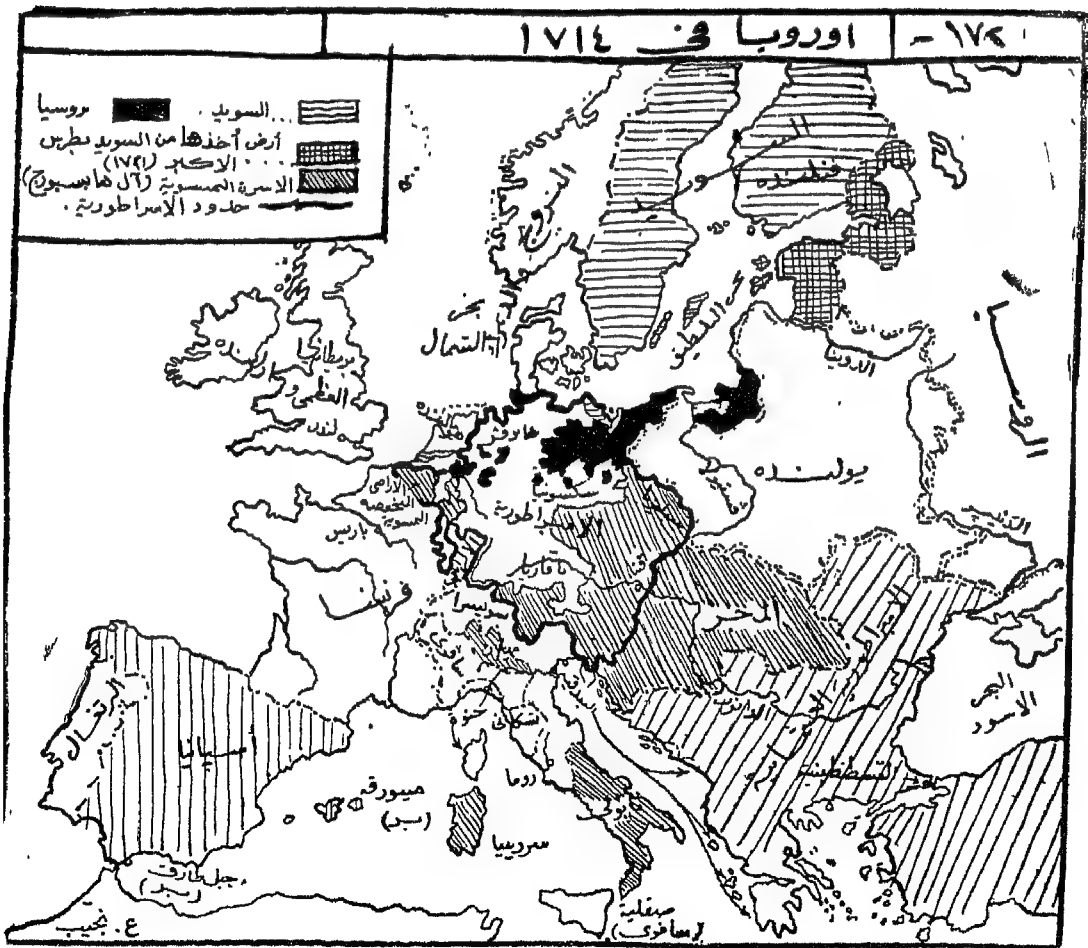
العموم صاروا يحكمون البلاد ، فإن البلاط في فرنسا على العكس من ذلك كان بعد (١٦٥٢) هو صاحب السيطرة التامة على الأرستقراطية . وكان الكردينال مازارين نفسه يبنى على أسس مهدها له الكردينال ريشيليو معاصر جيمس الأول ملك إنجلترا .

ولسنا نسمع بعد زمان مازارين بأى نبيل فرنسى عظيم إلا أن يكونوا في البلاط حشماً للملك وموظفين . ذلك أنهم شُروا ورُوضوا - ولكن بشمن ، والثمن هو إلقاء عبء الضرائب على جماهير العامة التي لا صوت لها . فكان كل من رجال الدين والنبلاء ، بل وفي الواقع كل إنسان يحمل لقباً - معفين من كثير من الضرائب . وأصبح هذا الظلم في النهاية أمراً لا يطاق ، ولكن الملكية الفرنسية ازدهرت رداً من الزمان ازدهار شجرة الغار الخضراء في المزمار . وإنك ترى الكتاب الإنجليز عند مفتتح القرن الثامن عشر ، وقد أخذوا يستلفتون الأنظار إلى بوئس الطبقات الدنيا الفرنسية وإلى ما يستمتع به الفقراء الإنجليز ، في نفس ذلك الزمان ، من رخاء نسبي .

على مثل هذه الأوضاع الآثمة أقامت ما عسانا أن نسميها « الملكية العظمى » الفرنسية أنسها . فحكم لويس الرابع عشر الملقب بالعاهل الأعظم زماناً لا نظير له في الطول هو اثنان وسبعون سنة (١٦٤٣ - ١٧١٥) ، وأقام من نفسه نموذجاً يحتذى به كل ملوك أوربا . وكان يقوده بادئ الرأي وزيره المكيافلى الكردينال مازارين . وبعد وفاة الكردينال أصبح هو نفسه بشخصه ونصه وفصه « الأمير » المثالى . وكان - في داخل حدود عطنه الضيق - ملكاً ذا كفاية استثنائية ؛ وكان طامحه أقوى من شهواته الدنيا ، فجر على بلاده الإفلاس بما انتهج من معقدات سياسية خارجية شديدة النشاط أظهر فيها وقاراً محكماً ما يزال يستدعى إعجابنا . وكان أول ما يخالجه من رغبة أن يربط أجزاء فرنسا بعضها ببعض وأن يمد حدودها إلى نهر الراين وجبال البرانس ، وأن يتمثل الأراضي المنخفضة الأسبانية ؛ وكانت أحلامه البعيدة ترى في ملوك فرنسا خلفاء محتملين لشرلمان في دولة رومانية مقدسة يعاد سكها .

واتخذ من الرشوة وسيلة للدولة تكاد تكون أعظم أهمية من الحرب . وكان شارل الثاني ملك إنجلترا يتناول منه الأعطيات المالية ، وكذلك كان شأن معظم النبلاء الهولنديين ، الذين سنصفهم من فورنا . وكانت نفوده أو بالحرى نفوذ الطبقات الدافعة للضرائب في فرنسا تذهب كل مذهب . ولكن البذخ كان شغله الشاغل . فكان قصره العظيم في فرساي بقاعاته (صالوناته) ودهاليزه ومراياه وشرفاته ونافوراته وجناته ومظراته ، موضع غبطة العالم أجمع وإعجابه .

لقد حفز الجميع إلى محاكاته . فإن كل ملك أو أمير صغير في أوروبا كان يبني



(شكل ١٧٢)

لنفسه قصر فرساياه الخاص متجاوزاً موارده المالية بالقدر الذى يسمح به رعاياه ودائئوه . وكان النبلاء فى كل مكان يعيدون بناء قصورهم أو يوسعونها وفق النموذج الجديد . وتطورت صناعة الأقمشة والأثاث الجميلة المحكمة الصنع وعظم شأنها . وازدهرت فنون الترف فى كل مكان ، فثمة تماثيل من الرخام المجزع ، والقاشانى^(١) (Faience) وأشغال الخشب المذهب ، وأشغال المعادن والجلد المضغوط بالنقوش البارزة ، وموسيقى كثيرة وتصوير فاخر ، وطباعة جميلة وتجليد مونق وطباعة ممتازة ونحور بديعة . وكان يسير بين المرايا والأثاث البديع جنس عجيب من السادة فى شعور مستعارة ضخمة مذكورة بالمساحيق ، وحرائر ومخرمات وهم يتأيلون على أعقاب عالية حمراء ، ويتوكأون على عصي باهرة !! هذا إلى سيدات أكثر إدهاشاً وإعجاباً ، تحت أبراج من الشعور المغطاة بالمساحيق وفى ثياب لها متسعات عظيمة من الحرير والساتان تحملها الأسلاك ؛ وكان يتجلى وسط ذلك كله لويس العظيم ، شمس عالمه ، غير شاعر بالوجوه الهزيلة المتجهمة المريعة التى كانت ترقبه من تلك الظلمات الدنيا التى لم تخترق ججبعها شمس ضيائه .

وليس هذا مجال التفصيل فى قصة حروب ذلك الملك وأعماله . وما يزال كتاب فولتير المسمى « عصر لويس الرابع عشر » أحسن ما كتب عنه وأصح من وجوه كثيرة . أنشأ الملك بحرية فرنسية كفءاً لمقاتلة الإنجليز والهولنديين . وهو عمل يعد مآثرة عظيمة القدر . ولكن نظراً لأن ذكاءه لم يسم قط عن سحر مغريات ذلك السراب الخادع ، أوتلك اللوثة التى أصابت العقلية السياسية فى أوربا ، وأعنى به الحلم بقيام « إمبراطورية رومانية مقدسة » تشمل العالم طرا ، فإنه تحول فى سنواته الأخيرة إلى استرضاء البابوية ، التى كانت حتى ذلك الحين معادية له . ونصب نفسه حرباً على روح الاستقلال والانفصال ، الممثلة فى الأمراء البروتستانت ، وأشعل نار الحرب على البروتستانتية فى فرنسا . فأبقيت إلى خارج البلاد فرارا من اضطهاداته الدينية جماعات وفيرة العدد من خيرة رعاياه اعتدالا وأعظمهم قيمة ، حاملين معهم فنوناً

(١) القاشانى : هو ضرب من الخزف الممتاز مطلى بطبقة صقيلة من الطلاء الملون . (المترجم)

وصناعات . فإن صناعة الحرير الإنجليزية مثلاً ، قام بتأسيسها البروتستانت الفرنسيون . ونفذت إبان حكمه عملية « الدراجوناد Dragonnades » وهى طريقة للاضطهاد شريرة فعالة بوجه خاص . فكان بعض الجنود الأجلاف يُنزلون فى منازل البروتستانت ، ويباح لهم أن يفسدوا نظام حياة مضيفيهم وأن يهينوا نساءهم على الشاكلة التى ترضيهم . وخضع لهذا النوع من الضغط ، كثير من الرجال لم يمن يكونوا ليخضعوا لنا ، والعدراء « خالعة العظام » .

وانقطع تعليم الجيل التالى من البروتستانت ، وكان الآباء بين أن يعلموا أولادهم تعليماً كاثوليكياً أو لا يعلمونهم البتة . ولا يداخلنك شك أنهم كانوا يعطونهم ذلك التعليم ، ولكن فى سخر ونغمة صوت تذهب بكل ثقة فيه . وبينما الأقطار الأكثر تسامحاً أصبحت فى معظم أمرها مخلصه فى عقيدتها الكاثوليكية أو البروتستانتية فإن الأقطار التى أنزلت الاضطهاد برعاياها أمثال فرنسا وأسبانيا وإيطاليا ، بلغ من قتلها للتعليم البروتستانتى الشريف ، أن أصبح هؤلاء الناس فى جل شأنهم مجرد كاثوليك معتنقين للكثلكة أو كاثوليك ملحدين ، مستعدين للانتقال إلى الإلحاد الغفل المطلق ما سُنحت لهم الفرصة لذلك . وكان العهد التالى أى عهد لويس الخامس عشر هو عصر ذلك الساخر الرفيع فولتير (١٦٩٤ - ١٧٧٨) ، وهو عصر كان فيه كل إنسان فى الجماعة الفرنسية مطابقاً للكنيسة الكاثوليكية و متمشياً معها ، على حين لا يكاد يكون فيهم واحد يؤمن بها .

وكان من مقومات الملكية العظمى - بل من مقوماتها الفائقة الممتازة - أن تنصر الآداب والعلوم . فأقام لويس الرابع عشر أكاديمية للعلوم منافساً بها الجمعية الملكية الإنجليزية التى أنشأها شارل الثانى ومثيلتها جمعية فلورنسا . وقد زين بلاطه بالشعراء وكتاب المسرحيات والفلاسفة ورجال العلم . ولئن خرجت الطريقة من هذه الرعاية بالشئ القليل من الإلهام ، فإنها حصلت على كل حال على موارد مالية تعينها على التجريب والنشر مع قدر خاص من الهيبة فى أعين السوق .

وكانت الجهود الأدبية فى كل من فرنسا وإنجلترا ، منوالاً تقيس على مثاله معظم الجهود الأدبية الأوربية أثناء تلك الفترة ، فترة الملوك الأعظمين ما بين صغير وكبير ،

وفرة البيوتات الريفية الكبيرة والمنشآت التجارية النامية . وكانت ظروف الأحوال بفرنسا أكثر اعتماداً على الملكية منها بانجلترا ، وأشدّ تمركزاً واتساقاً . وكان الكتاب الفرنسيون تعوزهم التقاليد العظيمة التي تهيأت لمثل تلك الروح الحرة غير المنظمة — روح شكسبير — إذ كانت الحياة الذهنية للفرنسية تتركز حول البلاط ، وكانت أشدّ من الإنجليزية إحساساً بالضبط وكبح الجماع . وهي لم تنتج أبداً أدباء من « العامة » أبناء الشعب أمثال « بنيان Bunyan » الإنجليزي ، ولم يكن في متناول أيديها في القرن السابع عشر مثل ذلك السراح المنطلق لروح التمرد والانشقاق الذي قامت عليه الجمهورية والذي يطلق عقال رجل مثل ملتون . وكانت نزعتها أميل إلى مراعاة الصحة والقيود ، وكانت أتمّ خضوعاً لنفوذ معلمى المدارس والنقاد المتمسكين بالقواعد . وكانت تخضع المادة للأسلوب . فكان تنظيم الأكاديمية لم يزد قيودها المفرطة إلا تشديداً . وترتب على تلك الفروق ، أن تشبع الأدب الفرنسى السابق على القرن التاسع عشر بالوعى الذاتي الأدبي ، وكأني به قد كتب بروح طالب ماهر يحشى الدرجات الرديئة ، أكثر منه بروح رجل ينشد التعبير الصريح . فإنه أدب قوامه الدرر اليتيمة والمآسى والمهازل (التراجيديات والكوميديات) وقصص الرومانس^(١) والمباحث النقدية وكلها باردة صحيحة مطابقة للأصول ، جوفاء خالية من الحيوية بشكل خارق للعادة . وممن برزوا بين ممارسي « الصحة » في الدراما ، كورنيلي (Corneille) (١٦٠٦ — ١٦٨٤) وراسين (١٦٣٩ — ١٦٩٩) . وانتصر موليير (١٦٢٢ — ٧٣) كذلك على عصره بكوميديات يرها بعض الثقات خيراً ما ظهر في العالم . ويكاد العرق الوحيد من القراءة السهلة الناصعة اللذيذة الذي يبدو وسط الرياش العقلي الدمث الفاخر للملكية الفرنسية العظمى ، أن يوجد في مذكرات ذلك الزمان المليئة بالقبل والقال والفضائح . فهناك هذه ، وهناك تدوين بعض المساجلات القوية الاجتماعية والسياسية .

ومن أروع وأحسن ما سطر بالفرنسية أثناء ذلك الزمان ما قام به في خارج فرنسا فرنسيون منفيون ومتمردون . فإن ديكارت (١٥٩٦ — ١٦٥٠) أعظم الفلاسفة -

(١) الرومانس : قصص الغزل والغروسية . [المترجم]

الفرنسيين عاش معظم حياته في ظلال أمن هولندية النسبي . وهو الشخصية المركزية المتسلطة بين مجموعة متألفة من العقول المتأملة وأهل النظر ، نشطت في أعمال معول التقويض والتعديل والتحقيق بمسيحية عصرهم المهدبة . وكان يعلو محلقاً فوق كل هؤلاء المبعدين ، وفوق كل الكتاب المعاصرين الأوربيين شخص قولتير العظيم ، الذي سنتكلم عن اتجاهاته الذهنية في فصل تال . وإن جان چاك روسو (١٧١٢ - ١٧٧٨) - وهو روح أخرى منبوذة - بما قام به من هجوم عاطفي على الأخلاق الشكلية واتخاذ العاطفي للطبيعة والحرية مثلاً أعلى ، ليقف مبرزاً بوصفه الروائي الأعظم في عصره ووطنه . وسنزيد القراء عنه يياتا

وكان الأدب الإنجليزي في القرن السابع عشر مرآة تعكس سمة الشؤون الإنجليزية الأقل قراراً وتمركزاً ، وكان به من العنفوان قدر أكبر ومن الصقل قدر أصغر مما للفرنسي . ولم يكن البلاط والعاصمة الإنجليزيان ابتلعا حياة البلاد القومية كما فعلت العاصمة والبلاط الفرنسيان . وربما أمكننا أن نضع مقابل ديكارت ومدرسته ، باكون الذي سبق أن نبأناك عنه في بياتنا عن النهضة العلمية ، ثم هوبز ولوك . وكان ملتون (١٦٠٨ - ١٦٧٤) ، يرتدى ثوباً مخطئاً من الدراسات الإغريقية واللاتينية ، والثقافة الإيطالية واللاهوت البيوريتاني مع أبراد من المجد من نسج يديه . وكان هناك قدر جسيم من الأدب الحر خارج مجال النفوذ الكلاسيكي ، ولعله وجد أشد خصائص تعبيره في كتاب بّنيان « مسير الحاح Pilgrim's Progress » - (١٦٧٨) . وواضح أيضاً أن تواليف ديفو Defoe المبتكرة (١٦٥٩ - ١٧٣١) الذي لم ينل بعد قدره الحق من التقدير ، موجهة إلى جمهور برىء من تهذبات العالم الأكاديمي وادعاءاته ؛ وإنما جاء مؤلفه روبنسون كروزو واحداً من أعظم مبتكرات الأدب . وكتابه « مول فلاندرز Moll Flanders » إنما هو دراسة للأخلاق تستدعي الإعجاب ، وديفو هذا الكتاب وفيما كتبه في التطورات الخيالية للتاريخ ، إنما يسبق كثيراً من الناحية الفنية كل معاصريه . ويكاد يكون على نفس مستواه ، فيلدنج الحاكم اللندني ومؤلف « توم جونز » . وكان صمويل ريتشاردمون بائع الأقمشة الذي كتب « پامبلا وكلاويسا » ، شخصية عظيمة نالته بين حقائق الأدب الإنجليزي الحية في القرن

الثامن عشر ؛ وهو الأدب الذى لم يعن بأن يكون أدبياً ، وإلى هؤلاء الثلاثة جرت عادة النقاد أن يربطوا اسم « سموليت Smollett » ، وهو أدنى كثيراً . وبهذه الأسماء وباسم جان چاك روسو معها ، تعود إلى الأهمية « الرواية » وهى البيان شبه الحقيقى عن طرائق العيش ، وعن الضرب فى أرجاء العالم ، وعن الالتقاء بالمسائل الخلقية ، وذلك بعد أن اختفت بتدهور الإمبراطورية الرومانية . وتؤذن عودتها بانطلاق سراح أنواع جديدة غير محدودة من الناس مبالغة إلى الاستطلاع فى شئون الحياة والخلق ، وهم أناس أوتوا شيئاً من وقت الفراغ ، وأناس تواقون إلى تكميل تجربتهم الخاصة بقصص مغامرات من هم على شاكتهم . ذلك بأن الحياة أصبحت أقل وطأة وأكثر لذة .

وربما جاز لنا هنا قبل أن نختم هذه الحاشية الأدبية ، أن نلاحظ أيضاً ما عليه أديسون (١٦٧٢ - ١٧١٩) ، من خواء رشيق بوصفه شخصية لها أثرها فى الأدب الإنجليزى ، وما للدكتور صويل چونسون (١٧٠٩ - ١٧٨٤) ، من رغبة فى التعقيد يحبها الناس ، وهو مصنف أول قاموس إنجليزى . ولا يكاد يصلح للقراءة الآن من كتاباته الفعلية شئ اللهم إلا تراجم قليلة قصيرة للشعراء ، بيد أن أمثاله وغرابه أطواره قد بقيت لنا فى الكتاب الذى ألفه بوزويل عن تاريخ حياته چونسون . فأما اسكندر پوپ (١٦٨٨ - ١٧٤٤) ، وكان كلاسيكى الاتجاه فرنسى الروح ، فإنه ترجم هوميروس ثم تناول بعض المذاهب الدايستية^(١) فحولها إلى شعر صقيل متقن . وصدرت أقوى كتابات هذا العصر ، عصر الرجال المؤدبين غير المتأزين فى إنجلترا شأنه فى فرنسا ، عن روح انغمست فى نزاع عنيف مع النظام السائد ، بل مع نظام العالم بأجمعه فى الواقع ، وهو سوفيت (١٦٦٧ - ١٧٤٥) ، مؤلف رحلات جليشرف . وهناك « لورانس سترن L. Sterne » ، (١٧١٣ - ١٧٦٨) ، وهو رجل الدين الذى تكاد تتصل باسمه شهرة السوء والذى كتب « تريسترام شاندى » ، وعلم من تلاه من كتاب القصص مئة حيلة مبتكرة فى فن الرواية . وقد استقى حيويته من عظمة الفرنسى رابليه السابق على العهد الكلاسيكى . ولسوف نقتبس من

(١) الفلسفة الدايستية أو الربوبية Deistic فلسفة مخالفة للمسيحية تؤمن بوجود الإله وتنكر

الوحى . (المترجم)

جيبون المؤرخ فى قسم تال ، وعند ذاك نحدثك ثانية عن التحديدات العقلية العجيبة التى تغل ذلك العصر عصر المحتملية .

ومات الملك الأعظم فى ١٧١٥ . وخلفه لويس الخامس عشر وهو ابن حفيده والمقلد غير الكفء لفخامة سلفه العظيم . اتخذ وضعة ملك وجلاله ، ولكن الشهوة المتسلطة عليه كانت هى الشئ العادى الملازم لجنسنا البشرى ، وهى طراد النساء الذى يخفف منه خوف من جهنم يمت إلى الخرافات بسبب . فأما كيف أن نساء من أمثال الدوقة شاتوروه ومدام بومبادور ومدام دى بارى تسلطن على ملذات الملك ، وكيف أن الحروب كانت تشب والمخالفات تعتقد وأن المقاطعات كان يعاثر فيها فساداً ، وآلافاً من الناس يقتلون بسبب غرور هاته المخلوقات وأحقاها ، وكيف حدث أن كل الحياة العامة لفرنسا وأوربا تلوثت بالدسائس والبغاء والاحتيايل بسببهن ، — فأمر ينبغى أن يعلمها القارئ من مذكرات ذلك الزمان . وصارت السياسة الخارجية الطموح فى حكم لويس الخامس عشر بقدوم ثابتة صوب تحطيمها النهائى .

وفى ١٧٧٤ مات هذا اللويس بمرض الجدري ، لويس المحبوب جداً كما كان مملقوه يسمونه ، وخلفه على العرش حفيده لويس السادس عشر (١٧٧٤ — ١٧٩٣) ، وهو رجل غبى حسن النية ، وصاحب طليقة نارية بديعة التسديد ، وصانع أقفال هاو على شئ من المهارة . فأما كيف أنه تبع شارل الأول إلى المقصلة فأمر سندنلى به فى قسم تال . إذ ينحصر كل اهتمامنا فى الوقت الحاضر ، فى الملكية العظمى إبان مجدها .

وقد نستطيع أن نذكر من بين ممارسى الملكية العظمى خارج فرنسا الملوك البروسيين أولاً وهم فردريك وليم الأول (١٧١٣ — ١٧٤٠) ، وابنه وخلفه فردريك الثانى وهو فردريك الأكبر (١٧٤٠ — ١٧٨٦) . وقصة النهوض البطيء لأسرة هوهنزرن ، التى حكمت مملكة بروسيا ، مبتدئة من بدايات مغمورة غير مبرزة ، قصة مُملة ليس يهمننا أن نتبعها هنا . وهى قصة تجمع بين الحظ والعنف ، والدعاوى الجريئة والخيانات المباغثة . ويسردها مع التقدير العظيم كتاب كارليل المسمى « فردريك الأكبر » . حتى إذا وافى القرن الثامن عشر كانت المملكة البروسية

قد بلغت من الأهمية حداً هددت معه الإمبراطورية ؛ وكان لها جيش قوى حسن التدريب ، وكان ملكها ممن أعطوا مكيافلي حظاً كبيراً من التفاتهم وعنايتهم . وجعل فردريك من قصر بوتسدام فرسايا آخر بلغ به حد الكمال . إذ هناك بلغت جنات سان سوسى ، بنافوراتها وشوارعها المزدانة بالأشجار وتمثيلها حد التقليد « الفردى » لنموذجها الفرنسى ؛ وكان هناك كذلك القصر الجديد وهو بناء هائل من الطوب أنفقت فى تشييده أموال طائلة ، وكذلك صوبة البرتقال (الأورانجرى^(١)) ذات الطراز الإيطالى وفيها مجموعة من الصور ، وقصر من الرخام إلى غير ذلك . وهما فردريك بالثقافة إلى حد التأليف ، كما أنه أخذ يرأسل فولتير ويستضيفه حتى انتهى بهما الأمر إلى السامة المتبادلة .

وكانت الإمبراطورية النمساوية مشغولة على الدوام ما بين مطرقة الفرنسيين وسندان الأتراك حتى أنها لم تستطع أن تطور نموذج الملك الأعظم الحقيقى إلى عهد ماريا تريزا (١٧٤٠ - ١٧٨٠) (التى لم تحمل لقب الإمبراطورة لأنها امرأة) . وخلفها على قصورها فى ١٧٨٠ جوزيف الثانى الذى تولى الإمبراطورية منذ (١٧٦٥ - ١٧٩٠) .

وبظهور بطرس الأكبر انفصلت الإمبراطورية المسكوفية عن تقاليدھا التنارية ودخلت إلى حيز الجاذبية الفرنسية . وحلق بطرس لى نبلائه الشرقية وأدخل الثياب الغربية . ولم تكن هذه إلا الرموز الخارجية المراثية لميوله الغربية . ولكى يحور نفسه من الشعور الأسوى وتقاليد موسكو ، التى لها - شأن بكين - مدينة جوانية مقدسة ، هى « الكرملين Kremlin » بنى لنفسه عاصمة جديدة هى بتروجراد على مستنقع النيفا . وطبيعى أنه شاد لنفسه فرسايا أخرى هى قصر البيترهوف على قرابة ثمانية عشر ميلا من باريس الجديدة هذه ، مستخدماً فى ذلك مهندساً معمارياً فرنسياً ومنشأً شرفة (تراسا) ونوافر ومساقط مائية وبهواً للصور وجنات وكل المظاهر المعترف بها . وكان من أبرز خلفائه إليزابث (١٧٤١ - ١٧٦٢) وكاترين العظيمة ، وهى أميرة ألمانية ، عادت بعد الحصول على التاج بطريقة شرقية بحتة هى قتل زوجها ،

(١) الأورانجرى أو صوبة البرتقال (Orangery) : مبنى من الزجاج يساعد بدفته شجر البرتقال

على النمو . (المترجم)

القيصر الشرعى ، فانخرقت إلى مثل علما غربية تقدمية وحكمت البلاد بقوة عظيمة من (١٧٦٢ إلى ١٧٩٦) . فأقامت أكاديمية ، وتراسلت مع فولتير . وعاشت حتى شهدت نهاية « الملكية العظمى » فى أوربا وإعدام لويس السادس عشر .

ويضيق المقام عن مجرد تقديم قائمة بأسماء صغار « الملوك الأعظمين » فى فلورنسا (توسكانى) وسافوى وساكسونيا والدانماركة والسويد . ولوراجعت كتاب دليل بيديكار^(١) لشهدت فى كل عاصمة فرسايا جديداً باسم جديد تقلد فرساي باريس ، وإن السائح لتأخذه الدهشة أثناء مروره فى تلك القصور لدقة التقليد . وكذلك يضيق المقام عن معالجة حرب الوراثة الأسبانية . فلن أسبانيا وقد أجهدها فوق طاقتها مشروعات التوسع الإمبراطورى التى دبرها شارل الخامس وفيليب الثانى ، وأضعفها ما أظهرته نحو البروتستانت والمسلمين واليهود من اضطهاد تعصبى ، أخذت طوال القرنين السابع عشر والثامن عشر تهبط عما أوتيت من أهمية موقوتة فى الشئون الأوربية وتعود ثانية إلى مستوى دول الدرجة الثانية .

كان هؤلاء الملوك الأوربيون يحكمون ممالكهم كما يحكم نبلاؤهم مزارعهم ، كانوا يتآمرون بعضهم ببعض ، وكانوا « سياسيين » « وبعيدى النظر » بطريقة أبعد ما تكون عن الواقع ، وكانوا يخوضون الحروب ويددون العصابة الحيوية لأوربا فى سياسات سخيفة من العدوان والمقاومة . وانتهى الأمر بأن انفجرت عليهم من الأعماق عاصفة هوجاء . وكانت تلك العاصفة هى الثورة الفرنسية الأولى ، فإن غضب الرجل العامى فى أوربا أخذ نظامهم بغتة وعلى حين غرة . ولم يكن ذلك إلا الانفجار الافتتاحى لدورة عظيمة من العواصف السياسية والاجتماعية ما تزال مستمرة ، ولعلها ستستمر حتى يزول أثر للملكية القومية النزعة ثم ينتشع الغمام وتنجلي السماوات ثانية على السلام الأعظم الذى سيظلل اتحاد البشرية جمعاء .

(١) دليل بيديكار (Baedeker) : كتاب يصدر بلغات أجنبية متعددة عن أهم أقطار العالم مبينا أهم ما بها من المدن والآثار والمعالم . (المترجم)

٦ - الموسيقى في القرنين السابع عشر والثامن عشر

كان القرنان السابع عشر والثامن عشر فترة تقدم قوى في الموسيقى . إذ أن العوامل الفكرية الممهدة لذلك كانت أحكمت ، وتأسس الديوانان (السلطان) الموسيقيان الكبير والصغير بما لهما من تعاقب ثابت للنغمات ، ومن قابلية للتكيف وفق التلحينات وبما يمكن فيهما من احتمالات اللون الهارموني . فصار في الإمكان تحديد القصد الموسيقي (Musical intention) تحديداً واضحاً ، وأن ينظم التعاون بين آلات متنوعة في دقة عظيمة . وكانت الأحوال الاجتماعية ما بين مدن نامية وبلاطات وبيوتات ريفية تضيف ميادين جديدة من الاحتمالات الموسيقية إلى المجال القديم المنحصر في جوقة المرتلين الكنسيين . وكانت الحفلات التنكرية والمهرجانات قد انتشرت وأصبحت محبوبة من الشعب في القرن السادس عشر ، فأتاحت أمام محكم الموسيقى فرصاً جمّة ، وأصاب الأوبرات والأناشيد الدينية تقدماً عظيماً عند حلول القرن السابع عشر .

وظهرت في إيطاليا الموسيقى الجديدة (Nuove Musiche) . يقول السير و . ه . هادو « إن لولّي (١٦٣٥ - ١٦٨٧) ، هو أعظم شخصية من الوجهة التاريخية ، وما كان ذلك فقط من أجل ما حوته ألحانه من قوة درامية تمثيلية ، بل لما تجلّى في طريقة خطابه الدرامي من ضبط متسق » . ويقف إلى جواره الإيطالي مونتيشردى . ذلك أن الموسيقى شرعت تعمل على معيار كبير في تلك المدة .

« ودونت قدّاسات القرن السادس عشر بلحوقات المرتلين بالكنيسة ، وكتبت غزليات (مادريجالات) القرن السادس عشر ليستمتع بها جماعة من الخلان حول مائدة عشائهم ، ولم يحدث إلا عند قريب من نهايته أن عازفي العود والفريجينال يشربون في أن يتجهوا بأذهانهم إلى فكرة الأستاذية^(١) Virtuoso في الفن التنفّذي ... واجتلب التحسين العظيم في بناء الأرغن عدداً متعاقباً من العازفين العظماء : منهم بُلّ وفيلبس الإنجليزيان ، وسويلنك الهولندي ، وفرسكو بالدي في روما ، وفروبرجر في فيينا ، وبكستودى في لوبيك ، وهو الذي سعى إليه باخ ماشياً على قدميه لكي

(١) (Virtuoso) : الأستاذ الماهر في الفنون الجميلة وخاصة الموسيقى . (المترجم)

ينعم بسماحه . . . ويساير هذا كله التطور الذي لحق موسيقى الفرچينال^(١) ولا يقل عن ذلك في الأهمية وصول الكمان وعائلتها وتلكؤ الناس في قبولها . فإنها وإن رجعت إلى عهد تيفن بروخر وأسرة أماتي^(٢) في النصف الأول من القرن السادس عشر ، إلا أنها قضت زهاء مئة عام تشق طريقها نحو القبول والرضا العام . ناهيك بأن ماس عازف العود كان في عصر يصل في تأخره إلى ١٦٧٦ ما يزال مستطيعاً أن يطعن في « الكمان الصارخة » — على حد تعبيره ، وأن يأسف على نغم جدتها الفيول Viol الأكثر هدوءاً واستواءً . بيد أن نطاقها الأرحب ، وخفة حركتها العظمى وقوة تعبيرها الأشد وخزاً وتأثيراً فرضت نفسها وأصبحت شيئاً ملموساً على طول المدى . . . وبلغ من شأنها في إيطاليا موطنها الأصلي وإن حملوها في سماجة وعزفوا عليها في سماجة — أن اعترف لها الناس بأنها الآلة الوحيدة التي تستطيع أن تضارع الصوت الإنساني وتنافس^(٣)ه .

ويقال إن التطور الموسيقي تأخر حيناً من الدهر بسبب التباهي بالصائت المغنى والإعجاب به في الأوبرا الإيطالية ، وكان لمغنى القرن السابع عشر ، وبخاصة أصحاب صوت السوبرانو من الذكران ، صيت يقارب في سوقيته وشناعته ما لنجوم السينما العصريين ، ومع هذا فإن تلك الفترة أظهرت موسيقى الساندرواسكرلاتي (١٦٥٩ — ١٧٢٥) الجمينة الوفيرة وهو البشير الممهد لموزار . وحدث في إنجلترا انفجار عظيم من النشاط الموسيقي بلغ أوجه في شخص بورسل (١٦٥٨ — ١٦٩٥) بعد فترة هدوء أثناء عصر الجمهورية . وفي ألمانيا أمدت البلاطات الصغيرة وجوقات المدن الشعب الألماني بقدر لا حصر له من مراكز الاستشارة الموسيقية ، وولد في ١٦٨٥ بسكسونيا يوهان سباستيان باخ وهاندل ، ليحملا الموسيقى الألمانية إلى سمت التفوق والاستعلاء الذي قدر لها أن تحافظ عليه طيلة قرن ونصف من الزمان .

(١) الفرچينال : آلة موسيقية صغيرة يلعب عليها بواسطة الدساتين (لوحة الأصابع) .

(المترجم)

(٢) أسرة أماتي (Amatis) : اسم عائلة من صناع لإيطاليين للكمان وهم مؤسسو مدرسة الكمان الكريمونية . (المترجم)

(٣) انظر كتاب "Music" من تأليف السير و . ه . هادو .

يقول السر و . ه . هادو « لانهما بين جميع الملحنين قبل عصر فينا أشدهم وأوثقاهم ارتباطاً بزماننا هذا وإن صوتيهما ليرنان في آذاننا بألف اللهجات وأدناها إلينا » .

فأما بالسترينا الذى سجل لنفسه آنفاً ذروة فى الموسيقى ، فإنه بالمقايسة مخلوق يعيش فى عالم آخر . إذ كان تاجاً على مفرق أساتذة موسيقى جوقة المرتلين الكنسية قبل عهد الآلات العظيم . وجاءت بعقب أسماء باخ وهاندل مجموعة من أسماء أخرى . فإن هايدن (١٧٣٢ - ١٨٠٩) ، وموزار (١٧٥٦ - ١٧٩١) وبيتهوفن (١٧٧٠ - ١٨٢٧) يقفون مبرزين بين أشد الكواكب تألقاً . ذلك أن الفيض العظيم للموسيقى العصرية كان ينثال آنذاك عميقاً جياشاً واسع الجنبات . وما يزال يهيم ويفيض . ولا يتسع المقام هنا إلا لذكر المؤلفين الموسيقيين ثم ندلى إليك بعد ذلك فى فقرة موجزة أو ما إليها بتعميمات قليلة مركزة حول موسيقى القرن التاسع عشر وموسيقى أيامنا هذه . كانت هذه الموسيقى ، موسيقى القرنين السابع والثامن عشر إبان صنعها امتيازاً خاصاً لعالم صغير مثقف - هو من فى البلاطات من الناس ، ومن فى مدن المقاطعات والدور الريفية من أناس يستطيعون أن ينظموا حفلات عزف ومن من الناس فى مدن تحوى لكبرها دور الأوبرا وحجرات العزف . وكان نصيب الفلاح والعامل من الموسيقى فى أوروبا الغربية قدراً مطرد التناقص إبان القرنين السابع عشر والثامن عشر بينما كانت هذه الأشكال الجديدة آخذة فى التطور . ذلك أن الغناء الشعبى تدلى واضمحل وبدت عليه مظاهر التعرض للنسيان . وكان كل ما تبقى للكافة من الناس من حياة موسيقية هو بضع أغان شعبية ويضع ترانيم . والراجع أن النهضة الدينية فى تلك الأيام ، مدينة بشيء من قوتها الدافعة إلى إطلاقها سراح الحافظ الغنائى السجين . ولم يحدث إلا فى أيامنا هذه مع ظهور تطور ضخم فى الطرائق الآلية للإنتاج والنشر الموسيقى ، أن الموسيقى وقد صبغت بالصباغ العصري وخالطها النشوء والارتقاء وارتفعت فى علياء التسامى - تعود إلى نهار الحياة العادية . فأصبح من ثم باخ وبيتهوفن جزءاً من ثقافة الجنس البشرى العامة .

٧ - التصوير فى القرنين السابع عشر والثامن عشر

إن فى التصوير والعمارة فى هذا الزمان شأن موسيقاه ، مرآة تعكس الأحوال الاجتماعية فيه . وهو زمان تحطمت فيه الأفكار وتمزق السلطان ، ولم تعد اعتبارات

المظهر (object) والروعة تسبطر على الفن التصريرى . وقد نزلت الموضوعات الدينية إلى مرتبة ثانوية ، فحيثما عاجلها الناس عاجلها بوصفها أحداثاً صغيرة في قصة وليس بوصف كونها حقائق عظيمة هائلة . وتنحط أشكال الكنايات^(١) والرمزيات . فلأن المصور يصور من أجل الرؤية لا من أجل الفكرة ولا من أجل الحقيقة . وتحل صورة الحقيقة والواقع محل صورة الأبطال أو صور التبتل الدينى على نفس الشاكلة التى تحل بها الرواية محل الملحمة والرومانس العجيبة الخيال . والأستاذان المتفوقان في تصوير القرن السابع عشر هما فيلا سكويز (١٥٩٩ - ١٦٦٠) ورامبرانت (١٦٠٦ - ١٦٦٩) . إذ يخيّل إلينا أن الحياة كانت في نظرهما متكافئة كلها لا تتفاوت إلا بمقدار ما تقدم إليهما من مجال ضاق أو رحب لتحقيق الجمال في الجوّ والنور والمادة . وكان فيلا سكويز يقوم في البلاط الأسباني المتدهور ، برسم الباباوات والملوك دون تمليق ، ورسم الأقزام والمقعدين دون ما احتقار . ويغلى الرسم الدقيق التحليلي والتسجيلي (Documentary) مكانه في أشغال هذين الرجلين — وهما أول المصورين العصريين — لعملية إفراغ لإجمالى للأثر ، ولتركيز على وحدة الانطباعة وذلك على حساب كل الاعتبارات الثانوية . وكانت الصورة إلى ذلك العهد في حياة الماضى الشديدة لتركز ، إما شاهداً يشهد بشيء أو حثثاً على شيء أو تمليقاً لشخص أو حلية لمكان ؛ فأما الآن فلإنها أصبحت في عدد عظيم من الحالات ، شيئاً في حد ذاته ، شيئاً يوجد من أجل نفسه . فالصور تطلق بوصفها صوراً وتجمع في معارض للصور . وتطورت المناظر الطبيعية (Landscape) تطوراً قوياً ، كذلك تصوير مناظر الحياة العادية (Genre)^(٢) . وصارت الصور العارية (Nude) تنقش شكل لطيف مثير ؛ وفي فرنسا أبهج كل من واتوه وفراجونار وغيرهما طبقة الخاصة وتملقوهم بلمسة من التقديس الرقيق لحقائق الحياة الريفية . وإن الإنسان ليدرك في هذه الأشياء شواهد

(١) الكنايات (Allegory) ضرب من التصوير المجازى أو الرمزي برى إلى موثف له ظل من الحقيقة ومع ذلك فهو موضوع في عالم الخيال . (المترجم)

(٢) الجنر (Genre) . هو لفظ يطلق في النقش والتصوير على الصور التى تصور الحياة العادية من أمثال المناظر المنزلية أو الريفية أو القروية . (المترجم)

تم عن مجتمع نام مكون من أناس آمنين موفقين ذوى أرواح جدٌ ممتازة ، يقدرّون الحياة وينفصلون شيئاً ما عن مبادئها وآلامها جميعاً .

ولم يُبد عصر إيزابيث في إنجلترا أى تحمس في فنون التشكيل يطاول جهوده الأدبية والموسيقية . فهى إنما كانت تستورد مصوريها ومعماريها . بيد أنه حدث في القرنين السابع عشر والثامن عشر ، أن خلقت الثروة المتجمعة والرخاء المتكاثف اللذان أصابتهما تلك الدولة التى كانت حتى حين قطراً على هامش المدنية الغربية — أحوالاً توائم ازدهار المجهود الفنى ، حتى إذا وفى القرن الثامن عشر كان أمثال رينولدز (١٧٢٣ — ١٧٩٢) ، وجينزبورو (١٧٢٧ — ١٧٨٨) ورومى من المصورين الإنجليز يستطيعون أن يطاولوا أى مجهود معاصر .

وكانت هذه الفترة ، فترة الملكيات وطبقة الخاصة ، موائمة أيضاً أعظم الموائمة لتطور طرز معينة من العمارة . ذلك أن عمليات ناشطة من قبل في القرن السادس عشر ، كانت لا تزال تعمل عند ذاك بقوة متزايدة . وكان الملوك في كل مكان يبنون القصور ويعيدونها بناءً ، وكان النبلاء والأعيان يهدمون قلاعهم ويشيدونها منازل أنيقة . فأما منازل المدن فقد شرع فن العمارة في التفكير فيها على معيار أكبر . فأما فن العمارة الكنسى فإنه ذوى . وأضحى مجهود البلديات أقل أهمية نسبياً ، والواقع أن المثرى الكبير الفرد ، إنما هو القابض بيده على مفتاح الابتكار في ذلك العصر في هذا الشأن وفي غيره من الشؤون . وأتاح احتراق قسم عظيم من لندن في الحريق الكبير (١٦٦٦) ، لإنجلترا نهضة خاصة أثبتت للسير كرسطوفرين^١ ، وإن كاتدرائية سانت پول وكنائس لندن ، لتسجل دوراً بالغاً الأوج في العمارة الإنجليزية . وكان له الفضل على أمريكا إذ أرسل إليها تصميمات لبيوت ريفية متنوعة شيدت هناك ، كما أن عبقريته الخاصة طبعت أثرها في فن التصميم الأمريكى الباكر . وكان إينيجو جونز شخصية عظيمة ثانية بين المعماريين الإنجليز في بواكير القرن السابع عشر ، وهذه قاعة الولايم التى قصد بها أن تكون قسماً من قصر في هوايت هول^(١) لم يتم بناؤه — تجعل عمله مألوفاً

(١) هوايت هول : قصر بناه ولم يتمه هنرى الثامن ودمرته النيران في ١٦٩٨ . (المترجم)

لدى كل زائر لمدينة لندن . وكان كل من هذين الرجلين بل في الواقع كل المعماريين الإنجليز والفرنسيين والألمان في تلك الفترة ، يشتغلون على أساس النهضة الإيطالية التي كانت ما تزال حية متطورة ، وذلك أن كثيرا من أحسن المباني في ذلك الزمان كان من عمل إيطاليين . وحدث بالتدريج مع اقتراب القرن الثامن عشر من نهايته ، أن توقف التطور الحر الطبيعي لعارة عصر النهضة ، إذ اعترضته موجة من التحذلق الكلاسيكي . وكان لما نال الدراسات الكلاسيكية بمدارس أوروبا الغربية من تجمد تدريجي ، نظير بدا في ظهور نزعة متزايدة إلى تقليد نماذج إغريقية ورومانية فما كان يوماً ما من المنهات أضحى الآن مخدراً ذهنياً تقليدياً مخبلاً للعقول . وأصبحت البيوت المالية والكنايس والمتاحف تبنى على صورة المعبد الأثيني ، وحتى شرفات (تراسات) المنازل نفسها أخضعت لنظام أبهاء الأعمدة (Colonnades) . ولكن أسوأ غلوّتها لهذه النزعات القاتلة ، جاء في القرن التاسع عشر خارج حدود عصرنا الراهن هذا .

٨ - نمو فكرة الدول العظمى

رأينا كيف ظهرت في الشئون الإنسانية فكرتا الحكم العالمي والمجتمع البشري ، وقصصنا كيف أن إخفاق الكنيسة المسيحية على اختلاف مذاهبها في توطيد وصيانة تينكم الفكرتين ، فكرتى مؤسسها يسوع ، قد أفضى إلى انهيار خلقى في الشئون السياسية وانتقال إلى الأناية ونقص في الإيمان . ورأينا كيف أن الملكية المكيافلية نصبت نفسها لمناهضة روح الأخوة في المسيحية ، وكيف أن الملكية المكيافلية تطورت في قسم كبير من أوروبا فأصبحت الملكيات العظمى والملكيات البرلمانية في القرنين السابع عشر والثامن عشر . بيد أن عقل الإنسان وخياله لا ينفكان ناشطين ، لذلك فقد كانت تنتسج انتساج الشبكة تحت سلطان الملوك الأعظمين مجموعة معقدة من الأفكار والتقاليد ، تهدف إلى اصطيد عقول الناس والإمساك بها . تلك المجموعة المعقدة هي فكرة السياسة الدولية لا بوصفها موضوع معاملات بين الأمراء ، بل بوصف كونها موضوع معاملات بين نوع من الكائنات الخالدة ، هي الدول .

ذلك أن الأمراء يجيئون ويذهبون . فإن لويس الرابع عشر قد يخلفه لويس خامس عشر متصيد لربات الدل والجمال ، وقد يخلفه بدوره ذلك صانع الأقفال الهاوى الغبي لويس السادس عشر . وجاء بعد بطرس الأكبر خلف متعاقب من القيصرات . وكان أهم مظهر مستمر لآل هابسبرج بعد شارل الخامس ، في كل من النمسا أو أسبانيا ، تواملا للشفاة الغليظة والذقون القبيحة والاعتقاد في الخرافات . وإن النذالة المحببة التي يبيدها ملك مثل شارل الثاني ، لتتخذ من مدعياته هزواً وسخرية . فأما الشيء الأرسخ قدماً فهو أعباء وظيفة وزير الخارجية ، وفكرات الناس الذين كتبوا عن اختصاصات الدولة . وقد كان الوزراء يحافظون على استمرار السياسة أيام اعتكاف ملوكهم ، وفي الفترات التي يخلو فيها العرش بين ملك وخلفه .

ولذا فإننا نجد أن الأمير أصبح بالتدريج أقل أهمية في أذهان الناس من « الدولة » التي كان الأمير رأساً لها ، ومن ثم يحين الزمان الذي نقرأ فيه القليل فالأقل عن خطط وأطاع هذا الملك أو ذاك ، ونقرأ أكثر عن « خطط فرنسا » أو « أطاع بروسيا » . فإننا نجد في عصر كانت فيه العقيدة الدينية في انحدار ، رجالاً يظهرن الإيماناً جديداً جازماً بحقيقة هذه الشخصيات المعنوية . وذلك أن تلك الأطياف الضخمة المهمة وأعنى بها « الدول » تسالت خفية إلى الفكر السياسي الأوربي ، حتى تسلطت عليه تسلطاً كاملاً عند ختام القرن الثامن عشر وإبان التاسع عشر . وهي لا تبرح متسلطة عليه إلى يومنا هذا . وظلت القارة الأوربية مسيحية اسماً ، ولكن عبادة رب واحد روحاً وحقيقة معناها الانتماء إلى مجتمع واحد يضم كل زملاء الإنسان في تلك العبادة . ولكن الواقع العملي أن أوربا لا تفعل ذلك ، بل إنها قد سلمت نفسها تسليمياً تاماً لعبادة تلك الرطازة (Mythology) العجيبة المسماة بالدولة . ومن أجل هذه الآلهة « الدول ذات السيادة » ، ومن أجل وحدة « إيطاليا » ، وزعامة « بروسيا » ، ومن أجل مجد « فرنسا » ، ومقدرات « روسيا » ، ضحت بأجيال عديدة بن الوحدة الممكنة والسلام والرخاء وأودت بحياة ملايين من الرجال .

والنظرة إلى القبيلة أو الدولة كنوع من الشخصية إنما هي نزعة قديمة جداً في العقل

الإنسانى . والكتاب المقدس حافل بمثل هذه التجسمات أو الشخصيات المعنوية . فإن مملكة يهوذا وأدوم وموآب ومملكة آشور (آشوريا) لتبدو في الكتب المقدسة العبرانية كأنما هي أفراد . بل قد يكون من المستحيل في بعض الأحيان أن يقول المرء هل الكاتب العبرى يعالج شخصاً أو أمة؟ ولا خفاء في أنها نزعة بدائية وطبيعية . ولكنها في حالة أوروبا العصرية ، ضرب من النكوص . فإن أوروبا في كنف فكرة « عالم Christendom » المسيحية تقدمت مراحل كثيرة في سبيل الوحدة . وبينما كانت شخوص قبلية أمثال « إسرائيل » أو « صور » تمثل بالفعل مجتمعاً بعينه من القرابة الدموية ، واتساقاً بعينه في الطراز وتآلفاً في المصلحة ، فإن الدول الأوربية التي نشأت في القرنين السابع عشر والثامن عشر ، كانت وحدات افتعالية تماماً . فالروسيا مثلاً كانت في الحقيقة مجموعة من أشد العناصر تبايناً وعدم تجانس ، ما بين قوزاق وتتار وأوكرانيين ومسكوفيين ثم انضم إليهم — بعد زمان بطرس — الاستونيون واللثوانيون . وكانت فرنسا في حكم لويس الخامس عشر تضم الألزاس الألمانية ومناطق بورغنديا المتمثلة حديثاً ، وكانت سجناً للهوجنوت المهيضى الجناح ومستنزفاً لحياة الفلاحين . فأما في « بريطانيا » فإن انجلترا كانت تحمل على كاهلها الممتلكات الهانوفرية في ألمانيا كما تحمل اسكتلندة ، وأهل ويلز الأجانب تماماً ، والإرلنديين الكاثوليك المعادين . وإن هناك دولاً كالسويد وبروسيا ، وأكثر منها في هذا بولندة والنمسا ، وكلها تروح إذا نحن تتبعناها في سلسلة من الخرائط التاريخية ، — تتقلص وتتمدد ، وتقذف بزوائدها وذوائبها خارجاً وتتجول فوق خريطة أوروبا كما تفعل الأميبا تحت الميكروسكوب .

ولو أننا تأملنا سيكولوجية العلاقات الدولية كما نراها متجلية في العالم المحيط بنا ، وكما يظهرها تطور فكرة « الدولة » في أوروبا العصرية ، لأدركنا حقائق بعينها على غاية الأهمية من الوجهة التاريخية عن طبيعة الإنسان . لقد قال أرسطو إن الإنسان إنما هو حيوان سياسى ، ولكنه في المعنى العصرى الذى لدينا عن كلمة « السياسة » وهى التى تشمل الآن سياسة العالم بأجمعها ، ليس بأى حال شيئاً من هذا القبيل . وما تزال غرائز قبيلة العائلة باقية فيه إلى يومنا هذا ، ولديه بعد هذا نزعة تدفعه إلى ربط نفسه وعائلته إلى شيء أكبر منهما ، أى إلى قبيلة أو مدينة أو أمة أو دولة .

ولكن هذه النزعة لو تركت ونفسها لكانت نزعة مبهمه جد غير نقادة . ومهما يكن من شىء ، فإنه ميال إلى خستية وكراهية كل نقد يوجه لذلك الشىء الأكبر الذى يحيط بحياته والذى سلم نفسه إليه ، كما أنه ميال إلى تجنب مثل هذا النقد . ولعل فى نفسه خوفاً شبه شعورى من العزلة التى قد تترتب على تحطيم النظام أو هدم ثقة الناس به ذلك أنه الوسط الذى يجد فيه نفسه أمراً مسلماً به . وإنه ليتقبل مدينته أو حكومته مثلما يتقبل الأنف أو الهضم الذى حباه الحظ به . بيد أن ولاءات الرجال ، أعنى الجوانب التى ينحازون إليها فى الأمور السياسية ليست فطرية ، وإنما هى نتائج تربية وتعليم . ولكن التعليم الذى يتلقاه أغلب الناس فى تلك الأمور إنما هو التعليم الصامت المستمر الصادر عن الأشياء المحيطة بهم . فإن الناس يجدون أنفسهم جزءاً من إنجلترا المرحية أو روسيا المقدسة . وهم إنما يشبون على هذه العقائد ويتقبلونها كجزء من طبيعتهم .

الواقع أن العالم شرع يدرك ولكن بغاية البطء ، إلى أى حد من العمق يمكن التعليم الضمنى المفهوم بالاستنتاج والذى تجىء به الظروف العابرة ، أن يُستكمل أو أن يُعدل أو يصحح بالتعليم الإيجابى والأدب والجدال ، والخبرة المنقودة نقداً صحيحاً . فحياة الفرد العادى الحقيقية هى حياته اليومية وأعنى بها الدائرة الصغيرة لعواطفه ومخاوفه وجوعاته وشهواته واندفاعاته الخائلة . وهو لا يلزم عقله المتكبر أن يؤثر فى الشئون السياسية إلا عندما يُوجَّه نظره إليها بوصفها شيئاً له أثره الحيوى فى تلك الدائرة الشخصية . ولا تكاد تكون هناك مبالغة فى القول بأن الرجل العادى يفكر فى الأمور السياسية بأقل قدر مستطاع ، وأنه يكف عن التفكير فيها بأسرع ما يستطيع . فالعقول الشديدة التطلع والقدرة الاستثنائية ، أو العقول التى استطاعت بفضل المثل المحتذى أو التربية الممتازة بلوغ تلك العادة العلمية ألا وهى الرغبة فى معرفة أسباب الأشياء ، أو العقول التى حزت فيها أو صدمتها كارثة قومية عامة حتى استثارها إلى التخوف من الأخطار المقبلة ، هى وحدها التى تأبى قبول حكومات ونظم سخيفة غير معقولة واعتبارها مقبولة لا بأس بها لمجرد أنها لم تؤذ تلك العقول ولم تسبب لها ما يكدرها شخصياً . وإن الكائن الإنسانى العادى لينضوى — حتى يأتى الوقت الذى

يستثار فيه على تلك الشاكلة - تحت ظلال أية مناشط جماعية تجرى في هذا العالم الذى يجد فيه نفسه ؛ كما أنه يتقبل أى تعبير أو رمز يواجه حاجته المبهمة إلى شىء أعظم وأكبر يمكن أن ترسو لديه وتطمئن إليه شئونه الشخصية ودائرته الفردية .

فإذا نحن وعينا جيداً هذه التحديدات الواضحة التى تغل طبيعتنا ، لم يصبح بعدُ سرّاً خافياً كيف أنه كما حدث أن فكرة اتخاذ المسيحية أخوة عالمية بين الناس قد هوت في دركات المهانة وضياح الثقة بسبب اشتباكها القاتل بدسائس القساوسة ومطامع البابوية من ناحية ، وبسلطان الأمراء من ناحية أخرى ، ومن ثم انتقل عصر الإيمان إلى عصرنا الراهن عصر الشك وعدم الإيمان ، - فقد حول الناس مدار حياتهم عن ملكوت الرب وأخوة الجنس البشرى إلى هذه الحقائق الماثلة بين أيديهم والأكثر في ظاهرها دواماً وحياة ، وهى فرنسا وإنجلترا والروسيا المقدسة وأسبانيا وبروسيا ، التى كانت على الأقل تتجسم في شخص بلاطات ناشطة ، والتى كانت تحافظ على القوانين وتظهر القوة بواسطة الجيوش والأساطيل ، والتى كانت تلوح ببراياتها في هيئة جند ووقار تعنو لعزتها الجباه كما كانت رافعة رؤوسها اعتزازاً بالنفس همة منهم من لا يشبع بصورة متسقة تمام الاتساق مع الطبيعة الإنسانية .

ولا مرء أن رجالا من أمثال الكردينال ريشليو والكردينال مازارين كانوا يرون أنفسهم خداماً لغايات أعظم من غاياتهم هم ، ومن غايات ملوكهم ، إذ يخدمون فرنسا شبه المقدسة التى تصورها لهم أخيلتهم . كما لامراء أيضاً أن هذه العادات العقلية انسابت منهم إلى مرووسهم وإلى هيئة الشعب العامة . وفي القرنين الرابع عشر والخامس عشر كان عامة السكان في أوروبا تستمسك بالدين ولم تكن وطنيتهم إلا شيئاً مبهماً ، فما أن حل القرن التاسع عشر حتى أصبحوا وطنيين يكلبتهم . فلو حدث في عربة مزدحمة من عربات السكك الحديدية الإنجليزية أو الفرنسية أو الألمانية في أخريات القرن التاسع عشر ، أن شخصاً سخر من الله لاستثار من العداوة قدرأ أقل كثيراً مما تستثيره السخرية بأحد من هاته المخلوقات العجيبة : إنجلترا أو فرنسا أو ألمانيا . فإلى هذه الأشياء تعلقت أذهان الناس ، تعلقت بها لأنه لم يبد في كل أنحاء العالم أى شىء آخر تقفنت النفوس بأن تتعاقى به . ولذا كانت هى آلهة أوروبا الحقبة الحية

لقد رفعوا الحكومات ووزارات الخارجية إلى مصاف المثل العليا ، وحلموا منها رطازة ، هي رطازة^(١) « الدول » ومحباتها وكرهياتها ونصالاتها . واشتد تشيع خيال أوروبا وآسيا الغربية بها إلى حد أن كانت مصدراً تستقي منه « أشكال تفكيرها » . ويكاد كل ما دون من التواريخ ، وكل الأدب السياسي في القرنين الأخيرين في أوروبا ، أن تكون مكتوبة بنفس تلك اللغة والروح . على أنه لا بد أن يأتي ذلك الزمان الذي سوف يقرأ فيه جيل أوضح نظرة وأصنى بصيرة ويرى في شيء من الارتباك والحيرة ، كيف حدث في المجتمع الأوروبي الغربي ، المكون في كل مكان (مع تنوعات طفيفة جداً) من خليط عنصرى مشترك من الشعوب النوردية والأيبيرية وعناصر نازحة سامية ومغولية وهي تتكلم في كل مكان تقريباً لهجات محورة عن نفس اللسان الآرى ، ولها ماضٍ مشترك متمثل في الإمبراطورية الرومانية ، وأشكال دينية مشتركة ، وعادات اجتماعية مشتركة وفن وعلم مشترك ، وهي تتزوج فيما بينها بحرية لا يستطيع إنسان معها أن يتكلم في أى نحقق عن جنسية (أى قومية) أى من أولاد أحفاده ، — كيف حدث أن كان في الإمكان أن تهيج في الرجل أقصى أنواع الانفعال حول مسألة عظمة فرنسا ، ونهضة وتوحيد ألمانيا ، وسدعيات روسيا واليونان المتنافستين على امتلاك القسطنطينية . ولسوف تبدو هذه المنازعات عند ذلك غريبة لا سبب لها ، جنونية لا عقل فيها ، شأن ما اندثر قبلها من منازعات لا يفهمها الناس الآن أمثال التي اشتجرت بين « الخضر والزرق »^(٢) الذين كانوا يملأون شوارع بيزنطة بالضجيج وسفلت الدماء

وهذه الأطياف أعنى الدول عظيم ما عظم تسلطها اليوم على عقولنا وحيواتنا إنما هي — كما بين لك هذا الكتاب أوضح بيان — أمور لا ترجع إلى أقدم من القرون

(١) الرطازة (Mythology) : هي أسطورة أو حكاية تقليدية كثيراً ما تعبر عن معتقدات وأحلام بدائية لشعب بعينه وعن طريقة تفسيره للظواهر الطبيعية والتاريخية . (المترجم)

(٢) الخضر والزرق : فرقتان رياضيتان قديمتان بالقسطنطينية كانتا تعدان حرساً للمدينة . وكان النزاع بينهما دائماً لا ينقطع (انظر للمترجم كتاب الحضارة البيزنطية في مجموعة الألف كتاب) .

(المترجم)

معالم تاريخ الإنسان - حء -

الأخيرة القليلة بل هي مجرد ساعة واحدة أو دور عرضي في التاريخ المقصود المتعمد لنوعنا البشرى . وهي تسجل دوراً من أدوار الانتكاس أو ضرباً من الانسلاخ من وكب التقدم ، مثلما يسجل نهوض الملكية المكيافلية حالة تخلف وقى عن مسيرة الركب . هي جزء من نفس دوامة العقيدة المضطربة المترددة تعترض سبيل اتجاهها العام وهو اتجاه أشد منها قوة وأبعد ما يكون عنها جملة وتفصيلاً : ألا وهو الاتجاه نحو الاتحاد الخلقى والذهنى للبشرية . لقد ارتد الناس حيناً من الدهر إلى أربابهم هؤلاء من قومية وإمبراطورية ولكن هذا لن يدوم إلا إلى حين . فإن فكرة « الدولة العالمية » ومملكة الصلاح العامة التي يصبح فيها كل كائن حى مواطناً ، كانت موجودة في العالم قبل ذلك بألفين من السنين ، ولن تغادر العالم بعد ذلك قط . وإن الناس ليعلمون أنها بين أيديهم وإن أبوا أن يعترفوا بها . وإنك لتحس في كتابات وأحاديث الناس عن الشئون الدولية اليوم وفي المناقشات الجارية الدائرة الآن بين ظهراني المؤرخين والصحفيين السياسيين ، - كأنما بين يديك رجال ثماون قد شرعوا يستفيقون ، ويداخلهم ذعر شديد من استفاقهم هذه . فهم لا يفتأون يتكلمون بصوت مرتفع عن « حبههم » لفرنسا و « كراهيتهم » ألمانيا وعن « سيادة بريطانيا التقليدية في البحار » ، وهكذا وهكذا . . . شأن أولئك الذين يغنون مترنمين بكؤوسهم بالرغم من تواصل ديبب الاستفاقة إليهم وخوفهم من زوال الخمار^(١) عنهم . وما تلك التي يخدمون إلا أرباب ميتة . فإن الناس لا يريدون في البحر أو البر دولا تتسم بالرفعة ، وإنما يبتغون القانون والخدمة . وإن ذلك التحدى الصامت الذي لامندوحة منه ولا مفر ، لموجود في أذهاننا وجود الفجر وهو يبرز في تمهل وأناة ، وينفذ ضياؤه خلال مصاريع حجرة مشوشة النظام .

٩ - جمهورية پولنذة المتوجة ومصيرها

كان القرن السابع عشر في أوروبا قرن لويس الرابع عشر الذي كان هو وعظمة فرنسا وقرساي قطب الرحي في القصة . وكان القرن الثامن عشر بالمثل « قرن نهضة

(١) الخمار : كما ورد في المعجم الوسيط : ما خالط الإنسان من سكر الخمر . [المترجم]

بروسيا كدولة عظمى» ، والشخصية الرئيسية فى قصته هى فردريك الثانى ، أى فردريك الأكبر . وتجىء قصته بولنده مشتبكة وتاريخه .

كانت الشئون فى بولنده ذات سمة خاصة . وبولنده بخلاف جيرانها الثلاثة الروسيا وبروسيا وملكية آل هابسبرج فى النمسا والمجر ، لم تطور لنفسها ملكية عظمى . ونحير وصف يوصف به نظام حكومتها أن يقال إنه كان نظاماً جمهورياً له ملك ، أى رئيس ينتخب مدى الحياة . وكان كل ملك ينتخب على حدة . فكأنها كانت فى واقع الأمر أبلغ فى روحها الجمهورية من بريطانيا ، ولكن روحها الجمهورية كانت أكثر أرسقراطية فى شكلها . وكان لبولنده تجارة طفيفة ومصنوعات قليلة العدد ، وكانت قطراً زراعياً ما يزال به مساحات عظيمة للرعى والغابات والأرض البراح ؛ فكانت لذلك قطراً فقيراً ، وكان أصحاب الأراضى فيها أرسقراطيين فقراء . وكانت همزة سكانها فلاحين أذلاء جهلة جهلاً وحشياً ، وكانت تؤوى كذلك جماهير غفيرة من اليهود الشديدى الإدقاع . وقد حافظت على عقيدتها الكاثوليكية . فكأنها كانت — إن صح هذا التشبيه — بريطانيا أخرى أرضية كاثوليكية فقيرة ، يكتنفها الأعداء من كل جانب مثل ما يكتنف البحر بريطانيا . ولم تكن لها على وجه الإطلاق أية تخوم محدودة ، فلا بحر ولا جبل . ومما زاد فى مصائبها أن بعض ملوكها المنتخبين كانوا حكاماً أذكىاء عدوانيين النزعة . فكان سلطانها يمتد شرقاً امتداداً ضعيفاً إلى مناطق يسكنها كلها تقريباً الروسون ؛ كما يشمل من ناحية الغرب بعض الرعايا الألمان .

ونظراً لأنها لم يكن لها تجارة عظيمة ، لم تنشأ لديها مدن عظيمة تقاس إلى مدن أوروبا الغربية ، ولا تكونت بها جامعات قوية تضم شتات ذهنها بعضه إلى بعض . وكانت طبقها النبيلة تعيش على ما تغله لها مزارعها ، دون الشىء الكثير من الاختلاط الذهنى . كانوا وطنيين النزعة ، ولديهم إحساس أرسقراطى بالحرية يتسق تماماً مع الإفقار المنظم الذى يعيش فيه موالى أراضيهم — ولكن وطنيتهم وحريتهم كانتا غير قادرتين على إنتاج التعاون الفعال . كانت بولنده يوم كانت الحروب أمر جمع للرجال والخيال ، دولة قوية نسبياً ؛ ولكنها لم تستطع بأى حال أن تماشى تطورات الفن

العسكري الذى كان يتخذ من قوات دائمة من جنود محترفين ، العدة الضرورية فى الحروب . ولكنها على ما كانت عليه من الانقسام وقلة الاقتدار ، تستطيع أن تكتب فى كتاب حسابها بعض انتصارات جديرة بالذكر . فإن الهجوم التركى الأخير على فيينا (١٦٨٣) قد قضى عليه الفرسان البولنديون بقيادة الملك حنا سوبيسكى (الملك جون الثالث) . وكان هذا السوبيسكى نفسه قبل أن ينتخب ملكا ، أجيراً يتقاضى المال من لويس الرابع عشر ، وكان قد حارب فى صفوف السويديين ضد وطنه . ولا حاجة بنا إلى القول ، أن هذه الجمهورية الأرستقراطية الضعيفة ، بانتخاباتها المتداركة الحدوث كانت تستدعى العدوان من كل من جيرانها الثلاثة . وكانت « الأموال الأجنبية » وكل نوع من أنواع التدخل تنساب إلى البلاد عند كل انتخاب . وكان كل مواطن بولندى ساخط منهم يفر - شأن الإغريق قديماً - إلى أحد الأعداء الأجانب ويصب جام غضبه على وطنه الناصر للجميل .

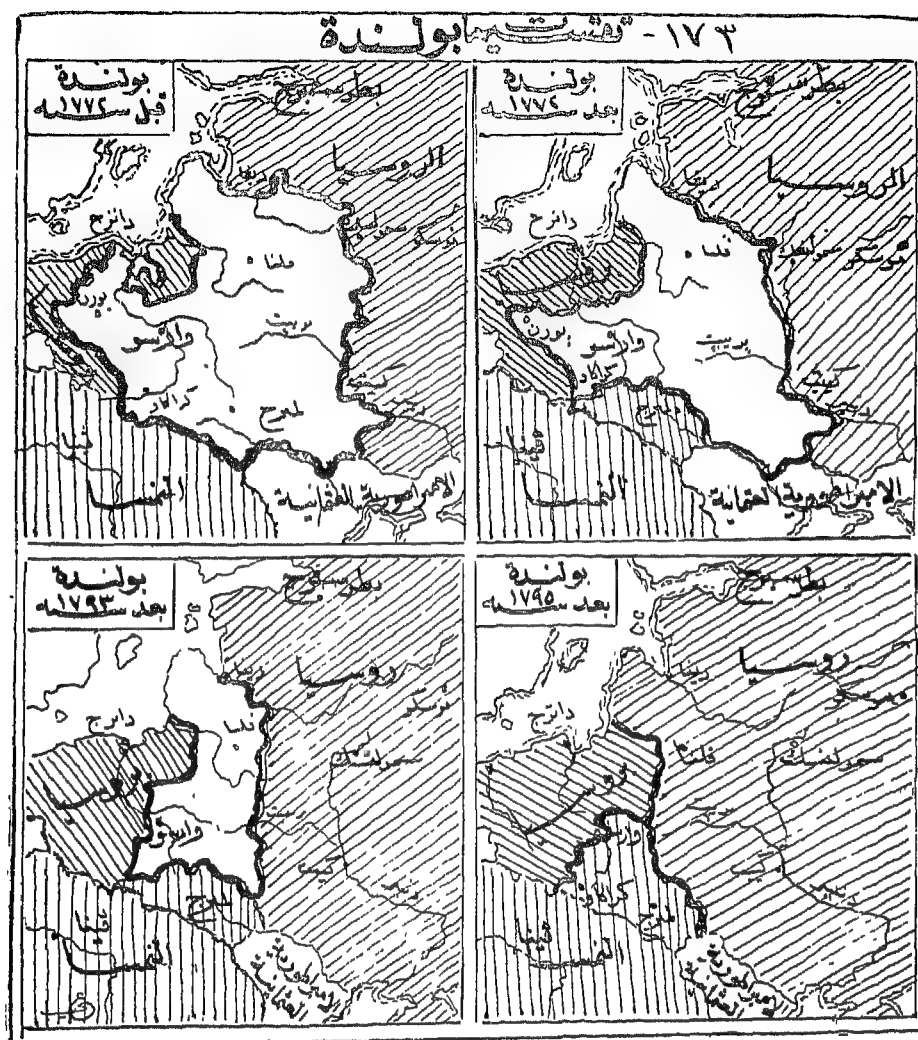
ولم تكن للملك البولندى إلا سلطة ضعيفة جداً حتى بعد أن يتم انتخابه ، وذلك بسبب غيرة النبلاء البولنديين بعضهم من بعض . إذ هم شأن النبلاء الإنجليز كانوا يفضلون الأجنبي ؛ ولأنه - لنفس السبب - لم يكن له عماد من قوة أو عزوة يرتكز عليها فى البلاد . ولكنه بخلاف البريطانيين لم تكن لحكومتهم نفس قوة التماسك التى كانت تعيرها للنبلاء البريطانيين الاجتماعات الدورية للبرلمان فى لندن ، التى كانوا يسمونها : « الحضور إلى العاصمة » . وكانت لندن ملتقى المجتمعات وما يتلوها من تماذج متواصل بين الفكرات وبين أصحاب النفوذ من الأشخاص . ولم تكن لهولندا مدينة كلندن ولا كان فيها « هيئة اجتماعية » . ولذا فالواقع أنه لم تكن لهولندا حكومة مركزية على الإطلاق . وما كان ملك هولندا بمستطيع أن يعلن حرباً أو يعقد صلحاً ، ولا أن يجبى ضريبة أو يغير قانوناً دون موافقة مجلس الدايت ، (وكان لكل عضو بمفرده فى مجلس الدايت الحق فى الاعتراض (Veto) على أى مقترح مطروح للبحث) . وما كان عليه إلا أن ينهض ويقول « إنى غير موافق » فيسقط الموضوع . بل إنه كان يستطيع أن يحمل حقه فى الاعتراض المطلق (Liberum Veto) إلى مدى أبعد من هذا . إذ يستطيع أن يعترض على اجتماع المجلس ، وعند ذلك يفحل الدايت . فكان بولندا

لم تكن إذن مجرد جمهورية أرستقراطية متوجة مثل تلك البريطانية ، بل كانت جمهورية أرستقراطية متوجة مشلولة .

وكان وجود بولنـدة في نظر فردريك الأعظم أمراً مثيراً بوجه خاص بسبب الطريقة التي كانت بها ذراع لبولنـدة تمتد إلى بحر البلطيق في دانـزج ، وتفصل ممتلكاته الموروثة عن أجداده في بروسيا الشرقية عن أراضيـه داخل الإمبراطورية . فكان هو من حرص كاترين الثانية قيصرية روسيا وماريا تريزا النمساوية — التي فاز باحترامها بحرمـانه إياها من سيلـيزيا — على القيام بهجوم مشترك على بولنـدة .

واسمحوا الآن لخرائط أربع لبولنـدة أن تروى لكم القصة .

وبعد هذا الانتهاك الذي أصاب بولنـدة في (١٧٧٢) ، ألم بفؤادها تغير كبير . إذ الواقع أن بولنـدة ولدت شعباً متماسكاً في ليلة انحلالها . إذ حدث فيها تطور إن يكن سريعاً فقد كان إلى ذلك جسماً ضخماً في التعليم والأدب والفن . ونشأ المؤرخون والشعراء بغتة ، وقذف جانباً بالدستور العقيم الذي جعل من بولنـدة دولة كـلية واهنة . وألغى حق الاعتراض المطلق ، وجعل التاج وراثياً من أجل إنقاذ بولنـدة من المؤامرات الأجنبية التي كانت تصحب كل انتخاب ، وأقيم برلمان يحاكي البرلمان البريطاني . على أنه كان هناك مع ذلك محبون للنظام القديم في بولنـدة ، كرهوا تلك التغييرات الضرورية ، وطبيعي أن تعين روسيا وبروسيا هؤلاء المعارضين ، إذ كانتا لا ترغبان في نهضة بولندية . وجاء التقسيم الثاني ، وبعد كفاح وطني عـيف ابتداء بالمنطقة التي سلختها بروسيا ، ووجد في كوزكيوسكو (Kosciusko) ، زعيماً له وبطلا وطنياً ، حدثت إزالة بولنـدة نهائياً من الخريطة . وبذا انتهى إلى حين من الزمان ذلك التهديد البرلماني للملكية العظمى في أوروبا الشرقية . ولكن وطنية البولنديين اشتد تضرمها وتلألاً صفائهم لهذا الضغط . فإن بولنـدة ظلت مئة وعشرين سنة تكافح كفاح مخلوق مغمور بالماء ، تحت تلك الشبكة السياسية



(سیکل ۱۷۳)

والعسكرية التي كانت تمسك بها وتغل سحرها . ثم نهضت ثانية في (١٩١٨) عند نهاية الحرب العظمى .

١٠ - أول تخاطف على الإمبراطوريات وراء البحار

أدلينا إليك ببعض البيانات عن ارتقاء فرنسا مدارج الرفعة في أوروبا ، وعن الانحلال السريع لذلك النماء الرخو الذى تمهأ للدولة الأسبانية وعن انفصالها عن

النمسا ، وقيام بروسيا . فأما فرنسا والبرتغال وأسبانيا وبريطانيا وهولندا ، فإن تنافسها على الرفعة في أوربا قد امتد وتعمد في كفاح على الممتلكات وراء البحار .

ذلك بأن اكتشاف قادة أمريكا وهى الضخمة القليلة السكان ، غير المتطورة والمكيفة تكيفاً زائعاً لإقامة الأوروبيين واستغلالهم ، وما رافق ذلك من اكتشافات لمساحات عظيمة من الأرض البكر جنوبى المناطق الاستوائية الحارة فى إفريقيا التى كانت حتى ذلك الحين تحدد من معرفة الأوروبيين ، ثم التوصل على التدرج إلى معرفة أقاليم جزيرية فسيحة فى البحار الشرقية ، لم تمسها حتى ذلك الحين المدنية الغربية ، — كانت بأكملها عملية عرض للنهزات أمام أعين الإنسانية لم يسبق لها مثيل فى التاريخ أجمع . وكأنما ورثت شعوب أوربا ميراثاً فاخراً باذخاً . فإن عالمهم تضاعف بغثة أربعة أضعافه . وكان لكل ما نبى بحاجته ويفيض . ولم يكن عليهم إلا أن يتسلموا تلك الأراضى وأن يواصلوا بها عيش الثراء ، وعند ذلك يتبدد ما هم عليه من فقر وتزاحم تبدد الحلم عند اليقظة . ولكهم تلقوا ذلك التراث الفاخر تلقى الورثة السيئى التربية . إذ لم يكن له لديهم من معنى إلا أنه ظرف جديد تتجلى فيه المنازعات الفظيعة . ولكن أنى لنا ذلك المجتمع البشرى الذى يؤثر الخلق والابتكار على المؤامرة ؟ وأى شعب فى قصتنا بأجمعها تعاون قط مع شعب آخر بينما كان يستطيع بأى ثمن أن يدبر المكاييد لإلحاق الضرر بذلك الشعب الآخر ؟ ابتدأت دول أوربا الأمر « بادعاء » المدعىات الجنونية المتهوسة على الأفطار الجديدة . ثم ترمى بهم الأمر إلى منازعات مستنفدة للقوى . فإن أسبانيا صاحبة أول الادعاءات وأشدّها ، والى ظلت ردحا من الدهر « سيدة » ثلثى أمريكا ، لم تفد من ممتلكاتها بطريقة أحسن من أن تنزف دماء نفسها فيها إلى درجة الموت تقريباً .

ولقد ذكرنا كيف أن البابوية فى آخر أدوار تمسكها بالسيادة العالمية ، قسمت القارة الأمريكية بين أسبانيا والبرتغال بدّل أن تحافظ على الواجب المشترك لكل عالم المسيحية بإنشاء حضارة عظيمة مشتركة فى الأراضى الجديدة . وطبعى أن يستثير ذلك عداوة الشعوب المحرومة . ومن ثم فإن رجال البحر الإنجليز لم يعيروا مدعىات الطرفين أى احترام ، ونصبوا أنفسهم ضد الأسبان بوجه خاص . وحول السويد

نزعتهم البروتستانتية إلى شيء من هذا القبيل . وما كاد الهولنديون يلقون عن أنفسهم نير أسيادهم الأسبان حتى نشروا قلوبهم غرباً ليسحروا من البابا ، وينالوا نصيبهم من خيرات العالم الحديد . فأما صاحب الخلافة الكاثوليكية الورعة ملك فرنسا ، فإنه لم يتردد إلا قدر ما يتردد أى بروتستانتى . فكانت كل هذه الدول مشغولة تنافس في دعاويها على أمريكا الشمالية وجزائر الهند الغربية .

ولم تغد المملكة الدانيمركية (وكانت آنذاك تضم النرويج وإيسلندة) ولا السويد شيئاً كثيراً جداً في هذا التخاطف . فضم الدانيمركيون إليهم بعض جزائر الهند الغربية . ولم تصل السويد إلى شيء منها . وكان كل من الدانيمرك والسويد في ذلك الأوان غائبتين في الشؤون الألمانية . فقد ذكرنا آنفاً جوستاف أدولف « أسد الشمال » البروتستانتى ، وأشرنا إلى حملاته في ألمانيا وبولندة والروسيا . والحق أن هذه الأقاليم الأوروبية الشرقية تمتص الطاقات امتصاصاً عظيماً ، وإن هذه القوة التي ربما كانت تكسب السويد قسماً عظيماً من العالم الحديد ، قد حصدت لها محصولاً عقيماً من المجد في أوروبا . وسرعان ما سقطت تلك المستقرات الصغيرة التي أنشأها السويديون بأمريكا في أيدي الهولنديين .

وكذلك الهولنديون أيضاً فإنهم وقد شهدوا حيالهم الملكية الفرنسية تحت الكردنيال ريشليو وتحت لويس الرابع عشر ، وهي تشق طريقها عبر الأراضي المنخفضة الأسبانية نحو تخومهم ، لم تكن لديهم الموارد غير المبددة ولا القوة المجتمعة التي كانت بريطانيا من خلف الحجج « بحرهما الفضي » تستطيع أن تقذف بها في ميادين المغامرات وراء البحار .

وفضلاً عن ذلك فإن الجهود التي بذلها في سبيل الحكم المطلق جيمس الأول ، وشارل الأول ، وعودة شارل الثاني ، كان من أثرها أن دفعت خارج إنجلترا عدداً عظيماً من البروتستانت الأقوياء العقول ، الجمهوريين الروح ، وهم قوم أشداء ذوو وطنية قوية وأخلاق متينة ، أقاموا في أمريكا ، وبوجه خاص في منطقة نيويورك ، بعيداً عن منال الملك وضرائه — فيما كانوا يظنون . ولم تكن السفينة « ماى فلور » إلا واحدة من السفن الأولى في فيض من سفن المهاجرين . وكانا من حسن طالع بريطانيا أنهم ظلوا تحت العلم البريطاني ، وإن كانوا مخالفين منشقين . فأما الهولنديون

فلم يرسوا إلى أمريكا البتة مستقرين على نفس وفرة العدد والرقى ، وذلك أولاً لأن حكامهم الأسبانيين لم يكونوا يسمحوا لهم ، وثانياً لأنهم تملكوا بلادهم هم . ومع أنه حدثت هجرة عظيمة للهوجنوت البروتستانت لما لقوا عذاب الدراجوناد واضطهاد لويس الرابع عشر ، فقد كان لهم من هولندا وإنجلترا ملتجأ قريب ، فانتقلت صناعاتهم ومهارتهم وجدهم وقناعتهم إلى ذينك القطرين فكان لهما منهم وبخاصة إنجلترا قوة أى قوة . وأسس القليل منهم المستقرات في كارولينا ، على أن هذه لم تستمر فرنسية . فإنها انتقلت إلى الأسبان أولاً ثم انتقلت آخر الأمر إلى الإنجليز . كذلك خضعت المستقرات الهولندية ومعها السويدية لبريطانيا . فأصبحت نيوأمستردام بريطانية (١٦٧٤) وتعُد اسمها إلى نيويورك ، كما قد يرى القارىء في كتاب واشنطن إرفنج الفكه : « تاريخ نيويورك الموجز » . وتبين حال الأمور بأمريكا في (١٧٥٠) تبيناً واضحاً جداً من خريطة كيفناها عن أخرى في كتاب « العصور الوسطى والحديثة » لروبنسون^(١) . وقد تأسست دائرة النفوذ البريطانية على امتداد الشاطئ الشرقي من سافانا إلى نهر سانت لورنس ، فأما نيوفونلند وأراضي شمالية مترامية هي أراضي شركة خليج هدسون فقد اكتسبت من الفرنسيين بمعاهدة صلح . واحتل البريطانيون بربادوس في (١٦٠٥) ، (وهي تكاد تكون أقدم ممتلكاتهم الأمريكية) ، واستحوذوا على جامايكا وجزائر بهاما وهندوراس البريطانية من الأسبان . ولكن فرنسا كانت تطارد صيداً خطراً مزعجاً جداً ، وهو صيد يبدو على الخريطة أشد خطراً وإزعاجاً منه في الحقيقة . فإنها أنشأت مستقرات حقيقية في كوبيك ومونتريال في الشمال وفي نيو أورليانز في الجنوب ، وتقدم مستكشفوها وعملاؤها جنوباً وشمالاً ، يعقدون المعاهدات مع الهنود الأمريكيين بالسهول العظيمة وبقيمون المدعيات — دون أن يقيموا المدن — عبر القارة بأكملها خلف منطقة البريطانيين . ولكن حقائق الموقف لا تمثل على هذا النحو تمثيلاً كافياً . فإن المستقرات البريطانية قد توطدت بها إلى أقصى حد إقامة طبقة صالحة من الناس ؛ وكان عددهم يتجاوز بالفعل المليون . وما كان الفرنسيون في ذاك الزمان يدانون عشرين ذلك العدد .

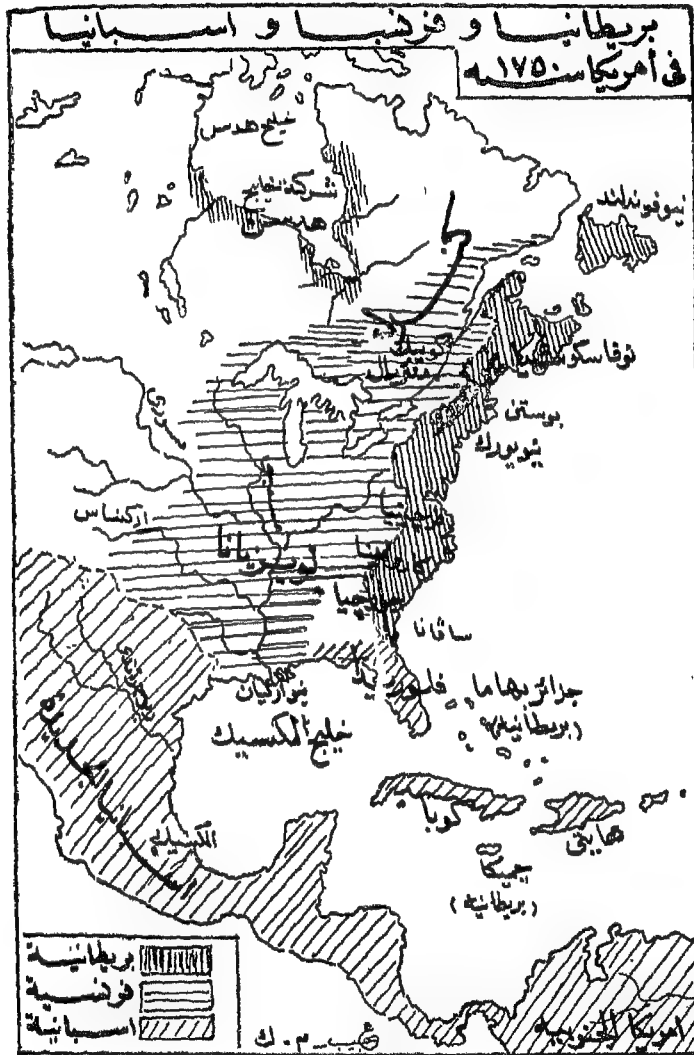
أجل كان لهم عدد من أذكاء الرحالين والمبشرين يعملون ناشطين ، على أنهم لم يكن من ورائهم مادة عظيمة من السكان .

وما يزال في الإمكان العثور على كثير من الخرائط القديمة لأمريكا في تلك الفترة ، وهى خرائط وضعت خصيصاً لإخافة البريطانيين واستثارتهم حتى يتنبهوا إلى « خطط الفرنسيين » في أمريكا . ونشبت الحرب في (١٧٢٤) . وفي (١٧٥٩) استولت القوات البريطانية وقوات المستعمرات بقيادة الجنرال وولف على كويبك وأتمت من فتح كندا في السنة التالية . وما وافت (١٧٦٣) حتى كانت كندا قد انتقلت نهائياً إلى أيدي بريطانيا . (على أن الجزء الغربى من إقليم لويزيانا الذى يكاد يكون لا حد له في الجنوب ، والمسمى باسم لويس الرابع عشر ، ظل خارج الدائرة البريطانية . فأخذته أسبانيا ، وفي (١٨٠٠) استردته فرنسا . ثم اشترته آخر الأمر (١٨٠٣) حكومة الولايات المتحدة من فرنسا) . وفي هذه الحرب الكندية ، حصل المستقرون الأمريكيون على خبرة جسيمة في فن الحروب ، وعلى علم بالتنظيم العسكرى البريطانى عاد عليهم بعضهم بعض النفع بعد ذلك بزمان وجيز .

١١ - بريطانيا تسود الهند

لم يقتصر اصطدام الدولتين الفرنسية والبريطانية على أمريكا وحدها . بل إن أحوال الهند كانت في ذلك الزمان شديدة الجاذبية عظيمة اللذة للمغامرين الأوربيين . فإن الإمبراطورية المغولية العظيمة ، إمبراطورية بابر وأكبر وأورانغزيب ، كانت قد سارت في الانحلال شوطاً بعيداً . وما حدث للهند كان موازياً ومماثلاً لما جد لألمانيا . فإن المغولى الأكبر ، شأن إمبراطور الدولة الرومانية المقدسة في ألمانيا ، كان ما يزال صاحب السيادة العليا شرعاً ، ولكنه كان بعد وفاة أورانغزيب ، يتولى سلطة اسمية ليس غير ، اللهم إلا في المنطقة المجاورة مباشرة لعاصمته . وقد حدث نهوض عظيم في الهندوكية وفي الروح الوطنية . ففي الجنوب الغربى ثار على الإسلام شعب هندوكى هو الماراتا (Mahrattas) ، وأعاد البرهمانية ديانة سائدة . ثم بسطوا سلطانهم حيناً من الدهر فوق مثلث الهند الجنوبي بأجمعه . وتقوض حكم الإسلام في راجپوتانا

أيضاً وحلت محله البرهمانية ، وكان يحكم في هورتبور وفي چاپور ، أمراء راجپوتانيون أقوياء . وكانت في أوده مملكة شيعية عاصمتها لكهنو ، وكانت البنغال كذلك مملكة إسلامية منفصلة . ونشأت في بلاد البنجاب القصية في الشمال هيئة



(شكل ١٧٤)

دينية شائقة جداً هي السيخ ، الذين أعلنوا أن الحكم العام لرب واحد وهاجوا الفيدا الهندوكية والقرآن الإسلامي على السواء . وكان السيخ في الأصل طائفة سلم ما لبثوا أن

١١٢٧

الأفغانيين ردحاً من الزمان على حكم شمال الهند . ثم تخطمت دولة الماراتا وتقسّمها عدد من الإمارات وهي إندور وجواليور وبارودا وغيرها . فكانت الهند في القرن السابع عشر شديدة الشبه بأوروبا في القرن السابع أو الثامن ، إذ كانت أرض نهوض بطيء لا يفتأ المغيرون الأجانب ينزلون بها الكوارث .

ذلك شأن الهند التي كان يندفع إليها الفرنسيون والإنجليز إبان القرن الثامن عشر . ذلك أن عدداً متعاقباً من الدول الأوروبية الأخرى ما فتئ يكافح طلباً لمرسى تجاري وسياسي في الهند والشرق ، منذ السنة التي قام فيها فاسكودا جاما برحلته العظيمة حول رأس الرجاء إلى قاليقوت . وكانت تجارة الهند البحرية قبل ذلك في يد عرب البحر الأحمر ، فظفر بها منهم البرتغاليون بعد سلسلة من المعارك البحرية . إذ كانت السفن البرتغالية أكبر حجماً ، وكانت تحمل أسلحة أثقل . وظل البرتغاليون



(شكل ١٧٦)

زماناً وزمام التجارة الهندية ملك خاص ليمينهم ، وبزت لشبونة البندقية كسوق للأفاويه الشرقية . ومهما يكن من شيء فإن القرن السابع عشر شهد الهولنديين قابضين على هذا الاحتكار . وكان للهولنديين وهم في أوج قوتهم مستقرات عند رأس الرجاء الصالح ، هذا إلى جزيرة موريشيوس ، وإلى مؤسستين في فارس ، واثنتي عشرة في الهند ، وست في سيلان ، وكانوا قد نثروا محطاتهم المحصنة في كل أرجاء جزائر الهند الشرقية . ولكن ما أبدوا من عزم أناني على حرمان التجار من أية جنسية من الاستفادة من تجارة الشرق ، ألبأ السويديين والدانمركيين والفرنسيين والإنجليز إلى المنافسة العدائية . فكانت أولى الضربات التي كملت لاحتكارهم وراء البحار ، تلك التي وجهها بليك الأميرال الإنجليزي الجمهوري في المياه الأوربية . وكان كل من الإنجليز والفرنسيين عند مفتتح القرن الثامن عشر في نزاع ومنافسة قوية للهولنديين على التجارة والامتيازات في كل أرجاء الهند . وأنشأ الإنجليز مراكزهم الكبرى في مدراس ومبای وكلكتا ؛ وكانت المستقرات الفرنسية الرئيسية هي بوندتشرى وشاندر ناجور .

وفي بادئ الأمر ، كانت كل هاتبة الدول الأوربية تأتي بوصفها مجرد متعجرين ، وكانت المؤسسات الوحيدة التي يحاولون تشييدها هي المخازن . ولكن حالة البلاد غير المستقرة ، والطرق غير الشريفة التي كان يتبعها منافسهم ، جعلت تحصينهم أنفسهم وتسليحهم شيئاً طبيعياً ، وجعلهم هذا التسليح حلفاء جذابين في أعين الأمراء المتنوعين المتقاتلين الذين كانت تنقسم الهند آنذاك بينهم . وكان مما يتواء تماماً وروح السياسة القومية الأوروبية الجديدة ، أنه ما يكاد الفرنسيون ينضمون إلى جانب ، حتى يجب أن ينحاز الإنجليز إلى آخر . وكان الزعيم في الجانب الإنجليزي هو روبرت كلايف ، المولود في (١٧٢٥) والذي وصل إلى الهند في (١٧٤٣) . وكان خصمه الأكبر هو دوپليه . ولكن قصة هذا الكفاح الذي استغرق النصف الأول من القرن الثامن عشر أطول وأعقد من أن يتسع لها هذا المكان . ولما وافت (١٧٦١) نظر الإنجليز وإذا لهم السيادة الكاملة على شبه الجزيرة الهندية . وفازت جنودهم في پلاسى (١٧٥٧) وبوكسر (١٧٦٤) بانتصارات رائعة فاصلة على جيش البنغال وجيش أوده . وكان المغولي الأكبر ، صاحب السيادة عليهم اسماً ، قد أصبح في الحقيقة ألعبتهم الخاضعة .

وكانوا يجنون الضرائب في مساحات عظيمة ؛ وكانوا يحتمون دفع التعويضات جزاء
لأية معارضة حقيقية أو خيالية .

على أن هذه الانتصارات لم تحرزها أيدي قوات ملك إنجلترا مباشرة ، بل فازت
بها شركة الهند التجارية ، التي ما كانت في الأصل حين إنشائها في حكم الملكة
إليزابيث ، إلا شركة من المغامرين البحريين . واضطروا خطوة فخطوة أن يجمعوا
الجنود وأن يسلحوا سفنهم وعند ذلك وجدت هذه الشركة التجارية بما لها من تقاليد
الكسب والربح ، أنها لا تنجر فعسب في الأفويه والأصباغ والشاي والجواهر ، بل
في إيرادات الأمراء وممتلكاتهم وفي مقدرات الهند . جاءت لتشتري وتبيع ، ووجدت
نفسها تصيب قرصنة هائلة . ولم يكن هناك من إنسان يتحدى تصرفاتها . أعجيب إذن
أن قادتها وضباطها وموظفيها ، كلا بل كتنبتها وجنودها العاديين ، كانوا يعودون
إلى إنجلترا محملين بالغنائم ؟ إن رجالا في مثل هذه الظروف وتحت رحمتهم أراضى
عظيمة غنية ، لا يستطيعون أن يميزوا بين ما يجوز أن يفعلوه وما لا يجوز . كانت
في أعينهم أرضاً عجيبة ذات شمس عجيبة الضياء . وكان سكانها السمر القاتمون
جنساً مختلفاً ، يخرج عن مجال عطفهم . وكانت معابدها ومبانيها تبدو كأنما تقيم
أركان معايير للسلوك وهمية سخيفة .

وكانت خواطر الإنجليز في بلادهم تضطرب وتبلبل عندما يعود هؤلاء القادة
والموظفون إلى بلادهم ويتراشقون بالتهم السوداء ما بين ابتزازات وقساوات . وأصدر
البرلمان قرازاً بلوم كلايف . فقضى على نفسه انتحاراً في (١٧٧٤) . وفي (١٧٨٨)
حوكم وارن هاستنجز وهو مدير عظيم آخر للهند وقضى ببراءته (١٧٩٢) . وكان
ذلك الموقف موقفاً غريباً لم يسبق له مثيل في تاريخ العالم . فإن البرلمان الإنجليزي ألقى
نفسه يحكم فوق شركة لندنية للتجارة ، كانت بدورها تتسلط على إمبراطورية أعظم
وأكثر سكاناً من كل ممتلكات التاج البريطاني . وكانت الهند في نظر كتلة الشعب
الإنجليزي أرضاً شاسعة خيالية سخيفة لا يكاد يستطيع الوصول إليها . لم يذهب إليها
إلا فقراء الشباب من المغامرين ليعودوا إلى وطنهم بعد سنوات كثيرة سادة مسنين أغنياء
جداً حادى الطبع جداً . وكان من العسير على الإنجليز أن يتصوروا ماذا يمكن أن

تكون عليه حياة ملايين السمر الذين لا يحصرهم عدد في ضياء شمس الشرق . وكانت أخيلتهم تأبى عليهم حمل هذه الصورة . فظلت الهند شيئاً غير حقيقى يشابه في غرابته الروايات الرومانسية ومن ثم كان من المستحيل على الإنجليز ، أن يقيموا أى إشراف ورقابة فعالين ، على تصرفات الشركة .

١٢ - تقدم روسيا إلى المحيط الهادى

وعلى حين كانت شبه الجزيرة العظيمة في الجنوب من آسيا تقع على هذا النحو تحت سلطان التجار البحريين الإنجليز ، كان يحدث في الشمال رد فعل آخر لأوروبا على آسيا معادل لذلك عظيم . ولقد سبق أن نبأنا القارىء كيف استردت الدول المسيحية في روسيا استقلالها من الرهط (الحشد) الذهبى ، وكيف أصبح قيصر روسيا سيداً على جمهورية نوفجورود ؛ وأخبرناك في القسم الخامس من هذا الفصل عن بطرس الأكبر وهو ينضم إلى جماعة الملوك العظام ثم يسوق روسيا في الواقع إلى أوروبا سوفاً . ونهوض هذه الدولة الكبرى التى تتوسط العالم القديم .والتي لا هى بالشرقية تماماً ولا هى بالغربية تماماً ، نهوض ذو أهمية قصوى لمقدراتنا الإنسانية . كذلك نبأناك في الفصل ذاته عن ظهور شعب مسيحي في السهوب ، هم القوزاق الذين كانوا حداً فاصلاً بين زراعة بولنדה وهنغاريا الإقطاعية من ناحية الغرب وبين التتار من ناحية الشرق . وكان القوزاق يمثلون شرق أوروبا المتوحش ، وكانوا في كثير من الوجوه لا يختلفون كثيراً عن القسم الغربى المتوحش في الولايات المتحدة إبان منتصف القرن التاسع عشر . فكل من أحقن عليه صدر روسيا حتى لم تعد تطيق أن تؤويه ، من أمثال المجرمين ثم الأبرياء المضطهدين ، وموالى الأرض الثائرين ، وأعضاء الشيع الدينية ، واللصوص ، والأفاقيين والقتلة ، كانوا يلوذون بملجأ السهوب الجنوبية ، ثم يبدعون حياتهم من جديد ويقاثلون من أجل الحياة والحرية ضد كل من البولنديين ، والروسين ، والتتار على السواء . ولا مرية في أن لاجئين من التتار في الشرق كانوا ينضمون كذلك ويزيدون في عدد خليط القوزاق . وكان أكبر هذه القبائل المبرحلة بالحديدة ، قوزاق أوكرانيا على نهر الدنيبر وقوزاق الدون على نهر الدون . وضُمَّ

هؤلاء القوم على الحدود في بطاء إلى الخدمة الإمبراطورية الروسية ، على نفس الطريقة التي تم بها تحويل عشائر الأراضي المرتفعة (هايلاند) في اسكتلندا إلى فرق أنشأتها الحكومة البريطانية . فنحوا أراضي جديدة في آسيا . فأصبحوا سلاحاً ضد قوة المغول المترجلين المضمحلة ، في التركستان في مبدأ الأمر ، ثم عبر سيبريا حتى نهر العامور .

وانحلال الطاقة المغولية في القرن السابع عشر والثامن عشر أمر يعسر علينا جداً أن نفسره . فلم ينقض قرنان أو ثلاثة على أيام چانكيز وتيمورلنك ، حتى انحدرت آسيا الوسطى من فترة رفعة عالمية إلى حالة كلال ووهن سياسى مفرط . ولعل تغيرات في المناخ ، وأوبئة لم يسجلها التاريخ ، وعدوى من طراز يشبه الملاريا ، قد قامت بدورها في هذا التأخر الذي ألم بشعوب آسيا الوسطى ، والذي ربما لا يكون إلا تأخراً موقوتاً إذا قيس إلى معيار التاريخ العام . ويظن بعض الثقات أن انتشار التعاليم البوذية من الصين إلى تلك الأصقاع كان له أيضاً أثر مهدئ لنفوسهم . ومهما يكن من شيء ، فلم تعد شعوب التتار والترك المغولية عند حلول القرن السادس عشر محافظة على ضغطها نحو الخارج ، بل تحولت بهم الحال ، فأصبحوا هم الذين يُغزون ويُقهرون ويُدفعون إلى الخلف من كل من روسيا في الغرب والصين في الشرق .

وظل القوزاق ينتشرون نحو الشرق طَوَالَ القرن الثالث عشر من روسيا الأوربية ويستقرون حيثما تهيأت لهم الظروف الزراعية . وكانت نطاقات من التحصينات والمحطات تقوم مقام التحوم المتحركة لهذه المستقرات في الجنوب ، حيث كان التركمان لا يبرحون أقوياء ناشطين ، ومع ذلك فإن روسيا من الجهة الشمالية الشرقية لم تكن لها تحوم حتى وصلت إلى المحيط الهادى نفسه . وكانت الصين في نفس الوقت في دور اتساع . إذ أن الغزاة « المانشو » بثوا في الشئون الصينية طاقة جديدة ، وأدى اهتمامهم بمناطق الشمال إلى توسع شمالى عظيم لحضارة الصين وسلطانها في كل من منشوريا ومنغوليا . وهكذا حدث عند منتصف القرن الثامن عشر أن

تلاحم^(١) الروسون والصينيون في منغوليا . وكانت الصين في تلك الفترة تحكم
التركستان الشرقية ، والتبت ونيبال ، وبورما وأنام .

وكان عصر المانشو في الصين فترة نشاط أدبي جسيم أيضاً ، مماثل لعصور نظرائهم
في أوروبا وإن استقل عنها الاستقلال كله ، فإن الرواية الصينية والقصة الصينية القصيرة
ارتفعتا إلى مستويات عالية في الأسلوب والإمتاع ، وحدثت للدرامة الصينية تطورات
هامّة . وصورّت مناظر أرضية ممتازة كثيرة ، واخترعت الطباعة بالألوان ، وتعلم
الناس الحفر على النحاس من المرسلين اليسوعيين ، وارتقى صنع الخزف (البورسلين)
الصيني إلى ذراً لا مثيل لها من الرفعة . ولكن السمة الجمالية لهذا الخزف انحطت
مع تقدم الزمن بالقرن الثامن عشر بسبب مسارعة الفخراية إلى تكييف أنفسهم
طبقاً لما كانوا يعدونه الذوق الأوربي . وتواصل التصدير طيلة هذا القرن كله إلى
السرايات والقصور والدور الريفية التي للنبل والأعيان الأوربيين . وقلدت صناعة
الخزف الأوربية المنتجات الصينية ونافستها ولكنها لم تفقها قط . وابتدأت أيضاً تجارة
الشاي الأوربية .

سبق أن ذكرنا غزواً يابانياً للصين (أو بالحرى لكوريا) . ولا تلعب اليابان
فيما عدا عدوانها هذا على الصين ، أي دور في تاريخنا قبل القرن التاسع عشر فإنها —
شأن الصين تحت حكم أسرة منج — قد نصبت نفسها في حزم وعزم ضد تدخل
الأجانب في شئونها . فكانت قطراً يعضى قدما في ظل حياته الحضارية الخاصة .
وهو مخنوم ختماً سحرياً ضد كل دخيل . وقد حدثناك عنها بالنزر اليسير حتى
الآن لأن كل ما لدينا كان ذلك النزر اليسير . فإن تاريخها الجميل الجذاب الرومانسي
الشعري يقف بمعزل عن الدرامة العامة للشئون الإنسانية . كان سكانها في معظم أمرهم
من المغول ، بهم مسكة من شعب أبيض شائق جداً يوحى بطراز نوردي بدائي ،
هو الأينو (Ainu) المشعرون في الجزائر الشمالية . ويلوح أن مدينتها قد استمدت

(١) تلاحمت الأشياء : تضافت وتلاصقت بعد أن كانت منفصلة .

١١٣٣

كلها تقريباً من الصين وكوريا ؛ وأن فنها تطور خاص للفن الصيني وكتابتها تكييف للكتابة الصينية .

١٣ - رأى جييون في العالم في ١٧٨٠

كنا نعالج في هذه الأقسام الاثني عشر السابقة عصرُ فرقة وانقسام ، وقوميات متفرقة . وسبق أن شهننا تلك الفترة في القرنين السابع عشر والثامن عشر بفترة « عطل واخلو » من الدافع الأعلى توقف فيها تقدم البشرية نحو وحدة تعم العالم أجمع . وقد حرمت عقول الناس طوال هذه الفترة من كل « فكرة موحدة جامعة » . فإن قوة دفع الإمبراطورية قد بلغ من إخفاقها أن الإمبراطور لم يعد يزيد عن فرد بين جماعة من الأمراء المتنافسين ، كذلك ذهب حلم « عالم المسيحية » أدراج الرياح . وكانت الدول المتطورة تتدافع بالمناكب في كل أرجاء العالم قاطبة ؛ وانقضى حين من الدهر كان يبدو أثناءه أنها سوف تمضي تتدافع بالمناكب إلى ما شاء الله دون أن تُعلم بالإنسانية أية نازلة عظيمة . وقد وسّعت المكتشفات الجغرافية العظيمة في القرن



(شكل ١٧٧) فولير

السادس عشر الموارد الإنسانية إلى درجة أنه بالرغم من انقساماتهم ، وبالرغم مما كانت تجره الحروب والسياسات على شعوب أوروبا من الخسارة والضياع ، فإن تلك الشعوب استمتعت بظلال رخاء جسيم متزايد . وراحت أوروبا الوسطى تنتعش انتعاشاً مطرداً مما حل بها من جراء حرب الثلاثين سنة .

وإذا نحن ألقينا إلى الخلف نظرة

إلى تلك الفترة التي بلغت ذروتها في القرن الثامن عشر ، كما قد نستطيع أن

نفعل ذلك اليوم ، ورأينا أحداثها بالعلاقة إلى القرون التي سبقتها ، وإلى الحركات العظيمة في الزمن الحاضر ، استطعنا أن ندرك كم كانت أشكالها السياسية موقوتة غير دائمة وعرضية طارئة وكم كانت ضماناتها غير ثابتة . كانت لا جرم عرضية طارئة على صورة لم تسبق لأى عصر آخر ، وكانت عصر تمثّل وإبلاّل بل هى كانت توقفاً سياسياً ، وتجميعاً لفكرات البشر وموارد العلم توطئة لجهود إنسانى أرحب . على أن العقل المعاصر لها لم يرها على هذه الصورة . فإن إخفاق الأفكار الخلاقة العظيمة بشكلها الذى صيغت فيه فى القرون الوسطى ، غادر الفكر الإنسانى حيناً من الدهر محروماً من هداية الأفكار الخلاقة ؛ فإن المتعلمين وذوى الخيال الفسيح أنفسهم كانوا يرون العالم بطريقة عارية من كل روعة ؛ فلم يعد فى نظرهم مكاناً تتفاعل فيه الجهود والمصائر بل مشهداً تلتبس فيه الفصائل الفاترة حسن الجزاء . ولم يكن أصحاب العقول المحافظة والقائعة هم وحدهم الذين كانوا يتفَيِّثون — فى عالم حافل بالتغيرات السريعة — أكناف هذا الاطمئنان الذى يحزم ببلوغ الشئون الإنسانية مرحلة الثبات والاستقرار . بل لقد أظهر نفس النزعة أصحاب الفطن القوية الناقدة والثائرة ، وذلك لامتناع وجود أى حركات تدعم روح المجتمع وتشد أزره فلأنهم أحسوا بأن الحياة السياسية تغيرت ولم تعد على ما كانت عليه من العجلة الفاجعة ؛ فلأنها أصبحت كوميدياً مؤدبة . وكان القرن الثامن عشر قرن كوميدياً أصبحت فى النهاية عابسة جهمة . ولا يكاد يتصور العقل أن ذلك العالم عالم منتصف القرن الثامن عشر كان فى طوقه أن ينتج عظماء من أمثال يسوع الناصرى ولا جوتاما ولا فرنسيس الأسيسى ، ولا إغناطيوس ليولا . فلو استطاع الإنسان أن يتصور وجود جون هس آخر فى القرن الثامن عشر ، فإن من المستحيل عليه تصور وجود أى إنسان لديه ما يكفى من الحمية لإحراقه . فإلى يوم بدأت حركات ثيقظ الضمير بريطانيا التى تطورت إلى نهضة المهاجرين (Methodists)^(١) لانكاد نلمح فى أوربا أية بارقة شك تشير إلى أنه ما تزال توجد بين يدي جنسنا واجبات عظيمة لا بد له

(١) المهاجرون : هيئات دينية كثيرة نشأت عن الحركة الإنجيلية التى قام بها شارل وچون ويسل

فى القرن الثامن عشر . (المترجم)

من إتمامها ، ولا أن اضطرابات هائلة كانت على الأبواب ، ولا أن أخطاراً لا حصر لها كانت تغشى بالسُدفة والظلام طريق الإنسان في الزمان والفضاء ، وأن قطعه لذلك الطريق لا بد له من أن يظل حتى النهاية جهداً عظيماً ورهيباً .

عاودنا في هذا التاريخ مرة بعد أخرى الاقتباس عن كتاب « اضمحلال الدولة الرومانية وسقوطها » لجييون . ونحن الآن على أن نقتبس منه لآخر مرة ثم نستودعه الله ، ذلك أننا وصلنا إلى العصر الذي كتب فيه ذلك الكتاب . ولد جييون في ١٧٣٧ ، وصدر آخر جزء من تاريخه في ١٧٨٧ . على أن الفقرة التي نقتبسها كتبت فيما يرجح في ١٧٨٠ . كان جييون شاباً رقيق الصحة متوسط الثراء ، نال في أوكسفورد تعليماً جزئياً متقطعاً ، ثم أتم دراساته في جنيف ؛ وكان اتجاهه الذهني في حياته فرنسياً دولياً أكثر منه بريطانياً . وكان كبير التأثير بالنفوذ العقلي للفرنسي العظيم الذي يشتهر باسم فولتير (فرانسوا ماري اروييه دي فولتير ، ١٦٩٤-١٧٧٨) . كان فولتير مؤلفاً هائل الجلد والتشمر ، فإن سبعين سفرأ له تزين رفوف كاتب هذه السطور ، وهناك طبعة أخرى لمؤلفات فولتير ترفع العدد إلى أربعة وتسعين سفرأ ، وكان أكثر ما يعالجه شئون التاريخ والشئون العامة ، وتراسل مع كاترين العظمى قيصرية روسيا وفرديريك الأكبر ملك بروسيا ولويس الخامس عشر ومعظم الرجال البارزين في ذلك الزمان . وكان إحساس جييون وفولتير بالتاريخ فويا ، وكلاهما قد وضع آراءه في الحياة الإنسانية على أكمل وأوضح وجه ؛ وواضح أنهما كليهما كانا يريان أن النظام الذي كانا يعيشان فيه وأعنى به نظام الملكية . ونظام الطبقات الراقية الناعمة بالفراغ والامتيازات ، ونظام الأقوام المحتقرين تقريباً أصحاب الصناعة والتجارة ، ونظام العامة والفقراء والعمال المدوسين بالأقدام والمنزلة منزلة الإهمال ، كان يبدو أثبت طريقة للعيش رآها العالم طَوال الدهر . فاعتنقا مبادئ الجمهوريين إلى حين ، وأخذوا يسخران من الإدعاءات المقدسة للملكية ؛ ولكن الروح الجمهورية التي راقت فولتير كانت « الروح الجمهورية المتوجه » في بريطانيا أثناء ذلك الزمان ، التي كان فيها الملك مجرد الرأس الرسمي ، وأول الحنتمانية وأعظمهم .

وكان المثل الأعلى الذى يرفعان لواءه وبناءه هو المثل الأعلى القائل بوجود عالم مؤدب مهذب يكون فيه الرجال - وأعني بهم الرجال ذوى السجيا العالية ، إذ ليس لغبر هؤلاء وزن - فى نخجل من أن يكونوا قساة أو غلاظاً أو متحمسين ، وتكون فيه مرافق الحياة فسيحة الجنبات رشيقة الحواشى ، والخشبة من هزؤ الناس أقوى معين للقانون على صيانة السلوك اللائق وضروب التوازن والانسجام فى الحياة . وكان فولتير يحمل فى صدره استعداداً للكره المتوقد للظلم ، وما تدخلاته فى نصرة من يضطهدون أو يساء إليهم من الرجال إلا الأنوار الساطعة فى قصة حياته المديدة المعقدة . ولذا كان هذا هو الميل الذهنى لدى جييون وفولتير ، ولدى العصر الذى كانا يعيشان فيه ، فإن من الطبيعى ليهما أن يجدا فى وجود الديانة فى العالم وبخاصة وجود الديانة المسيحية ظاهرة مربكة محيرة لا يكاد يوجد لها ما يبررها . وكان ذلك الجانب من الحياة يبدو لها فى مجموعه نوعاً من الخجل فى الكيان الإنسانى . وما ذلك التاريخ العظيم الذى ألفه جييون إلا مهاجمة للمسيحية فى جوهره ، بوصفها السبب الفعال للندهور والسقوط . فكان يمجّد بلوتوقراطية^(١) روما الفجة للغليظة ويتخذ منها مثلاً عليا حاول أن يبثها فى عالم مكون من جنتلمانية ممتازين نشأوا على غرار القرن الثامن عشر ، كما بين كيف أن سقوطها أمام هجمات البرابرة القادمين من الخارج جاء نتيجة لفسادها الداخلى من جراء المسيحية . وقد حاولنا فى كتابنا التاريخى هذا أن نقيم معالم تلك القصة تحت ضياء أصبح وأحسن . وكان فولتير يرى فى المسيحية الرسمية « شناعة L'infâme » ، وشيئاً يحد من حياة الناس ، ويتدخل فى أفكارهم ، ويضطهد المخالفين الذين لا يضررون أحداً . والواقع أنه لم يكن فى « فترة العطل والخلو من الدافع الأعلى » هذه إلا أثر ضئيل جداً من النور أو الحياة فى أى من مسيحية روما (السلفية) أو كنائس روسيا الأرثوذكسية الخاضعة وكنائس الأمراء البروتستانت . وكان من العسير على الإنسان فى فترة هذا « الخلو من الدافع الأعلى » التى يشغل الجوف فيها وجود كثرة من الأساقفة المداهين والقساوسة المكررة - أن يدرك

(١) البلوتوقراطية Plutocracy : حكومة الأغنياء . (المترجم)

أى نيران توقدت جمرتها يوماً ما فى قلب المسيحية ، وأى نيران من الشهوات السياسية والدينية لعلها ما تزال ممكنة التوقد فى قلوب الناس .

وأتم جيبون فى نهاية سفره الثالث بيانه عن تصدع الإمبراطورية الغربية . ثم تساءل عند ذلك هل تصاب المدنية يوماً ما بالهيار يماثل ذلك ؟ وأدى به ذلك إلى استعراض حال الشئون المعاصرة له (١٧٨٠) وإلى مقارنتها بحال الأمور أثناء اضمحلال روما الإمبراطورية . وعندى أن من المناسب جداً لخطتنا العامة فى هذا الكتاب أن نقتبس هنا بعض فقرات من تلك الموازنة ، فما من شئ يستطيع أن يوضح خيراً منها الحال العقلية لدى المفكرين المتحررين فى أوروبا إبان بلوغ « فترة العطل والخلو من الدافع الأعلى » فى عصر الدول الكبرى أوجها من الناحية السياسية . وذلك قبل ظهور أول بوادر تلك القوى العميقة السياسية والاجتماعية ، قوى التفكك التى أنتجت فى النهاية حالة التساؤل المستوقفة للنظر الموجود فى عصرنا هذا .

كتب جيبون عن الانهيار الغربى يقول : « ربما طبقت هذه الثورة الرهيبة تطبيقاً نافعاً يعود بالعظة والعبرة المفيدة على عصرنا الحاضر . فإن من واجب الوطنى أن يؤثر ويذكر مصالحي ومجد وطنه وحده دون أى شئ عداه . على أنه ربما أبيع للفيلسوف أن يوسع وجهة نظره ، وأن يعد أوروبا جمهورية واحدة عظيمة ، أو شك سكانها المتنوعون أن يصلوا إلى نفس المستوى من التأديب والتأديب . وسوف يستمر توازن القوى فى التراجع ، وسوف يتعاور على رخاء مملكتنا أو الممالك المجاورة لها غير الدهر ما بين تسام وتدل » ؛ على أن هذه الأحداث الجزئية لا تستطيع بالضرورة أن تسد سهما يجرح سعادتنا العامة ، وأعنى بذلك مجموعة الفنون والقوانين وآداب السلوك ، التى تميز الأوروبيين ومستغمراتهم عن الجنس البشرى تمييزاً له جدواه التامة . فإن شعوب الكرة الأرضية المتوحشين هم الأعداء المشتركون للجماعة الإنسانية الممدنة ، ولعلنا نتساءل فى تطلع القلب فى أما تزال أوروبا مهددة بتكرار تلك النوازل التى سبق أن ألمت بقوى روما ونظمها . وربما وضحت نفس التأملات سقوط تلك الإمبراطورية الجبارة وشرحت الأسباب المحتملة لحالة الطمانينة الفعلية التى نحن عليها اليوم .

« كان الرومان بمجهلة لدى الخطر الحقيق بهم وعدد أعدائهم . وكانت المناطق وراء الراين والدانوب أى الأقطار الشمالية لأوروبا وآسيا غاصة بقبائل لا يحصيها حصر من الصيادين والرعاة وهم فقراء جشعون جياشون بالثورة والعصيان ، متصفون بالجرأة عند اشتباك القتال وهم أشوق ما يكونون إلى انتهاب ثمار الكدح والجد الذى يبذله من يجاورهم من شعوب عاملة . كان العالم المتبربر يضطرم بدافع الحرب السريع الجياش ، وكان سلام بلاد الغال أو إيطاليا يتزلزل بما يشور فى الصين من ثورات . فراح الهون الذين كانوا يفرون أمام عدو مظفر ، يجعلون وجهتهم الغرب ، وتزايد السيل وطما بمن كان ينضم إليهم من الأسرى والأحلاف . واتخذت القبائل الهاربة التى خضعت للهون ، روح الغزو بدورها ، وكان طابور البرابرة الذى لا نهاية له يضغط على الإمبراطورية الرومانية بقوة متجمعة متكاثفة . ولئن دُمر الأولون منهم ، لقد كان المكان الشاغر يملؤه على الفور مهاجمون جدد . وليس فى المستطاع بعد ذلك أن تجمىء من الشمال مثل هاته الهجرات العاتية . فأما السكون الطويل الذى يعزى إلى نقص عدد السكان ، فهو النتيجة السعيدة لتقدم الفنون والزراعة . فبدلاً من ألا تقوم بألمانيا إلا بضع قرى خشنة متناثرة تناثراً بعيداً وسط غاباتها ومستنقعاتها ، فإن ألمانيا تُصدر اليوم قائمة بألفين وثلاثمئة مدينة مسورة ؛ وتأسست على التعاقب ممالك الدانمارك والسويد وبولندا المسيحية . ومد تجار الهانسا ومعهم الفرسان التيوتون مستعمراتهم على امتداد ساحل بحر البلطيق ، حتى خليج فنلندا . ومن خليج فنلندا حتى المحيط الشرقى ، تتخذ روسيا الآن شكل إمبراطورية قوية ممدنة . ويستقدم المحراث والمنوال والكور إلى ضفاف القوبلجا والأوبى واللينا ؛ وعُلِّمت أشد قبائل التتار شراسة كيف ترتعد وتطيع .

« وكانت إمبراطورية روما راسخة البنيان بسبب تضامن أعضائها الفريد الكامل . ولكن هذا الاتحاد اشترى بضيايح الحرية القومية والروح العسكرية ؛ وكانت الولايات الدليلة وهى مخلو من الحياة والحركة ، تتوقع أن تكون سلامتها على يد الجيوش والحكام المرتزقة الذين كانوا يأترون بأوامر بلاط بعيد الشقة . وكانت سعادة مئة مليون من الأنفس تتوقف على الجدارة الشخصية لرجل أو رجلين ، ربما كانا طفلين ممن

أفسد عقولهم طراز تربيتهم وترفهم وسلطتهم الاستبدادية . وأوروبا اليوم مقسمة إلى اثنتي عشرة مملكة فوية وإن تكن غير متعادلة ، ثلاث منها إمبراطوريات عظيمة ، هذا إلى عدد من الدول الصغرى ، وإن كانت مستقلة . فالفرص أمام مواهب الملوك والوزراء تضعفت ، وذلك على الأقل بقدر تكاثر عدد حكامها . وربما تولى الأحكام في الشمال چوليان آخر (أى فردريك الأكبر) أو سميراميس أخرى (يعنى كاترين الكبيرة قيصرية روسيا) ، على حين يغلب النعاس من جهة أخرى على أركاديوس (لويس السادس عشر) ، وهو نورويوس (شارل الثالث ملك أسبانيا) ، الجالس على عرش آل بوربون . وقد أوقعت مساوئ الطغيان عند حدها نتيجة لما للخوف والحجل من تأثير متبادل . فاكسبت الجمهوريات النظام والثلث ، وانطوت الملكيات على مبادئ الحرية ، أو مبادئ القصد والاعتدال على أقل تقدير ؛ ودنسل إلى أشد الدساتير نقصاً شئ من معنى الشرف والعدالة بفضل ماساد الزمان على الحملة من خلق حسن . وفي زمن السلم كانت سرعة تقدم العرفان والصناعة تزدد بتنافس مثل هذا الحجم من المتبارين الناشطين . وفي زمن الحروب - سمرس القوات الأوربية بنضال معتدل غير حاسم . فلو خرج من صحراء التارغاز متبربر ، فلا بد له من أن يجمع على التوالى فلاحى روسيا الأشداء ، فجيوش ألمانيا العابدة ، فنبلاء فرنسا الشجعان فرجال بريطانيا الأحرار الجريئى الحنان ، الذين لعلمهم يتحالفون من أجل دفاعهم المشترك . ولو أن البرابرة المظفرين حملوا الاسترقاق والتدمير حتى المحيط الأطلسى ، لنقلت عشرة آلاف من السفن بقايا الجماعة الممدنة إلى حيث لا تناها أيديهم ، وعند ذلك تنتعش أوروبا مزدهرة فى العالم الأمريكى الملى بمسعمراتها ونظلمها .

« والبرد والفقر وحياة الخطر والمتاعب تخلع على قوة البرابرة وشجاعتهم متعة وحصانة . ولقد كانوا فى كل عصر كلاً يوقع فادح المتاعب على أهل التأدب والسلام من أمم الصين والهند وفارس ، الذين أهملوا وما يزالون يهملون أن يقيموا لأنفسهم عماداً يوازن تلك القوى الطبيعية بالالتجاء إلى موارد الفن العسكرى . وكانت الدول الحربية الزرعة فى الأزمان القديمة أمثال الإغريق ومقدونيا وروما ، تنسئ جنساً من الجنود ، فتمرر أجسامهم ، وتنظم شجاعتهم وتكثر من عددهم بما نحدث فى قواتهم

من تطورات منظمة ، وتحول ما في حوزتها من حديد إلى أسلحة متينة نافعة . ولكن هذا الاستعلاء الحربى ما لبث أن انحط بالتدريج وبشكل غير محسوس بظهور قوانينهم وآداب سلوكهم . وأدت السياسة الضعيفة التى انتجها قسطنطين وخلفاؤه إلى تسليح المرتزقة البرابرة وتدريب شجاعتهم الخشنة على فنون القتال ، - فعاد ذلك على الإمبراطورية بالحرب . ولقد غير اختراع البارود كل أصول الفن العسكرى ، والبارود يطوع للإنسان السيادة على أقوى عوامل الطبيعة شكيمة وهما الهواء والنار . ووضعت علوم الرياضيات والكيمياء والميكانيكا والعارة فى خدمة الحرب ، وأخذ كل خصمين متنازعين يطبقان على بعضهما البعض أحكم طرائق الهجوم والدفاع . وربما لاحظ بعض المؤرخين فى شيء من الغضب أن نفقة معدات الحصار قد تكفى لتأسيس مستعمرة مزدهرة والحفاظ عليها . ومع ذلك فليس فى استطاعتنا أن نتكدر لأن نخرب مدينة عمل لا بد أن يتكلف ثمناً غالياً وأن تعترضه صعوبة كبيرة ، أو أن شعباً مجداً يجب أن تحميه فنونه ، التى تبقى بعد فناء وتحلل الفضيلة العسكرية والتى تكون من عوامل ذلك الفناء . فالآن نهض المدافع والتحصينات حاجزاً منيعاً فى وجه خيل التتار ، كما أن أوربا أمست بمأمن من أية غارة مستقبلية يشنها البرابرة ، إذ أنه يجب عليهم قبل أن يفتحوا ويقهروا أن يتخلوا أولاً عن همجيتهم .

« فلن ساورك الشك فى هذه الآراء ، أو تبينت خطأها ، فما يزال هناك مصدر متواضع للراحة والأمل . فإن مكتشفات الملاحين القدامى والعصرين والتاريخ الداخلى أو التقاليد لأشد الشعوب استنارة ، - تظهر « المتوحش الإنسانى » عارياً فى كل من جسده وعقله ، ومجرداً من « القوانين والفنون والفكرات ، بل من اللغة تقريبا » . وعن هذه الأحوال الوضيعة ، ولعلها على وجه العموم حالة الإنسان البدائية ، ارتفع الإنسان شيئاً « فشيئاً » إلى السيطرة على الحيوان وإلى تسميد الأرض ، وإلى اختراق بلحات المحيط ، وإلى قياس أطباق السماوات . وكان تقدمه فى تحسين وتدريب مواهبه العقلية والجسمية منوعاً غير منتظم ، بطيئاً بطئاً لا نهائياً فى البداية ، متزايد السرعة بعد ذلك متضاعفها درجة فدرجة . وكم تلت عصور الرفة المضنية لحظات انحذار

سريع . وأحست أجواء الكرة الأرضية المختلفة تقلبات النور والظلام . على أن خبرة أربعة آلاف سنة ، يجب أن توسع آفاق آمالنا ، وأن تقلل من مخاوفنا . ولسنا بقادرين أن نبلغ الكمال . على أنه من الممكن أن يفكر المرء وهو على جانب الأمانة أن شعباً واحداً لن ينتكس إلى حالة همجيته الأصلية ما لم يتغير وجه الطبيعة .

« فنذ اكتشاف الفنون لأول مرة بثت الحروب والتجارة والحاسة الدينية بين متوحشي الأزمان القديمة والعالم الحديد ، تلك الهبات التي لا تقدر ، بأن طفت تنشرها نشرًا متعاقبًا على الأجيال ؛ وإذن فليس في الإمكان أبدأً أن تزول . ولذا فإننا نستطيع أن نوافق على ذلك الاستنتاج السار القائل بأن كل عصر في العالم قد زاد وما يزال يزيد - في الثروة الحقيقية والسعادة والعرفان لدى الجنس البشري وربما زاد في فضيلته أيضًا^١ .

١٤ - الهدنة الدينية تشارف نهايتها

ومن أمتع مظاهر قصة أوروبا هذه في القرن السابع عشر ومستهل الثامن عشر ، أثناء دور الملكيات العظمى والبرلمانية ، ما نراه من الاستسلام النسبي في العمال والفلاحين . والظاهر أن نيران العصيانات التي شبت إبان القرون الرابع عشر والخامس عشر والسادس عشر قد خمدت تماماً . ذلك بأن بعض التسويات الخشنة الفجة خفضت من حدة الخلافات الاقتصادية في الفترة السابقة ، إذ أحدث اكتشاف أمريكا انقلاباً وتغييراً في معيار الأشغال التجارية والصناعة ، وأدخل إلى أوروبا قدراً ضخماً من المعادن النفيسة فصنعت نقوداً ، وزاد في العمل ونوعه . وامتنعت أسباب الشقاء إلى حين . ومرحين من الزمن لم تعد فيه الحياة والعمل شيئاً لا يطاق عند جماهير الفقراء . ولكن لم يحل هذا بالطبع دون وجود الكثير من الشقاء والتدمير الفردي ، أن كان الناس يعيشون وإلى جوارهم على مدى الدهر كله الفقراء ، بيد أن هذا الشقاء والتدمير كان موزعاً متناثراً . فأصبح من ثم هممة لا تصل إلى الآذان .

وكان لعوام الناس في الفترة السابقة فكرة يتبلورون حولها وهي فكرة الشيوعية المسيحية . وقد وجدوا في أمثال ويكليف من القساوسة والعلماء المشيقين قيادة مثقفة .

وإذ أن الحركة الداعية إلى نهضة في المسيحية استنفدت قوتها ، وإذ أن العقيدة اللوثرية نكصت في زعامتها عن يسوع الناصري إلى الأمراء البروتستانت ، فقد نضب معين ذلك التماس والتفاعل الذي تهيأ بين الأذهان الجديدة للطبقة المتعلمة وبين الأذهان الأمية . ومهما تبلغ ضخامة عدد الطبقة المهیضة الجانب ، ومهما يبلغ التطرف بشقاوتها ، فلن يكون في إمكانها القيام باحتجاج فعال حتى تصل إلى التكتل بواسطة تكوين فكرة عامة تجمع شمل أفرادها . فإن أصحاب الأفكار من متعلمي الرجال والنساء ألزم وأشد ضرورة لأية حركة سياسية شعبية منهم إلى أية عملية سياسية أخرى . فإن الملكية تتعلم الحكم عن طريق الحكم ، وإن للأوليبرالية - من أي طراز كانت - لتعليماً تطلقه من إدارتها للشئون ؛ ولكن ليس لدى الرجل العاى وأعنى به الفلاح أو الكادح أى تجربة في الشئون الكبيرة ، فهو لا يستطيع أن يعيش سياسياً بغير خدمات المتعلمين وإخلاصهم وإرشادهم . فالإصلاح الدينى أى الإصلاح الدينى الذى نجح ووفق ، وأعنى به الإصلاح الدينى للأمراء ، قد قضى بتحطيمه للوسائل والفرص التعليمية على العالم الفقير وطبقة القسوس قضاء كبيراً وهم الذين جعلوا الإصلاح ممكناً بإقناعهم الجمهور .

هذا ولم يفت أمراء الأقطار البروتستنتية أن يدركوا منذ البداية أى عندما استولوا على الكنائس الوطنية ، ضرورة الاستحواذ على الجامعات أيضاً . وكانت فكرتهم عن التعليم هى فكرة الاستيلاء على أذكىء الشبان واستخدامهم في خدمة سادتهم . وكان التعليم يعد عندهم فيما وراء ذلك شيئاً ضاراً . وعلى ذلك لم يبق للفقير إلا وسيلة واحدة للتعليم هى الاستعانة بنصر يأخذ بيده . وبديهي أن جميع الملكيات العظمى كانت تشجع التعليم بطريقة هى بالمهرجانات أشبه ، ففيها أقيمت الأكاديميات والجمعيات الملكية ، ولكن هذه الأوضاع لم تفد إلا طبقة صغيرة من العلماء الخاضعين ، وكانت الكنيسة كذلك تعلمت ألا تثق في المتعلم الفقير . كذلك حدث في الجمهورية العظيمة الأستقراطية المتوجة في بريطانيا ، نفس التناقص في الفرص التعليمية . ويقول هاموند في بيانه عن القرن الثامن عشر : « إن كلا من الجامعتين القديمتين ، كانت للأغنياء . وهناك فقرة في ماكولى تصف حالة أكسفورد وما كانت عليه من بذخ

وأبهة عند مختم القرن السابع عشر ، « عند ما جلس مديرها الدوق أورموند الوقور في ثيابه الموشاة على عرشه تحت السقف المنقوش في المسرح الشلدوني^(١) ، يحيط به مئات من المتخرجين كل في ثياب رتبته ، على حين كان يقدم إليه أنبل شبان إنجلترا في دعة ووقار بوصفهم طلاباً لدرجات الشرف العلمية . لقد كانت الجامعة قوة ، لا بالمعنى الذى يمكن أن يقال به تلك الكلمة عن جامعة مثل جامعة باريس القديمة ، التى كان العلم فيها يستطيع أن يجعل البابوات يرتعدون فرقاً ، بل بالمعنى القائل بأن الجامعة كانت جزءاً من الجهاز الأرستقراطى المعترف به . وما كان يصدق عن الجامعات ، كان يصدق عن المدارس العامة^(٢) . فلم يكن التعليم في إنجلترا مهد مجتمع ، بل مهد هيئة من الناس ، وليس مهد دولة ، بل مهد جنس من الحكام الملاك » . وكانت روح التبشير الدينى قد فارقت التعليم في كل أرجاء أوروبا . وإلى هذا ، بل وأيضاً إلى تحسن الأمور بانتشار الرخاء ، ينسب طور الإستسلام هذا الذى ران على الطبقات الدنيا . فإنهم فقدوا عقولهم وألسنتهم ، وكان الطعام يقدم إليهم وكفى . وكان المجتمع أشبه شئ بحيوان مسلوب الحيوية في أيدي الطبقة الحاكمة .

وفضلاً عن ذلك فقد دخلت تغيرات جسيمة على ما بين الطبقة والطبقة من تناسب . ومن أشق الأمور التى على المؤرخ أن يقفوها في مجتمع ما ، تقدير القيمة النسبية للأملاك الكلية ، التى تملكها في أى وقت أية طبقة خاصة في ذلك المجتمع . فإن هذه الأمور تتقلب تقلباً سريعاً جداً . وتدل حروب الفلاحين في أوروبا على دور تركيز نسبي للأملاك في أيدي قلة من الناس بينما تشعر جماهير من الناس أنها قد شردت عن أملاكها وشملتة حالة من السوء مشتركة . وبذلك تنهيج خطة العمل الجمعى . كان هذا هو الزمان الذى تسنمت فيه أسرة الفوجر^(٣) وأمثالها مراقى الرفعة والرفاهية ، وهو زمان مالية دولية . ويبدو أنه قد صاحب الاستيراد الهائل للذهب والفضة والسلع إلى

(١) المسرح الشلدوني : نسبة إلى حلبوت شلدون رئيس أساقفة كانتربرى في ١٦٦٣ بناء على لفقته بأكسفورد وقد صممه المهندس رن . (المترجم)

(٢) المدارس العامة Public Schools : هى المدارس الثانوية . (المترجم)

(٣) أسرة فوجر Fuggers : أسرة سوابية من التجار كانت تعيش في أوجزبرج وبلغ من ثرائها أن كانت تنفق أحياناً على حملات ملوك ألمانيا العسكرية . (المترجم)

أوروبا من أمريكا ، هودة لحالة ثراء أوسع انتشاراً بين الأفراد . وكان الفقراء على حالهم التي هم عليها من الشقاء والتعاسة ، ولكن لعله لم يكن هناك فقراء بمثل العدد الأول نسبياً ، كما أنهم كانوا مقسمين إلى أضرب عديدة من الطوائف التي لا تجمعها أفكار مشتركة . فأما في بريطانيا العظمى ، فإن الحياة الزراعية التي فككها وزلزل أركانها مصادرات الأملاك إبان الإصلاح الديني ، قد استقرت من جديد في نظام زراعة المستأجرين يعيشون من دون ملاك للأراضي عظام . وإلى جوار هذه المزارع الكبيرة ، كان ما يزال يوجد أراض كثيرة مشاعة لرعى سائمة القرويين الأفقرين ، كما كان هناك أراض كثيرة تزرع قطعاً على أساس الملكية المشتركة للمجتمع . فأما الرجل المتوسط الحال ، وحتى النوع الأفقر منه من الرجال المرتبطين بالأرض ، فكانوا يعيشون عيشاً مطافاً مقبولا في (١٧٠٠) . فإن مستوى الحياة وأعنى به فكرة ما قد يطاق من العيش ، كان مع ذلك في ارتفاع أثناء مستهل عهد الملكية العظمى . وبعد إنقضاء آن من الزمان ، تبدو عملية تركيز الثروة واتجاهها إلى أعلى وكأنما قد استؤنفت . فإن ملاك الأراضي العظام أخذوا يضعون أيديهم على الأراضي ويطردون الزراع الأحرار الأفقرين زرافات ، وتزايدت من جديد نسبة الفقراء ونسبة القوم الذين كانوا يشعرون بأنهم يعيشون حياة من يحل بهم الفقر : وكان أكابر الرجال هم حكام بريطانيا العظمى الذين لا يتنازعهم منازع ، فنصبوا أنفسهم لإصدار قوانين — هي قوانين السياجات (The Enclosure Acts) — وهي التي كادت تفضي إلى مصادرة الأراضي غير المسوّجة والأراضي المشاع ، لمصلحة كبار ملاك الأراضي قبل كل إنسان . وانحدر صغار الرجال إلى مرتبة الأجراء كاسبي الأجور بعرق الجبين في الأراضي التي كانوا يملكون فيها في أحد الأيام حق الفلاحة والرعى . ولم يصل الفلاح في فرنسا وأوروبا عامة إلى مثل هذه الدرجة من الحرمان من ممتلكاته . فلم يكن عدوه هو صاحب الأرض بل الجاني ؛ فكان يُدفع إلى أرضه دفعاً بدل أن يدفع إلى خارج أراضيهِ .

ومع مضي العهد بالقرن الثامن عشر يتضح لنا من ادب ذلك الزمان ، أن معالجة شأن « الفقير » عادت فشغلت أذهان الناس ثانية ، فإننا نجد كتاباً من متوقدى

الأذهان بين الإنجليز من أمثال ديفو (١٦٥٩ - ١٧٣١) وفيلدينج (١٧٠٧ - ١٧٥٤) ، يفكرون أعمق التفكير في هذه المسألة . ولكن لم يحدث حتى ذلك الحين انتعاش للفكرات الداعية إلى الشيوعية والمساواة الموجودة في المسيحية البدائية . شأن ما كان يميز أزمان ويكيليف وهس (Huss) . فالبروتستانتية عند تمزيقها للكنيسة العامة ، مزقت ردها من الزمان فكرة التماسك العام ، وحتى لو صح أن الكنيسة العامة في القرون الوسطى فشلت فشلا تاماً في تحقيق تلك الفكرة ، فإنها كانت على كل حال رمزها .

وكان ديفو وفيلدينج رجلين أوتيا خيالا عمليا أشد نشاطاً من خيال جيبون ، فأدركا شيئاً من العمليات الاقتصادية التي كانت قائمة على قدم في زمانهما ، وكذلك شأن أوليشر جولد سميث (١٧٢٨ - ٧٤) ، فإن قصيدته « القرية المهجورة » (١٧٧٠) ليست إلا منشوراً في موضوع السياجات متذكراً في زى قصيدة . ولكن ظروف جيبون لم تظهر قط الحقائق الاقتصادية أمام ناظره ظهوراً ناصعاً جداً . فإنه كان يرى العالم في صورة كفاح بين التبربر والمدنية ، على أنه لم يدرك شيئاً من ذلك النزاع الآخر الذي كان (جيبون) يطفو فوقه ، وهو ذلك الكفاح الصامت غير المدرك ، كفاح عامة الناس ضد الرجال القادرين الأقوياء الأثرياء الأنانيين . فلم يدرك تجمع عوامل الضغط التي أوشكت للفور أن تعصف بكل التوازن القائم بين « ممالك الإثنتي عشرة القوية غير المتعادلة » أعني بين « إمبراطورياته المحترمة الثلاث » وما حولها من السفلة والزعانف من أصاغر المستقلين من الأمراء والأدواق الحكام ومن إليهم . وحتى الحروب الأهلية التي ابتدأت في المستعمرات البريطانية بأمريكا ، لم توقظه إلى إدراك قرب نشوء ما نسميه اليوم « بالديمقراطية » .

وقد يظن القارئ مما ظللنا نقوله حتى الساعة عن دفع الملاك العظام للمزارع الصغير والفلاح إلى خارج الأراضي ، وعن اختطاف أرض المشاع وتركيز العقار في أيدي طبقة قوية شرهة ذات امتيازات ، أن ذلك كان كل ما يحدث في الأراضي الإنجليزية في القرن الثامن عشر - إذ الواقع أننا اقتصرنا على ذكر أسوأ نواحي التغيير . وفي نفس الوقت الذي كان يحدث فيه هذا التغيير في الملكية ، كان يحدث تقدم عظيم في

الزراعة . وليس هناك إلا القليل من الشك في أن طرائق الفلاحة التي يستخدمها الفلاحون وواضعو اليد على الأرض والمزارعون الصغار ، كانت طرقاً عتيقة بالية مضیعة للجهد وغير منتجة نسبياً ، وأن الملكيات والمزارع الخاصة الكبرى التي خلقتها قوانين السياجات كانت أكثر إنتاجاً بكثير من الطرق القديمة (يقول حجة من الثقات إنها كانت تنتج عشرين ضعفاً) . فلربما كان التغير أمراً ضرورياً ، على أن ما فيه من الشر لم يكن راجعاً إلى حدوثه ، بل إلى أنه إنما حدث لكي يزداد الأثرياء ثراء والفقراء عدداً . أما منافعه فإن المالك الخاص الأكبر قطع الطريق دونها مختصاً بها نفسه . فوَقعت المضرة على المجتمع وإن استفادت هذه الطبقة الفائدة العظمى .

وهنا نبلى واحدة من أعظم مشاكل حياتنا في الزمن الحاضر ، وهى مسألة انحراف ثمار التقدم ومكاسبه عن طريقها الطبيعي . فقد انقضت مئات من السنين — ظهر فيها بتأثير العلم والبحث بوجه رئيسى ، تحسن متواصل في طرائق إنتاج كل شيء تقريباً تحتاج إليه الإنسانية . فلو أن إحساسنا بالجماعة وعلمنا الإجتماعى كانا معادلين للواجبات المفروضة عليهما ، فلن يكون هناك أدنى شك في أن هذه الزيادة الكبيرة في الإنتاج ، كانت تعود بالنفع على المجتمع بأكمله ، وكانت تتيح لكل فرد قدراً من التعليم ووقت الفراغ والحرية لم تحلم الإنسانية قط بمثله من قبل . ولكن على الرغم من أن مستوى المعيشة العام قد ارتفع ، فإن الارتفاع تم بمقياس صغير غير مناسب . إذ أن الأغنياء طوروا لأنفسهم حرية وترفاً لم يعهدهما العالم من قبل ، كما تزايدت نسبة الأغنياء والخالدين من الناجحين وغير المنتجين في المجتمع ؛ على أن هذا يفشل في تعليل النفع الكامل المستفاد . إذ حدث نمة كثير من المضیعة التي لا فائدة تجنى من ورائها ، فإن تجمعات هائلة من المادة والطاقة قد أنفقت في الحرب والاستعداد لها . وكرس شيء كثير من الجهد في سبيل تلك الجهود غير المجدية ، التي تنفق في المنافسة الفاشلة في الأعمال التجارية . وظلت إمكانات كثيرة بلا تطوير وتنمية بسبب ما أبداه الملاك ومحتكرو السوق والمضاربون من معارضة لاستغلالها الإقتصادى . ولم تتناول الطيبات التي ظل العلم والتنظيم يقربانها إلى متناول يد الإنسانية — تناولاً

منهاجياً^(١) ولم تستعمل إلى أقصى حدودها ، ولكن تخاطفتها الأيدي وتجاذبتها الأصابع — واستمسك بها المغامرون المقامرون واستخدمت لغايات أنانية تمت إلى الغرور بسبب . وكان القرن الثامن عشر في أوروبا وبوجه أخص في بريطانيا العظمى وبولندة عصر الملكية الخاصة . وكان القدح المعلق فيه « للمسعى الخاص »^(٢) الذي معناه في الممارسة العملية أن لكل فرد الحق في الحصول على كل شيء يستطيعه من أشغال المجتمع . ولسنا نعثر في الروايات العادية والمسرحيات وما إليها من الأدب الممثل للزمان على أى إحساس بالتزام الأفراد بأى شيء نحو الدولة في شئون الأعمال . إذ أن كل إنسان منطلق « لتكوين ثروته » ، وليس هناك من يدرك أن من الخطأ أن يظل الإنسان طفلياً على المجتمع غير منتج ، وأقل من هذا أن يشعر مالى أو تاجر أو صاحب صناعة ، أنه يتناول لقاء خدماته للإنسانية أجراً أكثر مما ينبغي . كان ذلك هو جو الزمان الخلقى . وهؤلاء اللوردة والجهتلمانية الذين كانوا يختطفون أرض الشعب المشاع ، يفترضون امتلاك المناجم التى تحت أراضيهم ، ويحطمون صغار المزارعين الملاك^(٣) والفلاحين حتى يصلوا إلى مرتبة الأجراء المعدمين ولم تكن تخامرهم بعد هذا كله أية فكرة إلا أنهم إنما يعيشون عيشاً جديراً تماماً بكل كرامة واستحقاق .

وكان يساير هذا التغيير في بريطانيا العظمى ، أعنى هذا الانتقال من فلاحية الرقاع التقليدية والمراعى المشتركة إلى الزراعة الكبيرة الأكثر اعتماداً على العلم — تغيرات عظيمة جداً في صناعة السلع . وكانت بريطانيا العظمى في القرن الثامن عشر زعيمة العالم في تلك التغيرات . فحتى ذلك الحين وعلى مسار التاريخ أجمع منذ بداية المدينات ، كانت المصنوعات والمباني والصناعات في أيدي أرباب الحرف على وجه

(١) منهاجياً Methodically : أى متبعاً للترتيب المنطقى في البحث العلمى . (المترجم)

(٢) المسعى الخاص أو الجهد الفردى Private Enterprise : جهود الأفراد في التجارة والأعمال الحرة .

(المترجم)

(٣) صغار المزارعين الملاك Yeomen : وكانت ملكيتهم مدى حياتهم فقط أو تتوارث بقيود .

(المترجم)

- معالم تاريخ الإنسانية جزء -

العموم وفي أيدي صغار المعلمين (الأسطوانات) الذين كانوا يشتغلون في بيوتهم الخاصة . وكانت تنتظمهم نقابات ، وهم في معظم الأمر سادة أنفسهم وأصحاب أعمالهم . فكانوا يكونون طبقة وسطى جوهرية مستديمة لها وزنها . وكان بينهم الممولون الذين كانوا يخرجون الأنوال وما إليها ، ويزودون غيرهم بالخدمات ، وبأخذون السلعة التي تم ، على أنهم لم يكونوا ممولين كباراً . فلم يكن هناك أصحاب مصانع أغنياء ، بل كان أغنياء العالم قبل ذلك الزمان هم أصحاب الأراضي العظام أو مسلفوا النقود أو الممارسون لشئون النقود أو التجار . ولكن حدث في القرن الثامن عشر أن بدأت طريقة جديدة هي تجميع صناعات بعينها رغبة في إنتاج أشياء بمقادير أكبر بطريقة توزيع نظامي للعمل ، وشرع صاحب العمل مميّزاً من المعلم (الأسطى) في أن يكون شخصاً هاماً . زد على ذلك أن الاختراعات الآلية أخذت تنتج الآلات التي تسهل عمل الإنتاج اليدوي وتبسطه ، والتي كان في الإمكان دفعها بقوة الماء ثم للفور بقوة البخار . إذ ركبت في (١٧٦٥) آلة وات Watt البخارية ، وهو تاريخ عظيم الأهمية في تاريخ الحركة الصناعية . وكانت صناعة القطن من أوائل الصناعات التي تحولت إلى الإنتاج في المصانع (وكان ذلك في الأصل بواسطة آلات تدفعها المياه) وتلى ذلك صناعة الصوف . وفي نفس الوقت بلحأت صناعة صهر الحديد إلى فحم الكوك المصنوع من الفحم الحجري وكانت حتى ذلك الحين تقتصر على أساليب صغيرة تعتمد على الفحم النباتي . وابتدأت صناعات الفحم والحديد كذلك في الانتشار . وانتقلت صناعة الحديد من أرض ساسكس (Sussex) وسري (Surrey) المليئة بالغابات إلى مناطق الفحم . ولما وافق (١٨٠٠) كان هذا الانقلاب في الصناعة قد سار شوطاً صالحاً وانتقل بها من الإنتاج الصغير بما يصحبه من أصحاب الأعمال الصغار إلى الإنتاج الكبير في كنف أصحاب أعمال كبار . فنشأت في كل مكان مصانع استعملت الماء بادی بدء ثم تلت بقوة البخار . كان تغيراً ذا أهمية جوهرية في الاقتصاد البشري . ومنذ فجر التاريخ كان صاحب المصنع وصاحب الحرفة كما قلنا نوعاً من أهل المدن أبناء الطبقة المتوسطة .

فالآن حلت محل مهارته الآلة وصاحب العمل ، فأما هو فإنه أصبح إما

صاحب عمل يستخدم لإخوانه ، ويرقى درجات الغنى إلى حد التساوى بالطبقات الفنية الأخرى ، أو ظل صانعاً وانحط سريعاً إلى مستوى العامل الأجير ، ويعرف هذا التغير العظيم في الشئون الإنسانية باسم الانقلاب الصناعى أو الثورة الصناعية . وقد بدأ ذلك الانقلاب فى بريطانيا العظمى وظل ينتشر طيلة القرن التاسع عشر إلى العالم أجمع

ومع تقدم الزمن بالثورة الصناعية ، انفتحت هوة عظيمة بين صاحب العمل المستخدم لغيره والعامل المستخدم الأجير فى الماضى كان كل عامل « منتج » بمعنى النفس بأن يصبح يوماً ما معلماً (أسطى) مستقلاً . وبلغ الأمر بأصحاب الحرف الأرقاء فى بابل وروما أن كانت تحميمهم قوانين كانت تمكنهم من إدخار المال وشراء حريتهم وإقامة عمل مستقل لأنفسهم . أما الآن فقد أصبح المصنع وعدده وآلاته شيئاً ضخماً باهظ النفقة ، بالقياس إلى قدرة الصانع المالية . ولذا صار لزماً على الأغنياء أن يجتمعوا لينشئوا مشروعاً . وكان الائتمان ومعدات المصنع وأغنى بهما « رأس المال » لازمين مطلوبين . ولم تعد إقامة الصانع « عملاً مستقلاً بنفسه » مطمئناً طبعياً للمهرة الصناع . ومن ثم أصبح العامل منذ ذلك الحين عاملاً من مهدد إلى لحدده . ونشأت عند ذلك بالإضافة إلى أصحاب الأراضى والتجار والمالين الذين كانوا يمولون الشركات التجارية ويقرضون أموالهم للتجار والدولة ، نشأت عند ذلك هذه الثورة الناتجة من رأس المال الصناعى - وهى ضرب جديد من القوة فى الدولة .

ولإننا لمحدثوك عما قليل ، كيف نهضت تلك البدايات حتى بلغت تمامها . وكان الأثر المباشر للثورة الصناعية فيما حلت به من أقطار ، أن أحدثت إنتقالاً أليماً وهزة عظيمة بين عوام السكان الصامتين غير المتعلمين الذين لا زعيم لهم والذين أصبحوا الآن محرومين من الأملاك حرماناً يتزايد أكثر فأكثر . فأما صغار المزارعين والفلاحين - وقد قضت عليهم قوانين السياجات وأخرجتهم من أراضيهم - فلأنهم انتقلوا إلى المناطق الصناعية الجديدة ، وهناك انضموا إلى عائلات أصحاب الحرف الذين عضتهم الفاقة وانحطت مكانتهم فى المصانع . وظهرت فى الوجود مدن كبيرة مكونة من منازل قدرة . وما نخال أن إنساناً لاحظ فى وضوح ، ماذا كان يجرى فى ذلك

الزمان . فالفكرة الأساسية لأرباب مذهب « المسعى الخاص » هي أن يلزم كل امرئ شأنه ، وأن يحصل على أقصى ربح في مستطاعه ، وأن يغفل كل ما عدا ذلك من حواقب . ونمت مصانع قبيحة الشكل ، بنيت بأرخص ما يمكن من نفقة ، لتضم أكبر عدد ممكن من الآلات والعمال . وتجمعت حولها شوارع تحوى منازل العمال ، وقد بنيت بأرخص الأسعار ، دون أى إتساع ودون أى انفصال عن الجيران ، ودون أى مظهر من مظاهر اللياقة والاحتشام تقريباً ، مع تأجيرها للعمال بأقصى ايجار يمكن تحميمه عليهم . وكانت هذه المراكز الصناعية الجديدة ، بلامدارس ولاكنائس بادية الأمر .

وكان الچنتلمان الإنجليزى الذى عاش في الهزيع الأخير من القرن الثامن عشر يقرأ السفر الثالث من جيبون ثم يقبل على نفسه بالتهنئة لأنه لم يعد يوجد منذ ذلك الحين أى خوف خطير من الهمج المتبربرين ، على حين أنه على قيد بضع خطوات من باب منزله كانت هذه الهمجية الجديدة تشب وتنمو ، كما كان هذا التحول ، الذى كان يحيل أبناء وطنه شيئاً حالكاً معتماً لا رجاء فيه ، يسير بأشد قوة وأقصاها .

الفصل الخامس والثلاثون

الجمهوريات الديمقراطية الجديدة بأمريكا وفرنسا

- ١ - متاعب نظام الدولة العظمى .
- ٢ - المستعمرات الثلاث عشرة قبل عصيانها .
- ٣ - الحرب الأهلية تفرض على المستعمرات فرضاً .
- ٤ - حرب الاستقلال .
- ٥ - دستور الولايات المتحدة .
- ٦ - المظاهر البدائية لدستور الولايات المتحدة .
- ٧ - الأفكار الثورية في فرنسا
- ٨ - ثورة سنة ١٧٨٩ .
- ٩ - الجمهورية الفرنسية المتوجة ٨٩ - ٩١ .
- ١٠ - ثورة اليقاقة .
- ١١ - جمهورية اليقاقة ١٧٩٢ - ١٧٩٤ .
- ١٢ - حكومة الإدارة .
- ١٣ - توقف التعمير وفجر الاشتراكية العصرية .

١ - متاعب نظام الدولة العظمى

عندما كان جييون يهنيء منذ قرن ونصف من الزمان عالم الأناسى المهذبين المتعلمين بأن عصر الكوارث السياسية والاجتماعية قد ولى ، كان يهمل دلالات كثيرة كنا نستطيع بعد أن مرت بنا أحداث التاريخ وحقائقه الواقعة - أن نخبره بأنها تحمل في طياتها النذر بهزات وتقلقات أفدح ثقلاً من أى شئ توقعه . ولقد خبرناك كيف أن كفاح أمراء القرنين السادس عشر والسابع عشر من أجل الرفعة والمنافع تطور إلى كفاح أكثر مكرراً ودهاءً وأشد تعقداً بين وزارات الخارجية ، وهى في ثياب تنكرية تتشكل فيها شكل « الدول العظمى » وتتخذ منها معبودات ومثلاً علياً مع تقدم العهد بالقرن الثامن عشر . وتطور فن الدبلوماسية المعقد العريض الدعاوى . ولم يعد « الأمير » متأمراً مكيفالياً يعمل في الخفاء ، وأصبح مجرد الرمز المتوج لخطة مكيفالية . فانقضت بروسيا والروسيا والنمسا على بولندة واقتسمتها . وتورطت فرنسا في تدابير عميقة ضد أسبانيا . وخالت بريطانيا « خطط فرنسا » في أمريكا واستحوذت على كندا . وتفوقت على فرنسا في الهند . عند ذلك حدث أمر جلل ، أمر عدته الدبلوماسية الأوربية مزعجاً جداً . فإن المستعمرات

البريطانية في أمريكا رفضت رفضاً باتاً أن يكون لها بعد ذلك أى دور أو نصيب في لعبة « الدول العظمى » هذه . إذ أنهم دفعوا بأنهم قوم ليس لهم صوت ولا مصلحة كبيرة في هذه الخطط والمنازعات الأوربية ، ورفضوا أن يتحملوا أى نصيب من عبء الضرائب التي تجرها تلك السياسات الخارجية ، وكانت الفكرة المتسلطة عليهم هي أن « الضرائب بلا تمثيل نيابي استبداد وطفغان »

وغنى عن البيان أن هذا العزم على الانفصال لم يتفجر كاملاً سوى الخلق من العقل الأمريكي منذ بداية هذه المتاعب . فقد كان الرجال العاديون في أمريكا في القرن الثامن عشر مثلما كانوا في إنجلترا في القرن السابع عشر ، في رضاء تام بل رغبة أكيدة في الواقع في ترك الشئون الخارجية في يد الملك ووزرائه . ولكن كانت هناك رغبة تعادل هذه في القوة من جانب الرجال العاديين أنفسهم هي ألا تقرر عليهم الضرائب ولا يتدخل في شئون اتجاهاتهم العادية متدخل . ولكن هاتين الرغبةين متعارضتان . فإن الرجال العاديين لا يستطيعون أن يتصلوا من السياسة العالمية وأن يستمتعوا في نفس الوقت بالحرية الخاصة ، ولكن تعلمهم هذه الحقيقة اقتضاهم أجيالاً لا تقع تحت حصر . وعلى ذلك فإن أول ما ظهر من اعتراض في العصيان الأمريكي على حكومة بريطانيا ، كان مجرد تدمير من الضرائب ، ومن التدخل الذي تبع بالضرورة « السياسية الخارجية » دون أى تمييز واضح لما كان ينطوي عليه ذلك الاعتراض . ولم يحدث إلا عندما بلغ العصيان ذروته ، أن سكان المستعمرات الأمريكية ميزوا حقاً تمييزاً واضحاً أنهم رفضوا وجهة نظر « الدولة العظمى » في الحياة . وكانت العبارة التي عبرت عن ذلك الرفض هي وصية واشنطن « بتجنب المخالفات المورطة » . ومن ثم فإن المستعمرات البريطانية المتحدة بأمريكا الشمالية ظلت قرناً كاملاً وقد تحررت واستقلت تحت اسم الولايات المتحدة الأمريكية — بمنأى تامة عن المؤامرات والمنازعات الملطخة بالدماء بين وزارات الخارجية الأوربية . وسرعان ما استطاعوا بعد (١٨٠١ إلى ١٨٢٣) أن يمدوا مبادئهم الانفصالي إلى سائر أجزاء القارة ، أو يجعلوا العالم الجديد أجمع « محظوراً » على من في العالم القديم من أصحاب مؤامرات التوسع الاستعماري ومدبري خطته . وعندما اضطروا آخر الأمر في

١٩١٧ أن يدخلوا ثانية إلى مجتلد^(١) السياسة العالمية ، كان هدفهم من ذلك أن يزجوا في معقدات العلاقات الدولية ، بالروح الجديدة والأغراض الجديدة اللواتي مكّنهم ترفعهم من تطويرها . على أنهم لم يكونوا مع ذلك أول من ترفع . فنذ معاهدة وستفاليا (١٦٤٨) حافظت ولايات سويسرا الاتحادية في معاملتها الجبلية على حقها في الانعزال عن خطط الملوك والامبراطوريات .

ولكن لما كانت شعوب أمريكا الشمالية مقدمة الآن على القيام بدور في تاريخنا تزايد أهميته ، فإن من الخير أن نقسم لهم من عنايتنا قسماً أوفى قليلاً مما قسمناه لتطورهم حتى الآن . ولقد سبق أن ألقينا نظرة إلى هذه القصة في القسم العاشر من الفصل السابق . وسوف نزيدك من فورنا إيضاحاً — وإن كان ذلك في حدود أبسط المعالم — عن أحوال تلك المستقرات ، التي كان عنادها سبباً في تلك المضايقة للملك بريطانيا العظمى ووزرائها في لعبهم السياسية ضد سائر بني الإنسان .

٢ - المستعمرات الثلاث عشرة قبل عصيانها

تبين الخريطة المرافقة امتداد المستعمرات البريطانية في أمريكا في النصف الأول من القرن الثامن عشر . والتظليل الأغمق يمثل المناطق التي سكنت في ١٧٠٠ ، ويمثل التظليل الأخف نمو المستعمرات (المستقرات) إلى ١٧٦٠ . وسيرى القارئ أن المستعمرات كانت مجرد حافة من السكان على طول الساحل ، تمتد إلى الداخل شيئاً فشيئاً وتعترض سبيلها جبال ألكيجاني والجبال الزرقاء حتى لتعد حاجزاً خطيراً جداً . ومن أقدم هذه المستقرات مستعمرة فرجينيا ، التي يخلد اسمها ذكرى الملكة إليزابيث ، ملكة إنجلترا العذراء . وأول حملة لإنشاء مستعمرة بفرجينيا قام بها السيد والترالي في ١٥٨٤ ، ولكن ذلك الزمان لم يكن يتم فيه استقرار مستديم ، ومن ثم ترجع بدايات فرجينيا الحقيقية إلى يوم تأسيس الشركة الفرجينية في ١٦٠٦ ، إبان حكم جيمس الأول (١٦٠٣ - ١٦٢٥) . وإن قصة جون سميث ومؤسسى فرجينيا الأوائل وكيف

(١) المجتلد (Arena) : هو حلبة المباراة والمنارلة عند الرومان . (المترجم)

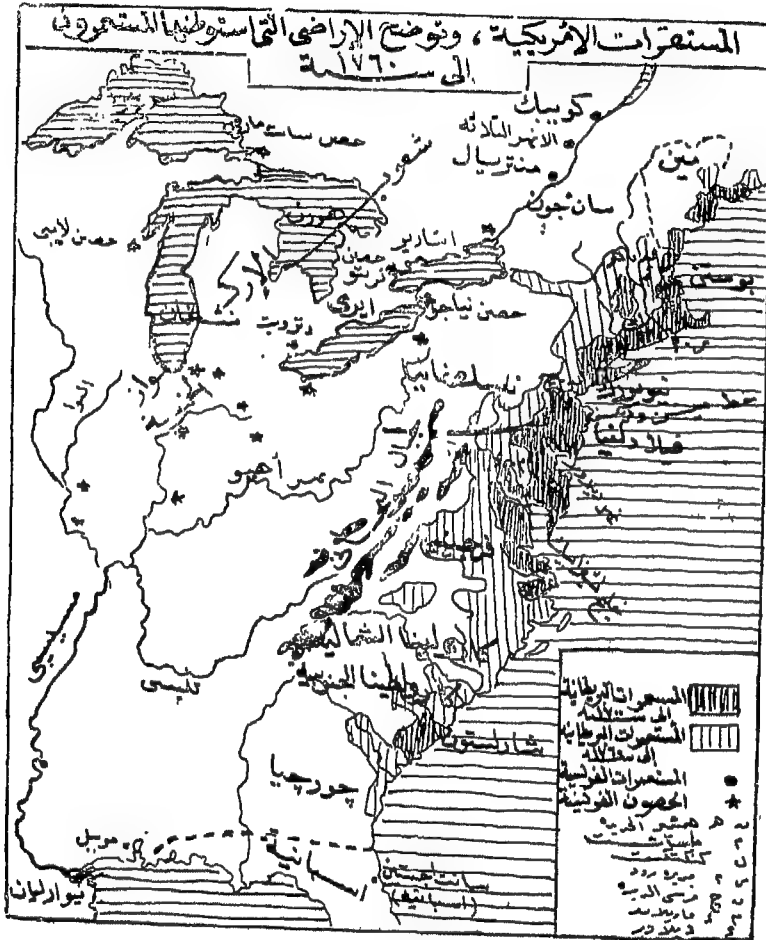
تزوجت الأميرة الهندية بوكاهونتاس من أحد رجاله الأماثل لتشكيل قطعة أدبية كلاسيكية هي «رحلات جون سميث»^(١). ولقى القرچينيون أول بوادر اليسار في زراعتهم الطباق. وفي نفس الوقت الذي تأسست فيه الشركة القرچينية، حصلت شركة بليموث على مرسوم يخول لها الاستقرار في الأراضي الواقعة إلى الشمال من «مضيق الجزيرة الطويلة»^(٢) لونيغ أيلند التي ادعى الإنجليز ملكيتها. ولكن الناس لم يشعروا يستقروا في المناطق الشمالية إلا في (١٦٢٠)، وذلك بموجب مراسيم جديدة. وكان المستعمرون في المنطقة الشمالية (نيو إنجلاند) التي أصبحت كونكتيكت ونيوهمبشير ورود آيلاند وماساشوستس، رجالا لهم طابع يخالف طابع القرچينيين، فأنهم كانوا بروتستانت متذمرين مما أبدت الكنيسة الإنجيلية من موادة، كما كانوا رجالا ذوي روح جمهورية لا مائل لديهم في مقاومة ملكية جيمس الأول أو شارل الأول العظمى. وكانت سفينتهم الأولى هي زهرة مايو May Flower التي أنشأ ركبها مدينة نيوبليموث في ١٦٢٠. وكانت أهم المستعمرات الشمالية هي ماساشوستس. وأدت الفوارق في الطرائق الدينية واختلاف الأفكار عن التسمح الديني إلى تفرقة المستعمرات الثلاث البيوريتانية الأخرى عن ماساشوستس. ومما يوضح المعيار الذي كانت تقوم عليه الأمور في تلك الأيام أن ولاية نيوهمبشير بأجمعها قد ادعى تبعيتها له شخص معين اسمه الكابتن جون ماسون، وأنه عرض أن يبيعها للملك (وهو الملك شارل الثاني في ١٦٧١) مقابل استيراده ثلاثمئة طن من النييد الفرنسي — معفاة من المكوس الجمركية — وهو عرض رفضه الملك. واشترت ولاية ماساشوستس ولاية مين Maine الحالية من مدعى ملكيتها بمبلغ ألف ومئتين وخمسين جنيتها.

وفي إبان الحرب الأهلية التي انتهت بقطع رأس الملك شارل الأول، كانت عواطف نيو إنجلاند منحازة إلى جانب البرلمان. وكانت قرچينيا من أنصار فرسان

John Smith's Travel^s (١)

Long Island Sound (٢)

الملك ، ولكن كان يفصل بين هاتين المستعمرتين^(١) مئتان وخمسون ميلا ، ولذا لم يحدث بينهما احتكاك خطير . وصحب عودة الملكية في ١٦٦٠ تطور قوى في الاستعمار



(شكل ١٧٨)

البريطاني بأمريكا . إذ كان بشارل الثاني ومن حوله من خلطاء شراة للمال ، فضلاعن أن التاج البريطاني فقد راعماً كل رغبة في أن يقوم بتجاريب أخرى لفرض الضرائب غير المشروعة في أرض الوطن . غير أن العلاقات غير المحددة بين المستعمرات وبين

(١) المستعمرات والمستعمرات والمستوطنات : تستعمل هنا بمعنى واحد والمؤلف في الإنجليزية يستعمل كلفتي (Settlement, Celony) ولا تنطويان على معنى الاستعمار الحالي . بل على معنى الاستيطان والتعمير . (المترجم)

التاج والحكومة البريطانية لاح فيها بواذر بعض الأمل في القيام بمغامرة مالية وراء المحيط الأطلسي . فحدث تطور سريع في المزارع الواسعة الرقعة وفي مستعمرات الملاك . وكان اللود بالتيكور أقام قبل ١٦٣٢ مستعمرة لتكون للكاثوليك ملجأ يستمتعون فيه بالحرية الدينية تحت الإسم الجذاب ماري لاند ، إلى الشمال وإلى الشرق من فرجينيا . وعندئذ استقر « ين » الكويكرى (الذى أدى والده لشارل الثانى خدمات جليلة) إلى الشمال من فيلادلفيا وأنشأ مستعمرة بنسلفانيا . وقد حدد تخومها الرئيسية مع ماري لاند وفرجينيا ، رجلان هما ماسون وديكسون ، اللذان قدر لخطهما « خط ماسون وديكسون » أن يكون بالفعل خط تقسيم هاماً جداً فيما تلى ذلك من شئون الولايات المتحدة . ومن قبل ذلك سقطت كارولينا فى أيدي الإنجليز فسكنوها فى جهات متعددة . وكانت كارولينا هذه فى الأصل مؤسسة فرنسية بروتستانتية غير ناجحة ، وكانت تدين باسمها لشارل الثانى (كارلوس) ملك إنجلترا ، بل لشارل التاسع الفرنسى . وكان يمتد بين ماري لاند ونيو إنجلاند عدد من المستعمرات الصغيرة الهولندية والسويدية ، كانت المدينة الرئيسية فيها هى نيو أمستردام . وقد استولى البريطانيون على هذه المستعمرات من الهولنديين فى ١٦٦٤ ، ثم خسروها مرة ثانية فى ١٦٧٣ ، واستعيدت بالمعاهدة التى أبرم بها الصلح بين هولندا وإنجلترا فى ١٦٧٤ . وبهذا غدا الساحل كله من مين إلى كارولينا (مملكة بريطانية بطريقة ما أو بأخرى) . وكان الأسبان مستقرين إلى الجنوب ؛ وكان مقرهم الأكبر فى قلعة سانت أوغسطين فى فلوريدا ، وفى ١٧٣٣ سكن مدينة سافانا رجل محب للإنسانية هو « أوجلى ثورپ » الإنجليزى ، وقد مست قلبه الرحمة بالفقراء المسجونين وفاء لدينهم فى إنجلترا ، ومن ثم أنقذ من السجن عدداً منهم فأصبحوا مؤسسى مستعمرة جديدة ، هى جورجيا التى أصبحت حصناً منيعاً يقف فى وجه الأسبان . ومن ثم نجد عند منتصف القرن الثامن عشر هذه المستقرات ممتدة بلإزاء الساحل الأمريكى وهى : مجموعة نيو إنجلاند المكونة من البيوريتانة والبروتستانت الأحرار ، وهى : — مين (التابعة لماساشوستس) ، ونيو همبشير وكونكتىكت ورود أيلاند وماساشوستس ؛ والمجموعة المنتزعة من الهولنديين التى

كانت انقسمت آنذاك إلى نيويورك (وهو الإسم الجديد لمدينة نيو أمستردام) ونيو جرسى وديلاوير (وكانت سويدية قبل أن تصبح هولندية ، وألحقت في أبكر أدوار تبعيتها البريطانية ببنسلفانيا) ثم جاءت ماري لاند الكاثوليكية ، وفرجينيا الفرنسية ، وكارولينا (التي قسمت للوقت إلى شمالية وجنوبية) ثم جورجيا ومنشأة أوغلي ثورب : ثم التجأ إلى جورجيا بعد ذلك عدد من البروتستانت التيرولين ، وهاجرت إلى بنسلفانيا أعداد ضخمة من طبقة صالحة من الزراع الألمان .

تلك هي الأصول المخلطة لمواطني المستعمرات الثلاث عشرة . ولا بد أن قيام أية وحدة وثيقة فيما بينها في يوم من الأيام كان يبدو في عين أى أمرى غير متحيز يراقب الأمور في ١٧٦٠ احتمالاً ضعيفاً جداً . ومما زاد الأمر سوءاً أن اجتمع إلى الفوارق السابقة فروق أخرى ولدها المناخ . فإلى الشمال من خط ماسون ديكسون كانت الزراعة تمارس على اساس القواعد المتبعة في بريطانيا وأوروبا الوسطى وعلى يد زراع أحرار من البيض . واكتست المنطقة المسكونة في نيوانجلند بثوب مشابه للريف الإنجليزي ؛ ونشأت في مساحات مترامية من بنسلفانيا حقول ودور ريفية تشبه ما في جنوب ألمانيا . وكانت للظروف المميزة في الشمال آثار هامة من الناحية الاجتماعية . إذ كان لزماً على السادة ورجالهم أن يعملوا يداً ليد بوصفهم سكان غابات خلفية^(١) فتمت التسوية بينهم أثناء ذلك . أجل إنهم لم يبدأوا العمل متساوين . فإن قائمة السفينة « ماى فلاور » تحوى أسماء كثير من الخدم ولكنهم سرعان ما أصبحوا متساوين جميعاً في ظل ظروف المستعمرات ، فكان هناك — مثلاً — متسع عظيم من الأرض يمكن امتلاكه بوضع اليد عليه ، وكان الخادم ينطلق ويأخذ الأرض مثل سيده وهنا اختفى نظام الطبقات الإنجليزي . ونشأت في أكناف هذه المستعمرات مساواة « في ملكات كل من الجسم والعقل » . وظهر استقلال فردى في الحكم على الأشياء تأخذه حمية الأنف لأى تدخل من جانب إنجلترا . ولكن ابتدأت زراعة الطباق إلى الجنوب من خط ماسون وديكسون ، وكان المناخ

(١) الغابات الخلفية : أراضي غابات غير مزدرة تقوم وراء الأرض المزروعة بمنأى من المدن والمستقرات . (المترجم)

الأدفاً مشجعاً على إنشاء المزارع الضخمة وما بها من مناسر العمال . فحاولوا بادیء الرأى استخدام الأسرى من الهنود الحمر ولكنهم وجدوا بهم ميلاً شديداً إلى سفك الدماء البشرية . وأرسل كرومويل أسرى الحرب الإيرلنديين إلى فرجينيا ، وهو أمر كان له أثره البالغ في استرضاء أفئدة المزارعين الملكيين على الجمهورية ومبادئها . وكان المحكوم عليهم يرسلون إلى هناك ، واتسعت التجارة في الأطفال المخطوفين الذين كانوا « يرسلون خفية » إلى أمريكا لكي يصبخوا صبياناً في صناعة^(١) أو عبيداً أرقاء . ولكن أثبتت الأيام أن أوفق شكل من أشكال مناسر^(٢) العمال إنما هو منسر العبيد الزوج . وقد اجتلبت سفينة هولندية أول فوج من الزوج إلى (جيمس تاون) من مدن فرجينيا في زمن مبكر يرجع إلى ١٦٢٠ . ولما وافت ١٧٠٠ كان الأرقاء الزوج منتشرين في كل أرجاء الولايات ، بيد أن فرجينيا ومارى لاند والكارولينتين كانت مناطق استخدامهم الرئيسية ، وعلى حين كانت المجتمعات في الشمال مجتمعات من زراع غير كبيرى الثراء وغير كبيرى الفقر ، فإن الجنوب طور طرازاً من المالك الكبير ومجتمعاً أبيض من المشرفين وأرباب الحرف يعيشون على العمال الأرقاء . فكان العمال الأرقاء ضرورة اقتضاها النظام الاجتماعى والاقتصادى الذى نما في الجنوب ، وكان وجود الأرقاء في الشمال أمراً لا ضرورة له بل كان من بعض الوجوه أمراً مزعجاً : لذلك وجدت اعتراضات أصحاب الضمائر الحية على الاسترقاق في جو الشمال مجالاً أرحب لتطورها وازدهارها . ولا بد لنا من عودة إلى هذه المسألة ، مسألة انبعاث الرق من جديد ، عندما نأخذ في التأمل فيما تتعرض له الديمقراطية الأمريكية من دواعى الارتباك . ونحن هنا إنما نلاحظها في بساطة بوصفها عاملاً إضافياً إلى ذلك الخليط المتنافر في المستعمرات البريطانية .

ولكن لئن كان سكان المستعمرات الثلاث عشرة أنواعاً شتى في أصولهم متخالفين في عاداتهم واتجاه عواطفهم ، لقد كانت تجمعهم معاً خصومات ثلاث : فكانت لهم مصلحة مشتركة ضد الهنود الحمر . وتقاسموا ردحا من الزمان خوفاً

(١) وهم الذين يعبر عنهم الآن باسم تلاميذ صناعيين . (المترجم)

(٢) مناسر العمال Gang Labour : هى جماعات العمال التى تجمع لأداء عمل ما . (المترجم)

مشتركا من الفتح والسيادة الفرنسيين ؛ وكانوا في الثالثة - مشتركين بأجمعهم في النضال ومدعيات التاج البريطاني والأناية التجارية للأوليجرية الجشعة التي كانت تسيطر على البرلمان البريطاني والشئون البريطانية : فأما الخطر الأول وهو الهنود ، فكان شرا مستديما ولكنه لم يزد قط عن مجرد تهديد ينذر بالشر : إذ إنهم ظلوا منقسمين على أنفسهم : ومع ذلك فلقد ظهرت عليهم في بعض الأحيان احتمالات تبشر بالامتزاج وتوحيد الجهود على معيار كبير . فإن الشعوب الخمسة في عصبة القبائل الإيروكوازية (Iroquois) (راجع خريطة مستعمرات ١٧٦٠) كانت عصبة قبائل هامة جدا . بيد أنها لم تنجح في حمل الفرنسيين على العمل ضد الإنجليز لكي تضمن لنفسها الأمان ، ولم ينشأ بين مرتحلة العالم الحديد هؤلاء چانكيزخان هندي أحمر . وكان العدوان الفرنسي تهديدا أخطر ، ولم يقد الفرنسيون أبدا بإنشاء مستعمرات في أمريكا على معيار ينافس المستعمرات الإنجليزية . بيد أن حكومتهم اتجهت إلى تطوير المستعمرات وإخضاعها بطريقة منظمة مرعبة . كان الانجليز في أمريكا مستعمرين مستوطنين ، وكان الفرنسيون مرتادين ومغامرين ، وكلاء تجاريين ومبشرين وتجاراً وجنوداً . ولكنهم لم يرسوا لبنائهم أساساً متيناً إلا في كندا : إذ أن رجال السياسة الفرنسيين كانوا يكبون على الخرائط ويطلقون لأحلامهم العنان . وإنك لواجب أحلامهم ماثلة في خريطتنا ، في سلسلة القلاع المتسللة جنوباً ، من البحيرات العظيمة ، وشمالاً في أعلى المسيسيبي والأوهايو : وكان الكفاح بين فرنسا وبريطانيا كفاحاً شمل العالم أجمع . وقد فصل فيه في الهند وفي ألمانيا وعلى صفحة أعلى البحار^(١) . وبصلح باريس (١٧٦٣) أعطى الفرنسيون كندا لإنجلترا ، وتركوا لويزيانا لإسبانيا المتقوضة المشلولة اليدين . وكان معنى ذلك تحلى فرنسا تماماً عن أمريكا . وبزوال هذا الخطر الفرنسي أصبح المستعمرون أحراراً لا يعوقهم عائق عن مواجهة عدوهم الثالث المشترك : - وهو تاج بلادهم الأصلية وحكومتها .

(١) أعلى البحار : High Seas أجزاء البحار الموجودة في عرض البحر والتي تقع خارج المياه الإقليمية لأي قطر من الأقطار التي عرضها كما ينص القانون الدولي ثلاثة أميال . (المترجم)

٣ - الحرب الأهلية تفرض على المستعمرات فرضاً

لاحظنا في الفصل السابق كيف أن الطبقة الحاكمة في بريطانيا العظمى دأبت على وضع يدها على الأراضي والقضاء على حريات العامة طيلة القرن الثامن عشر ، وعرفنا كيف تمخض جشعهم وعميتهم عن الثورة الصناعية^(١) الجديدة . كذلك لاحظنا كيف أن البرلمان البريطاني بسبب انحلال أساليب التمثيل النيابي لمجلس العموم ، أصبح في كل من مجلسيه الأعلى والأدنى أى اللوردة والعموم ، مجرد أداة للحكم عن طريق كبار أصحاب الأراضي . وكان كل من كبار الملاك هؤلاء والتاج ذا مصلحة عميقة في أمريكا - الأولين منهم بوصفهم مغامرين يحدون مصالحهم الخاصة ، والآخر بوصفه ممثلاً لاستغلال ملوك أسرة استيوارد ومضاربهم من ناحية ، وبوصفه ممثلاً للحكومة في بحثها عن موارد مالية للقيام بنفقات السياسة الخارجية من ناحية أخرى ، وطبيعي أن اللوردة والتاج لم يكن أحد منهم ينظر إلى التجار والزراع والعامّة سكان المستعمرات نظرة فيها تقدير أكثر من نظرته إلى صغار المزارعين . وصغار الزارعين الملاك في أرض الوطن . والواقع أن مصالح الرجل العامى (العادى) في كل من بريطانيا العظمى وإرلندة وأمريكا كانت في صميمها واحدة لا اختلاف بينها . فإن كلا منهم كانت تعتصره وتستغله نفس الهيئة الحاكمة ، ولكن على حين كان العاصر والمعصور في إنجلترا متشابكين تشابكاً وثيقاً في نظام اجتماعى وطيد ، فإن التاج وطالبي الاستغلال في أمريكا كانا بعيدين ، وكان في مكنة الرجال هنا أن يتخذوا وأن يطوروا في أنفسهم شعوراً بالجماعة ضد عدوهم المشترك .

هذا إلى أن المستوطن الأمريكى كانت له الميزة الهامة ، ميزة امتلاكه لساناً وترجمانا منفصلاً قانونياً لمقاومة الحكومة البريطانية يتمثل في مجلس مستعمرته أو جمعيتها التشريعية ، التى كانت ضرورية لإدارة الشئون المحلية . ولم يكن للرجل العامى في إنجلترا - وهو الذى تحرمه الجنتلمانية بما تستخدمه من ضروب الحيل والخداع من

(١) تسمى تلك النهضة الصناعية باسم الثورة الصناعية أو الانقلاب الصناعى . (المترجم)

التمثيل الصحيح في مجلس العموم - أى لسان ناطق عنه ولا أى مركز للعمل والتعبير عن تدمره .

ولسوف يتضح للقارئ إذ يتذكر تنوع المستوطنات أن الوضع هنا كان يهيئ الفرص لسلسلة لا نهاية لها من المنازعات ، وضروب العدوان وما يقابل ذلك من التدابير المضادة . وقصة تطور الانفعالات بين المستعمرات وبين بريطانيا قصة أشد تعقداً وأدق وأطول من أن تتسع لها خطة هذه « المعالم » . وحسبك أن المظالم كانت تقع تحت عناوين ثلاثة رئيسية هي المحاولات المبذولة لضمان حصول المغامر البريطاني أو الحكومة البريطانية على أرباح استغلال الأراضي الجديدة ؛ والتضحيات المنظمة على التجارة بغية الاحتفاظ بتجارة المستعمرات الخارجية كلها في أيدي بريطانية ، بمعنى أن جميع صادرات المستعمرة لم تكن لترسل إلا بطريق بريطانيا ولم يكن يستعمل في أمريكا سوى السلع البريطانية . وأخيراً تجيء محاولة فرض الضرائب بواسطة البرلمان البريطاني بوصفه السلطة العليا الفارضة للضرائب في الإمبراطورية . واضطر المستوطنون الأمريكيون تحت ضغط هذا النظام الثلاثي من المضايقات ، أن يقوموا بقدر جسيم من التفكير السياسى العميق . وشرع رجال من أمثال باتريك هنرى وجيمس أوتس (Otis) في مناقشة الأفكار الأساسية التي تقوم عليها الحكومات والترابط السياسى على نحو شديد الشبه بمناقشتها في إنجلترا في الأيام العظام أيام دولة كرومويل الجمهورية . وأخذوا ينكرون كلا من الأصل المقدس للملكية والسياسة العليا للبرلمان البريطانى ، وكان أن قال جيمس أوتس في ١٧٦٢ أشياء من أمثال التالى :

« خلق الله الناس جميعاً متساوين تساويًا طبيعياً »

والفكرات القائلة باستعلاء الإنسان على أخيه الإنسان فكرات تلقينية غير فطرية

وقد خلق الملوك لخير الناس ولم تخلق الناس لهم

وليس لأية حكومة أن تتخذ من رعاياها عبيداً

ومع أن معظم الحكومات تعسفية في واقع الأمر

وهى بناءً على ذلك لعنة وفضيحة للطبيعة الإنسانية .

فما من واحدة منها تكون تعسفية قانوناً وشرعاً .

وبعض هذه الأقوال تضرب في الموضوع بسهم بعيد المرمى .

وقد بدأ هذا التخمر في أفكار الأمريكيين السياسية بفضل خيرة بريطانية . فإن هناك كاتباً انجليزياً عظيم التأثير هو جون لوك (١٦٤٢ - ١٧٠٤) ، الذى يمكن أن يعد كتابه «مقالتان عن الحكومة المدنية» نقطة الارتحال الأساسية للفكرات الديمقراطية العصرية . كان أبوه جندياً من أتباع كرومويل ، كلية وقد تعلم في «كرايست تشرتش Christ Church» بأكسفورد إبان عظمة الجمهورية ، وقضى بضع سنين مبعداً في هولندا ، وتكون كتاباته جسراً يصل بين التفكير السياسى الجرىء في تلك الأيام الجمهورية القديمة وبين الحركة الثورية في كل من أمريكا وفرنسا .

على أن الرجال لا يشرعون في العمل والتصرف على أساس النظريات . وإنما يحدو الناس إلى «العمل» على الدوام شعورهم بوجود خطر ما حقيقى أو ضرورة ما عملية . ولن تستقيم للنظريات الأمور وتستقر في نصابها إلا بعد أن يكون العمل والتصرف قد هدّ صرح العلاقات القديمة كلها وأنتج أموراً جديدة محيرة . وعند ذلك توضع هذه النظرية في بوتقة الاختبار . فالحلاف على المصالح والفكرات ، المشتجر بين المستوطنين تحول إلى قتال لما أبداه البرلمان البريطانى بعد صلح ١٧٦٣ من عنيد التصميم على فرض الضرائب على المستعمرات الأمريكية . وكانت بريطانيا ترفل في مجبوحة السلم وتنهال عليها الرفاهية من كل جانب ، فأحست أن أمامها فرصة بديعة لتصفية الحساب مع هؤلاء المستوطنين العصاة . ولكن كبار أصحاب الأملاك البريطانيين وجدوا إلى جوار قوتهم قوة تشاطرهم آراءهم نفسها ، وإن اختلفت عنهم قليلاً في غاياتها - وهى قوة التاج المنتعش . ذلك بأن جورج الثالث الذى بدأ حكمه في ١٧٦٠ ، أصر على أن يكون في سلطانه ملكاً أكثر من سلفية الألمانين . وكان يستطيع التكلم بالإنجليزية ، وكان يدعى أنه «مباه بأن يلقب بريطونيا»^(١) ، وعندى أنه اسم لا بأس بأن يطلق على رجل لا تجرى في عروقه

(١) بريطوني Briton : أى من سكان بريطانيا القدامى . (المترجم)

قطرة واحدة معروفة من الدم الإنجليزي ولا الويلزى ولا الاسكتلندى ؟^١ وكان يحيل إليه أن المستعمرات الأمريكية والممتلكات وراء البحار عامة بما لها من مراسيم غير محددة - (بل عساها بلا مراسيم مطلقاً) - أما كن قد يستطيع التاج فيها أن يدعى السلطان وأن يحصل على الموارد المالية والسلطات التي تنكرها عليه إنكاراً باتاً الأرستقراطية القوية الغيور على سلطانها في بريطانيا . فدفع هذا كثيراً من نبلاء الهويج (Whigs)^(١) أن يعطفوا على المستوطنين عطفاً لم يكونوا ليظهروه لولا هذا الظرف . ذلك أنه لم يكن لديهم أى اعتراض على استغلال المستعمرات لصالح صاحب « المسعى الخاص »^(٢) البريطانى ولكن كانت لديهم اعتراضات قوية جداً على تقوى التاج بذلك الاستغلال تقوياً يجعله على الفور مستقلاً مستغنياً عنهم .

من أجل ذلك لم تكن الحرب التي نشبت حرباً بين بريطانيا والمستوطنين بل بين الحكومة البريطانية والمستوطنين ، انحاز فيها قسم من نبلاء حزب الأحرار (الهويج) وقدر جسيم من الشعور العام في إنجلترا إلى صف هؤلاء المستوطنين . وهناك حركة مبكرة بعد (١٧٦٣) كانت ترمى إلى محاولة جمع الإيرادات لبريطانيا في المستعمرات بتحتيم دمج الصحف وأنواع مختلفة من الوثائق . ولقيت هذه المحاولة مقاومة عنيدة ، وداخلت الرهبة قلب التاج البريطانى ، فألغيت قوانين الدمغة (١٧٦٦) . وقوبل إلغاؤها بمظاهر فرح صحبها شيء من الشغب في لندن ، وتجلّى فيها من السرور القلبي ما لم يتجلّى في المستعمرات نفسها .

ولكن موضوع قانون الدمغة لم يكن إلا دوامة واحدة في سبيل مضطرب يتدافع هاويا نحو حرب أهلية . فكان ممثلو الحكومة البريطانية مستعزين وراء عشرات من الحجج في أعلى الساحل وأسفله دائبين على تحقيق سلطاتهم وإبرازها وجعل

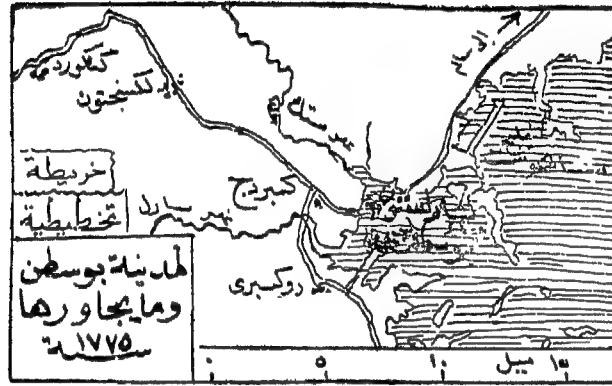
(١) الهويج Whigs : حزب ظهر في القرن التاسع عشر ممثلاً لنجار الطبقة الوسطى منافساً لأصحاب الأملاك من حزب التورى (المحافظين أخيراً) تسمى فيما بعد باسم "حزب الأحرار" . (المترجم)
 (٢) المسعى الخاص Private enterprise : الجهود أو المشروعات الخاصة التي يقوم بها فرد أو أفراد أو شركات . (المترجم)

الحكومة البريطانية كلاً فادحا لا يطاق . وكان إنزال الجنود في ضيافة المستوطنين كرها ، من أفدح الأمور وطأة عليهم . وكانت رودايلاند ناشطة بوجه خاص في تحديها لقيود التجارة . فإن سكان رودايلاند كانوا متجرين أحراراً — أى مهربين ؛ وقد حدث أن سفينة حكومية تسمى جاسبي (Gaspee) شحطت على أرض بروفيدانس ؛ فباغتها واعتلى ظهرها واستولى عليها رجال مسلحون في زوارق ، ثم مالبثوا أن أحرقوها . وفي (١٧٧٣) منح البرلمان البريطاني شركة الهند الشرقية ميزات خاصة في استيراد الشاي إلى أمريكا في استهانة تامة بنظام تجارة الشاي المستعمرات . وصمم المستوطنون بعزم على رفض هذا الشاي ومقاطعته . ولما أن أظهر مستوردوا الشاي في بوسطن لإصراراً على إنزال بضائعهم إلى الشاطئ ، صعد إلى سفن الشاي الثلاث عصابة من الرجال متنكرين في زي الهنود الحمر ، وألقوا بالشاي في البحر على ملأ من جمهور عظيم من الناس (١٦ ديسمبر ١٧٧٣) :

وشغل الطرفان طيلة ١٧٧٤ بجمع الموارد والأموال استعداداً للمعركة المقبلة . وقرر البرلمان البريطاني في ربيع (١٧٧٤) معاقبة بوسطن بإغلاق مينائها ، واتجهت النية إلى القضاء على تجارتها ما لم تقبل ذلك الشاي . وكان ذلك مثالا نموذجياً كاملاً لذلك « الحزم » الأحمق الذي يمزق الامبراطوريات بدءاً . ولكي يتم تنفيذ هذا التدبير بالقوة ، احتشدت الجيوش البريطانية في بوسطن تحت قيادة الجنرال جاج (Gage) واتخذ المستوطنون تدابير مضادة لتلك . وانعقد أول (كونجرس) للمستوطنين بمدينة فيلادلفيا في سبتمبر ، مثلت فيه اثنتا عشرة مستعمرة هي : ماساشوستس ، وكونكتيكت ، ونيوهامشير ، ورودايلاند ، ونيويورك ، ونيوجرسي وبنسلفانيا ، وماري لاند ، وديلاوير ، وفرجينيا ، وكارولينا الشمالية والجنوبية ، ولم تكن جورجيا حاضرة . وأصدر الكونجرس تمشياً مع خير التقاليد الإنجليزية وثيقة أبان فيها موقفه بأن أشهر « إعلان حقوق » . والواقع أن هذا الكونجرس كان حكومة تمرد وعصيان ، ولكن لم تضرب ضربة واحدة حتى ربيع (١٧٧٥) . يوم جاء أول سفك للدماء .

١١٦٥

فإن اثنين من الزعماء الأمريكيان هما هانكوك وصمويل آدامز ، قد اتجهت نية الحكومة البريطانية إلى اعتقالهما ، ومحاكمتهما بتهمة الخيانة ، وكان معروفاً أنهما في لكسينجتون ، على مبعده أحد عشر ميلاً تقريباً من بوسطن ، وفي ليل ٨ إبريل ١٧٧٥ أصدر جاج أوامره بزحف قواته لاعتقالهما .



(شكل ١٧٩)

وكانت تلك الليلة من ليالى التاريخ العظيمة . فإن المستوطنين تنهبوا إلى حركة جيوش جاج ، فرفعت مصابيح الإشارة فوق برج كنيسة في بوسطن وانسل رجالان هما داووز وبول ريثير في قارب عبر الخليج الخلقي حتى يستطيعا أن يحصلا على جوادين لكي يُحذرا المنطقة الريفية . كذلك نُقل البريطانيون بالمعدية عبر الخليج ؛ وفيما هم يزحفون تحت جناح الليل إلى لكسينجتون كانت تسبقهم أصوات مدافع الإنذار ورنين أجراس الكنائس . وبينما هم يدخلون لكسينجتون عند الفجر ، شاهدوا مجموعة صغيرة من الرجال مصطفين في تشكيلة عسكرية . والظاهر أن البريطانيين كانوا البادئين بإطلاق النار . فانطلقت طلقة واحدة ثم سيل من الطلقات ، وتراجعت الثلاثة الصغيرة دون أن تجيب — فيما يظهر — على الطلقات تاركة في ظاهر القرية ثمانية من القتلى وتسعة من الجرحى .

وعند ذلك سار البريطانيون إلى قرية كونكورد ، وهى وراء ذلك بعشرة أميال ، فاحتلوا القرية ووقفوا ثلة من الجنود على الكوبرى القائم في ذلك الموضع . وفشلت الحملة في هدفها وهو اعتقال هانكوك وآدامز ، ويلوح أن القائد البريطانى تيمر ماذا

يفعل بعد ذلك . وفي نفس الوقت كان جند المستوطنين يتقاطرون من كل حذب وصوب وسرعان ما وجد الحرس المرابطون على الكوبرى أنفسهم غرضاً لنيران متزايدة انتهت بهجوم . وتقرر التقهقر إلى بوسطن . ولكنه كان تقهقراً مدمراً . فقد هبت المنطقة كلها من خلفهم ، وأخذ المستوطنون في التجمع طول الصباح . وعندئذ أصبح جانباً الطريق مزدحمين برماة حذاق يطلقون النار من وراء الصخور والسيارات والمباني ، وكثيراً ما حدث أنهم هجموا حتى غدوا على مسافة دانية بلغت مرمى السونكى . وكان الجنود في ثياب قرمزية وضاحية ، ذات واجهات صفراء وتزالك وأربطة رقبة بيضاء ، ولا بد أن هذه الألوان كانت تبدو وضاحية ساطعة بالقياس إلى الألوان الحادة في أخريات ربيع نيور إنجلند ، كان ذلك اليوم مشرق الضياء حاراً مترباً ، وكان الرجال قد غلبهم الإعياء من جراء سُرَاهِم طول الليل . وفي كل بضع ياردات يقع منهم رجل إما جريحاً أو قتيلاً . على حين يسير الباقون ثقلاً أو يقفون ليطلقوا وابلاً من نار على غير جدوى . وكانت هناك في لكسينجتون أمداد بريطانية ومدفعان ، وبعد استراحة وجيزة تواصل التقهقر في نظام أحسن . ولكن التعقب استمر حتى النهر ، وبعد أن عبره البريطانيون قافلين إلى بوسطن ، اتخذ جنود المستوطنين مراكزهم في كامبريدج وأعدوا أهبّتهم لحصار المدينة .

٤ - حرب الاستقلال

بذا ابتدأت الحرب . ولم تكن حرباً تبشر بنهاية حاسمة . فلم تكن للمستوطنين عاصمة واحدة يخشون عليها عطباً ؛ بل كانوا منتشرين فوق ريف عظيم من خلفه برية لا آخر لها ، ولذا كانت لهم قوة مقاومة عظيمة . وكانوا في غالب أمرهم تعلموا فن الحرب عند الهنود . فكانوا يستطيعون أن يجيدوا القتال في نظام مكشوف وأن يشتتوا الجنود ويمزقوهم بحركاتهم . ولكن لم يكن لديهم جيش منظم يستطيع أن يلتقى البريطانيين في معركة عظيمة ، ولم يكن لديهم إلا القليل من العتاد الحربي ؛ هذا إلى أن مجندينهم كان يُلم بهم نفاذُ الصبر إذا طال بالحملة الأمد ، وينزعون إلى العودة إلى مزارعهم . وكان لدى الإنجليز من الناحية الأخرى جيش حسن التدريب ، كما أعارتهم سيادتهم

على البحر قدرة على نقل هجومهم شمالاً وجنوباً في ذلك الساحل الأطلسي الطويل . وكانوا في سلام مع العالم أجمع . ولكن الملك كان غيباً شراً في تدخله في إدارة الأمور ، وكان القواد الذين يؤثرون بعطفه إما رجالاً أغبياء « أقوياء الشكيمة » أو طاشين من أبناء البيوتات « والطبقة العالية » . ولم يكن فؤاد إنجلترا مجتهداً لهذا الأمر . لذلك تركز جل اعتماد التاج على قدرته على توقيع الحصار البحري على المستوطنين والإغارة عليهم ومضايقتهم حتى يخضعوا ، أكثر منه على الفتح والاحتلال النهائي للبلاد . ولكن الوسائل التي استعملت وبوجه خاص استخدام الجنود الألمانية المأجورة التي كانت ما تزال تحتفظ بتقاليد القادة الماثورة عن حرب الثلاثين ، والجنود المساعدة الهندية الذين شتتوا سكان المستوطنات المنعزلة — لم تضجر الأمريكيين من الحرب قدر ما أضجرتهم من البريطانيين . فأما الكونجرس فلم يجتمع لثاني مرة في ١٧٧٥ ، وأقرّ التصرفات التي أتاها مستوطنو نيو إنجلاند ، وعين جورج واشنطن قائداً عاماً للجيش الأمريكي . وفي ١٧٧٧ بينما الجنرال برجون يحاول أن ينحدر من كندا زاحفاً على نيويورك ، إذ انهزم عند « مزرعة فريمان » عند أعلى نهر الهدسون الأعلى ، وأحيط به واضطر إلى التسليم في ساراتوجا ومعه جيشه كله . وشجعت هذه الكارثة الفرنسيين والأسبان على الدخول إلى الحلبة في صف المستوطنين . وقام الأسطول الفرنسي بالشيء الكثير في سبيل تقليل ميزة البريطانيين في البحار . وحصر الجنرال كونواليس في شبه جزيرة يوركتون بقرجينا في ١٧٨١ ، فسلم بجيشه . وكانت موارد الحكومة البريطانية عند ذاك قد استنزفت ، إذ كانت ترزح تحت عبء ثقل من الكفاح مع فرنسا وأسبانيا في أوروبا .

ويلوح أن المستوطنين عامة كانوا في البداية من قلة الميل إلى نبذ الملكية والمطالبة بالاستقلال التام بحيث ماثلوا حالة الهولنديين أثناء الدور الأول من اضطهادات فيليب الثاني وحماقاته . وأطلق اسم الراديكاليين على دعاة الانفصال^(١) ؛ وكانوا قوما يغلب عليهم التطرف في الديمقراطية ، كما قد نقول في إنجلترا في أيامنا هذه ، وأدخلت

(١) الراديكاليون : كانت كلمة الراديكاليين تطلق في إنجلترا في ذلك الزمان على أنصار الديمقراطية والإصلاح البرلماني (المترجم)

آراؤهم التقدمية شيئاً من الخوف إلى قلوب كثير من المستوطنين الأكثر رزانة و ثراء ، الذين كان لامتيازات الطبقات ومكانتها سحر عظيم في أعينهم . ولكن انجليزياً مقتدرأ قوى الحججة هوتوماس بين Paine نشر في زمن مبكر من (١٧٧٦) بحثاً بفيلا دلفيا تحت عنوان « حسن التصرف » ، كان لها أثر هائل في الرأي العام . كان أسلوبها أسلوباً بيانياً بليغاً إذا قيس بالمعايير العصرية . « إن دماء القتلى وصوت الطبيعة الباكي تصبح ، أن قد حان وقت الافتراق » وهلم جرا . . . ولكن آثارها كانت بالغة القوة . فإنها حولت الآلاف إلى فكرة ضرورة الانفصال . وما كاد انقلاب الرأي يبدأ حتى أخذ يهدر مسرعاً .

ولم يتخذ الكونجوس إلا في صيف (١٧٧٦) الخطوة التي لا مرد لها : بإعلان طلب الانفصال « وإعلان الاستقلال » ، وهو مثال آخر من تلك الوثائق النموذجية التي يعود الفضل في انتاجها للبشرية للإنجليز بخاصة . وقد سطره توماس جفرسون . وما لبث بعد أن أدخلت عليه تصميمات وتعديلات متنوعة ، أن جعل الوثيقة الأساسية للولايات المتحدة الأمريكية . وأدخل تعديلات جديران بالذكر على مسودة جفرسون . فإنه شن حملة عنيفة على تجارة الرقيق ، وأنهى باللائمة على حكومة أرض الوطن بانجلترا لحيولتها دون المحاولات التي بذلتها المستقرات (المستوطنات) لإيقاف تلك التجارة . فحذفت هذه الفقرة وكذلك حذفت جملة أخرى عن البريطانيين تقول : « يجب أن نحاول أن ننسى حبنا السابق لهم . . فقد كنا نستطيع أن نكون مجتمعين شعباً حراً عظيماً » .

وفي قريب من نهاية (١٧٨٢) وقعت في باريس البنود الأولية في المعاهدة التي اعترفت فيها بريطانيا بالاستقلال التام للولايات المتحدة . وأعلن انتهاء الحرب في ١٩ إبريل (١٧٨٣) أي بعد ثمانى سنين بالضبط من انطلاق پول ريشير بجواده وارتداد رجال جاج (Gage) من كونكورد إلى بوسطن . ووقعت معاهدة الصلح نهائياً بباريس في سبتمبر .

٥ - دستور الولايات المتحدة

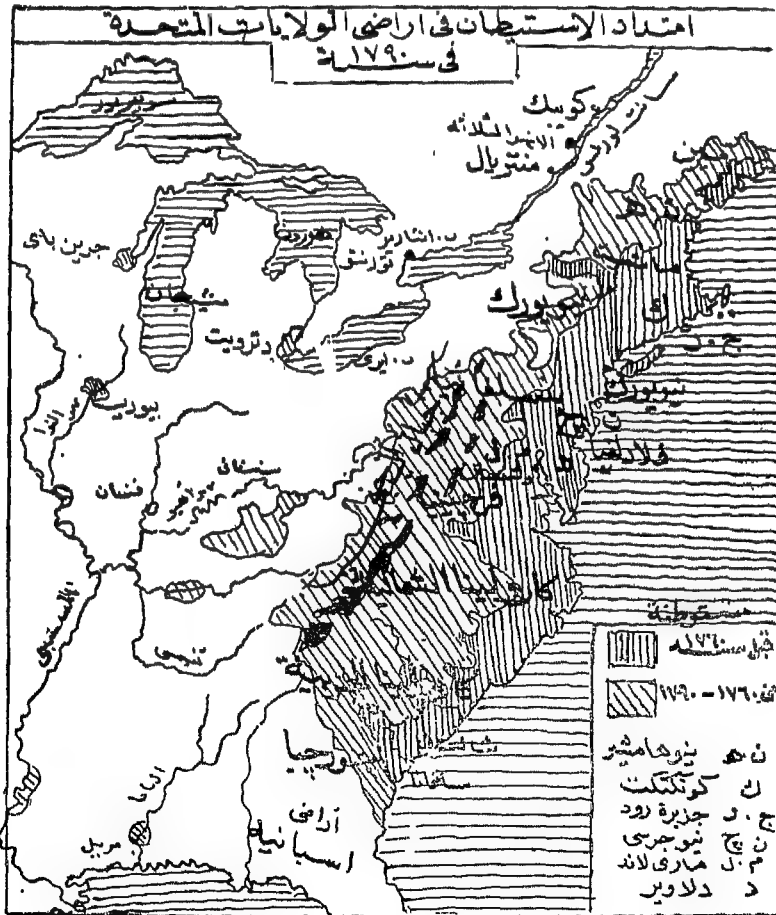
إن الطريقة التي أصبحت بها الولايات الثلاث عشرة مستقلة ، كانت من وجهة نظر التاريخ الإنساني ، أقل شأنًا بكثير من استقلالها الفعلي نفسه . وظهر في العالم بتوطيد استقلالها ذاك ، نوع من المجتمع جديد . وكأني به شيئاً فقست عنه بيضة . كان حضارة أوربية غربية انفصلت وتحررت من آخر آثارها الإمبراطورية والمسيحية ؛ ولم يكن بها أى أثر للملكية ولا دين رسمى للدولة . وما كان بها دوقات ولا أمراء ولا كونتات ، ولا أى ضرب من حملة الألقاب المدعين سمو القدر والرفعة بوصفها حقوقاً . بل إن وحدتها نفسها لم تكن آنذاك إلا اتحاداً بقصد الدفاع والحرية . فكانت من هذه الوجوه بداية نظيفة فى التنظيم السياسى لم ير العالم من قبل لها نظيراً . وإن غيبة أية رابطة دينية تربطهم بعضهم إلى بعض بالحذيرة بالتنويه بوجه خاص . فقد كان بها أكثر من واحد من أشكال المسيحية ، ولا مجال للشك فى أن روحها كانت مسيحية . ولكن الأمريكان كما صرحت بذلك وثيقة رسمية فى (١٧٩٦) تصريحاً لا لبس فيه « إن حكومة الولايات المتحدة ليست بأى حال مؤسسة على الديانة المسيحية »^(١) . فإن المجتمع الجديد قد توغل بالفعل والواقع حتى بلغ أصول الجماعة الإنسانية العادية المجردة . وكان يبنى نوعاً جديداً من الجماعة الإنسانية ونوعاً جديداً من الدولة على تلك الأصول .

هنا كان يعيش ما يقرب من أربعة ملايين من الناس متناثرين فوق منطقة مترامية الأطراف ليس بينها من وسائل الاتصال إلا كل صعب شديد الصعوبة بطيء عظيم البطء ، وهم قوم لما يبرحوا فقراء ، وإن كان أمامهم إمكانيات تبشر بثروة لا نهاية لها . وقد نشطوا يعملون فى واقع الحقيقة على معيار ضخيم أعمالاً لإنشائية جليلة مثل تلك التى قام بها بالخيال والنظر الفلاسفة الأثينيون قبل ذلك باثنين وعشرين قرناً .

(١) نقلاً عن معاهدة تريبولي ، انظر تشاننج السفر الثالث ، الفصل الثامن عشر .

وهذا الموقف يشير إلى مرحلة محددة في فكك الإنسان من السابقة والعرف ، وخطوة محددة إلى الأمام تتجه نحو إعادته بناء ظروفه إعادة واعية متعمدة حتى تتلاءم وحاجاته وغاياته . كانت طريقة جديدة أخذت تصبح شيئاً عملياً في الشئون الإنسانية . فإن دول أوروبا العصرية تطورت عما سبقها من أشياء ، نظاماً في إثر نظام ، وعلى مهل وببطء ، بلا خطة مرسومة . فأما الولايات المتحدة فإنها خُطّطت تخطيطاً واصطنعت اصطناعاً .

ومع ذلك فإن حرية الشعب الحديد الخلاقة ، كانت محددة تحديداً خطيراً جداً من ناحية واحدة . فلم يكن هذا النوع الحديد من الدولة مبنياً على موقع مهاد



(شكل ١٨٠)

موطاً . بل أن تكوينه الاصطناعي لم يبلغ في صراحته مبلغ بعض المستعمرات الأثنية المتأخرة التي انطلقت عن المدينة الأم لتخطط وتبنى دول مدن جديدة تماماً ذات دساتير جديدة تماماً أيضاً . فكان لكل من المستعمرات الثلاث عشرة في نهاية الحرب دستوراً الخاص ، وهو إما مثل دساتير كونكتيكت ورود أيلاند ، التي يرجع تاريخها إلى أوان مراسيمها الأصلية (١٦٦٢) وإما أعيد تكوينه أثناء النضال ، شأن دساتير سائر الولايات ، حيث كان حاكم بريطانيا يلعب دوراً عظيماً في الإدارة . على أننا نستطيع أن نعد هذه التجديدات محاولات لها فضل الإسهام وتجارب في المجهود الإنشائي العام .

وهناك أفكار معينة كانت تبرز بروزاً واضحاً جداً من فوق هذا المجهود . فمن هذه الأفكار فكرة المساواة السياسية والاجتماعية . فهذه الفكرة التي رأيناها وهي تولد في العالم بوصفها فكرة متطرفة لا يكاد يصدقها عقل في العصر المحصور بين بوذا ويسوع الناصري ، — قد توكدت الآن في أخريات القرن الثامن عشر بوصفها معياراً عملياً للعلاقات الإنسانية . يقول البيان الأساسي في فرجينيا : « وإن كل الناس خلقوا بالفطرة أحراراً مستقلين » ، ثم هو يعضى في سرد « حقوقهم » والتوكيد بأن كل المأمورين والمحافظين ليسوا إلا « مؤتمنين على المصلحة العامة وخداماً لها » . ولكل الناس الحق المتساوي في ممارسة الديانة بملء حريتهم . فأما الملك بحكم الحق ، والأرستقراطي ، « والعبد الطبيعي » ، والملك الرب ، والله ، فقد اختفت كلها من هذه الخطة السياسية الأمريكية — بقدر ما تذهب إليه هذه التصريحات . وقدمت معظم الولايات لنظام الحكم فيها بمقدمات شبيهة بهذه . وقال إعلان الاستقلال إن « كل الرجال قد ولدتهم أمهاتهم سواسية » . وإنك ترى في كل مكان توكيدات مصوغة في عبارات القرن الثامن عشر تقول بأن المجتمع الجديد سوف يكون — إذا استخذمنا التعبيرات التي أوردناها في فصل سابق^(١) — « مجتمع لإرادة وليس مجتمع طاعة » . غير أن مفكرى ذلك الزمان ، كانت لهم في صوغ عبارة ذلك الموضوع طريقة كادت

(١) انظر ص ص ٩٥٧ - ٩٦٣ من المعالم - ٣ ط ٢ . ومجتمع الإرادة والطاعة من أهم النقاط التي يعنى المؤلف أيتها عناية بإبرازها في كل أجزاء « المعالم » . (المترجم)

أن تبلغ حد السباحة والغلط ، فإنهم تصوروا أن المواطنة تنطوى على ضرب من الاختيار الفردى والقبول ، لم يحدث قط في واقع الأمر ، وهو الشيء المتسمى باسم العقد الاجتماعى . ألا ترى إلى الديباجة التمهيدية في دستور ماساشوسيتس مثلاً ، كيف تذكر أن الدولة ترابط لإختياري ، « به تعاهد الشعب بأجمعه مع كل مواطن ، وكل مواطن مع الشعب بأجمعه بأن يحكم الجميع بقوانين معينة ترمى إلى الخير المشترك » .

ولسوف يتضح الآن أن معظم هذه البيانات الأساسية تقبل المناقشة . فالرجال لا يولدون سواسية ، ولا هم يولدون أحراراً ، بل هم يولدون حشداً أشد ما يكون تنوعاً ، وينشأون خليطاً متورطاً في شبكة اجتماعية عتيقة معقدة . ثم أين ذلك الرجل الذى يدعى للتوقيع على أى عقد ؟ . فإن فاته ذلك وجب عليه أن يهجر العالم وحيداً . فلو فسرت هذه البيانات تفسيراً حرفياً ، لبلغت من الزيف والخطأ الظاهر ، حداً يجعل من المستحيل الاعتقاد بأن الناس الذين وضعوها ، كانوا يقصدون منها أن تفسر حرفياً . وإنما هم أنشئوها للتعبير عن أفكار معينة خداعة ولكنها مهمة أعمق الأهمية — وهى أفكار أصبح العالم بعد انقضاء قرن ونصف من التفكير فيها ، فى وضع يستطيع فيه أن يعبر عنها تعبيراً أحسن . والمدينة كما أوضحت هذه « المعالم » نشأت بوصفها مجتمع طاعة ، وكانت بالضرورة مجتمع طاعة . وكان الكهنة والحكام قد أساءوا إلى الروح جيلاً بعد جيل . ثم حدث انشلال متواصل من الإرادة القوية جاء منحدراً من الغابات والغياض والسهوب^(١) . ذلك أن الروح الإنسانية ثارت فى نهاية الأمر ثورة تامة على الطاعات العمياء فى الحياة المشتركة . كانت تبغى — وكان ذلك بطريقة سمجة جداً فى بداية الأمر — الحصول على طراز جديد من الحضارة أحدث جودة وأحسن صنفاً ، يكون فى نفس الوقت « مجتمع إرادة » . وكان من الضرورى للوصول إلى تلك الغاية أن يُعامل كل إنسان بوصفه سلطاناً على نفسه ؛ وكان لا بد أن يكون مركزه مركز الزمالة لا العبودية . وكانت فائدته الحقيقية وأهميته الحقيقية

(١) الغياض (Parklands) : مصطلح جغرافى معناه الغابات الخفيفة المتباعدة الأشجار . والسهوب (Steppes) : هى السهول الفسيحة . الجافة الخالية من الأشجار وإن نبتت بها الأعشاب ومعظمها فى جنوب شرق أوروبا وجنوب غرب آسيا . (المترجم)

تعتمد على صفته الفردية . والطريقة التي حاول بها هؤلاء الخالقون لأمريكا السياسية أن يحصلوا على « مجتمع الإرادة » ذاك ، كانت طريفة مفرطة في بساطتها وفجاعتها . فقد منحوا الناس شيئاً كان بالنسبة إلى الزمان وبالنظر إلى الأحوال الأمريكية ، حق اقتراح واسع المجال جداً . ولكن الأحوال كانت تختلف بين ولاية وأخرى ، وكان أوسع حق للاقتراح في بنسلفانيا ، حيث كان كل دافع ضرائب بالغ ذكر له الحق في التصويت ، ولكن إذا قورن الحال ببريطانيا ، لتبين أن الولايات المتحدة بأجمعها كانت أقرب ما تكون من منح حق التصويت لكل من بلغ مبلغ الرجال عند نهاية القرن الثامن عشر . وبذل مؤسسو أمريكا الجهود – وكانت جسيمة بالقياس إلى زمانهم لطيفة بالقياس إلى زماننا – للوصول إلى « تعليم » بسيط واسع الانتشار . فأما « إعلام » المواطنين بخبر ما يجرى داخل بلادهم وخارجها ، فأمر تركوه للاجتماعات العامة والمطبعة الخاصة التي يملكها أى فرد ، دون أن تخالفهم – فيما يظهر – وخزة ارتياب في هذين العاملين .

، وقصة دساتير الولايات المختلفة ودستور الولايات المتحدة على وجه العموم ، قصة معقدة جداً ، لسنا بمستطيعين أن نعالجها هنا إلا كأشد ما تكون المعالجة إجمالاً واقتضاباً . وأجدر الأمور بالذكر من وجهة النظر العصرية هي إغفال النساء بوصفهن مبادئ (مواطنات) . وكان المجتمع الأمريكي مجتمعاً بسيطاً زراعياً في كبير أمره . وكانت معظم النساء متزوجات ؛ فلا غرو إذن أن يمثلن بعولتهن . على أن نيو جرسي سمحت لعدد قليل من النساء أن يعطين أصواتهن على أساس من المؤهلات العقارية . وهناك أيضاً نقطة أخرى ذات أهمية عظيمة ، هي القرار الذي كاد أن يكون إجماعياً بأن يتولى الحكم في البلاد مجلسان يقر كل منهما الآخر أو يكبحه على غرار مجلسي الوردية والعموم في بريطانيا . وكان لبنسلفانيا دون غيرها مجلس نيابي واحد ، الأمر الذي كان الناس يشعرون من أجله بأن تلك حالة شديدة الخطر مغالية في ديمقراطيتها . وعندى أنه فيما عدا الدفع الجدلّي بأن التشريع يجب أن يكون بطيئاً كما يجب أن يتسم بالتمكن والتثبت ، فإن من العسر أن يجد المرء ضرورة لهذه الثنائية في المجالس . ويلوح أن المسألة كانت تقليدياً جديداً أو (موضحة) انتشرت لدى مؤسسي الدساتير في القرن الثامن عشر أكثر منها حاجة ملحة معقولة . فإن الازدواج البريطاني كان تقسيمياً قديماً .

فجلس اللوردة وهو البرلمان أصلاً ، كان جميعه من « الكبراء » : وأعظم زعماء المملكة ؛ ثم جاء مجلس العموم بوصفه عاملاً جديداً ، ويوصف أعضائه الفئة المنتجة المتحدثة بلسان سكان المدن وأصحاب الملكيات الزراعية الصغيرة . وكان مفروضاً في شيء من التعجل في القرن الثامن عشر أن العامة ميالة إلى الاندفاع وراء الدوافع الضارية وأنها محتاجة ولا ريب إلى من يشكها ؛ وكان الرأي متجهاً إلى الأخذ بالديمقراطية على أن تكون ديمقراطية عليها دائماً شكائهم^(١) قوية سواء أكانت منطلقة إلى أعلى الجبل أو منحدره إلى أسفل . وكانت فكرة النخبة المتتقا هالة تحيط بتلك المجالس العليا ؛ فإنهم كانوا ينتخبون على أساس من الاقتراع أضيق حدوداً . وهذه الفكرة الداعية إلى إنشاء مجلس أعلى يكون معقلاً يعتمد به ذوو القيمة من الرجال لا تروق المفكرين العصريين بنفس القوة التي كانت تروق بها أمثالهم في القرن الثامن عشر . ولكن فكرة المجلس الثنائي مكوناً على صورة ما أخرى ، ما تزال ولها أنصارها . فإنهم يرون بأن المجتمع يجوز له - مع رجوع ذلك بالخير عليه - أن ينظر في شئونه من زاويتي نظر - فينظر بواسطة أعيان هيئة منتخبة لتمثل الحرف والصناعات والمهن والخدمات العامة وما إلى ذلك ، وهي هيئة تمثل الوظيفة ، كما ينظر من خلال أعيان هيئة ثانية تنتخبها الجهات المحلية لتمثل تلك المجتمعات . فلاتخاب أعضاء الهيئة الأولى يعطى الرجل صوته على أساس مهنته . وللثانية على أساس الحى الذى يسكنه . وهم يشيرون إلى أن مجلس اللوردة البريطانى إنما هو في الواقع ممثل للوظيفة ، تمثل فيه الأرض والقانون والكنيسة تمثيلاً غير متناسب مطلقاً ، على أن أصحاب الصناعات فيه وأرباب الأموال وكبار رجال الخدمات العامة وأهل الفن والعلوم والطب يجدون مكانهم كذلك ؛ وأن مجلس العموم البريطانى جغرافى بحث في أصوله . بل لقد اقترح بعضهم في بريطانيا أنه يجب أن يكون هناك « نبلاء من العمال » ينتخبون من بين زعماء نقابات العمال العظيمة . على أن هذه تأملات تخرج عن نطاقنا الحالى .

وكانت الحكومة المركزية للولايات المتحدة هيئة واهنة القوة جداً بادئ الأمر ، مكونة من كونجرس ينتظم ممثلى الولايات الثلاث عشرة ، التى تضمها بعضها إلى

(١) شكائهم : فرامل . (المترجم)

بعض عناصر اتحاد احتلافي^(١) (كونفدرالى) بعينها . ولم يكن هذا الكونجرس إلا مجرد مؤتمر من مندوبين لولايات مستقلة ذات سيادة ؛ إذ لم يكن في يده مثلاً أى هيمنة على التجارة الخارجية فى كل ولاية على حدتها ، ولا كان بالمستطيع أن يسك النقود ويجمع الضرائب بناء على سلطانه هو . وقد حدث عند ما ذهب چون آدامز أول وزير للولايات المتحدة فى إنجلترا لمناقشة معاهدة تجارية مع وزير الخارجية البريطانى أن قبول بطلب ثلاثة عشر مندوباً ، يمثل كل واحد منهم ولايته المختصة ، ثم اضطر أن يعترف بعدم قدرته على اتخاذ إجراءات ترتبط بها بلاده كلها . وعند ذلك شرع البريطانيون يتعاملون مع كل ولاية على حدة متخطين الكونجرس ، واحتفظوا بملكية عدد من المواقع على الأراضى الأمريكية حول البحيرات العظيمة بسبب عدم مقدرة الكونجرس على الاحتفاظ بتلك الأقاليم احتفاظاً فعالاً . وأثبت الكونجرس على نفسه الضعف أيضاً فى مسألة أخرى مستعجلة خطيرة . إذ أنه تمتد إلى الغرب من الولايات الثلاث عشرة أراض لا نهاية لها كان المستوطنون يتخذون سبيلهم إليها فى أعداد متكاثرة أبداً . وكانت لكل من الولايات مدعيات غير محصورة للتوسّع غرباً . فكان من الواضح لكل رجل بعيد النظر ، أن احتكاك هذه المدعيات مؤد على طول الزمان إلى الحرب ، ما لم تستطع الحكومة المركزية أن تتولى توزيع الأنصبة . وبلغ الضعف بالحكومة المركزية وحاجتها إلى التركيز ، حداً أصبح معه أمراً مزعجاً وخطراً بادياً ، حتى لقد جرت بعض مباحثات سرية ترمى إلى إنشاء نظام ملكى فى البلاد ، وكلف ناثانيل جورهام نائب ماساشوستس ورئيس الكونجرس من يفتاح الأمير هنرى البروسى شقيق فردريك الأكبر فى هذا الصدد . وأخيراً دعى مؤتمر دستورى للاجتماع فى (١٧٩٧) بفيلا دلفيا ، وهناك وضعت الأسس الإجمالية للدستور الحالى للولايات المتحدة . ذلك أنه حدث أثناء السنوات الأخيرة تغير عظيم فى الروح ، إذ فشا فى الناس جميعاً شعور بضرورة الوحدة .

(١) الاتحاد الاحتلافي أو الكونفدرالى : أطلقنا هذه الكلمة للدلالة على معنى Confederation وهو الاتحاد بين الولايات اتحاداً مفككاً تحفظ فيه كل منها بسماتها والشيء الكثير من استقلالها وذلك تمييزاً لها من كلمة الاتحاد الوحدهى أو الدرالى التى تدل على الاتحاد التام بين الولايات . (المترجم)

وعند ما وضعت مواد دستور الاتحاد الاحتلافي (الكونفدرالي) ، كان الناس يفكرون في فرجينيا وشعب ماساشوستس وشعب رودأ يلاندا وما إلى ذلك ؛ فأما الآن فتظهر إلى الوجود فكرة جديدة ، هي « شعب الولايات المتحدة » . وصدر بيان أعلن أن الحكومة الجديدة بما لها من رئيس تنفيذي وأعضاء بمجلس شيوخ ورجال كونجرس ومحكمة عليا (التي أنشئت عند ذاك) ، إنما هي حكومة « شعب الولايات المتحدة » . كانت هيئة مندمجة ولم تكن مجرد جمعية متجمعة . وكانت تقول « نحن الشعب » وليس « نحن الولايات » ، كما اشتكى ذلك بمرارة « لى » الفرجينى . إذ تقرر أن تكون حكومة اتحاد فدرالى Federal لا حكومة اتحاد احتلافي Confederate .

وأقرت الدستور الجديد ولاية بعد ولاية ، وفي ربيع ١٧٨٨ اجتمع بنىويورك أول كونجرس قام على الأسس الجديدة ، تحت رئاسة جورج واشنطن ، الذى كان القائد الأعلى الوطنى طوال حرب الاستقلال . وعند ذلك مر الدستور فى طور من المراجعة جسيم ، وبنيت مدينة واشنطن على نهر البوتوماك لتكون عاصمة الاتحاد .

٦ - المظاهر البدائية لدستور الولايات المتحدة

أسلفنا إليك فى فصل سابق وصفنا للجمهورية الرومانية ، وخليطها الجامع بين المظاهر العصرية المشوبة بالخرافات القائمة والسمة الوحشية البدائية — بأنها الصورة النياندرتالية التى تؤذن بالدولة العصرية . وربما جاء وقت يعد فيه الناس مستحدثات الدستور الأمريكى وأجهزته العديل السياسى للأدوات والمستحدثات التى كانت لإنسان العصر الحجري الحديث . على أنها أدت الغرض المطلوب منها أداءاً حسناً ، ونما شعب الولايات فى ظل حمايتها حتى أصبح من أعظم المجتمعات التى ظهرت فى العالم إلى الآن ومن أشدها قوة وحضارة ؛ على أنه ليس فى ذلك ما يدعو إلى اعتبار الدستور الأمريكى شيئاً أقرب إلى الغاية النهائية وأبعد من قبول التغيير من طراز سلك حديد الشوارع التى تعلو كثيراً من طرقات نيويورك العامة ، أو ذلك الطراز الممتاز البسيط من عمارة المنازل الذى ما يزال يعم فيلادلفيا . فإن هذه الأشياء أيضاً أدت الغرض

منها أداءً حسناً ، وفيها عيوبها على أن في الإمكان إصلاحها وتحسينها ، فإن مستحدثاتنا السياسية شأن مستحدثاتنا المنزلية والآلية بالضبط ، في حاجة إلى أن تمتد إليها يد التعديل المتواصل كلما نما العرفان والتفهم .

ومنذ أن رسمت خطة الدستور ، تعرضت فكرتنا عن التاريخ ومعرفتنا ببيكولوجيا الجماعة لتطور جسيم جداً . فلما أخذنا نرى في معضلة الحكم والحكومة أشياء كثيرة . كان رجال القرن الثامن عشر عنها عمهين ؛ وإذا أنهم كانوا شجعاناً شجاعة تتجلى في نزعتهم الإنشائية تلقاء أى تكوين سياسى سابق لهم ، فإن تلك النزعة الإنشائية قصرت كثيراً عن حد تلك الجرأة التى تدرك الحاجة إليها في هذه الأيام للوصول إلى حل لهذه المسألة الإنسانية العظيمة ، مسألة إنشاء « مجتمع لإرادة » مدن . فإنهم سلموا بأشياء كثيرة نعرف اليوم أنها بحاجة أن تكون موضع أشد الدراسات العلمية تدقيقاً وأن تلقى أشد ألوان الإحكام والتعديل . ذلك أنهم كانوا يظنون أن كل ما عليهم هو أن يقيموا المدارس والكلليات ، مع منحها منحة من الأرض للقيام بنفقاتها ، وأنه من الجائز عند ذلك أن تترك وشأنها . ولكن التعليم ليس عشياً يثبت بقوة في أية تربة ، وإنما هو محصول ضرورى رقيق قد يذبل في سهولة ويضوى . وإنما لنعلم في هذا العصر أن النقص في تطور الأجهزة الجامعية والتعليمية ، يشبه شيئاً من نقص التطور للمخ والأعصاب ، الذى يعوق نمو الكيان الاجتماعى كله . وإذا قيس مستوى التعليم العادى في أمريكا بالمعايير الأوروبية وبمعيارية دولة ظهرت حتى الآن ، تجلى أنه مستوى عال ؛ ولكن إذا قيس إلى ما يمكن أن يكون عليه حاله ، فإن أمريكا تعد دولة غير متعلمة ؛ كذلك أيضاً زعم آباء أمريكا هؤلاء أنه ليس عليهم إلا أن يتركوا « الصحافة » حرة ، وعند ذلك يعيش كل إنسان في أسطع نور . فلم يدركوا أن في إمكان الصحافة الحرة أن تطور نوعاً من الإرتشاء والفساد الدستورى بسبب علاقتها بأصحاب الاعلانات ، وأن في استطاع أصحاب الصحف الكبيرة أن يكونوا قراصنة يتقبلون كل رأى ومحطمين فاقدى الشعور للبيدايات الحسنة . ويحيى في آخر الأمر أنه لم يكن لمؤسسى أمريكا أى معرفة بتعقيدات التلاعب بالأصوات . فإن « علم الانتخابات » بأجمعه كان أبعد أن يتناوله وهمهم ، ولم يكونوا يعرفون شيئاً عن الحاجة إلى الصوت القابل

لنقل لمنع طبخ الانتخابات بواسطة المنظمات المتخصصة ، وكانت نتيجة الطرائق الصلبة التي كانوا يستعملونها - أن أصبح نظامهم السياسى فريسة محققة لأجهزة الحزب الكبير التي سلبت الديمقراطية الأمريكية نصف حريتها ومعظم روحها السياسية . وأصبحت السياسة حرفة ، وحرفته وضعه جداً . وانسحب كرام الرجال ومقتدروهم ، بعد الفترة العظيمة الأولى تاركين ميدان السياسة إلى الأعمال ، واحطت روح الشعور بالدولة . وتحكم « المسعى الخاص » في كثير من الشئون العامة ، لأن الفساد السياسى جعل « المسعى الجماعى » أمراً مستحيلاً .

على أن نقائص النظام السياسى العظيم الذى خلفه أمريكىو فترة الثورة ، لم تظهر على الفور . فإن تاريخ الولايات المتحدة لبث أجيالا عدة ، تاريخ اتساع سريع وقدر من الحرية ، وسعادة ساذجه وعمل ناسط ، على حال لا نظير لها جميعاً فى تاريخ العالم . وبالرغم من حدوث انحرافات كثيرة نحو عدم المساواة وبالرغم من الكثير من قلة الخبرة والكثير من الأخطاء ، فإن تاريخ أمريكا مع ذلك فى المئة والخمسين السنة الأخيرة قصة تعادل فى نصاعتها وشرفها قصة أى شعب معاصر آخر .

ولم يتبهاً لنا فى هذا البيان الموجز الذى كتبناه عن إنشاء الولايات المتحدة الأمريكية أن نتجاوز إلا قليلاً مجرد الإشارة إلى أسماء جماعة العظماء الذين بدموا هذه البداية الجديدة فى التاريخ الإنسانى . وقد ذكرنا أسماءهم عرضاً ، أو قل لإننا حتى لم نذكر رجالاً من أمثال توماس بين وبنيامين فرانكلين وپاتريك هنرى وتوماس جفرسون وأبناء العم من أسرة آدامز وماديسون الكسندر هاملتون وجورج واشنطن . ومن العسير على المرء أن يقيس رجال فترة مامن التاريخ برجال فترة أخرى . وقد يتأثر بعض الكتاب حتى الأمريكىين منهم بالأبهة المصطنعة التي تجلت فى البلاطات الملكية الأوروبية وبالأعمال المدمرة المليئة بالبهرج والزيف التي قام بها أشخاص مثل فردريك الأكبر أو كاترين العظيمة ، فيبدون إزاء مؤسسى أمريكا هؤلاء ضرباً مما قد يبيده محدثو النعمة من خجل إزاء شىء مصنوع بالمنزل . فإنهم يشعرون أن بنيامين فرانكلين إنما يبدو فى بلاط لويس السادس عشر فى شعره الطويل وثيابه البسيطة وخلقه الماكر شخصاً ينقصه الامتياز الاستقراطى نقصاً محزناً . ولكنهم إن جردوا حتى بدت

شخصياتهم ، لم يكده لويس السادس عشر يبلغ من المواهب ولا من نبل العقل الحد الكافي لجعله وصيفاً لفرانكلين . فإذا كانت العظمة الإنسانية تقاس بالمستوى والمعياري والبرقي ، فلا شك إذن أن الاسكندر الأكبر يتبوأ من العظمة الإنسانية ذروتها . ولكن هل العظمة هي ذلك الأمر ؟ ألا يكاد الرجل العظيم أن يكون من اذا تولى منصباً عظيماً أو تهيأت له فرص عظيمة - وما المواهب العظيمة إلا فرص عظيمة - خدع الله وخدم إخوانه بقلب ملوئ بالتواضع ؟ ولا ريب أنه يبدو أن عدداً جماً من أمريكيي الزمن الثوري أولئك ، قد أظهروا الشيء الكثير من الاخلاص والتجرد من الأغراض . كانوا لا جرم رجالاً محدودين ، رجالاً غير معصومين من الزلل ، ولكنهم يبدون في جملتهم وكأنما كانوا يعنون بالحكم الشعبي المتحرر الذي يخلقون ، يعنون به في حد ذاته أكثر من عنايتهم به كغاية شخصية أو غرور شخصي . ومن المستحيل علينا ألا نخولهم عظمة ذهنية ممتازة .

ولا ننكر أنهم كانوا محدودى المعارف ضيقى أفق النظر إلى الأمور ؛ إذ كاد يحدوهم محدد زمانهم وقيوده . كانوا - شأننا جميعاً - رجالاً تتنازعهم دوافع مختلفة ؛ قد نشأت في أذهانهم حوافز طيبة وسرت في أجسادهم أفكار عظيمة . ومن الجائز كذلك أن تداخلهم نزعات الغيرة أو الكسل أو العنا أو الشر . فلو قدر للمرء أن يكتب تاريخاً حقيقياً كاملاً مدققاً لتكوين الولايات المتحدة ، لوجب أن يكتب في روح من السماحة والجلد كما تُكتب ملهاة فاخرة ترتفع إلى أنبل الغايات . ولسنا نعثر على الروح الإنسانية الجزلة الملتوية المتجلية في القصة الأمريكية ، قدر ما نعثر عليها ممتازة رائعة لإزاء تجارة الرقيق . وإذا نحن راعينا مسألة العمال بصفة عامة - وجدنا الرق خير محك لهذه الروح الجديدة في التاريخ العالمى وأعنى بها الروح الأمريكية .

ابتدأت تجارة الرقيق في وقت مبكر جداً من تاريخ أمريكا الأوربي ، وما من شعب أوربي ذهب إلى أمريكا بمبراً براءة تامة من وزر ذلك الأمر . ومن الإنصاف أن نلاحظ في وقت لما يزل فيه الألمانى في أوربا من الناحية الخلقية كالمعاقب بحريرة غيره - أن سجل الألمان هنا خير السجلات وأنظفها من هذه الوجهة . وتكاد أول الأقوال الصريحة ضد استرقاق الزنوج تكون صادرة من مستوطنين ألمانين في معالم تاريخ الإنسانية جء - .

بنسلفانيا . ولكن المستوطن الألماني كان يشتغل بواسطة عمال أحرار فوق أرض معتدلة المناخ متوغلة كثيراً في الشمال عن منطقة المزارع الكبرى ؛ فلم يكن واقعاً لاذن تحت تأثير مغريات خطيرة في هذا الشأن . ابتدأت تجارة الرقيق الأمريكية باسترقاق الهنود لتشغيلهم في مناسر العمال بالمناجم وفي المزارع الكبرى . ومن عجب أن يلحظ الإنسان أن لاس كاساس وهو الرجل الذي حض على استيراد الزوج إلى أمريكا للحلول في العمل محل من تحت حمايته من الهنود المعذبين ، كان بالفعل رجلاً طيباً جداً عطوفاً على الإنسانية . ذلك أن الحاجة إلى العمال الذين يشتغلون في المزارع الكبرى بجزر الهند الغربية وفي مناطق الجنوب كانت حاجة حتمية ملحة . وعندما ثبت أن الوارد من الأسرى الهنود غير كاف ، شغص المزارعون لا إلى الزوج فحسب بل إلى السجون وملاجئ الفقراء في أوروبا لتزودهم بالعمال الكادحين . ولسوف يعلم قارئ كتاب مول* فلاندرز من تأليف دانيال ديفو ، الرأي الذي كان يراه لإنجليزى ذكى الفؤاد عند بواكير القرن الثامن عشر في عملية الرقيق الأبيض القرچينية . على أن الزنجي جاء في وقت مبكر جداً فإن سنة ١٦٢٠ التي شهدت الآباء الحجاج ينزلون إلى البر في ليموث بنيوانجلند ، شهدت غليوناً هولندياً ينزل إلى البر أول شحنة من الزوج في جيمس تاون بفرچينيا . فكأن عمر تجارة الرقيق الزوج يناهز عمر نيوانجلند . وكانت تلك التجارة نظاماً أمريكياً مضى عليه قبل حرب الاستقلال ما يربو على قرن ونصف من الزمان . وقدر لها أن تواصل حياتها في كفاح استمر الجزء الأكبر من قرن آخر .

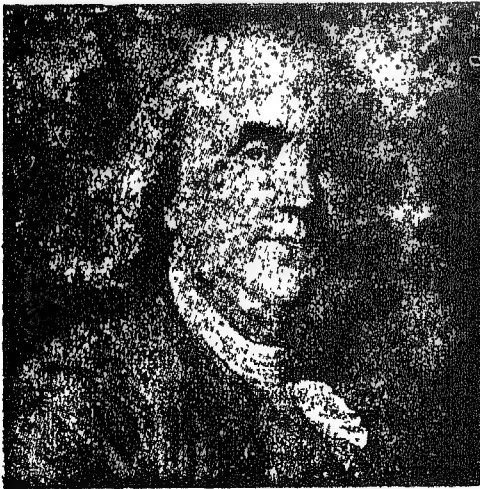
على أن ضمائر المفكرين من رجال المستعمرات لم ترتح قط تمام الارتياح إلى هذه النقيصة ، وكانت إحدى التهم التي وجهها توماس جفرسون لتاج بريطانيا العظمى ولوردتها ، أن كل محاولة تبذل لتحسين الحال أو الوقوف في سبيل تجارة الرقيق من جانب المستعمرين كانت تحول دونها مصالح أصحاب الملكيات الكبوى في أرض الوطن الأم (أى إنجلترا) . وفي سنة ١٧٧٦ كتب اللورد دارتموث إن المستوطنين لا يمكن أن يباح لهم « أن يحولوا دون تجارة لها مثل ذلك النفع العميم على الشعب أو يثبطوها » . وقفزت مسألة استرقاق الزوج إلى منزلة الصدارة من الضمير العام

يفضل نشوء التخمير الأخلاقي الذي حدث إبان الثورة . وظهر التباين والتحاد واضحا وهاجاً لعين العقل . فلن قانون الحقوق الفرجينى يقول « كل الرجال بطبيعتهم أحرار متساوون » ، ومع ذلك فإذا خرج الإنسان إلى العراء وجد العبد الزنجى يكدح في ضياء الشمس تحت سوط « رئيس » العمال !!! .

ومما يشهد بالتغير العظيم في الأفكار الإنسانية منذ أن انحل النظام الإمبراطورى الرومانى أمام هجمات البرابرة أن أصبح في الإمكان أن يقوم الناس بمثل هذا البحث في زوايا قلوبهم وخبايا ضمائرهم . فإن ظروف الصناعة والإنتاج وحق ملكية الأراضي قد حالت زماناً طويلاً دون حدوث إنتفاضة جديدة لنظام مناسر الأرقاء . ولكن الدورة ما لبثت أن دارت كرة أخرى ، وكانت هناك مزايا مباشرة هائلة تحصدتها الطبقات المالكة والحاكمة من وراء انتعاش ذلك النظام القديم ، في المناجم والضياع الكبرى والأشغال العامة الكبيرة . فبعث النظام ولكن قامت في وجهه معارضة عظيمة . وتعالّت الأصوات منذ بداية ذلك الابتعاث باحتجاجات لم تبرح تزايد وتشتد . إذ كان استحياء تلك العادة مضاداً لضمير البشرية الجديد . وكان النظام الجديد لاسترقاق المناسر أسوأ في بعض مناحيه من أي شيء في العالم القديم . ومما كان فظيماً مربعاً بوجه خاص ما كانت تؤججه تلك التجارة من حروب لاصطباد الرقيق ، وما كان يجرى من طراد الإنسان في إفريقيا الغربية ، ومن قساوات الرحلة الطويلة عبر المحيط الأطلسي . فلن هؤلاء المساكين كانوا يُعبأون في السفن وليس معهم في غالب الأمر ما يكفيهم من الماء والطعام ودون الرعاية الصحية الواجبة ودون أدوية على الإطلاق . حتى لقد كان الكثيرون ممن يستطيعون أن يتساحوا مع الاسترقاق على أرض الضياع الكبرى يرون تجارة الرقيق شيئاً لا تستطيع أن تسيغه أخلاقهم . وكانت شعوب أوربية ثلاثة مشغلة بوجه رئيسي بهذا العمل البشع ، وهى بريطانيا وأسبانيا والبرتغال لأنها كانت أكبر ملاك الأراضي الجديدة في أمريكا . فاما البراءة النسبية للشعوب الأوربية الأخرى فترجع في الغالب إلى أن نصيبهم من المغريات كان أصغر . كانوا مجتمعات مماثلة لتلك ، فلو أتاحت لها ظروف مماثلة لتصرفت تصرفاً مماثلاً .

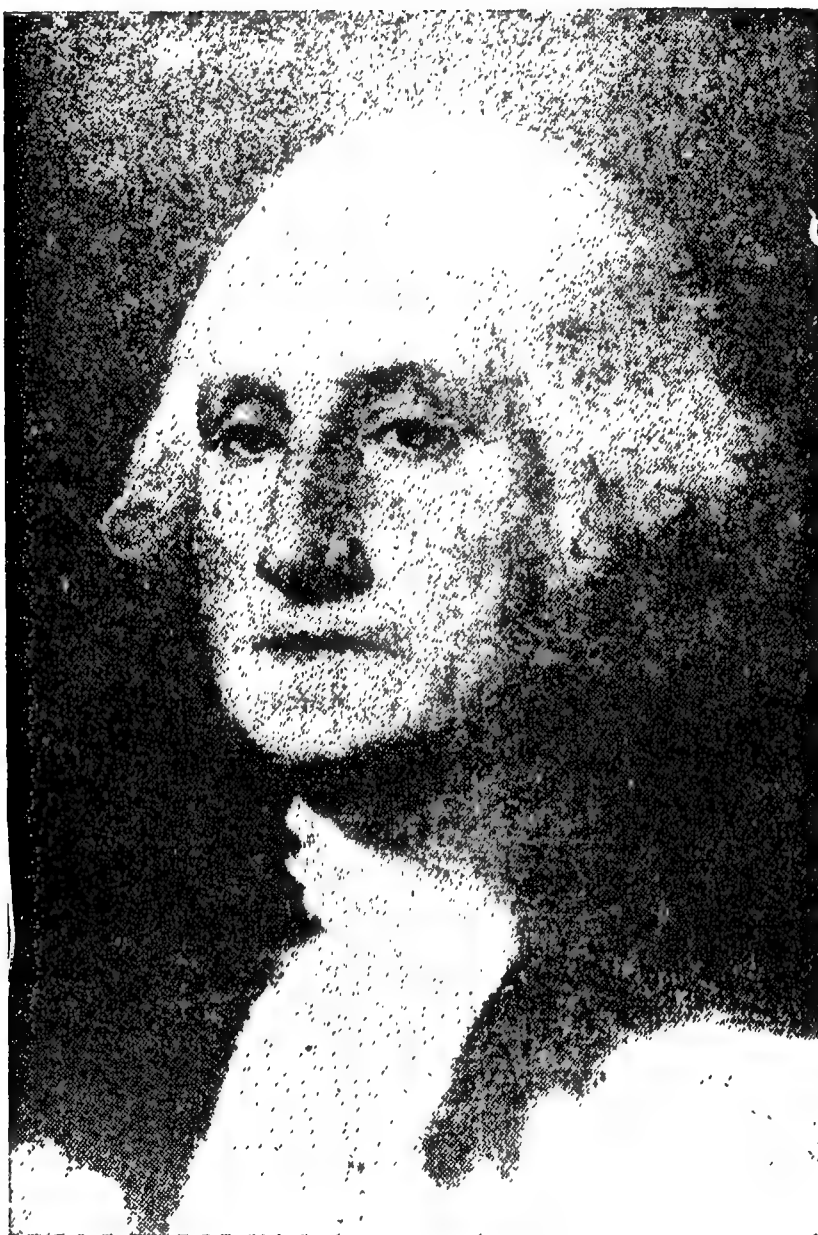
وقد ألم بالنفوس هياج ناشط طوال الجزء الأوسط من القرن الثامن عشر ضد استرقاق الزنوج في بريطانيا العظمى وفي الولايات على السواء . وقدر عدد الأرقاء في إنجلترا في سنة ١٧٧٠ بخمسة عشر ألف عبد استجلب أصحابهم معظمهم من جزر الهند الغربية وقرچينيا . وفي سنة ١٧٧١ وصل النزاع إلى امتحان نهائي في بريطانيا أمام اللورد مانسفيلد . فإن زنجياً اسمه جيمس سومرست أحضره سيده من قرچينيا إلى إنجلترا . ففر ثم قبض عليه وأخذ أخذاً عنيفاً إلى إحدى السفن لكي يعاد إلى قرچينيا . فاستخلص من السفينة بحكم نص في « قانون المثول Habeas Corpus » . وأعلن اللورد مانسفيلد أن الرق حالة لا يعرفها القانون الإنجليزي ، وأنه حالة « بغضبة » ، وعند ذلك خرج سومرست من المحكمة رجلاً حراً .

وكان دستور ١٧٨٠ ماساشوستس قد أعلن أن « الناس جميعاً يولدون أحراراً ومتساوين » . وقام زنجي بعينه اسمه كواكو بوضع هذا النص تحت الاختبار في ١٧٨٣ ، وفي تلك السنة أصبحت أرض ماساشوستس مثل أرض بريطانيا لاتسمح مع الرق ؛ فكان مجرد الدخول إليها معناه الانتقال إلى الحرية . ولم تنح هذا النحو في ذلك الزمان ولاية أخرى من ولايات الاتحاد . وفي تعداد ١٧٩٠ كانت ماساشوستس هي الولاية الوحيدة التي لم تسجل وجود « عبد واحد بها » .



(شكل ١٨١) بنيامين فرانكلين

وآراء الناس في قرچينيا جديرة بالملاحظة ، لأنها تكشف القناع عن الصعوبات الخاصة التي كانت تواجه الولايات الجنوبية . فإن كبار رجال السياسة القرچينيين من أمثال واشنطن وجيفرسون كانوا يطعنون في ذلك النظام ، ومع هذا فإن واشنطن كان يمتلك العبيد إذ لم يكن هناك أى شكل آخر للخدمة المنزلية . ونشأ بقرچينيا حزب قوى يناصر اعتاق الرقيق ؛ على أنهم



(سکل ۱۸۲) جورج واشنگتون

كانوا يطالبون بأن يغادر العبيد المعتقون الولاية في مدى سنة من الزمان وإلا اعتبروا خارجين على القانون . وكان من الطبيعي أن يزعجوا من احتمال وجود مجتمع همجى حر من السود ، الكثير من أفراد مولودون بإفريقيا ومتشبعون بتقاليد أكلة لحم البشر وشعائر دينية سرية مرعبة - يقوم إلى جوارهم على الأراضي الفرجية . فلو أننا تأملنا وجهة النظر هذه استطعنا أن نفهم لماذا حدث أن عددا كبيرا من الفرجينيين مال إلى الاحتفاظ بكتلة السود في البلاد تحت الرقابة بوصفهم عبيداً ، على حين كانوا في نفس الوقت يعارضون تجارة الرقيق واستيراد أى دم جديد من أفريقيا معارضة مريرة . ومن اليسير على الإنسان أن يدرك أن السود الأحرار قد يصبحون بسهولة شوكة مضايقة ؛ والواقع أن ولاية ماساشوستس الحرة أغلقت للوقت حدودها في وجههم .

ومن هنا يتضح أن مسألة الرق التي لم تكن في العالم القديم سوى مسألة « حالة » أو وضع لأفراد بينهم مماثلة عنصرية^(١) ، قد انغمرت في أمريكا مع مسألة مخالفة لها وأشد منها عمقاً هي مسألة العلاقات بين عنصريين من السلالة الإنسانية على طرفي نقيض ، كما أنهما على أشد التباين في التقاليد والثقافة . فلو أن الرجل الأسود كان أبيض ، فلا مجال للشك في أن استرقاق الزنوج كان يمتنع من الولايات المتحدة في مدى جيل واحد من ساعة إعلان الاستقلال بوصفه نتيجة طبيعية للبيانات الواردة في ذلك الإعلان .

٧ - الفكرة الثورية في فرنسا

تكلمنا عن حرب استقلال أمريكا ووصفناها بأنها أول انفصال عظيم عن نظام الملوك الأوربيين ووزارات الخارجية الأوربية ، وبأنها رفض مجتمع جديد لصناعة السياسة المكيافلية بوصفها الصورة المدبرة للشئون الإنسانية . وما انقضت عشر سنوات حتى وافت ثورة ثانية أشد من الأولى إيداناً بالشر ، ثورة قامت ضد هذه

(١) عنصرية (Racial) : تقوم على العنصر الإنساني وفوارقه أو تماثلاته . (المترجم)

اللعبة العجيبة : لعبة الدول العظمى ، وأعنى بذلك التفاعل المعقد بين البلاطات والسياسات الذى أشربت به عقلية أوروبا . على أنه لم يكن فى هذه المرة حركة انفصال بعيدة الشقة . حدثت هذه الفتنة الثانية فى فرنسا مهد الملكية العظمى وموطنها وقلب أوروبا ومركزها . وعلى النقيض من المستوطنين الأمريكيين الذين اكتفوا بمجرد نبذ الملك ، قام الفرنسيون بقطع رأس ملكهم مترسمين خطى الثورة الإنجليزية . والثورة الفرنسية شأن الثورة البريطانية وشأن الثورة فى الولايات المتحدة ، يمكن تعقبها حتى مصادرها الأولى متمثلة فى صحافات الملكية ومطامعها . فإن خطط التوسع وأغراض الملك الأعظم وتدابيراته ، استلزمت من الإنفاق على عتاد الحرب فى كل أرجاء أوروبا ما يتجاوز كل تناسب مع طاقة العصر فى الضرائب . ناهيك بأن ترف الملكية ومظاهر بذخها كانت تتكلف نفقات باهظة بالقياس إلى الإنتاج فى ذلك الوقت . وقد حدث فى فرنسا كما حدث بالضبط فى بريطانيا وأمريكا أنه لم تكن المقاومة الأولى موجهة ضد الملك بوصفه ملكاً ولا ضد سياسته الخارجية بوصفها سياسة خارجية بل إلى ما يتسبب عنها من مضايقات وتكاليف تلم بحياة الأفراد ، كذلك لم يميز الناس تمييزاً واضحاً أن أصل الشر ينحصر فى تلك الأمور . وطاقة فرنسا الفعلية على دفع الضرائب كانت لا محالة أقل كثيراً نسبياً من طاقة إنجلترا بسبب الإعفاءات المتنوعة التى كان يستمتع بها النبلاء ورجال الكنيسة . ولذا كان العبء الملقى لإلقاء مباشر على عاتق عامة الشعب أثقل وأفدح . وهذا الإعفاء جعل الطبقات العليا أعواناً للبلاط ، بدل أن يناصبوا البلاط العداء شأنهم فى إنجلترا ، وبذا ساعد على إطالة أمد الحراب ، حتى إذا تنهى الأمر فعلاً إلى درجة الانفجار ، كان الانفجار أشد عنفاً وتمزيقاً وتدميراً .

ولم تكن هناك أثناء سنوات حرب الاستقلال الأمريكية إلا أمارات قليلة تؤذن بأن انفجاراً يوشك أن يحدث فى فرنسا . أجل كانت التعاسة متفشية بين الطبقات الدنيا ، وكان النقد ناشطاً والتهكم لذاعاً . والتفكير المتحرر الصريح وفيراً ، ولكن لم يبد هناك إلا أقل النذر بأن الوضع فى مجمله وبكل ما فيه من عرف وعادات واختلافات مألوفة ، قد لا يستمر فى طريقه زماناً لا آخر له . كانت فرنسا تتجاوز فى

استهلاكها كل طاقة لها على الإنتاج . ولكن لم يكن هناك حتى ذلك الحين من يحس آلام الوحشة إلا الطبقات التي ليس لها لسان تثنى به . وكان المؤرخ جيبون يعرف فرنسا خير المعرفة ، فقد كان بصيراً بباريس بصره بلندن ؛ ولكن أحداً لا يستطيع أن يحس منه في الفقرة التي اقتبسناها خلع ارتياب تنبئ بأن أياماً من الإنحلال السياسى والاجتماعى وشيكة دائية . ولا ريب في أن العالم كان يزخر بالسخافات والمظالم ، ومع هذا فإنه من وجهة نظر المفكر العالم والحنلتمان كان على درجة لا بأس بها من الرفاهية كما كان يلوح في حال لا بأس بها من الطمأنينة .

نعم ظهر في فرنسا في ذلك الزمان قدر كبير من التفكير الحر والخطابة الحرة والعاطفة الحرة . وقام في فرنسا في النصف الأول من القرن الثامن عشر ، مونتسكيو (١٦٨٩ - ١٧٥٥) ضريباً لحون لوك في إنجلترا وإن تأخر عنه بعض الزمان . فوضع النظم الاجتماعية والسياسية والدينية تحت نفس الفحص والتحليل الجوهري وبخاصة في كتابه « روح القوانين » .

وقد جرد الملكية المطلقة بفرنسا من هيبتها السحرية ، وهو يقاسم لوك فضل إزالة كثير من المفكرات الخاطئة التي كانت حتى حينذاك تحول دون المحاولات الواعية المقصودة لإعادة بناء الجماعة الإنسانية . ولئن حدث في بداية الأمر أن أقيمت في الأرض البراح المتخلفة عن ذلك الهدم أكواخ هزيلة مفرطة في الضعف بالغة الغاية في عدم الاستقرار ، فإن ذلك لم يكن راجعاً إلى خطئه هو . فإن الجيل الذى عقبه في أواسط القرن الثامن عشر وأخرياته ، كان يفكر تفكيراً جريئاً فيما قام به ذهنياً وخلقياً من هدم وإزالة . وتألفت جماعة من أذكى الكُتّاب هم « الموسوعيون » - ومعظمهم ذوو أرواح ناثرة ممن تخرجوا في مدارس اليسوعيين الممتازة - ونهضت تحت قيادة ديدروه (Diderot) لوضع الخطط لعالم جديد (١٧٦٦) بوساطة مجموعة من المؤلفات . ويقول مالىي (Mallet) ، « إن مجد الموسوعيين ينحصر في كراهيتهم لكل جور وظلم وفي تشهيرهم بتجارة الرقيق ، وعدم التسوية بين الناس في الضرائب ، وفساد العدالة ، والدمار الذى تجره الحروب . . . وفيما كانوا يحلمون به من التقدم الاجتماعى ، وما كان يخالفهم من

عطف على « دولة » الصناعة الناهضة التي شرعت تحول العالم تحويلاً . ويلوح أن غلظتهم الرئيسية تنحصر في مناصبتهم الأديان عداوة عمياء . فإنهم كانوا يعتقدون أن الإنسان عادل بطبعه كفاء من ناحية السياسة ، على أن اندفاعه نحو الخدمة الاجتماعية ونكران الذات لا يتطور في العادة إلا بطريق تعليم يكون بالضرورة تعليمياً ، ولا يدعمه إلا جو من التعاون الشريف . فأما المبتكرات الإنسانية غير المنسقة فإنها لا تؤدي إلى شيء سوى الفوضى الاجتماعية .

وقامت إلى جانب الموسوعيين جماعة الإقتصاديين أو الفيزيوقراطيين ، الذين كانوا يقومون بأبحاث جريئة فجأة في شئون إنتاج الطعام والبضائع وتوزيعها . وقد شهّر مؤلف « قانون الطبيعة »^(١) بنظام الملكية الخاصة من الناحية الأخلاقية واقترح إنشاء تنظيم شيوعي للمجتمع . كان هو البشير المؤذن بظهور تلك المدرسة الكبيرة المتنوعة ، مدرسة المفكرين الجماعيين^(٢) أو الحشديين في القرن التاسع عشر وهم الذين يجمعهم الناس تحت اسم الإشتراكيين .

وكان كل من الموسوعيين ومختلف فرق الإقتصاديين أى الفيزيوقراطيين يطلبون من تلاميذهم قدراً جسيماً من التفكير الشديد العميق . وثمة زعيم ألبن معظماً وأقرب إلى قلوب الناس هو روسو (١٧١٢ - ١٧٧٨) . أظهر مزيماً عجباً من الصلابة المنطقية والحماسة العاطفية . وكان يبشر بالمبدأ بالحداب القائل بأن حالة الإنسان البدائية كانت حالة فضيلة وسعادة ، انحدر عنها نتيجة لنشاط القساوسة والملوك والمحامين ومن إليهم نشاطاً لا يكاد يبدو له سبب يفسره . وكان تأثير روسو الذهني تأثيراً مفسداً للأخلاق على وجه العموم . إذ أنه لم يصب فقط بضرباته البناء الاجتماعي القائم بل مس كل تنظيم اجتماعي ! والظاهر أنه حين كتب عن « العقد الاجتماعي » كان يلتمس المعاذير لنقص ذلك العقد - الذي كتب عنه - أكثر مما يؤكد ضرورته .

(١) Code de la Nature : قانون الطبيعة .

(٢) الجماعيون : Collectivists . هم أنصار المذهب الجماعي المطابق للاشتراكية ، لولا أنهم لا يدخلون الثورة في مخططهم . ومذهبهم يقرم على الملكية الجماعية لوسائل الإنتاج والتبادل تحت هيمنة الحكومة . (المترجم)

والإنسان بعيد كل البعد عن الكمال حتى أنه يعلى قدر كاتب يناصر مناصرة ظاهرة رأياً قائلاً بأنه لا إثم ولا جناح على من ينكر ديونه ومن ينحرف في سلوكه الجنسي ، ويهرب من أعباء تعليم نفسه وغيره ويتحاشى ما يكلفه ذلك التعليم من 'نفقات' ، ويقول إن ذلك السلوك ما هو إلا مظهر من مظاهر الفضيلة الطبيعية مع أن هذا هو الاتجاه الذى يكاد يكون عاما للأهواء ، والذى ينبغي علينا أن نحصى أنفسنا منه ونقاومه ، والإنسان كذلك بعيد عن الكمال حتى أن كاتباً كهذا يقدر له أن يكون صاحب مذهب يتبعه جمهور كبير من الناس من كل الطبقات التى تستطيع قراءة ما يكتبه . وقد ساعدت بدعة روسو الخطيرة مساعدة كبرى على اشاعة طريقة عاطفية وشديدة الحرارة والخروج في معالجة المسائل السياسية والاجتماعية .

وقد لاحظنا من قبل أنه لم يحدث حتى اليوم أن مجتمعاً إنسانياً واحداً بدأ يوماً عمله على أساس نظرى . فلا بد من أن يحدث أولاً انهيار ما وحاجة إلى التوجيه تسمح للنظريات بأن تتبوأ مكانها . ولا بد أن كتابات وأحاديث المفكرين الفرنسيين الجمهورية والفوضوية ، كانت حتى ١٧٨٨ تلوح أموراً لا تأثير لها ولا قيمة من الناحية السياسية شأن اشتراكية وليم موريس^(١) الجمالية (الإسطيقية) في إنجلترا في نهاية القرن التاسع عشر . فهناك في فرنسا ، كان النظام الاجتماعى والسياسى يسير في طريقه ثابتاً قوياً كأنما سيعيش أبداً ، فكان الملك الفرنسى يخرج للقصر أو يصلح ساعاته ، وكان البلاط وعالم الطبقة الراقية يواصلان ملذاتهما ، وكان المليون لا ينون عن تدبير وسائل التوسع لمشروعاتهم في الائتمان ، وكانت الأعمال التجارية تتردى في الخطأ وهى تسير في سماجة على نفس امتداد طريقها القديم البالى ، تهبطها الضرائب والمكوس ، وكان الفلاحون يحملون الهموم ويكدحون ويقاسون الويلات ، وتمتلى نفوسهم بكراهية يائسة لقصر النبيل . وكان الرجال يتكلمون ويحسون أنهم يتكلمون دون جدوى . وكان في الإمكان أن يقال أى شيء إذ كان يبدو أن لن يحدث أى شيء .

(١) وليم موريس (١٨٣٤ - ١٨٩٦) : شاعر واشتراكي وفنان . تعلم في أكسفورد وتأثر براسكن . أنشأ مصنعاً للأثاث وورق الجدران وزخارف الكنائس وأصدر كتباً شعرية عديدة . (المترجم)

٨ - ثورة سنة ١٧٨٩

وجاءت في ١٧٨٧ أول رجة أصابت هذا الاستمرار المطمئن للحياة في فرنسا . فإن لويس السادس عشر (١٧٧٤ - ١٧٩٣) كان ملكاً غيباً سيئ التعليم . وكان من سوء طالع أنه تزوج من امرأة حقاء مبذرة ، هي ماري أنطوانيت شقيقة إمبراطور النمسا . ومسألة اتصافها بالفضيلة والعفة من المسائل التي تثير اهتمام طراز معين من كتاب التاريخ ، على أنا في غير حاجة إلى مناقشتها في هذا المكان . فكانت كما يقول پول ويرياث^(١) « تعيش جنباً إلى جنب مع زوجها لا إلى جانبه » . وهي تكاد تكون غليظة القسَمات ، ولكن وجهها لم يكن عادياً إلى حد يمنع أن تتخذ وضع الملكة الجميلة الرومانسية المحتملة . فلما أن استنفدت موارد وزارة المالية في الحرب في أمريكا ، وعند ما كانت البلاد بأسرها تتقلب على جمر التدمير والقلق ، نصبت كل سلطاتها لغل أيدي وزراء الملك عن أية محاولة للاقتصاد ، ولتشجيع كل نوع من أنواع الإسراف الأرستقراطي ، ولإعادة الكنيسة والنبلاء إلى المركز الذي كانوا يتبوأونه في الأيام العظيمة أيام لويس الرابع عشر . وكانوا يريدون أن يخلعوا من الجيش الضباط غير الأرستقراطيين ؛ وأن يبسطوا من سلطة الكنيسة على الحياة الخاصة . ووجدت في موظف من الطبقة العليا هو كالوني المثل الأعلى لوزير ماليها . فند ١٧٨٣ إلى ١٧٨٧ ظل هذا الرجل العجيب ينتج النقود بطريقة تشبه السحر ، ثم تختفى هذه النقود ثانية بطريقة تشبه السحر أيضاً ، ثم انهار في ١٧٨٧ . وكان قد طبق القرض فوق القرض ، وعند ذلك أعلن أن الملكية ، أي الملكية العظيمة التي حكمت فرنسا منذ أيام لويس الرابع عشر - قد أفلست . ولم يعد في الطوق جمع أي نقود جديدة . ولا بد من عقد جمعية من ذوى الرأي والمكانة في المملكة للنظر في الموقف .

وقدّم كالوني إلى اجتماع ذوى المكانة ذاك ، وهو جمعية من القادة والزعماء وجهت إليها الدعوة للإنعقاد ، مشروعا بأخذ ضريبة مالية على كل عقار من الأرض . فأنار ذلك الارستقراطيين إلى درجة من الغضب عظيمة . فطالبوا بدعوة هيئة تعادل

(١) الموسوعة البريطانية مادة (France) .

على وجه التقريب البرلمان الإنجليزي - وهى « مجلس الطبقات States General » الذى لم يجتمع منذ ١٦١٤ : وأصر ذوو المكانة الفرنسيون على طلبهم ذاك دون أن ينتهبوا إلى أنهم سينشئون بذلك لساناً يعبر عما يخالج من دونهم من الطبقات من تدمير ، لا يحفزهم على ذلك إلا محاربة الاقتراح القائل بأنهم يجب أن يتحملوا نصيباً من أثقال البلاد المالية . ومن ثم اجتمع مجلس الطبقات فى مايو ١٧٨٩ .

وكان ذلك المجلس جمعية تضم ممثلى هيئات ثلاث : النبلاء ورجال الدين والطبقة الثالثة أى العامة . وكان حق التصويت للطبقة الثالثة متسعاً جداً ، إذ كاد أن يكون لكل دافع ضرائب بلغ الخامسة والعشرين صوت . (وكان قساوسة الأبروشيات يعطون أصواتهم بوصفهم من رجال الدين ، والنبلاء الصغار بوصفهم نبلاء) . وكان مجلس الطبقات هيئة ليس لإجراءاتها أى تقاليد ولا سوابق . وأرسلت الاستفسارات فى هذا الصدد إلى الخبراء بالشئون القديمة « بأكاديمية المخطوطات » . ودارت مناقشاته الأولى حول مسألة هل له أن يجتمع كهيئة واحدة أو كهيئات ثلاث ، يكون لكل طبقة فيها صوت معادل . ولما كان عدد رجال الدين ٣٠٨ والنبلاء ٨٥ والنواب ٦٢٢ ، فإن الترتيب الأول يضع الأغلبية المطلقة بين أيدي العامة ، ويعطيهم الترتيب الثانى صوتاً واحداً من ثلاثة . كذلك لم يكن لمجلس الطبقات مكاناً ينعقد فيه . فهل يجب أن يجتمع فى باريس أو فى إحدى مدن المقاطعات ؟ واختيرت فرساي « بسبب الصيد » . وواضح أن الملك والملكة كانا يقصداً أن يعابجا هذه الضجة المثارة حول المالية القومية معالجتهم لأى شىء ثقيل مزعج ، وأن يسمحا للمجلس بالتدخل فى نظامهما الاجتماعى بأقل قدر مستطاع . ولما لُرى الاجتماعات تتواصل فى قاعات مهملة ليس بأحد إليها حاجة أو فى صوبات البرتقال وملعب التنس وما إليها .

وكان أخذ الصوت ، وهل هو بالطبقة أو بالشخص أمراً واضح الأهمية الحيوية : وتبادل القوم فيه مدة ستة أسابيع : حتى إذا اقتبست الطبقة الثالثة بضع صفحات من كتاب^(١) مجلس العموم الإنجليزي ، راحت تعلن أنها وحدها هى الممثلة للشعب ، وأنه ينبغى ألا تجب أية ضرائب من ذلك الحين إلا بعد إقرارها إياها . وعند ذلك

(١) أعنى أن الجمعية قلته وحذت حلوه . . (المترجم)

أغلق الملك القاعة التي كان يجتمع فيها ، وأعلن أنه يحسن بالنواب أن ينصرفوا إلى منازلهم . وبدلاً من ذلك اجتمع النواب في ملعب للتنس مناسب ، وهناك أقسموا يميناً هو يمين ملعب التنس : - ألا يتفرقوا حتى ينشثوا لفرنسا دستوراً . واتخذ الملك مظهر القوة وحاول أن يفرق الطبقة الثالثة عنوة : ولكن الجنود رفضوا أن يطيعوا . وعند ذلك خضع الملك بشكل فجائي لخطر وقبل المبدأ القائل بأن الطبقات الثلاث يجب أن تتناقش كلها وتعطى صوته بصفتها جمعية وطنية واحدة . وفي نفس الوقت نقلت إلى فرساي بتحريرض ظاهر من الملكة ، فرق أجنبية تعمل في خدمة الجيش الفرنسي ويمكن أن يعتمد عليها في العمل ضد الشعب ، إذ استقدمت تلك الفرق من الأقاليم تحت قيادة المارشال دي بروجلي ، وأعد الملك العدة للتراجع في منحنه . وعندئذ تمردت باريس وفرنسا . وتردد بروجلي في إطلاق النار على الجماهير : وأقيمت حكومة مدنية مؤقتة في باريس وفي معظم المدن الكبيرة الأخيرة ، وأنشأت تلك الحكومات البلدية قوة مسلحة جديدة هي الحرس الأهلي ، وهي قوة معدة أولاً وبشكل ظاهر لمقاومة قوات العرش :

وكان عصيان شهر يولية ١٧٨٩ هو في الحقيقة الثورة الفرنسية الفعالة . وأخذ شعب باريس عنوة سجن الباستيل ألجهم لقاء مقاومة ضعيفة جداً . وانتشر التمرد سريعاً إلى كل أرجاء فرنسا . وأحرق الفلاحون في المقاطعات الشرقية والشمالية الغربية كثيراً من قصور النبلاء ودمروا صكوك القابهم ، وقتلوا أصحاب القصور أو طردوهم منها . وانتشر العصيان في كل أرجاء فرنسا . ولم يمض شهر حتى كان نظام هيئة الاستقراطية البالي القديم قد انهار . وفر إلى الخارج كثير من كبار الأمراء ورجال البلاط من حزب الملكة . ووجدت الجمعية الوطنية نفسها تدعى لإنشاء نظام جديد سياسي واجتماعي لعصر جديد .

٩ - الجمهورية الفرنسية المتوجة ٨٩ - ٩١

كانت الجمعية الوطنية الفرنسية أقل توفيقاً بكثير في ظروف عملها من الكونجرس الأمريكي . فقد كان ذلك الكونجرس يجد بين يديه نصف قارة يتصرف فيه بملء

حريته ، وليس أمامه من خصم يعارضه إلا الحكومة البريطانية . وكانت منظماته الدينية والتعليمية متنوعة ، وهى فى مجموعها غير ذات قوة كبيرة ولكنها تنطوى فى الحملة على الود والصدقة نحوه . وكانت الشقة نائية بينه وبين الملك جورج فى إنجلترا ، وقد أخذ ينحدر فى بطاء نحو حالة من البلاء . ولكن معالجة أحكام الدستور وجعله فعالا اقتضت من الولايات المتحدة سنوات كثيرة . وكان الفرنسيون من الناحية الأخرى محوطين بجيران مبالغين إلى العدوان لهم أفكار مكيفلية ، ويحجم على صدورهم ملك وبلاط يصران على عمل الشر ، وكانت الكنيسة هيئة موحدة عظيمة ترتبط بالنظام القديم ارتباطاً لا انفصام له . وكانت الملكة على تراسل متواتر مع الكونت دارتوا والدوق دى بربون والأمراء المبعدين الآخرين الذين كانوا يحاولون أن يحملوا النمسا وبروسيا على مهاجمة الشعب الفرنسى الحديد . هنا إلى أن فرنسا كانت من قبل ذلك قطراً مفلساً على حين كانت للولايات المتحدة موارد لانهاية لها لم تمتد إليها يد التنمية بعد ؛ وكانت الثورة بإقدامها على تغيير نظام ملكية الأراضي والعمل بالأسواق قد انتجت اضطراباً اقتصادياً ليس له مثيل فى حالة أمريكا .

تلك هى صعوبات الموقف التى لم يكن إلى تجنبها سبيل . ولكن الجمعية خلقت لنفسها بالإضافة إلى ذلك صعوبات أخرى . فلم تكن هناك إجراءات منظمة . على حين كان لمجلس العموم الانجليزى ما يربو على خمسة قرون من خبرته فى عمله . وعبثاً ما حاول ميرابو أحد كبار عظماء الثورة الأولى ، أن يحمل لإخوانه على اقتباس القواعد الانجليزية المتبعة بمجلس العموم . ولكن شعور الزمان كان ميالا بكلية إلى الصباح والمقاطعات الدرامية ، وما شاكل ذلك من إظهار « الفضيلة الطبيعية » . ولت الفوضى اقتصرت على أعضاء الجمعية وحدهم . فقد كانت هناك شرفة كبيرة للزوار — شرفة فاقت فى كبرها كل حد مناسب ، فمن ذا الذى يمنع المواطنين الأحرار من أن يكون لهم صوت فى الرقابة القومية ؟ ومن ثم كانت هذه الشرفة تغص بجمهور من الناس تواف إلى الاستمتاع « بمشاهدة التهاثر والخصومات » ، مستعد للتصفيق أو الصباح لإسكات الخطباء المتكلمين من تحتها . اضطرت الخطباء الأوسع مقدرة أن يلعبوا لأصحاب الشرفة ، وأن يسلكوا سبلا عاطفية مثيرة

للجواس . وكان من السهل إبان الأزمات أن يُدخل كل من شاء جماعة من الغوغاء يقضون على المناقشة .

على هذه الشاكلة شرعت الجمعية وهي مغולה الأيدي في القيام بواجبها الإنشائي . وفي اليوم الرابع من أغسطس أحرزت نجاحاً أخذاً عظيماً . فأصدرت - يقودها كثير من أحرار النبلاء - سلسلة من القرارات ، تلغى نظم موالى الأرض (Serfs) والامتيازات والإعفاء من الضرائب ، والعشور ومحاكم الإقطاع . (ومع هذا فإن هذه القرارات لم تدخل حيز التنفيذ في أجزاء كثيرة من البلاد إلا بعد ذلك بثلاث سنوات أو أربع) . وذهبت الألقاب فيما ذهب . وقبل أن تصبح فرنسا جمهورية بزم من مديد كان من الجرائر أن يوقع النبيل باسمه مقروناً بلقبه . وحسبت الجمعية نفسها طوال أسابيع ستة (استمتع فيها علم البيان بفرص ذهبية لانهاية لها ١٩) ، على صوغ « إعلان لحقوق الإنسان » على غرار قوانين الحقوق التي كانت هي التوطئة الإنجليزية للمهددة للتغيير المنظم . وشرع البلاط في نفس الوقت يدبر المؤامرات لإحداث إنقلاب رجعي وشعر الناس أن البلاط يأتمر بهم . وتتعقد القصة ها هنا في خطط فيليب دورليان ابن عم الملك وتدبيراته النذلة الخسيسة ، وكان يأمل أن يستخدم الخلافات للحلول محل لويس على العرش الفرنسي . وفتحت حدائقه في الباليه رويال Palais-Royal للجمهور ، وأصبحت مركزاً عظيماً للمناقشات المتطرفة . وفعل وكلاؤه الشيء الكثير لإذكاء حدة شبهات الشعب نحو الملك . وبلغت الأمور حداً لا يطاق بسبب نقص في المواد الغذائية اعتبرت حكومة الملك مسئولة عنه .

وسرعان ما ظهرت بفرساي الفرقة الفلاندرية^(١) الموالية للملك . وكانت العائلة الملكية تدبر التدابير لتزداد بعدا عن باريس - لكي تتحلل من كل شيء أبرم وتستعيد الاستبداد والتبذير . فانزعج المملكون الدستوريون أمثال الجنرال لافاييت أيما انزعاج ، وحدث في ذلك الوقت أن اندلع غضب الناس عامة لقلة الطعام ، وتحول في

(١) فلاندر Flanders هو الإسم الذي كان يطلق قديماً على المنطقة الشمالية الشرقية من فرنسا وعلى بعض أجزاء من بلجيكا وهولندا . (المترجم)

دور انتقال هين إلى غلبة قوية ضد ما يتهدد القوم من الحركة الرجعية الملكية . إذ كان الاعتقاد السائد أن قصر فرساي يضم قدراً وفيراً من المواد الغذائية ؛ وأن الأطعمة كانت تخزن هناك بعيدة عن أيدي الجمهور . وكان الإضطراب قد غلب على عقول الجمهور بسبب شائعات لعلها كانت مبالغاً فيها ، عن إقامة مأدبة حديثاً في فرساي ، تجلى فيها العداء للشعب . وإليك بعض المقتطفات من وصف كارليل لهذه المأدبة الناعسة .

« سمح بقاعة الأوبرا . وسوف تصبح قاعة هرقل حجرة استقبال . ولم يقف الأمر عند حد ضباط فلاندر . بل تعداه إلى الضباط السويسريين ، السويسريين المثة . كلابل ضباط الحرس الوطني بفرساي ، فمن كان منهم يحمل في قلبه مسكة من الولاء يحضر المأدبة . ولسوف تكون وليمة قل نظيرها .

« والآن هب أن هذه الوليمة أعني أن القسم الوقور منها قد تم ؛ وأن الزجاجة الأولى قد احتسيت . وهب أن نخب الولاء المؤلف قد شرب ؛ فجاء نخب صحة الملك ؛ ثم نخب الملكة في هتافات تصم الآذان ؛ وأسقط نخب الشعب أو قل نُبذ ... وافرض أن الشمبانيا تفيض أنهاراً ، ويصحب ذلك خطب كلها شجاعة وإقدام ، ولكنه إقدام السكرارى المغمورين ، هذا إلى عزف آلات موسيقية ؛ ويأخذ خفاف الأحلام في رفع عقيرتهم أكثر فأكثر كل يطاول أخاه خفة ويطاوله ضجة وعجبا . فأما صاحبة الجلالة وهي تبدو الليلة محزونة الفؤاد بشكل غير عادي (وصاحب الجلالة جالس قد ملأه القنص في طول يومه بالتبذل) ، فهم يخبرونها أن منظر الوليمة سيدخل إلى فؤادها السرور . انظروا إليها إنها تدخل هناك خارجة من حجراتها الفاخرة خروج القمر من بين أطباق الغمام ، هذه الملكة الناعسة أبدع مليكة على عرش الأفتدة ؛ يسير إلى جوارها الزوج الملكي ، وولى العهد الصغير بين ذراعيها . وها هي ذى تنزل من المقاصير ، بين مظاهر الروعة والفخامة والبهلبل ، وتسير حول المناضد سير الملكات ؛ وهي تحنى رأسها برشاقة ؛ وتنظر نظرات تم عن الحزن والأسى ، يخاطبه مع ذلك معنى الشكران والإقدام ، وعلى صدرها الأموى الحنون معقد رجاء فرنسا المنتظر . ثم تعزف الخوقة الموسيقية : ياريكارد -

يا - يا - مليكى ، إن العالم يتخلى - عنك . فهل يستطيع الإنسان أن يفعل أكثر من أن تتعالى به العواطف إلى أقصى حد شفقةً ولاء وشجاعة ؟ وهل يستطيع الضباط الشبان خفاف الأحلام إلا أن يظهروا بواسطة قبعاتهم البوربونية البيضاء ، التي سلمتها إليهم الأنامل الجميلة ، وبتلويح السيوف التي استلت للقسم على صحة الملكة ، والدوس على القبعات القومية بالأقدام ، وبتسليق المقاصير التي قد يصدر منها أصوات تدخل أو احتجاج ، وبالصياح بأنكر الأصوات وأشد الحق وفقدان الرشد في الداخل والخارج - مبلغ الحالة الجوفاء العاصفة التي هم عليها أثناء تناولهم النخب ؟ .

« وليمة طبيعية ، هي في الأوقات العادية أكلة لا ضير فيها ولكنها الآن قتالة . . . فإن مارى انطوانيت المسكينة قد تجتمع حولها فصحاء السوء ، وحفلت بما في المرأة من حدة الطباع ، وحرمت بُعد نظر الملوك ! فالأمر إذن طبيعى جداً وهو مع ذلك من الحماقة بمكان . ففي اليوم التالي تصرح جلالتها في خطبة رسمية عامة أنها مبهجة بيوم الخميس » . ولنضع مقابل هذا تصوير كارليل لحالة الشعب .

« تستيقظ » الأمومة « في صبيحة الإثنين في طوابق السطوح القذرة ، فتسمع أطفالها يكون طالبين الخبز . ولا بد للأمومة من الإنطلاق إلى الشوارع وإلى صفوف (طوابير) باعة الخضر والخبازين . حيث تلتقي بأوممة قد أضرت بها الخمصة ، وهي مليئة بالعطف عليها والإثارة لها . يا لنا من نساء تعسات ! ولكن بدلا من الوقوف في صفوف الخبازين لماذا لا نذهب إلى قصور الارستقراطية التي هي الشر كله ؟ هيا بنا Allons . ولنجتمع . هيا إلى دار البلدية . . . وإلى فرساي . . . » .

وحدث في باريس الشيء الكثير من الصياح والحجى والذهاب ، قبل أن تتحقق هذه الفكرة الأخيرة . وظهر فرد اسمه مايتار له قدرة على التنظيم ، واتخذ لنفسه نوعاً من الزعامة . وليس هناك أقل ريب في أن زعماء الثورة ، والجنرال لافاييت بوجه خاص ، قد استخدموا ونظموا هذا الانفجار للحصول على الملك ، قبل أن يفلت من أيديهم - كما أفلت شارل الأول إلى أكسفورد - ليبدأ حرباً أهلية . وشرعت المظاهرة وقد تقدم الأصيل ، تسير رحلتها المكونة من أحد عشر ميلاً .

وها نحن نعود إلى الاقتباس من كارليل :

« كان مايار Maillard قد أوقف من يقودهم من المشردين المشعثين على قفة آخر تل ؛ وعند ذلك تبدو لعين الرائي المتعجب قرساي وقصر قرساي وميراث الملكية المتراعى الأطراف . ومن على بعد في الناحية اليمنى فوق مارلى (وسان جرمين إن لاي) حتى الناحية الأخرى نحو رامبوييه ، إلى اليسار ، مناظر كلها جمال ؛ وهي ترقد في رفق ؛ كأنما يخيم عليها الحزن في أحضان ذاك الجو المعتم الرطب ! وأمامنا تبدو عن كشب قرساي قديمها وجديدها . وبينهما ذلك الشارع العريض الظليل شارع قرساي ، وهو شارع شجره فخم الإبراق رحيب يبلغ عرضه فيما يقدرون ثلاثمئة قدم ، وقد امتدت به صفوفه الأربع من شجر الدردار ؛ ثم يبدو بعد ذلك قصر قرساي ، منتهياً بجناات ملكية ومروج غناء وبرك صغيرة متألثة ، وعرائش عظيمة عدا بيوت التيه (لايرانت) ومجموعة وحوش ضارية والتريانون الكبير والصغير ؛ ومساكن عالية الابراج ، وأماكن موزقة ممتعة ؛ يسكنها آلهة هذا العالم السفلى . ومع ذلك لا يمكن أن نستبعد منها المصوم القائمة الشوهاة ، وإليها كان الجوع المشرد يتقدم آنذاك ، مسلحاً بالقضبان ذات الرعوس . » وسقط المطر عندما خيم المساء .

فانظر تر الميدان كله وقد تغطت جميع جنباته الفسيحة ، ببجاعات من نساء قدرات يقطر منهن ماء المطر ؛ ومن رجال من الدهماء الأسافل ناحلي الشعور وهم مسلحون بالبلط ، والخوازيق الصدئة والقرايينات القديمة ، والمراوات ذات الحداثد (Batons ferres) والعصى التي تنتهى بسكاكين أو نصال سيوف ، ونوع من الخطاطيف التي اصطنعوها بأيديهم ارتجالاً ، وليس يبدو عليهم إلا أنهم عصاة جياع . وبهمر المطر والحرس الخاص يتنقل مختللاً بخيله وسط الجماهير التي تفتح عليه كالأنفى ؛ وتسخر منه وهو يهيج ويستثير من أمامه من الجماعات ما يتفرق هاهنا لكي يتجمهر هناك .

« ويحيط عدد لا حصر له من النساء القدرات بالرئيس والوفد ؛ ويصرون على الذهاب معه : ألم يرسل جلالاته بنفسه بعد أن نظر من النافذة ، من خرج ليسأل عما نريد ؟ نريد الخبز . والكلام مع الملك ، ذلكم هو الجواب . ويضاف إلى الوفد

بين الصخب الشديد والجلبة اثنتا عشرة امرأة ؛ ثم يسرن معه مظفرات عبر الميدان .
وبين جماعات متفرقة من الحشد ، ورجال من الحرس الخاص ، يتحركون بجيادهم
تحت المطر المنهمر . »

« الخبز . . . ، مع عدم الإكثار من الكلام ! . . . » طلبات طبيعية .

ويتردد على الأسماع أيضا أن العربات الملكية أخذت تشد إليها الخيول ، كأنما
هي ذاهبة إلى مدينة متز . وقد ظهرت بالفعل عند البوابة الخلفية عربات سواء
أكانت ملكية أم لم تكن . بل إنهم أبرزوا أو استشهدوا بأمر كتابي من بلدية
فرساي — وهي بلدية ملكية وليست ديمقراطية . ومع هذا فإن داوريات فرساي
أدخلتها ثانية ، بأمر مشدد إليهم من ليكوانتر اليقظ » وهكذا انحلت
أشباح الليل ، بين العجيج والمطر ؛ أصبحت كل الممرات معتمة مظلمة . وهي
أعجب ليلة شوهدت في تلك الأماكن . وربما كان ذلك منذ ليلة بارثولوميو^(١)
عند ما كانت فرساي — كما كتب ذلك باسومبيير — قصرا هزيلا ، « فأنا لنا
بقيثارة أورفيوس^(٢) ليضطر بلمسة من أوتاره الشجية هاته الجماهير المجنونة إلى
النظام ! إذ كان يبدو أن كل شيء ها هنا قد تشتت وتبدد وخرج عن موضعه
خروجا بعيداً . وأخذ أعلى الناس قدراً في الدنيا — كأنما يجذبهم تيار إلى أسفل —
يتصلون بأدنى الناس . أخذت دهماء فرنسا وزعانفها وأندالها تطيف بملكية فرنسا
وأقيالها . ورفعت الهراوات ذوات الرعوس الحديدية حول التاج لغاية أخري غير
حراسته ! وانطلقت مع السباب الموجه للحرس الخاص ترميه بالتعطش للدماء والمضادة
للوطنية ، دمدمات قائمة تزجر اسما للملكة .

« ويجتمع البلاط مرتعدا لا يقدر على شيء : ويتقلب رأيا مع تقلب أهواء الميدان ،

(١) بارثولوميو : يشير الكاتب هنا إلى مذبة الهوجنوت التي حدثت بباريس في عيد القديس

بارثولوميو في ٢٤ أغسطس ١٥٧٢ بأمر الملكة كاترين دي مديس . (المترجم)

(٢) أورفيوس : تمثله الأساطير في صورة أبرز شاعر قبل هومر ، وهو يحمل قيثارة كان يسبحي

بساحر أنغامها لا الكائنات الحية وحدها بل إن الأنهار والصخور كانت تطرب بشجي أنغامه وتخضع
لأوامره . (المترجم)

ومع تنوع ألوان الشائعات الآتية من باريس . شائعات تأتى متكاثفة تنبئ آونة عن السلم وأنا عن الحرب . ويتشاور نيكرو والوزراء كافة ، فلا يخرجون بنتيجة . والقاعات تجتاحها عاصفة هوجاء من همسات : لسوف نفر إلى متز ! بل لن نفر! وتحاول المركبات الملكية الخروج مرة ثانية . . . وإن كان ذلك مجرد المحاولة . على أنها تدفع إلى الداخل مرة ثانية ، تدفعها دوريات ليكوانتر »

ولزام علينا أن نحيل القارئ إلى كارليل ليعلمه بقدم الحرس الوطنى ليلاتحت قيادة الخنرال لافاييت نفسه ، وبالمساومة بين الجمعية والملك ، واندلاع نار القتال فى الصباح بين الحرس الخاص والمحاصرين الجياع ، وكيف دخل الآخرون القصر عنوة وأوشكوا أن يعملوا فى الأسيرة المألقة ذبحاً . وجاء لافاييت وجنوده فى الوقت المناسب فحالوا دون ذلك . ووصلت للجمهور الجائع من باريس فى الوقت الملائم عربات محملة بالخبز . وأخيراً استقر الرأى على وجوب ذهاب الملك إلى باريس .

« إن مسير المواكب الاحتفالية أمر لم يشهد علمنا منه القليل ؛ فهناك مواكب النصر والترحيب بالأبطال لدى الرومان ، وهناك دق الصنوج الكابريّة Cabiric^(١) والمواكب الملكية والخنزات الإرنلندية ؛ ولكن هذا الركب المنطلق بالملكية الفرنسية وهى تسير إلى مهدها أمر ينتظرنا لنشده . فعلى أمتداد أميال عديدة بعرض يتلاشى فى زوايا الغموض والابهام — ذلك أن كل المنطقة المجاورة تتجمهر لتطلع . يسير الجمع فى بطء ويركد فى مضيقه حتى ليكاد يأسن ، كأنه بحيرة بلا شواطئ ، ولها مع ذلك لحبّ ضجة تشبه ضجة شلالات نياجارا ، أو تشبه بابل وبدلام^(٢) . ويحدث ضرب بالأرجل فى الماء ودوس بها على الأرض . ثم ارتفاع أصوات بالهتاف والعجيج وإطلاق وابل من طلقات القرايينات ؛ إنها أصدق قطعة من الفوضى شوهدت فى تلك العصور الأخيرة ! حتى تصب نفسها رويداً رويداً ساعة عتمة

(١) الكابري Cabiri : مجموعة من الآلهة كانت تعبد فى الأزمنة القديمة بآسيا الصغرى وأجزاء من بلاد اليونان . وكانت قوى شيطانية فى العالم السفلى كما كان يعتقد أنها المتحكمة فى الخصوبة .

(المترجم)

(٢) بدلام : أقدم مستشفى للمجانين بأوروبا .

(المترجم)

الغسق المتكاثفة ، في باريس المنتظرة ، بين صف مزدوج من الوجوه يمتد من پاسى إلى دار البلدية .

« تأمل هذا : مقدمة من جند الحرس الوطنى ، من خلفها أرتال من المدفعية ؛ ورجال يحملون الرماح ونساء بالحرايب ، يركبون المدافع والعربات والمركبات ، أو يسيرون على الأقدام . . أرغفة قد رشقت على سن السونكيات ، وغصون خضراء قد رفعت في أنابيب البنادق . ثم يأتي بعد ذلك الموكب الرئيسى ، خمسون عربة محملة بالقمح ، أقرضت لهم من مخازن فرساي التماساً للسلام . يسير من خلفها جماعة لا وجهة لهم من رجال الحرس الخاص ؛ وقد غلبت عليهم الذلة وهم في قبعات الحرس المشاة (الجرينادير) . ومن خلف هؤلاء مباشرة تأتي المركبة الملكية . ثم تأتي مركبات ملكية . إن هناك مئة من النواب الوطنيين كذلك ، يجلس ن بينهم ميرابو وهو لا يبدى أية ملحوظة . ثم يأتي خليط من الحابل والنابل يسرون كأنهم حرس المؤخرة ، من الفلاندرين ، والسويسريين والمئة سويسرى وآخرون من الحرس الخاص وقطاع طرق وكل من لا يستطيع أن يتقدم إلى الأمام .

وفيما بين أطواء هذه الجموع تفيض بغير حدود أهالى حى سانت أنطوان وكتيبة التشرذم النسائية . ويسير النساء بوجه خاص حول المركبة الملكية . . متشحات بالألوان الثلاثة وهن يغنين أغاني كلها الهمز واللمز ، ويشرن بإحدى أيديهن إلى المركبة الملكية التى يقصدن بها ذلك اللمز ، ويشرن باليد الأخرى إلى عربات الأطعمة ، وتعلن هذه الألفاظ : تشجعوا أيها الإخوان ! : فلن نحتاج بعد الآن إلى الخبر ، إنا محضرون لكم الخباز والخبازة وابن الخباز . .

« ويلوث المطر الألوان المثلثة ، ولكن لهيب السرور متقد لا يستطيع إطفاءه أى شىء . ألم يصبح كل شىء الآن على ما يرام ؟ قال بعض هؤلاء النساء القويات بعد ذلك ببضع أيام - آه يامدام ياملكتنا الطيبة ، لا تعودى إلى الخيانة مرة أخرى حتى نحبك كلنا ! » .

كان ذلك هو يوم ٦ أكتوبر ١٧٨٩ . وأقامت الأسرة المالكة فى التويلرى قرابة

سنتين لم يكدر صفوها أثناءهما مكدر . فلو أن البلاط حافظ على عهده العادى مع الشعب ، فلعل الملك كان يموت هناك وهو بعد ملك . حافظت الثورة الأولى على كياها من ١٧٨٩ إلى ١٧٩١ ، وأصبحت فرنسا ملكية مقيدة ، واحتفظ الملك بسلطان منقوص في قصر التويلرى ، وطفقت الجمعية الوطنية تحكم قطراً شمله السلام . فلو أن القارئ رجع إلى خرائط بولندة التى قدمناها في الفصل السالف ، لعرف ما كان يشغل روسيا وبروسيا والنمسا في ذلك الأوان . فعلى حين كانت فرنسا تنشئ التجارب في جمهورية متوجة في الغرب ، كان يجرى آخر تقسيم للجمهورية المتوجة^(١) في الشرق . وماذا لو أمهلت فرنسا قليلا .

وإذا نحن تذكرنا عدم خبرة الجمعية ، والظروف التى كانت تعمل في كنفها ، والتغيرات المحيطة بكل شئونها ، وجب علينا أن نسلم بأنها قامت بقدر جسيم جداً من العمل الإنشائى . وكان الشئ الكثير من ذلك العمل سليماً قوياً وما يزال باقياً إلى اليوم ، وكان كثير منه تجريبياً . فهدم ونقض . وكان في بعضه الكوارث . فتمت تنقية قانون العقوبات ؛ وألغى التعذيب ، والحبس التعسفى ، والاضطهادات الدينية . وأخلت مقاطعات فرنسا القديمة : نورمانديا وبورغانديا وأشباههما مكانها ثمانين محافظة أو قسماً إدارياً وجعل باب الترقى إلى أقصى رتب الجيش مفتوحاً للرجال من كل الطبقات . وأقيم نظام بديع بسيط من المحاكم ، ولكن أفسده كثيراً أن القضاة كانوا يعينون بانتخاب شعبي ولأجل قصير . فكان هذا الأمر يجعل من الجمهور نوعاً من محكمة استئناف نهائية ، واضطر القضاة — شأن أعضاء الجمعية أن يمثلوا لأهل الشرفه^(٢) . واستولت الدولة على جميع ما كان للكنيسة من أملاك هائلة وأخذت تديرها بنفسها . وقوضت كل المؤسسات الدينية التى لا تشتغل بالتعليم أو الإحسان ، وجعلت مرتبات رجال الدين فرضاً على الأمة . ولم يكن هذا في حد ذاته شيئاً تكرهه الطبقة الدنيا من رجال الدين بفرنسا ، الذين كانوا في غالب

(١) يريد بها المؤلف دولة بولندة التى اقتسمتها تلك الدول الثلاث . انظر المعالم ص ١١١٦ وما بعدها ج ٤ ط ٢ . (المترجم)

(٢) وهو تعبير مجازى : معناه محاولة الحصول على الشعبية باسترضاء وملائة أذواق الدهماء وتحيزاتها وأهوائها . (المترجم)

الأحيان يتناولون أجوراً بخسة بشكل فاضح بالموازنة إلى رؤسائهم الأكثر ثروة . ولكن أضيف إلى ذلك أن وظائف القسيسين والأساقفة جعلت بالانتخاب ، وهو أمر أصاب الفكرة الأساسية للكنيسة الكاثوليكية في الصميم ، وهي التي كانت تركز كل شيء حول البابا ، والتي تأتي فيها السلطة من أعلى إلى أسفل . والواقع العملي أن الجمعية الوطنية أرادت أن تجعل الكنيسة الفرنسية بروتستانتية بضربة واحدة ، بروتستانتية في التنظيم إن لم يكن في المبادئ . وحدثت في كل مكان مناقشات ومنازعات بين قسوس الدولة الذين أنشأتهم الجمعية العمومية وبين القسيسين المعاندين (الذين لا يحلفون اليمين) ، الذين أخلصوا الولاء لروما .

وهناك شيء عجيب فعلته الجمعية الوطنية فكان من أثره أن أضعف من قبضتها على زمام الأمور . إذ أنها أصدرت مرسوماً يقضي بأن لا يكون أى عضو من أعضائها وزيراً تنفيذياً . وكان ذلك محاكاة منهم للدستور الأمريكى ، حيث الوزراء هناك أيضاً منفصلون عن الهيئة التشريعية . وكانت الطريقة الانجليزية تقضى بأن يكون كل الوزراء أعضاء في الهيئة التشريعية ، وأن يكونوا على استعداد للإجابة على الأسئلة وتقديم الحساب عن تفسيرهم للقوانين وإدارتهم لشئون الشعب . فإذا كانت الهيئة التشريعية تمثل الشعب ذا السيادة ، وجب إذن ولا شك أن يكون الوزراء على أوثق اتصال بسيدهم . وتسبب عن فصل الهيئة التشريعية عن التنفيذية بفرنسا حدوث كثير من سوء التفاهم وعدم الثقة . إذ كانت السلطة التشريعية تعوزها السيطرة والسلطة التنفيذية فقيرة في القوة المعنوية . فأفضى هذا إلى أن أصبحت الحكومة المركزية غير فعالة إلى حد أنه كانت تكتشف في كثير من النواحي في ذلك الزمان كوميونات (أحياء) ومدن يتبين أنها مجتمعات تحكم نفسها بنفسها أو تكاد ، فكانوا يقبلون أوامر باريس أو يرفضونها حسبما يمليه عليهم هواهم ، ويأبون دفع الضرائب ، ويقتسمون أرض الكنيسة طبقاً لمشبهاتهم المحلية .

١٠ - ثورة اليقاقة

من المحتمل جداً أنه لو أن الجمعية الوطنية حصلت على عون من التاج يتجلى فيه الإخلاص ووطنية يتبدى فيها التعقل من جانب النبلاء ، فعسى أن كانت تلك الجمعية

تتعرّ في طريقها حتى تصل إلى شكل ثابت لحكومة برلمانية لفرنسا - بالرغم من شرفاتها العالية العجيج وبالرغم من غلبة روح روسو عليها ومن ضوؤلة خبرتها - وكان لها في ميرابورجل دولة له بصيرة نافذة باحتياجات العصر. وكان يعرف مواطن القوة والضعف في النظام البريطاني ، وكان جلياً أنه قد نصب نفسه ليؤسس في فرنسا نظاماً سياسياً مماثلاً للإنجليزى على أساس اقتراح أفسح مجالا وأشد أمانة وشرفاً . حقاً إنه قد استمرّ نوعاً من الغزل الروريثاني^(١) مع الملكة وكان يلقاها خفية ، ويصرح عنها جاداً غير مازح أنها هي « الرجل الوحيد » حول الملك ، ويكاد في هذا الأمر أن يصم نفسه بالغباء والحماقة . على أن خططه كانت تقوم على نطاق أوسع كثيراً من نطاق سلام التويلرى الخلفية : ولا شك أن فرنسا فقدت بموته ١٧٩١ واحداً من أشد سياسيينها قدرة بناءة ، وكذلك فقدت الجمعية الوطنية آخر فرصة للتعاون مع الملك : وحيثما وجد بلاط ملكى كان هناك في العادة التآمر ، وكانت تدبيرات الملكيين وبث الملكيين للشر آخر قشة يضعونها في كفة الميزان ضد الجمعية الوطنية . ولم يكن الملكيون يهتمون بميرابو ولا كانوا يهتمون بفرنسا ؛ وكل ماكانوا يريدونه هو الرجوع وكفى إلى فردوس امتيازاتهم المفقود ، وإلى صلفهم ، وسرفهم الذى لاحد له . وخيّل إليهم أنهم لو استطاعوا فقط أن يعقدوا الأمور على حكومة الجمعية الوطنية ليجعلوا إدارتها للشئون أمراً مستحيلاً ، فإن العظام الرميم النخرة عظام الدولة القديمة لابد أن تبعث من جديد حية بمعجزة من المعجزات . ولم يخالجهم أى إدراك لاحتمال الآخر وهو هوة الجمهوريين المتطرفين التى كانت فاعرة فاهات تحت أقدامهم .

وفي إحدى ليالى شهر يونية من ١٧٩١ ، حدث بين الساعة الحادية عشرة ومنتصف الليل ، أن الملك والملكة وطفليهما إنسلوا متنكرين من قصر التويلرى ثم اخترقوا باريس وجلين ، وداروا من شمال المدينة إلى الشرق ، حتى وصلوا

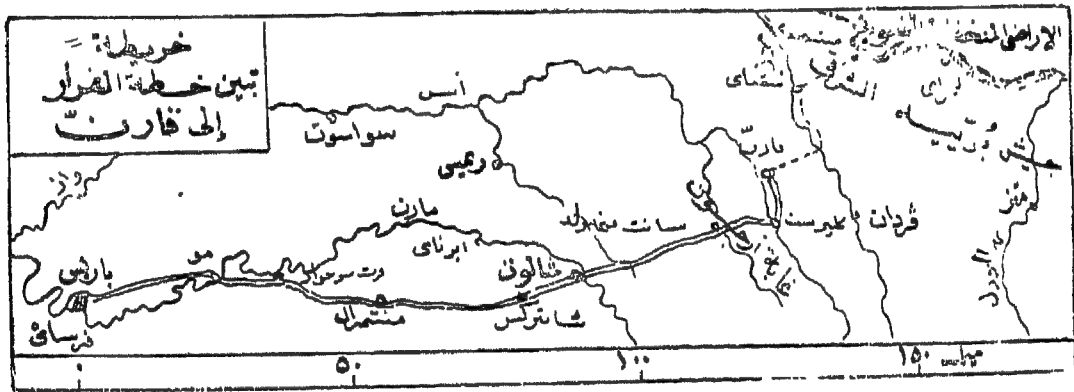
(١) في ذلك إشارة إلى رواية سجين زندا التى عشق الملكة فيها نبيل إنجليزى عشقا عذرياً .
(المترجم)

آخر الأمر إلى عربة سفر كانت معدة لنقلهم إلى شالون . كانوا يفرون للانضمام إلى جيش الشرق إذ كان جيش الشرق « ماليا » أى أن قائده وضباطه على الأقل كانوا على استعداد للتخلي عن فرنسا والانضمام إلى الملك وبلاطه . وهكذا وصلنا آخر الأمر إلى المغامرات التي تروق فؤاد الملكة ، ويستطيع الإنسان أن يتخيل ويفهم النشوة والسرور يعم الفئة الصغيرة والأميال تباعد بينها وبين باريس . وكان ينتظرهم فوق التلال البعيدة ، التوقيع والانحناء العميق ولثم الأيدي ثم تأتى العودة إلى فرساي . وإطلاق يسير للنار على دهاء باريس وبعض طلقات من المدافع إذا استلزم الأمر وإعدام بعض الناس وإن لم يكونوا من ذوى المكانة . وعهد إرهاب أبيض^(١) يستمر أشهراً قلائل . ثم يعود كل شيء فيصبح على خير ما يرام . وربما عاد كالونى أيضاً ومعه تدبيرات مالية جديدة . وكان فى ذلك الوقت مشغولاً بجمع المدد من بين ظهرانى الأمراء الألمان . وهناك عدد جم من القصور لابد من إعادة بنائها ، ولن يكاد يكون فى استطاع القوم الذين أحرقوها أن يتشكّوا إن وقع عبء إعادة بنائها ثقيلاً فادحاً نوعاً ما على أعناقهم القدرة .

على أن كل هذه الأمانى الزاهية المرجوة ما لبثت حتى تحطمت فى تلك الليلة تحطماً قاسياً عند قارن^٢ . فإن صاحب دار خيل البريد عرف الملك فى سانت مين هولند ، وبينما الليل يرخى سدوله كان ينطلق فى جو الطرق المؤدية شرقاً وقع سنابل خيول الرسل وهم يوقظون البلاد ويحاولون أن يقطعوا الطريق على الهاربين . وكان هناك خيل أخرى على أهبة الانتظار فى القرية العليا من قارن^٢ وكان الضابط الشاب المنوط بالنوبة قد انصرف عن الملك فترة الليل وآوى إلى فراشه — على حين ظل الملك المسكين مدة نصف ساعة فى القرية السفلى وهو يتنازع مرتدياً ثياب الخدم — مع الخوذى والسواس الذين كانوا يتوقعون أن يجحدوا أبدانهم فى القرية السفلى ويرفضون أن يتقدموا بالعربة خطوة واحدة . وأخيراً رضوا أن يواصلوا المسير . ولكن رضاءهم جاء بعد فوات الأوان . فإن الفئة القليلة

(١) كان اللون الأبيض شعار آل بوربون . (المترجم)

وجدت هناك ناظر البريد بسانت مين هولده - بعد أن سبقها والسواس في لجاجهم يجادلون - ومعه ثلثة قد جمعها من الجمهوريين المحترمين في قارن ، وانتظر بها عند الجسر الموصل بين جزئي المدينة . وأقيمت على الجسر المتاريس . وصوبت القرابينات إلى المركبة ، وقيل لمن فيها : « جواز سفركم ! » عندئذ سلم الملك بدون مقاومة . وأخذت الفثة الصغيرة إلى منزل أحد موظفي القرية . قال الملك « حسناً ! ها أنا ذا بين أيديكم ! » ثم ذكر كذلك أنه جوعان . وأثنى أثناء تناوله الطعام على النبيذ وقال « نبيذ ممتاز جداً » ولم يسجل أحد لنا ما قالته الملكة . وكانت هناك جنود ملكية على مقربة من المكان ولكنهم لم يحاولوا أن ينقلوا الملك . وأخذ جرس الخطر يدق وأضاءت القرية نفسها تحرزا من المباغثة .



(شكل ١٨٤)

ومن ثم عاد إلى باريس حمل العربدة الملكية مهيباً ذليلاً ، وقاباته جماهير غفيرة في صمت وسكون . إذ سرى بين الجماهير النذير بأن من اجتراً على إهانة الملك جلد ، ومن هتف له يقتل . . .

لم يحدث إلا بعد هذه المغامرة الحمقاء أن استولت فكرة الجمهورية على أذهان الفرنسيين . أجل كانت تخالجات الناس لا ريب قبل هذا الفرار إلى قارن عاطفة مبهمة نحو الجمهورية ، ولكن لم يكده أن يكون في فرنسا أحد من الناس يجهر برغبته في إلغاء الملكية . وقد حدث حتى في شهر يولية يوم لم يتقضى على الفرار إلا شهر واحد ،

حين عقد اجتماع عظيم في شان دى مارس (Champ de Mars) : لتعزيد القيام بلمنمى بعزل الملك - أن فرقت السلطات شمله ، وقتل فيه خلق كثير ، ولكن هذه مظاهر الحزم لم تحل بين الدرس المستفاد من ذلك الفرار وبين التغلل إلى أذهان الرجال . وكما حدث في إنجلترا في أيام شارل الأول فكذلك حدث الآن في فرنسا ، أن أدرك الناس أن الملك لم يكن ليؤمن - وأنه مصدر خطر . وقويت شوكة العقابة بسرعة . وشرع زعمائهم روبسبير ودانتون ومارا الذين كانوا يلوحون حتى آنذاك غلاة مستحيلين ، أن يتسلطوا على الشئون الفرنسية .

وكان هؤلاء العقابة نظير الراديكاليين الأمريكيين ، وهم رجال ذوو فكرات تقديمية ضارية غير مروضة . وتقوم قوتهم على خلوهم مما يعوق الناس من مال أو سلطان وأن لهم مضاء واستقامة . كانوا رجالا فقراء ليس لديهم ما يحشون فقدانه . وكان حزب : « الاعتدال » والتفاهم مع بقايا النظام القديم يقوده رجال من ذوى المكانة الوطيدة أمثال الجنرال لافاييت ، الذى ميز نفسه في شبابه بقتاله متطوعاً في صفوف المستوطنين الأمريكيين ، وميرابو وهو أرسقراطى كان على استعداد أن يصوغ نفسه على غرار أرسقراطية الانجليز الأغنياء الواسعى النفوذ . بيد أن روبسبير كان محامياً شاباً فقيراً ذكياً من أراس ، كان أثمن ما يملكه هو إيمانه بروسو ، وكان دانتون محامياً هو الآخر بباريس ، ولكنه لا يكاد يفوقه ثراء ، وكان شخصاً ضخماً كثير الإشارة بليغ العبارة ميالاً إلى الأسلوب الخطابى ، فأما مارا فكان رجلاً أسنّ منهما وكان سويسرياً على شىء من الامتياز العلمى وإن عادلهما في انطلاق سراحه من كل ما يكبل الناس من الاموال والممتلكات . قضى سنوات عديدة في إنجلترا وكان يحمل شهادة الدكتوراه الفخرية في الطب من جامعة سانت أندروز ، وله في علم الطب بعض مقالات قيمة نشرها بالانجليزية . وكان كتابه في علم الفوزيق موضع إعجاب كل من بنيامين فرانكلين وجيته . فهذا هو الذى يسميه كارليل « الكلب الكلب » و « الفطيع » و « القدر » و « مطب الكلاب » . ولعل هذه الكنية الأخيرة جاءت من قبيل الاعتراف بفضل علمه ! !

دعت الثورة مارا أن يخوض نمار السياسة ، وكانت أقدم ثمار قريحته التى

أدلى بها في معمعان جدلها العظيم تمتاز بالسداد وسلامة التفكير . وكانت تنتشر في فرنسا فكرة خاطئة تقول بأن إنجلترا أرض حرية . ولكن مقالة التي جعل عنوانها « عيوب الدستور الانجليزي » تبين حقيقة الأوضاع الانجليزية . وقد جن جنونه في سنيه الأخيرة لاصابته بمرض جلدى لا يكاد يطاق انتقل إليه عندما كان محتبئاً إبان الثورة في مجارى باريس فراراً من عواقب اتهمه الملك ووصفه إياه بالخيانة بعد فراره إلى قارن . ولم يكن ليستطيع أن يجمع شوارد ذهنه للكتابة إلا وهو جالس في حمام حار . لقد لقي معاملة شديدة وقاسى الآلام ، فأصبح شديداً قاسى الفؤاد ، ومع هذا فإنه يبرز في التاريخ بوصفه رجلاً ذا نزاهة ممتازة . ويلوح أن فقرة بوجه خاص كان يستثير سخرية كارليل منه .

« يا لطول الطريق الذى يقطعه ! ! وها هو الآن يجلس عند قرابة الساعة السابعة والنصف ، وهو يسلق نفسه في حمامه ، متفرج الجسد ، مصاباً بالسقام ، مريضاً بحمى الثورة . . . رجلاً عليلًا مضى مفرطاً في العلة والضنى ، فقيراً مملقاً معه من النقود ما يعادل بالضبط أربعة قروش وستة مليات من العملة الورقية ، مع حمام على صورة حذاء ، ونضد للكتابة متين بثلاثة أرجل ، ومتاعب ، ومعه غسالة قدرة تقوم بمرافق بيته . . . ذلك هو مسكنه ومثواه في شارع مدرسة الطب . وإلى هذا المكان دون أى مكان آخر اقتاده سبيله . . . أنصت ! فإن هناك طرقاً ثانياً ، وإن هناك لصوتاً موسيقياً لامرأة ، وهى تأبى أن تحرم الدخول : إنها هى المواطنة التى تريد أن تؤدى لفرنسا خدمة . وإذ يسمع ماراً الحوار من الداخل ، يصبح أن أدخلها . ويؤذن لشارلوت كورداي بالدخول » .

وقد عرضت البطلة الشابة أن تقدم إليه بعض المعلومات الضرورية حول الثورة التى قامت ضدهم في كاين ، وبينما هو مشغول في تدوين ما أدلت به من حقائق ، طعنته بسكين كبيرة ذات غمد (١٧٩٢) . . .

تلك صفة معظم زعماء حزب اليعاقبة . فإنهم كانوا رجلاً لا أملاك لهم ، رجلاً لا قيد من ثم يغفل أيديهم . وكانوا أقل ترابطاً بعضهم ببعض وأقرب إلى الطبيعة الاصلية من أى حزب آخر . وكانوا على استعداد أن يدفعوا بفكرات الحرية والمساواة إلى غاية متطرفة منطقية . وكانت معايير الفضيلة الوطنية عندهم عالية وخشنة وكان

هناك شيء غير إنساني حتى في حميتهم لحب الخير ، وكانوا ممتنعين مما يرون من ميل المعتدلين إلى تلطيف الأمور وتسكينها ، وإلى إبقاء العامة في حالة احتياج هونا ما وإلزامهم احترام للغير شيئاً ما ، وأن يجعلوا الملكية (وذوى الاعتبار من الرجال) موقرين قليلاً ما ، وقد أعمتهم عبارات مذهب روسو عن الحقيقة التاريخية القائلة بأن الإنسان يكون بطبعه إما ظالماً أو مظلوماً ، وأن الناس لن يجعلوا سعداء أحراراً إلا ببطء بواسطة القانون والتعليم وروح المحبة في العالم .

وبينا حدث في أمريكا أن صيغ ديمقراطية القرن الثامن عشر كانت في جملتها مستهضة للناس معينة لهم ، لأنها كانت بالفعل أرض المساواة العملية في الهواء الطلق ما اختص الأمر بالبيض من الرجال ، فقد انتجت هذه المبادئ في فرنسا خليطاً جنونيا خطراً على سكان المدن لأن أجزاء جسيمة من مدن فرنسا كانت أحياء فقيرة مليئة بأقوام ممن جردوا من أملاكهم وانحلت أخلاقهم وانحطت مرتبتهم وتممرت أرواحهم . وكانت جماهير باريس بوجه خاص في حالة يأس خطيرة ، لأن صناعات باريس كانت في معظمها صناعات ترف . وكان الشيء الكثير من أعمالها من النوع الطفيل الذي يعيش على نقائص الطبقة الراقية ورذائلها . والآن وقد ولى عالم أهل النعيم وذهب إلى ما وراء الحدود ، وصار الحال إلى التضييق على المسافرين ، وداخل الاضطراب الأعمال ، أصبحت المدينة مليئة بأقوام عاطلين غاضبين . ولكن الملكيين بدل أن يدركوا حقيقة هولاء العاقبة وما هم عليه من أمانة خطيرة وما لهم من سلطان خطر على خيال الدهماء ، قد بلغ من اغترارهم بأنفسهم أنهم ظنوا أن في إمكانهم أن يتخذوا منهم أداة يعملون بها . وكان موعد لإحلال الجمعية التشريعية محل الجمعية الوطنية تطبيقاً للدستور الجديد قد قرب أوانه ، وعندما اقترح العاقبة بقصد تمزيق شمل المعتدلين ألا يكون لأحد من أعضاء الجمعية الوطنية الحق في عضوية الجمعية التشريعية ، انضم إليهم الملكيون في جدل عظيم وأنفذوا الاقتراح . ذلك أنهم أدركوا أن الجمعية التشريعية وقد اجتثت منها على تلك الشاكلة كل خبرة وتجربة ، سوف تكون ولامرية هيئة ذات كفاية من الناحية السياسية . وعند ذلك يعود عليهم

« الإفراط في الشر بالخير العميم » ، وعند ذلك تعود فرنسا فتهوى صريعة لأمعين لها في أيدي سادتها الشرعيين . هكذا دبروا وقدروا . بل لقد فعل الملكيون أكثر من هذا . فإنهم ناصروا انتخاب أحد اليعاقبة عمدة لباريس . وكأني بهذا التصرف في ذكاء من يجتلب إلى منزله نمرأً جائعاً ليقنع زوجته بحاجتها إليه . وهي هيئة أخرى تقف مستعدة عن كذب وإن لم يحسب هؤلاء الملكيون حسابها ، وكانت أحسن عدة من البلاط وأقدر على التقدم أماما والحلول محل جمعية تشريعية غير فعالة ، تلك هي كوميون باريس (أي هيئتها البلدية) القوى وهي هيئة قوية النزعات اليعقوبية مقرها دار البلدية .

وكانت فرنسا ما تزال حتى ذلك الحين تستظل السلام . فلم يهاجمها أحد من جيرانها ، لما بدا لهم من إضعافها نفسها بانقساماتها الداخلية . فأما الضحية التي قاست الآلام من جراء ارتباك الحالة في فرنسا فهي بولندة . ولكن لم يكن لدى جيرانها مانع يحول دون إهانتها وتهديدها وتمهيد السبيل لاقتسام تام عند ما يحلو لهم ذلك . واجتمع ملك بروسيا وإمبراطور النمسا في بلنيتز Pilnitz ١٧٩١ ، وأصدرا تصريحاً يقول إن إعادة النظام والملكية في فرنسا أمر له أهميته لدى كل الملوك . وسمح الجيش من المهاجرين ونبلاء الفرنسيين وسراهم وهو جيش يتكون في معظمه من الضباط — بالتجمع على مسافة دانية من الحدود .

وكانت فرنسا هي البادئة بإعلان الحرب على النمسا . وكانت الدوافع التي خالجت نفوس من ناصروا هذه الحركة دوافع متنازعة . فإن كثيراً من الجمهوريين كانوا يرغبون في ذلك لأنهم كانوا يشتهون أن يروا ذوى قرباهم سكان بلجيكا وقد تحرروا من النير النمساوي . وكان كثير من الملكيين يرغبون فيها لأنهم كانوا يرون في الحرب احتمالاً لإعادة هيبة الملكية وسلطانها . وعارضها مارا معارضة مريرة في صحيفته صديق الشعب (L' Ami du Peuple) لأنه لم يكن يرغب أن تتحول الحامية للجمهورية إلى حمى حرب . وقد حذرته غريزته من نابليون . وفي ٢٠ إبريل ١٧٩٢ جاء الملك إلى الجمعية واقترح بين مظاهر الاستحسان العظيم إعلان الحرب :

وابتدأت الحرب بكارثة . فإن جيوشاً فرنسية ثلاث دخلت بلاد البلجيك ؛ فهزم اثنان منها هزيمة منكرة ، وتراجع الثالث وكان بقيادة لافايت . وعند ذلك أعلنت بروسيا الحرب مؤازرة منها للنمسا ، واستعدت الجيوش المتحالفة لغزو فرنسا تحت قيادة الدوق برنزويك . وأصدر الدوق إعلاناً من أشد إعلانات التاريخ نزقاً ؛ فإنه قال إنه يغزو فرنسا ليعيد سلطان الملكية إلى نصابه . وأن أية إهانة أخرى تلحق بالعرش الفرنسى سينتقم لها من الجمعية التشريعية وباريس « بالإعدام العسكرى رمياً بالرصاص . » وكان هذا كافياً لتحويل أشد الفرنسيين ملكية إلى المذهب الجمهورى - لمدة الحرب على الأقل .

وكان الدور الجديد من أدوار الثورة ، وهو الثورة العقوبية ، هو الثمرة المباشرة لهذا الإعلان . ذلك أنه جعل من الحال استمرار جهود الجمعية التشريعية ، التى كان يتسلط عليها الجمهوريون النظاميون (الخيرونديون) والملكيون ، كما جعل من الحال بقاء الحكومة التى أخذت ذلك الاجتماع الجمهورى فى الشأن دى مارس وتعقبت مارا حتى اختبأ بالحجارى . واجتمع العصاة فى دار البلدية ، وفى ١٠ أغسطس قامت بلدية (كوميون) باريس بهجوم على قصر التويلرى .

وتصرف الملك بغباء سمج ، وبذلك الإستخفاف بالغير الذى هو من امتيازات الملوك . وكان معه حرس سويسرى مكون من ألف رجل كما كان معه حرس أهلى ولاؤه غير مضمون . فصمد صموداً مبهماً حتى ابتداء إطلاق النار ، ثم انتقل إلى دار الجمعية وهى المجاورة له ليضع نفسه وعائلته تحت حمايتها ، تاركاً حرسه السويسرى يقاتل . ولا شك أنه كان يطمع فى إلقاء الشقاق بين الجمعية وكوميون باريس ، ولكن لم يكن لدى الجمعية ذرة من روح المقاتلة التى كانت تستمع بها دار البلدية . ووضع اللاجئون الملكييون فى مقصورة (لوج) معدة للصحفيين (وكانت تتصل بها حجرة صغيرة) ، وهناك ظلوا ستة عشر ساعة بينما كانت الجمعية تتناقش فى مصيرهم . وكانت تعلو فى الخارج أصوات معركة ضخمة ؛ وكان يحدث بين الآونة والأخرى أن تنكسر إحدى النوافذ . وكان السويسريون التعساء يقاتلون وظهورهم إلى الجدران ، إذ لم يكن أمامهم من سبيل إلى غير ذلك .

ولم تجرؤ الجمعية على مناصرة الحكومة في تكرار ما عملته في شان دى مارس في شهر يولية ؛ إذ كانت قوة الكوميون الشرسة تتسلط عليها . ولم يجد الملك في الجمعية أية راحة لفؤاده فإنها عنفته وتناقشت في « إيقافه عن العمل » . وقاتل السويسريون حتى تلقوا من الملك أمراً بالكف عن القتال . وعند ذلك أعمل الجمهور فيهم قتلاً حتى قضى على معظمهم ، أن كان الغضب قد بلغ به حد التوحش من إجراء سفك الدماء الذى لا ضرورة له ، وأن كان جنونه قد جن إلى حد لم يعد معه إلى ضبطه سبيل .

وكانت المحاولة الطويلة المملة لصوغ لويس في الغالب « المبروفنجي »^(١) ولاستخراج جمهورى شريف متوج من ملك مطلق غبي غير قابل للتكيف ، — قد قاربت آنذاك خاتمتها الحزنة . فإن كوميون باريس كان قد تسلم بالفعل مقاليد السلطان في فرنسا . وأصدرت الجمعية التشريعية التي لحقها تغير ظاهر في شعاعها ، مرسوماً يقضى بإيقاف الملك عن القيام بمهام عمله ؛ وأودعته المعبد ، واستبدلت به لجنة تنفيذية ودعت مؤتمراً وطنياً لإنشاء دستور جديد .

وعندئذ أخذ توتر فرنسا الوطنية والجمهورية يصبح شيئاً لا يطاق . وكان كل ما تمتلك من جيوش يتدحرج منهزماً على الطريق المؤدية إلى باريس في حالة يأس واستسلام (الخريطة ١٨٥) . وسقطت لونجوى (Longwy) ، وعقبها قلعة فردان العظيمة ، ولم يكن يبدو هناك أى احتمال لإيقاف تقدم الحلفاء على العاصمة . وارتفع الإحساس بالخيانة الملكية إلى حد ملأ الناس بقساوة الرعب . وكان لا بد على كل حال من إسكات الملكيين وغل أيديهم وإرهابهم حتى يخنقوا عن الأنظار . ونصب كوميون باريس نفسه لمطاردة كل ملكى يمكن العثور عليه ، حتى اكتظت بهم سجون باريس . ورأى ماراً شبح المذبحة مقبلاً . فحاول أن يفوز بإنشاء محاكم الطوارئ قبل أن يفوت الأوان بقصد تمييز البريء من المذنب في هذا الخليط العظيم

(١) أى ملكاً بلا سلطان كلوك المبروفنجيين الذى كان يتولى السلطة الفعلية دونهم فاطر القصر .

(انظر المعالم ص ٣ ط ٢) . (المترجم)

١٢١١

من المتآمرين ، والمشتبه فيهم والسراة غير المذنبين . ولكنهم تجاهلوه ، وحدثت في أوائل سبتمبر المذبحة التي لا بد منها .

ابتدأ الأمر على حين فجأة بأن عصاية من الرجال كانت تستولى على أحد السجون ثم على الآخر وهكذا . ثم تشكل ضرب من المحاكم المرتجلة الفجة . على حين يتجمع في الخارج صنف من الدهماء الضاربة مسلحاً بالسيوف والخوازيق والبلط . وكان السجناء يقتادون من زناناتهم واحداً بعد الآخر لا فرق في ذلك بين رجل وامرأة ، ثم يستجوبون استجواباً وجيزاً ، ويعفى عنهم بصيحة « لنحيا الأمة Vive La Nation » ، أو يقذف بهم إلى الدهماء على الأبواب . وهناك كان الجمهور يتدافع ويتقاتل ليحدث في الضحية جرحاً أو يصيبها بطعنة . وكان المحكوم عليهم يطعنون ، ويمزقون إرباً ويضربون حتى يقضوا نحبهم ، وكانت رؤوسهم تحترق وترفع على الخوازيق وتحمل في أرجاء المدينة وتلقى أجسادهم الممزقة جانباً . وهلك فيمن قتل الأميرة دى لامبال التي تركها الملك والملكة في قصر التويلرى . وحملت رأسها على رمح إلى المعبد لتراها الملكة .

وكان في زنزانة الملكة لئنان من الحرس الوطنى ، رغب أحدهما في أن يجعلها تنظر من النافذة لتبصر هذا المشهد الفظيع ، ولم يرغب زميله رحمة بها أن يسمح لها بفعل ذلك .

وفي نفس هذا الوقت الذى كانت هذه المأساة الدموية تجرى فيه في باريس ، كان الجنرال الفرنسى دومورييه يُهرع بأحد الجيوش مسرعاً من فلاندر إلى غابة الأرجون ، ويرد جيوش الحلفاء إلى ما وراء فردان . وحدثت عند قالمى في ٢٠ سبتمبر معركة انطوت في الغالب على تبادل لإطلاق المدافع . وأوقف تقدم بروسى لم يكن مصحوباً بالعزم ، وثبتت المشاة الفرنسية في مكانها ، مذ كانت مدفعيتهم خيراً من مدفعية الحلفاء : وظل دوق برنزويك بعد ذلك عشرة أيام وهو يقدم رجلاً ويؤخر أخرى ، ثم أخذ ينسحب إلى الراين . وكانت أعناب شامانيا الحامضة قد نشرت الدوسنتاريا في الجيش الروسى . ومعركة قالمى هذه —

ولم تكن لتعدو كثيراً تبادل إطلاق المدافع - إحدى معارك التاريخ الفاصلة .
وتم إنقاذ الثورة .

والتأم المؤتمر الوطني في ٢١ سبتمبر ١٧٩٢ ، وأعلن من فوره الجمهورية .
ولم تكد تلك الأحداث تنهى حتى تمت محاكمة الملك وإعدامه كنوع من الضرورة
المنطقية . مات الملك بوصفه رمزاً لا بوصفه رجلاً . إذ لم يجدوا أمامهم غير ذلك
شيئاً يفعلونه به ، يا له من مسكين ، فإنه كان يسد مسالك الأرض . ولم تكن فرنسا
لتستطيع أن تدعه يذهب ليشجع المهاجرين ، ولا هي بمستطاعة أن تمنعه من إحداث
الشر في بلادها ؛ فكان وجوده مصدر تهديد لها . وكان ماراً قد حض في غير هواة
على القيام بهذه المحاكمة ، على أنه - بنظرته النفاذة - لم يكن يريد تقديم الملك
إلى المحاكمة قبل أن يوقع الدستور ، لأنه يكون قبل ذلك ملكاً فعلياً ، ويكون فوق
القانون وبدا لا يمكن أن يكون غير شرعى . كذلك لم يكن ماراً ليقبل السماح بالطعن
في محامى الملك . . . والواقع أن ماراً قد لعب في الموضوع من أوله إلى آخره دوراً
مريراً غير أنه دور عادل في الغالب ؛ كان رجلاً عظيماً ، ذا ذكاء لطيف ممتاز ،
في إهاب من نار ؛ يعصف به ذلك البغض العضوى المستقر في الدم ، والذى
ليس من ثمار العقل بل الجسد .

وقطعت رأس لويس في يناير ١٧٩٣ . احتزت بالمقصلة لأن المقصلة (الجليوتين)
أصبحت منذ أغسطس السابق أداة الاعدام الرسمية في فرنسا . وكان دانتون فيما اتخذ
لنفسه من دور الأسد ممتازاً جداً في هذه المناسبة . فلقد زأر بأجهر صوت قائلاً :
« يريد ملوك أوروبا أن يتحدونا ، وها نحن أولاء نلقى إليهم رأس أحد الملوك » .

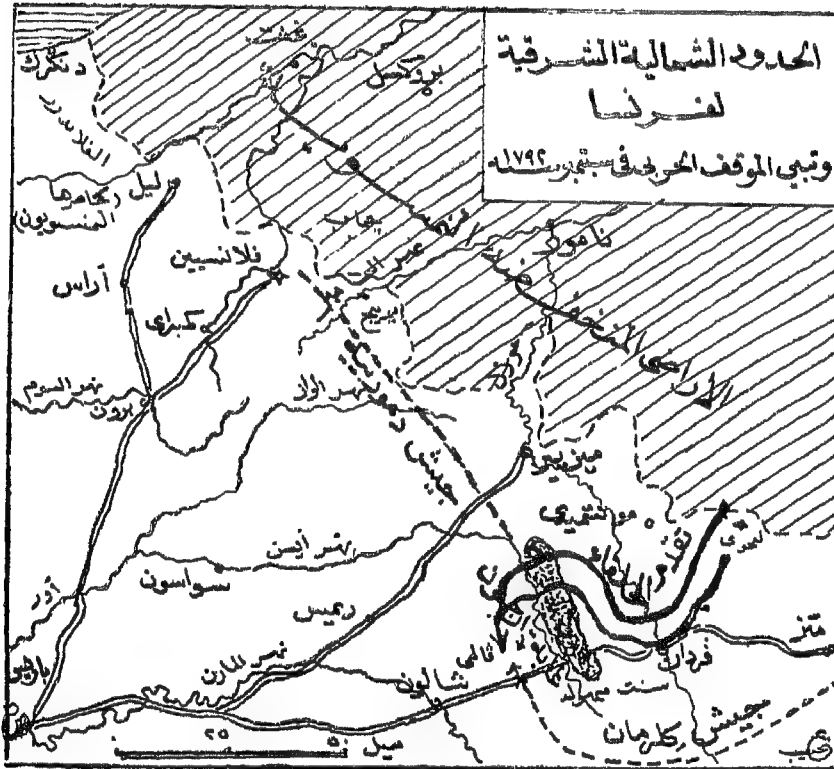
١١ - جمهورية اليعاقة ١٧٩٢ - ١٧٩٤

ثم جاء بعد ذلك دور غريب في تاريخ الشعب الفرنسى . فقد توقد وميض لهب
عظيم من التحمس لفرنسا والجمهورية . وانعقدت العزائم على وضع حد لروح
المسالمة داخل فرنسا وخارجها ، ففي الداخل أزمع القوم القضاء على الملكيين وكل
شكل من أشكال عدم الولاء ؛ وفي الخارج ، صمموا أن تكون فرنسا حامية كل

الثوريين ومعيتهم . ولا بد أن تصبح أوروبا كلها بل الدنيا كلها جمهورية في تكوينها .
وانثال شباب فرنسا إلى الجيوش الجمهورية انثيالاً . وانتسرت في كل أرجاء البلاد
أغنية جديدة مدهشة وهي أغنية لا تزال تعمل في إحماء الدم فعل الصهباء هي
« المارسيليز » . وتند حرجت إلى الوراء الجيوش الأجنبية تلقاء هذه الأنشودة وطوايز
الوثاين من حملة السونكي الفرنسيين ومدافعهم المنطلقة في حماسة . وقبل أن تأتي خاتمة
١٧٩٢ كانت الجيوش الفرنسية قد بلغت مدى تجاوز كل ما أحرزه الملك لويس
الرابع عشر ، وإذا هم يطأون في كل مكان أرضاً أجنبية . كانوا في بروكسل وكانوا
اجتاحوا سافويا ، وأغاروا حتى ماينس Mayence ، واستولوا من هولندة على
الشلد . وعند ذلك فعلت الحكومة الفرنسية فعلة خرقاء . إذ كان أسخطها طرد ممثلها
من إنجلترا عند إعدام لويس ، فأعلنت الحرب على إنجلترا . كانت فعلة خرقاء لأن
الثورة التي أعطت فرنسا مشاة جديدة متحمسة ومدفعية زاكية متحررة من ضباطها
الأرستقراطيين ومن كثير من التقاليد المعوقة ، قد أفسدت نظام بحريتها وكان للانجليز
السيادة في البحر . ووجد هذا الاستفزاز كلمه إنجلترا كلها ضد فرنسا ، بعد أن
كان هناك في بداية الأمر حركة متحررة كبيرة تعطف على الجمهورية .

ولسنا بمستطيعين أن ننبئك في أى تفصيل حديث القتال الذي قامت به فرنسا
في السنوات القليلة التالية ضد تحالف أوربي . فأزاحت النمساوين إلى الأبد من بلجيكا ،
وحولت هولندة إلى جمهورية . وسلم الأسطول الهولندي وقد تجمد حوله الماء في
نهر الشكسل ، لحفنة من الفرسان دون أن يطلق من مدافعه قذيفة واحدة . وتوقفت
هجمات الفرنسيين نحو إيطاليا ردحا من الزمان ، ولم يحدث إلا في عام ١٧٩٦ أن
جنرالاً جديداً هو نابليون بوناپرت ، إقتاد الجيوش الجمهورية المهلهلة الثياب مظفرة
عبر بيدمونت إلى مانتوا وفيرونا . ولا يستطيع كتاب معالم تاريخية أن يصور لك
الحملات بدقة ، غير أنه ملزم أن يلحظ الصفة الجديدة التي ظهرت في الحرب .
كانت الجيوش المحترفة القديمة تحارب لا غاية لها إلا القتال ذاته ، وتسعى في بطء
وتراخ ، كالأعمال الذين يشتغلون بالساعة ، وكانت هذه الجيوش المدهشة الجديدة
تحارب من أجل النصر — وإن كان جائعة ظمئة . وكان أعداؤهم يسمونهم « الفرنسيين

الجلد « . يقول س . ف . آتكسون^(١) : « كان أشد ما أدهش الحلفاء هو عدد هؤلاء الجمهوريين وسرعتهم . فالواقع أنه ما كان ليعوق هذه الجيوش المرتجلة أى عائق . فكان من المتعذر الحصول على الحيام بسبب انعدام المال . وكان فى غير الامكان نقلها بسبب العدد الهائل من العربات التى لا مفر عندئذ من الاحتياج إليها ، وكانت كذلك غير ضرورية لأن المتاعب التى طالما سببت تسلل الجند زرافات لوأذاً



(شكل ١٨٤)

من الجيوش المحرفة ، كان يتحملها رجال ١٧٩٣ - ١٧٩٤ مسرورين مغتربين . كما أن المدد لهذه الجيوش التى لم يسمع الناس حتى ذلك الحين بمثل حجمها لم يكن من المستطاع حمله فى قوافل ، وسرعان ما تعلم الفرنسيون « فكرة العيش على حساب البلاد » . وبذا شهدت ١٧٩٣ مولد طريقة الحرب العصرية : سرعة الحركة والتطور

(١) فى مقالته « الحروب الفرنسية الثورية » بالموسوعة البريطانية الطبعة النابية عشرة .

الكامل القوة الوطنية ، والمجود^(١) في العراق والاعتماد في الميرة على البلد المتهور وحشد القوات وإجبار الأهالي على تقديم ما يلزم للجيش ، وذلك كله مقابل المداورات الحذرة ، والجيش الصغيرة المحترفة ، والخيام والجرايات الكاملة والألاعيب الدنيئة . وكان الأولون يمثلون روح الجسم في الأمور ، ويمثل الآخرون روح الخطار بالقليل للحصول على القليل . »

وبينما كانت هذه الجيوش (العرمرم) المتحمسة في أسماها الباليه تنشد « المارسيليز » وتقاتل من أجل « فرنسا » ، دون أن يتضح لها تمام الوضع فيما يبدو ، هل كانت تنهب الأقطار التي انثالوا إليها أو تحررها ، — كانت الحاسة الجمهورية في باريس تبدو نفسها بطريقة أقل مجداً وكرامة بكثير . وكان مارا وهو الرجل الوحيد ذو الذكاء القاهرين اليعاقبة قد أصابه الجنون بسبب داءة العضال ، وسرعان ما قتل . وكان دانتون سلسلة من الصواعق الوطنية ؛ فلم يبق عندئذ غير روبسبير وتعصبه الراسخ الوطيد ، فتسيطر على الموقف . ومن العسير أن يفضى الإنسان في هذا الرجل برأى ، كان رجلاً ضعيف البنية خوفاً بطبعه مغروراً صلفاً . ولكن كان فيه ألزم مواهب القوة وهي الإيمان . كان يعتقد لا في رب يألفه الناس ، بل في كائن على بعينه ، وكان يرى روسونبيياً لذلك الكائن . فنصب نفسه لإنقاذ الجمهورية على الشاكلة التي يراها ، وكان يتوهم أنه ليس في استطاع أحد إلا إياه أن ينقذها . وبذا أصبح يعتقد أن بقاءه في دست الحكم لإنقاذ للجمهورية . وكان يشير إلى أن الروح الحية في الجمهورية قد نشأت عن مذبحه الملكيين وعن إعدام الملك . وحدثت ثورات كثيرة : سبت واحدة منها في الغرب في محافظة لافاندية ، حيث ثار الأهالي ضد التجنيد وضد طرد رجال الدين الأصليين من مملكتاتهم ، وكان يقودهم فيها بعض النبلاء والقسيسين ؛ وأخرى في الجنوب حيث ثارت ليون ومارسيليا وسمح ملكيو طولون لحماية إنجليزية وأسبانية بالنزول فيها . وكأنما ليس هناك أى جواب فعال على هذه الثورات إلا مواصلة قتل الملكيين . ولم يكن هناك شيء أحب من

(١) المجود : أى منب الجنود على الأرض دون حمام ولا لوازم مسكرات .
(المترجم)

هذا إلى قساوة أفئدة سكان أحياء باريس الوضيعة . واخذت محكمة الثورة تعمل
بجد ، وابتدأت عملية ذبح متواصلة .

وقد نفذ حكم الإعدام في مدة الثلاثة عشر شهراً السابقة على يونية ١٧٩٦ في
١٢٢٠ شخصاً ؛ ونفذ الإعدام في الأسابيع السبعة التالية في ١٣٧٦ شخصاً . وجاء
اختراع المقصلة في أنسب الأوقات لهذه الحالة التي ألت بمزاج الناس . وقضت
المقصلة على الملكة ، وكذلك قضت المقصلة على معظم خصوم روبسبير ، وقضت
المقصلة !! ... على الملحدن الذين أنكروا وجود أى كائن على أسمى ؛ وقضت المقصلة
على دانتون لأنه رأى أن قد بولع في استعمال المقصلة ! ! . . . وكانت هذه الآلة
الجديدة الجهنمية تحز يوما بعد يوم ، وأسبوعاً بعد أسبوع ، الرؤوس ثم المزيد من
الرؤوس ثم المزيد . وكان حكم روبسبير يعيش فيما يبدو على الدم ، ويتطلب منه
المزيد فالمزيد ، كما يتطلب مدمن الأفيون المزيد منه فالمزيد ! ! ؟ . . .

وكان دانتون ما يزال هو دانتون ، إذ كان غضنفرأ فوق المقصلة وكان موقفه
عليها مثالياً . قال « لا ضعف يا دانتون ! » .

وأعجب شيء وادعاه إلى الضحك أن روبسبير كان شريفاً شرفاً لا يتطرق إليه
الشك . بل لقد كان أشرف بكثير من أى فرد من جماعة الرجال الذين خلفوه وكان
يطيف به لإهام يث فيه رغبة حارة في إنشاء نظام جديد للحياة الإنسانية . وأخذت
لجنة الأمن العام وهي حكومة الإنثى عشر للطوارئ وهي التي كانت عند ذلك دفعت
بالمؤتمر جانباً ، تقوم بعمل إنشائي بالقدر الذى استطاع أن يستنبطه لها روبسبير .
وكان المعيار الذى حاولت أن تقيم عليه عملها البناء هائلاً ضخماً . فإن كل المسائل
المعقدة التي لابد لنا اليوم من الكفاح وإياها قوبلت بحلول سريعة سطحية ضحلة .
وبذلت محاولات للتسوية بين الناس في العقار . قال القديس چوست « الثراء شنة » .
فضربت الضرائب على أملاك الأغنياء أو صودرت لتقسيمها بين الفقراء . وكان لابد
من أن يحصل كل رجل على منزل آمن ومورد رزق وزوجة وأولاد . وكان العامل
جديراً بأجره ، ولكن ليس له الحق في الحصول على منفعة من المنافع . وجرت
محاولة لإلغاء الربح إلغاء تاماً ، وهو الحافز الحشن الفج لمعظم أعمال التجارة بين

الناس منذ ابتداء الجماعة الانسانية . والربح هو اللغز الاقتصادى الذى ما يزال يشكل علينا إلى اليوم . وصدرت قوانين عنيفة ضد الاستغلال بالسوق السوداء بفرنسا فى ١٧٩٣ . وجدير بالذكر أن إنجلترا وجدت نفسها فى ١٩١٩ مضطرة أن تصدر قوانين أشبه ما تكون بتلك . ولم يقتصر همُّ حكومة اليعاقبة فقط على مجرد إعادة تخطيط النظام الاقتصادى - فى معالم صريحة - بل تجاوزته إلى النظام الاجتماعى كذلك . فجعل الطلاق فى نفس سهولة الزواج ، وألغى التمييز بين الأطفال الشرعيين وغير الشرعيين . واستحدث تقويم جديد ، مع أتماء جديدة للشهور وأسابيع مكونة من عشرة أيام وما إلى ذلك - وقد أزيل كل ذلك منذ زمن بعيد ؛ وكذلك أخلت العملة السمجة والموازين والمقاييس المعقدة بفرنسا القديمة مكانها للطريقة العشرية البسيطة الواضحة التى لا تزال موجودة . . . وتقدمت بعض الفئات المتطرفة تقترح إلغاء « الله » فيما يلغى من النظم الأخرى تمام الإلغاء ، واستبدال عبادة العقل به . وأقيمت بالفعل حفلة للعقل بكاندراية نوتردام اتخذت فيها إحدى حسان الممثلات ربة للعقل . ولكن روبسبير وقف فى وجه هذه الحركة إذ أنه لم يكن ملحداً . قال « إنما الإلحاد نزعة أرستقراطية » فأما الفكرة القائلة بذلك الكائن العلى الذى يراقب البرئ المظلوم ويكلؤه ويعاقب المجرم الظافر ، إنما هى بالضرورة فكرة الشعب » . ولذا قضى بالمقصلة على هيبر Hebert ، الذى احتفل بعيد العقل . كما قضى على كل أفراد جماعته .

والم روبسبير مع تقدم صيف ١٧٩٤ شىء ملحوظ من الاضطراب الذهنى . كان مهتماً اعمق الاهتمام بديانته . (وكان اعتقال المشتبه فيهم وإعدامهم يجرى آنذاك على أتم نشاط . فكان « الارهاب » يجلجل فى شوارع باريس فى كل يوم بهرباته المليئة بالمحكوم عليهم) . وقد حمل روبسبير المؤتمر أن يصدر مرسوماً بأن فرنسا تؤمن بكائن على أسمى ، كما تؤمن بذلك المبدأ الباعث الطمأنينة فى النفوس : مبدأ خلود الروح . وفى يونية أقام عيداً عظيماً هو عيد كائنه الأسمى . وسار إلى الشان دى مارس موكب ترأسه وهو فى ثياب زاهية يحمل باقة عظيمة من الأزهار وسنابل القمح . وأحرقت فى مشهد وقور رهيب تماثيل من مادة قابلة للاحتراق تمثل الإلحاد والرذيلة ؛ ثم نهض فى مكانها بطريقة آلية ماهرة وبشئ قليل من

الصيرير ، تمثال للحكمة غير قابل للاحتراق . وألقيت الخطب - وألقى منها روبسبير أهمها - ولكن ظاهر أنه لم تجر أية عبادة

ومنذ ذلك الحين بدت على روبسبير بواذر الرغبة في التأمل بمعزل عن شئون العالم . فظل شهراً كاملاً بمنأى من المؤتمر . وحدث في أحد أيام شهر يولية أنه حضر وألقى خطبة عجيبة انذرت بشكل واضح بقرب حدوث محاکمات جديدة . قال : « إني وقد شخصت ببصرى متفكراً في مجموع تلك الرذائل التي قوضها سيل الثورة الجارف ، كنت في بعض الأحيان تأخذني رعدة الخوف من أن أتدنس من جيرة الشريرين النجسة . . . وإني لأعرف أن من السهل على عصابة الطغاة في العالم أن يتكاثروا على فرد بمفرده ، غير أني أعرف كذلك ما هو واجب الرجل الذي يقدر أن يموت دفاعاً عن الإنسانية » .

وهكذا استطرد حتى وصل إلى عبارات مهمة كان يبدو أنها تهدد كل إنسان . واستمع المؤتمر هذه الخطبة في صمت وسكوت ، ثم حدث عندما قدم اقتراح بطبعها وتوزيعها ، أن جأر بصياح الغضب وأبى السماح بذلك وخرج روبسبير في استياء مرير وذهب إلى نادى أنصاره ، وأعاد تلاوة خطبته عليهم ! وامتألت تلك اللبلة بالكلام والمقابلات والاستعداد للغد ؛ وفي اليوم التالي انقلب المؤتمر على روبسبير . وهدهد شخص اسمه تاليان بخنجره . ولما حاول أن يتكلم صاح به الأعضاء حتى أسكتوه ، ودق الرئيس الجرس في وجهه . وقال روبسبير « يا رئيس السفاحين إني أطلب الكلمة ! » وأبیت عليه الكلمة . وخانه صوته . فأخذ يسعل ويصخب وصاح بعضهم « إن دم دانتون يخنقه » . فوجهت إليه التهمة . واعتقل هناك للوقت ومعه أهم أعوانه شأناً .

وعند ذلك ثارت ضد المؤتمر نائرة دار البلدية وكانت لا تزال قوية النزعة البعقوية . وأخذ روبسبير ورفقاؤه عنوة من أيدي أسريهم . ومرت ليلة حدث فيها التجمع والزحف ثم الزحف المضاد ، وأخيراً التقت قرابة الساعة الثالثة قوات المؤتمر بقوات بلدية باريس خارج دار البلدية .

وكان هنريو ، قائد العقابة يرقد مخموراً في الطابق الأعلى إثر يوم قضاء منهمكاً في العمل ؛ وعقبت ذلك مفاوضات ، ثم انحازت جنود الكوميون بعد تردد قليل إلى صف الحكومة . وتصايح القوم في انفعال وطني وأطل أحدهم من نافذة بدار البلدية . ووجد روبسبير وآخر من بقي معه من إخوانه أن جنودهم انفضوا من حولهم وخانوهم وأوقعوهم في الفخ . وألقى إثنان أو ثلاثة من هؤلاء الرجال بأنفسهم من إحدى النوافذ ، وأحدثوا بأنفسهم إصابات مروعة على الأسوار الحديدية دون أن يقتلوا أنفسهم . وحاول آخرون الانتحار . والظاهر أن أحد الجنود أصاب روبسبير برصاصة في الفك الأسفل فقد وجدوه يحملق بعينين شاخصتين وسط وجه شاحب كان نصفه الأسفل من الدم .

وأعقب ذلك سبع عشرة ساعة قضاها في الألم المبرح قبل أن تحين نهايته . ولم ينس بكلمة طوال تلك المدة ، إذ كان فكاه مربوطاً ربطاً خشناً بقطعه قدرة من القماش ، واقتيد هو ورفاقه ، والأجسام المهشمة المحتضرة لأولئك الرجال الذين قفزوا من النوافذ — وكانوا في مجموعهم اثنين وعشرين رجلاً — إلى المصقلة بدل الذين قضى بإعدامهم في ذلك اليوم . وكانت عيناة مغمضتين معظم الوقت ، ويقول كارليل إنه فتحهما فرأى السكين العظيمة ترتفع من فوقه وأخذ يقاوم ويتملص . كذلك حدث فيما يظهر أنه صرخ عندما رفع الجلاد عنه ضمادته . ثم هوت السكين سريعة رحيمة . وانتهى عهد الارهاب . ومنذ البداية حتى النهاية كان عدد المحكوم عليهم والمعدومين أربعة آلاف إنسان .

١٢ — حكومة الإدارة

مما يشهد بالحياة الهائلة والخير العميم في طوفان المثل العليا والمقاصد الحديدية التي أطلقت الثورة الفرنسية أسرارها إلى عالم الجهود العملية ، أنها كانت لا تزال تستطيع أن تفيض بسيل خلاق بعد أن رأى الناس لها صورة ممسوخة وسخروا منها حين تمثلت في شخصية روبسبير وحياته العجيبتين المضحكتين . وروبسبير صاحب الفضل في الكشف عن أعماق أفكارها ، وهو الذي أبدى المتوقع من طرائقها وثمارها ،

خلال العدسات الغريبة المشوّهة التي صيغت منها كبرياؤه وأنانيته الخارجة عن كل معقول ؛ وهو الذي سود ولطخ بالدم والرعب كل آمالها وما ينتظر منها ؛ ومع ذلك فإن قوة هذه الأفكار لم تتدمر . إذ أنها تحملت الاختبارات القاسية التي ألتمت بها أثناء عرضها على تلك الصورة المضحكة البشعة . وظلت الجمهورية بعد سقوطه تحكم حرة لا يهاجمها مهاجم منيعة لا ينال منها أحد منالا . ولكن لم يكن لها من زعيم يقودها ، وذلك أن خلفاءه كانوا جماعات من رجال مكرة أو عاديين ، وواضلت الجمهورية الأوربية كفاحها مدة من الزمان ، ثم لم تلبث حتى سقطت ثم نهضت ثانية ، ثم سقطت ونهضت وما تزال تكافح ، وهي ترتطم بالعراقيل وتشبك في الأحابيل غير أنها منيعة لا تقهر .

ومن الخير أن نذكر القارئ في هذا المقام بالحجم الحقيقي لدور الإرهاب هذا ، الذي يروع الأخيلاء أيمّا ترويع ؛ والذي بولغ فيه بناءً على هذا مبالغة هائلة بالقياس إلى بقية الثورة . فنذ ١٧٨٩ إلى أخريات ١٧٩١ كانت الثورة الفرنسية عملية منتظمة ، ومنذ صيف ١٧٩٤ كانت الجمهورية دولة منتظمة مظفّرة . ولم يكن الإرهاب من عمل البلاد بأجمعها ، بل مما جنته أيدي رعايا المدينة الذين كانوا مدينيين بوجودهم ووحشيتهم إلى سوء الحكم والظلم الاجتماعي في الدولة البائدة ؛ وما كان انفجار حكم الإرهاب ليحدث لولا إصرار الملكيين على خيانتهم وعدم ولائهم ، لإصراراً أثار المتطرفين إلى درجة الجنون ، وحمل كتلة الجمهوريين المعتدلين على عدم التدخل . وكان خيرة الرجال مشغولين بقتال النمساويين والملكيين على الحدود . وينبغي لنا أن نتذكر أن مجموع من قتلوا في حكم الإرهاب وصل في غاية جملته إلى بضعة آلاف قليلة ، وكان بين هؤلاء الأعداد ولا ريب عدد كبير من خصوم الجمهورية العاملين ، الذين كان يحق لها أن تقتلهم قياساً على معايير ذلك الزمان . وكان من بينهم من الخونة وصناع الشر أمثال فيليب دوق أورليان ، صاحب قصر « الباليه رويال » الذي أعطى صوته مجبداً موت لويس السادس عشر .

ولقد ضاع من الأرواح على يد القواد الإنجليز وحدهم في يوم افتتاح ما يسمى بإسم هجوم السوم في يولية ١٩١٦ ، أكثر مما ضاع في الثورة الفرنسية كلها منذ بدايتها .

وإننا لنسمع كثيراً عن شهداء حكم الإرهاب لأنهم كانوا قوماً من ذوى المكانة والمصاهرة والقرباة الطيبة ، ولأنه أثر ضرب من الدعاية حول ما قاسوا من عذاب . ولكن علينا أن نوازن في أذهاننا بين ذلك وبين ما كان يجرى في سجون العالم عامة في ذلك الزمان . فعندما كانت مقاليد الحكم في فرنسا بيد الإرهاب ، كان يقتل في إنجلترا وأمريكا لجرائر ارتكبت ضد الممتلكات - وغالباً ما كانت جرائر تافهة جداً - عدد يفوق كثيراً عدد من حكمت عليهم محاكم الثورة في فرنسا بسبب الخيانة للدولة . وبديهي أنهم كانوا في الواقع أناساً عاديين جداً ، ولكنهم قاسوا آلاماً على طريقتهم الحشنة . فقد حدث مرة أن شنت فتاة في ماساشوستس ١٧٨٩ لأنها أخذت بالإكراه قبعة وحذاء ومشابك من فتاة أخرى لقيتها في الطريق . كذلك وجد هوارد محب الإنسانية (قرابة ١٧٧٣) عدداً من الأفراد الأبرياء محجوزين في السجون الإنجليزية بعد أن حوكموا وحكم ببراءتهم ولكنهم لم يستطيعوا أن يدفعوا أجرة السجن . وكانت تلك السجون أماكن قدرة لا تخضع لأية رقابة فعالة . وكان التعذيب لا يزال يستعمل في الممتلكات الهانوفرية لصاحب الجلالة البريطانية الملك جورج الثالث . وظل يستخدم في فرنسا حتى عهد الجمعية الوطنية . فالحق أن هذه الأمور كلها تشير إلى مستوى العصر عامة .

وليس فيما سجل ما يدل على أن أى امرئ قد عذبه عمداً رجال الثورة الفرنسية أثناء حكم الإرهاب . فإن هؤلاء المئات القلائل من السراة الفرنسيين قد تردوا في حفرة كان يطيب معظمهم نفساً بأن تحفر للآخرين . كان الأمر فاجعاً لاجرم ، ولكن لم يكن فيه فاجعة عظيمة إذا قيس بمعيار التاريخ العام . فإن الرجل العامى في فرنسا كان أوسع حرية وأوسع رزقاً ، وأشد سعادة إبان حكم « الإرهاب » مما كان في ١٧٨٧ .

وإذا استعرضنا قصة الجمهورية بعد صيف ١٧٩٤ وجدناها قصة معقدة لمجموعة من الطوائف السياسية التى اتخذت لنفسها برامج وأهدافاً لا حصر لها ، منها ما هو جمهورى راديكالى ومنها ما هو ملكى رجعى ، غير أنها كانت تظللها رغبة عامة في إقامة نظام ما محدد فعال وإن كلفها ذلك قدراً جسيماً من الإذعان والتساهل . وأحدث

اليعاقبة والملكيون سلسلة من الفن ، إذ يلوح أنه كان هناك في باريس ما عسانا أن نسميه اليوم باسم طبقة مشاغبي الشوارع ، وهى على أتم الإستعداد للخروج للقتال والنهب في صف أى من الطرفين . ومع هذا فإن المؤتمر أنتج حكومة ، هى حكومة الإدارة المكونة من خمسة أعضاء ، والتي حافظت لفرنسا على تماسكها أمد خمس سنوات . وقضى على آخر فتنة وأشدّها خطراً في أكتوبر ١٧٩٥ ، بمهارة فائقة وحزم نافذ عن يد جنرال شاب ناهض هو نابليون بونابرت .

كانت الإدارة مظفرة في الخارج ، غير انها كانت حاملة غير خلاقة في الداخل ، إذ كان أعضاؤها أحرص على الاستمسك بحلاوة الوظيفة وأجسادها ، من أن يعدوا دستوراً يخليهم من العمل ويحل غيرهم محلهم ، وكانوا أخون من أن يسلموا لغيرهم مقاليد عملية إعادة الإنشاء الاقتصادية والمالية التى تتطلبها حالة فرنسا . ولسنا بحاجة أن نذكر إلا لاسمى رجلين منهم — أحدهما كارنوه (Carnot) الذى كان جمهورياً شريفاً ، وباراً (Barras) الذى كان لصاً بشكل ملحوظ . وقد كون حكمهم هذا الممتد خمس سنوات قصة عجيبة مثلت بين فصول هذا التاريخ الحافل بالتغيرات العظيمة . فإنهم تناولوا الأمور كما وجدوها . ولعبت حماسة الدعاة للثورة دوراً عظيماً في حمل الجيوش الفرنسية إلى هولندا وبلجيكا ، وسويسرا وجنوب ألمانيا ، وشمال إيطاليا . كان الملوك يطردون في كل مكان وتقام في أماكنهم الجمهوريات .

ولكن حماسة تلك الدعاية التى أثارها حكومة الإدارة لم تحل دون انتهاب كنوز الشعوب المحررة بغية تخفيف ما تلقاه الحكومة الفرنسية من الإضطراب والعسر المالى . وأخذت حروبهم تنحدر رويداً رويداً عن صفحتها كحرب حرية مقدسة ، وتقرب أكثر فأكثر من حروب الحكم البائد العدوانية . وكانت السياسة الخارجية آخر ما كانت فرنسا ترغب في التجرد منه من مظاهر الملكية العظمى . ولنا لنستطيع أن نتبين أن تلك السياسة ظلت على نفس قوتها الأولى أثناء حكم حكومة الإدارة كأنما لم يحدث هناك أية ثورة .

١٣ - توقف التعمير وفجر الاشتراكية العصرية

لقد اقتربت الآن ساعة انحسار هذا الفيض الدافق من الثورة في العالم ؛ ذلك الفيض الذى خلق جمهورية أمريكا العظيمة وهدد بأن يغمر بطوفانه كل الملكيات الأوربية . وكأن شيئاً قد اندفع إلى أعلى من دون سطح الشئون الإنسانية ؛ وبذل جهداً جباراً ، ثم ما لبث أن تلاشى بددا إلى حين . وجرف أمامه كثيراً من الأشياء المهجورة والضارة ، ولكن بقيت من بعده أمور كثيرة ضارة غير عادلة . نعم إنه حل مسائل كثيرة ، ولكنه ترك الرغبة في الزمالة والنظام تواجه مسائل أكثر ضخامة لم يبد عليه أنه تجاوز حد هتك الستر عنها . وذهبت أشكال معينة من الامتيازات ، كما ذهب الكثير من ألوان الاستبداد والاضطهاد الدينى . وعندما اختفت أشياء الحكم البائد هذه ، بدت كأنما لم تكن لها أبداً أية أهمية ، وكل ما كان يهم فعلاً هو أن الرجال العاديين بالرغم من تمتعهم بالأصوات الانتخابية وحق الاقتراع ، وبالرغم من كل دفعات نفوسهم وجهودهم ، كانوا ما يزالون لا هم بالأحرار ولا هم بالمستمتعين بقسط متعادل من السعادة ، وأن الوعد الهائل الموعود والأمل في نفیو أكناف عالم جديد وهما الأمران اللذان جاءت الثورة بهما ، ظلا وهماً لا ظل لهما من الحقيقة .

ومع هذا فإن موجة الثورة هذه قد حققت تقريباً كل شيء فكر فيه الناس تفكيراً واضحاً قبل مجيئها . ولم تكن تفشل الآن بسبب امتناع الدافع ، بل بسبب إمتناع الأفكار المدروسة المصقولة . فقد جرفت إلى الأبد كثير من الأشياء التى طالما أوقعت الظلم بالإنسانية . والآن وقد جرفت وانتهى أمرها ، بات واضحاً لكل ذى عينين ، كم كان الرجال غير متأهين لتلقى النهزات الخلاقة التى أتاحها لهم هذه الإزالة . وما فترات الثورة إلا فترات عمل ، وفيها يحصد الرجال ثمار الأفكار التى نمت أثناء أدوار فترات الهدوء بين الثورات . إنها لتترك الحقول نظيفة مستعدة لموسم جديد من مواسم النماء ، ولكنها لا تستطيع أن تنتج على الفجاءة أفكار جديدة منضجة لتقابل بها لغزاً غير متوقع .

وكان طرد الملك والنبيل ، والقسيس وقاضى محكمة التفتيش ، وصاحب الأراضي

وجاني الضرائب وملاحظ الأشغال ، قد غادر كتلة الناس يواجهون لأول مرة بعض نواحي معينة جوهرية جداً للتركيب الاجتماعى ، وهى العلاقات التى سلموا بها من قبل ولم يدركوا البتة ضرورة التفكير الشديد وإطالة النظر فيها . وظهر أن النظم التى كانت تبدو قطعة من طبيعة الأشياء ، والأمور التى كان يبدو أنها تحدث نتيجة لذلك النوع من الضرورة التى تطلع الفجر وتأق بالربيع - ظهر أنها كانت أموراً إصطناعية يمكن ضبطها والتحكم فيها ، لولا ما هى عليه من التعقيد المربك ، كما يظهر أنها الآن وقد ألغت الروتينات القديمة وتحلص الناس منها ، - أصبحت فى أمس الحاجة إلى يد تضبطها وتبني عليها . ووجد النظام الحديد نفسه تلقاء ألغاز ثلاثة ، كان غير مستعد مطلقاً لحلها : وهى الملكية والعملية والعلاقات الدولية .

وستتناول هذه المسائل الثلاثة بالترتيب ، ونسأل عن ما هيتها وكيف نشأت فى الشئون الإنسانية ؟ فإن كل حياة انسانية تتصل بها اتصالاً عميقاً ، كما أن حلها يمسها مساً مباشراً . والحق إن البقية الباقية من هذا التاريخ ستصبح من الآن بشكل واضح يزايد وضوحاً كل يوم ، تطوراً للمجهودات المبذولة لحل هذه المسائل ، أو بمعنى آخر أن هذا « التاريخ » سيصبح من الآن جهداً غايته « تفسير الملكية ، وتأسيس العملة ، وإدارة دولاب العلاقات الدولية » ، - على شاكلة تجعل فى الامكان إنشاء « مجتمع من الإرادة على أن يكون سعيداً وتقدماً ، يعم العالم أجمع . فهن الألغاز الثلاثة التى يرمز لها صمت « أبى هول » القدر ، والتى يجب على الدولة الانسانية أن تجد لها جواباً وإلا كان مآلها الهلاك .

وتنشأ فكرة الملكية من غرائز المقاتلة فى النوع البشرى . فقبل أن كان الانسان إنساناً بزمان مديد كان الفرد الجحد مالكا . والملكية البدائية هى ما يقاتل الوحش من أجله . فالكلب والعظمة ، والبرة ووجارها ، والغزال الهادر وسربه ، كل هذه ملكيات يتوهج أوارها . وليس ثمة تعبير أسخف فى علم الاجتماع من عبارة « الشيوعية البدائية » . فإن الرجل المسن فى قبيلة العائلة فى الأزمان المبكرة من العصر الحجري القديم (الباليوليثى) كان يصر على ملكيته فى زوجاته وبناته وأدواته ولعالمه المرئى المحيط به . فلو دخل أى رجل إلى عالمه المرئى المحيط به لقاتله ، ولذبحه

إن استطاع . ونمت القبيلة على مر العصور ، كما بين ذلك أتكسون تبياناً مقنعاً في كتابه « القانون البدائي »^(١) . وكان نموها نتيجة للتسامح التدريجي الذي أبداه الرجل المسن نحو وجود الشبان الأصغر منه سناً ، ونحو ملكيتهم للزوجات اللاتي يؤسرن من خارج القبيلة ، والآلات والحلى التي كانوا يصنعونها والصيد الذي كانوا يقتلون . ونمت الجماعة الانسانية بفضل التوفيق بين ملكية هذا الفرد وملكية ذاك . كان ذلك التوفيق في أكبر شأنه توفيقاً وتحالفاً اضطر الرجال إليه اضطراراً بسبب ضرورة دفع قبيلة أخرى إلى خارج عالمهم المرئى المحيط بهم . فلئن لم تكن التلال والغابات والأنهار أرضك أو أرضي ، فذلك لأنه كان لازماً أن تكون أرضنا . وإن كلاً منا ليوثر لو أنها كانت « أرضه هو » ، ولكن هذا لا يمكن العمل به . ففي تلك الحالة يقوم الرجال الآخرون بتدميرنا . فكأن الجماعة الإنسانية إذن ، إنما هي منذ بدايتها تخفيف لغلواء الملكية . والملكية في الوحش الضاري وفي المتوحش البدائي كانت أشد حدة منها في العالم الممدن اليوم . فهي في غرائزنا أقوى مغرساً منها في عقولنا

وليس هناك اليوم تحديد لنطاق الملكية عند المتوحش الفطري ولا الرجل غير المتعلم . ومن الخير لنا أن نتذكر دوماً أنه ما من إنسان يزيد بعده اليوم على أربعمئة جيل من جده المتوحش البدائي وكل ما تستطيع أن تقا تل من أجله إنما هو شيء أنت قادر على امتلاكه : — من النساء ومن تبقى عليهم من الأسرى ومن الضواري المصيدة . ومن مسالك الغابة ومن مأخذ الحجر إلى غير ذلك . ومع نمو المجتمع ، وتولّى ضرب بدائي من القانون الحد من القتال الفتاك ، طور الناس طرائق خشنة وسريعة لإقامة الملكية . فصار الرجل يقدر أن يملك ما كان أول من صنعه أو وضع يده عليه أو ادعاه . وكان يبدو طبيعياً أن كل مدين لا يستطيع تسديد دينه لا بد أن يغدو ملكاً لدائنه . ويعادل هذا في جريانه على الطبيعة أن الرجل بعد ادعائه امتلاك رقعة من الأرض ، لا بد له من تحميم دفعات مالية على كل رجل آخر يريد استعمالها . ولم يحدث إلا مع البطء الشديد ، ومع بزوغ فجر احتمالات الحياة المنظمة وظهور بوادرها على الناس ، أن ابتدأ الناس يرون في هذه الملكية غير المحدودة لأي شيء كان —

مصدر إزعاج ومضايقة لهم . وألقى الرجال أنفسهم يولدون إلى عالم مملوك كله ومدعى ملكيته كله - لا بل وجدوا أنفسهم مملوكين أو مدعى ملكيتهم . ومن العسير الآن علينا أن نقف أثر الكفاحات الاجتماعية في المذنيات الأشد قديماً ، غير أن التاريخ الذي حدثناك به عن الجمهورية الرومانية يكشف لك مجتمعاً يستيقظ على فكرة أنه ربما غدا الدين مضايقة عامة ، ولا بد عند ذلك من إنكاره والامتناع عن أدائه ، وأن الملكية غير المحدودة للأرض إنما هي كذلك مضايقة من المضايقات . وإنا لنجد أن مملكة بابل (بابلونيا) عمدت في عهدها المتأخر إلى تحديد حقوق الفرد في امتلاك الأرقاء تحديداً شديداً . وأخيراً نجد في رسالة ذلك الثورى العظيم ، يسوع الناصرى ، هجومياً وطعنياً في الملكية لم يوجد مثله قبل ذلك أبداً . قال « أيسر أن يمر الحمل من ثقب الإبرة من أن يدخل غنى (مالك العقارات العظيمة) ملكوت السموات » .

ويلوح أن العالم ظل طوال الخمسة والعشرين أو الثلاثين قرناً الأخيرة يوجه سهام النقد بلا انقطاع للمقدار الذى يمكن السماح به من الملكية . وها نحن بعد انقضاء تسع عشرة مئة من السنين على يسوع الناصرى ، نجد كل العالم المستظل بالتعاليم المسيحية مقتنعاً بأن الملكية فى الأشخاص أمر لا يمكن أن يكون ، إذ حدث من ناحية هذا الأمر انقلاب فى الضمير العام . وكذلك الفكرة القائلة « بأن الرجل يستطيع أن يفعل ما يشاء فيما يملك » قد هُزّت هزاً واضحاً كبيراً وضعفت ضعفاً ملموساً بالعلاقة إلى أنواع أخرى من الملكية . على أن هذا العالم الذى نشهده فى نهاية القرن الثامن عشر ، لم يبلغ بعد فى هذه المسألة إلا مرحلة الشك والإستفسار . ذلك أنه لم يكن لديه شيء واضح وضوحاً كافياً يستطيع أن يتخذه أساساً لعمل عليه ، فضلاً عن شيء مستقر استقراراً كافياً . وكان من أوائل دوافعه حفظ الممتلكات من أن يعبث بها جشع الملوك وتبذيرهم وحمايتهم من استغلال النبلاء المغامرين . وقد شبت الثورة من أجل الحفاظ على الملكية الخاصة . ولكن مبادئ المساواة التى اتخذت ، دفعت بها فى غمرات النقد والتجريح للملكية التى نهضت لحمايتها . إذ كيف يستطيع الرجال أن يكونوا أحراراً متساوين بينما العدد الجم منهم ليس لديهم أرض يعيشون

عليها ولا شيء يطعمونه ، كما أن الملاك لا يرضون بإطعامهم ولا بإيوائهم ما لم يكلدحوا كدحاً شديداً مسرفاً - تلك هي شكوى الفقراء .

وكان رد البعاقبة على ذلك اللغز أن أكبوا على « التقسيم » . فإنهم أرادوا أن يشدوا أزر الملكية ويعمموها . وكان هناك من قبل في القرن الثامن عشر قوم يرمون إلى نفس الغاية وإن كان ذلك بطريق آخر ، هم جماعة بدائية بعينها من الاشتراكيين - أو بمعنى أدق من الشيوعيين - كانوا يريدون أن يلغوا الملكية الخاصة إلغاء تاماً . وكان على الدولة في رأيهم أن تملك كل الممتلكات . ولم يشرع الناس إلا بعد مضي فترة كبيرة من القرن التاسع عشر ، يدركون أن الممتلكات ليست شيئاً واحداً بسيطاً . بل هي مركب عظيم من الملكيات ذوات القيم والأهميات والدرجات المختلفة . وأن كثيراً من الأشياء (من أمثال بدن الإنسان وأدوات الفنان والثياب وفرش الأسنان) إنما هي ممتلكات شخصية بصورة عميقة جداً ولا علاج لها أبداً . وأن هناك نطاقاً عظيماً من الأشياء أمثال المسكك الحديدية والآلات ذوات الأنواع المختلفة والمنازل والحدائق المزروعة وزوارق المتعة وكل منها بحاجة أن يلقى منا تاملًا خاصاً جداً لنقدر إلى أي درجة وتحت أي حدود يمكن وضعها تحت اسم الملكية الخاصة ، وإلى أي مدى تقع في نطاق الملكية العامة ويمكن أن نديرها وتوثرها الدولة خدمة للمصلحة الجماعية . ونحن نمتاز اليوم على الجيل الثوري الأول بلذخر كبير من الأبحاث التي دارت في مدى السنوات المئة والثلاثين الأخيرة ، ولكن حتى هذا « الأدب » المسطر في الملكية والنقد الموجه إليها لا يزال إلى اليوم اختصاراً هائلاً حامى الوطيس أكثر منه علماً مقررأ . وكان من المستحيل والحالة هذه أن تستطيع فرنسا القرن الثامن عشر أن تنتج أي مشهد آخر عدا تلك الحركات الشعبية الغامضة المرتبكة الراغبة في حرمان الملاك من أملاكهم ، وعدا مشهد طبقات من الملاك الصغار والكبار الذين يستمسكون بما لديهم استمساك الغاضب المنجهم مطالبين قبل كل شيء بضمأن الملكية .

وبما يتصل أوثق اتصال بغموض فكرة الملكية في أذهان الناس نغموض أفكارهم عن « العملة » . فإن كلا من الجمهوريتين الأمريكية والفرنسية أصيبت من جراء هذا

الأمر بمتاعب خطيرة . وإنا لنعالج هنا أيضاً أمراً ليس بالهين اليسير ، بل هو عمرة من العرف المتبع والأوضاع التقليدية والقوانين والعادات العقلية الفاشية ، التي تنشأ عنها مسائل تسمح بأى حل يقوم على أسس بسيطة ، والتي هي مع ذلك صاحبة أهمية حيوية فى حياة المجتمع اليومية . وصحة الاعتراف الذى يتناوله الرجل مقابل اشتغاله يومياً ، ذات أهمية أولية تماماً ، كما هو بين ، فى عمل الجهاز الاجتماعى . وهناك نوعان من النمو تما بالتدريج على كثر التاريخ الإنسانى ، هما نمو الثقة فى المعادن النفيسة ونمو العملة نمواً اقتنع به الناس عملياً أن العملة الجيدة يمكن الاطمئنان إلى امتلاكها قوتها الشرائية فى أى مكان .

ولما كان استقرار ذلك الاطمئنان متوسطاً ، فإنه تعرض لتأزمات وارتباكات جسيمة جداً ، نتجت عما كانت تعتمد إليه الحكومات من خفض العملة ومن استبدال النقود المعدنية الفعلية بالوعود الورقية بالدفع . فما كادت تحدث زلزلات سياسية واجتماعية خطيرة ، حتى أخذ نظام النقود يعمل بصورة متأزمة غير مضبوطة .

وقد ابتدأت كل من الولايات المتحدة والجمهورية الفرنسية حياتها فى دور عسر مالى . وكانت كل من الحكومتين تقترض النقود وتصدر وعوداً ورقية بدفع الفوائد ، وهى فوائد تفوق ما كانتا تستطيعان جبايته فى غير مشقة . وأفضت كل من الثورتين إلى الشئ الكثير من الإنفاق والإقتراض العام المستبشس ، وأدت فى نفس الوقت إلى انقطاع فى عملية الزراعة والإنتاج زاد فى إنقاص الثروة الحقيقية التى يستطيع فرض الضرائب عليها . وإذ أن كلا من الحكومتين لم تستطع أن تواصل الدفع بالذهب ، فقد لجأت إلى إصدار العملة الورقية (البنكنوت) ، التى تعد فيها بأن تدفع بضمان الأراضى غير المتطورة (فى أمريكا) أو أراضى الكنيسة المصادرة حديثاً (فرنسا) . وتجاوز القدر الصادر فى كل من الحالتين حد ثقة الناس فى الضمان الجليد تجاوزاً بعيداً . وهرب الذهب من الأسواق حيث أخفاه مكره الناس ، أو أرسل إلى الخارج تسديداً لأثمان البضائع المستوردة ، ووجد الناس أنفسهم يحملون أنواعاً مختلفة من الصكوك وورق البنكنوت بدل العملة وكلها ذات قيمة متناقصة غير شقة .

ومهما يكن شأن أصول العملة من التعقيد ، فإن آثارها العملية والغاية التي لا بد لها من خدمتها في المجتمع يمكن أن تذكر هنا بطريقة إجمالية . فإن النقود التي يتلقاها الرجل عن عمله (عقلياً كان أم جسيماً) ، أو عن التخلي عن ملكيته مقابل منفعة إستهلاكية لا بد أن تستطيع في النهاية أن تشتري له ولاستعماله قدرأ يعادل ذلك بالتقريب من السلع المستهلكة . (ولفظة « السلع المستهلكة » عبارة نخب أن تفهم على أوسع معانيها بحيث تمثل حتى إحدى الرحلات ، أو الاستماع إلى محاضرة أو حضور إحدى المسرحيات أو السكن أو الاستشارة الطبية وما إليها من الأشياء) . فإذا ضمن كل فرد من المجتمع توفر هذه الأشياء له ، وضمن أن النقود لن تنحط قوتها الشرائية — فإن العملة وتوزيع البضائع بالتجارة تكون عندئذ في حالة سليمة مرضية . فعند ذلك ، وعند ذلك فقط ، يشغل الرجال مسرورين راضين .

والحاجة الحتمية إلى ذلك الاستقرار وذلك الضمان في العملة ، إنما تقوم بناءً على هذا في الحقائق الثابتة (Datum) التي منها يجب أن تبدأ الدراسة العملية للعملة والرقابة عليها . ولكن لا بد دائماً من وجود التقلبات في قيمة العملة ولو في ظلال أثبت الأحوال وأرضها . فإن صافي جملة السلع القابلة للشراء والاستهلاك في العالم وفي أقطار متنوعة ، تختلف من سنة إلى أخرى ومن فصل إلى فصل ؛ ولعل الخريف زمن خيرات ووفرة بالموازنة إلى الربيع ؛ فإذا حدثت زيادة في السلع التي يمكن الحصول عليها في العالم تزداد القوة الشرائية للعملة ، ما لم يرافق ذلك زيادة في مقدار العملة ، فإن كان هناك من الناحية الأخرى نقص في إنتاج السلع الاستهلاكية أو تدمير عظيم غير مربح في السلع الاستهلاكية ، شأن ما يحدث في الحروب ، نقص نصيب جملة السلع الاستهلاكية مثلاً في مبلغ من المال ، ثم تعلو لاحالة الأسعار والأجور . فربما حدث في الحروب العصرية أن انفجار قنبلة كبيرة واحدة ، وإن لم تصب شيئاً ، يستهلك من العمل والمواد ما يعادل لدى أحد الرجال بالتقريب أجرة منزل ريفي ظريف أو نفقة عطله سنوية . فإن أصابت القنبلة شيئاً ما ، وجبت إضافة ذلك التدمير الآخر إلى النقص في السع الاستهلاكية . ولقد كانت كل قنبلة تنفجر في الحرب العظمى

تنقص جزءاً يسيراً من القوة الشرائية لكل عملة في العالم بأجمعه . فإن كان هناك أيضاً زيادة في العملة أثناء فترة تستنفد فيها السلع الاستهلاكية ولا تستبدل تمام الاستبدال بغيرها - وضرورات الحكومة الثورية والعاملة على الحرب تكاد تتطلب ذلك على الدوام - تكون الزيادة عند ذلك في الأسعار والهبوط في قيمة العملة المدفوعة أجوراً ، أكبر وأكبر .

وقد جرت العادة كذلك بأن الحكومات تضطر مدفوعة بتلك الشدائد إلى اقراض المال ، أعني أنها تصدر أوراقاً تحمل الفائدة بضمن رغبة المجتمع العام ومقدرته على تحمل الضرائب .

وتكون مثل هذه العمليات على درجة كبيرة من الصعوبة إن كان من يقوم بها رجلاً على تمام الشرف يقومون بها في صراحة ، تحت كامل ضياء العلانية والمعرفة العلمية . ولكن هذا الأمر لم يحدث البتة حتى يومنا هذا ؛ ففي كل آن ومكان تجد الأثاني البارع أى الصنف الشرير من الرجل الغنى ، يحاول أن ينحرف بالأمور قليلاً نحو مصلحته الخاصة . كذلك يحد الإنسان في كل مكان الأثاني الغنى ، على أهبة الاستعداد للتشرب بالخوف والتخاذل ذعراً . ومن ثم تنكشف لنا الدولة على الفور وقد فدحتها وفرة في العملة ، التي هي في واقع الأمر بمثابة دين لا يدفع الفوائد ، كما يهبطها كذلك عبء فوائد القروض . ويبدأ كل من « الائتمان Credit » والعملة في التمايح والتقلب الشديد مع تبخر (تناقص) الثقة العامة . وقد نستطيع أن نقول عنهما عندئذ إنهما في حالة انحلال معنوى خلقى .

والعاقبة النهائية لعملة أصيبت بتمام الانحلال المعنوى هي إيقاف كل عمل وكل تجارة لا يستطيع مواصلتها بالدفع عيناً أو مقايضة . فإن الرجال يرفضون عند ذلك أن يفعلوا ، اللهم إلا مقابل الطعام والثياب والمسكن والدفع عيناً . والنتيجة المباشرة لعملة منحلة انحلالاً معنوياً جزئياً هي رفع الأسعار وجعل التجارة أمراً مخيفاً مخطرأ ، وملء نفوس العمال بالريب والشكوك والتهيو للهياج . ففي مثل هذه الظروف يميل الرجل الذكى إلى إبقاء النقود في حوزته إلى أقصر أمد ممكن ؛ فهو يطلب أقصى ما يستطيع في مقابل حقيقته التي بين يديه ، ويشترى مرة ثانية

حقيقة أخرى بأسرع مستطاعه لكى يبعد ما بينه وبين تلك المادة القابلة للهلاك ، وأعنى بها العملة الورقية . ويكابد كل أرباب الدخل الثابت والرصيد المتآخر ويقاسون من غلاء الأسعار ، ويجد الأجراء ولهب غضبهم يزداد فى كل آن وأورا ، أن القيمة الحقيقية لأجورهم فى تناقص مطرد .

ومن الواضح أن تلك حالة يحتم فيها الواجب على كل شخص ذكى أن يبذل العون ويقوم بجهد فى سبيل إعادة الأمور إلى نصابها وبث الطمأنينة فى نفوس الناس . على أن كل تقاليد المسعى الخاص ، وكل أفكار الجزء الأخير من القرن الثامن عشر ، اتجهت إلى تبرير أعمال ذوى الذكاء الشديد والمهرة من الناس الذين نصبوا أنفسهم لتجميع الإبداعات ، والألقاب والأملك المحسوسة فى ظلال العواصف والزلازل والتقلبات التى تحدث أثناء انهيار هذه العملة . ومن عجب أن الرجال المدركين للحقائق فى العالم والذين كانوا ينصبون أنفسهم فى إخلاص وبساطة لإعادة ما للعملة والائتمان من أحوال شريفة يمكن التعامل فى ظلها ، كانوا رجالا قليلي العدد ، عديمي الأثر . فإن معظم رجال المال والمضاربات فى ذلك الزمان كانوا يلعبون دور رجال كورنوال^(١) دون وعى منهم إلى ما فى ذلك من قلة الشرف ، بل يفعلونه فيما يبدو بأتم أنواع الاستحسان الدائق وأكمل مظاهر رضى زملائهم . لقد كان هدف كل شخص ذكى ماهر أن يجمع أكثر ما يستطيع من الثروة القابلة للتداول ، وعند ذلك ، وعند ذلك فقط ، يعمد إلى تدبير وسيلة تؤدي إلى التوطيد السياسى ، وتغادر له ملكية ما جمع أعود ما تكون عليه نفعاً . فهذه هى عوامل جو اقتصادى ردىء ملء بالشكوك والعصبية المحمومة والجشع والمضاربات . . .

فأما الاتجاه الثالث الذى اتجهته الثورة دون أن تستعد له بفكرات نيرة واضحة ، وهو مسألة العلاقات الدولية ، فقد قدر عليها فيه تطورات تفاعلت أسوأ التفاعل وأجلبه للكوارث مع هذه الحالة ، حالة المغامرة المالية والاقتصادية

(١) يشير الكاتب هنا إلى ما كان يفعله سكان كورنوال بفرب إنجلترا ؛ إذ يستدرجون السفن ويخدعونها بالأنوار لتتدمر على شاطئهم فينبوها . (المترجم)

وهذا التخاطف والارتباك وانشغال بالهم بما أصاب ملكيتهم الخاصة ومركزهم النقدي في بلادهم ، من انزلاق محير للعقول . فقد وجدت الجمهورية نفسها يوم ميلادها مشتبكة في حرب . وقد ظل المجندون الجدد ردها من الزمن يخوضون نحر هذه الحرب بوطنية وحاسة لم ير العالم لهما في تاريخه نظيراً . ولكن لم يكن في الإمكان أن يستمر هذا الحال إلى الأبد . ووجدت حكومة الإدارة نفسها على رأس بلاد فائحة ، ولكنها كانت من الناحية الداخلية في عسر مالى واضطراب لا يطاقان ، ووجدت نفسها تحتل أراضى أجنبية غنية مليئة بثروة يمكن الاستيلاء عليها ، عامرة بالفرص المادية والمالية . ويحمل كل منا في طياته طبيعة مزدوجة . ويلوح أن الفرنسيين بوجه خاص قد تطوروا بشكل منطقي متناسق (سيمترى) في حمل كلتا الطبعتين . فقد جاءت فرنسا إلى هذه الأقاليم المغرورة مُحَرَّرًا ومعلماً وكانت أستاذة الإنسانية في الروح الجمهورية . ومن ثم أصبحت هولندية وبلجيكا تسميان الجمهورية الباتافية ، وأصبحت جنوا وملحقها الرثييرا الجمهورية الليجورية ، وغدا شمال إيطاليا الجمهورية السيزألبينية ، وغير اسم سويسرا إلى الجمهورية الهلفاتية (Halvatian Republic) ، وسميت روما وميلوز (Mulhausen) ونابولي جمهوريات . فإذا تجمعت هذه الجمهوريات حول فرنسا فإنها كانت على أن تكون مجموعة من كواكب الحرية اللوامع تقود العالم وتهديه . تلك هى الناحية المثالية في الموضوع . وفي نفس الوقت تقدمت الحكومة الفرنسية ، والأفراد الفرنسيون مجتمعين مع الحكومة للقيام باستغلال كامل استنفادى لموارد تلك البلاد المحرة .

وبذا تبدأ فرنسا الجديدة في مدى عشر سنوات من اجتماع مجلس الطبقات أن تتخذ لها شهاً عجباً بفرنسا القديمة . بل هى أشد عفواناً وأنشط قوة ؛ وهى ترتدى فوق رأسها قلنصوة الحرية في مكان التاج ؛ ولديها جيش جديد غير أن لديها أسطولا عظماً ؛ وإن فيها لأناساً أغنياء جدداً مكان الأغنياء القدماء ، وفيها فلاحون جدد يكادون يكسحون أكثر من سابقهم ويدفعون ضرائب أفدح ؛ وفيها سياسة خارجية جديدة عجيبة الشبه بالسياسة الخارجية القديمة الملقاة ؛ ولم يظهر فيها العهد الذهبى عهد المسيح المنتظر .

الفصل السادس والثلاثون

سيرة نابليون بوناپرت

- ١ - أسرة بوناپرت في كورسيكا .
- ٢ - بوناپرت قائداً جمهورياً .
- ٣ - نابليون قنصلاً أول ١٧٩٩ - ١٨٠٤ .
- ٤ - نابليون الأول إمبراطوراً من ١٨٠٤ - ١٨١٤ .
- ٥ - المئة يوم .
- ٦ - خريطة أوروبا في ١٨١٥ .
- ٧ - طراز الإمبراطورية .

١ - أسرة بوناپرت في كورسيكا

ها نحن أولاء نصل الآن إلى شخصية من أشد شخصيات التاريخ إشراقاً وسطوعاً ، هي شخصية مغامر مُحطَّم ، يبدو أن قصته تظهر في نصاعة خارقة للعادة النضال العام الخفى الدقيق بين الأنانية والكبرياء والشخصية ، وبين مرعيات المصلحة المشتركة الأشد ضعفاً والأكثر اتساعاً . وإنك لتلاحظ قبالة هذه الخلفية المكونة من الارتباك والمحنة والأمل ، أى قبالة هذه القارة الأوربية والدولة الفرنسية المنهكتين اللاهثتين ، وهذا الفجر العاصف الضخم ، ظهور هذه الشخصية الضئيلة القديمة الطراز بما لها من الصلابة والتماسك والكفاية وعدم الاستمساك بمبادئ الشرف مع الميل إلى التقليد والسوقية المتقنة . ولد في ١٧٦٩ بجزيرة كورسيكا التي كانت ما تزال نصف همجية . وكان ابناً لرجل غير ذى شأن تقريباً ، وهو محام كان في بادئ أمره وطنياً يناضل الملكية الفرنسية ، التي كانت تحاول أن تخضع كورسيكا ، ثم انقلب عند مولده على وطنه وانضم إلى صف المغير الغاصب . وكانت أمه ذات طبيعة أقوى ، محتدمة الوطنية ولها قوة شكمية ومقدرة في الكياسة وتدبير الأمور . (كانت تضرب أولادها بالمقرعة ، حتى لقد ضربت نابليون ذات مرة وهو في السادسة عشرة) . وكان هناك إخوة وأخوات كثير ، وظلت العائلة تلاحق الحكومة الفرنسية بالالحاف في طلب المكافآت والوظائف . وفيما عدا نابليون فإن العائلة تبدو

عائلة « جاعة » عادية تماماً . كان ماهراً ذكياً سيئ الخلق متكبراً غطريسا . اكتسب من أمه وطنية (رومانسية) كورسيكية .

حصل بفضل رعاية محافظ كورسيكا الفرنسي على تعليم ابتدأ بمدرسة بريين Brienne العسكرية ثم بالمدرسة الحربية بباريس ، ومنها انتقل إلى المدفعية في ١٧٨٥ . كان دارساً مجتهداً لكل من الرياضيات والتاريخ ، وكانت ذاكرته قوية قوة خارقة ، وكان يدون ملحوظاته في دفاتر ضخمة ما تزال موجودة . ودفاتر المذكرات تلك لا تظهر فيه أى ذكاء استثنائي ، كما أنها تحتوى كذلك على قطع صغيرة من الانشاء الأضيل - حول الانتحار وما يماثله من موضوعات المراهقين . وقد وقع في حبائل سحر روسو منذ زمن مبكر ؛ ثم تزايدت حساسيته رهفاً وتطور في نفسه الاحترار لمفاسد المدنية . وكتب في ١٧٨٦ نشرة ضد قسيس سويسرى هاجم روسو . وكان يحلم بكورسيكا المستقلة المتحررة من نير الفرنسيين . ثم أصبح مع شوب الثورة جمهورياً متحمساً ونصيراً للنظام الجديد في كورسيكا . وظل يعقوبياً بضع سنوات حتى سقوط روبسبير .

٢ - بوناپرت قائداً جمهورياً

وسرعان ما ذاع صيته بأنه ضابط نافع مقتدر ، وقد استطاع بواسطة شقيق روبسبير الأصغر أن يحصل على أول فرصة يبرز بها أقرانه في طولون . وكان المليون قد سلموا طولون للبريطانيين والأسبان ، واحتل أسطول متحالف ميناءها . وأعطيت لبوناپرت قيادة المدفعية ، واستطاع الفرنسيون بقيادته أن يرغموا الحلفاء على مغادرة الميناء والمدينة .

ثم عين بعد ذلك قائداً للمدفعية في إيطاليا ، ولكنه قبل أن يتسلم مقاليد عمله اكفهر الجوبدا في الأفق أن موت روبسبير قد يجر مصرعه أيضاً ؛ فوضع تحت الاعتقال بوصفه يعقوبياً ، وظل خطر المقصلة محدقاً برقبته ردحاً من الزمان . ثم انقشع ذلك الخطر . وعين قائداً للمدفعية في غارة على كورسيكا لم تأت بفائدة ، ثم ذهب إلى باريس (١٧٩٥) وهو في حال رثة . وتصف مدام جونوني مذكراتها وجهه الهزيل

١٢٣٥

ومظهره الرث في ذلك الزمان ، وشعره « الأشعث سىء التذير يتدلى فوق معطفه الرمادى » ، ويداه العاطلتين عن القفاز وحذاءه السىء الدهان . كان ذلك زمان إجهاد وإنتكاس أعقبا قساوات الجمهورية اليوقبية . يقول هولاندروز « كان نجم الحرية قد أخذ يأفل في باريس تلقاء لإشراق عطارد (Meieury) والمريخ (Mars) والزهرة (Venus) » أى المالية والنياب العسكرية والبهاء الاجتماعى . وكان خيرة الرجال العاديين يعملون في الجيوش وراء الحدود . ولقد سبق أن ذكرنا من قبل آخر ثورة للملكيين في ١٧٩٥ . ومن حسن طالع نابليون أنه كان في باريس في ذلك اليوم ، فلقى في هذه المسألة نهزته الثانية . فأنقذ جمهورية الإدارة .

وأثرت كفايته في كارنو أيما تأثير ، وهو أشد المديرين استقامة فأعجب به . زد على ذلك أنه تزوج من أرملة شابة حسناء ، هى مدام جوزفين دى بوهارنية ، وكان لها سلطان عظيم على باراه (Barras) . والرجح أن هذين الامرين هما اللذان ساعدها على الحصول على القيادة في إيطاليا .

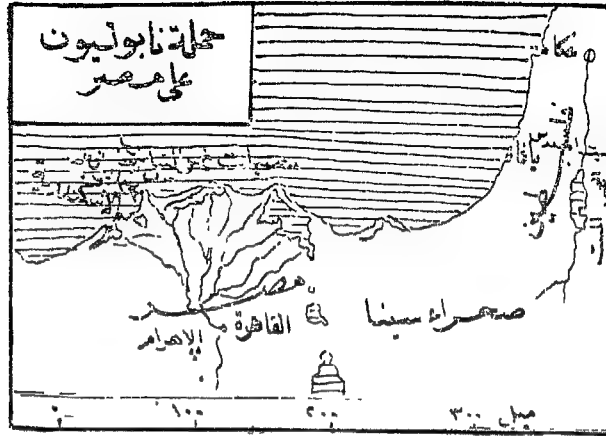
وليس أمامنا هنا متسع لقصة حملاته الزاكية في إيطاليا (١٧٩٦ - ١٧٩٧) ، ولكن لابد لنا من كلمة أو اثنتين عن الروح التى تمت بها تلك الحملات على إيطاليا ؛ لأنها تبين أنصع تبيان ، تلك الروح المزدوجة لفرنسا ونابليون ، وكيف أخذت الفكرة المثالية الجمهورية في السحوب تلقاء الظروف العملية القاهرة . فإنه أعلن على الإيطاليين أن الفرنسيين إنما يقدمون لتحطيم أغلالهم - وكانوا عند قولهم ؟ . . . على أنه يكتب إلى حكومة الإدارة يقول : « لسوف نجبي عشرين مليوناً من الفرنكات ، نحتم على الأهالى دفعها في هذه البلاد ؛ فإنها من أغنى بلاد العالم » . فأما جنوده فإنه خاطبهم بقوله : « إنكم جياع وتكادون تكونون عراة . . . وإني لأقودكم إلى أخصب سهل في العالم . ولسوف تجدون هناك مدناً عظيمة، وولايات غنية وشرفاً ومجداً وثروة . . . »

ونحن البشر مفطورون لاجرم - على طبيعة مخلطة كهذه ؛ بيد أن هذه الفقرات التى كتبها شاب في السابعة والعشرين ، يلوح أنها تظهر الطلاء الذهبى المموه للمثالية العليا الشريفة وقد زال عنها ونصل في سن مبكرة تبكيرا غير عادى .

وكان نجاحه في إيطاليا زاكياً كاملاً . وكانت رغبته في الذهاب إلى إيطاليا راجعة إلى أنه كان يتوقع أن يجد فيها أشد الأعمال اجتذاباً له ، فخطر بوظيفته في الجيش برفضه أن يقبل العمل المضنى في قيادة حملة على العصاة في لافنديه . وكان قد أكب طويلاً على قراءة تراجم بلوتارك^(١) والتاريخ الروماني ، فكان خياله البالغ النشاط ملتهباً عند ذاك بالأحلام ، أحلام إنبعاث الفتوح الشرقية للإمبراطورية الرومانية . تخلص نابليون من جمهورية البندقية بأن مزقها بين فرنسا والنمسا ، محتفظاً لفرنسا بالجزائر الأيونية والأسطول البندقي . وقد أثبتت الأيام فيما بعد أن هذا الصلح المسمى صلح كامبو فورميو كان صفقة خاسرة لكل من الطرفين . فقد اشتركت جمهورية فرنسا الجديدة في قتل جمهورية قديمة - وأنفذ نابليون رأيه مخالفاً بذلك صيحة سخط وإنكار تعالت في فرنسا - وحصلت النمسا على مقاطعة فينيتيا ، وهى الأراضي التي قدر عليها في ١٩١٨ أن تنزف فيها حتى تموت . وكانت هناك كذلك فقرات سرية اتفقت فيها فرنسا والنمسا على الحصول فيما بعد على الأراضي الألمانية الجنوبية . ولم يكن الحلم بالتوسع الروماني نحو الشرق هو وحده الذي كان آنذاك يعمل عمله في عقل نابليون . فهذه هى أرض قيصر نفسها ، وكان قيصر مثالا سيئاً لذلك الجنرال الموفق في جمهورية غير وطيذة .

وكان قيصر قد عاد إلى روما من بلاد الغال بطلاً وفاتحاً . فكان مقلده يريد أن يعود من مصر والهند مظفراً كذلك ، ومن ثم تكون مصر والهند هى بلاد الغال بالنسبة إلى نابليون . وكانت عناصر الفشل تحملق بعينها في وجهه . إذ كان الطريق إلى مصر والهند بحرياً ، وكان البريطانيون بالرغم من حدوث تمردين بحريين قريبي العهد ، أقوى مُنتة في البحر من الفرنسيين . زد على ذلك أن مصر كانت جزءاً من الإمبراطورية العثمانية ، ولم تكن هذه بأى حال دولة يستهان بها في تلك الأيام . ولكنه مع ذلك أقنع حكومة الإدارة ، التي كانت بهرتها في إيطاليا أعماله العظيمة

(١) تراجم بلوتارك . وهو كاتب إغريقي ولد في خيرونيا ، وكان يلقى المحاضرات بروما في عصر هادريان . وكتابه « التراجم المتائلة » يتكون من أزواج متقابلة من سير القادة والسياسيين الإغريق والرومان تعقبها مقارنات بين كل اثنين . (المترجم)



(شكل ١٨٥)

بالسماح له بالذهاب ، وخرجت أرمادا^(١) من طولون في مايو ١٧٩٨ واستولت على مالطه ، ومن يمين طالعها أن تجنب الأسطول البريطاني ووصلت إلى الإسكندرية . فأنزل جنوده على عجل ، ولم تلبث معركة الأهرام أن جعلته سيداً على مصر .

وكان الأسطول البريطاني الرئيسي في ذلك الوقت في ظاهر المحيط الأطلسي قبالة قادس ، ولكن أمير البحر كان أفرد قوة من خيرة سفنه ، بقيادة الفيس أميرال نلسون — وهو نابغة عظيم في الشؤون البحرية نبوغ نابليون في الأمور العسكرية البرية — أرسله ليتعقب العمارة الفرنسية الصغيرة وينازلها . وطفق نلسون حيناً من الزمان يبحث عن الأسطول الفرنسي بلا جدوى ؛ حتى وجده أخيراً في مساء يوم أول أغسطس راسياً في خليج « أبي قير » فأخذه على غرة ؛ إذ كان كثير من الرجال على البر وكان ثمة مجلس منعقد في سفينة القيادة . ولم تكن لديه خرائط ، وكانت قيادة السفن في مياه ضحلة تحت أنوار الأصيل الكابية أمراً محفوفاً بالمخاطر . ومن ثم استنتج الأميرال الفرنسي أن البريطانيين لن يهاجموه قبل طلوع الصبح ، ولذا لم يتعجل في استدعاء رجاله الموجودين على البر إلى سفنهم حتى فات الأوان . ومهما يكن من شيء ، فإن نلسون أخذ يضرب من فوره مخالفاً بذلك نصيحة كثير من قواده . ولم تشحط منه إلا سفينة واحدة فقط . فدلّت بذلك بقية الأسطول على

(١) عمارة بحرية من سفن الحرب . (المترجم)

المنطقة الضحلة . وتحرك الأميرال بسفنه هاجماً في خط مزدوج قرب غروب الشمس ، فوضع الفرنسيين بين نارين . وأرخی الليل سدوله وقد التحم الطرفان في المعركة ؛ وكان القتال يهدر ويهزم تحت جنح الظلام حتى أضاء المكان من فوره بلهب السفن الفرنسية المحترقة ، ثم بوميض سفينة القيادة الفرنسية الأورينت (L'Orient) . وقد انفجرت . . . ولم ينتصف الليل حتى كانت معركة النيل قد انتهت ، وكان أسطول نابليون قد تدمر . وبذلك انقطع الطريق على نابليون إلى فرنسا .

ويقول هولاندروز نقلاً عن تيير Thiers ، إن هذه الحملة المصدة كانت « أشد المحاولات التي سجلها التاريخ هوجاً وتسرعاً » . فقد غودر نابليون في مصر والبر يتجمعون عليه والطاعون يفتك برجاله : ومع هذا فإنه استمر رديحاً من الزمان يواصل القيام بهذه الخطة الشرقية . فأحرز في يافا نصراً ، وإذ كانت تعوزه الميرة فإنه أعمل الذبح في كل أسراه . ثم حاول أن يستولى على عكا ، حيث استعملت ضده مدفعية الحصار الخاصة به ، وكان البريطانيون استولوا عليها في البحر قبل ذلك بزمن يسير . حتى إذا عاد إلى مصر خائب المسعى قد أسقط في يده ، فإنه أحرز فوزاً عظيماً على جيش تركي عند أبي قير ، ثم تخلى بعد ذلك عن جيشه في مصر - ولكن ذلك الجيش بقي يقاوم حتى عام ١٨٠١ ، حتى استسلم لقوة بريطانية - وفر نابليون بجلده إلى فرنسا ١٧٩٩ ، وقد نجا بأعجوبة من أن تأسره طرادة بريطانية بالقرب من صقيلة .

ولقد لقي في هذه المشروع من الاخفاق ما يسقط كل ثقة بأى قائد - لو أن أمر ذلك الاخفاق عرف . بيد أن الطرادات البريطانية التي أوشكت أن تلقى عليه القبض هي التي أعانته على إخفاء خبيته إذ منعت تسرب أى علم بحقيقة الموقف في مصر إلى مسامع الشعب الفرنسي . فاستطاع أن يقيم ضجة عظيمة حول معركة أبي قير وأن يخفى فشله في عكا . ولم تكن الأمور في فرنسا في ذلك الحين على ما يرام . إذ منيت بالهزائم العسكرية في مواطن عدة ؛ فضاع منها أكثر إيطاليا ، وإيطاليا مما غرسته يدا بوناپرت ، فأدى هذا إلى اتجاه الأنظار إليه بوصفه المنقذ الطبيعي

للموقف ، هذا إلى أنه حدث الشيء الكثير من الاختلاس ، وأن أخبار بعضها أخذت تتسرب إلى الناس . فكانت فرنسا في أحد أدوار فضاؤها المالية ، ولم يكن نابليون قد امتدت يده إلى أى مال ، فكان الجمهور من ثم في تلك الحالة الكليّة حالة التعب المعنوي التي يطلب عندها الرجل القوى المتين ، الرجل المدهش الفذ المستحيل المثال ، الذي ينزل على قلب الأمة نزول البلسم والترياق ، ويقوم بكل شيء لكل إنسان . وأخذ الناس يقذفون في روع أنفسهم أن هذا الفتى الحسن الظاهر ذا الوجه الجامد ، الذي أعادته العناية الإلهية من مصر — إنما هو الرجل القوى الأمين المنشود — وأنه واشنجتون آخر .

واستجاب نابليون لمطلب زمانه وفي مؤخرة ذهنه صورة يوليوس قيصر أكثر منها صورة واشنجتون . ودبرت مؤامرة محكمة لاستبدال حكومة الإدارة بثلاثة « قناصل » يكون نابليون كبيرهم — وكأني بكل إنسان في ذلك الزمان يتلو أكثر مما ينبغي في صفحات التاريخ الروماني يقرأها ويستوعب ما فيها . والقيام بهذه المؤامرة عمل أعقد من أن يتسع له هذا المكان : وقد تضمن على طريقة كرومويل تشتيت المجلس الأدنى (أى مجلس الخمسة) ، وفي هذا الأمر فقد نابليون رباطة جأشه . فإن النواب صاحوا به ودفعوه ، حتى ليلوح أن الخوف داخله . فكاد أن يغمى عليه وأخذ يتمتم ويلجلج وأرتج عليه فلم يجر كلاماً ، ولكن أخاه لوسيان أنقذ الموقف ، بأن استقدم الجنود وفرّق المجلس . على أن هذه الورطة الصغيرة لم تؤثر في نجاح الخطة النهائي . ونزل القناصل الثلاثة في بناء قصر لوكسمبرج ، ومعهم قوميسيران إتنان لإعادة وضع الدستور .

وأخذ نابليون يعمل حيال زميله والقوميسيرين بمنتهى الجراءة والصلف بعد أن عادت إليه كل ثقته بنفسه وبعد أن تحقق من نصره الشعب له . وأنشئ دستور جعله الموظف التنفيذي الأكبر ولقبه القنصل الأول ، وخوله سلطات هائلة . وكان لازماً أن يكون هو نابليون ، إذ كان ذلك منصوباً عليه في صلب الدستور . وكان على أن يعاد انتخابه أو يستبدل بغيره بعد إنقضاء عشر سنوات .

وكان على أن يساعده مجلس الدولة ، يعينه هو بنفسه ، ويكون من حقه أن ينشئ التشريعات وأن يرسل مقترحاته إلى هئتين ، هما الهيئة التشريعية (التي كانت تستطيع أن تعطى أصواتها في الموضوعات دون أن تناقشها) وهيئة التريبون (The Tribunate) وكانت تستطيع أن تناقش المسائل دون أن تعطى فيها صوتاً) ، وينتخب الهيئتين مجلس شيوخ أعضاؤه معينون من بين أفراد طبقة خاصة هي « ذوو المكانة » في فرنسا ، الذين كان ينتخبهم « ذوو المكانة » في المديرية أو المحافظة « الذين كان ينتخبهم « ذوو المكانة » الكوميون « الذين كان ينتخبهم الناخبون العاديون ؟ وكان الإقتراع على انتخاب ذوي المكانة في الكوميون حقاً مباحاً للجميع . فكان هذا هو المظهر الوحيد للديمقراطية في هذا الهرم المذهل المحير !! ...

وكان هذا الدستور في معظم أمره الثمرة المشتركة لفيلسوف جليل هو « سيياس Siéyès » (أحد القناصل الثلاثة) - بالإشتراك مع بوناپرت . على أن فرنسا بلغ بها الإعياء من متاعبها وجهودها ، وبلغ من ثقة الناس في فضيلة واقتدار هذا الرجل مبعوث المقادير ، أنه عندما حدث في مستهل القرن التاسع عشر أن قدم هذا الدستور إلى البلاد أقره ٣,٠١١,٠٠٧ صوتاً ضد ١٥٦٢ . لقد وضعت فرنسا نفسها بين يدي بوناپرت وضعاً مطلقاً وأعدت العدة لأن تعيش في سلام وسعادة ومجد .

٣ - نابليون قنصلاً أول ١٧٩٩ - ١٨٠٤

وليس هناك من وجه للشك في أنه سنحت هنا فرصة لم تسنح قط لرجل في العالم من قبل . فهنا منصب قد يتقوس له ظهر أى امرئ إشفاقاً من نفسه على نفسه ، وأن يبحث في زوايا قلبه ، وأن يخدم الله والإنسان بأقصى مستطاعه . إن النظام القديم قد قضى أو كاد ؛ وأخذت قوى عجيبة جديدة تندفع في أرجاء العالم تبحث عن شكل تصوغ فيه نفسها وقائد يوجهها . وكان الوعد المنتظر والأمل المعقود بجمهورية عالمية وبسلام عالمي دائم يداعبان أفئدة جمهور غفير من ذوي الأذهان المنزعجة . وكانت فرنسا بين يديه وكانت أداة طيعة له يفعل بها ما يشاء وهي أرغب

١٢٤١

ما تكون في السلام ، غير أنها شاحذة للحرب شحوذ مهند ممتاز . ولم يكن يعوز هذه الفرصة العظيمة إلا الخيال النبيل . وإذ فات نابليون ذلك فإنه لم يكن يستطيع إلا أن يتبخر بنحلاء على قنة جبل الهزات ذاك العظيم ، كما يتبخر الديك الفرخ فوق تل من الروث . فإن الشخصية التي يكونها لنفسه في التاريخ شخصية بها ما لا يكاد يصدقه عقل من الغرور بالنفس والاحتقار الوقاح لكل من وثقوا به وعدم الاكتراث بهم . وجنون عظمة يقلد به قيصر والإسكندر وشرلمان تقليد القردة ، لولا أنه مخضب بالدماء الإنسانية الزكية لكان مبعث السخرية والاستهزاء . حتى « جاء » كما يقول فكتور هوجو بطريقته الهائلة « يوم » ضاق فيه الله به ذرعاً ، فقلد به ركلا بالأرجل ليختم أيامه في ركن منزل يشرح ويشرح كم كانت أشنع أخطائه مسرحاً للذكاء والمهارة وهو يتربص في أرجاء جزيرته الحارة الموحشة متصيداً الطيور ويتشاجر شجاراً وضيعاً مع سجان منحط التربية لم يكن يوليه « الإحترام » اللائق .

ولعل عمله كقنصل أول أقل أدوار حياته معرة . فإنه تناول في يده الشئون العسكرية التي تقوضت أثناء حكم الإدارة . وبعد حملة معقدة في شمال إيطاليا ، بلغ بالأمور إلى نصر حاسم عند مارينجو قرب اليساندريا في (١٨٠٠) . وكان نصراً قارب في بعض أوقاته أن يكون كارثة كبيرة . وفي ديسمبر من السنة نفسها أوقع الجنرال مورو (Moreau) هزيمة ساحقة منكرة بال جيش النمساوى قرب هوهنليندن ، في ظروف تكنفته فيها عوامل الثلج والوحل والجو الفظيع الرهيب فلو أن نابليون فاز بهذه المعركة لاحتسبت من بين أبرز مآثره وأعلاها كعباً . وبهذه الأمور صار السلم المرجو أمراً ممكناً . وفي ١٨٠١ تم التوقيع على الخطوة الأولى الممهدة للصلح مع إنجلترا والنمسا . وانتهى الصلح مع إنجلترا بمعاهدة أميان في سنة ١٨٠٢ . وصار نابليون مطلق اليدين يستطيع أن يتفرغ لفن السياسة والتدبير الخلاق المبتدع الذي كانت فرنسا - وأوروبا بأجمعها من وراء فرنسا - في أشد الحاجة إليه . لقد أتاح الحرب لفرنسا أن تمد رقعة أرضها وتوسع حدودها ، وبمقتضى المعاهدة مع إنجلترا استرجعت فرنسا إمبراطوريتها في المستعمرات وأصبحت

في حالة أمن تتجاوز أقصى ما كان يحلم به الملك لويس الرابع عشر . وكان الباب مفتوحاً أمام نابليون لكي ينتج ويدعم نظام الأمور ويصنع دولة عصرية تكون نبراساً ومصدر وحى وإلهام على كل أوروبا والعالم قاطبة .

على أنه لم يحاول أن يعمل شيئاً من هذا القبيل . إذ كان خياله الهزيل المقلد مليئاً بحلم أن يكون هو قيصر من جديد . فكان يدبر الخطط لجعل نفسه إمبراطوراً حقيقياً ، يضع على رأسه التاج ويجعل منافسيه وزملاءه في المدرسة وأصدقاءه عند موطنه قدميه . ولم يكن هذا يمنحه أية قوة جديدة ليست في يديه حتى آنذاك ، على أن ذلك يكون شيئاً أعظم أهمية وأشد فخامة ، يكون شيئاً يدهش أمه . فبالها من استجابة يستجيب بها رأس من هذا النوع للتحدى الرائع الخلاق في ذلك الزمان ؟ !! .

ولكن لا بد أن تدرج فرنسا قبل كل شيء في مدارج الرخاء . إذ من المحقق أن فرنسا الجائعة لا تطيق وجود إمبراطور . فنصب نفسه لتنفيذ مشروع قديم للطرق كان لويس الخامس عشر أقره ؛ وأنشأ الترع تقليداً منه للترع الإنجليزية ؛ ثم أعاد تنظيم البوليس ووطد شئون الأمن في البلاد . وتمهيداً لمشهد درامته الشخصية ، نصب نفسه لجعل باريس تبدو في شكل روما بما لها من عقود كلاسيكية وعمد كلاسيكية . ونشأت في تنظيم البنوك خطط جديدة تستدعي الإعجاب ، فاستعملها . وكان في كل هذه الأمور مسائراً لزمانه ؛ فلإنها أمور كانت لا بد آتية مع قدر من الإستبداد أقل -- وقدر من التمرکز أضال ، ولولم يولد نابليون قط . ونصب نفسه لإضعاف الجمهوريين الذين كان يدبر الخطط للعدوان على معتقداتهم الجهورية . فسمح بعودة المهاجرين على شريطة أن يقدموا التوكيدات المرضية على احترام النظام الجمهوري . وكان منهم كثير يرغبون أشد الرغبة في العودة على مثل تلك الشروط وأن يدعو آل بوربون وشأنهم وبعدهم في خبر كان . ثم توصل إلى صلح عظيم أبرم به « ميثاقا Concordat » مع روما . تعهدت به أن تناصره وتعهد أن يعيد سلطانها في الأبروشيات . إذ كان يرى أن فرنسا لا يمكن أن تكون طيعة سلسلة القيادة ، وأنها لن تستطيع أن تطبق ملكية جديدة من غير الدين . قال :

« كيف تستطيع أن تجد في دولة نظاماً من غير الدين ؟ فالجماعة الإنسانية لا تستطيع أن تعيش من غير التفاوت في الثراء ، الأمر الذى لا يمكن أن تقوم له قائمة مستديمة بمعزل عن الديانة . فعندما يوشك أحد الرجال أن يقضى نحبه جوعاً إلى جوار آخر مريض بالكظة والبشم ، فإنه لا يستطيع أن يرضى بهذا الفارق ما لم تكن هناك سلطة تعلن أن الله إنما يريد ذلك كذلك ؛ ولا بد للعالم من أن يحوى الفقير والغنى ؛ ولكن تقسيم الأشياء في العالم الآخر وفي كل الأبدية الخالدة سيكون على أساس مخالف » . وكانت الديانة في رأيه وبخاصة الديانة من الصنف الكاثوليكي المتأخر ، مادة ممتازة يستطيع بها تسكين العامة . وكان في أيامه العقوبية الأولى قد طعن في الدين لنفس ذلك السبب .

وثمة عمل جليل آخر يدل على مجال خياله وتقديره للطبيعة الإنسانية وذلك هو نظام « جوقة الشرف Legion of Honour » ، وهى خطة للانعام على الفرنسيين بقطع من الشريط ، خطة دبرت تدبيراً محكماً معجباً بقصد تحويل نظر ذوى الطموح من الرجال عن القيام بتصرفات هدامة .

كذلك اهتم نابليون بالدعاية المسيحية . وها هى ذى فكرة نابليون عن فوائد المسيح السياسية ، وهى فكرة تلطخت بها كل العثاات الدينية الفرنسية منذ ذلك الحين . قال : « قد اتجهت رغتي إلى إعادة إنشاء مؤسسة الارساليات التبشيرية الأجنبية ؛ إذ أن المبشرين الدينيين ربما كانوا ذوى نفع كبير لى فى آسيا وإفريقيا وأمريكا ، وذلك أنى سأكلفهم بتعرف كل الأراضى التى يزورونها . ولن تقف قداسة ثيابهم عند حد حمايتهم بل سوف تخفى وراءها أبحاثهم السياسية والتجارية . ولن تكون روما بعد اليوم مستقر رئاسة مؤسسة المرسلين ، بل باريس » .

ألا ترى فى هذا أفكار تاجر لص لا فكرات رجل دولة ؟ وعلاجه لمسألة التعليم يُظهر فى وضوح عمايته عن حقائق الفجر الحديد المنبثق من حوله . فأما التعليم الأولى فإنه أهمله إهمالاً يكاد يكون تاماً ؛ فتركه لضمير السلطات المحلية ، كذلك قرر أن المعلمين يجب أن تدفع رواتبهم من مصروفات التلاميذ ، وواضح أنه لم يكن يرغب فى أن يتعلم عامة الناس العلم ؛ إذ لم تكن لديه أية بارقة إدراك ولو خاطفة عن

السبب الذى من أجله يجب أن يتعلموا ؛ ولكنه كان يهتم بتزويد المدارس الفنية والعليا بالمال ، لأن دولته كانت فى حاجة إلى خدمات رجال أذكى واسعى الاطلاع يسعون وراء مصالحهم الذاتية . وكان هذا تراجعاً يبعث الدهول ، عن الخطة العظيمة التى كتب مسودتها للجمهورية كوندورسيه^(١) فى ١٧٩٢ ، محبذا إقامة نظام كامل من التعليم المجانى للشعب بأكمله . وتحقق الايام فى ببطء ولكن بثبات واستمرار مشروع كوندورسيه ؛ فإن الامم العظيمة فى العالم تضطر أن تضعه موضع التنفيذ والتحقيق رويداً رويداً ، وتخرج وسائل ناپليون من نطاق إهتمامنا . أما تعليم زوجات وأمهات جنسنا فدونكم حكمة ناپليون فيه : « لست ممن يعتقدون أن بنا حاجة إلى أن نتعب أنفسنا بعمل خطة لتعليم الإناث الصغيرات ، فليس فى المستطاع أن يربيهن أحدٌ خيراً من امهاتهن . وليس التعليم العام مناسباً لهن ؛ لأنهن لا يطلبن قط للعمل العام ، وإنما الاخلاق هى الكل فى الكل لهن ، والزواج كل غايتهن » .

ولم يكن القنصل الأول أعطف على النساء فى قوانين ناپليون (Code Napoléon) . إذ لم يكن يباح للزوجة مثلاً أن تتصرف فى أملاكها ، بل كانت (أى الزوجة) فى يد زوجها . وكان هذا القانون فى معظمه من عمل مجلس الدولة . ويلوح أن ناپليون كان يعطل مناقشات ذلك المجلس ويعتاقها أكثر مما يساعدها . وإنه ليجتاح الجلسات غازياً بلا سابق إخطار ، ويتكرم على أعضائه بإلقاء محاضرات طويلة مسهبة ، كثيراً ما كانت تخرج عن الموضوع قيد الدرس خروجا تاماً . وكان المجلس يستمع إليه باحترام عميق ؛ إذ كان ذلك هو كل ما يستطيع المجلس أن يفعله . وإنه ليستبقى مستشارية إلى ساعات متأخرة من الليل ، مخالفة لكل معقول ، ويظهر افتخاراً ساذحاً بقدرته الفائقة على السهر . وقد تذكّر تلك المناقشات بارتياح عجيب لبان

(١) كوندورسيه (١٧٤٣ - ١٧٩٤) : فيلسوف ورحل دولة فرنسى . اشترك فى إنشاء الموسوعة وأكسبته مقالاته فى نظرية الإمكانات شهرة واسعة ، انضم إلى الثورة وانتخب عضواً فى الجمعية التشريعية (١٧٩١ - ١٧٩٢) ، وكانت حطته التى كتبها عن واجب الدولة فى التعليم أساساً لخطة فرنسا التعليمية . عارض وإن كان من رجال الثورة فى قتل الملك ، فأهدر دمه . ولما قبض عليه فى النهاية وجد ميتاً ، ولعله تمحرج السم . (المترجم)

سنيه الأخيرة ، ولاحظ في إحدى المناسبات أن مجده وفخاره لا يقوم على كسبه أربعين معركة بل على إنشائه قانون نابليون . . . وكان قانونه هذا شيئاً حسناً ، بقدر ما ذهب بالمعميات القانونية العسيرة القديمة ، وأحل محلها الواضح البين من البيانات ، فإنه جمع شتات مجموعة هائلة غير منتظمة من القوانين القديمة والجديدة ثم نقحها ووضحها . والقانون شأن كل عمله الإنشائي ، كان يهدف إلى الكفاية المباشرة ، فإنه وضع التعاريف للأشياء والعلاقات ، حتى يشرع الناس في العمل عليها بلا مناقشة جديدة . ومما يقلل من أهميته المباشرة العملية أنه كثيراً ما كان يُعرّف تلك الأشياء تعريفاً خاطئاً . ولم يكن وراء عملية التقنين هذه أية قوة ذهنية تنهض كشيء متميز عن النشاط الذهني . إذ أنها سلمت بكل شيء قائم : « إن جلالته لا يعتقد إلا في الموجود^(١) » . والواقع أن الفكرات الجوهرية الأساسية للمجتمع الممدن ، وقواعد التعاون الإنساني كانت تمر في مرحلة إعادة تشكيل قطبها ومدارها نابليون - ولكنه لم يشعر بذلك الأمر أبداً . وكل ما فعله أنه قبل دوراً من أدوار التعبير . وحاول أنه يثبت إلى الأبد . ولا تزال فرنسا إلى يومنا هذا مُقَمَّطَةً مشدودة الوثاق بهذا الصُّدْبِرِي الضيق الذي يرجع به العهد إلى أوائل القرن التاسع عشر ، والذي حشرها فيه نابليون . ذلك بأنه ثبت أحوال النساء وثبت أحوال العمال وأحوال الفلاحين ، ولا يزالون جميعاً يكافحون إلى يومنا هذا بين خيوط شبكة تعريفاته الجامدة . وتقدم نابليون في نشاط وقوة فنصب ذهنه الجامد الصافي الضيق الأفق لكي يستنهض قوة فرنسا ويشد من عزمها . ولم يكن ذلك الاستنهاض إلا جزءاً من الخطط الأعظم شمولاً التي كانت تملأ جوانب نفسه وتسلط عليها . فقد اتجه خياله اتجاه الاصرار والعزم إلى « قيصرية Caesarism » جديدة . وفي ١٨٠٢ جعلهم يعينونه قنصلاً أول مدى الحياة مع إعطائه حق تعيين خلف له ، وترتب على مراميه الواضحة إلى إلحاق هولندا وإيطاليا بفرنسا بالرغم من التزاماته في المعاهدات بأن يتركهما منفصلتين ، أن أخذت معاهدة أميان تترنح ترنحاً شديداً منذ البداية بذاتها . ولما كان من الضروري أن تثير عليه خططه حرباً مع إنجلترا ، فقد كان يجدر به أن يترث بأى ثمن حتى يرتفع ببحريته

(١) من أقوال هولاند روز عن جورجيو "Sa Majesté ne croit que ce qui est."

إلى حد التفوق على البحرية البريطانية . فإنه كان مطلق اليد يتحكم في موارد عظيمة لبناء السفن ، وكانت الحكومة البريطانية حكومة واهنة ، وكانت سنوات ثلاث أو أربع كفيلة بتحويل كفة الميزان . ولكنه بالرغم مما لقي في مصر من تجربة شاقة قاسية ، لم يدرك قط أهمية القوة البحرية . وفي ١٨٠٣ عجل احتلاله لسويسرا بالأزمة ؛ ونسبت الحرب من جديد مع إنجلترا . فقد حدث أن الوزير الضعيف أدينجتون أدخل مكانه في إنجلترا لوليم بت الأعظم منه مقدرة . ومنذ تلك الساعة أصبحت بقية قصة نابليون تدور حول تلك الحرب .

وقد ظل القنصل الأول أثناء مدة القنصلية يعمل ناشطاً على زيادة ثروات إخوته وأخواته . وهو أمر يتصل إلى النفس البشرية بسبب قوى ويمت إلى حب العشرة وإلى المزاج الكورسيكي كما أنه ينفعنا في أن نفهم بالضبط كيف كان الرجل يقدر منصبه والتهزات المائلة بين يديه . وهناك عامل ضخم في تكوين نابليون هو الرغبة في أن يذهل ويدهش ويروع أذهان آل بوناپرت وجيرانهم ويخضعها لسلطانه . فكان يرقى إخوته بشكل يثير الضحك إذ أنهم كانوا رجالاً عاديين جداً ولكن شخصاً واحداً كان يعرفه حق المعرفة لم تجالجه الدهشة ولا داخلته الروعة ولا الخضوع . وكان ذلك الشخص هو أمه . كان يرسل إليها المال لتنفقه وتدهش به جيرانها ؛ وكان يحضها على أن تتخذ لنفسها مظهراً عظيماً ، وأن تعيش العيش الذي يتناسب وأم مثل هذا الإبن العجيب الذي يهز العالم هزاً .

غير أن السيدة الوقور التي قرعت بالمقرعة رجل الأقدار وهو في سن السادسة عشرة ، لأنه لعب وجهه لجلده ، لم تنبهر ولم تنخدع له عند سن الثانية والثلاثين . قد تستطيع فرنسا كلها أن تعبده ولكن الأم لم يساورها أى وهم خادع من قبله . فكانت تضع القود التي يرسلها جانباً ؛ وتواصل المضي على اقتصادها المعتاد . قالت : « عند ما ينتهى كل شئ سيكون إدخارى هذا موضع سرورك » .

٤ - نابليون الأول ، إمبراطوراً ١٨٠٤ - ١٨١٤

لن نفصل لك القول في الخطوات التي غدا بها نابليون إمبراطوراً . وكان تتويجه ابتغاءاً للقديم هو أشد ما قد يتصوره العقل من ابتعاث القديم خرقاً للمعتاد . ولم يعد

قيصر هو نموذج المحتذى ؛ بل كان نابليون عند ذاك هو شلمان . فإنه توج
إمبراطوراً ، حقاً إنه لم يتوج في روما ، بل في كاتدرائية نوتردام بباريس ،
واستحضر البابا بيوس السابع من روما للقيام بطقوس الاحتفال ؛ ولما بلغ الأمر
أوجه أخذ نابليون الأول التاج بيده ودفع البابا جانباً ، وتوج نفسه بنفسه . وبذلك
تكون نصيحة شلمان للويس^(١) قد أوتيت آخر الدهر ثمارها . وفي سنة (١٨٠٦)
ابتعث نابليون قطعة أخرى وقورة من الماضي السحيق ، إذ أنه لما كان ما يزال
يتعقب خطى شلمان ، فانه توج نفسه بتاج لوماردى الحديدى فى كاتدرائية ميلان .
وعندئذ صار لزاماً على الجمهوريات بنات فرنسا الأربع أن يصبحن ممالك : ففي
١٨٠٦ نصب الأخ لويس فى هولندة والأخ جوزيف فى نابولى . على أنه قصة
الممالك التابعة التى خلقتها فى أوربا ، قصة أعقد وأقصر عمراً من أن تتحملها
هذه المعالم ، وإن كان هذا العبث بالحدود عوناً على ما تلا ذلك من توحيد
إيطاليا وألمانيا . .

ولم يعمر هذا الحلف الذى تم بين شلمان الحديد وليو الحديد ، زمناً طويلاً
جداً . ففي ١٨٠٧ شرع تتحدى البابا ويضغط عليه . وفى ١٨١١ جعل منه أسيراً
مضيقاً عليه فى فونتنبلو . ولا يبدو أن هذه الإجراءات تنطوى على حكمة كبيرة .
فإنها نفرت منه رأى العام الكاثوليكي ، كما نفر منه تنويجه رأى العام المتحرر .
وبذلك كف عن أن يكون نصيراً وممثلاً للقديم والحديد على السواء . فأما الحديد
فقد خان ، وأما القديم فقد فشل فى اكتسابه . وأخيراً لم يعد يمثل أحداً إلا نفسه .

ويبدو أن سياسته الخارجية لم تكن تنطوى إلا على مثل ذلك القدر الضئيل من
التعقل ؛ فإنها زجت آنذاك أوربا فى غمرة دورة جديدة من دورات الحرب .
ولما كان قد اختلف مع بريطانيا العظمى فى أوان مبكر جداً فإنه حشد جيشاً عرمرماً
فى بولونية (Boulogne) ليغزو به إنجلترا ، غير ناظر إلى الموقف البحرى . بل لقد
بلغ به الأمر أن صك مدالية وأقام عموداً فى بولونية تخليداً لذكرى نصره فى غزوته

(١) هو لويس الورع ابن شلمان . انظر المعالم ص ٨٥٤ - ٣ ط ٢ . (المترجم)

المنتظرة . وكان دبر بطريقة نابليونية محضة أن يخدع الأسطول البريطاني ويستدرجه بعيداً ، وأن يهرب جيش بولونية ذاك غير مضيق المانش على أسطول صغير من الأرمات والزوارق ، وأن تؤخذ لندن قبل أن يعود الأسطول . وفي نفس الوقت اضطرت النمسا والروسيا إزاء اعتداءاته في جنوب ألمانيا ، إلى عقد تحالف وطيء مع بريطانيا ضده . وفي ١٨٠٥ وقعت ضربتان قاتلتان على كل أمل له في المصير النهائي ، أنزلهما به أمير البحر البريطانيان كالدرويلسون . فإن الأول أنزل في يولية هزيمة منكرة بالأسطول الفرنسي في خليج بسكي ؛ وفي أكتوبر دمر الثاني أسطول فرنسا وأسبانيا المشترك في معركة الطرف الأغر . ومات نلسون ميتة رائعة وهو مظفر فوق سفينته « النصر » . ومنذ تلك اللحظة استحكم العداء مريراً بين نابليون وبريطانيا ، وهي في منعة لا تستطيع أن يصل إليها ولا أن يقهرها ، بينما كانت هي تستطيع أن تضربه هنا أو هناك على امتداد كل شواطئ أوروبا .

وتكتم نابليون الخبر وأخفى أنباء ذلك الجرح القاتل الذي أصابه في « الطرف الأغر » بضع سنوات عن مسامع الفرنسيين . وكل ما سمعوه هو أن « العواصف قد سببت لنا خسارة بعض السفن الحربية بعد قتال أخرق . » وبعد انتصار كالدرويلسون سحبت نابليون جيشه من مدينة بولونية على عجل ، واندفع به عبر أوروبا وهزم النمساويين في « أولم » « وأوسترليتز » . ودخلت بروسيا الحرب ضده في هذه الظروف المشؤمة . فهزمت هزيمة تامة وحطمت قواها في معركة يينا (Jena) (١٨٠٦) . ومع أن النمسا وبروسيا قد كسرتا فإن روسيا كانت ما تزال قوة مقاتلة ، وخصصت السنة التالية لذلك الحصار الأصعب مراساً الأبعد من الأبعد مدخلا . ولسنا بقادرين أن نتعقب في أي تفصيل صعوبات الحملة البولندية على روسيا ، ولقي نابليون شراً كبيراً في بليتسك - التي أعلن في باريس أنها نصر عظيم - وكذلك لقي مثل هذا الشر في إيلاو (Eylau) . ثم دحر الروس في فريدلاند ١٨٠٧ . ولم يكن حتى ذلك الوقت قد مس الأرض الروسية بقدمه ، وكان الروسيون لا يزالون غير مهزومين كالبريطانيين سواء بسواء ؛ ولكن سنحت عند ذلك لنابليون بارقة عجيبة من الحظ الحسن . فإنه استطاع بواسطة خليط من التفاخر والحداع والمداينة ، أن يضم إلى

۱۲۴۹



(شکل ۱۸۱) نابینان ایرانطورا

جانبه قيصر روسيا الشاب الطموح الاسكندر الأول — إذ كان سنه لا يتجاوز الثلاثين — وأن يحمله على عقد تحالف معه . وتلاقى الامبراطوران على عوامة في وسط نهر النيمن قرب تيلست (Tilsit) . حيث تفاهما .

وكان الاسكندر تشرب بالشئ الكثير من النزعة التحريرية أثناء تلقيه العلم في بلاط كاترين الثانية . وكان يناصر بكل قواه الحرية والتعليم ونظام العالم الجديد — شريطة خضوعها لاستعلائه هو . قال أحد خلطائه في مستهل شبابه « إنه يسره أن يرى كل إنسان حراً ، على شريطة أن يكون كل إنسان مستعداً أن يفعل بحرية ما يريد به بالضبط » . وقد أعلن أنه مستعد أن يلغى نظام « موالى الأرض Serfdom » وإن كلفه ذلك رأسه ثمناً — لو حدث فقط أن تقدمت نتيجة لذلك أسباب الحضارة . وقال إنه يخوض الحرب مع فرنسا لكي يحرر الشعب الفرنسي — لأن نابليون كان طاغية مستبداً . وبعد معركة فريد لاند أخذ يبصر نابليون تحت ضياء جديد . تلاقى هذان الرجلان بعد تلك الهزيمة بأحد عشريوما ، وكان الاسكندر يمر ولا ريب في حالة من التعظيم التبريري الموافق لطبيعة أبناء طرازه حين يكونون في حالة مزاجية من التغير .

ولا بد أن المقابلة كانت مرضية تمام الارضاء لنابليون . فقد كان ذلك أول لقاء له مع أحد الأباطرة على أساس من التكافؤ . وحلق في الجوخيالان من فوق ظهر تلك العوامة في تلست . قال الاسكندر : « ما هي أوروبا ؟ إنما نحن أوروبا » . تناقشا في شئون بروسيا والنمسا متأثرين بهذه الروح ، وتقاسما تركيا مقدماً ، ودبرا أمر غزو بلاد الهند ، بل الواقع أنهما دبرا غزو معظم آسيا وأن تأخذ روسيا فنلدة من السويدين ؛ على أنهما أغفلا تلك الحقيقة المرة وهي أن القسم الأكبر من العالم مكون من بحر ، وأن الأسطول البريطاني كان عند ذاك يسيطر قلوبه في البحار غير منازع . وكانت بولندة قاب قوسين أو أدنى ، وهي على أتم استعداد لأن تثور وتكون حليف فرنسا المتحمس لو أن نابليون رغب قط في هذا . على أنه كان عن بولندة في عماية تامة . كان يومه يوم رؤى لا رؤية فيه . وقد أخفى نابليون في نفسه فيما يبدو حتى في ذلك اليوم ، تلك الفكرة الجريئة بأن يتزوج يوما ما أميرة روسية ، أميرة

حقيقية . على أنه ما لبث حتى تعلم بعد ذلك في ١٨١٠ - أن في هذا تجاوز لحدوده بعض الشيء



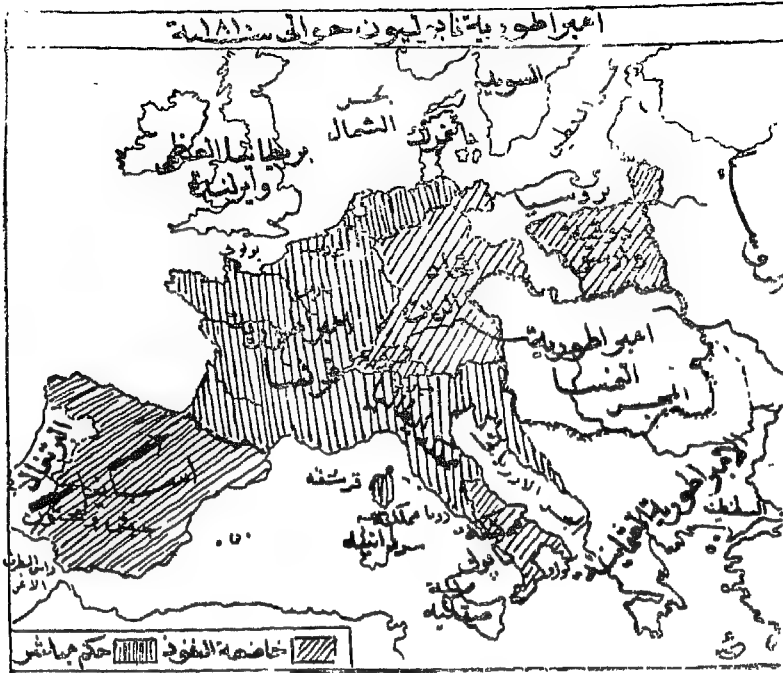
(شكل ١٨٧) القيصر اسكندر الأول

وحدث بعد تلتست تقوض ملحوظ في صفات ناپليون ؛ فإنه أصبح أكثر اندفاعا وأقل صبراً على العقبات ، واشتد به استبداد فكرة سيد العالم الذي هيأته الأقدار ، وتزايدت مضايقته لكل من لقيه . وفي (١٨٠٨) ارتكب غلطة خطيرة جداً . فإن أسبانيا كانت حليفه الدليل ، وكانت تحت مطلق تصرفه تماماً ،

ولكنه رأى من المناسب أن يخلع ملكها البوربونى لكى يرقى إلى عرشه أخاه جوزيف من عرش الصقليتين^(١) . وقد أتم فتح البرتغال من قبل على نية أن يوحد تحت تاج أخيه كلا من المملكتين البرتغالية والأسبانية . ومن ثم ثار الأسبان عليه فى حق وطنى متأجج ، وأحاطوا بجيش فرنسى فى بايلن ، وأجبروه على التسليم . وكان ذلك ثلثة مدهشة فى سيرة النصر الفرنسى المتواصل .

ولم يتباطأ البريطانيون عن التقاط موطئ القدم الذى أتاحته لهم تلك الثورة . فقد نزل فى أرض البرتغال جيش بريطانى بقيادة السير آرثر ولزلى (المسمى بعد ذلك بإسم الدوق ولينجتون) وهزم الفرنسيين فى فيميرو ، وأجبرهم على الانسحاب إلى أسبانيا . وأثارت أخبار هذه الهزائم هياجاً عظيماً جداً فى الخواطر فى ألمانيا والنمسا ، وعاد القيصر فأظهر ازاء حليفه قدراً أكبر من الغطرسة .

(١) الصقليتين : ملكة كانت تتكون من صقلية وجنوب إيطاليا (نابولى) . (المترجم)



(شكل ١٨٨)

تمت مقابلة أخرى بين هذين العاهلين في « إرفورت Erfurt » ، كان فيها القيصر أقل تأثراً وانهارا بخطط نابليون الوهاجة . وأعقب ذلك أربع سنوات قضتها فرنسا في رفعة مُقلَّقة غير ثابتة ، على حين كانت الحدود ترفرف على خريطة أوروبا وفرفة الثياب على حبل الغسيل في يوم رائع . ونمت إمبراطورية نابليون الشخصية بما ألحق بها صراحة من أقطار ، حتى تضمنت هولندا وشطرا كبيرا من ألمانيا الغربية وكثيراً من إيطاليا وكثيراً من الشاطئ الأدرياتيقي الشرقي . ولكن المستعمرات الفرنسية كانت تسقط في أيدي البريطانيين واحدة تلو أخرى ، وأخذت الجيوش البريطانية في شبه الجزيرة الأسبانية تدفع بالفرنسيين في بطء نحو الشمال يساعدها في ذلك المتطوعون الأسبان . وكانت أوروبا بأجمعها قد أخذت تمل نابليون أشد الملل ؛ ولم يعد خصومه عند ذلك مجرد الملوك والوزراء ، بل شعوباً بأكملها كذلك . وكان البروسيون بعد كارثة « بينا Jena » في ١٨٠٦ قد هبوا للعمل على تنظيم بيتهم . فإنهم قاموا بقيادة الفراهير فون شتين وأطرحوا نظامهم الإقطاعي

١٢٥٣

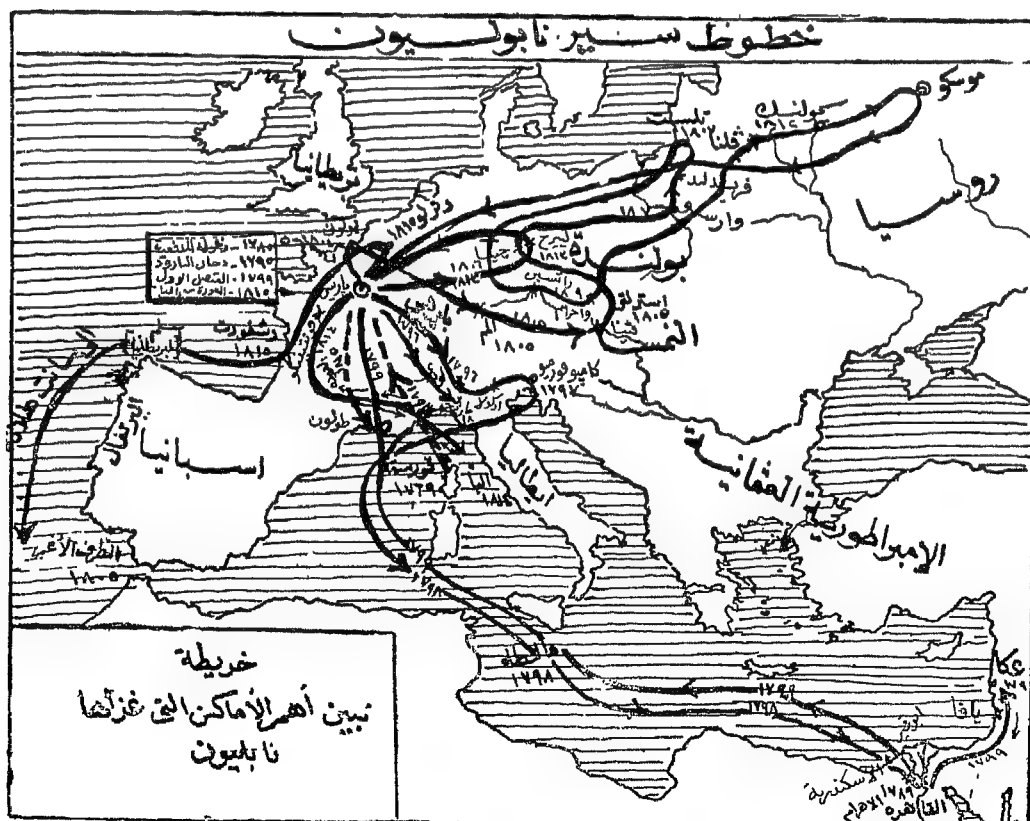
جانبا ، وألغوا الامتيازات ونظام موالى الأرض ، ونظموا التعليم الشعبى ، والوطنية الشعبية ، وأتموا تقريباً — وكان هذا فى واقع الأمر بلا نزاع داخلى — كل شىء حصلت عليه فرنسا فى ١٧٨٩ . ولما وافى ١٨١٠ كانت هناك بروسيا جديدة ، هى النواة لألمانيا الجديدة . وعند ذلك أخذ الإسكندر وقد قُذفت فى روعه فيما يبدو أحلام السيادة العالمية — يتخذ من جديد وضع صديق الحرية . وفى ١٨١٠ حدث احتكاك جديد بسبب إعتراض الاسكندر على مطامع نابليون فى الزواج . ذلك أن نابليون كان قد أخذ عند ذلك بأسباب الطلاق من معيخته القديمة جوزفين ، لأنها لم تعقب ولداً يضمن استمرار الملك فى أسرته . والآن وقد أبيت على نابليون أميرة روسية بل الواقع أن الإسكندر حقره وذكره بضعة مولده ، فإنه اتجه شطر النمسا وتزوج الأرشيدوقة مارى لويز . ذلك أن رجال السياسة النمساويين قرأوه قراءة صادقة . وكانوا على أشد الاستعداد لالقاء أميرتهم إليه . وبهذا الزواج أوقع نابليون نفسه فى أيديهم من أجل نظام الأسرة المالكة . وربما كان يستطيع أن يكون مكون عالم جديد ، ولكنه آثر أن يكون صهرا للعالم القديم .

وفى السنتين التاليتين داخل الوهن والانحطاط شثونه . فلم يعد بعد قائد الثورة ومكمل ما فاتها ؛ ولم يعد بعد ذلك هو الروح المحسد لعالم مولود من جديد ؛ بل كان مجرد صنف جديد من أصناف الأوتواقراطى أشد فجاجة . وقد باعد ما بينه وبين كل ذوى النفوس الحرة من الرجال ، كما استدعى عداوة الكنيسة له . فكان الملوك واليعاقبة فيه على رأى واحد متفق ضده عند ما بلغ رأى حد القضاء عليه . وكانت بريطانيا عند ذلك هى خصمه اللدود ، على حين كانت تتأجج فى أسبانيا روح لا بد أنها ميسورة الفهم لكل كورسيكى ؛ ولم يكن الأمر بحاجة إلا إلى شىء واحد هو الانفصال عن الاسكندر الأول لكى تدفع هذه الامبراطورية امبراطورية الخلداع والمناظر المسرحية دفعا يدعثرها ويسقطها . وجاء الخلاف . وكانت مشاعر الاسكندر نحو نابليون على الدوام مهمة مخلطة جداً ، فإنه كان يحسد نابليون بوصفه منافساً ويحتقره بوصفه عصامياً وضيق المنبت . زد على ذلك أن الاسكندر كان يتكفنه نوع من العظمة المبهمة العاطفية ؛ وقد غلبت عليه نزعة تدين صوفية ،

وأخذت تساوره فكرة رسالة تدعوه والروسيا معاً إلى اجتلاب السلام إلى العالم بتحطيم نابليون . على أن اجتلاب السلام إلى أوروبا ، لم يكن يتناقض في رأيه مطلقاً مع ضم بولندة إليه ، واستلحاقه معظم بولندة واستيلائه على أجزاء عظيمة من الامبراطورية التركية ! ؟ وكان يرغب بوجه خاص أن يعيد التجارة مع بريطانيا ، التي كان نابليون مصراً على انقطاعها . وذلك أن تجارة ألمانيا جمعاء تطلعت ، وأن طبقات التجار الألمان كانت في غيظ شديد من « النظام القارى النابليوني » ، الذى يرمى إلى القضاء على بريطانيا بطرد كل البضائع البريطانية من أقطار أوروبا أجمع . وكابدت روسيا من جراء ذلك عناء كثيراً ولعلها قاست أكثر من ألمانيا .

وجاء الشقاق في ١٨١١ ، عندما انسحب الإسكندر من « النظام القارى » . وفي ١٨١٢ اجتمعت جموع هائلة من الجنود تبلغ في مجموعها ٦٠٠,٠٠٠ مقاتل ، وأخذت تتحرك نحو روسيا تحت القيادة العليا للأمبراطور الجديد . وكان نصف هذه القوة تقريباً من الفرنسيين على حين جمع الباقون من حلفاء فرنسا والشعوب الخاضعة لها . كان جيشاً مخطئاً أشبه شىء بجيش دارا أو جيش قباز . وكانت الحرب الأسبانية ما تزال على قدم ، ولم يقم نابليون بأى جهد لإنهائها . وقد اقتطعت من فرنسا قوة يبلغ مجموعها ربع مليون رجل . فشق طريقه مقاتلاً عبر بولندة والروسيا إلى موسكو قبل حلول الشتاء — وظلت الجيوش الروسية تمنع في جل شأنها عن قتاله — وأصبح مركزه خطراً خطورة واضحة حتى قبل أن يطبق عليه الشتاء . فاستولى على موسكو متوقفاً أن يضطر ذلك الاسكندر إلى عقد الصلح . ولكن الاسكندر لم يرغب في عقد الصلح ، ووجد نابليون نفسه في مركز هو أشبه شىء بمركز دارا في جنوب روسيا ، قبل ذلك بألفين وثلاثمائة من السنين . وكان الروسيون وهم ما يزالون بعد غير مغلوبين يهاجمون مواصلاته ويفنون أفراد جيشه — يساعدهم في ذلك المرض ، فهلك من رجاله خمسة عشر ألفاً حتى قبل أن يصل إلى موسكو . ولكن كانت تعوزه حكمة دارا فلم يرغب في التقهقر . وظل الشتاء معتدلاً مدة طويلة طويلاً غير عادى — فكان في في مقدوره أن ينجو . ولكنه بدلاً من ذلك أقام في موسكو يدبر الخطط المستحيلة . فقد كان قبل ذاك سعيد الحظ سعادة عجيبة في كل مقامراته السابقة مع القدر ؛ وقد نجا من مصر نجا لا يستحقها ، وأنقذه من التحطيم في بريطانيا الانتصارات

تأخر به الأوان في أكتوبر ، بل تأخر به أكثر مما ينبغي ، قبل أن صح عزمه على العودة . فحاول محاولة غير مجدية أن يبتكر طريقه إلى خط تراجع جديد إلى الجنوب الغربي ، ثم حول وجهة من تبقى له من جيشه اللجب نحو القطر الذي عاثوا فيه فساداً أثناء تقدمهم . وكانت المسافات الشاسعة تفصلهم عن كل أرض مواتية . ولم يكن الشتاء متعجلاً . وظل الجيش العرمرم أسبوعاً وهو يكافح بين الوحول ، ثم جاء الصقيع الشديد ألواناً ، ثم تهاطلت أوائل ندف الثلج ، ثم الثلج فالثلج



(شکل ۱۸۹)

وأخذ النظام ينحل رويداً رويداً . وانتشر الجيش الجائع يبحث عن الميرة حتى أصبح مجرد ثلث من المغيرين . وقام الفلاحون عليهم دفاعاً عن النفس على أقل تقدير وأخذوا يكمنون لهم في الطرقات ويقتلونهم . وكانت غمامة من الراكبة الخفيفة ما تنفك تلاحقهم وتصيب منهم على الشاكلة الإسكيدية^(١) . وهذا التقهقر من أكبر مآسى التاريخ .

وأخيراً ظهر نابليون في ألمانيا ومعه هيئة قيادته وثلة من الحرس والأتباع ، ولم يحضر معه جيشه ، وإنما كانت تتبعه فقط شراذم تجر سيقانها جرأً ، وقد فقدت كل معنوياتهم . ولكن الجيش العظيم المتقهقر بقيادة موراه وصل إلى كونجسبرج في حالة انتظام ، بعد أن لم يتبق منه إلا ألف من الرجال من قرابة الستمئة ألف . وتراجع موراه من كونجسبرج إلى پوزن . وكانت الفصيلة البروسية قد استسلمت للروس ؛ وانفصل عنه النمسيون واتجهوا جنوباً نحو وطنهم . وفي كل مكان كان اللاجئون المتناثرون والرثو الثياب الهزيلو الأجساد الذين عضهم الصقيع ينشرون أخباراً للكارثة .

لقد تبدد سحر نابليون أو كاد . ففر مهرولاً إلى باريس . وشرع ينظم مجندين جدداً ويجمع جيوشاً جديدة بين حطام إمبراطوريته العالمية . وانقلبت عليه النمسا ١٨١٣ ؛ وكانت أوروبا بأكملها توافقه إلى الثورة على مؤتمن الحرية الذى قصر في حقوقها وفرط في أمانتها ، ولم يخرج عن مجرد مغتصب محض . لقد تخلى عن النظام الحديد ، فالآن دمره النظام القديم ، الذى أنقذه وابتعثه . وثار بروسيا ، وابتدأت « حرب التحرير » الألمانية وانضمت السويد إلى زمرة أعدائه . وثار هولندا بعيد ذلك وكان موراه جمع في پوزن حول نواته المنظمة أربعة عشر ألف فرنسى . وتراجعت هذه القوه خلال ألمانيا ، كما قد يتراجع رجل تجرأ على المرور وسط قفص مليء بالسباع المخدرة فوجد آثار التخدير قد أخذت تتبخر . وفي الربيع تناول نابليون القيادة العليا على جيوش جديدة ، ثم كسب معركة عظيمة عند درسدن ، ثم يلوح أنه قد أصيب ردىاً من الزمان بتشتت وانهيار في قواه الفكرية والمعنوية . فأصبح سريع التأثير بشكل جنونى ، ثم أخذت تلم به أحياناً حالات

(١) الإسكيدية أو الاشتقودية أنظر ص ٣٤٣ ح ٢ من المعالم ط ٢ . (المترجم)

من الجمود . فإنه لم يفعل إلا القليل ، أو لم يفعل شيئاً على الإطلاق يشفع به معركة درسدن . وفي سبتمبر نشبت « معركة الأمم » حول ليبزج وبالقرب منها ، وانضم السكسون في أعقاب ذلك إلى الحلفاء وكانوا حتى ذلك اليوم يتبعون نجمه . ولم تنته السنة حتى كان الفرنسيون يتراجعون إلى فرنسا منحدريين .

وكانت ١٨١٤ هي حملة الختام . فاجتاحت فرنسا من الشرق والجنوب . فعبّر الراين السويديون والألمان والتمسويون والروسيون ، وجاء البريطانيون والأسبان من فوق جبال البرانس . وأخذ نابليون يقاتل مرة أخرى قتالاً زاكياً رائعاً ، ولكنه قتال غير مجد . على أن الجيوش الشرقية لم يستطع أن تهزمه قدر ما استطاعت أن تشق طريقها إلى جواره ، واستسلمت باريس في مارس . ولم يمض طويل حتى تنازل الإمبراطور في فونتينبلو عن العرش وكادت تقضى على حياته جماعة من الرعايا الملكيين في بروفانس وهو في طريقه إلى الخارج .

٥ - المئة يوم

تلك هي الخاتمة الطبيعية الصائبة لحياة نابليون^(١) . وما قد قضى عليه آخر الأمر . فلو كانت هناك حكمة حقيقية في تصريف الشؤون الانسانية ، لوجب علينا الآن أن نحدثك عن تمرکز العلم الإنساني والإرادة الإنسانية ، وتوفيرها على أداء الواجب الذي قطعت حياته حبل أوائه وأعني به واجب إنشاء نظام عالمي للعدالة والجهد الحر بدل النظام القديم المفلس . ولكننا لسنا بمحدثيك عن شيء من هذا القبيل . فقد كان العلم والحكمة غائبين غياباً طاهراً ملموساً عن مجلس الحلفاء العظيم . ووافت إليه النزعة الإنسانية المهمة والغرور الحالم عند القيصر الإسكندر ، ووافاه آل هابسبرج التمسويون الضعفاء ، وآل هوهنزولرن البروسيون المغضبون ، ووفدت عليه تقاليد بريطانيا الأرستقراطية وهي ما تزال وجلة الروح من الثورة ،

(١) الملاحظ هنا أن المؤلف يشتد في أحكامه على نابليون ويقسو عليه ويقلل من أهميته وينتقص قدر فتوحه ، بل ويكاد يشمت فيه عند ما سقط ، وما أدري هل خرج ولز هنا عن نزعة الانصاف التي انتاز بها ، أم غلت عليه النزعات البريطانية ؟ . (المترجم)

وضميرها لا يبرح منحرفاً مثقلاً بما يبهظه من أراضى عامة مغتصبة وأطفال مصانع مكودودين عملاً . ولم يحضر المؤتمر أى شعب من الشعوب بل توافى له الملوك ووزراء الخارجية دون غيرهم . ولم يكده المؤتمر يجتمع حتى أقبل الدبلوماسيون على العمل على عقد الصفقات والمعاهدات السرية كل من وراء ظهر أخيه . وبين مظاهر الفخامة والجلال التى لا يعلو عليها شئ ، اجتمع المؤتمر فى فيينا بعد زيارة شرف فخمة أداها ملوك الحلفاء للندن . وكانت الناحية الاجتماعية من المؤتمر قوية جداً ، فقد كثرت فيه السيدات الحسان ، وتألفت به مجموعة زاهرة من النجوم وأصحاب البدلات الرسمية ، وأقيمت به ما لا نهاية له من المآدب وحفلات الرقص ، وروى فيه فيض جارف من النوادر والكات المشرقة اللآلاء . وكان أذكى أفراد المجتمعين روحاً شخص بعينه اسمه تاليران ، وهو أحد « أمراء » نابليون ، كان حقاً رجلاً ذكياً جداً ، عمل قسيساً قبل عهد الثورة ، وهو الذى اقترح ما قامت به الثورة من مصادرة أملاك الكنيسة ، وهو الذى كان الآن داعية إلى إعادة آل بوربون ؟ !

وأضاع الحلفاء الثنين من الزمان فى منازعات تجلى فيها الطمع والجشع مترايين ، وعاد آل بوربون إلى فرنسا . وعاد معهم بقية « المهاجرين Émigrés » ، وهم أشوق ما يكونون إلى التشفى والانتقام . وكأنما دفعت أنانية عظيمة جانباً — لا شئ إلا لكى تكشف الستر عن حشد من الأنانيين الأكثر دناءة وخسة . كان الملك الجديد أخاً للويس السادس عشر ، وما كان أشد تلهفه إلى التسمى باسم لويس الثامن عشر بمجرد أن علم بوفاة ابن أخيه (لويس السابع عشر) فى المعبد . كان مصاباً بالنقرس ، وبليداً . ولعله لم يكن من ذوى المقاصد السيئة ، غير أنه كان رمزاً يمثل النظام القديم البالى ، فأحس كل ما هو جديد فى فرنسا بنذير الرجعية الثقيل الذى لازم مجيئه . لم يكن ذاك تحريراً ، بل استبداداً وطغياناً جديداً ليس غير — بل هو طغيان ثقيل وضع بدلاً من آخر نشيط رائع .

أليس أمام فرنسا من أمل غير هذا ؟ وأظهر آل بربون حقلاً خاصاً إزاء كبار ضباط الجيش العظيم ، وكانت فرنسا فى ذلك الحين غاصة بأسرى الحرب العائدين ، الذين وجدوا أنفسهم فى ظل نعمة قائمة . وقد أرسل نابليون إلى إمبراطورية

صغيرة في جزيرة إلبا يتعزى بها عما أصابه . وكان على أن يظل ملقباً باللقب الإمبراطوري وأن تكون له دولة بعينها . فإن فروسية الإسكندر . . أو هوائيته . . أبت إلا أن يعامل منافسه المخلوع هذه المعاملة . وانتزع آل هابسبرج منه إمبراطورته الهابسبرجية - فذهبت راضية قريرة العين إلى فيينا ، ولم يرها ناپليون بعد ذلك أبداً .

وبعد أن قضى ناپليون في إلبا أحد عشر شهراً قدّر أن فرنسا ضاقت ذرعاً بآل بوربون ، فاحتال حتى أفلت من السفن البريطانية التي كانت تراقب جزيرته وظهر في كان بفرنسا ليقوم بآخر لعبة له مع القدر . وكان مسيره إلى باريس موكب نصر عظيم ، وطأ فيه بقدميه القبعات البوربونية البيضاء . ثم غدا ، أمد مئة يوم « وهي فترة المئة يوم » سيداً على فرنسا من جديد .

وأثارت عودته حالة ارتباك لدى كل فرنسي شريف . فمن ناحية كان ثمة هذا المغامر الذي خان الجمهورية ، وكان هناك من الناحية الأخرى ذلك العبء السمج الذي جلبته عودة الملكية القديمة . ولم يكن الحلفاء ليقبلوا أن تحدث أى تجارب جديدة في موضوع الجمهورية . ومن ثم كان الاختيار عندهم بين أمرين : إما ناپليون وإما آل بوربون . أعجيب إذن أن تكون فرنسا على الإجمال في صف ناپليون ؟ وها هو ذا قد عاد معترفاً بأنه تغير وأصبح رجلاً آخر ، فلن يكون ثمة أى طغيان ، ولسوف يحترم النظام الدستوري .

جمع جيشا ، وبذل بعض المحاولات في سبيل السلام مع الحلفاء ، على أنه ما لبث عندما وجد هذه الجهود غير مجدية ، أن تقدم فحضر البريطانيين والهولنديين والروسين في بلاد البلجيك ضربة سريعة ، مؤملاً أن يهزمهم قبل أن ينضم إليهم النمسيون والروس . فأوشك أن يصل إلى غرضه هذا تقريباً . فإنه كسر البروسيين عند لجنى (Ligny) ، وإن لم يكسرهم بالقدر الكافي ، وعند ذلك هزم هزيمة لا أمل له بعدها نتيجة لصلابة عود البريطانيين بقيادة ولنجتن عند وتُزلو (١٨١٥) ، على حين وصل البروسيون بقيادة بلوخر وأطبقوا على جناحه الأيمن وقد تقدم النهار . وانتهت معركة وتُزلو بتشتيت شمل جيشه ، وغادرت ناپليون بلا معين

وبلا أمل . وأعرضت عنه فرنسا مرة ثانية وكان كل إنسان انضم إليه تواقا عند ذاك إلى مهاجمته والتبرؤ منه حتى يمحو الغلظة التي ارتكب . وأمرته حكومة مؤقتة في باريس أن يغادر البلاد ، وأمهلته أربعاً وعشرين ساعة يتم فيها ذلك .

فحاول أن يذهب إلى أمريكا ، ولكن ميناء روفنور التي وصل إليها كانت تراقبه الطرقات البريطانية . والآن وقد رفعت عن أعين فرنسا غشاوة الأوهام ، وعادت فأصبحت على مضض ملكية من جديد ، فلأنها قامت تلاحقه في حرارة . فاعتلى ظهر مدمرة بريطانية ، هي البلروفون طالباً أن يُقبل لاجئاً لائئلاً ، ولكنه في الواقع عومل كأسير . فأخذ إلى بليموث ثم حل من بليموث مباشرة إلى جزيرة سانت هيلينا المدارية الموحشة .

وهناك بقي حتى وافته منيته بالسرطان في ١٨٢١ ، بعد أن كرّس نفسه بوجه رئيسي لتحضير مذكراته ، التي كانت خطته فيها أن يعرض كبريات أحداث حياته تحت ضياء ساطع جذاب ، وكان رجلاً من معه يسجلان محادثاته ، ويثبتان انطباعاتهما عنه .

وراجت هذه المؤلفات رواجاً عظيماً في فرنسا وأوروبا . وظل الحلف المقدس بين ملوك روسيا والنمسا وبروسيا (الذي دعى ملوك آخرون للانضمام إليه) يعمل عمله بمشقة كبيرة في ظلال وهم باطل بث في روعهم أنهم يوم هزموا نابليون قد هزموا الثورة ، وأرجعوا ساعة القدر أدراجها ، وأعادوا الملكية العظمى إلى أبد الآبدين . ويقال إن الوثيقة الرئيسية لخطة الحلف المقدس رسمت بوحى من البارونة فون كروندر ، التي يبدو أنها كانت نوعاً من المدبر الروحي للإمبراطور الروسي وكانت بدايتها كما يأتي : « باسم الثلاث المقدس الذي لا تنفصم عراه » ، وكانت تلزم الملوك المشتركين فيها ، « بأن يعدوا أنفسهم نحو رعاياهم وجيوشهم في مكان الوالد من العائلة » وأنهم « إذ يعدّ أحدهم الآخر مواطناً له » ، يشد أحدهم أزر الآخر ، ويحمون الدين الحق ويحفظون رعاياهم على تقوية أنفسهم وتدريبها على القيام بالواجبات المسيحية . ويصرح الحلف بأن المسيح هو الملك الحق لكل الشعوب المسيحية ، وعسانا نستطيع أن نلاحظ أنه

كان بناء على هذا ملكاً ميروغنجيا بكل معاني الكلمة ولا سلطان له إزاء هؤلاء الملوك المترعين في دست الأحكام والذين هم لديه بمسابة محافطين^(١) للقصر ؟ . . ولم يكن للملك بريطانيا أى سلطة تحول له أن يوقع هذه الوثيقة ، ولم يطلب أحد إلى البابا ولا السلطان أن يوقعها ، وانضم إليها سائر ملوك أوروبا بما فيهم ملك فرنسا . على أن ملك بولندة لم يوقع لأنه لم يكن ثمة ملك لبولندة ! ! ، وذلك لأن الإسكندر قام وهو في حالة من حالات الذهول الورع فالحق ببلاده معظم بولندة ! . ولم يصبح الحلف المقدس أبداً مخالفة قانونية بين الدول ، بل حلت محله عصبة أمم حقيقية ، هي « اتحاد أوروبا » الذي انضمت إليه فرنسا في ١٨١٨ ، والذي انسحبت منه بريطانيا في ١٨٢٢ . وعقبت ذلك فترة سلام وعسف في أوروبا . وكان كثير من الناس يميلون في تلك الأيام التي انقطع فيها حبل الأمل أن يرمقوا حتى نابليون نفسه بنظرة إحسان ، وأن يقبلوا منه إدعاءه بأنه عندما كان يؤيد حقه ، كان يؤيد حق الجمهورية وفرنسا ، على طريقة لا يمكن تفسيرها . ونمت بعد وفاته نحلة تعدده شيئاً ذا بطولة صوفية دينية .

٦ - خريطة أوروبا في ١٨١٥

ظلت فكرة الحلف المقدس ، والاتحاد الأوربي الذي تمخض عنه ذلك الحلف ، وسلسلة المؤتمرات والاجتماعات التي عقت الاتحاد ، محافظة مدة أربعين عاماً على سلام مرعزع الأركان في أوروبا التي خرجت من الحروب منهوكة القوى . وهناك أمران رئيسيان حالاً بين هذه الفترة وبين أن تكون سلاماً اجتماعياً ودولياً كاملاً ، ومهداً السبيل لدورة الحرب التي وافت بين ١٨٥٤ ، ١٨٧١ . وكان أول هذين الأمرين هو ميل البلاطات الملكية المختصة إلى استرداد الامتيازات غير العادلة ، والتدخل في حرية الفكر والكتابة والتعليم . وكان الثاني هو مجموعة الحدود المستحيلة التي رسمها الديبلوماسيون في فيينا .

(١) محال القصر : في ذلك إشارة إلى تاريخ بين وشارل مارتل فليرجع إليها القارئ ص ٨٣٦ ج ٣ من المعالم ٢ . حيث كان الملك اسماً للأسرة الميروفنجية ومقاليده الحكم كلها بيد محافظ القصر الذي يتولاها باسم الملك . (المترجم)

وكان ميل الملكية إلى الرجوع إلى الأحوال القديمة البائدة واضحاً أولاً وبوجه خاص في أسبانيا . حتى لقد بلغ الأمر هناك أن أعيدت محاكم التفتيش . فأما عبر المحيط الأطلسي ، فإن المستعمرات الأسبانية حذت حذو الولايات المتحدة واثارت على نظام الدول الكبرى الأوربي ، عندما نصب نابليون أخاه جوزيف ملكاً على أسبانيا في (١٨١٠) . وكان زعيم الاستقلال وواشنطن أميركا الجنوبية هو الجنرال بوليفار . ولم تستطع أسبانيا أن تقمع هذا العصيان ، فطال به الأمد مثلما طال بحرب استقلال الولايات المتحدة ، وأخيراً تقدمت النمسا باقتراح يتسق وروح الحلف المقدس ، تذكر فيه أن من واجب ملوك أوربا أن يساعدوا أسبانيا في كفاحها ذلك . فعارضت في ذلك بريطانيا في أوربا ، فأما في أميركا فإن العمل السريع الذي قام به رئيس الولايات المتحدة الرئيس مونرو في (١٨٢٣) ، هو الذي قضى على مشروع هذا الاسترداد لسلطان الملوك قضاء نهائياً . فإنه أعلن أن الولايات المتحدة تعدّ أي بسط للنظام الأوربي في نصف الكرة الغربي عملاً عدائياً . وبهذا نشأ « مبدأ مونرو » ، الذي ضد نظام الدول الكبرى عن أميركا قرابة مئة من السنين ، وسمح للدول الجديدة في أميركا الأسبانية بأن تكون مقدراتها على الشاكلة التي ترضيها . ولئن فقدت الملكية الأسبانية مستعمراتها ، فقد كانت على الأقل تستطيع تحت حماية الاتحاد الأوربي أن تفعل ما تشاء في أوربا . وأخذ جيش فرنسي فتنه شعبية قامت في أسبانيا في (١٨٨٣) ، بانتداب من أحد المؤتمرات الأوربية ، وفي الوقت ذاته قعت النمسا ثورة شبت في نابلي .

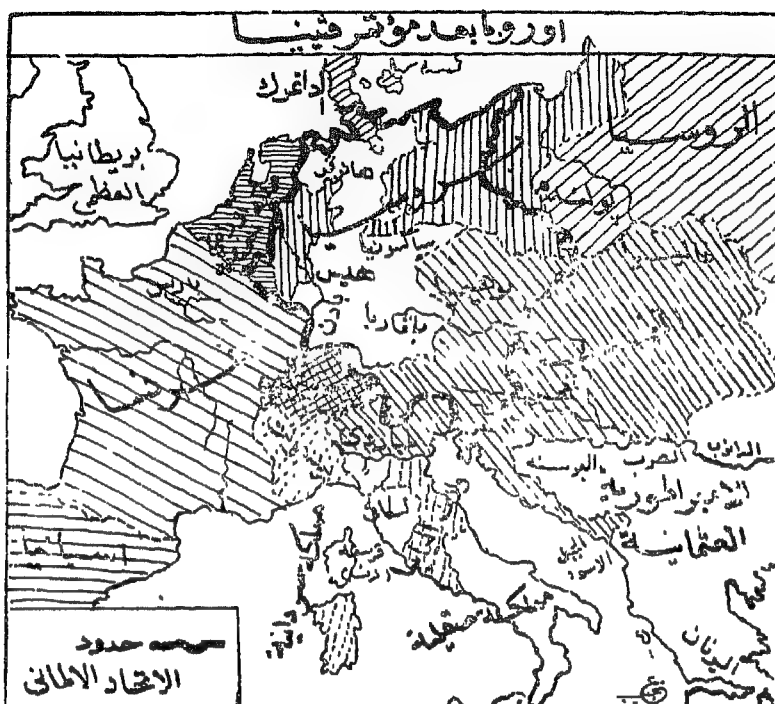
وفي (١٨٢٤) مات لويس الثامن عشر ، وخلفه كونت أرتوا الذي رأيناه مهاجراً يرفرف ويحوم من فوق الحدود الفرنسية في (١٧٨٩) فاتخذ لقب شارل العاشر . ونصب شارل نفسه لتدمير حرية الصحافة والجامعات وإعادة الحكم المطلق ، وأخذ الصوت بالموافقة على اعتماد بليون فرنك لتعويض النبلاء عن إحراق قصورهم ومصادرة أملاكهم في (١٧٨٩) . وفي (١٨٣٠) ثارت باريس ضد هذا الملك الذي يتمثل فيه النظام العهيد^(١) ، وتبدل به لويس فيليب ابن فيليب دوق أورليان

(١) ورد في معجم الوسيط ما نصه : « العهد : القديم العتيق الذي مر عليه عهد طويل » .
(المترجم)

١٢٦٣

المعروف ، الذى حكم عليه بالإعدام أثناء حكم الإرهاب . ولم تتدخل فى هذا الشأن بقية الملكيات الأخرى بأوربا ، إذ واجهها استحسان علنى من بريطانيا العظمى واختمار تحريرى قوى فى ألمانيا والنمسا . ومهما يكن من شىء فإن فرنسا كانت ما تزال محتفظة بالنظام الملكى . وظل هذا الملك الشاب لويس فيليب (١٨٣٠ - ١٨٤٨) هو ملك فرنسا الدستورى أمد ثمانية عشر عاماً . ولكنه سقط فى (١٨٤٨) وهى سنة عظيمة الأحداث فى أوربا ، وسنحدثك عنها فى الفصل التالى .

تلك هى التأرجحات القلقة التى أملت بصلح مؤتمر فيينا ، والتى أثارها التصرفات الرجعية لأنصار الملكية . فإن التأزمات التى نشأت عن خريطة الدبلوماسيين غير المدروسة دراسة علمية تسببت فى تجمع القوى بتعمد أكثر ، ولكنها كانت أشد خطراً على سلام البشرية . فإن من أكثر الأمور عسراً ومضايقة أن يدير السياسى شئون أقوام مختلفين عنصرياً يتكلمون لغات مختلفة وبقراءون من ثم أدياً مختلفاً ولهم أفكار عامة مختلفة ، وخاصة إذا بلغت هذه الفروق والاختلافات حد السخط بسبب المنازعات الدينية . وليس فى طوق أى شىء اللهم إلا بعض المصالح القوية المتبادلة (من أمثال إحتياجات الدفاع المشترك لدى سكان سويسرا الجبلين) ، أن يبرر إقامة ترابط وثيق بين شعوب متباينة فى لغاتها وعقائدها ، بل إن سويسرا ذاتها يقوم بها أقصى درجات الحكم الذاتى المحلى استقلالاً . وعندما تموت فى النهاية تقاليد الدولة الكبرى وتوارى التراب فعسى هؤلاء السكان السويسريون أن ينجذبوا نحو وشائجهم الطبيعية فى ألمانيا وفرنسا وإيطاليا . وعندما يكون الحال كشأنه فى مقدونيا حيث يختلط السكان تخطاً موزعاً إلى رقاع صغيرة من القرى والنواحي ، فعندئذ تحتم الظروف قيام نظام الكانتونات . ولكن إذا نظر القارئ إلى خريطة أوربا كما رسمها مؤتمر فيينا ، رأى أن هذا المجلس كان كمن يرسم خطة الوصول بالسخط المحلى إلى أقصاه . فإنه دمر الجمهورية الهولندية ، ثم راح بغير ما داع ، فجمع بين الهولنديين الروتستانت وبين الكاثوليك المتكلمين بالفرنسية الذين كانوا فى الأراض المنخفضة الأسبانية (النمسية) . وأقام بهما مملكة للأراضى المنخفضة . ولم يكتف بأن يسلم جمهورية البندقية القديمة فقط ، بل كل شمال إيطاليا حتى ميلان



(شکل ۱۹۰)

للمسويين الناطقين بالألمانية . وأدمج منطقة الساقويا الناطقة بالفرنسية مع أجزاء من إيطاليا بغية إرجاع مملكة سردينيا . وكانت امبراطورية النمسا والمجر من قبل ذلك خليطاً به ما يكفيه من عوامل التفجر من الجنسيات المتنافرة غير المتسقة ما بين ألمانيين ومجريين وتشيكوسلوفاك ويوغوسلاف ورومانيين وانضم إليهم الآن الإيطاليون ، ثم جعلتها أحداث (١٧٧٢ ، ١٧٩٥) أكثر استحالة مما كانت . فأما البولنديون الكاثوليك ذوو الروح الجمهورية فقد أسلموا بصفة رئيسية إلى حكم القيصر الأقل حضارة وصاحب الدين اليوناني الأرثوذكسي ، عدا أن أجزاء هامة منها ذهبت إلى بروسيا البروتستانتية . كذلك ثبت قدم القيصر فيما احتازه من بلاد الفنلنديين المختلفين عنه اختلافاً كلياً . ورُبط الشعبان غير المتشابهين النرويجي والسويدي تحت حكم ملك واحد . وتركت ألمانيا - كما سيرى القارئ - في حالة ارتباك خطيرة بوجه خاص .

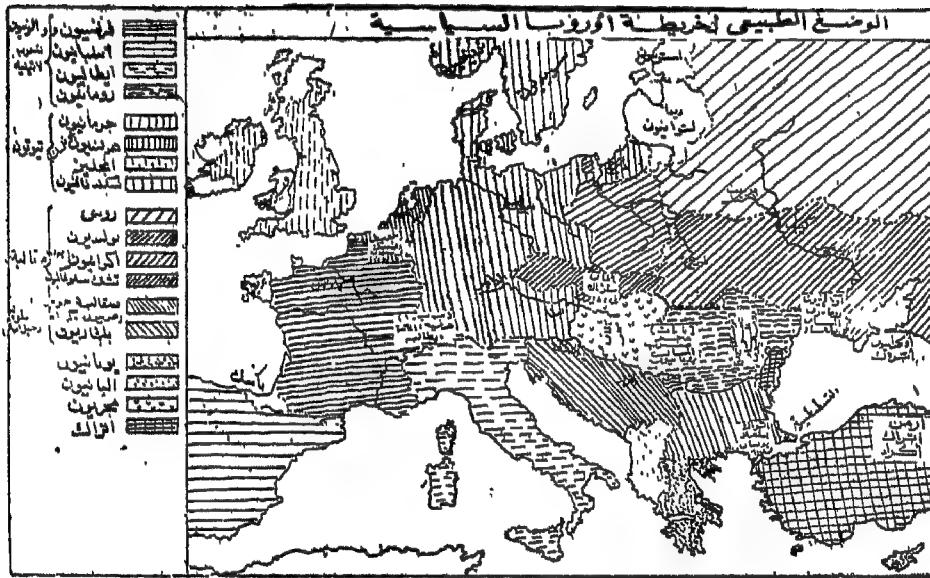
فقد كانت كل من بروسيا والنمسا داخلتن جزئياً وخارجتن جزئياً في اتحاد كنفدرالى

١٢٦٥

(Confederation) ألماني كان يضم عدداً كبيراً من الدول الصغرى . ودخل ملك الدانمارك على مائدة الاتحاد الكنفدرالى بسبب وجود ممتلكات له في ذلك الاتحاد تتكلم الألمانية في هولشتين . وأدخلت لكسمبورج في ذلك الاتحاد الكنفدرالى الألماني ، مع أن حاكمها كان كذلك هو ملك الأراضي المنخفضة ، ومع أن كثيراً من سكانها كانوا يتكلمون الفرنسية . وهنا تلمس اغفالا تاماً لحقيقة واقعة هي أن القوم الذين يتكلمون الألمانية ويبنون فكراتهم على الأدب الألماني ، وأن القوم الذين يتكلمون الإيطالية ويبنون فكراتهم على الأدب الإيطالي ، وأن القوم الذين يتكلمون البولندية ويبنون فكراتهم على الأدب البولندي سوف يكونون جميعاً أسعد حالاً ويكونون من أعود الناس على سائر الإنسانية نفعاً ومعونة وأقلهم بها شراً وضراً ، إذا هم أداروا شئونهم على تراكيب لغتهم داخل نطاق لسانهم الخاص . أعجيب إذن أن تكون من بين أشد الأغنيات ذيوغاً في الناس في ألمانيا أثناء تلك الفترة ، أغنية تصرح بأنه حيثما كان اللسان الألماني يتكلم ، كانت أرض الأجداد الألمانية .

ولا يزال الناس حتى في يومنا هذا كارهين أن يعترفوا بأن مناطق الحكم ليست من الشئون التي يجوز فيها المساومات والتفاعلات بين القياصرة والملوك ووزارات الخارجية . وهناك « خريطة ضرورية سياسية للعالم » تتعالى فوق كل هذه الأمور . وثمة طريقة أخرى هي « أحسن الطرق المستطاعة » يقسم بها أى جزء من أجزاء العالم إلى مناطق إدارية ، وذلك بالنظر إلى لغة وجنس سكانها ، ولأنه لما يهمننا جميعاً أن نضمن وجود هذه الأقسام وأن تؤسس أشكال الحكومة تلك بصرف النظر تماماً عن الدبلوماسية والرايات « والمدعيات » « والولاءات » الميلودرامية الانفعالية ، وعن خريطة العالم السياسية الموجودة اليوم . وخريطة العالم السياسية المخططة حسب الطبيعة تأتي إلا أن تنفلد . وهي تضطرب وتتحرك تمللا من دون الخريطة السياسية الاصطناعية كما يتململ جبار في وضع لا يريحه . ففي (١٨٣٠) قامت بلاد البلجيك الناطقة بالفرنسية - وقد حفزتها الثورة في فرنسا - فثارت على شريكها الهولندية في مملكة الأراضي المنخفضة . وسارعت الدول إلى تسكين هذا الموقف وقد أربعها إمكان

قيام جمهورية بها أو إستلحاقها إلى فرنسا ومنحت البلجيكيين ملكا هولوبولد الأول أمير ساكس كوبرج جوتا . وحدث كذلك في (١٨٣٠) ثورات لم يكتب لها التوفيق بإيطاليا وألمانيا ، وفترة أشد خطورة بكثير في بولندة الروسية . وقامت في وارسو حكومة جمهورية وصمدت عاما كاملا حيال نيقولا الأول (الذي خلف الإسكندر في ١٨٢٥) ، ثم قُضى عليها عند ذلك بعنف وقساوة كبيرين . وصدر قرار بتحريم اللغة البولندية ، واستبدلت بالكنيسة الكاثوليكية الكنيسة اليونانية الأرثوذكسية بوصفها الديانة الرسمية للدولة . . .



(شكل ١٩١)

وهناك انفجار في خريطة العالم السياسية المطابقة للطبيعة حدث في (١٨٢١) ، وانتهى بالحصول على مناصرة إنجلترا وفرنسا والروسيا . وكان ذلك الانفجار هو ثورة اليونان ضد الأتراك . ذلك أن اليونانيين ظلوا يقاتلون قتال المستيئس أمدست سنوات ، على حين وقفت حكومات أوروبا تنظر إليهم متفرجة . واحتج الرأي الحر على هذه الجحود ؛ وانضم إلى الثوار المتطوعون من كل دولة أوروبية ، وانتهى الأمر بأن قامت بريطانيا وفرنسا والروسيا بعمل مشترك . فدمر الأسطولان الإنجليزي

١٢٦٧

والفرنسي الأسطول التركي في معركة نوارين (١٨٢٧). وغزا القيصر تركيا . وأعلنت حرية بلاد اليونان بمعاهدة أدرنة (١٨٢٩) ، ولكن لم يسمح لها بأن تواصل تقاليدھا الجمهورية القديمة . واتخذت الدول لبلاد اليونان ملكاً ألمانيا هو أمير بافاريا اسمه أوتو - فغلبت عليه أوهاام اعترته حول حقه المقدس ، ونبذ في ١٨٦٢ - وأقيم حكام مسيحيون في الولايات الدانوبية (التي هي الآن رومانيا) ، وسربيا (وهي جزء من منطقة يوغوسلافيا) . وكان هذا إذعانا جزئيا للخريطة السياسية الموافقة للطبيعة ، ولكن كان لا بد من سفك الدم الكثير قبل أن طرد التركي طرداً تاماً من هذه الأراضي . وبعد ذلك بزمن يسير قامت الخريطة السياسية المطابقة للطبيعة تنادى بحقوقها في ألمانيا وإيطاليا .

٧ - طراز الإمبراطورية

انعكست محاولة نابليون إعادة الإمبراطورية الرومانية إنعكاساً تبدت فيه الأمانة البالغة في فن العمارة والثيراب والأثاث وفن التصوير في تلك الفترة . وقد قاموا في كل هذه الأمور بمحاولة ابتعاث الأشكال والروح المطابقة لواقع روما الإمبراطورية . وكأنما أفلتت من المتاحف ألبسة الرأس النسائية وثيراب السيدات وخرجت تسعى في الطرقات . وأخذت مجاميع الأعمدة وأقواس النصر تهادى وتبختر في طريقها إلى أعظم مواقع المدن الكبرى كافة . وفازت باريس بقوس النصر وقلدتها لندن على الفوز فكان لها قوس الرخام (Marble Arch) . واختفت من الوجود تطورات البروق (الباروك)^(١) والروكوكو^(٢) في مباني النهضة لأن الناس فضلوا عليها واجهات

(١) كلمة باروك مأخوذة عن الكلمة البرتغالية Barroco ومعناها الجوهرة غير المنتظمة الشكل وتدل في الاصطلاح الفني على طراز خاص شديد الزخرف شاع في أوروبا بين عامي ١٦٠٠ - ١٧٢٠ أو ١٧٦٠ والكلمة من أصل عربي هو لفظ « براق » . (المترجم)

(٢) روكوكو : مأخوذة عن الكلمة الفرنسية Rocaille ومعناها الحصى على شكل الصدفة وهو اصطلاح في الفنون الزخرفية يطلق على زخرف يتألف من الأصداق والأحجار وقد شاع منذ عام ١٨٣٠ عند ختام الطراز الباروكي (المترجم)

أخرى أفسى وأعبس مظهرًا . وكان كانوفا الإيطالي هو المثال العظيم لذلك الزمان . وكان دافيد يطرب لأشكال الأبطال العراة . وخلد إنجرس^(١) أميرات نابليون على صورة ربات منازل رومانيات وربات رومانيات . وتمثيل لندن العامة تمثل ساسة تلك الفترة وملوكها الموقرين في أشكال أعضاء السناتو والأباطرة . وعندما اختارت الولايات المتحدة تصميمًا لخاتمها الأعظم ، كان من الطبيعي أن تختار فيه النسرة وأن تضع في مخالفه سهم المشتري^(١) .

(١) المشتري : أكبر آلهة الرومان . (المترجم)

الفصل السابع والثلاثون

حقائق القرن التاسع عشر وخيالاته

- ١ - الانقلاب الآلى .
- ٢ - العلاقة بين الانقلابين الآلى والصناعى .
- ٣ - اختتام الفكرات فى ١٨٤٨ .
- ٤ - تطور فكرة الاشتراكية .
- ٥ - عيوب الاشتراكية بوصفها خطة للجماعة
- ٦ - كيف أثر مذهب داروين فى الفكرات
- ٧ - فكرة القومية .
- ٨ - المعرض الكبير فى ١٨٥١
- ٩ - سيرة حياة نابليون الثالث .
- ١٠ - لنكولن والحرب الأهلية فى أمريكا .
- ١١ - الحرب الروسية التركية ومعاهدة برلين .
- ١٢ - التدافع الثانى على الإمبراطوريات وراء البحار .
- ١٣ - السابقة الهندية فى آسيا .
- ١٤ - تاريخ اليابان .
- ١٥ - ختام فترة التوسع وراء البحار .
- ١٦ - الإمبراطورية البريطانية فى ١٩١٤ .
- ١٧ - التصوير والنحت . والعارة فى القرن التاسع عشر .
- ١٨ - الموسيقى فى القرن التاسع عشر .
- ١٩ - نهوض القصة إلى المرتبة العليا فى الأدب .

١ - الانقلاب الآلى

تبدو حياة نابليون الأول وشخصيته فى مؤلفات القرن التاسع عشر التاريخية ضخمة لا تتناسب وأهميته . فإنه كان قليل الأهمية بالنسبة للحركة الرجعية السائرة قدماً بالشئون الإنسانية نحو الأمام . ولم يزد على أن كان مقاطعاً لتلك الحركة ومذكراً بالشروط الكمية ، كما كان أشبه شىء بباكتريا بعض الأوبئة . ولو نظرنا إليه حتى من زاوية الأوبئة واعتبرناه باكتريا ، فإنه لم يكن منها فى المقام الأول ؛ فإنه قضى على عدد من الأنفس يقل عما قضى عليه وباء الأنفلونزا فى سنة ١٩١٨ ، وأنتج من التمزيق السياسى والاجتماعى أقل مما أنتجه الطاعون فى عصر چسنينان .

لم يكن بد من ظهور تمثيلته الصغيرة على المسرح بين فصول المسرحية الكبرى ، ولم يكن مندوحة من حدوث تلك التسوية الأوربية المرقعة التي تنبى في الاتحاد الأوربي ، ذلك أنه لم يكن هناك مجموعة مدروسة من الأفكار يمكن أن يقام عليها عالم جديد . وإن الاتحاد الأوربي نفسه كان ينطوي على عامل من عوامل التقدم . فإنه على الأقل أطرح جانباً روح « الفردية » الممثلة في الملكية المكيافلية وأعلن أنه توجد دولة إنسانية أو على الأقل دولة أوربية . فلئن قسم ذلك الاتحاد العالم بين الملوك ، فإنه أدى تحية التجارة والإكبار للوحدة الإنسانية وخدمة الله والإنسان .

والواجب الدائم الأثر الذي كان على الإنسانية أداؤه ، قبل أن يكون في الإمكان إقامة أى بناء سياسى واجتماعى جديد مستديم ، وهو الواجب الذى ما تزال القطنة الإنسانية منشغلة به رغم ما ألم به من فترات التوقف والمقاطعة وما أحاط به من مظاهر الغضب والشغب - كان وما ينفك هو واجب إنتاج وتطبيق : « ا » علم للملكية يكون أسساً تبنى عليه الحرية والعدالة الاجتماعية ، « ب » علم للعملة يضمن وجود وسيط اقتصادى كفاء ، « ج » علم لأصول الحكم والعمليات الجماعية ، يستطيع به الناس في كل مجتمع أن يتعلموا كيف يتولون مصالحهم المشتركة بتوافق وانسجام ، « د » علم للسياسة العالمية يمكن أن يقضى على ما في الحروب بين الجنس والجنس ، والشعب والشعب ، والأمة والأمة ، من التدمير والإسراف الشديد والفساوات الفظيعة ، ويمكن به أن توضع بفضله مصالح البشرية المشتركة تحت رقابة مشتركة ؛ وفوق كل شيء ، « هـ » علم يكفل قيام نظام للتعليم شامل للعالم قاطبة يدعم إرادة الناس ومصالحهم في مغامرهم الإنسانية المشتركة .

فأما صناع التاريخ الحقيقيون في القرن التاسع عشر ، وهم القوم الذين سوف تحدّد عواقب أعمالهم الحياة الإنسانية مقدماً لمدة قرن كامل من الزمان ، فقد كانوا هم أولئك الذين روجوا لهذا الجهد الحماسى البناء وأسهموا فيه . فلوقيس إليهم وزراء الخارجية ورجال الدولة والسياسيون في تلك الفترة لما زادوا عن فئة من التلاميذ المشاغبين الذين يصلون أحياناً إلى حد إضرار النار والإحراق ، أو

بضع نفر من سراق المعادن ، الذين يعثون هنا وهناك ويحدثون شراً موقوتاً بين المواد الباقية على أرض بناء عظيم لم يفهموا كنهه .

وعلى حين أن عقل المدنية الغربية في القرن التاسع عشر بأكمله ، وهو العقل الذى أطلقتته النهضة من عقاله ، ظل يُجمّع نفسه لأداء واجب التعمير الاجتماعى والسياسى الخلاق الذى ما يزال عليه عبء القيام به - فقد غمرت العالم موجة تغيير عام فى القوة البشرية وفى أحوال الحياة المادية التى أبحاث سبل وجودها بالجهود العلمية الأولى لهذا العقل المتحرر .

وابتدأت نبوءات روجر باكون تعيش فى عالم الحقيقة . فإن المعرفة والثقة المتجمعة لدى الأجيال القليلة المتعاقبة من الناس الذى حملوا لواء التنمية العلمية ، قد أخذت عند ذلك توفى ثماراً كان فى استطاع العامة من الناس أن يفهموها . وكانت الآلة البخارية هى أشد تلك الثمار الأولى وضوحاً . وكانت أولى الآلات البخارية المستعملة فى القرن الثامن عشر مضخات تستعمل فى صرف المياه إلى خارج مناجم الفحم المتهفرة حديثاً . وكانت مناجم الفحم هذه تشغل لاستخراج الكوك بغية استعماله فى صهر الحديد الذى كان الفحم النباقي المتخذ من الخشب يستخدم فيه آنفاً . وإلى جيمس وات وهو صانع آلات دقيقة فى جلاسجو يرجع الفضل فى تحسين تلك المضخة البخارية ، وجعل استعمالها لدفع الماكينات أمراً ممكناً . وقد وضعت أول آلة استعملت لهذا الغرض فى مصنع لنسج القطن بنوتنجهام فى (١٧٨٥) .

وفى (١٨٠٤) كيف ترفيثيك آلة وات وجعلها صالحة لأعمال النقل ، وأنشأ أول قاطرة . وفى (١٨٢٥) فتح للسفر أول خط حديدى بين ستوكتون ودارلنجتون . وما تزال الآلة الأصلية وهى (القاطرة رقم ١ ، ١٨٢٥) تزين رصيف محطة دارلنجتون . وما وافى منتصف القرن حتى كانت شبكة من الطرق الحديدية قد عمت كل أرجاء أوروبا .

هنا حدث انقلاب فجائى فيما ظلّ زماناً طويلاً حالة ثابتة فى الحياة الإنسانية ، وأعنى بذلك أقصى سرعة للنقل البرى . وقد سافر نابليون بعد كارثته الروسية من قرب فيلنا إلى باريس فى ٣١٢ ساعة ، وهى رحلة تقارب الألف والأربعمئة من

الأميال . كان يسافر مستمتعاً بكل ما تتصوره العقول من الميزات ، وكان معدل مسيره يقل عن خمسة أميال في الساعة . وذلك في حين أن الراكب العادى لم يكن ليستطيع أن يقطع هذه المسافة في ضعف هذا الوقت . وكانت هذه السرعة تقارب نفس سرعات السفر القصى التي كانت ممكنة بين روما وبين بلاد الغال في القرن الأول الميلادى ، أوبن سارديس وسوسا في القرن الرابع ق . م .

ثم جاء على الفجاءة تغير هائل . فإن السكك الحديدية خفضت هذه الرحلة لأى راكب عادى إلى ما يقل عن ثمانية وأربعين ساعة ، أى أنها خفضت المسافات الأوربية الرئيسية إلى ما يدانى عشر ما كانت عليه . وجعلت من الممكن القيام بالعمل الإدارى في مناطق تكبر بعشرة أضعاف ما كان في الإمكان إدارته حتى ذلك الحين بواسطة إدارة واحدة . وما برح المغزى الكامل لهذا الاحتمال في أوربا ينتظر الأيام التي تحققة . فإن أوربا ما برحت تقسمها شبكة حدود رسمت في عصر الحصان والسكة الزراعية . وكانت آثار ذلك الحدث في أمريكا سريعة مباشرة . وكان معنى ذلك لدى الولايات المتحدة الأمريكية الزاحفة غربا ، هو إمكان وجود إتصال مستمر بواشنطن ، مهما تكن المسافة التي تنتقلها الحدود عبر القارة . وكان معنى ذلك هو الوحدة التي تصان على معيار كان لولاها من أضرب المستحيل .

وكان ظهور الزورق البخارى أسبق قليلا من الآلة البخارية في مراحلها الأولى . وكان هناك زورق بخارى هو (شارلوت دنداس) ، ينتقل في قناة (الفورت والكلايد بانجلتر) في (١٨٠٢) ، وفي (١٨٠٧) كان لأمريكى يدعى فالتون باخرة معدية ، هي الكليمونت بها آلات مصنوعة ببريطانيا ، وكانت تسير في نهر الهدسون أعلى نيويورك . وكانت أول سفينة بخارية سارت في البحر أمريكية كذلك وهي « الفينكس » التي كانت تسير من نيويورك (هوبكن) إلى فيلادلفيا . وكذلك كان شأن أول سفينة تستخدم البخار (وكان لها أيضا قلوب) عبرت الأطلسي ، وهي السافانا (١٨١٩) . وكانت كل هذه زوارق ذات عجلة رفاصة ، ولكن زوارق العجلة الرفاصة لا تصلح للعمل في عرض البحار الثقيلة . فإن الطارة الرفاصة سهلة الكسر ، وعند ذلك يصبح الزورق عاجزاً أشل .

وظهرت عقب ذلك السفينة البخارية ذات الداسر اللولبي^(١) . وكان لابد من التغلب على كثير من الصعاب قبل أن أصبح الداسر اللولبي شيئاً عملياً يمكن الانتفاع به . ولم تشرع حولة السفن البخارية في أن تزيد على حولة السفن الشراعية إلا بعد أن بلغ القرن منتصفه . وبعد ذلك أُمسى التطور في النقل البحري سريعاً . وأخذ الناس لأول مرة يعبرون البحار والمحيطات وهم على شيء من التحقق من موعد وصولهم . وكان عبور الأطلسي قبل ذلك مغامرة غير محققة تمتد أسابيع كثيرة قد تترامى إلى الشهور ، فلم تزل السرعة فيه تزداد حتى خفضت مدته في (١٩١٠) في حالة أسرع البواخر ، إلى أقل من خمسة أيام ، مع إمكان تحديد ساعة الوصول على وجه التقريب . وشمل نفس هذا التخفيض في الزمن ونفس هذا التحقق من الاتصالات الإنسانية جميع محيطات العالم وبحاره .

وساير تطور البخار على سطح الأرض وفي عباب الماء ، ظهور أمر آخر جديد رائع أضيف إلى تسهيلات التواصل البشري ، ونشأ عن أبحاث « فولتا » و « جالفاني » و « فارادي » في الظواهر الكهربائية المتنوعة . وظهر التلغراف الكهربائي إلى عالم الوجود في (١٨٣٥) ووضع أول سلك بحري (كابل) تلغرافي تحت أطباق البحر في (١٨٥١) بين إنجلترا وفرنسا . ولم تمض بضع سنوات حتى كان نظام التلغراف قد عم العالم المتمدن بأكمله ، وبدا أصبحت الأخبار التي كانت حتى ذلك اليوم ترحل متباطئة من موضع إلى موضع تنتشر في كل أرجاء المعمورة في وقت واحد تقريباً .

وقد كانت هذه الأشياء وأعني بها السكك الحديدية البخارية والتلغراف الكهربائي أشد المستحدثات روعة وثورة لدى أذهان عامة الناس في منتصف القرن التاسع عشر ، على أنهما لم يكونا إلا أبرز وأسهج تبشير عملية أشد منهما اتساعاً وعظماً . وأخذت المهارة والمعرفة الصناعية النكنيكية تتطوران في سرعة غير مألوفة ، وإلى حد غير مألوف إذا قيس تقدم ذلك العصر بتقدم أي عصر سابق عليه .

(١) الداسر اللولبي (Screw) أو الدائع اللولبي : هو مرواح (Propeller) ويستعمل في دفع السفن أو الطائرات . (المترجم)

وانبسطت قدرة الإنسان على المواد الإنشائية المتنوعة وكان انبساطها في البداية أقل ظهوراً بكثير في حياته اليومية ، ولكنه أصبح آخر الأمر على درجة عظيمة من الأهمية . وقبل أن ينتصف القرن الثامن عشر كان الحديد يستخلص من خامه بواسطة فحم الخشب ، وكان يتناول قطعاً صغيرة ثم يطرق ويصاغ في الشكل المطلوب . كان مجرد مادة يعمل فيها صانع . وكانت جودة نوع الحديد وطريقة معالجته تعتمد اعتماداً هائلاً على خبرة الصانع الفرد وفطنته . وكانت أكبر كتل الحديد التي يستطاع معالجتها في مثل تلك الظروف تصل في أعظم شأنها (في القرن السادس عشر) إلى طنين أو ثلاثة . (فكان هناك إذن حدٌ أعلى محدود جداً لحجم المدفع) . ونشأ القرن العاشر^(١) في القرن الثامن عشر وازداد تطوراً باستخدام فحم الكوك . ولسنا نجد قبل القرن الثامن عشر صفائح الحديد المسحوبة (بين الدرافيل) (١٧٢٨) ، ولا الأسياخ والقضبان المسحوبة (بين الدرافيل) (١٧٨٣) . وجاءت مطرقة « نازميث » البخارية في زمن متأخر هو (١٨٣٩) .

ولم يستطع العالم القديم أن يستعمل البخار بسبب تأخره في علوم المعادن والتعدين . فأما الآلة البخارية حتى المصخة البدائية ، فلم يكن في الإمكان تطويرها قبل أن تتيسر صفائح الحديد . وتبدو الآلات الأولى لعين الراى العصرى قطعاً من الحديد الخردة سمجة مستوجبة لأشد الرثاء ، ولكنها كانت أقصى ما يستطيع علم المعدنيات أن يخرجه في ذلك الزمان . وجاءت طريقة « بيسمر » في زمن يقارب في تأخره (١٨٥٦) ، ثم تلتها على الفور (١٨٦٤) ، عملية الآتون المفتوح الذى كان في المستطاع إذابة الصلب وكل أنواع الحديد فيه ، وتنقيتها وصبها بحالة وعلى مقياس لم يسمع الناس بهما حتى آنذاك . ولقد يستطيع الإنسان اليوم أن يرى في الفرن الكهربائى أطناناً من الصلب الوهاج المبيض بالحرارة وهو يَهْدِرُ هدير اللبن المغلى .

وليس في مراحل التقدم الإنسانى العملية السابقة ما يعدل في عواقبه ما بلغه الإنسان اليوم من تلك السيادة التامة على كتل هائلة من الصلب والحديد وعلى تكوينها ودرجة جودتها . وكانت السكك الحديدية الأولى والآلات المبكرة بجميع أصنافها

(١) الفرن العالى (Blast - Furnace) هو فرن لصهر الحديد ينفخ فيه الهواء الساخن . (المترجم)

مجرد انتصارات للوسائل الجديدة لمعالجة الفلزات^(١) . وسرعان ما ظهرت سفن الحديد والصلب والكبارى الضخمة ، وطريقة جديدة للبناء بالفولاذ على معيار هائل . وأدرك الناس بعد فوات الزمن الطويل أنهم كانوا يصممون سكاكهم الحديدية على مقياس سعة^(٢) يتجلى فيه الخوف المفرط ، وأنه كان في استطاعتهم أن ينظموا أسفارهم على أساس قدر أوفى من الثبات والراحة باستعمال مقياس سعة أعظم كثيراً من الموجود .

ولم تكن هناك في العالم قبل القرن التاسع عشر أية سفن تتجاوز حمولتها ألفين من الأطنان . وليس هناك اليوم أى عجب في وجود باخرة ذات حسين ألف طن . ومن الناس من يهزءون بهذا التقدم راعين إياه تقدماً في « مجرد الحجم » فقط ، غير أن هذا النوع من الزرابة إنما يدل على ضيق أفقهم .

فليست السفينة العظيمة ولا المبنى ذو الهيكل الفولاذى صورة مضخمة من سفينة الماضى الصغيرة أو بناء الماضى الصغير كما يتوهمون ، وإنما هى شىء مختلف في نوعه ، يبنى بناءً أخف وأقوى ، من مواد أجود وأمتن . وبدل أن تكون شيئاً يعتمد على السوابق والحساب التقريبي ، إذا بها شىء يرجع إلى حسابات دقيقة معقدة . ففي المنزل أو السفينة القديمة ، كانت المادة هى المتسلطة — فكان الحال يقتضى أن تطاع المادة وما يلزمها طاعة العبيد ؛ فأما السفينة الحديثة أو المنزل الجديد فقد قبض فيهما على ناصية المادة وغُيِّرت معاملها وضبطت أحوالها . تصور ذلك الفحم والحديد والرمل المستخرجة من المحاجر والمناجم ، وهى تؤخذ وتُشغل ، وتصهر وتصب لكي تقام آخر الأمر برجاً^(٣) رفيعاً براقاً من الصلب والزجاج يعلو على المدينة المزدهمة بستمئة قدم ! وهذه التفاصيل عن تقدم معرفة الإنسان بالخواص الفلزية للصلب ونتائجها قد

(١) علم الفلزات (Metallurgy) : هو العلم والفنون المطلقة على المعادن ، بما في ذلك استنزائها من خامها وتنقيتها وغلطها سائلك وتنكيلها ومعالجتها ودراسة تكوينها وبنيتها وخواصها .
(المترجم)

(٢) مقياس سعة (Gauge) مسافة ما بين القضبان . (للمترجم)

أدلتنا بها على سبيل المثال والتوضيح . وفي إمكاننا أن نروى لك قصة مماثلة لهذه عن الخواص الفلزية للنحاس والقصدير وعن عدد غفير من المعادن نجتزئ منها بذكر اثنين هما النيكل والألومنيوم ، وهما معدنان لم يكونا معروفين قبل انبثاق فجر القرن التاسع عشر .

ولنأينا يعود إلى هذه السيادة العظيمة النامية على المواد ، أعنى على الأنواع المختلفة من الزجاج وعلى الصخور وأنواع (البياض) وما إليها ، وعلى الألوان والتكوين ، الفضل في إحراز الإنسان أهم انتصاراته في الثورة الميكانيكية حتى هذا الأوان . ومع هذا فإننا ما نزال في مرحلة إجتناء أول بواكير ذلك الأمر . لدينا القوة ، ولكن ما يزال علينا أن نتعلم كيف نستخدم قوتنا . وكثيراً ما كانت هبات العلم هذه تستخدم استخدامات سوقية أو قبيحة الذوق أو مبهرجة أو سمجة حمقاء أو شنيعة . ولم يكد الفنان ولا الفن المتفد^(١) أن يشرعاً حتى الآن في العمل في الأضراب اللانهائية للمواد التي هي الآن بين أيديهما .

ونأينا علم الكهرباء الجديد نمواً مماثلاً لهذا التوسع في الاحتمالات الميكانيكية . ولم يحدث إلا في العقد الثامن من القرن التاسع عشر أن شرعت هذه المجموعة من الأبحاث العلمية أن تؤتي ثماراً تؤثر في العقل السوقي . ثم جاء بغتة كل من النور الكهربائي والجبر الكهربائي ؛ وشرعت عقول الناس العاديين تدرك أن في الإمكان تبديل (Transmutation) القوى ، أعنى احتمال إرسال القوة التي يمكن تحويلها إلى حركة ميكانيكية أو ضوء أو حرارة حسبما يختار الإنسان ، على امتداد سلك من النحاس ، كما ترسل المياه داخل الأنابيب .

وكان البريطانيون والفرنسيون في مبدأ الأمر هما الشعبان القائدان للعالم في مضمار هذا الإخصاب العرفاني العظيم . ولكن ما عثم الألمان الذين تعلموا الدلة في حكم نابليون أن أظهروا للوقت من الحماسة والدأب في البحث العلمي ما جعلهم يدركون

(١) المنفذ المي (Adapter) المعد لخططة المهندس . (المترجم)

هؤلاء القادة . وكان العلم البريطاني في معظم أمره من خلق رجال من الإنجليز والاسكتلنديين^(١) الذين يشتغلون خارج مراكز الخذلقة العادية .

وقد أسلفنا إليك من قبل كيف أن الجامعات في إنجلترا قل عليها الإقبال الشعبي بعد الإصلاح الديني ، وكيف أنها أصبحت وقفاً على النبلاء والأعيان كما صارت الحصن المنيع للكنيسة الرسمية . وتغلبت عليها روح إدعاء كلاسيكية ران عليها الغباء والتفاخر بالفخامة ؛ كما أنها تسلطت على مدارس الطبقتين الوسطى والعليا . وكانت المعرفة الوحيدة التي تعترف بها هي الإللام بنصوص لختارات من الأدب الكلاسيكي اللاتيني والإغريقي للإمام لا ينطوى على نقد ولا تمحيص ، وكانت أمانة حسن الأسلوب هي وفرة ما فيه من اقتباسات وإشارات وعبارات متحجرة جامدة .

ومن ثم تواصل التطور المبكر للعلم البريطاني ، بالرغم من هيئة التعليم الرسمية ، ورغم أنف العداوة المريرة التي أبدتها أصحاب مهنتي التعليم والكهنوت . كذلك تسلطت على التعليم الفرنسي تقاليد اليسوعيين الكلاسيكية ، وترتب على ذلك أنه لم يعسر على الألمان أن ينظموا هيئة من البحاثة ، كانت صغيرة بالنسبة لاحتمالات الموضوع ، ولكنها كبيرة بالنسبة إلى الفئة القليلة من المخترعين والتجريبيين البريطانيين والفرنسيين . ومع أن هذا العمل عمل البحث والتجريب كان آخذاً بأسباب جعل بريطانيا وفرنسا أغنى بلاد العالم وأقواها ، فإنه لم يكن يجاعل رجال العلم والابتداع أغنياء ولا أقوياء . وهناك ضرب ضروري من الروح غير الدنيوية يحيط برجل العلم الخالص لعلمه . فإنه أشد انشغالا بمباحثه من أن يدبر ويخطط وسائل يستطيع أن يجر من ورائها المغانم .

وبناء على ذلك تقع عملية الاستغلال الاقتصادي لمكتشفاته بشكل سهل جداً وطبيعي خجداً في أيدي طراز من الناس أكثر ميلا إلى الاقتناء والاحتياز . وكان كل دور جديد من أدوار التقدم العلمي والتكنيكي ينتج في بريطانيا العظمى محصولاً

(١) ولكن ليلاحظ القارئ بويل والسير و . م . هملتون بوصفهما من رجال العلم المبررين

الإرلنديين . (المؤلف)

جديداً من الأغنياء الذين كانوا من تمام الرضا عن أنفسهم بحيث يتركون الأوزة الذهبية البيض تموت جوعاً ، وإن لم يظهروا كما فعل العلماء المدرسانيون ورجال الأكليروس نفس الرغبة الجارحة في إهانة أوزة البيض الذهبي القوي وقتلها . كانوا يرون أن المخترعين والمكتشفين يبحثون بحكم الطبيعة لكي ينتفع من ورائهم من هم أشد منهم ذكاءً ومهارة .

وكان الألمان أكثر منهم حكمة بقليل في هذا الأمر . فإن « العلماء » الألمان لم يظهروا نفس الكراهية العنيفة نحو العلم الجديد بل سمحوا له بالتطور . كذلك لم يكن يخالج الألمانى صاحب الأعمال والمصنع تحو مواطنه العالم نفس ما كان يخالج منافسه البريطانى من احتقار للعلماء . كان هؤلاء الألمان يعتقدون أن المعرفة ربما أصبحت محصولاً مزدردعاً يستجيب للمخضبات . لذلك سلموا للذهن العلمى بقدر معين من الفرصة ينتهزه ؛ فكانت مصروفاتهم العامة على أعمال البحث أكبر نسبياً ، وجوزى هذا الإنفاق أوفى الجزاء

وما بلغ القرن التاسع عشر نصفه الثانى حتى كان العالم الألمانى قد جعل اللغة الألمانية لغة ضرورية لكل طالب علوم يرغب فى أن يكون على الدوام فى الطليعة مماشياً آخر إنتاج فى فرع علمه ، وأحرزت ألمانيا فى فروع معينة من العلوم وفى الكيمياء بوجه خاص تفوقاً عظيماً جداً على جيرانها الغربيين . وأخذ الجهد العلمى فى ألمانيا فى العقدى السابغ والثامن يحدث آثاره فى ثمانينات القرن ، وأخذ الألمان يسبقون بريطانيا وفرنسا سقاً متواصلاً فى النجاح التطبيقى الفنى (التكنيكى) والصناعى . ومن المستحيل فى معالم للتاريخ مثل هذه أن نتعقب شبكة العمليات العقلية المركبة التى أدت إلى هذا التوسع المتواصل فى المعرفة والقوة الذى يجرى الآن فى العالم . وكل ما نستطيع فعله هنا أن نستردى التفات القارئ إلى أبرز نقاط التحول التى اقتادت آخر الأمر « زلاقة » الشئون الإنسانية إلى ما هى عليه من حال التقدم السريع .

وقد حدثناك عن أول فكاك للتطلع الإنسانى ، وعن بدايات البحث والتجريب .

المنتظم . كذلك حدثناك كيف حدث عند ما جاء النظام الرومانى الباتوقراطى^(١) وما ترتب عليه من روح استعمارية ثم ذهب من العالم ثانية - أن تجددت عملية البحث هذه . وحدثناك عن إفلات البحث من الاستخفاء والاستفادة الشخصية إلى فكرة النشر وإلى الإخوة فى المعرفة ، ولاحظنا تأسيس الجمعية الملكية البريطانية ، والجمعية الفلورنسية ، وأشباههما بوصفهما نتيجة لهذا التنظيم للفكر على أسس « الإشتراكية » . كانت هذه الأمور هى جذور الإنقلاب الميكانيكى ، وما دام جذر البحث العلمى الصّرف حياً فلن يقف تقدم ذلك الإنقلاب عند حد . وربما جاز لنا أن نقول إن الثورة الميكانيكية ذاتها ابتدأت باستهلاك ما فى إنجلترا من الخشب فى مصانع الحديد . وأفضى ذلك إلى استعمال الفحم ، وأدى منجم الفحم إلى المضخة البسيطة ، وأدى التحول بالمضخة على يد « وات » إلى آلة تدفع الماكينات ، إلى ظهور القاطرة والسفينة البخارية . وكان ذلك هو الدور الأول من أدوار توسع عظيم فى استعمال البخار . وابتدأ دور ثان للثورة الميكانيكية بتطبيق العلم الكهربى على المسائل العملية وعلى تطوير الإضاءة الكهربائية ونقل القوة والحر .

وثمة دور ثالث لا بد من تمييزه ، جاء عندما ظهر فى العقد التاسع طراز جديد من الآلات ، وهى آلات حلت فيها قوة التمدد فى خليط متفجر محل قوة التمدد فى البخار : ولم تلبث الآلات الخفيفة العالية الكفاءة التى أصبحت بذلك فى حيز الإمكان إن طبقت على السيارة ، وتطورت آخر الأمر حتى بلغت درجة عالية من الخفة والكفاءة تجعل الطيران شيئاً عملياً ، والطيران فكرة كان معروفاً منذ زمن مديد أنها ممكنة .

وكان جهد إخوان رايت فى أمريكا ذا أهمية أولية فى هذا الميدان . وفضلاً عن هذا فإن الأستاذ لانجلى التابع لمعهد سميثسون بنيويورك تمكن فى زمن يرجع إلى (١٨٩٧) من صنع آلة للطيران ، وإن لم تبلغ من السعة حد حمل جسم إنسانى . فأما مجهوده الثانى وهو طائفة كاملة الحجم ، فقد فشل فى محاولاته الأولى ، ولكن كوريس وفق بعد لإدخال تغييرات عظيمة جداً عليها ، إلى الطيران بها بنجاح بعد

(١) الباتوقراطى . القائم على حكم الأثرياء . (المترجم)

ذلك بوضع سنين . حتى إذا وافت (١٩٠٩) أصبح في إمكان الطائرة أن تعمل في النقل الإنساني . وكانت بوادر بعض التوقُّف في زيادة السرعة الإنسانية قد لاحت في الأفق مع إحكام السكك الحديدية والانتقال بالسيارة في الطرق ؛ ولكن جاءت مع آلة الطيران تخفيضات جديدة في قيمة المسافة بين نقطة على سطح الأرض ونقطة أخرى . وقد كانت المسافة بين لندن وإدنبرة تستغرق ثمانية أيام في القرن الثامن عشر . وفي (١٩١٨) قدمت لجنة النقل الجوي البريطانية تقريراً تقول فيه إن الرحلة من لندن إلى ملبورن وهي نصف الدورة الكاملة حول الأرض ، يرجح أن يمكن في بضع سنين أن تتم في نفس مدة الأيام الثمانية .

وينبغي ألا نبالغ في التشديد على هذه التخفيضات الرائعة في المسافة الرملية بين مكان وآخر . فما هي إلا مجرد مطهر واحد من مظاهر تكبير الاحتمالات الإنسانية أعظم عمقاً وأشد ضخامة . فإن علم الزراعة والكيمياء الزراعية مثلاً أصابا أطواراً من التقدم مماثلة لهذه تماماً إبان القرن التاسع عشر . وبلغ من تعلم الناس تخصيص الأرض أن أنتجوا أربعة أضعاف وخمسة أضعاف المحاصيل التي كانوا يحصلون عليها من المساحة نفسها في القرن السابع عشر . وكان هناك تقدم أشد خرقاً للمعتاد في العلوم الطبية . فارتفع معدل متوسط العمر وزادت الكفاية اليومية وتناقص صباغ الحياة بدداً بسبب سوء الصحة .

من أجل ذلك كله يجتمع لنا الآن تبدل تام في الحياة الإنسانية يبلغ من ضخامته أن يكون طوراً جديداً في التاريخ . فقد أوجد الإنسان هذه الثورة الميكانيكية فيما يربى على القرن بقليل . وقام الإنسان إبان تلك المدة بخطوة في أحوال حياته المادية أسرع من كل ماخطاه في جميع الفترة الطويلة المحصورة بين المرحلة الباليوليثية (العصر الحجري القديم) وعصر الزراعة ، أو بين أيام بيبى في مصر وأيام جورج الثالث . وظهر إلى عالم الوجود هيكل جديد هائل للشئون الإنسانية . ومن الواضح أنه يتطلب إعادة تنسيق طرائقنا الاجتماعية والاقتصادية من جديد . بيد أن هذه التنسيقات الجديدة المطلوبة قد ترتبت بالضرورة على تطور الثورة الميكانيكية ، وهي ما تزال حتى اليوم في مراحلها الافتتاحية لما تتجاوزها .

٢ - العلاقة بين الإنقلابين الآلى والصناعى

تجنح كثير من كتب التاريخ إلى الخلط بين ما سميناهما باسم الانقلاب الآلى ، الذى كان شيئاً جديداً تمام الجدة فى الخبرة الإنسانية ناشئاً عن تطور العلم المنظم ، وكان خطوة جديدة تشبه لإختراع الزراعة أو اكتشاف المعادن ، وبين شىء آخر مختلف تمام الاختلاف فى مصادره وأصوله ، شىء كان له من قبل سابقة تاريخية ، هو التطور الاجتماعى والمالى الذى يسمى الانقلاب الصناعى أو الثورة الصناعية .

كانت العمليتان تسيران جنباً إلى جنب ، وكانتا تتفاعلان بعضهما مع بعض تفاعلاً مستمراً ، ولكنهما كانتا مختلفتين أساساً وروحاً وجوهرراً . إذ لم يكن بد من أن يحدث لإنقلاب صناعى من نوع ما ، ولو لم يوجد الفحم الحجرى ، ولو لم يوجد البخار ولا الماكينات ، ولعله كان سيقتفى فى هذه الحالة بدقة أشد ، خطى التطورات المالية والاجتماعية التى حدثت فى السنوات المتأخرة للجمهورية الرومانية . ولعله كان يعيد قصة المزارعين الأحرار المشردين عن أملاكهم ، وقصة مناسر العمال ونظام المزارع الكبيرة والثورات المالية الكبرى ، وإحدى العمليات المالية المقوضة للمجتمع .

والواقع أن طريقة المصنع ذاتها جاءت قبل ظهور القوة والماكينات . فكأن المصانع لم تكن ثمرة للآلات ، بل « لتقسيم العمل » . فإن العمال المدربين المكثودين كانوا يصنعون أشياء من أمثال قبعات السيدات وصناديق الورق المقوى والأثاث ويقومون بتلوين الخرائط وصور الكتب وما إليها ، قبل أن تستعمل العجلات المائية نفسها فى العمليات الصناعية . وكانت هناك مصانع فى روما فى أيام أوغسطس ، فإن الكتب الحديدية مثلاً كانت تملأ على صفوف من النساء فى مصانع الوراقين . وسوف يدرك كل لبيب من دارسى الكاتب الإنجليزى دانيال ديفو ونشرات فيلدنج السياسية ، أن فكرة جمع الفقراء كالمقطيع فى أماكن ليستغلوا أحشاداً فى كسب رزقهم ، كانت أمراً سبقت معرفته فى بريطانيا قبل نهاية القرن السابع عشر . وهناك من الإشارات ما يدل على هذا حتى فى زمان يرجع فى قدمه

إلى أيام اليوتوبيا^(١) التي ألفها السير توماس مور (١٥١٦) . كان الانقلاب تطوراً اجتماعياً وليس ميكانياً .

وكان تاريخ أوروبا الغربية الاجتماعى والسياسى إلى ما بعد منتصف القرن الثامن عشر يرسم فى الحقيقة نفس الطريق الذى سارت فيه الدولة الرومانية فى القرون الثلاثة السابقة على ميلاد المسيح . وكانت أمريكا من نواح كثيرة أسبانيا جديدة . وكانت الهند والصين مصرأً جديدة . على أن الإنقسامات السياسية فى أوروبا ، والفورات السياسية ضد الملكية ، وعناد العامة وربما أضيف كذلك قابلية الذكاء الأوروبى الغربى العظيمة لتلقى الأفكار والمستحدثات الميكانيكية ، قد حولت العملية إلى وجهات جديدة تمام الجدة . وبفضل المسيحية بوجه خاص انتشرت أفكار الترابط الإنسانى انتشاراً أعم وأعظم فى هذا العالم الأوروبى الأحدث جدّة ، ولم يكن السلطان السياسى مركزاً إلى هذا الحد . ومن ثم سارع النشيط من الرجال التواق إلى الثراء ، فوجه كل همهم عن طيب خاطر منصرفاً عن فكرة الرقيق ومناسر العمال إلى فكرة القوة الميكانيكية والماكنية .

أما الثورة الآلية (الميكانيكية) أى عملية الإختراع والاكتشاف الآلى ، فكانت شيئاً جديداً فى الخبرة الإنسانية ، وقد سارت فى سبيلها غير عابثة بالعواقب الاجتماعية والسياسية والاقتصادية والصناعية التى عسى أن تقترب عليها . فأما الثورة الصناعية من الناحية الأخرى ، شأن معظم الشئون الإنسانية الأخرى ، فقد ألم بها وما يزال يلم بها العميق المتكاثر من التغير والانحراف بسبب التغير المستمر فى الأحوال الإنسانية الناشئة عن الثورة الميكانيكية . وينحصر الفارق الضرورى بين اختزان القناطير المقنطرة من الأموال ، وإبادة صغار المزارعين وصغار رجال الأعمال ، وطور المالية الكبيرة فى القرون المتأخرة للجمهورية الرومانية من ناحية ، وبين الحالة الشديدة الماثلة لتلك والتي قوامها تركيز وعوس الأموال فى القرن الثامن عشر

(١) اليوتوبيا : جزيرة خيالية تصورها السير توماس مور حاوية لأكل النظم السياسية والدينية والقانونية والاقتصادية . واسمها الأصل بالعربية الطوبى . (المترجم)

١٢٨٣

والتاسع عشر من الناحية الأخرى ، ينحصر في الفارق العميق في خصائص العمل التي كانت الثورة الميكانيكية تحدثها .

كانت القوة في العالم القديم هي قوة الإنسان ، فكان كل شيء يعتمد اعتماداً مطلقاً على قوى الدفع في العضل الإنساني ؛ عضل الجهلة والمتهورين من الرحال . وكان قليل من العضل الحيواني قوامه ثيران وخيول الجر وما إليها يضاف إلى عمل الإنسان . فأني كان هناك حِمْل لا بد من رفعه فقد كان الرجال هم الذين يرفعونه ، وأني وجب أن يقطع حجر ، كان الرجال يقدُّونه ، وأني لرم حرث حقل من الحقول ، كان الرجال والثيران يحرثونه ، وكان المعادل الروماني للسفينة البخارية هو الغليون (Galley) أى السفينة القديمة بما فيها من صفوف المجدفين المكدودين .

وكانت نسبة ضخمة من أفراد البشرية تستخدم في المدينيات الأولى في العمل الشاق الآلي البحت . والماكينات المدفوعة بالقوة لم يبد فيها عند البداية ما يبشر بأى أمل في فكك الإنسان من ربة مثل هذا العناء العضلي الذى لا زكاء فيه . فكانت جماعات عظيمة من العمال تستخدم في حفر القنوات ، وفي عمل قطوع السكك الحديدية وجسور^(١) الأنهار وما إليها . تزايد عدد عمال المناجم تزايداً هائلاً . ولكن اتساع التسهيلات وإنتاج السلع تزايد أكثر من ذلك جداً . ومع مضي الزمن بالقرن التاسع عشر أخذ المنطق البسيط الواضح للموقف الحديد يثبت وجوده بشكل أشد وضوحاً . فلم تعد الكائنات الإنسانية تطلب بعد ذلك بوصفها مصدراً لمجرد قوة لا يمر بين مفرداتها أحد . إذ كان ما يمكن صناعته آلياً بواسطة الكائن الإنسانى ممكناً صناعته أسرع وأجود بواسطة الآلة ، ولذا لم تعد هناك الحاجة إلى الكائن الإنسانى الآن إلا حيث يتطلب الأمر الاختيار والذكاء . فكأن الكائنات الإنسانية لم تعد تطلب إلا بوصفها كائنات إنسانية لا غير . فأما ذلك العسيف^(٢) المشتغل بالأعمال الشاقة الذى قامت على أكتافه كل المدينيات السالفة ، ذلك الكائن المخلوق لمجرد الطاعة ،

(١) الجسور ليست هنا معنى الكبارى بل بالمعنى الذى يقال عنه في مصطلح أهل مصر الكورانيات .

(المترجم)

(٢) العسيف (Drudge) : فاعل تساء معاملته ويرهق بالباطل الجعير من الأعمال . (المترجم)

ذلك الإنسان الذى كان عقله شيئاً لا لزوم له - فقد أصبح غير ضرورى لرفاهة الإنسانية .

وصدق هذا على الصناعات العتيقة كالزراعة واستخراج المعادن صدقه على أحدث عمليات التجهيز فى المعدنيات . فأما الحرث والبذر والحصاد فقد ظهرت لها آلات سريعة تعمل عمل عشرات الرجال . وفى هذا الميدان تزعمت أمريكا العالم القديم . وكانت الحضارة الرومانية تقوم على كائنات إنسانية رخيصة منحطة عن مكانتها ، والحضارة العصرية يعاد بناؤها على القوة الميكانيكية الرخيصة . إذ جاءت مئة من السنين اطرد فيها رخص القوة وغلاء العامل . فلئن اضطرت الماكينات أمد جيل أو بعض حيل أن تنتظر دورها فى المنجم ، فإن ذلك كان مجرد أن الرجال لبشوا رداً من الزمان أرخص من الماكينات . فكانوا يقدرون فى نورثمبرلند وديرهام فى أيام استخراج الفحم الأولى تقديراً يبلغ من الرخص والحطة أنه لم تجر العادة بإقامة التحقيق حول أجساد القتلى فى كوارث المناجم . وكانت الحاجة إلى نقابات العمال ماسة لتغيير حالة الأمور هذه .

ولكن هذا الاتجاه العام نحو إكمال العمل اليدوى والقضاء عليه بواسطة الآلات ، كان انقلاباً ذا أهمية من الدرجة الأولى تماماً فى الشؤون الإنسانية . وكان أهم ما يشغل بال الغنى والحاكم فى المدينة القديمة أن يحتفظ بمدد متواصل من العسفاء المشتغلين بالأعمال الشاقة . إذ لم يكن هناك أى مصدر آخر للتراء . فلما تطاول العهد بالقرن التاسع عشر أخذت تزداد وضوحاً لدى القوم الأذكىاء الموجهين للآخرين ، الفكرة القائلة بأن الرجل العادى لا بد له الآن من أن يكون شيئاً أحسن من فاعل عسيف يكدح . فكان لا بد من تعليمه للحصول على « الكفاية الصناعية على الأقل » . وكان لا بد له من أن يفهم ما عليه حال الدنيا .

وقد كان التعليم الشعبى منذ أيام الدعاية المسيحية الأولى ، ناراً تتقد تحت الرماد فى أوربا ، كما كانت تتقد تحت الرماد فى آسيا حيثما وضع الإسلام قدمه ، بسبب الضرورة القاضية بجعل المؤمن على شىء من الفهم للعقيدة التى تنقذ روحه ، وتمكينه من قراءة ما تيسر من الكتب المقدسة التى تحمل إليه اعتقاده . وقد أدت الخصومات

بين الطوائف المسيحية وما صاحبها من تنافس على الأنصار ، إلى حرث التربة وتمهيدها لبذر بذور التعليم الشعبي العام . فقد حدث في إنجلترا مثلاً عندما ضرب القرن التاسع عشر في عقديه الرابع والخامس ، أن أنتجت منازعات الطوائف وضرورة الإستحواذ على الأنصار صغاراً ، وفرة في المدارس الليلية ، ومدارس الأحد وسلسلة من الهيئات التعليمية للأطفال ، والمدارس البريطانية غير المنتمية إلى أية طائفة دينية والمدارس القومية التابعة للكنيسة ، بل حتى المدارس الأولية الكاثوليكية .

وكان أصحاب المصانع الأقدمون عهداً والأقل استنارة وعلماً يكرهون هذه المدارس وبعارضونها لضيق أفقهم حتى عن النظرة الخاصة إلى مصالحهم الخاصة . وفي هذا المجال أيضاً تزعمت ألمانيا الفقيرة الأكثر جيرانها منها ثروة . وسرعان ما وجد المعلم الديني في بريطانيا أن طالبي المكاسب قد انحازوا إليه ، وقد غلبهم شغف غير متوقع إلى تعليم عامة الناس ، وإلا فإلى « تدريبهم » إلى مستوى أعلى في الكفاية الاقتصادية والإنتاجية .

وكان النصف الثاني من القرن التاسع عشر فترة تقدم سريع في التعليم الشعبي العام في كل أرجاء العالم المصطبغ بالصباغ الغربي . ولم يصحب هذا تقدم مائل في تعليم الطبقات العليا - ولا ريب أن قد حصل شيء من التقدم ولكنه ليس شيئاً يعادل ذاك ويقابله - وبذا لم يعد ذلك الجحش العظيم الذي كان حتى حين يقسم العالم إلى الطبقة القارئة والمجموعة غير القارئة ، يزيد كثيراً عن فارق ضئيل جداً في المستوى التعليمي . وكانت الثورة الميكانيكية تقف من وراء هذه العملية . وكانت تسير غير عابئة في الظاهر بالظروف الاجتماعية ، ولكنها مصرة في الحقيقة إصراراً عنيداً على إلغاء الطبقة التامة الأمية في كل أرجاء العالم إلغاء كاملاً .

ولم يستطع عامة سكان روما بأية حال فهم الثورة الاقتصادية في الجمهورية الرومانية فهماً واضحاً . فإن المواطن (المادني) الروماني العادي لم يرقط التغيرات التي كان يعيش فيها رؤية واضحة مفهومة كما نراها نحن الآن . على أن الثورة الصناعية وهي تمضي في سبيلها قرب نهاية القرن التاسع عشر ، كانت واضحة لأعين العامة الذين كانت تؤثر فيهم ، وكانوا يعرفون أنها عملية واحدة متماسكة :

لأنهم كانوا قد أخذوا للوقت يستطيعون القراءة والمناقشة والتواصل ، ولأنهم كانوا يضربون في الأرض ويرون الدنيا على شاكلة لم تصل إليها فئة من العامة قبلا . ولقد حرصنا في هذه « معالم التاريخ » أن نؤمى لك إلى الظهور التدريجي للعامة بوصفهم طبقة لها إرادة مشتركة وفكرات مشتركة . ومن رأى الكاتب أن الحركات الضخام لعامة الناس فوق مساحات جسيمة ، لم تصبح في الإمكان إلا نتيجة لديانتى الدعاة : المسيحية والإسلام ، وإصرارهما على الاحترام الذاتي للفرد . وقد سقنا قصة حاسة العامة للحرب الصليبية بوصفها مميزاً لدور جديد من أدوار التاريخ الاجتماعى .

غير أن هذه الحركات الضخام بدأتها كانت قبل القرن التاسع عشر ، محدودة نسبياً . ولكن فتن الفلاحين للمطالبة بالمساواة ظلت ابتداءً من زمان ويكيليف فما عقبه ، مقصورة على مجتمعات للفلاحين في مواضع محلية محدودة ، ولم تنتشر إلا على ببطء إلى نواح تؤثر فيها مؤثرات مشابهة . أجل إن صناع المدن كثيراً ما كانوا يشغبون ، ولكن ذلك كان شيئاً محلياً بحتاً .

ولم يكن إحراق القصور في الثورة الفرنسية من عمل فلاحين قد قلبوا حكومتهم ، بل من عمل فلاحين أطلقهم من قيودهم قلب حكومتهم . وكان « كوميون » باريس أول ظهور فعال لصناع المدينة بوصفهم قوة سياسية ، وكان الجمهور الباريسى في الثورة الأولى جمهوراً شديداً التخلط بدائى التفكير متوحشاً ، بالموازنة إلى أى جمهور أوربى بعد (١٨٣٠) .

على أن الثورة الميكانيكية لم تقتصر على إدخال التعليم قسراً على السكان كافة ، بل كانت مؤدية إلى رأسمالية كبيرة وإلى إعادة تنظيم كبير المعيار للصناعة قدر له أن ينتج في العامة نظاماً من الأفكار جديداً مميزاً بدلاً من مجرد العناد القلق والثورات الأولية التى تحدث من دهاء أميين .

ولقد سبق أن لاحظنا كيف شقت الثورة الصناعية الطبقة الصانعة ، التى كانت حتى حين ضرباً من طبقة متوسطة مخلطة ، - إلى نوعين من الطبقات ، هى أصحاب

الأعمال الذين بلغوا من الثراء ما مكنهم من الإختلاط بالطبقات المالية والمتجربة وصاحبة الأراضي ؛ والمستخدمين (العمال) الذين كانوا ينتقلون إلى حالة تقرب رويداً رويداً من حالة مجرد عمال المناسر والزراعة . وبينما كان العامل الصناعى يهبط ، كانت ترتفع قيمة العامل الزراعى بسبب إدخال الآلات الزراعية والزيادة فى قوة إنتاجة الفردى .

وعند منتصف القرن التاسع عشر ، كان كارل ماركس (١٨١٨ - ١٨٨٣) وهو يهودى ألمانى بلغ بسطة عظيمة من العلم ، قد أخذ يشير إلى أن تنظيم الطبقات العامة على يد جماعة ملاك رأس المال المتزايدى التمرکز تزايداً متواصلًا مستمرًا ، كان يطور تصنيفاً اجتماعياً جديداً يحل محل أنظمة طبقات الماضى الأكثر تعقيداً . ذلك أن الأملاك بالقدر الذى هى به قوة ، كانت تجمع بعضها إلى بعض فى أيد قليلة نسبياً ، هى أيدى كبار الأغنياء ، أى طبقة الرأسماليين ، على حين كان ينتج هناك إختلاط عظيم فى العمال الذين لديهم القليل أو ليس لديهم شىء من الأملاك ، الذين كان يسميهم باسم « أصحاب الأملاك سابقاً » أو « البروليتارية »^(١) - (وهو استعمال خاطئ لهذه الكلمة) - وهم الذين لا مناص لهم بسبب تنازع مصالحهم ومصالح الأغنياء من أن يطوروا « وعياً مشتركاً » بين أفراد طبقتهم .

وقد جاء على الناس ربح من الزمان بدا لهم فيه أن الفوارق فى التعليم والتقاليد بين العناصر الاجتماعية المتنوعة الأقدم عهداً ، والتي كانت تمر فى عملية الصهر والخلط بعضها ببعض لتصبح الطبقة الجديدة طبقة (أصحاب الأملاك سابقاً) ، - قد أخذت تناقض هذا التعميم الجارف . فكانت تقاليد أصحاب الحرف وصغار أصحاب العمل والمزارعين الفلاحين ومن إليهم تختلف جميعاً بعضها عن بعض وعن التقاليد الحرفية المتنوعة للعمال . ولكن هذا التعميم « الماركسى » يصبح الآن مقبولاً أكثر فأكثر مع انتشار التعليم ورخص ثمن الكتب .

(١) البروليتارية (Proletariat) : هى الطبقات الدنيا أو عامة الشعب أو العمال وهى كلمة مشتقة من اللفظة اللاتينية (Proletarius) ، ومعناها مواطن من أدنى طبقة ، يخدم الدولة لا بأمله بل بسله (Proles) ومن تم يشير المؤلف إلى العارق بين استخدام اللفظ قديماً وحديثاً . (المترجم)

هذه الطبقات التي لم يكن يربطها في أول الأمر رابط غير فقر مشترك أصابهم جميعاً على السواء ، كانت ولا تزال تنخفض عن نفس مستوى الحياة أو ترتفع إليه وتجبر على قراءة نفس الكتب والاشتراك في نفس المضايقات . ومن ثم فإن شعوراً من التماسك بين كل أنواع الرجال الفقراء الذين لا أملاك لهم ضد الطبقة التي تكدر الأرباح وتمركز الثروة ، قد أخذ يزداد وضوحاً أكثر فأكثر في عالمنا هذا . فإن الفوارق القديمة تذوى ، فيذهب الفارق بين رب الحرفة والعامل في العراء . وبين الموظف صاحب السترة (الجاكطة) السوداء والعامل صاحب معطف العمل الوافي (العفريتة) ، وبين القسيس الفقير ومعلم المدرسة الأولية ، وبين رجل الشرطة وسائق الأومنيبوس . فلا بد لهم جميعاً من مشتري نفس الأثاث الرخيص ، ولا بد لهم من سكنى البيوت الرخيصة المتشابهة . ولا بد أن يختلط أبناؤهم وبناتهم جميعاً ويتزوجوا بعضهم من بعض . ويصبح النجاح في المستويات العليا أمراً ينقطع دونه أكثر فأكثر أمل



(شكل ١٩٢ كارل ماركس)

عامة الناس . وتبرر الحوادث كل يوم أكثر فأكثر آراء ماركس الذين ثم يدافع عن حرب الطبقات قدر ما تنبأ بها ؛ وهو يعنى بحرب الطبقات الحرب التي تشنها طبقة « أصحاب الأملاك سابقاً » على الأقلية التي لا تبرح تمتلك الأملاك . وقد يدفع بعضهم أحياناً في جدله ضد ماركس بأن نسبة الناس الذين لهم مدخرات مستثمرة قد تزايدت في كثير من المجتمعات

العصرية . فهذه المدخرات هي من الناحية الفنية التكنيكية « رأسمال » وأصحابها إنما هم « رأسماليون » على ذلك المنوال ، ويظن أولئك أن هذا يناقض بيانات ماركس القائلة بأن الملكية تتمركز في أيدي تنتقل في عددها من القليل إلى الأقل .

١٢٨٩

وكان ماركس يستعمل كثيراً من مصطلحاته بلاعناية ويسىء إختيارها ، وكانت أفكاره خيراً من ألفاظه . فقد كان عندما يكتب « الأملاك » يعنى « الأملاك إلى الحد الذى هى به قوة » . وللمستثمر الصغير قوة صغيرة صغراً ملحوظاً على رأس ماله المستثمر .

٣ - اختصار الأفكار فى ١٨٤٨

لا شك أن من أعسر الأمور تعقب المعالم الإجمالية لاختصار الأفكار الذى كان يحدث أثناء الإنقلابين الآلى والصناعى فى القرن التاسع عشر . على أنه لزام علينا أن نحاول ذلك إن نحن شئنا أن نربط بين ما سبق حدوثه فى هذا التاريخ وبين حال عالمنا اليوم .

ومن المناسب أن نميز بين فترتين رئيسيتين فى السنوات المئة الممتدة بين (١٨١٤ ، ١٩١٤) . فقد جاءت أولا الفترة بين (١٨١٤ - ١٨٤٨) ، وفيها حدث قدر جسيم جداً من التفكير المتحرر والكتابة الأسمحية المتحررة فى دوائر محددة ، ولكن لم تحدث فيها أية تغييرات عظيمة أو تطورات كبيرة فى الفكر بين كتلة الشعب العامة . وكانت شئون العالم تلك الفترة تعيش - إن جاز لنا مثل هذه العبارة - على رأسهاها الذهبى القديم ، فلما كانت تمضى وفق الأفكار الرئيسية « للثورة » والثورة « الرجعية » المضادة . وكانت الأفكار التحررية السائدة هى الحرية وضرب مهم بعينه من فكرة المساواة . وكانت أفكار المحافظين هى الملوكية ، والديانة المنظمة ، والامتيازات الإجتماعية والطاعة .

وكانت روح المحالفة المقدسة حتى (١٨٤٨) ، وهى روح مترنخ تكافح لمنع أى انتعاش للثورة الأوربية التى خانها نابليون وأرجعها أدراجها . ومن الناحية الأخرى كانت الثورة فى أمريكا بجزيئها الشمالى والجنوبى ، قد انتصرت . وكانت الروح التحررية فى القرن التاسع عشر تسودها لا ينازعها هناك منازع . وكانت بريطانيا قطراً قلقاً ، لا هى تميل بولائها تمام الميل إلى الرجعية ولا تميل به تمام الميل إلى حركة التقدم ، ولا هى صادقة فى روحها الملكية ولا صادقة فى روحها الجمهورية فكانت أرض كرومويل وكذلك كانت أرض الملك المرح شارل ، وكانت مضادة للنمسا ؛

ومضادة لآل بوربون ، ومضادة للبابا ، ومع ذلك فإن روح القمع فيها كانت ضعيفة . ولقد حدثناك عن أول سلسلة من عواصف التحرر في أوروبا في (١٨٣٠) وحواليها . وصدر في بريطانيا في (١٨٣٢) مشروع قانون إصلاح يوسع حق الانتخاب توسيعاً عظيماً ويعيد إلى مجلس العموم شيئاً كثيراً من خصيصته التمثيلية ، فخفف كثيراً من توتر الموقف .

وجاءت قرابة (٨٤٨) وحواليها مجموعة ثانية من الانفجارات أشد من الأولى خطورة بكثير ، أفضت إلى خلع ملكية آل « أورليان » ، وتأسيس جمهورية ثانية في فرنسا (١٨٤٨ - ٥٢) ، وأثارت شمال إيطاليا والمجر ضد النمسا ، وأهاجت البولنديين في « بوزن » على الألمان ، وجعلت البابا يفر من وجه الجمهوريين في روما . وعقد في براج مؤتمر شائق جداً هو مؤتمر الكتلة السلافية الذي تسلف مقدماً كثيراً من تلك التسويات والتعديلات الإقليمية التي تمت في (١٩١٩) . وانفض المؤتمر بعد أن قععت الجنود المسوية عصياناً شب في براج . فأما العصيان الهنغاري فكان أشد قوة فواصل الكفاح سنتين . وكان زعيمه الأكبر هو لويس كوسوث . ولم يبرح بعد أن دحر ونفى ، يواصل دعاية عظيمة في سبيل حرية وطننا وقومه .

وقد أخفقت كل هذه الفتن في النهاية لإخفاقاً تاماً . وترنح النظام القائم ولكنه ظل واقفاً على قدميه . ولا ريب أن هذه الفتن كانت وراءها تدمرات اجتماعية خطيرة ، ولكن لم تكن لهذه التورات حتى آنذاك ، اللهم إلا في حالة باريس ، أية صورة واضحة ملموسة . وأحسن ما يقال عن عاصفة (١٨٤٨) هذه - بقدر ما بهم أوروبا - أن تنعت في كلمة واحدة باسم « ثورة الخريطة السياسية الطبيعية » على الترتيبات الإصطناعية لديبلوماسي قبيحنا ، وعلى نظام القمع الذي ترتب على تلك الترتيبات .

ومن ثم يكون تاريخ أوروبا من (١٨١٥ - ١٨٤٨) على وجه العموم ، لاحقاً لتاريخ أوروبا من (١٧٨٩ - ١٨١٤) . ولم يكن ينطوي على أية أفكار جديدة حقاً وما برح رأس المتاعب هو الكفاح بين مصالح الرجال العاديين وبين نظام

الدولة العظمى التي أرهقت بالضغط حياة البشرية وقيدتها - وإن يكن في الكثير من الأحيان كفاحاً أعمى سبيء التوجيه .

ولكن حدث بعد (١٨٤٨) ، أي من (١٨٤٨ إلى ١٩١٤) أن عملية إعادة تسوية الخريطة لإعادة تتجه إلى إيجاد إيطاليا حرة موحدة ، وألمانيا موحدة ، تواصلت ولم تقف عند حد . فقد بدأ دور جديد في عملية التكيف الذهني والسياسي وفق ما بلغته البشرية من المعرفة الجديدة والقوى المادية الجديدة . ثم حدث انفجار عظيم للفكرات الجديدة الاجتماعية والدينية والسياسية ، تغلغل بها في العقل الأوربي العام . ولسوف نتأمل في الأقسام الثلاثة التالية مصادر هذه الانفجارات ونوعها ذلك بأنها وضعت لنا الأسس التي تبنى عليها اليوم فكرنا السياسي ، غير أنها ظلت زمناً طويلاً وليس لها أثر كبير على السياسة المعاصرة . فاستمرت السياسة المعاصرة تجري على السنن القديمة . وإن داخل الوهن المتواصل ما لها من دعم في ضمائر الناس واعتقاداتهم الفكرية .

ولقد وصفنا لك آنفاً الطريقة التي قوضت بها إحدى العمليات الذهنية القوية نظام الملكية العظمى بفرنسا قبل (١٧٨٩) . وثمة عملية تقويض مماثلة كانت تجري في أرجاء أوروبا إبان فترة الدول الكبرى من (١٨٤٨ - ١٩١٤) . إذ انتشرت في كل أرجاء الهيئة الاجتماعية شكوك عميقة حول نظام الحكومة وحول مدى الحريات التي لكثير من أشكال الملكية في النظام الاقتصادي . ثم جاءت حرب هي أعظم حروب التاريخ وأشدّها تدميراً ، ومن ثم استحالت على الذين عاشوا بعدها مباشرة أن يقدرُوا قوة ومجال الأفكار الجديدة التي تجمعت في هذه السنوات الست والسنتين . فلقد مرت الدنيا في ملة كبرى أعظم كثيراً ، حتى من الكارثة النابليونية نفسها ، وما نحن إلا في فترة راحة بين المد والجزر تقابل فترة (١٨١٥ - ٣٠) وتمت إليها بسبب . وما زلنا نتوقع أن تأتينا سننا (١٨٣٠ ، ١٨٤٨) الحاصتين بنا وبالقرن العشرين فتكشفان لنا أين نحن وقوف .

٤ - تطور فكرة الإشتراكية

قفونا في كل أرجاء هذا الكتاب التضييق التدريجي الذي حاق بفكرة الملكية منذ الإدعاء الأول غير المحدود للرجل القوي على ملكية كل شيء ، ومنذ إدراك الناس تدريجياً الفكرة الأخوية بوصفها شيئاً يسمو على البحث الشخصي عن الذات . وقد بدأ الأمر بأن أخضع الناس بدافع الخوف من الملك والله ، لسلطان شيء أعظم من المجتمعات القبلية . ولم يحدث إلا في خلال الآلاف الثلاثة أو على الأكثر الآلاف الأربعة الأخيرة من السنين ، أن تهاً لنا برهان واضح يدل على أن نكران الذات الاختياري في سبيل غاية أعظم ، وبغير أجر يرجى أو ثواب ينتظر ، كان فكرة مقبولة لدى الناس ، أو أن أى إنسان قد قام بطرحها على الناس .

ثم إننا نجد شيئاً ينتشر على وجه الشئون الإنسانية ، كما تنتشر رقاع من ضياء الشمس ثم تمر فوق جوانب التلال في يوم ريح من أيام الربيع ، هو المكرة القائلة بأن في التضحية بالنفس سعادة أعظم من أى إرضاء ذاتي أو انتصار شخصي ، وحياة للبشرية مختلفة وأعظم قدراً وأكثر أهمية من صافي مجموع حياة الأفراد الذين يوجدون في نطاقها ؛ ورأينا هذه الفكرة تصبح وهاجة كالنبراس ، ناصعة نصاعة ضياء الشمس حين تلتقطه إحدى النوافذ وتعكسه على منظر طبيعي فتبهير به الأبصار ، رأيناها في تعاليم « بوذا » ، « ولاوتسى » وبوجه أشد ما يكون وضوحاً في تعاليم « يسوع » الناصري .

ولم تفقد المسيحية قط أثناء كل ما ألم بها من التغير والمفاسد بارقة إخلاص للملكوت الرب تجعل بلذخ الملوك والحكام الشخصي أشبه الأشياء بوقاحة خادماً أفرط في أناقة ثيابه ، وتجعل أهبة الأثرياء وإشباعهم لشهواتهم أشبه شيء بتبذير اللصوص . وما من رجل يعيش في مجتمع مسته أنامل ديانة مثل المسيحية أو الإسلام ، بمستنطع أن يكون عبداً تام العبودية . فإن في هاتين الديانتين صفة لا تمحى تجبر الرجال على إصدار الأحكام على ساداتهم وعلى تحقيق مسئوليتهم الخاصة نحو العالم .

وبينما كان الناس يتلمسون طريقهم نحو حالتهم الفكرية الجديدة منتقلين إليها

من حالة البشره الأناني العنيف وروح القتال الغريزية الشرسة في جماعة العائلة الباليوليثية الأولى ، فلأنهم جاهدوا أن يعبروا عن اتجاه أفكارهم وضرورياتهم تعبيراً متخالفاً جداً . ووجدوا أنفسهم على خلاف وفي نزاع مع الفكرات القديمة المقررة . وكانت بهم نزعة طبيعية لمناقضة هذه الفكرات مناقضة صريحة ، والثوب من فوقها إلى عكسها المطلق .

وقد قامت الحركة الأولى متسرعة نافذة الصبر ، فأعلنت أنها تهدف إلى مساواة شاملة ، ولكن غلبتها والحق يقال الفوضى الشاملة ، خاصة وقد واجهها عالم ، الحكم فيه والطبقات والنظام تبدو جميعاً وكأنما لا هم لها إلا إيتاء الفرص للأنانية الشخصية والظلم الفاجر . وواجهها عالم تبدو فيه الملكية أنها لا تزيد كثيراً عن وقاية للأنانية ووسيلة إلى الإستعباد ، وكان من الطبيعي أيضاً أن نجد كل ملكية .

وبين لنا تاريخنا أن هناك على الدوام دافعاً متزايداً يدفع الناس إلى الثورة على الحكام وعلى الملكية . وقد تعقبنا ذلك الدافع في القرون الوسطى ، وهو يحرق قصور الأغنياء ويجرب التجاريب في الثيوقراطية^(١) والشيوعية . وكان هذا التمرد المزدوج واضحاً جلياً في الثورات الفرنسية . فلما نجد في فرنسا رجالاً يصرحون وأعينهم مسلطة على ضرائب الحكام ، بأن الأملاك حرمة يجب ألا تنتهك ، كما نجد آخرين يصرحون وأبصارهم شاخصة إلى مساومات صاحب العمل القاسية أنه يجب أن تلغى الملكية . وهم يعيشون جنباً إلى جنب ويستلهمون جميعاً نفس الروح الواحدة ، كما أنهم أعضاء طبيعويون في الحركة الثورية نفسها . ولكن ما كانا في كلا الحالتين نأثرين عليه إنما هو أن الحكام وصاحب العمل ، لا يزالون كغيرهم من البشر أفراداً أنانيين يبحثون عن خير أنفسهم وبظلمون الناس بدل أن يكونوا خداماً للمجتمع .

ولما لنجد هذا الاعتقاد ينمو في أذهان الناس على مر العصور : وهو أن في الإمكان قيام ذلك التنظيم الجديد للقوانين والسلطات قيماً يقدم للناس الحكم

(١) الثيوقراطية (Theocracy) : حكومة قسوس تدمى أن الله مصدر سلطتها . (المترجم)

والنظام ، بينما هو لا يبرح يصد أنانية أى حاكم وأية طبقة حاكمة قد تكون ضرورية ، ويزود الناس بذلك التعريف للملكية الذى يمنح الحرية من غير قوة ظللة . وقد شرعنا ندرك فى أيامنا هذه أنه ليس فى المستطاع بلوغ هذه الغايات إلا بمجهود إنشائى مركب ، فإنها تنشأ بسبب منازعات الحاجات الإنسانية الجديدة ضد الجهالة والطبيعة الإنسانية القديمة ؛ بيد أنه شاع طوال القرن التاسع عشر ميل مستمر ثابت إلى حل المسألة ببعض الحلول البسيطة . (ليكون الناس سعداء إلى أبد الآبدين ، وذلك بغض النظر عن أن الحياة الإنسانية كلها ، بل والحياة عامة ، ليست على مر العصور إلا محاولة متواصلة لإيجاد حل لمشكلة معقدة مستمرة) .

وفد شهد الصف الأول من القرن التاسع عشر عدداً من التجارب فى تكوين جماعات إنسانية تجريبية ذاب نوع جديد . ومن أهم تلك التجارب من الناحية التاريخية ، نجارب وفكرات روبرت أوين (١٧٧١ - ١٨٥٨) ، وهو غزال قطن من مانشستر هو بعد بوجه عام المؤسس للاشتراكية العصرية . ونشوء كلمة « الاشتراكية » لأول مرة إنما كان بالعلاقة إلى عمله حوالى (١٨٣٥) . ويلوح أنه كان رجلاً من رجال الأعمال على غاية من الكفاية . فإنه ابتكر عدداً من المستحدثات فى صناعة غزل القطن ، وجمع ثروة لا بأس بها فى سن مبكرة . وقد أحزنه ضياع ما فى عماله من احتمالات بشرية بددا ؛ فنصب نفسه لتحسين حالهم وتحسين العلاقات بين صاحب العمل والعمال . فجهده أن ينفذ ذلك أولاً فى مصنعه بمانشستر ثم فى نيولانارك بعد ذلك ، حيث ألغى نفسه متصرفاً بالفعل فى مصانع تستخدم ألفين من الأفراد .

وتوصل بين (١٨٠٠ ، ١٨٢٨) إلى أمور ضخمة جداً . فإنه أنقص ساعات العمل ، وجعل مصنعه صحياً مقبولا ، وألغى استخدام الأطفال صغار السن جداً ، وحسن تدريب عماله وزود العمال بأجور البطالة أثناء فترة كساد فى التجارة ، وأسس مجموعة من المدارس ، وجعل من نيولانارك مثالا يحتذى لحركة عمالية صناعية أحسن وأطيب ، على حين كانت فى نفس الوقت تحافظ على رخائها التجارى . كتب كتابات قوية مدافعاً عما كانت تهم به أغلبية البشرية من

الإفراط في المسكرات وعدم التبصر في العواقب ، التي كان أهل العصر يتخذون



منها مبرراً يبررون به مظالم الزمان . وكان يرى أن الرجال والنساء هم في أكبر شأنهم ثمرة لبيتهم التعليمية ، وهي مسألة لا تحتاج فكرتها اليوم إلى من يحاى عنها . ثم نصب نفسه للقيام بالدعاية للنظريات التي أثبتت صحتها تجربة نيولانارك .

وهاجم ما عليه إخوانه أصحاب المصانع من تكاسل أناني ، وفي ١٨١٩ صدر أول « قانون

(شكل ١٩٣) روبرت أوين

للمصانع » بناء على إلحاحه في غالب الشأن ، وهو أول محاولة للحد من استغلال أصحاب المصانع باجتناء أفدح الفوائد بكل غباء وجر المغام من وراء فقر عمالهم . وإن من بين قيود ذلك « القانون » ما يدخل اليوم إلى أذهاننا أعظم الدهول . إذ يكاد يكون مما لا يصدق به عقل أن نقوم يوماً ما ضرورة تدعو إلى حماية الأحداث الذين في التاسعة من العمل في المصانع ، أو تحديد ساعات العمل الإسمية لمثل أولئك العمال باثنتي عشرة ساعة .

وربما أخطأ بعض الناس فجنح إلى الكتابة عن الانقلاب الصناعي (الثورة الصناعية) كأنما كانت هي السبيل إلى استرقاق الأطفال المساكين وتشغيلهم فوق طاقتهم . وأنهم كانوا حتى ذلك الحين سعداء أحراراً . على أن هذا أمر يفسر التاريخ تفسيراً خاطئاً . إذ أن الأطفال الفقراء الصغار ظلوا منذ بدايات المدنية ذاتها يجبرون دائماً على القيام بأى عمل يستطيعون أدائه . ولكن نظام المصنع جمع عناء الأطفال هذا كله في صعيد واحد وجعله شيئاً نظامياً واضحاً للعيان يجبر من ورائه العار والشنار . وتحدى نظام المصنع في هذه النقطة ضمير الإنسانية الناهض الآخذ

بأسباب الانتعاش . وكان « قانون المصانع البريطانى » فى ١٨١٩ ، وإن بدا لأعيننا ضعيفاً هزئلاً ، هو « العهد الأعظم Magna Charta » للطفولة . ومن بعدها ابتدأت عملية حماية أطفال الفقراء ، من الكد فى أول الأمر ثم من الجوع الجثمانى الشديد ومن الجهل .

ولسنا بمستطيعين أن نفصل لك فى هذا المقام القصة الكاملة لحياة أوين وأفكاره . فإنه كان يحس أن عمله فى نيولانارك لا يتجاوز مجرد محاولة فى حدود نموذج صغير . كان يذهب إلى أن ما يستطيع عمله لمجتمع صناعى ، يمكن أن ينسحب على كل مجتمع صناعى آخر فى البلاد . وكان يدافع مطالباً بإعادة إسكان السكان الصناعيين فى مدن على غرار ما حدث فى نيولانارك .

ومضت فترة من الزمان تُخيّل للناس أثناءها أنه استولى على خيال العالم . فناصرت صحيفتا التيمس والمورننج بوست مقترحاته . وكان من بين زوار نيولانارك الغراندوق نقولا ، الذى خلف الإسكندر الأول على عرش روسيا ؛ وكان دوق كنت ابن جورج الثالث ووالد الملكة فكتوريا صديقاً حميماً له . ولكن كل أعداء التغيير وكل من يوسوس له الشيطان حسد الفقراء — وقلما خلا زمان من عدد وفير من هؤلاء — وكل أصحاب المصانع الذين كانوا عرضة للمضايقة بسبب مقترحاته كانوا يتلمسون ذريعة يهاجمونه بها ، وقد وجدوها فى تعبيره عن آرائه الدينية ، التى كانت معادية للمسيحية الرسمية ، وبهذا المأخذ نجح أعداؤه فى الكيد له وتحقيره . ولكنه واصل عمله فى تطوير مشروعاته وتجاريه ، التى كان أهمها مجتمعاً فى نيوهامونى بولاية إنديانا بالولايات المتحدة ، أضاع فيه معظم رأسماله . فاشترى منه شركاؤه نصيبه فى مصنع نيولانارك وأخرجوه فى ١٨٢٨ .

وقد ذاعت تجارب أوين ومقترحاته ذيوماً متراًباً جداً ، وهى لا تقع تحت مبدأ معين بمفرده . ولم يكن يحيط به شئ من جو الرجل النظرى غير العمل . وكانت تجربته فى نيولانارك أول تجربة فى عدد من « الأعمال الخيرية » فى العالم . وإنما نجح مدبنة اللورد ليفرهولم المسماة بورت سانلايت ، ومدبنة كاد بورى المسماة بورنثيل ومصانع فورد فى أمريكا أمثلة عصرية واقتراباً من الشيوعية . وكانت

مقترحاته المتعلقة بالتسويات التي تقوم بها الدولة هي ما قد نسميه اليوم باسم اشتراكية الدولة . وتشير تجربته الأمريكية وكتاباتهِ الأخيرة إلى شكل للاشتراكية أكثر كمالاً فيه مزيد من التقدم عن حالة الأمور الراهنة .

وواضح أن لغز « العملة » قد شغل بال أوين . فإنه أدرك أننا لا نستطيع أن نأمل في العدالة الاقتصادية الحقة ، بينما نحن ندفع مقابل العمل نقوداً ذات قيمة متأرجحة ، — إلا بمقدار ما نرجو وجود عالم منظم المواعيد إذا كان طول الساعة الزمنى تتغير في كل آن . ومن التجارب التي قام بها أنه حاول نشر أوراق للعمل تمثل ساعة واحدة أو خمس ساعات أو عشرين ساعة من ساعات العمل . وقد نشأت الجمعيات التعاونية لهذا الزمان — وهي جمعيات أناس فقراء تتحد للشراء والتوزيع الجمعى للضروريات ، أو للصناعة الجماعية أو صنع الألبان أو أشكال أخرى من أشكال الزراعة ذات اللون الجماعى ، — نشأت مباشرة عن ابتداهاته ، وإن انتهت الجمعيات التعاونية الرائدة في زمانه إلى الفشل . على أن الجمعيات التي خلفتها انتشرت في كل أرجاء العالم ، ويبلغ عدد أنصارها اليوم ثلاثين وأربعين مليوناً .

وهناك نقطة جديدة بالملاحظة في شأن اشتراكية أوين المبكرة هذه ، هي أنها لم تكن في البداية « ديمقراطية » بأي حال ، بل مزجت بها الفكرة الديمقراطية فيما بعد . وكانت دوافعها الأولى خيرية ، وكانت صورتها المبكرة قائمة على نظام الأبوة . كانت شيئاً يرتفع إليه العمال بالتعليم ، على يد ذوى الساحة من أصحاب المصانع والزعماء . وإذن فلم تكن الاشتراكية الأولى حركة عمال . بل حركة سادة . وقد كانت المباحث المذهبية في الاشتراكية في كل تاريخها بأجمعه ، من عمل رجال ليسوا من العمال في شيء . ويصف بير (Beer) كارل ماركس بأنه « ارستقراطي » ، وكان لإنجيلز من التجار ، وأما لينين فكان عضواً منفياً من عائلة من أصحاب الأراضي .

وقد سائرت عمل « أوين » هذا سلسلة أخرى من التطورات مستقلة تمام الاستقلال بكل من أمريكا وبريطانيا ، وقدر لها آخر الأمر أن تتصل بفكراته الاشتراكية . فقد كان القانون الإنجليزى يحظر من أمد يعيد اندماج الجماعات بقصد حصر التجارة واحتكارها ، ويحظر الاندماجات الهادفة لرفع الأسعار أو الأجور

بوساطة العمل الجماعى . ولم تكن هناك أى صعوبات كبيرة فى هذه المحظورات قبل أن تطلق التغيرات الزراعية والصناعية فى القرن الثامن عشر فكاك أسراب عظيمة من العمال يشتغلون « من اليد إلى الفم » ويتنافسون على قدر من الأعمال غير كاف . وكان العمال يجدون أنفسهم تحت هذه الظروف الجديدة فى حال من الضيق والضغط لا تطاق . وكان أرباب الأعمال يلعبون بأحدهم ضد الآخر . وكان كل منهم يقضى أيامه بل ساعاته فى قلق لا يدرى ما يكون من زميل له من الإذعان والتنازل ، وما قد يترتب على ذلك من التقيص الجديد فى الأجور أو الزيادة فى الشقاء .

فأصبح من الضرورات الحيوية للعمال أن يعقدوا إتفاقات وإن تكن غير قانونية ضد مثل هذا التخفيض فى الأجور . وكان لا بد لهذه الاتفاقات فى مبدأ الأمر من أن تتم وتُصان على يد جمعيات سرية ، أو نوادٍ مؤسسة فى الظاهر لأغراض مختلفة تماماً ، أمثال النوادى الاجتماعية وجمعيات الجنائز وما إليها ، التى كانت تقوم بستر الاندماجات الواقية للأجور . وكان عدم قانونية هذه الجمعيات يجعل أعضائها ينزعون إلى العنف . كانوا كالوحوش على « المتسللين^(١) والفيران » من إخوانهم الذين لا ينضمون إليهم ، وكانوا أكثر وحشية مع الخونة .

وفى (١٨٢٤) اعترف مجلس العموم بأن من المرغوب فيه تخفيف التوتر فى هذه الأمور بتسليمه بحق العمال فى تكوين اندماجات « للمساومة الجماعية » مع السادة . ويمكن هذا نقابات العمال (Trade Unions) من التطور على مجالٍ كبير من الحرية . وقد ارتقت نقابات العمال بالتدريب — وكانت فى مبدأ الأمر تنظيمات سمجة شديدة البدائية ذات حرية محدودة جداً ، حتى أصبحت « طبقة رابعة حقيقية » فى البلاد ، أى مجموعة عظيمة من الهيئات تمثل كتلة العمال الصناعيين .

نشأت تلك النقابات فى بريطانيا وأمريكا أولاً ، ولكنها ما لبثت — مع تعديلات قومية متنوعة ، وتحت أحوال قانونية مختلفة متغيرة — أن انتشرت إلى فرنسا وألمانيا وكل المجتمعات الغربية الصبغة .

(١) المتسللين والفيران : العمال الذين يقبلون العمل وإخوانهم فى إضراب رسمى أو يقبلون أجوراً أقل من إخوانهم . (المترجم)

وقد نظمت حركة نقابات العمال في الأصل للحفاظ على الأجور ودعمها ومنع عدد الساعات الذي لا يطاق ، وكانت في البداية شيئاً مميزاً تام التميز عن الاشتراكية . فكان العضو في نقابة العمال يحاول أن يستخلص لنفسه أحسن الغنم من الرأسمالية الموجودة ومن أحوال العمل الموجودة . على حين كان الاشتراكي يرى إلى تغيير النظام .

وإلى خيال « كارل ماركس » وقدرته على التعميم يرجع الفضل في ربط هاتين الحركتين برباط العلاقة والاتصال . كان رجلاً تميزت فيه قوة الإحساس بالتاريخ ؛ وكان من أوائل من أدرك أن الطبقات الاجتماعية القديمة التي استدامت منذ بداية المدنية ، كانت تعريها عملية حلٍّ وعودةٍ إلى التجمع . وقد جعلت منه الروح التجارية المستقرة في عنصره اليهودي خير من يدرك العداء بين الملكية والعمل أوضح إدراك . وجعلته تنشئته في ألمانيا - (وهي بلد كان نظام انفصال الطبقات فيها أوضح منه في أي قطر أوروبي آخر حتى أنها كانت أميل إلى التجمد والتحول إلى طوائف) - يتخيل العامل شخصاً يصيح من فوره ذا وعي طبقى^(١) معادياً عداءً جماعياً للطبقات التي تركز الملكية في يدها . وكان يعتقد أن حركة نقابات العمال التي كانت تنتشر في العالم أجمع - هي تطور خاص بالعامل صاحب الوعي الطبقي .

كان يتساءل قائلاً : ماذا تكون نتيجة « حرب الطبقات » بين الرأسماليين والبروليتارية ؟ فقد كان يدفع بأن مغامرات الرأسماليين المغامرين بسبب ما افتُطروا عليه من الشراقة وحب المقاتلة ، لا يلبث حتى يجمع التسلط على رأس المال في أيدي لا تبرح ثقل وتقل ، حتى ينتهي الأمر بهم إلى تركيز كل وسائل الإنتاج والترانسيت (Transit) وما إليها إلى شكل يستطيع العمال أن يقبضوا عليه ، أولئك العمال الذين يتطور بالمثل وعيهم الطبقي وتماسكهم بوساطة عملية تنظيم الصناعة وتركيزها .

ولأنهم ليستولون على ذلك الرأسمال ويستثمرونه لحساب أنفسهم . ويكون ذلك

(١) الوعي الطبقي (Class Consciousness) : شعور الإنسان بطبقته في المجتمع وتعصبه لها مع العداء الشديد للطبقات الأخرى . (المترجم)

هو الثورة الاجتماعية : وعند ذلك تُسترجع الملكية الفردية والحرية الفردية ، مؤسستين على الملكية المشتركة للأرض وقيام المجتمع كمجموع بإدارة الخدمات الإنتاجية الكبيرة التي سبق أن نظمها وركزها الرأسمالي الخاص . وتكون تلك هي نهاية نظام الفرد « الرأسمالي » ، ولكنها لا تكون نهاية النظام الرأسمالي . إذ عند ذلك تحل رأسمالية الدولة محل رأسمالية المالك الخاص .

وفي هذا انحراف كبير عن اشتراكية « أوين » . وكان « أوين » — شأن أفلاطون — يشخص ببصره إلى حسن تمييز الرجال وسداد بصرهم بالأمور في أى طبقة أو في كل الطبقات ، راجياً أن تكون تلك الخلة وسيلتهم إلى إعادة تنظيم البناء السياسى الاقتصادى الاجتماعى العرضى الخاطئ . واكتشف « ماركس » شيئاً آخر شبهه بالقوة الدافعة في العداوة بين الطبقات يقوم على انتزاع الأملاك وعلى الظلم . على أنه لم يكن مجرد نظرى متنبئ بل كان كذلك من دُعاة ثورة العمال ، ثورة من يقال لهم « البروليتارية » . وقد أدرك أن للعمال مصلحة مشتركة ضد الرأسمالي في كل مكان ، وإن أظهر بتأثير تجربة حروب الدول الكبرى لذلك الزمان ، ولا سيما حروب تحرير إيطاليا ، أنه قد فاته أن يفهم أن العمال في كل مكان لهم مصلحة مشتركة في سلام العالم . ولكنه نحح فعلاً — والثورة الاجتماعية نصب عينيه — في الإيجاء بفكرة إنشاء عصبة دولية للعمال ، هي الدولية الأولى (The First International) .

وكان ما عقب ذلك من تاريخ الاشتراكية يترجح بين ظلال تقاليد « أوين » البريطانية وبين « الشعور الطبقي » الألماني عند « ماركس » . وقد لقي ما يسمى باسم الاشتراكية الغابية (١) وهو تفسير الاشتراكية الذي قامت بوضعه الجمعية الغابية بلندن — قبولاً من الرجال المعقولين في كل الطبقات . ثم إن ما كان يسمى باسم « مذهب التنقيح Revisionism » في الاشتراكية الألمانية ، كان يميل صوب نفس ذلك

(١) الاشتراكية الغابية أو الغابانية : مذهب اشتراكى ظهر بالبحر في القرن التاسع عشر ، وهو يعتمد على وسائل التطور التي يأمل أن يبلغ بها إقرار الاشتراكية بواسطة مجموعة متعاقبة من الإصلاحات التدريجية . (المترجم)

الاتجاه غير أنه يمكن القول على الجملة أن «ماركس» هو الذى فاز على «أوين». فكانت النزعة العامة للاشتراكيين فى كل العالم هى الاعتماد على تنظيم العمال، والعمال دون أى شىء آخر، ليكونوا مصدرراً للقوى المقاتلة التى سوف تقوم بإخلاء سبيل التنظيم السياسى والاقتصادى للشئون الإنسانية من أبدى الملاك والمغامرين الخصوصيين الذين هم على درجة ما من عدم المسئولية والذين كانوا يتصرفون فيها.

تلكم هى المظاهر الإجمالية للمشروع المسمى باسم الاشتراكية وسوف نناقش فى قسمنا التالى ما فيها من نقص وعدم كفاية. وربما كان أمراً لا مندوحة منه أن تضطرب الاشتراكية اضطراباً كبيراً وأن تنقسم وتنفزع، إذ تتناولها يد الشكوك والمنازعات والشيع والمدارس. وما هذه إلا أعراض النمو شأن البقع على وجه يافع من الشبان. وما نحن بمستطيعين هنا إلا أن ننظر نظرة لائحة إلى الفارق بين اشتراكية الدولة، التى تنزع إلى إدارة الجهد الإقتصادى فى البلاد بوساطة حكومتها السياسية، وبين مدارسها الأخرى المتأخرة، مدارس «إشتراكية إتحادات العمال Syndicalism»، «واشتراكية نقاباتهم الحرفية Guilds»، التى تكل نصيباً كبيراً من إدارة كل صناعة بالعمال المشتغلين فى تلك الصناعة أيا كانت درجتهم بما فى ذلك المديرين والمراقبين. فهذه «الإشتراكية النقابية» إنما هى فى الحقيقة نوع جديد من الرأسمالية، تحمل فيها لجنة من العمال والموظفين فى كل صناعة عمل الرأسماليين الخصوصيين الأحرار فى تلك الصناعة. وتصبح هيئة الموظفين الصناعية هى الرأسمالى الجماعى.

٥ — عيوب الاشتراكية بوصفها خطة للجماعة الإنسانية

قال السير «وليم هاركورت» منذ سنوات عدة: «إننا جميعاً الآن اشتراكيون، وهذا القول يصدق اليوم صدقاً مرسللاً غير محكم. فقلما وجد أمراً يفوته أن يدرك الطبيعة الموقوتة والتقلقل الخطر اللذين يتسم بهما نظامنا السياسى والاقتصادى الحاضر، وأقل منهم كذلك من يعتقدون اعتقاد «الفرديين» النظريين غير العمليين، القائلين إن اقتناص الربح أو سياسة «أذهب كيفما شئت واصنع ما شئت» سوف تقود البشرية إلى مرفأ من مرفأ الرغد والسعادة. والواقع أنه ينبغى للأمر أن يعاد تنسية

تنسيقاً عظيماً وأن يتم لها بسند منهجي منظم من القانون إخضاع التماس المصلحة الشخصية لأهداف المصلحة العامة .

ومعظم الرجال المعقولين إنما هم إلى هذا الحد اشتراكيون . على أن هذه ما هي إلا مقترحات تمهيدية . فإلى أى حد وصلت الاشتراكية والفكر العصري بوجه عام إلى إنتاج الفكرة الذهبية لهذا النظام السياسى والاجتماعى الجديد، الذى يقف عالمنا باعتراف الجميع وهو فى أمس الحاجة إليه ؟ ونحن مضطرون أن نجيب أنه ليس هناك تصور واضح للحالة الجديدة التى نكافح نحوها كفاحاً مهماً ، وأن علمنا بالعلاقات الإنسانية ما يزال بالغاً من الفجاجة والإمعان فى النظرية إلى حد لا نجد فيه هداية محدودة، فى عشرات من النقاط السياسية الهامة . ولسنا اليوم فى مركز يجعلنا نقيم فى العالم نظاماً سياسياً متصوراً تصوراً علمياً إلا بقدر ما كان الناس يستطيعون أن يقيموا محطة كهربائية فى (١٨٢٥) . فإنهم لم يكونوا عند ذلك ليستطيعوا ذلك ولو كانت فيه نجاة حياتهم .

وتشير الطريقة الماركسية إلى أن القوى الثورية تراكم فى العالم العصري . فإن هذه القوى لن تبرح تنزع باستمرار نحو الثورة . ولكن ماركس افترض بغاية التبسيط أن الدافع الثورى ينتج بالضرورة دولة منظمة ذات نوع أحدث وأحسن . إذ الواقع أن الثورة قد تقف فى منتصف الطريق عند مجرد التدمير . ولم تقم أية شيعة اشتراكية حتى الآن بتعريف حكومتها المقترحة تعريفاً واضحاً . ويلوح أن البلاشفة كانوا يسترشدون فى تجربتهم الروسية بعبارة « ديكتاتورية البروليتارية » ، ومن الناحية العملية أثبت « تروتسكى » و « لينين » فيما يقال أنهما يعدلان فى أوتوقراطيهما القيصر اسكندر الأول الأقل منهما ذكاء والمعادل لهما فى حسن المقاصد .

وقد حرصنا كل الحرص أن نبين لك أثناء دراستنا الموجزة للثورة الفرنسية ، أن ليس فى استطاع ثورة من الثورات أن تؤسس أى شىء ثابت لم يُقتل تفكيراً قبل ذلك ولم يكن مفهوماً للرأى العام . فالجمهورية الفرنسية ، لم تلبث وقد واجهتها صعوبات غير متوقعة فى الاقتصاديات والعملية والعلاقات الدولية — حتى انهارت إلى يد أبائيات رجال الإدارة الحديثى الثراء ، ثم انهوت آخر الأمر تلقاء

أنانية ناهليون . والمحافظة في ثبات على القانون وعلى خطة مرسومة ، أشد ضرورة في أزمان الثورات منها في أيام الهدوء العادية ، لأن الجماعة الإنسانية تتدهور منفحة بغاية السرعة في أزمنة الثورات إلى مجرد عملية تخاطف مشوشة تحت سيادة الأقوياء العنيفين والمكررة والمحتالين .

فلو أننا نظرنا بصوره عامة إلى ما في عصرنا من علوم سياسية واجتماعية وقدرناها قدرها ، لكننا بهذا نقدر شيئاً من العمل الفكري التمهيدى الذى لا يزال على البشرية اتمامه قبل إمكان نشوء أية مجررات بناءة دائمة تنبثق من الروح التقليدية والجنوح إلى المغامرة اللذين يتسلطان على شئوننا الاجتماعية في زماننا هذا .

فهذه الاشتراكية التى تزعم أنها نظرية كاملة لنظام اجتماعى جديد ، يتبين لنا ونحن نتفحصها أنها شيء لا يتجاوز نظرية جزئية — مرشدة لنا جهد اتساع مجالها في شئون الملكية .

وقد بحثنا قبل الآن علاقة التطور الاجتماعى بتقييد فكرة الملكية . فإن هناك مذاهب متنوعة للفكر تتفاوت في تقييد الملكية قوة وضعفاً . فالشيوعية إنما هى الاقتراح بإلغاء الملكية لإلغاء تماماً ، أو بعبارة أخرى جعل كل شيء مشاعاً . وتميز الاشتراكية العصرية — أو قل « الجماعةية »^(١) Collectivism « إن شئت اسماً أدق وأضبط — تميزاً فعلياً واضحاً بين الملكية الشخصية والملكية الاجتماعية . وزبدة مقترحات الاشتراكيين هى أن الأرض ، وكل وسائل الإنتاج الطبيعية ، والترانسيت والتوزيع يجب أن تملكها الجماعة ملكاً جماعياً . وسوف يكون هناك داخل هذه الحدود كثير من الملكية الخصوصية والحرية الشخصية غير المقيدة . فلو أتيج لهذا المقترح إدارة ذات كفاية ، فلعل من المشكوك فيه أن كثيراً من الناس ينازعون فيه . بيد أن الاشتراكية لم تدخل قط في امتحان كامل لذلك الشرط القاضى بوجود إدارة ذات كفاية .

ومن وجه آخر ، ما هو ذلك المجتمع الذى سوف يحوز الملكية الاجتماعية —

(١) انظر الهامش ص ١١٨٧ .

أهو الحاكم أو المدينة أو المقاطعة أو الأمة أو البشرية ؟ إن الاشتراكية لا تعطيك أية إجابة واضحة . والاشتراكيون يسرفون في استخدام كلمة « تأميم Nationaliztion » ولكننا دأبنا على جعل كلمتي « الأمم Nations » و « القومية Nationalism » . هدفاً لشيء من النقد المدمر في هذا الكتاب . فلو اعترض الاشتراكيون على إدعاء فردى لشخص واحد بأن منجماً أو متسماً عظيماً من الأرض الزراعية إنما هو ملكه الفردى الذى يحق له أن يقبل أو يرفض المبادلة على استعمال الآخرين له أو كسبهم من ورائه ، فلماذا يسمحون لأمة واحدة أن تحتكر المناجم أو الطرق التجارية أو الثروة المعدنية فى الأراضى التى تعيش فيها ، مضادة فى ذلك البشرية جمعاء ؟ .

ويلوح أن النظرية الاشتراكية فى هذه المسألة على اضطراب عظيم . وما لم تصبح الحياة الإنسانية اجتماعاً عظيماً للجنس البشرى ينعقد فى دورة مستمرة ، فكيف يستطيع المجتمع أن يعين موظفيه الذين يقومون بتنفيذ شئونه الجماعية ؟ وفضلاً عن ذلك فليس المالك الخاص للأرض أو للعمل أو ما أشبهه إلا ضرباً من الموظف العام بالقدر الذى يسمح فيه المجتمع بوجود ملكيته وحمايته لها . فبدل أن تدفع إليه المرتبات أو الأجور ، يسمح له بأن ينال ربحاً .

والسبب الصحيح الوحيد لطرده من ملكيته هو أن الهيمنة الجديدة التى ستحل محل الأولى سوف تكون أكثر كفاية وأعود نفعاً وأدعى لرضى المجتمع . وبعد أن بطرد يكون له على أقل تقدير نفس الحق فى المطالبة بنفس رعاية المجتمع التى أظهرها هو نفسه من قبل للعامل المطرود من العمل بسبب اختراع ميكانيكى .

وهذه المسألة مسألة الإدارة ، وهى العائق السليم الصحيح لكثير من ألوان التشريك التوى^(١) ، توصلنا إلى تلك المسألة التى لم تبرح غير محولة إلى حد كبير ، وهى مسألة الترابط الإنسانى . فكيف نستطيع أن نحصل على خير توجيه للشئون الإنسانية وأن نحصل على ذلك التوجيه على النهاية القصوى من التعاون المتطوع ؟

(١) التشريك التوى (Immediate Socialization) : الصبح المباشر بالصفة الاشتراكية . وقد صيغت اللفظة على غرار لفظى التأميم والتصنيع . (المترجم)

فهذه مسألة سيكولوجية بلغت غاية التعقيد ، ولكن من السخف أن يدعى المرء أنها مسألة عويصة لا حل لها . ولا بد من أن توجد حالة يمكن تعريفها وتحديداتها هي خير الحالات وهي الشيء الصحيح في هذه الأمور . ولكنها إن كانت لا حل لها ؛ فإن الإدعاء بأنها قد حلت لا يقل عن ذلك سخفاً فالمسألة وهي في أتم صورها تنطوي على إنتاج أحسن الطرائق في النواحي الآتية وعلى ترابطها التام :

١ - التعليم : وهو إعداد الفرد ليتعاون في شئون العالم تعاون الفاهم وعن طيب خاطر .

٢ - الإعلام : عرض الشئون العامة عرضاً صادقاً ومستمرّاً على الأفراد ليصدروا حكمهم فيها ويوافقوا عليها . ومما يتصل اتصالاً وثيقاً بهذه الحاجة إلى الإعلام المتواتر أمر جمع القوانين وتنسيقها ، وهي مسألة جعل القانون على الدوام صريحاً واضحاً حين التدخل على الجميع .

٣ - التمثيل النيابي : وهو اختيار المندوبين والوكلاء الذين يعملون في المصلحة الجماعية ، في انسجام مع الإدارة العامة المبنية على ذلك التعليم وذلك الإعلام الصريح البسيط .

٤ - الهيئة التنفيذية : تعيين الوكلاء التنفيذيين والاحتفاظ بالوسائل التي تجعلهم على الدوام مسئولين أمام المجتمع - دون أن يعوق ذلك في نفس الوقت ابتداهات ذوى الذكاء وعملهم الابتكارى .

٥ - الفكر والبحث : وهو النقد المنظم للمسائل والقوانين لتكوين مادة علمية (Data) تكون موضع الحكم العام الشعبى ، وضمان التحسين الدنيوى للتنظيم الإنسانية عن طريق هذه الأحكام .

تلك هي الرؤوس الخمسة التي تتجلى فيها أماننا المسألة الإجمالية للجماعة البشرية فانظر حولك ماذا ترى ؟ . إنا نرى فيما يحيط بنا من العالم وسائل يقصد بها إلى مجرد « سدخانة » أو إيجاد بديل مؤقت ، وهي تعمل عملها في كل هذه الفروع ،

وكلها وسائل سيئة التناسق إحداها مع الأخرى ، كما أنها في ذاتها غير مرضية .
 ولنا لئرى نظاما للتعليم يتجلى في تمويله وتجهيزه الشح والدناءة ، وفي تنظيمه سوء
 الإدارة ، ويعقده تدخل الهيئات الدينية وعداوتها ، ونرى الإعلام الشعبي
 العام تقدمه بوجه رئيسى صحافة مرتشية تعتمد على الإعلانات والإعانات المالية .
 ولنا لنشهد طرائق للانتخاب هزلية تعيد إلى السلطان سياسيين يبلغون في عدم
 تمثيلهم للشعب مبلغ أى حاكم وراثى أو أى فاتح عرضى . وإنك لئرى القوة
 التنفيذية في كل مكان تتأثر نوعا ما أو تتحكم فيها بدرجة متفاوتة جماعات من
 الأغنياء المغامرين ، وترى الاشتغال بالعلوم السياسية والاجتماعية والنقد العام
 ما يزال من عمل أفراد متكرسين ذوى أطوار غريبة بدل أن يكون عملا من أعمال
 الدولة مكرماً معترفاً به .

وإن هناك لواجباً ضخماً ينتظر الرجال ذوى التفكير الصحيح لئى يقوموا
 بتنظيف وتجميل حظيرة السياسيين . فحتى تتحقق هذه الغاية فإن من المستحيل أن
 يتم فهم الاشتراكية فهماً تاماً . وما دام المغامرون الخصوصيون يهيمنون على حياة
 الدولة السياسية ، فإن من المضحك أن يفكر الناس في أن تضطلع الدولة بالمصالح
 الاقتصادية الاجتماعية منزعة إياها من يد المغامرين الخصوصيين .

والحركة الاشتراكية لم تقف حتى الآن فقط عند الفشل في إنتاج خطة مدروسة
 على أساس علمى لإيجاد الترابط في التعليم والقانون وممارسة السلطة العامة ، بل إنه
 حتى في الميدان الاقتصادى كما سبق أن بينا لك ، ما تزال هناك قوة خلاقة تنتظر
 فكرة يصمم بها تنظيم صحيح للائتمان (Credit) وتستنبط منها طريقة صحيحة للدفع
 والتبادل (Interchange) . ومن البدايات الأولية أن رغبة العامل وإقباله تتوقف
 فيما تتوقف عليه من أمور على ثقته التامة في القوة الشرائية للعملة التى يقبض أجره
 منها . ومتى ذهبت تلك الثقة بطل العمل اللهم إلا في الحالة التى يمكن فيها أن
 يكافأ العامل بدفع الأجور عيناً . ولكن ليس هناك القدر الكافى من علم العملة
 ولا من «علم نفس» الأعمال لرد الحكومات عن التدخل في الائتمان العام وفي التداول .

تدخلنا يزعج الناس أيما إزعاج . ويؤدي مثل هذا التدخل مباشرة إلى التوقف عن العمل أى التوقف عن إنتاج الأشياء الضرورية .

ففي مثل هذه المسائل الحيوية العملية لا يكاد يكون من المبالغة أن يقال إن أغلبية هؤلاء الاشتراكيين الذين يرغبون في إعادة صوغ العالم ليست لديهم أية أفكار محددة إصالة . ولكن الناس سواء كانوا في عالم اشتراكي أم في أى نوع آخر من العوالم ، يجب أن يقبضوا نقوداً مقابل عملهم بدل أن يقبضوا أجورهم عيناً ، إن كان يجب أن يستمر شيء اسمه الحرية الفردية . وهنا أيضاً ينبغي أن يكون هناك شيء محقق صحيح يجب على الناس أن يعملوه . فحتى يتحدد ذلك ، فلن يظل التاريخ في هذه الأمور سجلاً للتجارب قدر ما يكون سجلاً للتخبطات .

وهناك اتجاه آخر كان فيه التفكير الاجتماعي والسياسي في القرن التاسع عشر ، يواجه ما عليه الثورة الميكانيكية من ضخامة ، وجلاً خائفاً محدوداً غير كاف ، وكان ذلك بالنظر إلى العلاقات الدولية . وسوف يجد قارئ الأدب^(١) الاشتراكي ، الاشتراكيين وهم يكتبون ويتكلمون عن « الدولة » بلا انقطاع ، دون أن يبدو عليهم أنهم يدركون أن « الدولة » قد تكون أى نوع من أنواع التنظيمات وأنها تحددها جميع المساحات ، ابتداء من جمهورية سان مارينو إلى الإمبراطورية البريطانية . حقاً إن كارل ماركس كانت لديه فكرة عن تماسك المصالح بين العمال في كل الأقطار المصنعة . ولكن لا تكاد اشتراكية ماركس تحوى إشارة إلى النتيجة المنطقية لهذا ، وهى تأسيس حكومة ديمقراطية عالمية اتحادية (Federal) (من دونها حكومات قومية أو إقليمية للدول) بوصفها نتيجة طبيعية لثورته الاجتماعية المقترحة .

ويمهما عظم الأمر ، فليس هناك أكثر من أمل مبهم . ولكن إذا كان الماركسي على أى قدر من المنطق ، وجب أن يكون ذلك هو غايته السياسية الصريحة العلنية

(١) كلمة الأدب هنا مستعملة بمعناها العام ، الذى يشمل ما كتب في تلك المادة من كتب وصحف ومجلات ونشرات . (المترجم)

التي يجب أن يعمل من أجلها بلا انقطاع . غير أن اشتراكي معظم الأقطار الأوربية قد يبا قد أظهروا يوم عجمت عودهم حرب (١٩١٤) ، أن ما لديهم من الوعي الطبقي بالدولية كان لعمري ضئيل الحظ من التوقير والكرامة ومن الإيثار الجدى على مشاعرهم الوطنية القومية ، وأن ذلك الوعي لم يحلّ بأى حال محلها . فقد كان الاشتراكيون فى كل مكان أثناء الحرب الألمانية ينعون على تلك الحرب أنها من عمل حكومات رأسمالية . ولكن طعن الناس فى حكومة أو نظام عالمى لن يكون له إلا أثر ضئيل ما لم تكن لديهم فكرة عملية عن حكومة من طراز أحسن ونظام أحسن محلها .

ونحن إنما نذكر هذه الأمور هنا لأنها حقائق ، ولأنها جزء حى ضرورى من نظرة شاملة معاصرة إلى التاريخ الإنسانى . وليس من واجبنا الآن أن ندافع عن الاشتراكية ولا أن نختصمها . ولكن مما يدخل فى الصورة القائمة بين أيدينا أن نلاحظ أن الحياة السياسية والاجتماعية إنما هما — ولا بد لهما من أن تظلا — فى حال من الفوضى واستجلاب الكوارث ما لم يحدث تطور لبعض الخطط الإنشائية من أضراب ما تخططه الاشتراكية ، فضلا عن أن نوضح مقدار بعد العالم فى الوقت الحاضر عن أى خطة من هذا النوع .

ولا بد من أن يحدث قدر هائل من العناية الذهنية والبحث والمناقشة والتعليم ، ولا بد من انقضاء السنوات العديدة ، التى قد تصل إلى العشرات أو القرون ، إذ لا يستطيع أحد أن يعرف مدى ذلك — قبل أن يعم الأرض بأكملها نظام جديد مصمم كما تصمم السفن والسكك الحديدية ، وأن يجرى كما تجرى خطوط التلغراف البحرى وأعمال التوزيع فى البريد . فحتى يستطيع مثل هذا النظام أن يضم بشبكته شتات البشرية بعضها إلى بعض ، فلا بد للحياة الإنسانية كما سنعرضها عليك من قورنا بقصة الحروب الأوربية منذ (١٨٥٤) ، من أن تصبح عرضية خطيرة تعسة ، وقلقة مليئة بالكوارث بسبب هذه الوسائل الحربية التى لا تبرح تشدد قوة وتدميراً كل يوم ، نتيجة لتواصل الثورة الميكانيكية .

٦ - كيف أثر مذهب دارون في الأفكار الدينية والسياسية^(١)

بيما كانت الثورة الميكانيكية^(٢) التي نتجت عن نمو علم الفزيقا (الطبيعة) آخذة بأسباب تدمير التصنيف الاجتماعي القديم للدولة الممدنة التي تطورت على مر آلاف من السنين ، وشارعة في إنتاج احتمالات جديدة ومثل عليها جديدة لمجتمع إنساني بر صالح ، ونظام عالمي بر صالح - كان يجري في حقل الفكر الديني تغيير هو على أقل تقدير معادل لتلك الثورة في العظم والجدّة . وكان نفس هذا النمو في المعارف العلمية الذي نشأت عنه الثورة الميكانيكية هو الدافع المحرك لهذه الاضطرابات الدينية .

ولقد قدمنا إليك في الفصول الافتتاحية الأولى من هذا الكتاب القصة الرئيسية لسجل الصخور ؛ وصورنا الحياة على حقيقتها إدهى بداية وعى صغيرة ، مظهرين إياها وهي لا تزال تسبح في ضخامة ما أمامها من فراغ ينتظرها بين الفضاء والزمان . ولكن قبل أن يشارف القرن الثامن عشر نهايته كان هذا مشهد الماضي الضخم - الذي يملأ الذهن العصري بالمذلة وبما لا حد له من الأمل ، - شيئاً خافياً مستتراً على الوعي العام بلخسنا . إذا كان يستره عن الأعين سحج^(٣) من أسطورة سومرية . فإن السماوات لم تكن لتزيد على خلفية مسرح من المسارح تقوم من وراء تمثيلية أبطالها الملوك . وكان الناس أشد إشتغالاً بشهواتهم الخاصة وشئونهم الشخصية من أن يأبهوا بما يلوح لهم من المقدّرات العظيمة التي كانت تحيط بهم من كل ناحية .

ولقد علموا مركزهم الحقيقي في « المكان » قبل أن يضعوا أنفسهم في الزمان بأمد بعيد . وسبق لنا أن سمّينّا لك الفلكيين الأقدمين ، وأنخبرناك كيف أجبر « جاليليو » على إنكار قوله أن الأرض تدور حول الشمس ، حيث أجبرته الكنيسة على أن

(١) إن شئت وجهة نظر دينية دقيقة وثيقة المائلة لهذه المذكورة هاهنا ، فانظر كتاب « Outspoken Essays » للأسقف إنج ، المقاتلات رقم ٨ و ٩ عن القديس بولس وعن التسلك بالنظم والتدين (Institutionalism & Mysticism) .

(٢) الدرة الميكانيكية والانقلاب الآلى بمعنى واحد . (المترجم)

(٣) السحج : الستار . (المترجم)

يفعل ذلك ، مدفوعة بإعتقادها أن أى شك يحيط بأن الأرض مركز العالم ضربة قاتلة تزلزل سلطان المسيحية .

ولعمري إن من يقص التاريخ العصري مضطر في هذا الموضوع أن يصطنع الحذر والجرأة في آن واحد . ولا بد له من أن يتحسس موطئ قدميه ، بين التملص الجبان من ناحية والتعصب من ناحية أخرى . ولا بد له من أن يقصر نفسه جهد طاقته على الحقائق وأن يحتفظ لنفسه بما يرى من آراء . ومع ذلك فن الخير أن نتذكر أن الاحتفاظ المطلق بالآراء أمر ليس في الإمكان . ولكاتب هذه السطور إقتناعاته وآراؤه القوية المحددة وهو أمر لا بد للقارىء أن يعيه في ذاكرته .

ومن الحقائق المقررة في التاريخ أن تعاليم يسوع الناصري كان فيها شيء جديد عميق الجدة خلاق قوى الخلق . فإنه بشر بمملكة جديدة للسماوات في قلوب الناس ودنياهم . ولم يكن في تعاليمه شيء - بقدر ما نستطيع أن نحكم عليها من هذا البعد الزمنى - يتعارض أو يتدخل مع أى اكتشاف أو توسع في تاريخ العالم والبشرية . ولكن من الحقائق التاريخية أيضاً أن القديس بولس وخلفاءه قد أضافوا إلى تعاليم يسوع الصريحة الممعة في الثورية ، أو أكملوها أو فرضوا عليها أو تبدلوا بها مبادئ أخرى - (واختر لنفسك من هذه الألفاظ ما تشهى) - وذلك ببسطهم نظرية للخلاص دقيقة معقدة ، وهو خلاص يمكن الحصول عليه في معظم الأمر بالإيمان والشكليات ، دون دخول أى تغير جدى في مألوف عادات المؤمنين وأعماله العادية ، وأن تلك التعاليم البولسية كانت تحتوى فعلا على معتقدات محددة جداً حول تاريخ العالم والإنسان .

وليس من شأن المؤلف أن يجادل في هذه الأمور أو يشرحها . فإن مرد قيمتها النهائية إلى علماء اللاهوت . أما اختصاص المؤرخ فينحصر في أن المسيحية الرسمية في جميع أنحاء العالم تبنت وجهة نظر القديس بولس ، التي عبر عنها في رسائله بأجلى بيان ، والتي استطاع قص آثارها في الأناجيل ، وهى وجهة النظر القائلة بأن معنى الديانة لا يقع في المستقبل وإنما يقع في الماضي ، وأن يسوع لم يكن معلماً لأشياء جديدة رائعة ، قدر ما كان قرباناً دموياً مقدساً عامراً بالخفايا العميقة والقدسية

البالغة ، هياها القدر كفارة عن حدث تاريخي خاص من أحداث عصيان الخالق إقترفه والدانا الأولان ، آدم وحواء إستجابة لإغراء أفعى فى جنة عدن . وقد بنت المسيحية المذهبية مبادئها على هذا الاعتقاد فى تلك « الخطيئة » بإعتبارها حقيقة ، لا على شخصية يسوع الناصرى ، وقامت على نظريات بولس لا على وصايا يسوع .

وقد لاحظنا آنفاً أن هذه القصة ، قصة الخلق الخاص للعالم وآدم وحواء والأفعى ، كانت كذلك قصة بابلية قديمة ، ولعلها أيضاً قصة سومرية أقدم عهداً وأبعد أمداً ، وأن الكتب اليهودية المقدسة كانت الوسيط الذى أدخل إلى المسيحية أسطورة الأفعى العتيقة هذه البدائية « الهليوليثية »^(١) الأصل — وقد حملت المسيحية الرسمية هذه القصة معها حيثما حلت . ذلك أنها ربطت نفسها بتلك القصة .

وكان العالم المصطبغ بالمسيحية يشعر إلى قرن سلف أو أقل من ذلك ، بأنه ملزم أن يعتقد ، بل كان يعتقد فعلاً ، أن الكون خُلِقَ خلقاً خاصاً فى ستة أيام بكلمة من الله صدرت قبل بضعة آلاف من السنين أى سنة ٤٠٠٤ ق . م . — كما يقول الأسقف « أشر Bishop ussher » (وكتاب « التاريخ العام » الصادر فى اثنين وأربعين سفرًا الذى نشرته فى (١٧٧٩) جماعة من تجار الكتب فى لندن يبحث هل كان التاريخ الدقيق للخلق هو ٢١ مارس أو ٢١ سبتمبر سنة ٤٠٠٤ ق . م ، ويميل إلى ترجيح التاريخ الثانى) .

وعلى هذا الفرض التاريخي كان ينهض الصرح الدينى للمدينة الغربية أصلاً والغربية صباغاً ، ومع ذلك فإن العالم بأجمعه كانت تزعم الأدلة ، فإن التلال والجبال والدلتاوات والبحار كانت تنفجر صائحة بالسخافة المطلقة لهذه النظرية . وكانت الحياة الدينية لدى كبريات الأمم وهى ما تزال حياة دينية جادة جداً عامرة بالإخلاص ، تجري فى دار للتاريخ بنيت على أس من الرمل .

وإن الأدب الكلاسيكى ليعوى من الشواهد الكثيرة الورود فيه ، ما يدل على

(١) الهليوليثية : عصر الحضارة الحجرية الشمسية . انظر ص ١٣٥ - ١٣٧ ج ١ ط ٢ من المعالم . (المبرمج)

وجود مباحث في بدء الخليقة أصبح وأسلم . فإن أرسطو تنبّه للمبادئ الإجمالية للجيولوجيا العصرية ، وإنها لتلمع في ثنايا تأملات لوكريشوس ، كذلك لاحظنا التفسير النير الذي فسر به ليوناردو دافنشي (١٤٥٢ - ١٥١٩) الحفريات . وقد ارتأى الفرنسي العظيم ديكارت (١٥٩٦ - ١٦٥٠) الآراء الجريئة حول بدايات كرتنا الأرضية ، وأنها كانت في أول أمرها كرة متوهجة نارية ، وبدأ دانتاركي اسمه ستينو (١٦٣١ - ١٦٨٦) العمل في جمع الحفريات ووصف الطبقات الأرضية . ولكن حدث - وقد أشرف القرن الثامن عشر على نهايته - أن خطت الدراسة المنظمة للجيولوجيا خطوات فساح أثرت بقوة في الاعتماد العام على رواية الكتاب المقدس التي هي صورة من القصة السومرية العتيقة .

ومن عاصر « كتاب التاريخ العام » الذي اقتبسنا منه آنفاً . عالم فرنسي بالتاريخ الطبيعي هو بوفون (Buffon) ، وكان يكتب عن « حقب الطبيعة » (١٧٧٨) ، ويمد عمر العالم في جرة إلى سبعين ألفاً أو خمسة وسبعين ألفاً من السنين . وقد قسم قصته إلى ستة أحقاب تقابل الأيام الستة في قصة الخليقة . وقد ذهب الرجل إلى أن هذه الأيام الستة إنما هي أيام مجازية ؛ كانت في حقيقتها عصوراً . وحاولت الجيولوجيا بهذه الحيلة المريحة أن تعقد صلحاً مع التعاليم الدينية المسيحية لاستمر إلى منتصف القرن الثامن عشر .

ولسنا نستطيع هنا أن نقص ما أداه رجال من أمثال هاتون وبلايفير وسير شارل ليال ، والفرنسيين لامارك وكوفييه من جليل الخدمات في كشف اللثام عن سجل الصخور^(١) وفي تطويره والنهوض به . ولم يحدث إلا ببطء أن أخذ الذكاء العام في العالم الغربي يستيقظ على حقيقتين أفضتاً مضجعه ! أولاهما ، أن تعاقب الحياة في السجل الجيولوجي لم يكن يقابل الأعمال التي جرت في أيام الخليقة الستة ؛ وثانيتهما ، أن السجل في اتساق منه مع مجموعة كبيرة من الحقائق البيولوجية ، يشير إلى عكس ما يقرره الكتاب المقدس من أن كل نوع خلق خلقاً منفصلاً ويشير إشارة صريحة إلى أن هناك علاقة وراثية بين كل أشكال الحياة . « علاقة كانت تضم

(١) سجل الصخور : راجع المجلد الأول من المعالم ص ٢٣ ط ٢٠ . (الترجم)

الإنسان نفسه « !! وكانت أهمية هذه النقطة الأخيرة لدى النظام المذهبي الموجود بينة واضحة . فلو أن كل الحيوانات والإنسان كان نصيبها النشوء والارتقاء على تلك الشاكلة المتصاعدة ، ترتب على ذلك أن لم يكن هناك أبوان أولان ، ولا عدن ولا « خطيئة » . وإذا لم تكن ثمة خطيئة فإن كل الصرح التاريخي للمسيحية ، وقصة الخطيئة الأولى وهى السبب الداعى إلى الكفارة ، التى أسس على أركانها التعليم السارى للعواطف المسيحية والأخلاق المسيحية ، فإن ذلك كله ينهار كبيت من ورق اللعب .

فلا عجب إذن أن تتابع جماهير عظيمة من الرجال الشرفاء ذوى النفوس المتدينة فى شيء يماثل الرعب عمل عالم التاريخ الطبيعى الإنجليزي تشارلز دارون (١٨٠٩ - ١٨٨٢) . فى ١٨٥٩ نشر كتابه « أصل الأنواع بواسطة الانتخاب الطبيعى » وهو عرض قوى لا تبلى قيمته لهذه الفكرة الخاصة بتغير الأنواع وتطورها التى رسمناها لك فى إيجاز فى الفصل الثانى . وفى ١٨٧١ أتم معلم عمله بكتابه « أصل الإنسان » ، الذى أدخل الإنسان إدخالاً محدداً فى خطة التطور نفسها مع سائر الحياة والأحياء .

ولا يزال على قيد الحياة بين ظهرانينا رجال ونساء كثيرون يستطيعون أن يتذكروا الرعب والحزن الذى استولى على الأذكىاء العاديين فى المجتمعات الغربية عندما أخذت تتكشف للناس القضية التى لا تقهر ، قضية البيولوجيين والحيولوجيين ضد « مبحث بدء الخلق » فى المسيحية السلفية^(١) . وقاومت عقول كثير منهم المعرفة الجديدة مدفوعين بالغريزة وعدم التعقل . ذلك لأن صرحهم الخلقى كله كان مشيداً على دعامة من التاريخ الزائف ، وقد كانوا أكبر سناً وأشد جوداً من أن يرفعوا بناءه مرة أخرى ؛ وخالوا هذه الحقيقة الجديدة لا تتمشى مع ما كانوا يحسونه من الصدق العملى فى معتقداتهم الخلقية . واعتقدوا أن فى التسليم بها تمهيدا لسبيل تقوض العالم من الناحية الخلقية . ومن ثم أحدثوا انهياراً خلقياً بعدم موافقتهم عليها .

ولما كانت الجامعات فى إنجلترا بخاصة هيئات دينية فى تكوينها قبل كل شيء ،

(١) المسيحية السلفية Orthodox Christianity : أى المحافظة على التقاليد المذهبية الصحيحة (المترجم)

فإنها قاومت العلم الجديد مقاومة جد مريرة . فكانت أرجاء العالم الممدن تغلى بالخصومة العاصفة إبان السبعينات والثمانينات . ولعل أدل شيء على نوع المناقشات وعلى الهالة القتالة للكنيسة إيراد وصف جاء في كتاب « الأمور العادية » بقلم هاكت ، بلحسة للجمعية البريطانية في ١٨٦٦ ، هاجم فيه الأسقف ويلبر فورس العلامة هكسلي (Huxley) ، النصير العظيم لآراء دارون ، على هذه الشاكلة .

اتجه الأسقف نحو هكسلي وعلى فمه ابتسامة وقحة ورجاه أن يعرفه « هل كان ادعاؤه الإنحدار عن أحد القروء عن طريق جدته أو جده » ؟ والتفت هكسلي إلى جاره وقال « إن الرب قد أسلمه لى فى يدي » . ثم وقف أمامنا ونطق بهذه الكلمات الهادئة « إنه ليس ينجله أن يكون جده قرداً ، ولكن ينجله أن تكون له صلة برجل يستعمل المواهب الكبيرة فى تعمية الصدق » . (وثمة رواية ثانية تنقل القصة على هذا النحو : « من المحقق أنى قلت : إنه ليس هناك ما يدعو رجلا من الرجال أن ينجل أن يكون جده قرداً . فلئن كان هناك جد أخجل من تذكره ، فأحرر بذلك أن يكون رجلا ذا ذهنية قلقة قلابة يخوض غمار مسائل علمية ليست له بها دراية صحيحة ، لا لشيء إلا لإدخال الخفاء والغموض عليها باستعمال بلاغة لا تستهدف غرضاً ، وأن يحول إلتفات سامعيه عن النقطة الحقيقية التى هى مدار النزاع بواسطة الانحراف عن الموضوع بفصاحته واللجوء الماهر إلى روح التحامل والتحز ») . ولا شك أن هذه الكلمات قد نطقت فى حدة . إذ كان المشهد مشهد انفعال عظيم . فأعنى على إحدى السيدات كما يقول هاكت . . . وذلك هو طراز الخلق العنيف فى هذه الخصومة .

وقد أخذت الحركة الداروينية ، المسيحية الرسمية بغتة وعلى غرة . فوجهت المسيحية الرسمية بغلطة فى بياناتها اللاهوتية يمكن لإثباتها والبرهنة عليها . ولم يؤت اللاهوتيون المسيحيون حظاً كافياً من العقل والحكمة ولا من نشاط الذهن يحملهم على قبول الصدق الجديد ، وعلى تعديل قانون الإيمان الذى لديهم ، وأن يصروا على الحيوية الخالدة التامة التى لم ينقص شيء منها . حيوية الحقيقة الدينية التى كانت قوانين الإيمان حتى ذلك الحين كافية للتعبير عنها . فإن اكتشاف انحدار الإنسان عن

أشكال شبه إنسانية لا يمس وإن من بعيد تعاليم ملكوت السماوات . ومع هذا فإن القساوسة والأساقفة ثاروا بدارون ثورة عنيفة ؛ وقام بعضهم بمحاولات حمقاء لمصادرة مؤلفاته وإهانة أنصار الآراء الجديدة وشراحها . وتبادل القوم قدراً كبيراً من جارج القول في « الخصومة بين الدين والعلم » .

والحق أنه لم يخل عصر من العصور من متشككة في المسيحية . فإن الإمبراطور فردريك الثاني كان على وجه التحقيق أحد المتشككين ؛ وفي القرن الثامن عشر كان جيبون وقولتير ينكران المسيحية صراحاً وجهاراً ، وأثرت كتاباتهما في عدد من القراء مبشرين هنا وهناك . على أن هؤلاء كانوا أناساً غير عاديين فأما الآن فقد أصبحت كل المسيحية بوجه الإجمال متشككة . إذ مست هذه الخصومة الجديدة كل إنسان قرأ كتاباً أو سمع محاضرة بين أذكىاء . ونما جيل جديد من الشباب ، نظر حوله فوجد المدافعين عن المسيحية في حالة من الشراسة الحادة ، يحاربون من أجل قضيتهم بلا كرامة ، ولا إنصاف . وكان الذي زُجَّ في مأزق الخطر بسبب تقدم العلم الحديث هو اللاهوت التقليدي الفلسفي ، غير أن اللاهوتيين الغضاب كانوا يصرحون بأن الخطر إنما يحدق بالدين .

وقد يكتشف الناس في النهاية أن الدين سوف يزبد من بريق صقاله عندما يزول منه كل ما هو ملفف به من مبادئ مذهبية ، فأما الشباب فخيّل إليهم أنه كان هناك نزاع فعلا بين العلم والدين ، وأن العلم كان المظفر في ذلك النزاع الكبير في أفكار الناس وطرائقهم في طبقات الموسرين وذوى النفوذ في كل أرجاء العالم الغربي الصبغة ، أثرا هداما بالغاً في الواقع . ولم يأت العلم البيولوجي الجديد حتى ذلك الحين بشيء إنشائي يحل محل الأشياء القديمة التي طرحت جانبا . وتلا ذلك انحلال خلقي حقيقي .

وكان المستوى العام للحياة الاجتماعية في تلك الطبقات أعلى كثيراً في بداية القرن العشرين منه في بداية القرن السابع عشر ، ولكن هناك منحى واحداً لعل النعم فيه في العصر الأقدم كان أحسن منه في العصر الأحدث هو منحى إمتناع المصلحة الذاتية ومراعات الضمير في تلك الطبقات . ويرجح أنه كان في طبقات الملاك وأرباب النشاط في القرن السابع عشر — بالرغم من وجود عدد قليل من « الكفرة » حقاً.

نسبة مثوية أعلى كثيراً منها في سنوات مدخل القرن العشرين من الرجال والنساء الذين كانوا يصلون بإخلاص ، والذين كانوا يبحثون في زوايا نفوسهم ليعرفوا هل أحدهم شراً ، كما كانوا على استعداد لتحمل الآلام والقيام بتضحيات عظيمة في سبيل ما يظنونهم الحق .

وقد أصيب العالم بنقص حقيقى في الإيمان بعد ١٨٥٩ . وكثيراً ما كان ذهب الدين الإبريز ينبذ وي طرح مع الكيس البالى الذى صممه بين دفتيه زمناً طويلاً ، ولكن أحداً لم يسترجعه بعد ذلك . حتى إذا شارف القرن التاسع عشر نهايته كانت صورة ممسوخة فجة للمذهب دارون قد غدت المادة العقلية الجوهرية عند جماهير غفيرة من « المتعلمين » في كل مكان . وكانت عند ملوك القرن السابع عشر وملأكه وحكامه وزعمائه فكرة في مؤخرة أذهانهم توحى إليهم بأنهم إنما يتولون ما يتولون بإرادة من الله . وكانوا يخشونه حقاً وكانوا يطلبون القسرس لكي يصلحوا الأمور بينهم وبينه . فإن كانوا من الأشرار اجتهدوا ألا يفكروا فيه ولكن العقيدة القديمة عقيدة ملوك مفتتح القرن العشرين وملأكه وحكامه اصمحت تحت ذلك الشعاع النوراني الذى يلقيه النقد العلمى .

وكانت الشعوب المتغلبة عند ختام القرن التاسع عشر يعتقدون أنهم إنما يسودون بحكم « تنازع البقاء » الذى يتغلب فيه القوى الماكر على الضعيف الواصل المخذوع . وكانوا يعتقدون فضلاً عن ذلك بأنه لا بد لهم من أن يكونوا أقوىاء ناشطين قساة ، عمليين أنانيين ، لأن الله قد مات ، وكان على الدوام فيما يخالون ميتاً — وهذا شيء يتجاوز تماماً ما تبرره المعارف الجديدة .

وسرعان ما تجاوزوا مرحلة الفهم الخاطئ الفج الشعبى الأول للمذهب دارون . وهو الفكرة القائلة بأن كل إنسان يعيش من أجل نفسه وحدها . ولكنهم تردوا فيما هو أسوأ . ذلك بأنهم قطعوا بأن الإنسان حيوان اجتماعى مثل كلب الصيد الهندى . هو أكثر كثيراً من كلب عادى ، ولكنهم لم يبصروا تلك الحقيقة . وكما يحدث بالضبط في سرب الكلاب من ضرورة إخضاع الأصغرين والأضعفين وإرهابهم في سبيل الصالح العام ، فكذلك بدا في أعينهم أن من الصواب أن تقوم الكلاب الكبيرة

في السرب الإنساني بإرهاب الغير وإخضاعه . ومن ثم نشأت زراية جديدة بفكرات الديموقراطية التي رانت على العقول في أوائل القرن التاسع عشر ، وانبعثت من جديد مشاعر الإعجاب بالمتبجحين والقساة .

وكان مما يوافق خصيصة ذلك الزمان تمام الموافقة أن يقتاد المستر كبلنج^(١) أطفال الطبقتين الوسطى والعليا في الجمهور الإنجليزى عائداً بهم إلى الغاب ليتعلموا « القانون » ، فهو في كتابه « ستوكى وشركاه » يقدم وصفاً كله التقدير للتعذيب الذى ناله ولدان على يد ثلاثة آخرين ، كانوا قد اختدعوا ضحاياهم حتى ربطوهم ربطاً مؤلماً لافكاك لهم منه ، — قبل إظهارهم مقاصدهم العدائية .

ويجدر بنا أن نوجه شيئاً من الالتفات إلى هذه الحادثة في كتاب « ستوكى وشركاه » ، لأنها تنير لنا غوامض السيكلوجيا السياسية للإمبراطورية البريطانية عند نهاية القرن التاسع عشر إنارة ناصعة جداً . وليس في المستطاع فهم تاريخ نصف القرن الأخير دون تفهم للإلتواء الذهني الذى تعد هذه القصة مثلاً من أمثله . والولدان اللذان يعدّيان « مشاغبان شريران » ، وذلك هو العذر الذى يعتذر به معذبوهما ، هذا فضلاً عن أن الذى حرّض هؤلاء الأخيرين على هذا العمل الفاضح هو أحد القساوسة . وما يستطيع شيء أن يقلل من المرح الذى شرعوا ينفذون به عملهم . ويلوح أن التعليمات كانت تقضى بأنه قبل اللجوء إلى التعذيب ، يجب عليهم أن يستدرجهم في الحديث حتى يزل لسانهم زلة تستثير شيئاً من الغيرة الأخلاقية التي يمكن تبريرها ، وعندئذ يصبح كل شيء على ما يرام « فلأنكم إذا صغتم أن تكون السلطات إلى جانبكم ، لم يكن هناك وجه لتوجيه اللوم إليكم » . وواضح أن ذلك هو المبدأ البسيط لهذا الإستعماري النموذجي . على أن كل معتد أثم قد اتبع ذلك المبدأ على أحسن ما تتيحه له مقدرته ، منذ أن تطور في الحيوان البشرى الذكاء الكافي . بلعبة قاسياً قساوة واعية .

وهناك نقطة أخرى في القصة ذات مغزى كبير جداً في الواقع . فان كلا من

(١) كبلنج : هو جوزيف رديارد كبلنج (١٨٦٥ - ١٩٣٦) شاعر وكاتب استعماري شهير ولد بالهند وله مؤلفات كثيرة وحصل على جائزة نوبل (١٩٠٧) . (المترجم)

الناظر ومساعدته الكتاني يُحتلان بوصفهما عاملين خفيين . فإنهما ليرغبان في حدوث هذا الشجار والتعدى . وبدلاً من أن يستعملتا ما في أيديهما من سلطان ، تراهما يستعملان هؤلاء الصبيان أبطال المستر كبلنج ليعاقبوا الضحيتين وإن الناظر والقسيس ليعيران شكاة الأم الغاضبة أذناً صماء . ويعرض المستر كبلنج هذا كله بوصفه أقصى المرغوب من الأحوال .

وإننا لنملس في هذا مفتاح أقبح فكرة للاستعمار العصري (Imperialism) وأشدها رجعية وأعظمها في النهاية خطراً عليه وقتلاً له . وهي فكرة « مؤامرة ضمنية بين القانون والعنف غير الشرعي » . وكما أن القيصرية الروسية دمرت نفسها آخر الأمر بتشجيعها سرّاً سفاحي « المئات السوداء » الذين كانوا يذبّحون اليهود وأقواما آخرين ممن زعم القيصرون أنهم معادون له ، فكذلك تلطخ الاسم الطيب « للحكومة الإمبراطورية البريطانية » - وما يزال ملطخاً - بغارة غير مشروعة قام بها الدكتور جيمسون^(١) ، على الترنسفال قبل « حرب البوير » ، وبما سوف نصف لك من فورنا من مغامرات السير إدوارد كارسون^(٢) (المعروف فيما بعد باسم اللورد كارسون) في إيرلندا ، وبإغضاء الحكومة البريطانية الضمني في إيرلندا عما يسمونه « بأخذ الثأر » الذي قام به الموالون للحكومة ضد مرتكبي (أو من يزعمونهم مرتكبي) اعتداءات السنين فين^(٣) .

وإنما تدمر الإمبراطوريات نفسها بمثل هذه الخيانات التي ترتكبها ضد رعاياها . فإن القوة الحققة للحكام والإمبراطوريات تقوم لا على أساس الجيوش والبحريات ، بل على اعتقاد الرجال بأنهم صُرحاء صادقون قانونيون لا تلين قناتهم في الصراحة

(١) الدكتور جيمسون (١٨٥٣ - ١٩١٧) : سايى بالمستعمرات ولد بإدنبره . وكان طبيباً بكبرى حيث أصبح صديقاً لسسل رودس . وفي أوائل ١٨٩٦ قاد حملة جيمسون من ميفكنج إلى الترنسفال .

(المترجم)

(٢) عن السير إدوارد كارسون : انظر المعالم الفصل ٣٨ القسم الثالث (المترجم)

(٣) السنين فين : الحزب الوطني الإيرلندي أسسه آرثر جريث ١٩٠٥ ، وسياسته مقاومة الحكم البريطاني . وانتقلت زعامته عند ١٩١٧ إلى ديقالير اكبر الحركة الجمهورية ، وقد تغلب في ١٩١٨ على الحزب القديم الداعي إلى الحكم الذاتي ، وزال من الوجود بعد ١٩٣٢ . (المترجم)

والحق والقانون . فلا تكاد حكومة تخرج عن ذلك الميعار ، حتى تكف عن أن تكون شيئاً يتجاوز مجرد « منسر يتولى الحكم » وتصبح أيامها معدودة .

٧ - فكرة القومية

سبق أن أشرنا إلى أنه لا بد من وجود خريطة سياسية طبيعية للعالم تقدم خير ما في المستطاع من التقسيم الجغرافي للإرادة الإنسانية . فأما أى تقسيم سياسى آخر للعالم غير هذه الخريطة السياسية المطابقة للطبيعة ، فسوف يكون بحكم الضرورة شيئاً مقلقاً حرم نعمة التوافق ، ولا بد أن يفضى إلى العداوات والفتن التى تنزع إلى تحريك الحدود فى الاتجاه الذى تشير إليه الخريطة السياسية الطبيعية .

وقد تلوح هذه المقترحات واضحة من تلقاء نفسها لولا أن الدبلوماسيين فى قيينا لم يكونوا يعتقدون ولا يفهمون شيئاً من ذلك القبيل كما هو واضح من تصرفاتهم ، وظنوا أنفسهم أحراراً فى أن يقطعوا أوصال العالم ، حرية من يقطع مادة لينة كالجن لاعظم فيها . ومعظم الثورات والمنازعات التى ابتدأت فى أوروبا عندما أفاق العالم هما غشيه من إعياء بسبب حروب نابليون ، كانت كما هو واضح تمام الوضوح ، محاولات يذلها الرجال العاديون للتخلص من الحكومات التى هى من عدم المطابقة لرغباتهم بدرجة تجعلها فى كثير من الأحيان شيئاً لا يطاق . وعلى وجه العموم كانت الحكومات القائمة فى كل أرجاء أوروبا كالشجى فى حلوق الناس ، لأنها لم تكن تمثل الناس تمثيلاً اجتماعياً ، وبذا كانت تعوق الإنتاج وتضيع الاحتمالات الإنسانية بدداً . حتى إذا أضيف إلى تلك المضايقات العامة ، الاختلاف فى الدين وفى الثقافة العنصرية بين الحكام والمحكومين (كما فى معظم إرلندة) ، والفوارق فى العنصر واللغة (كما هو الحال فى إيطاليا الشمالية النمسية وفى معظم أرجاء الإمبراطورية النمسية) ، أو الفوارق فى كل هذه النواحي مجتمعة (كما فى بولندة والإمبراطورية التركية فى أوروبا) ، فقد بلغ السخط حداً دفع الناس إلى سفك الدماء .

كانت أوروبا مجموعة من الأجهزة الحكومية بشعة التركيب والتوافق . وعن ضغط سوء التركيب هذا ، إستقتت الحركات « القومية » المنوعة التى لعبت ذلك الدور الكبير فى تاريخ القرن التاسع عشر ، قوتها المحركة .

ما هي الأمة ؟ (Nation) . وما هي القومية ؟ (Nationality) ؟ فلئن نجحت قصتنا عن العالم في التذليل على شيء ، فلقد أظهرت نماذج الأجناس والشعوب وعدم ثبات التقسيمات الإنسانية ، وتنوع المجموعات البشرية والفكرات الخاصة بالترابط الإنساني تنوعاً سريع الثقل والدوران . فلقد قيل إن الأمة إنما هي تجمع من الكائنات الإنسانية يظنون أنهم شعب واحد . ولكن يخبروننا أن إيرلندا أمة ، ومن الحق أن « آستر البروتستانتية » لا تشاطر أصحاب هذا الرأي رأيهم . وكذلك لم تكن إيطاليا تعتقد أنها شعب واحد حتى مضى على تحقيق وحدتها زمن طويل . وعندما كان المؤلف في إيطاليا في (١٩١٦) سمع الناس يقولون « ستجعلنا هذه الحرب شعباً واحداً » .

وكذلك هل الإنجليز أمة ؟ أم هم قد انغمروا في « قومية بريطانية » ؟ الظاهر أن الاسكتلنديين لا يعتقدون كثيراً في هذه القومية البريطانية . وليس في إمكان مجتمع للجنس أو اللغة أن يكون أمة ، وذلك لأن الجيلين^(١) (Gael) واللونديين (Lowlanders) هما قوام الأمة الإسكتلندية . كما أنه ليس في الإمكان أن يكون أساس هذا المجتمع هو الديانة المشتركة ، لأن بانجلترا عشرات من الديانات ؛ ولا أدباً عاماً ، وإلا فلماذا ترى بريطانيا منفصلة عن الولايات المتحدة ؟ وجمهورية الأرجنتين منفصلة عن أسبانيا ؟ وربما ذهبنا إلى أن الأمة إنما هي في الواقع أية جماعة أو خليط أو حشد مضطرب من الناس إما أن يكون منكوباً بوزارة خارجية أو يرغب في أن يكون منكوباً بوزارة خارجية خاصة به ، حتى تتصرف بكامل جماعتها كأنما كانت حاجتها ورغباتها وكبرياؤها أشد أهمية من المصلحة العامة للإنسانية بوجه لا مجال للمقارنة فيه .

وقد سبق أن تعقبنا من قبل تطور الملكيات المكيافلية حتى انتقلت إلى حكم وزارات خارجيتها وهي تلعب دور « الدول (Powers) » . ولم تكن « القومية » التي تسلطت على الفكر السياسي في القرن التاسع عشر لتزيد في حقيقتها عن المبالغات

(١) الجيلين : هم السكان المسمون في إسكتلندا باسم الهيلنديين ولغتهم هي الجيلية وهي فرع من الكلتيية . (المترجم)

الرومانسية والعاطفية في التآزمات الناتجة عن الخلافات بين الخريطة السياسية الطبيعية وبين التنظيمات السياسية غير المناسبة داخل مصالح مثل تلك « الدول » .

وقد كان يجرى في آناء القرن التاسع عشر كله ، وفي نصفه الثاني بوجه خاص ، إنضاج عظيم لهذه القومية في العالم . أجل إن كل الناس إنما هم بحكم الطبيعة متعصبون محبون لأوطانهم ، ولكن الروح القبلية الطبيعية للناس في القرن التاسع عشر ، كانت روحاً مبالغاً فيها مبالغة غير طبيعية . كانت روحاً مغیظة مغضبة منبّهة فوق ما ينبغى كما كانت ملهبة ومضغوطة قسراً في قالب القومية .

كانت القومية تعلم في المدارس ، وتؤكددها الصحف وتثبت في نفوس الناس بالتبشير والسخرية والغناء ، حتى غدت أغنية فظيعة سودت وجه كل الشئون الإنسانية . حتى لقد دُفع الناس إلى الشعور بأنهم من غير قومية يكونون من عدم اللياقة على حال من يخرج عارياً على زحمة الناس . وأولعت بالقومية الشعوب الشرقية التي لم تسمع بها أبداً ، مثلها أولعت بسجائر الغرب وقبعاته المستديرة السوداء . حتى لقد أصبحت الهند أمة — وهى ذلك الخليط المكون من متباين الأجناس والديانات والثقافات ما بين درايفيدية ومغولية وآرية ؟! وبديهي أنه كانت هناك حالات مربكة كما يحدث عندما يضطر أحد الشبان اليهود بحى هوايت شابل^(١) أن يقرر لنفسه هل هو ينتمى إلى الأمة البريطانية أو اليهودية .

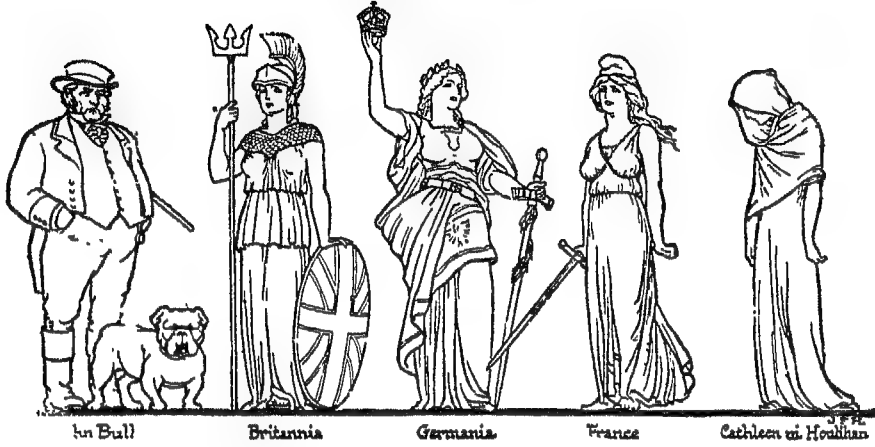
ولعبت الصور الساخرة الكاريكاتورية والرسوم المتحركة (Cartoons) السياسية دوراً كبيراً في هذا الإعلاء الذى رفع نحلة تلك الأرباب القبلية الأحدث عهداً والأكبر حجماً — وما الأمم العصرية إلا أرباب قبلية — إلى ما وصلت إليه من عزة وتسلط على خيال القرن التاسع عشر . فلو تصفح أحدنا مجلة « پنش » (Punch) تلك السجل العجيب المعاصر للنفس البريطانية ، التى تعيش إلى اليوم منذ (١٨٤١) ، لوجد أشكال بريطانيا وهيرنيا^(٢) وفرنسا وجرمانيا وهى تتعاقب

(١) هوايت شابل (White Chapel) : حى من أحياء شرق لندن يقوم به برج لندن .

(المترجم)

(٢) Hibernia : الاسم القديم الذى كان الرومان يطلقونه على إيرلندا . (المترجم)

وتتنازع وتتعاطب وتفرح وتحزن . ومما ساعد الدبلوماسيين مساعدة عظيمة على مواصلة لعبة الدول الكبرى حملهم السياسة في شكلها هذا إلى الفطنة العامة للبشرية المرتابة .



(شكل ١٩٤) الأرباب القبليون في القرن التاسع عشر

فإذا غضب الرجل العاى لإن ابنه أرسل إلى الخارج لكيما يقتل ، أخذوا يوضحون له أن ذلك كان في الحقيقة جزءاً ضرورياً من كفاح هائل يستهدف البر والخير ، ولا مندوحة منه بين اثنتين من هذه الدوات القدسية المهمة الضخمة بدل أن يقولوا له إن ذلك نتيجة لعناد اثنتين من وزارات الخارجية وشراهما . لقد أساءت جرمانيا إلى فرنسا ، أو كانت إيطاليا تظهر للنمسا الروح الواجبة .

ولم يعد مقتل الإبن بُعد انتهاكاً للعقل والحكمة ؛ بل دارت حوله هالة أسطورية من الكرامة . وكان العصيان يستطيع أن يتشح بنفس الثوب الرومانسى الذى تكتسى به الدبلوماسية . فأصبحت إرلندة ربة تشبه « سندرلاً » هي كاثلين في هوليهان (Cathleen ni Houlihan) ، المنكوبة بالإساءات التى تمزق القلوب والتى لا يمكن اغتفارها . وسمت « الهند الفتاة » مرتفعة فوق حقائقها بعبادتها باندى ماتارام (Bande Mataram).

وقد كانت الفكرة الجهورية لقومية القرن التاسع عشر هي « المطلب المشروع » . لكل أمة بالسيادة التامة ، وهو ادعاء كل أمة بأن لها الحق في إدارة شئونها الخاصة داخل حدود أراضيها الخاصة بصرف النظر عن أية أمة أخرى . وكان عيب هذه

الفكرة هو أن شئون كل مجتمع عصري ومصالحه إنما تمتد إلى أقصى أجزاء الأرض . فإن الجريمة التي حدثت في سراجيفو في ١٩١٤ مثلا ، والتي تسببت عنها الحرب العظمى ، قد ترتب عليها نزول أشد المحن بهنود لبرادور ، لأن تلك الحرب أوقفت الاتجار بالفراء ، الذى يعتمدون عليه فى الحصول على الضروريات من أمثال الذخيرة ، التى لم يكونوا يستطيعون بدونها أن يحصلوا على القدر الكافى من القوات . وإن عالماً من الأمم المستقلة ذات السيادة يعنى إذاً عالماً من الإساءات المستديمة عالماً من دول مستعدة على الدوام للحرب أو مشعلة نارها أبداً . على أنه كان يساير التبشير بتلك القومية ويناقضها فى الوقت نفسه ، دعاية قوية انتشرت بين الشعوب الكبيرة الأقوى منة لمجموعة أخرى من الفكرات : — هى أفكار الاستعمار (الامبريالية) الذى يُسلّم فيه لأمة قوية ومتقدمة ، بالحق فى التسلط على أمم أخرى أقل تقدماً أو أمم أو شعوب أقل حظاً من التطور السياسى ، ولما تتطور قوميتها بعد ، وتتوقع منها الشعوب الكبيرة أن تشكر لها صنيعها فى حمايتها إياها وتسلطها عليها

وواضح أن هذا الإستعمال لكلمة الإمبراطورية إنما هو إستعمال مختلف عن معناها العام السابق . فإن الإمبراطوريات الجديدة لم تدّع أنها استمرار لإمبراطورية روما العالمية . بل هى فقدت آخر الصلات التى تربط بين فكرة الإمبراطورية وبين سلام العالم .

وهاتان الفكرتان فكرتا القومية ، ثم « الإمبراطورية » بوصفها تاجاً على مفرق النجاح القومى — غلبتا على الفكر السياسى الأوروبى ، بل غلبتا فى الواقع على الفكر السياسى للعالم فى كل آناء النصف الثانى من القرن التاسع عشر ، وغلبتا عليه حتى نبذتا نبذاً عملياً كل فكرة ذهنية أوسع منهما أفقاً تدور حول موضوع الخير الإنسانى المشترك . كانتا فكرتين عمليتين غير سليمتين بشكل خطر . ولم تكونا لتمثلا أى شيء جوهرى أو ثابت دوماً فى الطبيعة البشرية ، كما أنهما فشلتا فى أن توجهها الحياة الجديدة للهيمنة العالمية والأمن العالمى اللذين لم تفتأ الثورة الميكانيكية تجعلهما كل يوم ألزم وأحتم .

وقد قبلت هاتان الفكرتان لأن الناس عامة لم تكن لديهم الآراء الجارفة التي تتيحها دراسة التاريخ العالمي ، كما لم يعد لديهم الخير الشامل الذي تتيحه ديانة عالمية . ولم يدرك الناس خطرها على جميع روتينات الحياة اليومية العادية إلا بعد فوات الأوان .

٨ - المعرض الكبير ١٨٥١

بعد أن تخطى القرن التاسع عشر منتصفه ، انفجر هذا العالم ، عالم الدول الجديدة والفكرات القديمة ، هذا النيذ^(١) الحديد الآخذ في الاختار والموضوع في الزجاجات القديمة للديلو ماسين - مفلتاً من القيود الركيكة الهزيلة التي أنشأتها معاهدة فيينا - ومنقلباً إلى سلسلة من الحروب . بيد أنه كان من سخرية المصادفات أن سبق مجموعة الإضطرابات الجديدة احتفال سلمى أقيم في لندن هو المعرض العظيم في ١٨٥١ . وهذا المعرض يستحق منا فقرة أو ما إليها .

كان الروح المحرك في هذا المعرض هو ألبرت أمير ساكس كوبرج جوثا ، وهو ابن أخى ليوبولد الأول ، الملك الألماني الذي وضع على العرش البلجيكي في ١٨٣١ ، والذي كان كذلك خال الملكة الصغيرة فيكتوريا الإنجليزية . وكانت اعتلت العرش في ١٨٣٧ وعمرها ثمانية عشر عاماً . وما لبث الأميران الشابان - وكانا في سن واحدة - حتى تزوجا في ١٨٤٠ تحت رعاية خالهما . وكان الأمير ألبرت يعرف عند البريطانيين باسم « الأمير الزوج Prince Consort » . كان شاباً ذا ذكاء موفور وتعليم ممتاز غير عادي ، ويلوح أنه صدم صدمة كبيرة بسبب ذلك الركود الذهني الذي انحدرت لإنجلترا إليه .

وكانت أكسفورد وكامبردج ، هذان المركزان المؤثقلان ما تزالان تفيقان على مهل من ذلك الانخفاض والهبوط الذهني الذي أصابهما في أواخر القرن الثامن عشر . ولم يكن عدد الناجحين سنوياً في امتحانات القبول ليزيد في أى من الجامعتين عن

(١) يقول المثل الإنجليزي : « فييد » (أو خر) قديم في زجاجات جديدة : كناية عن لا يأتي بجديد وقد قلب المؤلف منطوق المثل وعكس معناه . (المترجم)

١٣٢٥

أربعمئة عدداً . وكانت الامتحانات في معظم أمرها رسميات شفوية ، وإذا استثنينا كليتين في لندن (جامعة لندن) ، وكلية في ديرهام ، فإن ذلك كان كل التعليم الذى تقدمه إنجلترا في المستوى الجامعى .

وقد كان لابتداهات هذا الأمير الألمانى الشاب المظلوم ، الذى تزوج الملكة البريطانية ، الأثر الأكبر في تشكيل لجنة الجامعات ١٨٥٠ ، كما أنه قصد إلى زيادة وعى إنجلترا بأن شجع على إقامة المعرض الدولى الأول كما تتاح الفرصة لعمل موازنة بين المنتجات الفنية والصناعية لدى الأمم الأوربية المختلفة .

على أن المشروع لقي في إنجلترا اعتراضاً مريراً . وتنبأ بعضهم في مجلس العموم بأن يحتاج الأفاقون والثوريون الأجانب إنجلترا ثم يفسدوا أخلاق الناس ويحطموا كل عصيدة وولاء في البلاد .

وعقد المعرض في هايد پارك داخل مبنى جديد من الحديد والزرجاج ، بنى فيما بعد مرة ثانية تحت اسم قصر البلور . فأوتى من الناحية المالية نجاحاً عظيماً ؛ إذ جعل كثيراً من الإنجليز يدركون أن بلادهم ليست القطر الصناعى الوحيد في العالم ، وأن الرخاء التجارى ليس احتكاراً بريطانياً أمرت ؛ العناية الإلهية . كما تجلت أمام العيون أوضح الشواهد على أن أوربا تتعافى باطراد مما ألم بها من دمار الحروب النابليونية ، وأنها أخذت تتغلب سريعاً على زعامة البريطانيين في التجارة والصناعة . وبعد ذلك المعرض مباشرة أنشئت إدارة للفنون والعلوم (١٨٥٣) ، لتدارك ما فات بريطانيا من تأخر في التعليم ، إن كان إلى إدراكه سبيل .

٩ - سيرة حياة نابليون الثالث

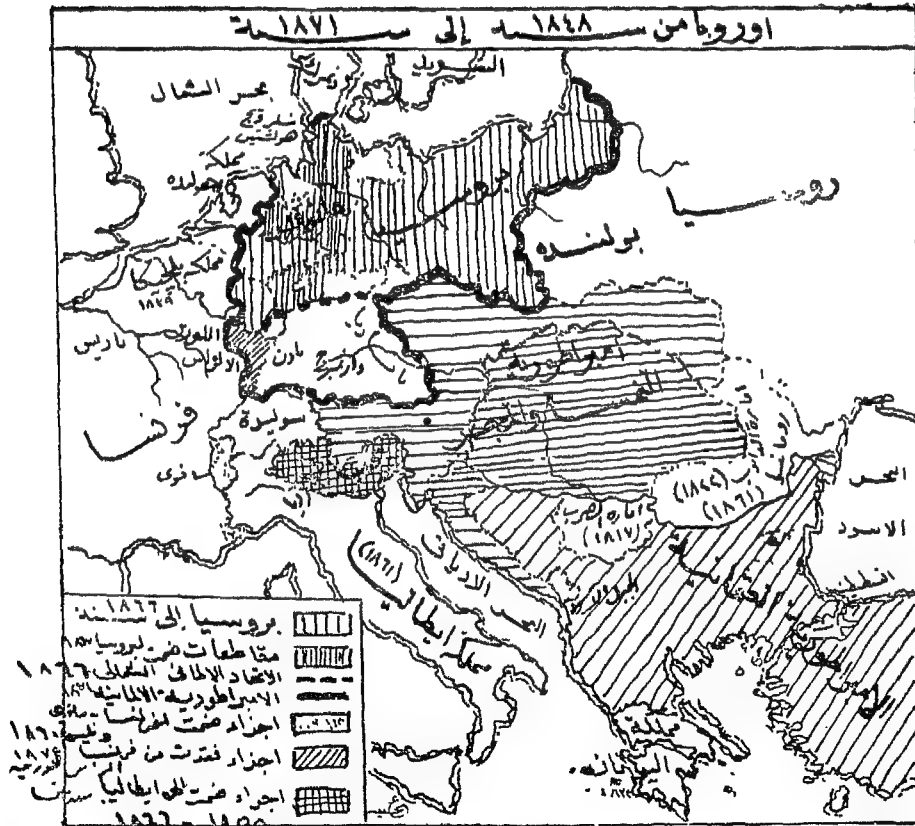
أطلق المعرض الكبير في ١٨٥١ أسار قدر جسيم من الأحاديث والمشاعر الدولية . وكان قبل ذلك قد وجد لساناً يترجم عنه في شعر الشعراء الشبان من أمثال تينسون الذى ألقى نظرة نحو آفاق المستقبل حين قال :

« حتى لا تعود طبول الحرب إلى الدق مرة أخرى »

وحق تلفف رايات القتال وتطوى ،

في برلمان الإنسان وفي دولة العالم المتحدة » .

على أن تلك الرؤيا كانت سابقة لأوانها . فن دون السلام الظاهري في تلك الفترة ، فترة الأسمحية التحررية والاستنارة السطحية ، كانت تنبت بذور محصول جديد من المنازعات الدولية . فكانت فرنسا جمهورية تحررية إسمياً . ولكن رئيسها كان من أسرة بوناپرت وابن أخى ناپليون الأول ، وكان شخصاً ذا دهاء عظيم وإقدام كبير ، وكان مقدراً له أن يجلب على فرنسا وأوربا نوازل كانت أشد وأنكر مما نزل بها من قبل حتى مما أوقعه عمه قبل ذلك بنصف قرن .



(شكل ١٩٧)

ذلك بأنه تهيأ للجمهورية الفرنسية التي حلت محل ملكية آل أورليان في ١٨٤٨ ،

حياة وجيزة مضطربة . وكان يثقلها منذ البداية مقترحات اشتراكية فجأة ترتب عليها قدر كبير من الاضطراب الاقتصادي وقدر أكبر من القلق في الأعمال . فأما نابليون بوناپرت الجديد - وقد لبس مسوح « الأمين » على التحرر والملاذ الذي يعيد الثقة ويتبث أركان الأمور - فإنه استطاع أن يفوز بالانتخاب لمنصب الرئاسة في أكتوبر من تلك السنة . وأقسم اليمين باعتباره رئيساً بأن يظل مخلصاً وفياً للجمهورية الديمقراطية ، وأن يعدّ كل من يحاول تغيير شكل الحكومة عدواً له . ولم تمض سنتان (ديسمبر ١٨٥٢) حتى غدا إمبراطوراً على الفرنسيين .

وقد نظرت إليه الملكة فيكتوريا أول الأمر نظرة يخالطها كثير من الارتباب ، أو قل نظر إليه تلك النظرة البارون ستوك مار ، صديق الملك ليوبولد البلجيكي وخادمه ، والحفيظ على الضمير الدولي للملكة البريطانية وزوجها الملكي . وكانت هذه المجموعة من آل ساكس كوبرج جوئا كلها حماسة معقولة كريمة لوحدة ألمانيا ورفاهيتها على أسس من التحرر . وقد جنحوا إلى الانزعاج من انتعاش آل بوناپرت من جديد . غير أن اللورد بلمرستون كان من الجهة الأخرى يعطف على المغتصب منذ البداية ؛ فاستوجب إسياء الملكة بإرساله الرسائل الودية للرئيس الفرنسي ، دون أن يعرضها عليها لتفحصها ، وأن يعطيها بذلك المهلة الكافية لاستشارة ستوك مار فيها ، فأجبر على التخلي عن منصبه . على أن البلاط البريطاني ما عثم بعد ذلك أن دار دورة جعلته في وضع أدنى إلى المودة نحو المغامر الجديد .

وبشرت السنوات الأولى لحكمه بملكية تحريرية أكثر منها بسيرة ناپليونية ، وبحكومة تقوم على « الحزب الرخيص والأشغال العامة العظيمة والأجازات^(١) » ، وقد عبر بحرارة عن عطفه الشديد على فكرة القومية ، التي كانت بحكم الطبيعة فكرة مقبولة جداً لدى أى ألماني ذكي متحرر . وحدث أن برلماناً وجيز الأمد ، يمثل ألمانيا كلها التأم في فرانكفورت في ١٨٤٨ ، وفضه ملك بروسيا في ١٨٤٩ ، وقبل ١٨٤٨ كانت كل البلاطات الأوربية الكبيرة صاحبة تسوية فيينا تجتمع

(١) نقلا عن ألبرت توماس في الموسوعة البريطانية .

على نوع من المحالفة خشية اندلاع ثورة ثانية ديمقراطية أوسع انتشاراً . وبعد إخفاق الحركات الثورية في ١٨٤٨ وعودة الملكية إلى فرنسا ، ارتفع هذا الخوف ، وأصبح الجميع أحراراً في أن يرجعوا إلى ما كانوا فيه من تدبير الخطط وتخطيط أضدادها شأنهم في الأيام السابقة على ١٧٨٩ - خاصة وقد صارت تحت تصرفهم الجيوش والأساطيل الأكثر قوة والأضخم عدداً وهى التى أتاحها لهم الطور النابليوني . وبعد فترة دامت ستين عاماً ، ابتدأت من جديد لعبة « الدول الكبرى » فى حمية ونشاط ، واستمرت حتى أنتجت كارثة ١٩١٤ .

وانتهج نابليون الحديد خطة الحذر رديحاً من الزمن . وكان نقولا الأول قيصر روسيا هو الذى قام بالخطوة الأولى نحو الحرب . فإنه عاد إلى توجيه الضربة التقليدية ، وهى طعنة بطرس الأكبر نحو القسطنطينية . واخترع نقولا عبارة « رجل أوروبا المريض » التى أطلقها على السلطان ، وإذ وجد عذراً يتكئ عليه فى سوء إدارة الدولة حيال السكان المسيحيين فى الإمبراطورية التركية ، فإنه احتل الإمارات الدانوبية فى ١٨٥٣ .

كان ذلك نكسة دولية حقيقية . فإن الدبلوماسيين الأوروبيين وجدوا أنفسهم حيال « مسألة » من طراز القرن الثامن عشر نفسه . وكان مفهوماً أن خطط روسيا تصطلك بخطط فرنسا فى سوريا ، وتهدد طريق بريطانيا العظمى إلى الهند عبر البحر الأبيض ، وتمخض الموقف عن قيام محالفة بين فرنسا وإنجلترا تعضيدا لتركيا وشبوب حرب هى حرب القرم التى انتهت بطرد روسيا . وربما زعم المرء أن الحد من تصرفات روسيا كان أحرى به أن يكون من عمل ألمانيا والنمسا ، ولكن شهوة وزارقى الخارجية فى فرنسا وإنجلترا إلى إحراق أصابعهم فى الشئون الروسية كانت على الدوام شهوة لاسيبل إلى كبح جماحها . ووجد نابليون الحديد فى هذه الحرب فرصة يقوى بها روابط صداقته غير الوطيدة مع بريطانيا والبلاط البريطانى ، الذى كان حتى ذلك الحين يترفع عليه .

والطور الهام الثانى من أطوار هذا الانتعاش فى مسرحية الدول الكبرى ، كان استغلال الامبراطور نابليون الثالث وملك مملكة سردينيا الصغيرة بشمال

١٣٢٩

إيطاليا ، لما تنطوى عليه حالة إيطاليا الممزقة من متاعب وشقاوات ، وبوجه خاص للحكم النمساوى فى الشمال . وقام ملك سردينيا فيكتور عمانويل بصفقة من صفقات العهد الماضى للحصول على مساعدة نابليون مقابل ولايتى نيس وسافوى ، اللتين تأخذهما فرنسا ، على أن تعوض سردينيا عن ذلك فى إيطاليا . وما لبثت الحرب حتى شبت بين فرنسا وسردينيا من جهة والنمسا من جهة أخرى فى ١٨٥٩ ، وانتهت فى بضعة أسابيع . وهزم النمساويون هزيمة منكرة فى ماجنتا وسلفرينو . وعمل نابليون إلى عقد الصلح لأن بروسيا هددته على نهر الرين ، وبذلك ترك لسردينيا غنيمة عظيمة هى لومباردى .

وكانت الحركة الثانية فى لعبة فيكتور عمانويل ووزيره الأول كافور حركة



(شكل ١٩٦) غاريبالدى

ثورية فى صقلية يقودها الوطنى الإيطالى العظيم غاريبالدى وحررت صقلية ونابولى وانتقلت إيطاليا بأجمعها إلى يد ملك سردينيا فيما عدا روما (التى ظلت على ولائها للبابا) وسقطت البندقية (التى كانت فى يد النمساويين) فى قبضه ملك سردينيا . واجتمع فى تورينو برلمان إيطاليا عام ١٨٦١ ؛ وبذلك أصبح فيكتور عمانويل أول ملك لإيطاليا .

ولكن انتقل حينذاك مركز الاهتمام فى لعبة هذه الدبلوماسية الأوروبية إلى ألمانيا . وكان قبول الناس لفكرة وحدة إيطاليا فى حدودها الجغرافية الطبيعية قد صار عقيدة ثابتة . وفى ١٨٤٨ اتحدت كل ألمانيا بما فى ذلك بالطبع النمسا الألمانية رداً عن الزمان تحت ظلال برلمان فرانكفورت . ولكن هذا النوع من الاتحاد أثار بنوع خاص إستياء كل البلاطات ووزارات الخارجية الألمانية ؛ فلمهم لم يكونوا يرغبون



(سکل ۱۹۹) فابلیون السال

في قيام ألمانيا متحدة بإرادة أهلها ، بل يريدون أن تتحد ألمانيا بواسطة جهود الملوك والديبلوماسيين كما انحدت إيطاليا .

وفي (١٨٤٨) أصر البرلمان الألماني على أن ولايتي شلروبج وهولستين الألمانية في معظم أمرهما ، اللتين كانتا عضوين في الحلف الألماني ، لا بد أن تنتميا إلى ألمانيا . وأمر الجيش البروسي باحتلالها ، فأى ملك بروسيا أن يتلقى الأوامر من برلمان ألمانيا ، وبذلك عجل بسقوط تلك الهيئة . وعندها أقبل ملك الدانمارك كريستيان التاسع لا لسبب معقول سوى ما فطر عليه الملوك من حماقة ، فأقدم على حملة معكرة لصفو الألمان في هاتين الدوقيتين . وكانت شئون بروسيا آنذاك موكولة في غالب الشأن إلى وزير من طراز القرن السابع عشر ، هوفون بسمارك (لقب كونتاً في ١٨٦٥ وأميراً في ١٨٧١) فرأى في هذا الخلاف فرصة ذهبية يجب انتهازها . فأصبح

نصير القومية الألمانية في هاتين الدوقيتين (ولزام عليك أن تتذكر أن ملك بروسيا رفض أن يقوم بهذا الدور لحساب ألمانيا الديمقراطية في ١٨٤٨) وأقنع النمسا بأن تنحاز إلى بروسيا وتتدخل معها تدخلا عسكرياً .

ولم تكن أمام الدانمارك أية فرصة لإزاء هاتين القوتين الكبيرتين . فهزمت في سهولة وأجبرت على التخلي عن هاتين الدوقيتين .

وعند ذلك تلمس بسمارك خلافاً مع النمسا في شأن امتلاك هاتين المقاطعتين الصغيرتين . وبذا أحدث حرباً لا ضرورة لها ، يقتل فيها الألماني أخاه ، ولم يكن



(شكل ١٩٨) بسمارك

يرى بها إلا استجلاب المجد العظيم إلى بروسيا فضلاً عن رفعة آل هوهنزولرن في ألمانيا ثم وحد بين أجزاء ألمانيا بزعامة آل هوهنزولرن البروسيين . ولقد يذهب الكتاب الألمان ذوو النزعة الرومانسية ، إلى تمثيل بسمارك على صورة رجل دولة عظيم يدبر خطط وحدة ألمانيا ؛ ولكنه لم يكن في الواقع يقوم بأى شيء من ذلك . فإن وحدة ألمانيا كانت حقيقة واقعة في ١٨٤٨ . كانت وما تزال جزءاً من طبيعة الأشياء . ولم تكن الملكية البروسية تفعل شيئاً إلا مجرد تأخير مالا مندوحة منه ، لكي تبدو صاحبة الفضل في إحرازه على

الطريقة البروسية . ولهذا حدث أنه عندما توحدت ألمانيا آخر الأمر . فلأنها بدلا من أن تتخذ هيئة شعب عصري ممدن ، قدمت نفسها للعالم بوجه ذلك البسمارك العتيق البالي ذي الشارب الخفيف المزعج والحذاء الطويل الضخم والسيف والخوذة ذات الأسلة (١) .

(١) الأسلة ، طرف مستدق يركب في أعلى الخوذة . (المترجم)

وفي هذه الحرب بين بروسيا والنمسا كانت إيطاليا ظهيرة لبروسيا ، على حين كان غالب الولايات الألمانية الأدنى شأنًا ، والتي تخاف خطط بروسيا تقاتل في صفوف النمسا . وطبيعى أن يرغب القارئ في أن يعرف لماذا لم ينتهز ناپليون الثالث لصالحه الخاص هذه المناسبة البديعة المواتية لصناعة السياسة ، ويدخل الحرب ؟ وكانت كل قواعد لعبة « الدول الكبرى » تنادى بضرورة دخوله . فإنه كان يسمح بذلك لمنافس خطر لفرنسا أن ينهض في أوربا على صورة بروسيا . وكان ينبغي له أن يقوم بشيء ما للحيلولة دون ذلك . ولكن ناپليون كان لسوء حظه واضعاً أصابعه في مصيدة على الجانب الآخر من الأطلسي ، ولم يكن في مركز يسمح له أن يتدخل في تلك الساعة .



(شكل ١٩٩) ناپليون الثالث

فقد أغرته أمريكا لإغراء مؤلماً فإن الشقاق بين مصالح ولايات الجنوب والشمال اتحاد أمريكا الشمالية ، ذلك الخلاف الراجع إلى الفوارق الإقتصادية القائمة على الرقيق ، أدى آخر الأمر إلى نشوب الحرب الأهلية الصريحة . وسنعالج في قسمنا التالى موضوع هذه الحرب الأهلية ببيان أوفى . ولن نزيد هنا عن القول بأنها دامت أربع سنوات ، وانتهت آخر الأمر بالولايات المتحدة وقد عاد إليها اتحادها . وشمل الفرح

١٣٢٣

كل عناصر الرجعية في أوروبا أثناء سنوات الخلاف الأربع هذه . وانضمت الأرستقراطية البريطانية صراحة مع الولايات الجنوبية الكنفدرالية ، وسمحت الحكومة البريطانية لعدة سفن حربية خصوصية ، نخص بالذكر منها السفينة « ألاباما » بأن تصنع وتنزل إلى البحر في إنجلترا المهاجمة سفن الفيدراليين .

وكان نابليون الثالث أشد هوجاً واندفاعاً بزعمه أنه مهما يكن من شيء ، فإن العالم الجديد قد سقط أمام القديم . وكانت الولايات المتحدة حظرت حتى ذلك الحين كل تدخل أوروبي في قارة أمريكا . ويعد ذلك الحظر على وجه الإجمال قاعدة ثابتة للسياسة الأمريكية . ولكن تلك الدرع الواقية التي هي « مبدأ مونرو » ، قد أُلقيت آنذاك جانبا وإلى الأبد فيما خاله نابليون ! وبذا جاز للدول الكبرى الآن أن تتدخل مرة ثانية في أمريكا ، وأن تعود بركات الملكية المغامرة سيرتها الأولى هناك ! . . .

والتمست المعاذير للتدخل . . . فوجدت في بعض التصرفات المتخذة حيال أملاك الأجانب من رئيس جمهورية المكسيك . واحتلت حملة عسكرية مشتركة من الفرنسيين والبريطانيين والأسبان ثغر فيراكروز ، على أن مشروعات نابليون كانت أجراً من أن يطبقها حلفاؤه ، فانسحبوا عندما اتضح لهم أنه لم يكن يدبر شيئاً يقل عن تأسيس إمبراطورية مكسيكية . وفد وفق إلى ذلك فعلا بعد الشيء الكثير من القتال العنيف ، وعين الأرشيدوق ماكسميليان النمساوي إمبراطوراً على المكسيك في ١٨٦٤ . على أن القوات الفرنسية تملك البلاد مع ذلك تملكا فعلياً ، وانهال إلى بلاد المكسيك حشد من المغامرين الفرنسيين بغية استغلال مناجمها ومواردها .

إلا أن الحرب الأهلية انتهت في الولايات المتحدة في أبريل ١٨٦٥ ، ووجدت الفئة القليلة من الأوربيين الممتلكين بلهفة للمكسيك ، نفسها تواجه حكومة الولايات المتحدة المظفرة وهي في حالة نهجهم وعبوس تام ، وبين يديها جيش عظيم ينذر منظره بالشر . وخير الاستعماريون الفرنسيون تحييراً صريحاً بن الحرب مع الولايات المتحدة أو الانسحاب من أمريكا . والواقع أن هذه كانت إشارة تلوح بالرجل . تلك هي الورطة التي حالت بين نابليون الثالث وبين التدخل فيما شجر

بين بروسيا والنمسا في ١٨٦٦ ، وكان هذا هو السبب الذي من أجله عجل بسمارك بنزاعه مع النمسا .

وعلى حين كانت بروسيا تقاتل النمسا كان نابليون الثالث يحاول أن يخرج بكرامته من مآزق المكسيك الشائكة . فاخترع خلافاً حقيراً على مسائل مالية مع ماكسميليان وسحب الجنود الفرنسية . وكان الواجب يقضى على ماكسميليان حسب قواعد الملوكية أن يتنازل عن العرش . ولكنه بدلا من ذلك أخذ يقاتل من أجل امراطوريته . فهزمه رعاياه المعاندون وقبضوا عليه ، وأعدموه في ١٨٦٧ رمياً بالرصاص بوصفه مصدرراً للقلق العام . وبذا أعيد سلام الرئيس مونرو إلى العالم الجديد .

وبينما كان نابليون مشغولا في مغامرته الأمريكية الفاشلة ، كانت بروسيا وإيطاليا تحتطفان النصر على النمساوين (١٨٦٦) . حقا إن إيطاليا أصيبت بهزيمة شديدة في كاستوزا وفي معركة ليسا البحرية ، ولكن الجيش النمساوى بلغ من هزيمته الساحقة على يد البروسيين في معركة سادوا أن سلمت النمسا تسليما ذليلا . وكسبت إيطاليا مقاطعة البندقية ، وبذلك خطت خطوة أخرى جديدة نحو الوحدة — ولم يبق خارج المملكة لإلاروما وتريستا ومدن قليلة صغيرة على الحدود الشمالية والشمالية الغربية — وأصبحت بروسيا رأساً لاتحاد احتلافي ألماني شمالي ، أخرجت منه بافاريا وورتنبرج وبادن وهيس والنمسا .

وترتب على انتصار بروسيا هذا وعلى قمع النمسا الذي ترى ، بوصفها على الأقل الرأس الإسمي للشئون الألمانية ، وعلى هذه الرجعة لسلطان مملكة فردريك الكبير — أن أصبحت بروسيا وفرنسا وجهها لوجه . وأصبح من الأمور الواضحة أنهما ستشتبكان في منافسة عظيمة ، وهي منافسة قدر لها أن تنتج آخر الأمر أعظم الحروب وأشدّها تدميرا وإفسادا على مر التاريخ . لم يكن الأمر إلا أمر من لا بد أن تصطك بعده ألمانيا وفرنسا . وكان كل من الطرفين يعد العتاد الحربي ،

١٣٣٥

ولكن بروسيا تفوقت على فرنسا في أن لديها مدرسين خيرا من مدرسيها ومستوى من الطاعة والكفاية أعلى مما لدى فرنسا .

وكادت الحرب أن تنشب في ١٨٦٧ ، يوم حاول نابليون بمجرد أن أهلت من المكسيك أن يثير مع بروسيا خلافا على مسألة لوكسمبرج . ثم وافقت الحرب في ١٨٧٠ على أسس تمتد إلى القرن الثامن عشر بأوثق الأسباب ، بسبب منازعة حول المرشحين لعرش أسبانيا الشاغر . وكانت تساور عقل نابليون فكرة بأن النمسا وبافاريا وورتمبرج والولايات الأخرى في خارج الاتحاد الكنفدرالى الألماني الشمالي سوف تنحاز إليه ضد بروسيا . ولعله ظن أن ذلك لا بد أن يحدث لأنه أراد أن يحدث . ولكن الألمان منذ ١٨٤٨ ، كانوا متى تعرضت بلادهم للتدخل الأجنبي يصبحون شعبا متحدا . وكل ماعمله بسمارك أنه فرض ملكية أسرة هوهنزولرن ، في جبو من الفخامة والرسميات وسفك الدماء ، على حقائق قد تحققت . وانحازت ألمانيا كلها إلى بروسيا ضد فرنسا .

وفي أوائل أغسطس ١٨٧٠ اجتاحت القوات الألمانية المتحدة فرنسا . وأظهرت أنها خير من القوات الفرنسية في عددها ونظامها وعتادها وقيادتها . وكان انهزام فرنسا سريعا تاما .

وبعد معركتي ورت (Werth) وجراثيلوت ، اضطر جيش فرنسي بقيادة بازان (Bazaine) أن يرتد إلى داخل Metz ثم أحيط به هناك . وفي أول سبتمبر اضطر جيش آخر كان معه نابليون ، أن يسلم بعد أن هزم في سيدان ، وأخذ نابليون أسيرا . ووجدت باريس نفسها مكشوفة أمام الغزاة . وللمرة الثانية خذلت الوعود النابليونية فرنسا خذلانا ماحقا .

وفي اليوم الرابع من سبتمبر أعلنت فرنسا نفسها جمهورية من جديد ، وإذا عادت إليها فتورها على هذه الشاكلة ، فإنها استعدت للقتال من أجل البقاء ضد البروسية المظفرة . ذلك أنه ، مع أن ألمانيا التي تغلبت على الروح الإمبراطورية الفرنسية كانت ألمانيا المتحدة ، فقد كانت بروسيا منها على صهوة السرج . وإلبث الجيش المحصور في Metz حتى استسلم في أكتوبر . وخضعت باريس بعد أن

فرض عليها الحصار وضربت بالقنابل فسلمت في يناير ١٨٧١ ، والتست فرنسا الصلح . وهناك في قاعة المرايا بقصر فرساي بين مظاهر الأبهة والاحتفال الرسمي ووسط تشكيلة عظيمة من الحلل العسكرية نودى بملك بروسيا إمبراطورا لألمانيا ، ووقف بسمارك وسيف آل هوهنزولرن يدعيان الفضل في تلك الوحدة الألمانية التي طالما أكدها منذ زمن مديد لغة مشتركة وأدب مشترك .

وكان صلح فرانكفورت الذي أعقب ذلك صلحا لآل هوهنزولرن . وكان بسمارك قد أفاد من شعور ألمانيا القومى واستغله في الحصول على عون الولايات الألمانية الجنوبية ، ولكن أنى له أن يدرك القوى الجوهرية التي حبت سيده الملكى بالنصر . فإن القوى التي دفعت ألمانيا إلى النصر كانت قوة خريطة أوربا السياسية الطبيعية التي تحتم وحدة الشعوب الناطقة بالألمانية . وكانت ألمانيا في الناحية الشرقية ترتكب بالفعل الخطايا ضد الخريطة الطبيعية بإدارتها لهوزن ولنواح بولندية أخرى . والآن وقد أعماها الشره إلى الأراضى وبوجه خاص إلى مناجم الحديد ، فإنها ألحقت بها قدراً جسيماً من اللورين الناطقة بالفرنسية بما في ذلك متز ، والألزاس التي كانت بالرغم من لغتها الألمانية فرنسية الميول في غالب شأنها .

ولم يكن ثمة مندوحة من أن يحدث التصادم بين الحكام الألمان والرعايا الفرنسيين في هذه الولايات المستلحقة . وكان لامندوحة من أن تتردد للإهانات والمرارة التي مست فرنسا المقهورة في اللورين أصداء مدوية في باريس وأن تجعل غضب فرنسا الشديد مضطرباً محتوماً على الدوام . وسوف نقص عليك فيما بعد كيف تأجج هذا الحقد متسعراً في لهيب انتقام عظيم . . . وأخفى ناپليون رأسه المتداعية في إنجلترا ، ومات هناك بعد انهياره بسنة أو مياقاربها ، وهكذا انتهت الدولة البونابرتية الثانية بفرنسا .

١٠ - لنكولن والحرب الأهلية في أمريكا

مما يريح الفؤاد أن ينتقل الإنسان من هذا المغامر البونابرتي ومن أعماله التي جلبت الكوارث على فرنسا ، ومن النصر المؤقت الذي أحرزه آل هوهنزولرن

على الحركة الشعبية في ألمانيا ، — إلى شخص أعظم تماماً وأكبر أهمية وأبلغ قيمة ، هو شخص أبراهام لنكولن الذى يمكن أن تجمع حوله بغاية اليسر والراحة حوادث الحرب الكبرى الأهلية في أمريكا .

وقد كان النصف الأول من القرن التاسع عشر الذى هو عصر رجعية وانتعاش في أوروبا ، كان في أمريكا فترة من فترات النمو الباذخ المسرف . فإن وسائل المواصلات الجديدة وأعنى بها الزورق البخارى والسكة الحديدية ثم التلغراف الكهربائى الذى أعقبهما من فوره ، جاءت في أنسب الأوقات لدفع حركة السكان قُدماً عبر القارة . ولولا هذه الوسائل الميكانيكية المساعدة ، فلربما لم تصل الولايات المتحدة غرباً حتى في يومنا هذا إلى ما يتجاوز جبال روكى ، وربما كان شعب يخالف من نرى تمام المخالفة يكون هو الممتلك على الشاطئ الغربى .

ولا يزال أمراً لا يفهمه السياسيون إلا فهما أبتراً قاصراً ، مسألة إلى أى حد تبلغ درجة اعتماد المساحات المحوطة بالحدود الحكومية والإدارية على وسائل المواصلات المستعملة وعلى طبيعة البلاد من حيث علاقتها بالنقل . فإن الوديان المفتوحة إذا اتاحت لها الطرق والكتابة ، تنزع إلى الارتباط في ظل حكومة واحدة . فأما الحواجز الجبلية فما كانت لتفصل الشعوب فحسب بل الحكام أيضاً ، وكانت الإمبراطورية الرومانية إمبراطورية « طريق سلطاني »^(١) وعجلة ، وكان تقسمها وتفرقها وسقوطها راجعة إلى استحالة إقامة مواصلات سريعة بين الجزء منها والجزء . وكانت أوروبا الغربية التى خرجت من غمرة العاصفة النابليونية ، مقسمة إلى دولات قومية ، لعلها وصلت إلى أقصى اتساع تستطيع أن تبلغه دون فقدان التماسك ، على حين كانت قوة جر الحصان على الطريق السلطاني أسرع وسائل الارتباط لديها .

فلو أن سكان الولايات المتحدة انتشروا فوق القارة الأمريكية وليس لديهم إلا جر الحصان ، والطريق الخشن الوعر وكتابة الرسائل ، وسيلة لتربطهم بعضهم ببعض ، فإنه يلوح أمراً لا مندوحة منه أن الفوارق في الأحوال الاقتصادية المحلية

(١) طريق سلطاني (High-road) : أى طريق كبير يمتد بين المدن والأقطار . (المترجم)

كانت لا بد متطورة فمتحة طرزاً إجتماعية مختلفة ، وأن الافتراق الفسيح كان لا بد له من أن يقوى فروقا في اللهجات وأن يزيل التعاطف ، وأن العناء الذي يقاسيه من يريد حضور جلسات الكونجرس بواشنطن ، كان لا بد مزداداً مع كل تقدم



(شكل ٢٠٠) لكون وحده

للحدود صوب الغرب ، حتى يترامى الأمر بالولايات إلى التفرق في عصابة منحلة العرى مكونة من أهم متباعدة مستقلة تقريباً . وإذن لكنت الحروب على الثروة

١٣٣٩

المعدنية والمنفذ إلى البحر وما إليها ، تعقب ذلك ولا مناص ، وكانت أمريكا تغدو أوروبا أخرى .

غير أن الزورق البغاري النهري والسكة الحديدية والتلغراف ، وصلت في أوانها لمنع هذا التفرق . وأصبحت الولايات المتحدة هي الأولى في طراز جديد من الدولة ذات النقل العصري ، وهي أكبر تماماً وأشد قوة وأبلغ إدراكاً لوحدها من أية دولة رآها العالم من قبل . إذ أن النزعة السائدة اليوم في أمريكا ليست إلى التفرق والتباعد بل التمثل والامتصاص ، حتى يزداد المواطنون في الأجزاء المختلفة من الولايات ، لا اختلافاً بعضهم عن بعض بل اتفاقاً في الحديث والفكر والعادة . حقاً إن الولايات المتحدة لا تقارن بدولة أوروبية مثل فرنسا وإيطاليا ، بل إنها طراز من التنظيم السياسية أجد عهداً وأكبر حجماً .

وقد قامت في العالم إمبراطوريات تضاهي الولايات المتحدة في المساحة وعدد السكان ، ولكنها كانت مجرد تجمع من شعوب دافعة للجزية لا يوحدتهم شيء إلا حكومة من الحكومات . فأما وحدة الولايات المتحدة ففطرية فهي مجتمع قائم على اتجاه ذهني لشعب يربى على مئة مليون من الناس بالسكك الحديدية التي زادت منازعات أوروبا ومشاحناتها حدة ، والمخترعات التي أنقصت مسافة الضربة التي تضربها الجيوش الأوروبية . وأتاحت لهم قوى مدمرة تزداد على مر الأيام ، إلى حد أنه يلوح الآن أنه لا اختيار أمام أوروبا الغربية بين التوحيد طوعاً أو التوحيد كرهاً تحت سلطان إحدى الدول الغالبة ، وبين الفوضى والدمار ، — هذه السكك الحديدية ، وهذه المخترعات قد مكنت ورسخت الوحدة الحرة لأمريكا الجمهورية . وقد عاد البخار على أوروبا بالإحتقان وجلب لأمريكا الفرص السوانح .

ولكن الشعب الأمريكي مرّ وهو في طريقه إلى هذه العظمة الراهنة والأمنة الحاضرة في دور من أدوار الصراع الرهيب . ذلك أن الزوارق البخارية النهرية والسكك الحديدية والتلغراف ، وما أشبهها من تسهيلات ، لم تصل بالسرعة التي تمكنها من تجنب النزاع المتزايد عمقاً في المصالح والفكرات بين الولايات الجنوبية

المالكة للرقيق وبين الشمال الصناعى الحر - بل الواقع أن الزوارق البخارية والسكك الحديدية لم تقم في مبدأ الأمر إلا بزيادة أوار وعنف الفارق الثابت من قبل والراسخ من قبل . كان هناك فارق عميق في الروح بين قسمي الولايات المتحدة ، وترتب على تزايد توحيد البلاد الناجم عن وسائل النقل الجديدة ، أن أصبحت مسألة المفاضلة بين سيادة روح الشمال أو روح الجنوب ، ذات خطورة تزداد حدة على اللوام . وكان الأمل في التقارب والصلح ضئيلاً . فإن الروح الشالية كانت روحاً حرة فردية واتجهت الروح الجنوبية إلى الضياع الكبيرة وإلى سادة ذوى وعى قوى بأنفسهم يحكمون حشداً من الرعايا أسمر البشرة خاضعاً . وكانت عواطف الراديكاليين والأحرار البريطانيين منضمة إلى أهل الشمال ؛ بينما كانت عواطف أصحاب الأملاك البريطانيين والطبقة الحاكمة البريطانية منحازة إلى أهل الجنوب .

وأصبحت كل قطعة من الأرض تنظم في شكل ولاية ، وكل إضافة جديدة إلى المجموعة الأمريكية السريعة النمو ، - تصبح ميداناً للنزاع بين الفكرتين . فهل يجب أن تكون الولاية الجديدة ولاية من المواطنين الأحرار أم ينبغي أن يشملها نظام الضياع الكبيرة ذاك ؟ ولم تزل هذه نقطة النزاع تتدرج ببطء حتى تسلطت على الشؤون الأمريكية بعد تأسيس ولاية مسورى في ١٨٢١ وأركنساس في ١٨٣٦ بوصفها ولايتين تملكان الرقيق . ومنذ ١٧٣٣ كانت هناك جمعية لمنع الرقيق لم يقتصر أمرها على مقاومة التوسع في ذلك النظام ، بل كانت تحرك البلاد من أقصاها إلى أقصاها بغية إلغائه تماماً . وتأجج الخلاف صراعاً حول إدخال تكساس إلى حظيرة الاتحاد . وكانت تكساس في الأصل جزءاً من جمهورية المكسيك ؛ ولكن كان معظم من يستعمرها أمريكيين من الولايات المتملكة للرقيق ، فانفصلت عن المكسيك وأسست استقلالها في ١٨٣٦ . وأعقب ذلك اضطراب قوى من أجل استلحاق تكساس ، وألحقت تكساس في ١٨٤٤ ، وأدخلت ولاية في الاتحاد في ١٨٤٥ . وكان الرقيق محظوراً في تكساس في ظل القانون المكسيكى ، ولكن الجنوب طالب الآن بتكساس من أجل الرقيق وحصل عليها .

زد على ذلك أن الحرب التى شبت بينهم وبين المكسيك بسبب استلحاق

تكساس ، أدت إلى إضافة نيومكسيكو ومساحات أخرى إلى الولايات المتحدة وفي هذه المناطق كذلك كان الرقيق مباحاً ، وجاء مشروع قانون العبدان الأبقين فزاد في كفاية وسائل القبض على العبدان الذين يهربون إلى الولايات الحرة لإعادتهم إلى أربابهم . وفي نفس الوقت كان تطور فن الملاحة في المحيطات يجلب أفواجا متزايدة من المهاجرين من أوروبا يزيدون في عدد سكان الولايات الشمالية الآخذين في الانتشار ، وأدى رفع إيثووا وويسكونسين ومينيسوتا وأريجون ، وهي كلها أراضي مزارع شمالية ، إلى مرتبة الولايات إلى منح الشمال المعارض للرقيق أغلبية تمكنه من التسلط في كل من مجلسي الشيوخ والنواب . وإذا ثارت ثائرة الجنوب الزراع للقطن لهذا التهديد المتزايد الذي يصدر عن حركة الداعين إلى إلغاء الرق ، وإذا خشي هذا التسلط الشمالي في الكونجرس ، فإنه راح يتحدث في الانفصال عن الاتحاد . وشرع أهل الجنوب يحلمون بضم ما يقع جنوبهم من أراضي في بلاد المكسيك وجزائر الهند الغربية ، وبدولة عظيمة للعبدان منفصلة عن الشمال وممتدة من خط ماسون وديكسون إلى بناما .

وأصبحت كنساس مسرح البت النهائي في الأمر . فإن الكفاح على الرقيق غمر منطقة كنساس فيما أوشك أن يكون حرباً أهلية بين المستقرين فيها من أهل الولايات الحرة والمهاجرين إليها من أهل ولايات الرقيق ، وهي حرب استمرت حتى ١٨٥٧ وانتهت بفوز أنصار منع الرقيق من المستوطنين . ولكن كنساس لم ترفع إلى درجة ولاية حتى ١٨٦١ . وكانت توسعة مجال الرقيق هي نقطة الخلاف الرئيسية المطروحة على البلاد في انتخابات الرئاسة في ١٨٦٠ . وتعتبر دعوة أبراهام لنكولن بوصفه رئيساً مناهضاً للتوسع ، عاملاً حاسماً حفز الجنوب على أن يقرر فصح عرى الوحدة .

فأصدرت كازولينا الجنوبية « مرسوماً بالانفصال » ، واستعدت لخوض غمار الحرب . وانضمت إليها في أوائل ١ٸ٦١ ولايات المسيسيبي وفلوريدا وألاباما وجورجيا ولويسيانا وتكساس . واجتمع مؤتمر في مونتجمري بولاية ألاباما ، واختار جيفرسون دافيز رئيساً « للولايات الكونفدرالية » الأمريكية ، وتبنى دستوراً

يشابه دستور الولايات المتحدة ولكنه كان يؤيد بنوع خاص « نظام استرقاق الزنوج » .

ذلك هو الموقف السياسى الذى دعى أبراهام لنكولن لمعالجته بوصفه رئيساً للاتحاد . وكان بمحض المصادفة رجلاً نموذجياً فى تمثيله للشعب الجديد الذى ظهر بعد حرب الاستقلال . وكان أهله أناساً لا يزيدون على العاديين من عامة الناس ، فلم يكن أبوه ليعرف القراءة أو الكتابة إلا بعد زواجه ، وكانت أمه فيما يقال ابنة غير شرعية . وكانت امرأة أوتيت عقلاً راجحاً وخلقاً ممتازاً .

وقد قضى سنه الأولى بوصفه جزيئاً صغيراً يتنقل مع فيض السكان العام المتجه غرباً . ولد فى كنتكى فى ١٨٠٩ ، وحمل إلى إنديانا وهو غلام ، ثم أخذ بعد ذلك إلى إلينوى . وكانت الحياة خشنة فى تلك الأيام فى غابات إنديانا البعيدة عن العمران ؛ فكان المنزل لا يزيد على كوخ من الكتل الخشبية مقام فى البرية ، وكان حظه من التعليم المدرسى ضئيلاً وعارضاً . على أن أمه علمته القراءة منذ بواكير حياته ، ثم أصبح قارئاً هائلاً يلتهم كل ما تقع عليه يده من كتب .

وعندما بلغ السابعة عشرة أصبح شاباً رياضياً ضخم الجثة ، مصارعاً عظيماً وعداءً قوياً . ولما بلغ التاسعة عشرة انحدر فى النهر إلى نيواورليان أجيراً فى زورق . واشتعل حيناً كاتباً فى أحد المتاجر ، وعمل متطوعاً فى الجيش فى حرب ضد الهنود ، ودخل ميدان الأعمال فأنشأ متجرّاً مع شريك سكير ، فوقع فى ديون لم يستطع أن يسدها تماماً إلا على مدى خمسة عشر عاماً . ثم حصل أخيراً عندما قارب الرابعة والعشرين على عمل يشتغل فيه وكيلاً لمساح مقاطعة سانجامون وهو عمل قال عنه إنه « أمسك ريقه بالجهد الجهد » .

وكان مكباً على القراءة كل ذلك الزمان . وكانت الكتب الأولى التى قرأ — تلك التى تكون الذهن — قليلة ولكن من الصنف الجيد فيما يلوح ؛ كان يقرأ كل ما تصل إليه يده ؛ وكان يعرف شيكسبير وبيرنز جيد المعرفة ، وحياة واشنطن وتاريخ الولايات المتحدة الخ . وكان التعبير لديه غريزة فطرية ، فكان منذ بفاعته يكتب مثلاً يدرس ، منتجاً الشعر والمقالات وما أشبهها . ولكن

١٣٤٣

الكثير من إنتاجه هذا مادة خشنة متواضعة . وسرعان ما اجتذبت السياسة إليها .
ففي ١٨٣٤ يوم كانت سنه لا تزيد على خمسة وعشرين من السنين انتخب عضواً
في مجلس النواب عن ولاية إلينوى ؛ ودرس الحقوق وانتظم في سلك المحاماة في
١٨٣٦ . وانقضى عليه زمان اشتغل فيه بالقانون أكثر من السياسة .

ولكن المسألة العظمى المطروحة أمام شعب الولايات المتحدة كانت تبصر على
شغل إنتباه كل رجل أوتى الاقتدار . والحق أن هذا الرجل الضخم المقتدر المعلم
نفسه بنفسه ، والذي كان مثالا نموذجياً بالغاً لرجل الغرب الأوسط ، لم يسعه إلا أن
يتأثر تأثراً عميقاً بالتطور المستمر في الخلافات على الرق والانفصال . وكانت المسألة
ملتبها الأوار في إلينوى بوجه خاص لأن الزعيم العظيم في الكونجرس لحزب التوسع
في الرقيق كان هو السناتور دوجلاس وهو من إلينوى . وكانت هناك منافسة
شخصية بين الرجلين . إذ كان كلاهما قد خطب السيدة التي أصبحت المسز
لنكولن . وكان دوجلاس رجلاً ذا اقتدار ومقام عظيمين ، وظل لنكولن
بضع سنين يحاربه بالخطابة والنشرات في إلينوى بادئ الأمر ثم في الولايات الشرقية
برمتها ، وهو يرتفع في ثبات إلى مركز خصمه القوى والمنتصر آخر الأمر . وبلغ
كفاحهما الأوج بحملة انتخابات الرئاسة في ١٨٦٠ . وفي ٤ مارس ١٨٦١ احتفل
بلنكولن رئيساً ، والولايات الجنوبية في حالة انفصال فعال وهي ترتكب
أعمالاً حربية .

وكان أول إجراء قام به الانفصاليون هو استيلاؤهم على جميع حصون الاتحاد
الفدرالى ومخازنه الموجودة داخل حدودهم . وكانت هذه المراكز التابعة للاتحاد
مبنية على أراض تملكها الولايات التي كانت فيها ، وادعت هذه الولايات لنفسها
الحق في «استرجاع ممتلكاتها» . وقاومت حامية فورت سمتر في شارلستون ، وابتدأت
الحرب بإطلاق القنابل على هذه القلعة في ٢ أبريل ١٨٦١ . ولم يكن لدى أمريكا
في ذلك الوقت سوى جيش نظامى صغير جداً ، أقام على ولائه للرئيس . ومن
ثم فإن الذين قاموا بهذه العمليات الافتتاحية الأولى للاتحاد الكنفدرالى لولايات
الجنوب كانوا مجندين جددًا جمعوا من الولايات . واستدعى الرئيس لنكولن على

الفور لحسة وسبعين ألفاً من الرجال ، وانضمت تنسى وأركنساس وكارولينا الشمالية وفرجينيا مباشرة إلى الاتحاد الإحتلافي^(١) الذى كان آنذاك قد رفع علمه الخاص به المكون من « النجوم والخطوط الرأسية » مقابل النجوم والشقق الأفقية .

وبذلك ابتدأت الحرب الأهلية فى أمريكا . وكان يقوم بالقتال فيها جيوش مرتجلة أخلبت تنمو نمواً مطرداً من عشرات قليلة من الآلاف إلى مئات الآلاف - حتى أربت قوات الاتحاد الفدرالى آخر الأمر على مليون من الرجال ؛ وكانت الحرب تتقلب فوق مساحات هائلة تمتد بين نيومكسيكو والبحر الشرقى . وكانت واشنطن وريتشموند هما المهدفان الرئيسيان . ولأنه لما يتجاوز نجائنا الراهن أن نحدثك عن تلك المهمة المتزايدة لذلك الكفاح الحافل بالبطولة والذى كان يهدر متدحرجاً ذهاباً وجيئة عبر التلال والآجام فى تنسى وفرجينيا وينحدر من وادى المسيسيبي . وجرت الحرب فى أذيالها كل فظيخ من القتال والدمار . وكانت الطعنة تلوها الطعنة المضادة ؛ وكان اليأس يحمل حمل الرجاء ، ثم يعود الأمل فيُفترخ ثم يعود القنوط فيخيم . وكانت واشنطن تبدو فى بعض الأحيان فى متناول يد الاتحاد الكنفدرالى . ثم تعود جيوش الاتحاد الفدرالى فتفساب نحو ريتشموند .

وكان المختلفون رجال الجنوب الكنفدرالى وهم أقل عدداً وأفقر كثيراً فى الموارد ، يقاتلون بقيادة قائد ذى كفاية فائقة اسمه الجنرال لى . وكانت قيادة الاتحاد الشمالى أدنى كثيراً من ذلك كفاية وإقتداراً . وظل لنكولن متعلقاً زمناً طويلاً بالجنرال ماك كميلان « نابليون الصغير » ، وهو قائد مدّع ميال للتسويق غيب لمسا كان يعقد عليه من آمال . وطلق الرئيس بطرد القواد ويعين آخرين جدداً ، حتى انتهى الأمر بأن جاء الفوز على يد شرمان وجرانت على الجنوب الرث التاهك القوى . وفى أكتوبر ١٨٦٤ اخترق جيش الاتحاد بقيادة شرمان ميسرة الجنوب الكنفدرالى ، ثم تقدم

(١) يلاحظ القارئ أننا سمينا (Confederacy) باسم الاتحاد الإحتلافي (الكنفدرالى) أى الولايات ذات الرابطة المنكسكة . على حين جعلنا الاتحاد (أو الاتحاد الفدرالى) مقابلاً كما هو معلوم لكلمتي (Federation) و (Union).

١٣٤٥

من تنسى عبر جورجيا إلى الشاطئ ، محترقا بذلك أرض الجنوب الكنفدرالى
أكمل اختراق ، ثم عرج خلال الكاروليتين الشمالية والجنوبية حتى أطبق على
مؤخرة جيوش الجنوب . وفي نفس الوقت كان جرانت يوقف أمام ريتشموند حتى
أطبق عليه شرمان .

وفي اليوم الثانى من ابريل ١٨٦٥ أخلت جيوش الكنفدراليين مدينة ريتشموند ،
وفي اليوم التاسع من ابريل ، سلم لى وجيشه عند أبوماتوكس كورت هاوس ،
ولم يمض شهر حتى كانت جيوش الانفصاليين الباقية قد وضعت السلاح جميعاً وحتى
كانت دولة الاتحاد الكنفدرالى قد انتهت .

ولكن هذا الكفاح الذى دام أربع سنوات أصاب شعب الولايات المتحدة بإجهاد
هائل جثاى وخلق . فكان الراى منقسماً انقساماً حاراً فى شأن الحرب . كثير من
الولايات من أمثال مارى لاند وكتنكى . وذلك بأن مبدأ الحكم الذاتى فى الولاية كان
مبدأ عزيزاً جداً على أذهان كثيرة ، والحق أن الشمال كان يبدو فى زى من يتفسير
الجنوب على إلغاء الرقيق كرها . ولذا كان الكثير من الرجال يعارضون فكرة الرقيق ،
ولكنهم كانوا كذلك ضد التدخل فى شأن السلطان الحر لكل ولاية على سكانها ،
فأما الولايات التى على الحدود فإن الأخوة وأبناء العم ، بل حتى الآباء والأبناء ، ربما
كانوا ينضون تحت ألوية متضادة ويجدون أنفسهم فى جيوش متقاتلة متعادية . وكان
الشمال يشعر بأن قضيته قضية بروخير ، ولكن هذا البر والخير لم يكن فى رأى عدد
عظيم من الناس برأ كاملاً غير منقوص ولم يكن مكيناً لا يمكن تحديه .

ولكن لتكولن لم تساوره خلجة شك . فإنه بقى صافى الذهن وهو فى نحره
هذا الارتباك . وكان الاتحاد مبدأه الذى يؤمن به ويناضل من أجله ، وكان سلام
أمريكا العظيم عقيدته الراسخة . كان يعارض الرق ، ولكنه يرى أن الرق إنما هو
مسألة خلاف ثانوى . وكان غرضه الأول هو ألا تتمزق الولايات المتحدة إلى
قسمين متباينين متناحرين . ولذا فإنه ظل طوال سنوات الكفاح الأربع المديدة ،
صامداً كأنما هو عقيدة راسخة لا تلين وعزيمة ثابتة لا تنه .

وعندما حدث فى مراحل الحرب الأولى أن الكونجرس وقواد الاتحاد شرعوا

في إصدار قرار بإعتاق الرقيق عليه طابع العجلة والتسرع ، اعترض لنكون على ذلك وخفف من حدة حماسهم . فإنه كان يرى وجوب تحرير الرقيق على مراحل ومع التعويض . ولم يصل الموقف إلا في يناير (١٨٦٥) إلى درجة النضج التي تسمح للكونجرس بأن يقترح إلغاء الرقيق إلغاءً أبدياً بتعديل دستوري ؛ حتى لقد انتهت الحرب فعلاً قبل أن تم تصديق الدولة على التعديل .

وبينما كانت الحرب تسير متثاقلة أثناء سنتي ١٨٦٢ ، ١٨٦٣ ، خبت الحدة الأولى والحماسات السابقة ، وتعلمت أمريكا علم كل أدوار سامة الحرب والاشتمزاز من الحرب . وحل التجنيد الإجباري محل التطوع وبدل من روح القتال في كل من الجنوب والشمال . وأصبحت الحرب كفاحاً مديداً عبوساً يقتل فيه الأخ أخاه .

وشهد شهر يوليو ١٨٦٣ مدينة نيويورك تشغب على مشروع التدابير الحربية المقدم إلى الكونجرس ، وحاول الحزب الديمقراطي في الشمال أن يفوز في انتخابات الرئاسة بحجة أن الحرب قد فشلت وأنها يجب أن توقف . وكان معنى هذا بالبدية نصراً عملياً للجنوب . ونظمت المؤامرات لهزيمة المشروع بالكونجرس . وألقى الرجل النحيف الطويل صاحب البيت الأبيض نفسه إزاء دعاة هزيمة وتردد ، وخونة وقواد معزولين ، ووجد من ورائه سياسيين حزبيين لولوبيين ، وشعباً متشككاً متعباً ، وشهد أمامه قواداً غير ملهمين وجنوداً منحطة الروح المعنوية . ولا بد أن أكبر سلوته كانت في شعوره بأن جيفرسون دافيز في ريتشموند لا يمكن أن يكون أحسن منه حالاً .

وأساءت الحكومة البريطانية السلوك ، فسمحت لوكلاء الجنوب الكنفدرالي في إنجلترا أن يزلوا إلى البحر ثلاث سفن حربية خاصة سريعة ويمونها بالرجال — كانت ألاباما أشهر ما يتذكره الناس منها — وطفقت تلك السفن تتعقب سفن الولايات المتحدة وتطاردها في البحار وكان الجيش الفرنسي في المكسيك يُمرغ مبدأ مونرو في الوحل . ثم جاءت من ريتشموند مقترحات خبيثة : أن تجاوزوا عن الحرب ، وأن دعوا الخلافات المؤدية إلى الحرب إلى مناقشات تالية ، وانقلبوا جميعاً من فدراليين وكنفدراليين إلى التحالف على الفرنسيين في المكسيك .

١٣٤٧

ولكن لنكونلن أبي أن يصغى إلى مثل هذه المقترحات ما لم يحافظ الكل على سلامة الاتحاد . فقد يستطيع الأمريكيون أن يفعلوا ذلك كشعب واحد لا كشعبين .

وقد شدّد لنكونلن الولايات المتحدة بعضها إلى بعض خلال شهور طويلة مضية ، شهور من الهزائم والمجهود غير المثمر ، وخلال أدوار سوداء حالكة من الفرقة والشجاعة المتداعية . وليس هناك أى سجل يسجل أنه تردد يوماً فى القصد إلى أهدافه . ومرت به أزمان لا يستطيع فيها عمل شيء ، وعندئذ كان يجلس فى البيت الأبيض صامتاً جامدا لا يتحرك ، وكأنما هو تمثال متجهّم للعزم والإصرار ؛ وأزمان كان يُجِمْ فيها ذهنه بالمزاح والنوادر غير اللائقة . كان عامر النفس بالفكاهة الساخرة ، لكنه كان شديد رقة الاحساس لآلام الآخرين . وعندما جاءه بعض أعداء جرانت ليخبروه أن ذلك الجنرال يشرب الخمر ، سأل من فوره عن ماركة الويسكى الذى يشرب - « خدمة للآخرين » . فأما هو فى حد ذاته فكان رجلاً متقشفاً فى كل عاداته ، يتحمل كلا من الجهد الهائل فى العمل والصبر الهائل على المكاره .

وأخيراً أصبح من الجلى فى الشهور الأولى من عام ١٨٦٥ أن بواذر النصر أخذت تقبل عليه ، فنصب نفسه بكل قواه لجعل التسليم سهلاً ومعاملة المهوورين بداية للتراضى . فإن مذهبه وعقيدته كانت هى « الاتحاد » . وسرعان ما اشتبك فى نزاع مع المتطرفين من أعضاء حزبه هو ، الذين كانوا يرغبون فى صلح انتقامى .

وشهد « الاتحاد » منصوراً مظفراً . ودخل ريتشموند فى اليوم التالى لتسليمها وسمع بتسليم «لى» . ثم عاد إلى واشنطن ، وفى اليوم الحادى عشر من إبريل ألقى خطبته العامة الأخيرة . وكان محور فكرته فيها هو الصلح والتراضى ثم إعادة إنشاء الحكومات الموالية فى الولايات المهزومة . وفى مساء ١٥ إبريل ذهب إلى مسرح فورد بواشنطن ، وبينما هو جالس ينظر إلى التمثيل أصيب برصاصة فى مؤخر الرأس ، وقتل على الفور من يد ممثل اسمه « بوث » ، كان يحمل فى قلبه شيئاً من الضغن عليه ، وكان قد تسلل إلى المقصورة دون أن يشعر به أحد .

فلن تعطل التئام الجراح ، ولنن أصيبت الولايات المتحدة بالمزيد من المتاعب

والمرارات في السنوات التي أعقبت الحرب أكثر مما كانت الأمور تقتضيه ، فإن ذلك راجع إلى أن لنكون قد مات. ولكن عمله كان قد تم ، وكان الاتحاد أنقذ ، وأنقذ إلى أبد الآبدين . ولم تكن هناك عند بداية الحرب سكة حديدية تمتد إلى ساحل الپاسفيكى (الهادى) . فأما الآن فقد انتشرت السكك الحديدية وتفرعت تفرع ثبات سريع النماء حتى أمسكت كل أراضي الولايات المتحدة المترامية وربطتها ونسجتها فيما هو اليوم وحدة ذهنية ومادية لا يمكن أن تنقسم عراها .

ومنذ ذلك الزمان تواصل تماسك بنيان الولايات المتحدة تواصلًا راسخًا مستمرًا . ولم يمض عليها نصف قرن حتى كان سكانها قد تجاوزوا حد المئة مليون عددًا . وليس هناك أى دلالة تدل على أن النماء والتطور بلغا حتى الآن أوجههما . فهذه الديمقراطية الجبارة التي لا ملك لها ، ولا سياسة خارجية تفصيلية محكمة ، إنما هي — ونكرر هذا القول — شيء جديد في خبرة العالم . وهي ليست « دولة عظمى » بالمعنى الذى تستعمل فيه تلك الكلمة في أوربا . وإنما هي شيء أكثر عصرية في طبيعته ، وأضخم حجمًا ، وله مقدرات أعظم وأبلغ .

١١ - الحرب الروسية التركية ومعاهدة برلين

ابتدأت في ١٨٧٥ ثورة جديدة ، لما سميها في هذا الكتاب باسم الخريطة الطبيعية ، ضد الترتيبات الدبلوماسية التي وضعتها معاهدة فيينا ، عندما دب ديب الاضطراب والعصيان بين الأجناس المسيحية في البلقان وبخاصة البلقان . واتخذ الأتراك حيالهم تدابير قمع عنيفة ، ثم لجأوا إلى أعمال التقتيل في البلغاريين على نطاق هائل .

وعند ذلك تدخلت روسيا في (١٨٧٧) ، وأجبرت الأتراك بعد عام قضى في حرب باهظة النفقة على توقيع معاهدة سان استيفانو ، التي كانت في مجملها معاهدة معقولة ، تمزق الدولة التركية المصطنعة ، وتؤسس الخريطة الطبيعية إلى حد كبير . ولكن كان قد أصبح من تقاليد السياسة البريطانية أن تعترض « خطط روسيا » — لسبب لا يعلمه إلا الله وحده ! — كلما بدا أن للروسيا خطة . فتدخلت وزارة الخارجية البريطانية وكان رئيس الوزراء آنذاك هو اللورد بيكونزفيلد — مهددة بالحرب إن لم تسترجع تركيا إلى حد كبير ما كانت تحظى به من إبنزاز الأموال

١٣٤٩

والاضطهاد والتقتيل ١٩١١... وانقضى زمن أوشتكت فيه الحرب أن تقع بين الطرفين . وأخذت قاعات الموسيقى البريطانية ، وهى المصاييح المضيفة للسياسة البريطانية ، توفد وتثار بنيران الوطنية ، حتى لقد بلغ الأمر أن الغلام الساعى فى لندن كان يتغنى وهو يسير فى جولاته ، مرددا فى غنائه معانى كرامة شعب عظيم . « لسنا نريد القتال ، ولكنى أقسم بـ (١) نحن قاتلنا ، فلدينا السفن ، ولدينا الرجال ، ولدينا الذخيرة أيضاً » .

وهكذا : حتى تصل الأمور إلى ذروتها فى قوله ، -

« لن يأخذ الروس القسطنطينية » .

وكانت نتيجة تلك المعارضة البريطانية ، أن اجتمع فى ١٨٧٨ مؤتمر فى برلين لتتبع معاهدة سان إستفانو ، تنقيحاً يتجه بصفة رئيسية إلى مصالح ملوك تركيا



(شكل ٢٠١)

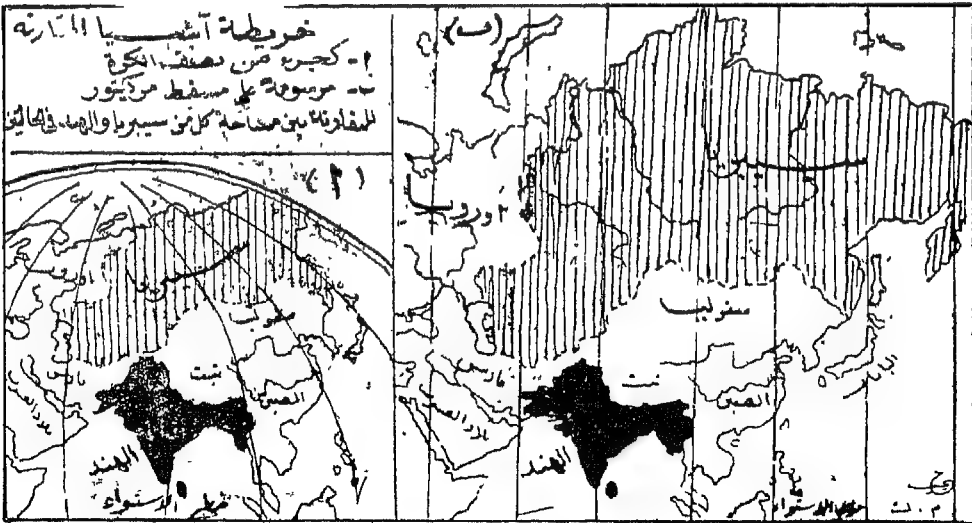
(١) چينجو هو قسم ساخر فى هذه الأغنية الحربية ومن ثم أطلقت چينجو أيضاً على أى وطنى مهووس يدهو إلى الحرب . (المؤلف)

١٣٥٠

والنمسا . وحصل البريطانيون على جزيرة قبرص ، التي لم يكن لهم فيها أى حق مطلقاً ، والتي لم تعد عليهم أبداً بأقل فائدة ؛ وعاد اللورد بيكونزفيلد مظفراً من مؤتمر برلين ، يحمل ما جعل البريطانيين فى ذلك الزمان يزعمون بأنه « السلام مع الشرف » . وكانت معاهدة برلين هذه هى العامل الرئيسى الثانى - (إذ كانت معاهدة فرانكفورت هى العامل الأول) - الذى أدى إلى الحرب العظمى حرب ١٩١٤ - ١٩١٨ .

١٢ - التدافع الثانى على الإمبراطوريات وراء البحار

ألمعنا أن الثورة الميكانيكية لم تنتج أى تغييرات جذورية فى تاريخ أوروبا السياسى بين سنتى ١٨٤٨ ، ١٨٧٨ . فإن « الدول الكبرى » التى أعقبت الثورة كانت فى الواقع ما تزال داخل حدود لا تزيد على اتساع رقعتها الأولى وما تزال محتفظة بكثير من الشكليات التى كانت عليها فى الأزمنة السابقة على الثورة . ولكن الذى حدث هو أن زيادة السرعة والثقة بوسائل النقل والمواصلات التلغرافية أحدثت تغيرات جسيمة فى الأحوال والمناهج ، وقامت وراء البحار مشروعات مالية وتجارية لبريطانيا وغيرها من الدول الأوروبية الأخرى ، كما نشأت صلات شتى بين آسيا وأفريقيا من جهة وأوروبا من جهة أخرى .



(شكل ٢٠٢)

وكانت نهاية القرن الثامن عشر^(١) ه تمزيق للإمبراطوريات ورفع لغشاوة الخلداع عن أبصار دعاة التوسع العدواني . فإن الرحلة الطويلة الشاقة بين بريطانيا وأسبانيا وبين مستعمراتهما في أمريكا كانت تحول دون كثرة الذهاب والغدو بين أرض الوطن الأم وبين بناتها التوابع ، وبذا انفصلت المستعمرات وتحولت إلى مجتمعات جديدة مميزة ، ذات أفكار ومصالح مميزة بل مختلفة في أساليب كلامها . وكلما نمت المستعمرات زادت شدة ورهقا لتلك الرابطة الواهنة غير المحققة رابطة السفن التي كانت همزة الوصل بينهما . أجل إن مراكز التجارة الضعيفة في البرية (أمثال ما كان لفرنسا في كندا) ، أو المؤسسات التجارية في المجتمعات الأجنبية الكبيرة ، (شأن ما كان لبريطانيا في الهند) ، ربما كانت تثبث متعلقة من أجل البقاء المحض بالأمة التي تمد لها يد العون وتقيم لها سبب الوجود . ذلك على الأكثر دون أى شيء آخر هو ما كان يبدو في أعين كثير من المفكرين في القسم الأول من القرن التاسع عشر ، الحد الذي يجد الحكم وراء البحار

وفي ١٨٢٠ كانت المعالم غير البيئة « للإمبراطوريات » الأوروبية العظمى خارج أوروبا ، التي طالما ظهرت على صورة ضخمة لافتة للنظر في خرائط منتصف القرن الثامن عشر ، قد تقلصت أبعادها تقلصا بالغا جداً . وكانت الإمبراطورية الروسية هي وحدها التي تزحف كأوسع ما يكون الزحف عبر آسيا . ولكنها كانت تزحف في أنخيلة كثيرين من الأوروبيين أكثر مما تزحف في حقيقة الأمر ، بسبب ما جرت به عاداتهم من دراسة جغرافية العالم على أساس مشروع مركاتور^(١) الذي يبلغ مبالغة هائلة في حجم سبيرا .

وكانت الإمبراطورية البريطانية في ١٨١٥ تتكون من أقاليم النهر والبحيرات الساحلية القليلة السكان بكندا ، ومن أرض عظيمة داخلية مكونة من برية لم يكن فيها من المستقرات في ذلك الحين سوى محطات تجارة الفراء التابعة لشركة خليج هدسن ؛ وكانت قرابة ثلث شبه الجزيرة الهندية تحت حكم شركة الهند الشرقية ؛ وكانت تضم النواحي الساحلية عند رأس الرجاء الصالح ، التي يسكنها السود والمستوطنون

(١) مشروع مركاتور : طريقة لرسم الخرائط تنسب إلى الجغرافي ورسام الخرائط الفلمنكي جيرارد ديوس مركاتور (١٥١٢ - ١٥٩٤) . (المترجم)

المولنديون ذوو الطبع الثائر ، وبضع محطات تجارية على ساحل إفريقيا الغربية ومضرة جبل طارق وجزيرة مالطة وجامايكا وممتلكات صغرى قليلة عمالها من العبيد في جزائر الهند الغربية وغيانا البريطانية بأمريكا الجنوبية ، وأما في الجهة الأخرى من العالم فلم يكن ثم غير محطتي تفريغ للمجرمين عند خليج بوتاني بأستراليا وفي تسمانيا .

وكانت أسبانيا محتفظة بكوبا ومستقرات قليلة في جزائر الفلبين . وكانت للبرتغال في أفريقيا بعض آثار تدل على مزاعمها القديمة . وكانت لهولندا جزائر وممتلكات مختلفة بجزائر الهند الشرقية وغيانا الهولندية ، كما كان للدانمرك جزيرة أو ما إليها من جزائر الهند الغربية . فأما فرنسا فكان لها جزيرة أو اثنتان من جزائر الهند الغربية وغيانا الفرنسية . وكان هذا فيما يلوح هو القدر الذى يحتاج إليه الدول الأوروبية أو القدر الذى يحتمل أن تحرزه من بقية العالم . ولم يكن أحد عدا شركة الهند الشرقية يظهر أى نزوع للتوسع .

وكانت إمبراطورية ذات سمة خاصة عجيبة تتكون في بلاد الهند كما أسلفنا ، لا يكونها الشعب البريطانى ولا الحكومة البريطانية ، بل تكونها تلك الشركة ، شركة المغامرين المخصوصين بما لديهم من احتكار ومرسوم ملكى . وقد اضطرت الشركة أن تصبح قوة حربية وسياسية أثناء سنى الانقسام الهندى وعدم الأمانة الذى أعقب تجزؤ الهند بعد وفاة أورا نغزيب في ١٧٠٧ . وكانت الشركة تعلمت أن تتجرف في الولايات والشعوب أثناء القرن الثامن عشر . فأسس كلايف هذا النوع العجيب من الإمبراطورية وقولى وارن هاستنجز تنظيمها ، وقهرت المنافسة الفرنسية كما سبق أن أخبرناك ، ولما وافت ١٧٩٨ عين اللورد مورنجتون حاكماً عاماً على الهند ، وهو الذى أصبح فيما بعد المركز ولزلى ، وهو الأخ الأكبر لذلك الجنرال ولزلى الذى أصبح دوق ولنجتون ، فأقام سياسة الشركة بصورة نهائية على أساس إقامة حكمها هى في مكان إمبراطورية المغولى العظيم الغاربة .

وكانت حملة نابليون على مصر هجمة مباشرة على إمبراطورية هذه الشركة البريطانية . وبينما كانت أوروبا مشغولة بالحروب النابليونية ، راحت شركة الهند الشرقية تحت فئة متعاقبة من المديرين العاملين ، تلعب في الهند نفس الدور الذى

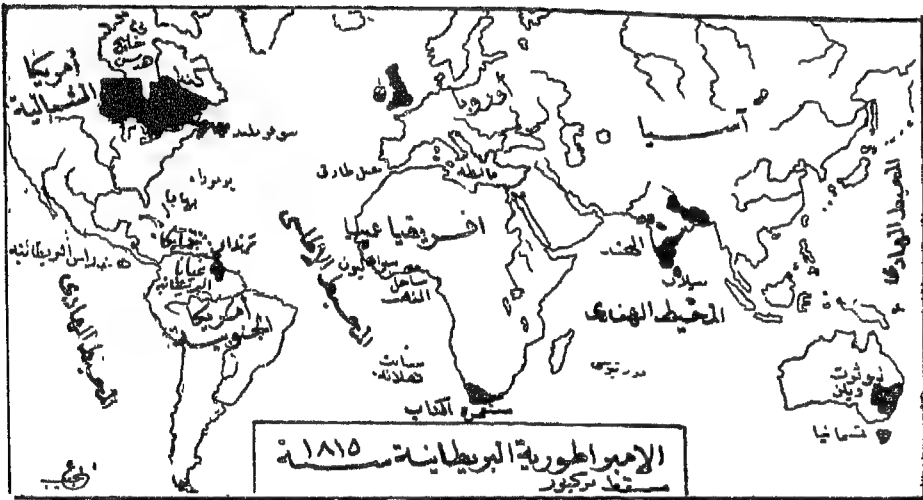
كان يلعبه من قبل التركمان ومن إليهم من الغزاة النازحين من الشمال ، ولكنها كانت تلعبه على مرتبة من الكفاية أعظم وفي عنف وقساوة أقل وأدنى كثيراً . واستمرت في عملها بعد معاهدة فيينا تجمع لإيراداتها ، وتشن الحروب وتبعث بالسفراء إلى الدول الآسيوية ، كانت دولة شبه مستقلة ، وهى مع ذلك دولة ذات ميل ملحوظ إلى إرسال الثروة نحو الغرب .

وقد سبق في فصل مضى ، أن لخصنا لك سيرة تحطم إمبراطورية المغولى العظيم وظهور ولايات المهراتا والإمارات الرجوتية ، ومملكتى أوده والبنغال الإسلاميتين ونشوء طائفة السيخ . ولسنا بقادرين أن نخبرك هنا فى أى تفصيل ، كيف شقت الشركة البريطانية طريقها نحو السيادة ، تارة بوصفها حليفاً لتلك الدولة وتارة لتلك الأخرى ، وأخيراً بوصفها قاهرة للجميع . وامتد سلطانها إلى أسام والسند وأوده . وأخذت خريطة الهند تتخذ صورة المعالم المألوفة لدى التلاميذ الإنجليز اليوم ، وهى رقاع كثيرة من الولايات الوطنية تضمها وتربطها بعضها إلى بعض الولايات الكبيرة التى تحت الحكم البريطانى المباشر .

والآن ، وبينما كانت هذه الإمبراطورية العجيبة التى لم يسبق لها مثيل فى التاريخ ، إمبراطورية الشركة تنمو فى المدة بين ١٨٠٠ ، ١٨٥٨ ، كان الانقلاب الميكانيكى يلغى فى غير ضجيج المسافة العظيمة التى كانت يوماً ما تفصل الهند عن بريطانيا ، وكان حكم الشركة فى الأيام القديمة قليل التدخل فى الحياة الداخلية للولايات الهندية ؛ وكل الذى فعلته أنها منحت الهند سادة أعلن أجنب ، ولكن الهند طالما تعودت حكم السادة الأعلى الأجنب ، ولطالما تمثلتهم حتى ذلك الحين ؛ فأما هؤلاء الإنجليز فكانوا ينزلون البلاد شباباً ويعيشون فيها معظم حياتهم ، ويصبحون جزءاً من نظامها . ولكن الانقلاب الميكانيكى كان قد أخذ فى تغيير حالة الأمور هذه . فأصبح أيسر على الموظفين البريطانيين أن يحتلبوا زوجاتهم وعائلاتهم ، وكفوا عن أن يصطبغوا بالصبغة الهندية ؛ وظلوا بشكل أوضح أجنب وغربيين وزاد عددهم . ثم لأنهم شرعوا يتدخلون فى العادات الهندية تدخلا أقوى وأشد . ووصلت إلى البلاد أشياء بحرية فظيعة من أمثال التلغراف والسكك الحديدية . وأقبلت البعثات التبشيرية تعمل

بصورة مكذرة للنفوس . فقلن لم يتيسر لهم تحويل عدد وافر من الرجال عن دينهم ،
لقد أوجدوا على الأقل المتشككة بين أتباع الديانات الأقدم عهداً . وشرع شبان
المدن يصطفون بالصيغة الأوربية . ويا لرعب آبائهم العظيم !! . . .

ولطالما تحملت الهند من قبل تغييرات كثيرة أو حكماً كثيراً . ولكن
لم تتعرض أساليبها قط لمتل هذا النوع من التغيير الذي كانت تؤذن به الأمور .



(شكل ٢٠٣)

واستولى الجزع على كل من العلماء المسلمين والكهنة البراهمة على السواء ، ولیم
البريطانيون على تقدم الإنسانية . وأخذت المنازعات على المصالح الاقتصادية تزداد
حدة مع ازدياد قرب أوربا ، ولقيت الصناعة الهندية وبخاصة الصناعة القطنية المعهدة
كل الشر من التشريعات التي كانت توضع لموازرة أصحاب المصانع البريطانيين .

وارتكبت الشركة قطعة لا يصدقها عقل من الحماقة ، عجلت باندلاع انفجار
شديد . فإن البقرة لدى البرهمي مقدسة ، والخنزير عند المسلمين نجس . وقد
صرفت الشركة لجنودها الهنود بندقية جديدة تحتاج إلى خرطوشات مدهونة بالدهن
ولابد للرجال من قضمها قبل إطلاقها ، واكتشف الهنود أن الخرطوشات مطلية
يدهن البقر والخنازير : وأدى هذا الاكتشاف إلى التعجيل بتمرد جيش الشركة

١٣٥٥

الهندي ، وهي الحركة المسماة « الفتنة الهندية » (١٨٥٧) . فتمرد الجنود أولاً في ميروت . ثم ثارت دلهي تبغى استعادة إمبراطورية المعول العظيم . وعلى حين بغة اكتشف الجمهور البريطاني بلاد الهند . فتنهوا إلى تلك الحامية الصغيرة من الرعايا البريطانيين ، المقيمين على تلك المسافة الشاسعة في تلك الأرض العجيبة ذات الغبار الناري والشمس المحرقة المهكة ، وهم يقاتلون في سبيل الحياة جمهير غفيرة سوداء تهاجمهم . فكيف بلغوا ذلك المكان ؟ وأي حق لهم هناك ؟ لم يسأل الجمهور البريطاني هذين السؤالين . فإن العطف على بني الجلالة المعرضين للخطر يتغلب على مثل تلك الأسله . وكانت ثمة مذابح وقساوات . وكانت (١٨٥٧) سنة قلق عظيم في بريطانيا العظمى . واستطاع الزعماء البريطانيون ، وعلى الأخص لورنس ونيكولسون أن يقوموا بالعجب العجيب على يد فئات من الجنود قليلة لا تكاد تفي بشيء . فلأنهم لم يكونوا يظنون جامدين في أماكهم حتى يحاصرهم العدو على حين ينظم المتمردون صفوفهم ويقوون نفوذهم ، فلو أنهم فعلوا ذلك لأدى بهم إلى فقد الهند فقداناً أبدياً . وكانوا كثيراً ما يغيرون على عدو هائل ترجحهم كفته رجحاناً جارفاً . قال لورانس : « إن ورقة الإسباتي هنا هي الراجحة لا البستوني !! ... ورب فئة قليلة . . . »

ولزم جنود السيخ والجركا والبنجاب جانب البريطانيين . وظل الجنوب هادئاً . ولنا لنحيل القارئ على كتب تاريخية أخرى لتنبئه بمذابح كونيور ولكنو في أوده ، وكيف استطاعت قوة بريطانية صغيرة يتفوق عليها العدو في العدد تفوقاً عظيماً أن تحاصر دلهي وتأخذها عنوة . وما حل أبريل (١٨٥٩) حتى كانت آخر جمرات في ذلك اللهب قد أطفئت وديست بالأقدام ، وأصبح البريطانيون سادة على الهند من جديد ، ولم تكن تلك الفتنة بأى حال ثورة شعبية ، بل كانت مجرد تمرد في الجيش البنغالي ، يرجع في معظم شأنه إلى سوء تصرف موظفي الشركة صغار الأحلام . وقصة تلك الفتن مليئة بالأمثلة التي تشهد بما أحيط به اللاجئون البريطانيون من رعاية الهنود ورفقهم . غير أنها كانت تحذيراً ونذيراً .

وكانت النتيجة المباشرة للفتنة هي إلحاق الإمبراطورية الهندية بالتاج البريطاني .

وبمقتضى القانون المرسوم « قانون إصلاح حكومة الهند » ، أصبح الحاكم العام نائب ملك يمثل الملك ، وحل محل الشركة وزير للهند مسئول أمام البرلمان البريطانى . واستكمالا لهذا العمل حمل اللورد بيكونزفيلد ، الملكة فكتوريا على أن ينادى بها إمبراطورة للهند فى ١٨٧٧ .

وعلى هذه الأسس الحارقة للعادة ترتبط الهند وبريطانيا فى هذا الزمان . وما تزال الهند هى إمبراطورية المغولى العظيم بعد أن وُسعت أطرافها ، غير أن المغولى العظيم حلت محله جمهورية بريطانيا العظمى المتوجة . وأصبحت الهند دولة استبدادية مطلقة من غير عاهل مطلق . ويجمع الحكم فيها بين أضرار الملكية المطلقة وبين اللاشخصية وعدم المسئولية اللذين تشتم بهما الإدارة الديمقراطية فإن الهندى الذى له ظلامة لم يكن أمامه ملك ظاهر دليلاً إليه ، إذ أن إمبراطوره ليس إلا رمزاً ذهبياً . ولا بد له من أن يلجئ الفترات فى إنجلترا أو يوحى إلى من يقدم له فى مجلس العموم سؤالا . وكلما زادت مشغلة البرابان بالشئون البريطانية ، نقص حظ الهند من التفاته ورعايته ، وزاد وقورها تحت رحمة فئتها الصغيرة من كبار الموظفين .

وواضح أن دوام مثل هذا الحال كان من المحال . فإن الحياة الهندية أياً كانت عوامل التضييق ساهبا لم يكن بد من أن تتحرك أماماً مع بقية العالم . وكانت للهند صحافة آنحظة فى النور ، وعدد متزايد من المتعلمين المتأثرين بالأفكار الأوروبية ، وإحساس متزايد بالألم المترك ضد حكومتها . ولم يقابل هذا الوضع الجديد أى تقدم فى نوع الموظفين البريطانى فى الهند وأساليب إعداده وتعليمه أثناء ذلك القرن . أجل إن نفايده تمانى ، إلى ، وكثيراً ما كان رجالاً ذا صفات غير عادية ، ولكن النظام كان نظاماً احتق سقيم الخيال جامداً لا لين فيه . زد على ذلك ، أن القوة العسكرية التى كانت تفف من خلف هؤلاء الموظفين لم تتطور فى خلقها ولا فى ذكائها أثناء هذا القرن . وهناك طبقة بلغت من الركود الذهنى ما بلغته الطائفة العسكرية البريطانية .

فالرجل العسكرى البريطانى عندما واجهته الهند الجديدة الأكثر تعليماً ،

١٣٥٧

وعندما أدرك في قلق نقائصه التعليمية ودام يخشى المزوَّه به ، — أظهر ميلا متزايا إلى العنف التشنجي الذي كانت له بعض النتائج المستوجبة لشديد الأسى .
وقد تجلّى في تعاليم المستر كبلنج الداعية إلى العنف والتي سبق أن أشرنا إليها ،
نوع من الإستصواب لقلة المعرفة وانعدام القدرة وضبط النفس .

ولم يكن نمو الامبراطورية البريطانية في اتجاهات أخرى عدا الهند سريعا إلى هذا الحد بأى حال أثناء النصف الأول من القرن التاسع عشر . وكانت فئة كبيرة من المفكرين السياسيين في بريطانيا ميالة إلى اعتبار الممتلكات وراء البحار مصدرا لضعف المملكة . وتطورت المستوطنات الأسترالية تطورا بطيئا ضحيما إلى أن عادت إليها الأهمية بعد اكتشاف مناجم غنية للنحاس في ١٨٤٢ ومناجم للذهب في ١٨٥١ ، وكانت التحسينات المتزايدة في وسائل النقل تزيد في رواج الصوف الأسترالى في السوق الأوروبية كذلك كندا فلم تتقدم تقدما ملحوظا حتى ١٨٤٩ ، إذ كانت تعوق تقدمها الخلافات بين سكانها الفرنسيين والبريطانيين ، وحدثت فيها ثورات خطيرة عديدة ، ولم تنجح براتها الداخلية إلا في ١٨٦٧ يوم صدر دستور جديد أنشئ بمقتضاه دوميون شادا الاتحادى . وكانت السكك الحديدية هي صاحبة الفضل في تغيير مستقبل كندا . فلما مكنت كندا ، كما مكنت الولايات المتحدة من أن تمتد غربا ، وأن تسوق قمحها ومنتجاتها الأخرى في أوروبا ، وأن تبقى بالرغم من نموها السريع المتراى — مجتمعاً واحداً في لغته وتعاطفه ومصالحه . وكانت السكك الحديدية والسفينة البخارية والسلك التلغرافى والبحرى تُغيّر في الواقع كل أحوال التطور الإستعمارى .

وكانت مستقرات إنجليزية قد ابتدأت قبل ١٨٤٠ في نيوزيلندة ، فتأسست شركة لأراضى نيوزيلندة لإستغلال ما قد يكون في الجزيرة من إمكانيات . وفي ١٨٤٠ أضيفت نيوزيلندة أيضاً إلى الممتلكات الاستعمارية للتاج البريطانى . وكانت كندا كما لاحظنا أول الممتلكات البريطانية استجابة كريمة خصيبة للمحتملات الإقتصادية الجديدة التي فتحت أبوابها وسائل النقل الجديد . وسرعان ما أخذت جمهوريات أمريكا الجنوبية وبخاصة الأرجنتين تشعر في تجارة ماشيتها وفي زراعة البن

فيها بتزايد قربها من السوق الأوروبية . وكان رأس السلع التي تجذب دول أوروبا حتى الآن إلى الأقاليم الممجيّة (البربرية) غير المسكونة هي الذهب أو المعادن الأخرى ، والتوابل والعاج أو العبدان . ولكن تزايد السكان في أوروبا في الربع الأخير من القرن التاسع عشر أخذ يجبر الحكومات على الرمي ببصرها في الخارج بحثاً عن مواد الطعام الأساسية ، كما أن نمو الصناعة القائمة على العلم كان يخلق الطلب على مواد خام جديدة ، أمثال الشحوم والدهون بجميع أنواعها ، والمطاط ، ومواد أخرى كان الناس يغفلون شأنها حتى آنذاك . وكان جلياً أن بريطانيا العظمى وهولاندة والبرتغال كن يحصدن ثمار مزية تجارية عظيمة متزايدة نامية من سيطرتهم الجسيمة الضخمة على المنتجات المدارية ودون المدارية . وبعد ١٨٧١ شرعت ألمانيا ثم فرنسا وإيطاليا فيما بعد في البحث عن مناطق للمواد الخام لم تلحق بأحد ، أو عن أقطار شرقية تستطيع أن تعود بالريح من وراء صبغها بالصبغة العصرية .

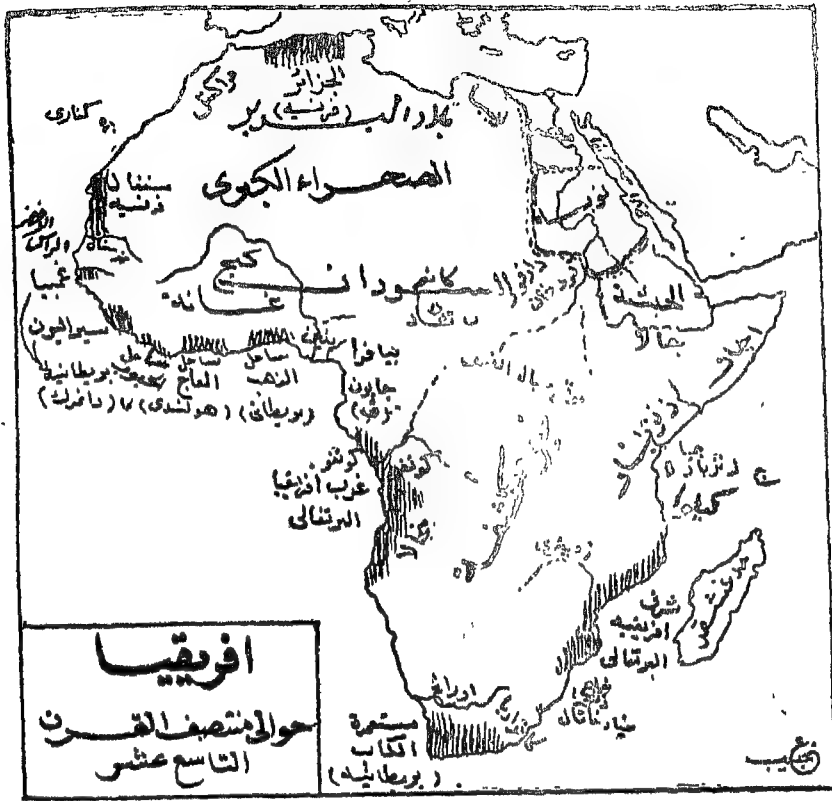
وبذلك ابتدأ تدافع جديد شمل الأرض قاطبة لامتلاك البلاد التي لم ترزق حماية سياسية واقية ، ولم ينج منه إلا البلاد الأمريكية حيث كان مبدأ مونرو يحول عند ذلك دون مثل هذه المغامرات . وكانت قارة إفريقيا تقع على مقربة من أوروبا ، وهي مليئة بإمكانات يشوبها الغموض . وكانت في ١٨٥٠ قارة خفايا سوداء ؛ ولم يكن معروفاً منها إلا مصر والمناطق الساحلية . ولا بد أن تظهرك إحدى الخرائط على ضخامة الجهالة الأوروبية في ذلك الزمان . ولا بد لنا من كتاب يقارب في الطول هذه « المعالم » حتى يبنى بحق التقدير الواجب للقصة المذهلة التي تسرد ما أسداه المكتشفون والمغامرون من فضل على البشرية حين اخترقوا لأول مرة غيابة الظلماء هذه ، وتذكر كذلك الوكلاء السياسيين والمديرين والمتجربين والمستوطنين ورجال العلم الذين ترسموا خطاهم . وكشف القناع عن أجناس من الناس عجيبة من أمثال الأقزام ودواب غريبة كالأوكابي (okabi) (١) . وثمار وأزهار وحشرات مدهشة وأمراض وبيلة ومناظر للغابات والجبال تذهب بالألباب

(١) الأوكابي أو الأتاب : حيوان من ذوات الأربع يشابه الزرافة يعيش في أفريقيا الغربية .
(المترجم)

وبحار داخلية ضخمة وأنهار هائلة ومساقط مائية عظيمة كشف السر عنها جميعاً - وهي وحدها عالم جديد بأكمله . بل لقد كشفت في زمبابوى آثار لحضارة بائنة غير معروفة ، وهي ثمرة جهود قام بها في نصف الكرة الجنوبي شعب قديم .

وإلى هذا العالم الجديد هبط الأوروبيون ، فوجدوا البنادق موجودة من قبل في أيدي تجار الرقيق العرب ، ووجدوا حياة الزنوج في اضطراب واخلال . وعند ١٩٠٠ كانت كل إفريقيا قد رسمت خريطتها وارتيدت أرضها وقدرت قيمها وقسمت بين الدول الأوروبية ؛ أجل قسمت ، ولكن في كثير من الزجرة والشحناء إلى أجزاء تركت كل دولة قلقلة أو متدمرة غير راضية ، ولكن التقسيم ظل على حاله تقريباً حتى ١٩١٤ . ولم يراع أحد إلا قليلاً مصالح الأهالي الوطنيين أثناء هذا التدافع . نعم إن النخاس العرب قد أبيد أكثر مما طرد ، ولكن الجشع في طلب المطاط الذي كان منتجاً طبيعياً يجمعه الوطنيون قهراً في الكونغو البلجيكية - وهو جشع بلغ حد التسخط بشح ملك البلجيكي الذي لا رحمة فيه - والتصادم بين المديرين الأوروبيين الأغمار غير المحنكين وبين السكان الوطنيين ، كانا أمرين أفضيا إلى فظائع شنيعة . وليست هناك دولة أوروبية واحدة تستطيع أن تقول إن يديها طاهرتان تماماً من هذه الجرائم .

ولسنا بقادرين أن نذكر لك هنا في أى تفصيل كيف استطاعت بريطانيا أن تستولى على مصر^(١) ١٨٨٣ ، وظلت فيها بالرغم من أن مصر كانت من الناحية الرسمية (التكنيكية) جزءاً من الإمبراطورية التركية - ولا كيف أوشك هذا التخاطف أن يؤدي إلى الحرب بين فرنسا وبين بريطانيا العظمى في ١٨٩٨ ، عندما حاول كولونيل فرنسي بعينه اسمه مارشان وهو يعبّر إفريقيا الوسطى من الساحل الغربي أن يستولى عند فاشودة على النيل الأعلى . فأما في أوغندا فإن البعوث الكاثوليكية الفرنسية والأنجليكانية الانجليزية نشرت صورة للمسيحية مثقلة بأعباء الروح النابليونية ، وملحة في النهاية على أدق أنواع الفروق في العقيدة ، إلى حد أن



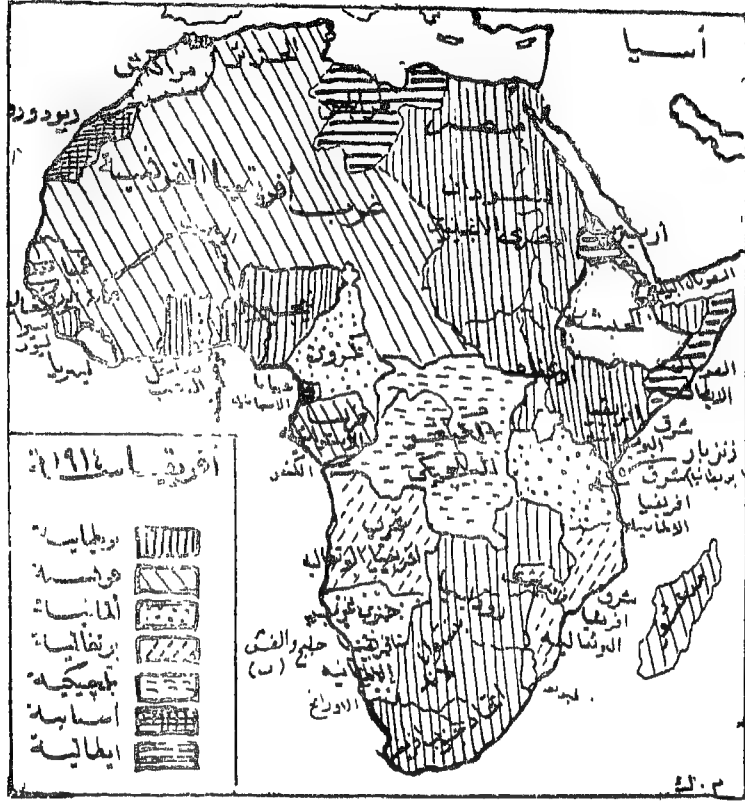
(شكل ٢٠٤)

مدينة مينجو عاصمة أوغندا بعد سنوات قلائل من ظهور أول بصيص للحضارة الأوربية فيها ، قد ملئت شوارعها بالقتلى من « البروتستانت » و « الكاثوليك » ، الذين يعسر عليك أعظم العسر أن تميز بينهم وبين المقاتلة غير الروحانيين في النظام القديم .

كذلك لا نستطيع أن نخبرك كيف سمحت الحكومة البريطانية في البداية للبوير أو المستقرين الهولنديين بمنطقة نهر الأورانج وفي بلاد الترنسفال ، بأن يقيموا جمهوريتين مستقلتين بالمناطق الداخلية بجنوب إفريقيا ، ثم عادت فندمت على ذلك وضممت إليها جمهورية الترنسفال في ١٨٧٧ ، ولا كيف قاتل بوير الترنسفال من أجل الحرية وفازوا بها بعد معركة تل ماجوبا ١٨٨١ . ولا كيف تسببت حملة صحفية ملحة في جعل معركة تل ماجوبا تتفرح في ذاكرة الشعب الإنجليزي . ونشبت حرب

١٩٠٩

مع كل من الجمهوريتين في ١٨٩٩ ، وهي حرب ثلاث سنرات باهظة النفقة على الشعب البريطاني ، إنتهت آخر الأمر بتسليم الجمهوريتين كلتيهما لبريطانيا .



(شكل ٢٠٥)

ولكن فترة إخضاعهما لم تطل . فقد حدث في ١٩٠٧ بعد سقوط الحكومة الاستعمارية التي قهرتهما ، أن تناول الأحرار مسألة جنوب إفريقيا ، وأصبحت هاتان الجمهوريتان السابقتان حرتين وصارتا برغبتهما تقريباً أختين (صنوين) لمستعمرة الرأس وناتال في اتحاد احتلافي (كنفدرالى) يضم كل ولايات جنوب إفريقيا بوصفها جميعاً جمهورية واحدة تحكم نفسها بنفسها تحت التاج البريطاني .

وانتهى العمل في تجزئة إفريقيا واقتسامها في مدى ربع قرن . وظلت أقطار ثلاثة صغيرة نسبياً غير ملحقة بأحد هي : ليبيا ، وهي مستقرة على الساحل الغربى للرقى الزنوج المعتقين ؛ ومراكش ويحكمها سلطان مسلم ؛ والحبيشة وهي قطر همجى ،

به نوع من المسيحية قديم عجيب ، وقد نجحت في الاحتفاظ باستقلالها سلباً من يد إيطاليا في معركة عدوة في ١٨٩٦ .

— السابقة الهندية في آسيا

من العسير أن يعتقد الإنسان أن أية جمهرة عظيمة من الناس قد قبلت حقاً هذا الصبغ المتعجل لخريطة إفريقيا بالألوان الأوروبية ، باعتباره تسوية مستديمة جديدة لشئون العالم ، على أن من واجب المؤرخ أن يسجل أن التقسيم قبل على ذلك الوجه .

ولم يكن هناك من وراء العقل الأوربي في القرن التاسع عشر إلا خلفية تاريخية ضحلة ، ولم يكد أن يكون لديه أى شعور بالمقومات التي تكون نظاماً سياسياً مستديماً ، كما أن العقل الأوربي لم يتعود النقد العميق . وإن المزايا الوقتية البحتة التي أضفتها بداية الثورة الميكانيكية في الغرب على الدول الأوروبية الكبرى دون سائر العالم القديم وآثرتها بها ، كانت تعد في نظر الناس ، ممن يجهلون كل الجهل غزوات المغول العظيمة في القرن الثالث عشر وما عقبه من قرون ، أمارات تدل على سيادة الأوربيين المستديمة المحققة على الجنس البشري . ولم يدرك أحد منهم قابلية العلم وثماره للانتقال . ولم يدرك بخلداهم أن الصينيين والهنود كان في استطاعتهم أن يواصلوا العمل في الأبحاث بنفس الاقتدار الذي عليه الفرنسيون أو الإنجليز . فإنهم كانوا يعتقدون أن هناك نوعاً من الدافع الذهني الفطري موجوداً في الغرب ، ونوعاً من التراخي والحفاظة الفطريين في الشرق ، يؤكدان للأوربيين السيادة الأبدية على العالم .

وكانت عاقبة هذا الجنون هي أن وزارات الخارجية الأوروبية المختلفة نصبت نفسها لا مجرد منافسة البريطانيين في التدافع إلى الأقاليم الممجة غير المتطورة على سطح الكرة الأرضية ، بل نشطوا كذلك لتقطيع أقطار آسيا الممدنة الآهلة بالسكان ، كأنما لم تكن هذه الشعوب أيضاً لتزيد على مواد خام تنتظر الاستغلال الأوربي ! ! . فإن استعمار الطبقة البريطانية الحاكمة للهند ، ذلك الاستعمار المقلقل في داخله الباذخ

في ظاهره ، فضلا عن أملاك الهولنديين الواسعة المربحة في جزائر الهند الشرقية ملأت قلوب الطبقات الحاكمة والتجارية في الدول الأوروبية المنافسة بأحلام عظيمة مماثلة للسيادة في بلاد أخرى مثل فارس ، والإمبراطورية العثمانية المفككة ، وفيما بقي من الهند وفي الصين واليابان .

وفي أثناء السنوات الختامية للقرن التاسع عشر - كما يستطيع القارئ أن يحقق ذلك بفحصه أدب (: مؤلفات) تلك الفترة المتداول - كان الناس يفترضون أن من الطبيعي الذي لا مفر منه أن يقع العالم بأجمعه تحت السيطرة الأوروبية . وأعد الذهن الأوروبي نفسه - في شيء من روح الخير المتكرهه - لتناول ما سماه المستر رديارد كبلنج « واجب الرجل الأبيض » وأعنى به السيادة على الأرض . ونصبت الدول نفسها لهذا المشروع وهي في حالة منافسة متدافعة بالمناكب مع أن سكانها بأرض الوطن متعلمون نصف تعليم أو جهلة أميون ، وليس في جعبتها غير فئة قليلة من الرجال لا تريد على الخشوة عدأً أولاً تتجاوز في أقصاها بضعة آلاف ، مشغولين بالبحث العلمي ، بينما نظمها السياسية الداخلية في حالة توتر أو تغير تشنجي ، ونظامها الاقتصادي ضعيف متداع ، كما أنه وقتي طارئ غير مستقر إلى أقصى حد ، وبينما دياناتها قد بلغت من التصدع والانحلال كل مبلغ . كانوا يعتقدون اعتقاداً حقيقياً أن في الإمكان إخضاع سكان آسيا الشرقية الهائل العدد إخضاعاً مستديماً لمثل أوروبا هذه ...!!...

ولا يزال يوجد في العالم حتى هذه الأيام رجال كثيرون يفوتهم أن يدركوا الحقائق الضرورية في هذا الموقف . فإنهم لا يدركون أن معدل الذكاء في آسيا لا يقل في نوعه ذرة واحدة عن معدل ذكاء العقل الأوروبي . وأن التاريخ يظهر الآسيويين وهم من الجرأة والقوة والكرم والتضحية بالذات والاقتدار على العمل الحشدي القوى كالأوروبيين سواء بسواء ؛ وأنه يوجد في هذا العالم - وسيظل يوجد - من الآسيويين عدد عظيم يفوق كثيراً عدد الأوروبيين .

وقديماً كان من العسير على الدوام الحيلولة دون تسرب العرفان من شعب إلى آخر ، فأما اليوم فذلك من أعظم المحال . فالظروف العصرية الراهنة تجعل المساواة الشاملة بين أجزاء العالم بامة في الشئون الاقتصادية والتعليمية أمراً لا مندوحة منه على

مر الزمان . وإن هناك لدعوة فكرية وخلقية لاستنهاض الآسيويين في هذا الزمان . فإن ما أفسدته فترة الانحراف اليسيرة التي امتدت قرناً أو ما يقارب القرن ، تصلحه عشرات قليلة من السنين . إذ يوجد في العصر الحاضر مثلاً ، مقابل كل إنجليزي يعرف الصينية معرفة تامة ، أو له أى إلمام وثيق بالحياة الصينية والفكر الصيني ، مئات من الصينيين يعلمون كل شيء يعلمه الإنجليزي .

وربما كان رجحان ميزان العرفان في ناحية الهند أكبر من هذا كثيراً . فالهند تبعث الطلاب إلى بريطانيا ؛ على حين ترسل بريطانيا إلى الهند الموظفين - وهم في معظم الحالات رجال غير مدربين على الملاحظة العلمية . وليس هناك منظمة أبداً كانت لإرسال الطلاب الأوروبيين بوصفهم طلاباً - للتعمق في تاريخ الهند ودراسة آثارها وثقافتها القديمة وشؤونها الجارية وللقيام فيها بالأبحاث ؛ ولإيجاد وسيلة يتصل بها العلماء الهنود بالطلاب البريطانيين في بريطانيا .

ومنذ (١٨٩٨) وهى سنة استيلاء ألمانيا على كياوتشاو واستيلاء بريطانيا على واى هاى واى وتأجير بورت آرثر للروسيا - تحركت الأحداث في الصين أسرع مما تحركت في أى قطر آخر فيما عدا اليابان . فإن كرها عظيماً للأوروبيين قد سرى في الصين سريان النار ، ونمت جمعية سياسية ترمى إلى طرد الأوروبيين ، هى جمعية البوكسر^(١) ، التي تحولت إلى العنف في ١٩٠٠ . وكان هذا اندلاعاً للهب الغضب والشر على صورة قديمة الطراز تماماً . ففي سنة ١٩٠٠ قتل البوكسر ٢٥٠ أوروبياً كما قتلوا فيما يقال ما يقارب ٣٠٠٠٠ مسيحي . وكانت الصين ، ولم يكن ذلك لأول مرة في التاريخ ، تحت نفوذ إمبراطورة أرملة . وكانت امرأة جاهلة ، ولكنها كانت على درجة عظيمة من قوة الخلق كما كانت تعطف على البوكسر عطفاً وثيق العرى . فناصرتهم وحثت من تسببوا في الاعتداء على الأوروبيين . وكان كل ذلك هو ما عسى أن يحدث إزاء الهون في ٥٠٠ ق . م أو ما يقاربها .

ووصلت الأمور إلى أزمة في ١٩٠٠ . فإن البوكسر تزايد خطرهم وتهديدهم

(١) عن البوكسر وجميع شئون آسيا والصين انظر للمترجم : « آسيا والسيطرة الغربية » تأليف السردار بانيكار طبع دار المعارف لوزارة الثقافة والإرشاد . (المترجم)

للأوروبيين في الصين . واتخذت محاولات ترمي إلى إرسال حراس إضافيين إلى السفارات الأوروبية في بيكين ، ولكن لم تكن لذلك من نتيجة إلا التعجيل بتفاهم الامور . فإن الوزير الألماني^(١) قد قتله بالرصاص في شوارع بيكين جندى من الحرس الإمبراطورى . واجتمع بقية الممثلين الدبلوماسيين الأوروبيين ، وجعلوا من السفارات التى كانت ذات موقع أنسب وأحسن من غيرها - حصناً وقاموا حصاراً دام شهرين . ومن ثم سُيرت على بيكين قوة متحدة متحالفة بقيادة جنرال ألماني ، وخلصت السفارات مما كانت فيه ، وفرت الإمبراطورة إلى سيان فو ، وهى عاصمة تاي تسونج القديمة في شانسى . وارتكب بعض الجنود الأوروبيين فظائع خطيرة في السكان المدنيين الصينيين وهذا يرجعنا إلى قرابة مستوى ١٨٥٠ ، على وجه التقريب .

ثم قامت روسيا عقب ذلك بضم منشوريا إليها ... ثم نشب نزاع بين الدول . ثم غزو بريطاني في ١٩٠٤ لبلاد التبت ، وكانت حتى ذلك الحين قطراً محرمًا . ولكن الشيء الذى لم يظهر على سطح هذه الأحداث ، والذي جعل كل هذه الأحداث مختلفة اختلافاً جوهرياً ، إنما هو أن الصين كانت تحتوى آنذاك على عدد ضخم من الناس المقتدرين الذين تعلموا تعليماً أوروبياً وألموا بالعرفان الأوربي .

وهذأت فتنة البوكسر ، ثم أخذ سلطان هذا العامل الجديد يظهر في الحديث عن إنشاء دستور ١٩٠٦ ، وفي منع تدخين الأفيون ، وفي الإصلاحات التعليمية . وظهر إلى عالم الوجود في ١٩٠٩ دستور على الطراز الياباني ، يجعل الحكم في الصين ملكياً مقيداً . ولكن الشعب يابى أن تُصَبَّ الصين في قالب ياباني ، ومن ثم فقد استمرت الحركة الثورية . وكانت اليابان قد عمدت أثناء معاودتها تنظيم شئونها تمشيًا منها مع مزاجها الخاص ، إلى تحويل وجهها إلى الغرب ذى النظام الملكى ، ولكن الصين كانت تنظر عبر المحيط الهادى . وفي ١٩١١ اندأّت الثورة الصينية الجهورية . وفي ١٩١٢ تنازل الإمبراطور عن العرش وأصبح أكبر مجتمع في العالم جمهورية . وكان خلع الإمبراطور هو في الوقت ذاته خلع أسرة مانشو ، ولم تعد

(٢) والوزير الألماني هو البارون فون كتلر وقتل معه أيضاً مستشار السفارة اليابانية . (المترجم)

الضفيرة المغولية التي كان يرسلها الصينيون منذ ١٦٤٤ شيئاً إلزامياً على الناس .

ومن الراجح أنه في هذا الزمن الراهن يوجد ببلاد الصين من المادة الذهنية المتعلقة بالحيدة ومن الرجال المخلصين الذين يشتغلون في صبغ الحضارة الصينية بالصبغة العصرية وإعادة تنظيم تلك الحضارة عدد أكبر مما قد نراه موجهاً لمصلحة أى شعب أوربي بمفرده . وسوف يكون للصين للفور كتابة عصرية عملية وصحافة وجامعات عصرية جديدة عفية ، ونظام صناعي قد أعيد تنظيمه ، ثم هيئة نامية من الباحثين في العلم والاقتصاد ، وسوف يطلق سراح ما ركب في شعبها الهائل من الاجتهاد الطبيعي والمهارة الفطرية حتى يتعاون على قدم المساواة مع العالم الغربي .

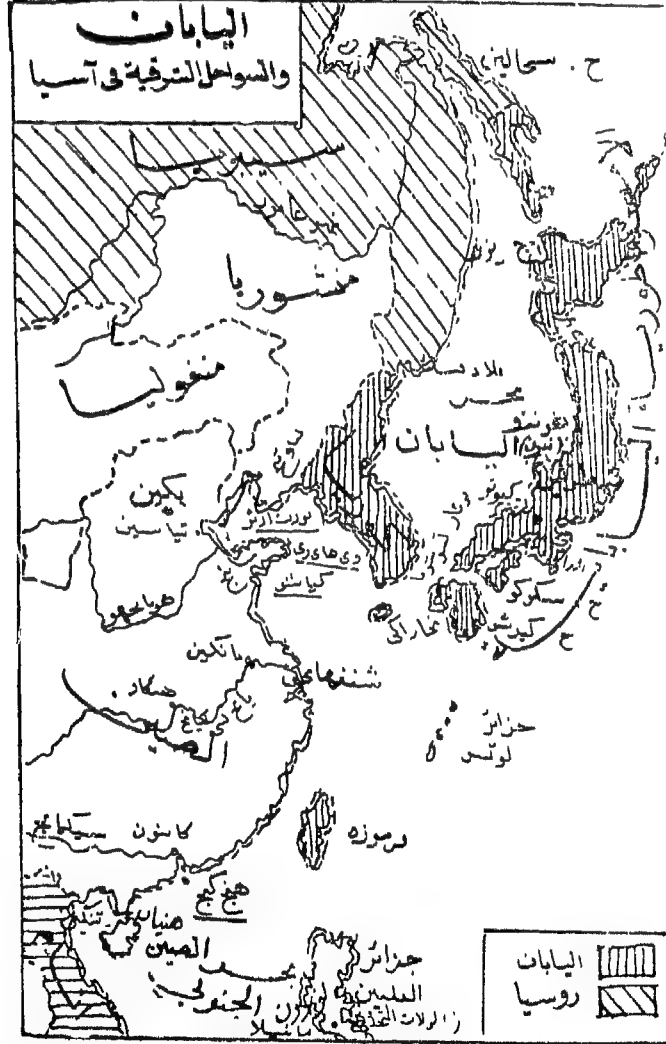
نعم ما يزال أمامها بعد صعاب داخلية عظيمة ؛ وهو أمر لا يستطيع إنسان أن يقضى فيه برأى . ولا مندوحة من مرورها في دور حرب أهلية وفتنة . ومع هذا فقد لا يكون بعيداً ذلك الزمان الذي تصبح فيه « الولايات الصينية المتحدة » يداً واحدة مع الولايات المتحدة الأمريكية ومع أوروبا المتساملة المتصالحة ، وتكون معواناً في إقامة السلام المنظم في العالم .

١٤ - تاريخ اليابان

غير أن القطر السابق الى الانتعاش بين الشعوب الآسيوية لم يكن مع ذلك هو الصين بل اليابان . وقد تعجلنا مسير قصتنا حين تحدثنا عن الصين . ولم تلعب اليابان حتى الآن إلا دوراً صغيراً في هذا التاريخ ؛ فإن حضارتها المنعزلة لم يتهيأ لها أن تقوم بنصيب كبير في الصوغ العام لمصائر البشرية ؛ وقد تلقت من الدنيا الشيء الكثير ، ولكنها لم تعطها إلا قليلاً . ولعل السكان الأصليين في الجزائر اليابانية كانوا شعباً شمالياً له وشائج نوردية بعيدة ، وهم الأينو (Ainu) المشعرون . ولكن اليابانيين الأقحاح إنما ينتسبون إلى العنصر المغولي . وإنهم ليسهبون من الناحية الجثمانية الأمرنديين (Amerindians) (أى الهنود الأمريكيين) ، وهناك أوجه شبه غريبة بين خرف اليابان قبل التاريخ وكثير غيره من الأشياء وبين ما يماثلها من المنتجات المصنوعة في

١٣٦٧

يرو. وليس من المستبعد أنهم يمثلون انسياً إلى الخلف متراجعاً عن تيار ثقافة العصر الحجري الحديث (النيوليثي) في مسيرها عبر المحيط الهادي، ولعلهم امتصوا كذلك من الجنوب عنصراً من الملايو أو حتى عنصراً من النجريتو^(١).



(شكل ٢٠٦)

(١) النجريتو : أو النجريتو : شعب متأخر من الأقزام يسكن شبه جزيرة الملايو وجزائر الفيليبين . (المترجم)

ومهما يكن أصل اليابانيين ، فليس ثمة شك في أن مدنيهم ، وأن كتابتهم وأن تقاليدهم الأدبية والفنية مشتقة من الصينية . كانوا أخذوا ينفضون عنهم غبار الهمجية في قرنى الحقبة المسيحية الثانى والثالث ، وكان من أقدم أعمالهم — بوصفهم شعباً — خارج بلادهم ، غزوهم لبلاد كوريا تحت حكم ملكة متطرفة التعصب في وطنيتها ، يلوح أنها لعبت دوراً كبيراً في تأسيس حضارتهم . وتاريخهم شائق رومانسى ؛ فإنهم طوروا نظاماً إقطاعياً وتقاليداً للفروسية ، وما هجماتهم على كوريا والصين إلا معادل شرقى لحروب الإنجليز في فرنسا .

وقد حُملت اليابان لأول مرة على الاتصال بأوروبا في القرن السادس عشر . إذ حدث في ١٥٤٢ أن بعض البرتغاليين وصلوا إلى برها في سفينة صينية ، وفي ١٥٤٩ شرع مبشر يسوعى اسمه فرانسيس زافير يقوم بالتبشير هناك . وتقول بيانات اليسوعيين في ذلك الزمان أن بلادهم بلاد خربت الحروب الإقطاعية المستديمة تخريباً كبيراً . وظلت اليابان ردحا من الزمان ترحب بالعلاقات مع أوروبا ، واستطاعت الإرساليات المسيحية أن تدخل في الدين المسيحي عدداً كبيراً من الناس . وأصبح شخص بعينه اسمه وليم آدمز من جلنجهام في كنت ، أوثق مستشار أوربى تطمئن له نفس اليابانيين ، وهو الذى علمهم كيف يبنون السفن الكبيرة . وقام اليابانيون بسفن مبنية في اليابان برحلات إلى الهند وبيرو .

ثم نشأ شقاق معقد بين الدومينيكيين الأسبان واليسوعيين البرتغاليين . وبين البروتستانت الإنجليز والهولنديين ، وكان كل يحذر اليابانيين من خُطط الآخرين السياسية الخبيثة . وابتسم الحظ يوماً لليسوعيين وأتاح لهم دوراً من أدوار التسلط والفوز على منافسيهم فعمدوا إلى اضطهاد البوذيين وإهانتهم في شئء كثير من الشراسة . واشتبكت هذه الفتن مع منازعات الزمان الإقطاعية . وانتهى اليابانيون إلى الحكم بأن الأوربيين ومسيحيهم آفة لا تطاق ، وأن المسيحية الكاثوليكية بوجه خاص ليست إلا مجرد ستار يخفى وراءه أحلام البابا السياسية وأحلام ملك أسبانيا السياسية — الذى كان يملك من قبل جزائر الفلبين ، وحدث اضطهاد حاسم عظيم للمسيحيين ؛ وفي ١٦٣٨ أصبحت اليابان مقفلة إقفالاً تاماً في وجوه الأوربيين

باستثناء مصنع هولاندى تعس على جزيرة ديشيا الضئيلة فى ميناء نجازاكى ، وظلت مقفلة زماناً يربى على مئى سنة .

وتعرض الهولنديون القاطنون ديشيا لإهانات لا تكاد تطاق ولم يكونوا يتصلون بأى يابانى اللهم إلا الموظفين المختصين المعينين للتعامل معهم . وظل اليابانيون قرنين من الزمان منقطعين تمام الانقطاع عن بقية العالم كأنما كانوا يعيشون على ظهر كوكب آخر . وكان محظوراً عليهم أن يبتنوا فلكا يكبر عن محض زورق ساحلى . ولم يكن فى مستطاع أى يابانى أن يسافر إلى الخارج ، ولا أى أوروبى أن يدخل البلاد .

وظلت اليابان قرنين وهى بمنأى عن تيار التاريخ ومجراه الأكبر . وقد واصلت العيش فى حال من الإقطاع الجذاب تنعشها المنازعات الدموية . وكان فيها جماعة من السكان يقاربون الخمسة فى المئة هم الساموراي (أعنى رجال الحرب) والنبلاء وعائلاتهم ، يظلمون سائر السكان ظلماً فاحشاً لآحد له . وكان العامة جميعاً يجثون كلما مر بهم أحد من النبلاء ؛ فإن إبداء الرجل أبسر قدر من عدم الاحترام للنبيل معناه أن يضربه « ساموراي » أى جنود ذلك النبيل بالسياط إلى أن يقضى نحبه . وكانت الطبقات الممتازة تعيش عيش المغامرات الرومانسية التى لا يتسرب إليها أى شعاع من الجدة ينقلها مما هى فيه من إملال ؛ كانوا يعشقون ويتقاتلون ويتمسكون بضروب من فعال الشرف المتارة — ولعل ذلك كان يدخل أشد السامة إلى أذهان الأذكياء منهم . ومن اليسير علينا أن نتصور تعاسة الذهن الطلعة ، حين يعذبه الشوق إلى الرحلة والمعرفة وهو مصفد بالأغلال فى تلك جزائر الرومانس الجوفاء .

وفى نفس الحين كان العالم الكبير فى الخارج يسير قُدماً نحو رؤى أرحب وقوى أحدث . وتكاثر عدد السفن العجيبة التى تمر برووس الأراضي اليابانية الممتدة فى البحر ، وكانت بعض السفن تتحطم فى بعض الأحيان ويحمل ملاحوها إلى الشاطئ . وعن طريق ديشيا الحلقة الوحيدة التى تصلهم بالعالم الخارجى ، جاءتهم النذر تقول إن اليابان لا تسير قوة العالم الغربى . وفى ١٨٣٧ دخلت خليج يدو سفينة رافعة علماً غريباً من الخطوط والنجوم ، تحمل بعض بحارة يابانيين التقطهم

١٣٧٠

وقد قذف بهم التيار بعيداً في المحيط الهادى . وأطلق الساحل على السفينة قذيفة مدفع طردها خارج الميناء .

وسرعان ما عادت هذه الراية إلى الظهور على سواري سفن أخرى . جاءت إحداها في ١٨٤٩ للمطالبة بإخلاء سبيل ثمانية عشر ملاحاً أمريكياً تحطمت بهم سفينتهم . ثم وصلت في ١٨٥٣ أربع سفن أمريكية بقيادة القومودور پرى perry ، ورفضت أن تنسحب وألقى القومودور مراسيه في مياه محظورة ، وأرسل الرسائل إلى الحاكمين اللذين كانا آنذاك يشتركان في حكم اليابان . وفي ١٨٥٤ عاد ومعه عشر سفن مدهشة يدفعها البخار ، وهى مزودة بالمدافع الضخام ، فقدم مقترحات يطلب بها التجارة والتبادل والتواصل . ولم يكن لليابانيين قبْلُ بمقاومتها . ونزل إلى البر يحف به حرس مكون من خمسمئة رجل لكى يوقع المعاهدة . واصطفت الجاهير وهى بين مصدق ومكذب ووقفت ترقب هذه البعثة الوافدة من العالم الخارجى وهى تشق الشوارع .

ثم قفت روسيا وهولنده وبريطانيا خطوات أمريكا . ودخل الأجانب إلى بلاد اليابان وتبع ذلك وقوع المنازعات بينهم وبين الأذكىاء من سرة اليابان . فقتل أحد الرعايا البريطانيين في إحدى مشاجرات الشوارع ، وأطلق البريطانيون مدافعهم على إحدى المدن اليابانية في ١٨٦٣ . ورأى أحد كبار النبلاء الذى تستشرف أملاكه مضيق شيمونوسيكي ، أن من المناسب أن يطلق النار على السفن الأجنبية ، فكان عاقبة ذلك أن قام أسطول ثان مكون من سفن بريطانية وفرنسية وهولندية وأمريكية بقذف بطارياته بالقنابل وتدميرها وتشتيت شمل سائفته . وأخيراً جاءت عمارة بحرية متحالفة (١٨٦٥) فألقت مراسيها خارج أوساكا ، وفرضت على اليابان التصديق على المعاهدات التى فتحت أبوابها للعالم .

وكان تخيير هذه الأحداث وإذلالها لليابانيين شديداً حاراً ، ويظهر أن خلاص الشعوب ينحصر إلى حد كبير في هذه الإهانات . فقام اليابانيون قومة تجلى فيها العجب العجائب من النشاط والذكاء ونصبوا أنفسهم لرفع ثقافتهم ونظامهم إلى مستوى الدول الأوروبية . ولم يحدث قط في التاريخ الإنسانى بأجمعه أن خطا شعب

خطوة كالتى خطاها الشعب اليابانى يوم ذاك . ذلك أنها كانت فى ١٨٦٦ شعباً ينتمى إلى القرون الوسطى ، وكانت صورة هزلية مضحكة للنظام الإقطاعى الرومانسى المتطرف . وفى ١٨٩٩ كان شعبها قد أمسى شعباً تام الاصطباغ بالصبغة الغربية ، على قدم المساواة مع أشد الدول الأوربية تقدماً ، بينما كانت تسبق روسيا بمراحل كثيرة . فأزالت من الأذهان تماماً ذلك الاعتقاد القائل بأن آسيا متأخرة عن أوروبا بطريقة قاطعة ، تأخراً لارجاء فى إصلاحه . كما أن جهودها الجبارة جعلت التقدم الأوربى يبدو - بالمقايسة - متوانياً عارضاً .

ويضيق المقام هنا عن الاسباب فى ذكر وقائع حرب اليابان مع الصين فى ١٨٩٤ - ١٨٩٥ . وبحسبك أن تعلم أنها كشفت عن مدى إصطباغها بالصبغة الغربية . فكان لها جيش غربى ذو كفاية وتدريب ، وأسطول سليم التكوين وإن يكن صغيراً . ولكن أهمية نهضتها ، وإن كانت تقدرها بريطانيا والولايات المتحدة حق قدرها ، وهما الدولتان اللتان كانتا تعاملانها بالفعل كأنما هى دولة أوربية ، لم تفهمها الدول الكبرى الأخرى المشتغلة بالبحث عن « هند » عظيمة أخرى فى قارة آسيا . فكانت روسيا تشق طريقها دفعا خلال منشوريا إلى كوريا ، وكانت فرنسا قد وطدت بالفعل أقدامها فى الجنوب الأقصى فى تونكين وأنام ، وكانت ألمانيا ترصد ترصد الجياح بحثا عن مستقر تركز إليه . واتحدت الدول الثلاث لمنع اليابان من اجتناء أية ثمرة من الحرب الصينية ، ولمنعها بوجه خاص من توطيد أقدامها على أرض القارة والمناطق المطلة على بحر اليابان . وكانت الحرب مع الصين استنفدت قواها ، فهددوها بإعلان الحرب عليها

وفى ١٨٩٨ أطبقت ألمانيا على الصين ، متخذة من مقتل اثنين من المبشرين ذريعة ، وضمت إليها جزءاً من مقاطعة شان تونج . وعند ذلك استولت روسيا على شبه جزيرة لياوتونج ، وانتزعت من الصين قسراً قبولها مد خط سكة حديد سيبيريا إلى بورت آرثر ، وفى ١٩٠٠ احتلت منشوريا . ولم تستطع بريطانيا أن تقاوم النزوع إلى المحاكاة ، فاستولت على ميناء واى هاى واى ١٨٩٨ .

وإن نظرة واحدة إلى الخريطة لتدلك كم كانت هذه الحركات مجلبة للفرع في قلب كل ياباني ذكى الفؤاد . ولم تلبث تلك الحركات حتى أدت إلى حرب مع روسيا تأذنت بحقبة جديدة في تاريخ آسيا ، هي حقبة انتهاء فترة العجرفة الأوربية . ومن البديهي أن الشعب الروسى لم يكن له علم ولا جريرة في هذه التدابير التى كانت تُصنع له في تلك الشقة السحيقة من العالم ، وكان رجال السياسة الروسون الأكثر حكمة واتزاناً يناهضون هذه الضربات الحمقاء ، ولكن عصابة من المغامرين المالين كانت تحيط بالقيصر ؛ من بينهم بعض الغراندوقات من أبناء عمومته . وقد غرقوا حتى الأذقان في مقامرتهم التى يرمون بها إلى نهب منشوريا والصين ، ومن ثم لم يسمحوا لأنفسهم بأن يتراجعوا عن خطتهم أذى تراجع . ومن ثم شرعت اليابان في إرسال الجيوش الجراراة من الجنود اليابانية عبر البحر إلى بورت آرثر وكوريا ، ونهضت روسيا لإرسال عدد لا حصر له ولا نهاية من أحمال القطارات المثقلة بالفلاحين الروسين على طول خط سكة حديد سيبيريا لكى يموتوا في ميادين القتال النائية هذه .

وهزم الروسون في البر والبحر على السواء لما كانوا عليه من سوء القيادة وعدم الأمانة في التموين بالميرة والذخيرة . ودار أسطول روسيا بالبلطيق حول إفريقيا لكى يُحطم عن آخره في مضيق تسوشيا . وقامت حركة ثورية بين العامة من سكان روسيا الذين أحقتهم هذه المذابح الجسيمة التى لا مبرر لها ، فأجبرت القيصر أن ينهى الحرب في (١٩٠٥) ؛ فرد النصف الجنوبي من جزيرة سخالين التى استولت عليها روسيا في ١٨٧٥ ؛ وأُخلى منشوريا وتنازل عن كوريا لليابان . فالرجل الأبيض قد شرع بذلك ينفض عن نفسه عبأه وتبعته في آسيا الشرقية . وظلت ألمانيا مع هذا تمتلك كياوتشاو امتلاكاً قلقاً غير مطمئن .

١٥ - ختام فترة التوسع وراء البحار

لاحظنا آنفاً كيف أن مغامرة إيطاليا في الحبشة صُدت في معركة عدوة الرهبة في ١٨٩٦ ، التى قتل فيها ما يربى على ثلاثة آلاف إيطالى وأخذ فيها أكثر من أربعة

آلاف أسير . وكان دور التوسع الاستعماري على حساب الدول المنظمة غير الأوروبية قد أخذ يدنو من خاتمته دنوآً بينآً . وهو دور ورط الشئون السياسية والاجتماعية لكل من بريطانيا العظمى وفرنسا وأسبانيا وإيطاليا وألمانيا والروسيا التي تحمل ما يكفيها من التعقيد والعُسر ، وشبكها بشئون أُم غربية متكرهة غير قابلة للتمثيل . فاستولت بريطانيا على مصر (وإن لم تلحقها بها حتى ذلك الحين رسمياً) ، والهند وبورما وعدداً من تلك المشاكل الصغرى أضراب مألطة وشنغهاى ؛ وأبهزت فرنسا نفسها بتونكين وأتأم بالإضافة إلى الجزائر وتونس ؛ واشتبكت أسبانيا حديثاً في بلاد مراكش ؛ وخلقت إيطاليا لنفسها المتاعب بطرابلس ؛ وكان الاستعمار (الإمبريالية) الألماني وراء البحار وإن بد مركزه « تحت الشمس » هزيلا — يعلل النفس بقدر جهده بفكرة القيام في المستقبل بحرب مع اليابان على تياوتشاو .

وكانت كل هذه الأراضي « المحكومة » تضم سكاناً على مستوى من الذكاء والتعليم لا يقل إلا قليلاً جداً عن مستوى القطر الممتلك ، وكان تطور الصحافة الوطنية والوعى الذاتي والحشدي والمطالبة بالحكم الذاتي ، أمراً لا محيص منه في كل حالة من هذه الحالات ، وكان رجال السياسة والتدبير في أوروبا في شغل شاغل بالحصول على هذه الإمبراطوريات ، حتى لم تكن لديهم فكرة صحيحة عما ينتوون أن يفعلوه بها عند حصولهم عليها .

إن الديمقراطية الغربية اكتشفت أثناء استيقاظها إلى ضياء الحرية أنها دول « استعمارية » ، فأربكها ذلك الاكتشاف كل الارتباك . وكان الشرق يفد إلى عواصم الغرب حاملاً طلبات محيرة . ففي لندن أخذ الرجل الانجليزى العادى وهو أشد ما يكون شغلاً بالاضطرابات والألغاز الاقتصادية ومسائل التأمين الحكيم المحلى والتأمينات المحلية وإقامة اللا مركزية ، يجد من يقطع عليه الطريق ومن يغشى إجتماعاته العامة من عدد جم متزايد الكثرة من رجال ظاهرى الدماعة مهذبين ، رجال سمريرتدون الطرايش والعائم وأنواعاً أخرى عجيبة من لباس الرأس ، وكلهم يقول ما معناه الواقعى « لقد استحوذتم علينا . والرجال الذين يمثلون حكومتكم قد حطموا حكومتنا ، وهم يحولون بيننا وبين إنشاء حكومة جديدة . فاذا أنتم فاعلون بنا ؟ ... »

١٦ - الإمبراطورية البريطانية في ١٩١٤

ربما جاز لنا الآن أن نلاحظ في إيجاز تام الطبيعة الشديدة الاختلاف للأجزاء التي كانت تتكون منها الإمبراطورية البريطانية في ١٩١٤ . فلإنها كانت وما تزال خليطاً سياسياً فريداً في نوعه تماماً . إذ لم يظهر على وجه البسيطة قط شيء من قبيلها . فهي شيء جديد في التاريخ السياسي ، كما أن الولايات المتحدة شيء جديد فيه أيضاً . وهي شيء أكبر وأشد تعقيداً من أي دولة من تلك الدول القومية المذهب أضراب فرنسا وهولندا والسويد .

وكانت الدولة الأولى والمركزية في تلك المجموعة بأسرها هي « الجمهورية المتوجة » أي المملكة المتحدة البريطانية ، المحتوية على لارلندا (على غير إرادة فريق جسيم من الشعب الإيرلندي) . وكانت الأغلبية في البرلمان البريطاني ، وقوامه البرلمانات الثلاثة المتحدة لاجلثة واسكتلندا وإرلندا ، هي التي تحدد رئاسة الوزارة وصفتها وسياستها ، ويكون ذلك التحديد إلى حد كبير ، بناء على اعتبارات تتصل بالسياسة البريطانية الداخلية . وهذه الوزارة هي الحكومة العليا الفعالة ، وبين يديها سلطات تخولها التصرف في السلم والحرب على سائر أجزاء الإمبراطورية جميعاً .

وكان يلي هذه الولايات البريطانية في الأهمية السياسية ، « الجمهوريات المتوجة » ، أستراليا وكندا ونيوفونلند (أقدم مملكة بريطانية ١٦٨٣) - ونيوزيلندا وجنوب إفريقيا ، وكلها دول مستقلة تقريباً تحكم نفسها بنفسها وهي متحالفة مع بريطانيا العظمى ، على أن بكل منها ممثلاً للتاج تعينه الحكومة التي في الحكم . ثم تجيء بعد ذلك الإمبراطورية الهندية وهي امتداد للإمبراطورية المغولية الأعظم ، وتمتد الآن بما فيها من ولايات تابعة ومحمية ، من بلوخستان إلى بورما كما تضم عدن . ولكن التاج البريطاني في كل أرجاء تلك الإمبراطورية ، ووزارة الهند (تحت الرقابة البرلمانية) يقومان في كل هذه الإمبراطورية بدور الأسرة الزمكية الأصلية .

ثم تجيء مملكة مصر الغامضة الوضع ، وهي ما تزال من الناحية الإسمية جزءاً

من الإمبراطورية التركية ، وما تزال تحتفظ بعاهلها الخاص وهو الخديو ، ولكنها تحت حكم الموظفين البريطانيين الذى يكاد يكون استبدادياً . وليلحظ القارئ أن مصر جعلت مملكة شبه مستقلة « متحالفة » مع بريطانيا فى ١٩٢٢ . ثم تأتى ولاية السودان المصرى الانجليزى التى مركزها السياسى هو أشد غموضاً ، التى يحتلها ويحكمها الحكومتان البريطانية والمصرية مشتركتين .

وتم عدد من المجتمعات التى تحكم نفسها حكماً جزئياً ، ومنها ما هو بريطانى الأرومة ومنها ما هو غير بريطانى ، ولها مجالس تشريعية منتخبة وهيئات تنفيذية معينة ، أمثال جامايكا وجزائر الباهاما وبرمودا ومالطة . وقد أعلن فى يونية ١٩٢٠ دستور مالطى جديد أكثر تحررية ، ويكاد يضع مالطة فى مستوى مستعمرة تحكم نفسها بنفسها .

ثم إن هناك مستعمرات التاج ، التى يكاد فيها حكم الحكومة البريطانية الأصلية فى بريطانيا (بواسطة وزارة المستعمرات) يقارب الحكم المطلق ، كما فى سيلان وترينيداد وفيجي (وفيها مجلس يؤخذ أعضاؤه بالتعيين) ، وجبل طارق وسانت هيلانه (ويحكمها حاكم) ؛ ثم مناطق عظيمة من أراضى مدارية (فى معظم الأمر) ، وهى مناطق تنتج المواد الخام ولها مجتمعات من الوطنيين ضعيفة سياسياً وناقصة فى المدنية ، كانت من الناحية الأسمية محميات ، وكان يديرها إما مندوب سام ينصب فوق الرؤساء الوطنيين كما هو الحال فى باسوتولاند ، أو من فوق شركة ذات مرسوم كما هو الحال فى روديسيا . وكانت وزارة الخارجية فى بعض الحالات أو كانت وزارة المستعمرات فى بعض الحالات أو وزارة الهند فى بعض الحالات ، هى الوزارة ذات الشأن فى الاستحواذ على الممتلكات التى تقع تحت هذا الصنف الأخير الذى هو أقل الأصناف تحديداً ، ولكن وزارة المستعمرات كانت فى معظم الشأن هى المسئولة الآن عنها . .

وعلى هذا فن الجلى أنه ما من وزارة بمفردها وما من عقل بمفرده قد تفهم قط الإمبراطورية البريطانية فى مجملها . كانت خليطاً من الفئات والتجمعات يختلف باختلافاً كلياً عن أى شئ سُمى من قبل باسم إمبراطورية . وكانت تضمن للناس « سلباً » مترامى الأطراف وأمنة شاملة ؛ فن أجل ذلك يعينها ويناصررها ويحتملها كثير

(شکل ۲۰۷)

من رجال الشعوب « المحكومة » — بالرغم مما يقاسون من استبداد الموظفين وإعواضهم في الكفاية وعظيم التهاون والإهمال الذي يبديه جمهور بريطانيا في « أرض الوطن » .

وشأن هذه الإمبراطورية هو شأن « الإمبراطورية الآتينية » ، قديماً ، من حيث أنها إمبراطورية تمتد وراء البحار ؛ طرقها هي الطرق البحرية ، ورباطتها المشتركة هي الأسطول البريطاني . وتماسكها شأن كل الإمبراطوريات يقوم من الناحية التكوينية على وسيلة من وسائل المواصلات . وقد أدى التطور في فن الملاحة البحرية وبناء السفن والسفينة البخارية فيما بين القرن السادس عشر والتاسع عشر إلى جعل ذلك السلم وأعنى به « السلم البريطاني Pax Britannica » أمراً ميسوراً مريحاً ؛ وربما أدت التطورات الجلديدة في النقل الجوى أو البرى أو السريع أو في فن الحرب بأعماق البحار إلى جعله أمراً غير مريح أو شيئاً معرضاً للخطر تعرضاً لا مرد له .

١٧ — التصوير والنحت والعمارة

كنا نكتب عبارة « القرن التاسع عشر » لأن ذلك لفظ متداول يسهل علينا استعماله ، ولكن لعل من الجلى لدى القارئ أن فترة هذا الفصل ليست في الحقيقة محصورة بين ١٨٠٠ ، ١٩٠٠ بل بين ١٨١٥ ، ١٩١٤ . ولم تحدث بين هذين التاريخين كوارث ساحقة ولا أزمات قلبية جاثمة . أجل كانت التغيرات البخارية جسيمة جداً في واقع الأمر ، بيد أنها لم تكن تغرات فجائية ولا هي كانت بأى حال نقضاً وعكساً للسيرة العامة للأمور .

وقبل أن نعالج تلك الفتنة العارمة التي ختم بها قرن التقدم والاختراع هذا ، فإن من الخير أن نجرد ثلاثة أقسام للأشكال التي عبر بها الفن عن نفسه . ولقد سبق أن عاجلنا تطور معارفه العلمية وفلسفته السياسية ؛ وسننظر الآن أولاً إلى فن التشكيل والتصوير فيه ، ثم نتجه بأبصارنا إلى حياته الموسيقية ؛ ثم نوجه التفاتنا إلى أدبه الخلاق المعبر .

وتعكس لنا قصة التصوير الأوربي إبان النصف الأول من القرن التاسع عشر صورة التغيرات الإجتماعية في ذلك الأوان . وهو زمان أخذت فيه الطبقة الوسطى

وأعنى بها الطراز التجارى الجاد من الناس تزداد ثروة وأهمية بسرعة فائقة . فكان ذلك زمان أصحاب مصانع أثروا واغتتوا وزمان مالين جُدد أصابوا من التوفيق المالى حظاً كبيراً . وسرعان ما ظهر السكك الحديدية والسفن البخارية والتجارة الخارجية فى مواد الطعام الرئيسية كما ظهرت الثروات المكونة بالمضاربة الناتجة عن هذه الأمور بطريقة مباشرة أو غير مباشرة . وكان يساور الهلاطات الأوربية التى أعيدت إلى الحكم نزوع إلى استرضاء أصحاب هذه الثروة الجديدة والاختلاط بهم . وأمسى الموسرون من أرباب المصانع هم رعاة التصوير والعارة الفخوذجيون ، وكانوا يحاولون أن يدخلوا فى عداد المحتلّمان والسراة . فكانوا يرغبون فى أن تكون لهم الصور التى يعملها المحتلّمان للمحتلّمان ، أكثر مما تشخص أبصارهم إلى احتياز القوة الرائعة أو الجمال الحير . وإن أحدهم ليرغب فى إقتناء صور يستطيع أن يتناول بإزائها طعامه أو يحتسى شايه . وقد امتلأ قلبه بشعور الارتياح والرضا ، كما أنه كان على استعداد أن يبذل فيها المال بسخاء . ومضى عن هذا العالم الفنان الاسبانى المتقلب المدهش جويا (١٧٤٦ - ١٨٢٨) ومصوراً المناظر البرية الإنجليزية العظيم : كونستابل (١٧٧٦ - ١٨٣٧) وترنر (١٧٧٥ - ١٨٥١) ثم دافيد وإنجرس اللذان حدثناك عن كونهما المعبرين عن روح الإمبراطورية الفرنسية ، مضوا جميعاً ولم يبق لهم على ظهر البسيطة من ضريب . على أن التصوير أصبح مهنة رائجة جداً وضخمة جداً . وكانت الأكاديمية الملكية البريطانية والصالون^(١) الفرنسى يقيمان المعارض السنوية للصور المرسومة بغية إدخال اللذة والسرور على الأفتدة ، وكان الفنانون يشترون الدور الكبيرة الفخمة ويعيشون عيش الترف الكريم . بل لقد بلغ أمرهم فى إنجلترا أن أنعم على العديد منهم بلقب سير . وسار النحت فى هذا الاتجاه . ولئن كف تقدير الناس للصور عن أن يكون عميقاً شديد العمق ، فلقد أصبح منتشراً واسع الانتشار . وأوشك الرحيل السنوى إلى لندن « لمشاهدة معرض الأكاديمية » أن يصبح أمراً إلزامياً على جموع كبيرة من الجمهور الإنجليزى .

(١) الأكاديمية البريطانية والصالون الفرنسى : جمعيتان تهتمان بالفنون الجميلة وتقيمان لها

المعارض . (المترجم)

ولكن حدث مع تجاوز القرن لسنه الوسطى ، أن ظهر فى عالم الفن نفس الميل إلى القلق وعدم الاستقرار ، ذلك الميل الذى كان السبب فيما حل بالنظام الدينى والاجتماعى فى أوربا من اضطراب . فى إنجلترا شرع رسكن (١٨١٩ - ١٩٠٠) ووليم موريس (١٨٣٤ - ١٨٩٦) ، ينتقدان خواء الأكاديمية وثفافتها فى الفنون والزخارف المعاصرة انتقاداً كان له تأثير مزعج . وحدث بين رجال التصوير تصدع وانقسامات .

وظهرت مدارس جديدة ، نخص بالتنويه منها أصحاب مذهب « ما قبل رافائيل Pre-Raphaelites » الذين يجدون فى البحث عن السوابق والأساليب فى عمل تلك الأيام القديمة أى قبل أن يصبح التصوير رقيقاً . فولوا وجوههم يظللهم استحسان رسكن وموريس شطر العصور الوسطى ، وأخذوا يصورون صوراً تمثل أبطال الملك آرثر^(١) والعذارى المباركات (Blessed Damosels) . ووجه آخرون منهم من ذوى النفوس الأكثر ثورة أنظارهم إلى العالم المحيط بهم . وظل كوروت (١٧٩٦ - ١٨٧٥) محتفظاً بكل قوة بصيرته طوال سنى الركود تلك . وشهدت فرنسا بعد كارثة (١٨٧٠ - ١٨٧١) وفى عمل الأساتذة من أضراب ديجاز ومانيه ورنوار رجعة كبيرة إلى سوابق رامبراندت وفلاسكوز . ولابد لنا من أن نذكر مع هؤلاء الفرنسيين اسم هويسلر الأمريكى العظيم (١٨٣٤ - ١٩٠٣) . ودب فى الناس وهم لا يكادون يعون - ديب البرم بالصورة المحتشمة ، ثم ظهر طراز من عمارة الدور لم يكن يسمح بترك فراغ من الجدران للصورة الزبئية ذات الإطار . حتى إذا اقتربت تلك الفترة من نهايتها تناقص بشكل محسوس ما تنتجته يد المصور من صور تباع وتعلق على الجدران فى أى موضع كان ، وأخذ المسئولون يوجهون ذلك السيل المنهمر من طلاب الفنون توجيهاً مطرد النجاح - إلى طاب الفنون الزخرفية الأكثر تواضعاً والأقرب إلى النفوس

وظهرت عند محتم القرن التاسع عشر بوادر كثيرة تدل على أن طريقة التمثيل

(١) الملك آرثر : ملك بريطانى قديم وبطل فى الأساطير ، كتب عنه اللورد تينيسون قصة « موت آرثر » نقلا عن أساطير القرون الوسطى . (المترجم)

الدقيق المضبوط قد تخطاها الفن . فاختلفت من البُسط والسُدْف وأقششة الثياب ، الصور التي تمثل الأزهار والأشكال الإنسانية ، وأصبح التمثيل صفة ثانوية خافتة في فني التصوير والنحت . ولقد لاحظنا فيما سلف فترة سابقة تتجه إلى إظهار الواقع أثناء حكم أخناتون في مصر وأخرى في العهد الإغريقي الروماني ، كما لاحظنا كيف انحدر هذا الدور الأخير سريعاً إلى الجمود وقلة العمق والرمزية في الآثار البيزنطية والقوطية كما تحول إلى الطريقة الشكلية والهندسية في الزخرفة الإسلامية . وقبل ذلك بكثير حدث أن الروح التأثرية (الانطباعية Impressionism) المشرقة التي ظهرت في العصر الحجري القديم الثاني قد عقبها المذهب الشكلي الذي تجلى في فن العصر الحجري الحديث الأبعد ، وهنا أيضاً نرى الفن في العقدين الأولين من القرن العشرين وهو يغير سبيله وكأنما أصابته كظة فأنحرف عن الواقع صارفاً النظر عن الشكل الخارجى إلى ترسم آثار الحركة ، عائداً من جديد إلى التحليل والرمز . ويبدو أن من المحتمل أن يطرد الفن في سبيله هذا . ومما يعينه الآن كذلك الزيادة في كفاية التصوير الضوئي (الفوتوغرافي) في كل ما يتعلق بالدقة العارضة البهتة . وإن العالم ليضيق ذرعاً بالحقائق غير المهضومة .

وقد افتتح ذلك القرن بدور من أدوار الجمود في العبارة . فإن التقاليد الكلاسيكية التي كان يدعمها غلبة الأدعياء الكلاسيكيين على المدارس ، قد تسلطت شيئاً فشيئاً على التطور الحر لطراز النهضة وصدت بالتدريج تياره ، وكأنني بمعظم العائز الجديدة وقد ران عليها مظهر الأسف على عصر مضى منذ ألفين من السنين ! ! . . . فقد كانت تظهر كل مكان واجهات من الزخارف الحصية^(١) بيضاء معقدة . ثم ظهر - مع النهضة الرومانسية في الأدب ، التي سوف نببحثها من فورنا بإسهاب ، ومع محاولة نابليون ابتعاث روما الإمبراطورية - تحول في التفات هذه الفترة الشديدة الكلف بالتقليد والمحاكاة صوب العصور الوسطى . إذ حدث بعد الانتعاش

(١) الزخارف الحصية (Stucco) : استعيرت هذه الكلمة للدلالة على طراز بذاته أكثر منها على مادة بئنها ، وهي تطلق عادة على النقوش البارزة وأمثالها من زخارف البناء . وهي تصنع من الجبس أو الأسمنت أو لاصوق الجير . (المترجم)

الكلاسيكى انتعاش قوطى تبدت قوته بوجه خاص فى بريطانيا ، وأنتج فيما أنتج من مآثر عظيمة باهرة كثيرة ، دارى البرلمان الحاليين . ثم استعبدت فترة الملكة آن ، التى تميزت بتطور خاص فى طرائق عصر النهضة التى كانت لاتزال قائمة . وإن المهندسين المعماريين فى بريطانيا ليبنون لك قصراً أو داراً على الطراز الكلاسيكى أو القوطى أو الاسكتلندى البارونى أو طراز الملكة آن ؛ فأما الطراز الوحيد الذى لم يظهر على ظهر الأرض البتة فهو طراز القرن التاسع عشر . كان رجال الإنجليز يغدون ويذهبون فى سراويل وقبعات عالية وثياب دكناء بحرصون فيها كل الحرص على أن تكون عصرية محترمة إلى حد كبير ، ولكن بيوتهم ومبانيهم العامة كانت تكسى فى ثياب الماضى الموات الخالى من الروح ، كأنما كانت تهباً لحفلة رقص تنكرية تظللها الكآبة والمقت .

على أنه ظهر فى فرنسا وألمانيا قدر أوفى وأكثر من المبادهة والابتكار فى فن العمارة ؛ فإن طراز « عصر النهضة » كان ما يبرح يعيش ويتطور فى فرنسا . وهناك مسائل شائقة واجهها فن العمارة فى أنواع المباني الجديدة أضراب محطات السكك الحديدية وكبارى السكك الحديدية والمخازن والمستودعات والمصانع وما إليها ، ومع ذلك لم يجرب فيها لإنسان واحد مقدرته بصورة جدية فى أى مكان باستثناء ألمانيا فيما يحتمل . وكان القبح الدال على عدم الكفاية المعمارية هو القاعدة فى إقامة تلك المباني . وكأنما كان اندفاع الاحتياجات الجديدة والمواد الجديدة والفرص الجديدة قد غلب المهندس الممارى على أمره وسلبه شجاعته فى ذلك العصر . ومن أعجب منتجات دور التخوف ذاك وأشدّها دلالة على عصرها قنطرة برج لندن ، التى خلط فيها بين هيكل متين خفيف من الصلب المكسو بالخص وبين لمحات من النحت الحجرى الفلمسكى وبين ذكريات لقنطرة رافعة^(١) من قناطر العصور الوسطى . على أن جميع مباني بريطانيا فى القرن التاسع عشر طافحة بذكريات تاريخ سقيم بال .

وفضلاً عن هذا فإن فن عمارة المنازل انحدر أكثر مما انحدر فن عمارة المباني

(١) القنطرة الرافعة (Drawbridge) قنطرة كانت توضع على الخندق المحيط بإحدى القلاع ونقطة تحركها فى نهايتها ، فإذا أريد إغلاقها رُفِعَ . (المترجم)

العامة إبان شطر كبير من القرن . فإن الزيادة الضخمة في عدد السكان في دول أوروبا وهي الزيادة التي استنفدت قدراً طائلاً من موارد ذلك العصر المزدهرة ، قد أدت إلى زيادة مخيفة في بناء البيوت المنحطة الرتبة حول المدن النامية ، فأقيمت صفوف لا حصر لها من البيوت الصغيرة الوضيعة في بريطانيا ، ومساكن قبيحة في معظم الأقطار الأوروبية الأخرى . ولم يحدث إلا عندما قارب القرن غايته وهبطت نسبة المواليد وظهر أثر السيارة في إعادة توزيع السكان الذين كانوا يتوالدون ويتزاحمون حول محطات سكة الحديد ، - أن ابتعث اهتمام عام بفن عمارة المنازل وأن ظهرت أنماط عصرية لطيفة من الدور الخلوية الصغيرة وبيوت الريف .

وكانت أمريكا قد أنتجت أيام الاستعمار طرازاً من طرز البيوت الريفية ملائماً تمام الملاءمة ، نشأ بوجه أخص في فرجينيا وبلاد الجنوب ، وهو تكييف لفن عمارة البيت الريفي البريطاني طبق الأحوال المحلية ، والبيت الريفي البريطاني نشأ متفرعاً من جذع شجرة النهضة المثمرة . وقد سبق أن أشرنا إلى فضل السير كريس توفرن^(١) على هذا التطور . وفيما عدا هذا المنحى المنزلي لم يكن فن العمارة الأمريكي يزيد في جل شأنه حتى آخريات القرن التاسع عشر عن تصميمات أوروبية منقولة . مثال ذلك أن الكابيتول المقام في واشنطن إنما هو من عمل الفرنسيين . وربما كان من الممكن إقامته في باريس أو بروكسل . وكان الشيء الكبير من مباني المنازل هزيلاً عادياً . وعندما اقتبست بريطانيا نافذة سرائح الزجاج^(١) (Sash Window) احتفظت أمريكا بالنافذة العادية المستعملة في القارة الأوروبية . على أنه حدث والقرن في عقديه التاسع والعاشر ، أن الثروة المتزايدة والاعتماد النامي على الذات في العالم الجديد فجراً ابتكارات معمارية جديدة قوية . فقد شرعت أمريكا في استعمال مباني الفولاذ والزجاج والحرسانة ، استعمالاً تجلى فيه قدر متزايد من الجرأة والنجاح . وكان من أثر هذه المواد واختراع « المصعد » وإحكامه أن أصبح من الميسور بناء مبان

(١) نافذة سرائح الزجاج : هي نافذة ذات فرواز بصعد وينزل تمييزاً لها عن النافذة العادية (Casement Window) التي تنفتح وتنغلق على مفصلات وهي الموجودة بجميع المنازل العصرية . (المترجم)

ذوات لارتفاع واتساع ليس لها مثيل سابق . ففي ١٨٧٠ لم يكد يكون هناك شىء اسمه فن العمارة الأمريكى ، ولكن عندما حلت ١٩١٠ كانت أمريكا قد سبقت كل قطر آخر فى العالم بمراحل فيما تجلى بمبانيها من جدة وجرة . وبرزت ألمانيا فترة أثناء ذلك . وتبرز أسماء ريتشاردسون (١٨٣٨ - ١٨٨٦) وستانفوردويت (١٨٥٣ - ١٩٠٦) بين أسماء المهندسين المعماريين الأمريكيين فى هذا العهد الجديد .

فلى أمريكا القرن العشرين يجب أن تشخص الأبصار لترى التعبير التدرىجى عن القوى والموارد الحديدية التى كشفها القرن التاسع عشر لأنظار الإنسانية ممثلاً فى البناء وإعداد المنازل . وربما جاز لنا بالعلاقة إلى هذا التطور فى فن العمارة أن نعلم أيضاً على تطورات أخرى جديدة بالتنويه فى النحت والتصوير والفسيفساء (الموزايكو Mosaic) وفى فنون الزخرفة عامة . ولسوف تكون فى تلك القارة الفرصة الكبرى ، والثروة الكبرى وحرية الفكر الكبرى .

١٨ - الموسيقى فى القرن التاسع عشر

سار فيض الخلق والإبداع الموسيقى الذى اطرء إبان القرن الثامن عشر فى طريقه الطبيعى دون أن يلتقى شيئاً يذكر من الموانع أو العراقيل طيلة فترة هذا الفصل . وقد سبق أن ذكرنا أسماء موزار وبيتهوفن بوصفهما كوكبين بلغا الذروة بالقرن الثامن عشر . ويحملنا بيتهوفن قُدماً إلى صميم القرن التاسع عشر ، ولا بد لنا من أن نذكر بإزائه معاصره ويبر (١٧٨٦ - ١٨٢٦) وهو رجل أخذ نفسه بالتجريب والابتكار وله فيهما صولات ذات أهمية جوهرية ، ثم خلف بعدهما بقليل شخصيات جليلة القدر منها شوبرت (١٧٩٧ - ١٨٢٨) ومندلسون (١٨٠٩ - ١٨٤٧) وشومان (١٨١٠ - ١٨٥٦) . وليس فى استطاعتنا كذلك أن نغفل شأن « كاتدرائيات النغم » لسيزار فرانك (١٨٢٢ - ١٨٩٠) .

وكانت الموسيقى قد أخذت تنتقل رويداً رويداً من موضعها الأول تحت رعاية الملوك والنبلاء إلى صالة العزف^(١) وإلى الاستقامة لأذواق جمهور مهذب تهذيباً

(١) صالة العزف (Concert Hall) قاعة تقام فيها الحفلات الموسيقية للجمهور . (المترج)

خاصاً . وكان هناك إلى جوار الأوبرات عدد متزايد من قطع الغناء والبيانو أنشئت للمنازل المهذبة الأذواق وقطع من موسيقى الرقص للحفلات الاجتماعية . ولم يكن ثمة تقدم مقابل لهذا في الموسيقى الدينية بعد أيام هاندل وباخ . على أن الرعاية الملكية كانت ما تزال ذات أهمية كبرى لمؤلفي ألحان الأوبرات ، وكان بلاطا باقاريا والروسيا بوجه خاص مثابة لنوع جديد من « دراما الأوبرا » ولمفهوم جديد عن رقص الباليه^(١)

ولأنك لتستطيع أن تتأثر في موسيقى ذلك القرن مهمات^(٢) العصر ومصالحه المتزايدة الأفق . فأخذ الملحنون يطلبون موضوعات جديدة وفكرات طريفة وروحاً جديدة يبتغونها في موسيقى العامة من سكان أوروبا الشرقية والشعوب الشرقية .

فاستعمل شوبان الموسيقى البولندية (١٨٠٩ - ١٨٤٩) ، واتخذ ليست (١٨١١ - ١٨٨٦) وجواكيم (١٨٣١ - ١٩٠٧) من المصادر الهنغارية مورداً للوحى بردانه ، وتجاوز برامز (١٨٣٣ - ١٨٩٧) هذا الميدان حين عرج على الهند يطلب مادة يدخلها على ألحانه التي هي بطبيعتها كلاسيكية . وولد فاجنر في ١٨١٣ وتوفي في ١٨٨٣ . فتأثر خطى ووبر ومزق تقاليد الأوبرا الراسخة . فأدخل الروح الدرامية على موسيقى الآلات ووسع مجالها إلى حد بعيد ، وحملها قوة جديدة وعاطفة جديدة . ثم أعقبه بعد ذلك في روسيا تشايكوفسكى (١٨٤٠ - ١٨٩٣) وموسوروجسكى (١٨٣٥ - ١٨٨١) ورمسكى كورساكوف (١٨٤٤ - ١٩٠٨) فكشفوا عن عوالم جديدة من البهجة واللون . وهذا المجال الضيق الذى بين أيدينا لا يسمح لنا بأكثر من الاختصار على ذكر اسم دافوراك التشيكى (١٨٤١ - ١٩٠٤) وأن ننوه بالإقدام الحيوى الذى كان عليه رينشارد شتراوس (الذى ولد في ١٨٦٤) والجمال البهيج لدى ديبوسى (١٨٦٢ - ١٩١٨) . ولم تنتج أمريكا حتى اليوم إلا الشيء القليل من الموسيقى العظيمة المشهورة .

(١) رقص الباليه : سلسلة متقنة من الرقصات تتم على نغمات الموسيقى ، وتمثل فيها الأفعال والشخصيات والشاعر الخ . (المترجم)

(٢) المهمات : هى الموضوعات التى يهتم بها الناس . (المترجم)

ولكن كما أن الولايات المتحدة وثبت فجأة من العدم في العمارة إلى فن العمارة العظيم الذى تهيأ بظهور الأحوال الجديدة ، وأعنى بذلك المبنى الفولاذى والمواد التى لم تسبق تجربتها حتى تسعينات القرن التاسع عشر ، فن المحتمل أن يبرز عن الغرب (أمريكا) فى أى وقت فجر أشكال موسيقية جديدة وتحررات جديدة . ومنذ أمد غير بعيد « والضجيج » ينتقل من أمريكا إلى أوروبا بدرجة متزايدة الارتفاع ولكنه فى بعض الأحيان « ضجيج » مرح كل المرح . وقد أثرت الروح الزنجرية أثرها فى حجرة الرقص وفى قاعات الموسيقى . وليس بمستبعد أن يأتى ذلك اليوم الذى يصبح فيه الأمريكى فى صالة الموسيقى - على الأقل - فخوراً سعيداً بهذا الينبوع الأسود النابع فى الجنوب . على أننا لا نستطيع أن نتحدث ها هنا عن موسيقى الجاز (Jazz) وما يتصل بها من تطورات .

ولسنا بمعادين القول فى الموسيقى فى هذه « المعالم » . والفترة الحالية تتميز بانتشار فسيح المدى لشيء كان فى قديم الزمان امتيازاً لطبقة مثقفة . فإن الحاكي والبيانولا^(١) وجهاز الراديو تجعل العالم بأجمعه ضريباً بخير الملحنين وأعظمهم .

١٩ - نهوض القصة إلى مرتبة الصدارة فى الأدب

إن المجال الذى نجده بين أيدينا الآن أضيق من أن يتسع لأكثر من بيان موجز فى أضيق الحدود وأشدها تبسيطاً عن ذلك الفيض العظيم من النشاط الأدبية التى حاولت القوى الجديدة التى ظهرت فى قرن التوسع ذاك أن تعبر بها عن نفسها . وقد سبق أن عالجنا الأفكار الرئيسية للمؤسسى الاشتراكية ومكوناتها وتأثير النظرية العلمية النامية على الأفكار الدينية والسياسية والاجتماعية . على أنه من المستحيل علينا أن ننى بكامل حقوق الأهمية الدائمة والتأثير المتواصل لمفكرين عمليين عظماء من أضراب آدم سميث (١٧٢٣ - ١٧٩٠) ومالثوس ، (١٧٦٦ - ١٨٣٤) وخلفائهما ، أو لتلك التأملات العميقة النفاذة التى جاد بها شوبنهاور (١٧٨٨ -

(١) البيانولا : هى البيانو الأوتوماتيكي الذى تشغله البدالات ، ويجرب به بعض الناس فى الطرقات . (المترجم)

(١٨٦٠) ونيثشا (١٨٤٤ - ١٩٠٠) في ألمانيا . ثم يحىء هيجل (١٧٧٠ - ١٨٣١) وهو أشبه ما يكون بصنف جذاب مغرٍ يرد في أسفل قائمة أطعمة طويلة جداً . ولا بد لنا من تركه . ولقد انحرف بتيار الفكر العصرى انحرافاً عجيباً جداً ، ولكنه ينتعش من تأثير انحرافه به .

كذلك ليس في طوقنا أن نناقش هاهنا مصادفات الذوق وسخافات التأويل التى جعلت من اللورد بيرون (١٧٨٨ - ١٨٢٤) ذلك الهجاء الركيك الشعر الذى يضم بين جوانحه فلسفة متسكع من رجال المدن ولا يزيد ، - شخصية عظيمة في فكرة القرن التاسع عشر عن الأدب في كل أرجاء أوربا ، كذلك لسنا بواضعين جيته (١٧٤٩ - ١٨٣٢) في كفة الميزان ، وهو من ظل طوال سنين عديدة رب ألمانيا الذهني والجمالى . فلقد فقد تلك المنزل الرفيعة من زمن بعيد بعد أن نثر على العقل الألماني ثروة عظيمة من الآداب والنزعات الكلاسيكية المنقولة . كان عظيماً رشيقياً مجتهداً . وكان هو المصنف النبيل في ميادين الأدب . كما كان بيرون فيها هو **الثائر النبيل**

وقد استهل القرن بتفجر جسيم في ينابيع الشعر ، مجلى في بريطانيا بوجه خاص على أنه كان شعراً يتصف بخصائص مميزة خاصة به ؛ إذ يتجلى فيه إدراك جديد للطبيعة بوصفها على علاقة عاطفية بالإنسان ، وإغفال لا شعورى للعقائد وتعرض مطلق إلى أعمق مسائل الحياة ، وكأنما انفلت الشاعر وهو لا يكاد يشعر من صلب المعتقدات المقررة المعتنقة إلى عالم طليق . وإن لقصائد هذا الدور عامة للمسة قصصية وبما رقت في بعض الحين فأصبحت نسيماً هفهاً - وإنها لمتهادى وعليها من الرشاقة وحب الجدل وكثرة التنوع أبراد جميلة زاهية . وأبرز الأسماء في هذا العصر شلى (١٧٩٢ - ١٨٢٢) وكيثس (١٧٩٥ - ١٨٢١) ووردسورث (١٧٧٠ - ١٨٥٠) . ولقد كان ووردسورث بما جبل عليه من روح فنان منوعة الأشكال هو الطائر المغرد بالمذهب التصوفى الحلول الذى يحس إحساساً عميقاً بالله فيما أبدعته يده من طبيعة . وكان شلى أول الشعراء العصرين وأعظمهم . وكان مشيع الذهن بالفكرات العلمية ، وكان إدراكه للسمة الوقتية التى عليها النظم السياسية في زمانه

يسبق كل معاصريه بمراحل عديدة . ثم اطر د الدافع الشعري في انجلترا في الجيل التالى بقدر أعظم من الألحان والجمال وحظ أدنى من التضمينات قصية المرائى على يد تنيسون (١٨٠٩ - ١٨٩٢) ، الذى نال محبة عظيمة من الناس ، وتزلف الملكة فكتوريا ، وكان أول من نال لقب اللوردية من أجل شعره من الشعراء الإنجليز وقصيدته « موت آرثر Morted' Arthur » خليقة أن تقف بازاء فن عمارة ذلك الزمان . ولم تكن شهرة لونجفيلو (١٨٠٧ - ١٨٨٢) راجعة إلى أنه كان الكفو الأمريكى لتنيسون قدر ما تعود إلى أنه الترجيع الأمريكى لصوته .

وارتقى الشكل المسمى بفن القصة الثرى - متطوراً على درجة أعظم بطناً وفي وجه معارضة وتثبيط من الهيئات المدرسانية^(١) والأكاديمية^(٢) والنقدية - فسمياً شيئاً فشيئاً حتى أصبح والشعر بمنزلة سواء ثم ما لبث أن استعلى عليه . وكان ذلك الشكل هو ما كان الناس يقرأون حقاً وهو الشئ الذى يطلبه الزمان . وأخذ الكتاب الثرى العظيم المتحدث عن الحياة ، والذى يخالط التسلسل القصصى مادته ، والذى تسلفه من قبل رابليه ونهض به ما أنتجه فيلدنج وسترن من روايات غير مطردة السياق ، - يبرز في مهل إلى حال من الاكتمال وإلى منزلة اعتراف الناس به مع تقدم الزمن بالقرن . ومع اطراد نموه طولاً وقوة ظهرت إلى جواره الرواية القصيرة والأقصوصة^(٣) .

وكانت القصص الأولى حكايات تصف الحوادث والأخلاق . وترجع بنافانى برنى (١٧٥٢ - ١٨٤٠) إلى عالم الدكتور جونسون . وجاءت جين أوستن (١٧٧٥ - ١٨١٧) تعمل داخل حدود ضيقة ، فواصلت النهوض بتقاليد المرأة فى دقة الملاحظة والمشاهدة معبرة عنها أبرع تعبير . ومن مثل هذا النوع من القصة المعنية بالأخلاق والإحساسات وما يكبلها من أغلال وحدود ، تمضى القصة الإنجليزية فتطمح أغلالها بالتدريج مع تحطيم ذهن ذلك العصر لما كان يحده من أصفاد .

(١) المدرسانية (Scholastic) هيئات التدريس المتحلفة بجامعة القرون الوسطى . (المترجم)

(٢) الأكاديمية : العلمية . (المترجم)

(٣) الرواية القصيرة (Short Novel) الأقصوصة أو القصة القصيرة (Short Story) .

وهناك شخصية عظيمة جداً كبيرة الأثر في توسيع الرواية هي الكاتب الألماني جان پول ريتخر (١٧٦٣ - ١٨٢٥) . فإن قصصه مجرد سمط مُتسلك فيه انحرافات عن السياق مزخرفة مرصعة بالخواهر . وثمة كاتب ألماني كبير هو هيني (١٧٩٧ - ١٨٥٦) . وقد أثر ريتخر في مؤلفات الكاتب الإنجليزي توماس كارليل أعمق التأثير . وعن طريق كارليل اتصل تأثير ريتخر بالجدل غير المطرد السياق تشارلز ديكنز (١٨١٢ - ١٨٧٠) وجورج مرديث (١٨٢٨ - ١٩٠٩) . وكان تاكاري (١٨١١ - ١٨٦٣) وهو المنافس الكبير لديكنز يحمل قراءه ويهم بهم في الأرض ويغمرهم بالفلسف ممسكاً بتلابيبهم على شاكلة أقرب إلى طريقة سترن منها إلى الألمان . وقد أمثل تشارلز ريد في روايته « الدير والبيت »^(١) النزاع الذي ما يزال قائماً بين البروتستانت والكاثوليك في أوروبا في ثانيا قصة رومانسية عظيمة . واكتشف كل من تاكاري وكارليل أن نزوعهما إلى مناقشة الحياة بكثرة قد اقتادها عن أشكال الرواية الصريحة إلى التفسير والتعليق على الأدوار التاريخية . وإن هناك لرابطة طبيعية ضرورية بين الرواية العظيمة ذات الطراز الإنجليزي وبين التاريخ . وكنا كتابا كارليل « الثورة الفرنسية » و « فردريك الكبير » يقرآن كما تقرأ الروايات . وأحرز ماكولي (١٨٠ - ١٨٥٩) نجاحاً باهراً بكتابه : « تاريخ الفترة الاستيوارتية الأخيرة » . والحق إن الذنب في عدم إقبال جمهرة الناس على قراءة التاريخ يقع على عاتق المؤرخين لا الجمهور . فإن أمثال ليتون وإستراتشي وجود اللا وبيلوك من نوابغ كتاب التاريخ محبوبون في إنجلترا وأمريكا كحب مؤلفي الروايات سواء بسواء .

فأما في فرنسا فإن نفس الضرورات والتطلعات التي وسعت الرواية الإنجليزية من مجرد حكاية إلى صورة للحياة وتفسير لها ، قد ألهمت بلزك (١٧٩٧ - ١٨٥٠) إلى القيام بذلك الجهد الجليل « الكوميديا الإنسانية Comédie Humaine » . وبعد بلزك وأدنى منه بمسافة بعيدة يجيء خليفته زولا (١٨٤٠ - ١٩٠٢) ، ويكتب كتابه « طبقات عائلة روجون ماكار Rougon-Macquart cycle » الشبيه بمؤلفات

(١) « الدير والبيت Cloister & the Hearth »

بلزالك ، وهو مجموعة من الروايات تتأثر حظ أسرة فرنسية وفيرة العدد مدى أجيال عديدة . ويقف شخص فكتور هوجو (١٨٠٢ - ١٨٨٥) فريداً في زمانه وهو صاحب ذهن فياض جرى زاهر يبلغ في بعض الأحيان حد البهرجة المسرفة ، فيقذف بالتمثيلات والقصائد والروايات والبحوث السياسية . ولكن الواقع أنه حدث في فرنسا أن سلطان الأكاديمية والتقاليد الكلاسيكية وتقاليد النظام المدرساني ، قد روضت على الحملة فن الرواية وأخضعته رغم أنها لم تستطع أن تكبح هذه الحالات الاستثنائية . قال البيداغوجيون^(١) : ينبغي للرواية أن تتخذ « شكلاً » ، ولا بد لها من أن تكون « صحيحة » . ويجب ألا يكون فيها استطراد إلى موضوعات خارجة عن موضوعها ، ويجب أن تكون مؤدبة غير شخصية في منوالها . وبذلك أعتيقت الرواية الفرنسية وهي في طريقها إلى حريات التجريب غير المحدودة ، التي كانت تنعم بها المدرسة الإنجليزية . وفلوپير (١٨٢١ - ١٨٨٠) وهو يكتب مضيقاً عليه هذه الحدود الثابتة - هو أشد الكتاب الفرنسيين لباقة وصقلاً وإتقاناً .

وينتمي توماس هاردى (١٨٤٠ - ١٩٢٨) آخر الروائيين العظام في العصر الفيكتوري إلى هذه المدرسة الفرنسية الكلاسيكية أكثر مما ينتمى إلى تقاليد الرواية الإنجليزية . ولقد ثار في أخريات أيامه على القيود التي غل نفسه بأغلالها ، ثم هجر الرواية هجراناً تاماً ، ثم بلغ أوج عظمته الفنية بكتابه الأمراء^(٢) ، وهو تمثيل وعرض للمغامرة النابليونية بأكملها في صورة دراما ، وهو مثال جديد على الوشائج الوثيقة التي تربط بين الروائي العظيم وبين المؤرخ المفسر للتاريخ .

فالرغبة في المعرفة بالحياة وما يحدث لها ، وهي النزوع إلى استجواب الحياة استجواباً وثيقاً حاراً ، تلك الرغبة التي جعلت البريطانيين يضيقون ذرعاً بقيود الشعر وتضييقاته الشكلية ورفعت الرواية (: القصة) وأشكالها القريبة إلى مرتبة السيادة الأدبية ، - قد انتشرت في كل الأقطار الأوروبية . فانتجت ألمانيا والروسيا

(١) وهم المصطلقة من العلماء والمدرسين . (المترجم)

(٢) الأمراء (Dynasts) : هي كما أشرنا ص ٣٥٩ من العالم (ط ٢) ملحة

شعرية درامية . (المترجم)

ولإسكنديناوة بوجه خاص ، أدباً عظيماً صاغته في شكل روايات . وأبرز اسم يندو بين حشد حاشد من الروائيين المبدعين الألمان هو اسم چوستاف فرايتاج (١٨١٦ - ١٨٩٥) . وانتجت الترويج مؤلفها بيورنسون (١٨٣٢ - ١٩١٠) ؛ وأشرقت في روسيا مجموعة كبيرة من النجوم المتألقة تبدأ بجوجل (١٨٠٩ - ١٨٥٢) وتمضى إلى دوستويفسكى (١٨٢١ - ١٨٨١) وتورجنيف (١٨١٨ - ١٨٨٣) وتولستوى (١٨٢٨ - ١٩٠٠) ، وتشيكوف (توفى ١٩٠٤) .

على أنه لا يمكن القول بأن جميع القراء في القرن التاسع عشر كانوا تواقين إلى المعرفة مستطلعين - إذ كان يمازج الأنماط والطبقات المليئة الأذهان بالشكوك والتقدم ، أنماط وطبقات اجتماعية أخرى غير ناشطة تقاوم الأفكار الداعية إلى التقدم مقاومة فعالة .

وإلى جوار ذلك ، وفي قدر عظيم نام متزايد من التأليف التي كانت تستثير العقول وتنبهها ، ظهر في أوروبا وأمريكا على السواء ، إنتاج ضخم من المادة المكتوبة في كل مستوى من مستويات التقدم الفني (التكنيكى) ، قصد به إلى الإمتاع والمصانعة والتطمين .

وكان الناس قد تعلموا القراءة ، إذ وجد لديهم الزمن الوفير والحاجة الكبيرة إلى القراءة ، وكانوا يقرأون رغبة منهم في كبح تيارات أذهانهم لافى تشجيعها على الفيض .

والسيروالترسكوت (١٧٧١ - ١٨٣٢) شخصية سوف يحير الأجيال المقبلة نفوذها الهائل على معاصريها ، كما حيرهم نفوذ اللورد بيرون . فلأنه بدأ حياته الأدبية شاعراً ، وكتب قصيدتين قصصيتين مسهبتين مليئتين بالثرثرة وذلاقة اللسان ؛ ثم انقلب يكتب سلسلة من القصص الرومانسية التاريخية . يمجّد فيها الماضي الرومانسى . ويشيد بالولاء للملكيات ، وبثراء التقاليد وجذالتها .

ولشد ما راقّت هذه النغمة الأثرياء والاحتلمانية الثراء ، وقد ملأ الجزع نفوسهم بالشكوك وعدم الطمأنينة التي أثارها حاضرم المتغير المرتاب .

كان أبا لموجة من الروايات الرومانسية المعبرة عن الأسف ، لا في كل العالم المتكلم بالإنجليزية فقط ، بل في كل أرجاء أوربا .

فأما في قارة أوربا ، فلن هذين الكاتبين اللذين أقبل الناس بصورة عجيبة على ترجمة أدبهما شعراً أو بعبارة نثرية ، قد اتخذوا رمزاً لموجة عظيمة مهمة من التأثيرات ، موجة معقدة المصدر مفككة غير مترابطة من حيث هدفها وكنهها ، موجة قد تبددت اليوم لحسن الحظ ونفص الناس أيديهم منها : وأعنى بها الحركة الرومانسية . وكان معناها عودة روح القرون الوسطى ، وكان معناها عودة الألوان النضرة الزاهية ، وكان معناها الإيماء بالهجرة إلى المغامرة في الدروع السوانغ وعدم الارتياح للأساليب والمصالح المعاصرة . وكان معناها قيام الغريزة ضد العقل والعاطفة ضد العلم . وكان يخفف من حدة نزوعها إلى اللغة العتيقة المهجورة ما كان عليه حملة لوائها من تراح ونحول . وكانت أقرب إلى حالة السكر التي تعقبها العريضة منها إلى دور من أدوار التقدم الفكري والجمالي . ولم يقف الأمر بها عند تعارضها مع حقائق الزمن الحاضر بل تجاوزته إلى التصاد والماضى الكلاسيكى . كانت حركة كاثوليكية كما كانت تنزع منزع المذهب الفردى ، وكانت هى المبتعثة للفيرى^(١) والرائعة فى أساطير مفتعلة زائفة ؛ كانت أى شئ ، وكانت إذا قدرتها تقديرها النهائى مجرد لا شئ .

وقد كتب عنها الكاتبون فى ألمانيا كتابات هائلة وفيرة ، ولكنها عمت كل أوربا . وادعى بعضهم أن شكسبير كاتب رومانسى ؛ وقامت كذلك « فلسفة رومانسية » و« لاهوت رومانسى » تجلى فيهما السخف والغباء . وظهر فى الإنجليزية قللر جسيم من الروايات فى أزياء القرون السالفة ، وهى القرنين الفكرى لعملية ابتعاث فن العمارة القوطية فى إنجلترا ، وكان ستماسرة البورصة والمتعبون من رجال الأعمال يجدون فرجة ينسون بها مسئوليات أعمالهم التجارية ، وينسون بها الوجود

(١) الفيرى (Fairy) : كبير من الآداب الأوربية عامرة بقصص الفيرى التى يقرضون أنها كائنات فوق انسانية صغيرة الحجم وبزغونها على صورة الإنسان وأن فى يديها قوة سحرية خارقة . (المترجم)

كله والمصير الذى يسرون إليه - إن كان ثمة مصير يظنون أنهم يسرون إليه - بأن يستغرقوا فى أحلام يرون فيها أنفسهم فى صورة الصليبيين البواسل والجنود الكماة والقراصنة الخجفين والمنقذين الآتسات اللواتى أملت بهن النوازل ، وهى الشخصيات التى كانت تلك القصص تتخذ منها أبطالها . ولم يكن هناك حتى من يدعى أنه يقوم بتحليل مظاهر ومغزى الزمان الذى ظهرت فيه تلك القصص المرتدية أزياء الماضى . وكان ذلك هو موطن السحر فيها . فكانت هى الملجأ الذى تلتجئ إليه عقول ترغب بكل قوتها فى ألا تفكر . وكانت عقلية أبطال تلك القصص هى عقلية الطبقة الوسطى الغنية ، بعد تصفيتها ورفعها إلى المثل العليا .

وقد اعترف روبرت لويس ستيفنسون (١٨٥٠ - ١٨٩٤) آخر من لف لف سكوت من الكتاب الرومانسيين ، بأنه كان يستطيع أن يأتى بخير مما أتى ، ونعت نفسه بلقب « البغى العقلى » وهو ما كان عليه شأنه فى واقع الأمر . وهذا القصص المرتدى للأزياء العتيقة كتب أيضاً فى قارة أوروبا ، ولكنه لم يصبح هناك البتة صناعة جديدة كما أصبح فى بلاد المجموعة الناطقة بالإنجليزية ، لأن التطور السريع لطبقة متوسطة ثرية مبالاة إلى القراءة ، حدث فى القارة الأوروبية فى زمن متأخر وفى ظروف أشد استئازة للأذهان .

وهناك تطور حديث جداً جاء على فترة توقف فى نمو القصة ، ويشير إليه ظهور شىء من النزوع إلى تجميع الروايات فى ثلاثيات أو توسيعها بأجزاء متممة لها ، ثم ظهر توسيع آخر قشيب لهذا الشكل . يبدو محتملاً بفضل أنه تتحول القصة إلى صورة للعالم بأجمعه ترى خلال أعين فرد طرازى^(١) . وأشد هذه الروايات الطويلة الجديدة جدارة بالإعجاب رواية « جان كريستوف » من تأليف رومان رولاند^(٢) ، وقد نشرت فى عشرة مجلدات متعاقبة . ومما يتصل اتصالاً وثيقاً بهذا التوسيع ، ظهور

(١) الفردى الطرازى (Typical) : هو الذى يمتلك أو يظهر خصائص طراز بعينه بشكل تام بحيث يصبح مثالا له أو عينة منه تمثل الطراز كله . (المترجم)

(٢) رومان رولاند (١٨٦٦ - ١٩٤٤) كاتب فرنسى قصصى ومسرحى ومدرس تاريخ الموسيقى بجامعة السوربون . كتب كتباً عن بيتهوفن وهاندل . وحصل على جائزة نوبل ١٩١٥ مكافأة له على قصة جان كريستوف الضخمة . (المترجم)

الكتب الهائلة التي لا شكل لها ولا نهاية ، كتب الذكرى والتعليق والوصف ، التي يمثل طراز كتابتها بروس (المتوفى ١٩٢٢) . وهناك شخص يكاد يقف وحيداً في أدب العالم أجمع في هذا العصر هو أناتول فرانس (١٨٤٤ - ١٩٢٤) - الذي تبنى روايته « قصص برجرية المسلسلة (Bergeret Series) نفس النزعة إلى أن يحل محل الرواية (Roman) المعزولة بحدوثها عما حولها تعليق سيار على الأشياء عامة . والآنسة دوروثي ريكاردسون التي تكتب بغزارة مشرقة معبرة عن جدول ضيق من الخبرة الرقراقة ، كاتبة ربما جاز لنا أن نسميها « جين أوستن » العصرية للقصة المطولة .

وهناك تغير شائق يتداخل الفصاة مع انتقال الزمن بالقرن التاسع عشر إلى العشرين ، هو الزيادة المطردة في الأبحاث الاجتماعية والسياسية والدينية . وذلك أن الروائيين من طراز ديكنز وناكارى كانوا يكتبون لجمهور فكرائه وقيمه الاجتماعية مستقرة أتم استقرار . فإنهم لا يناقشون شيئاً ؛ بل يفترضون وجود خلقية من المناظر الأخلاقية ويركزون الاهتمام على الصفات الخلقية أعنى على الجبلات والطباع الشخصية . ولم يكن ناكارى يناقش بل يعظ ؛ والوعظ شيء والمناقشة شيء آخر تماماً . وكانت الشخصيات ومسلكتها في رواية القرن التاسع عشر قوام المادة التي يتكون منها الموضوع كله . على أن حالة عدم الاستقرار الذهني في الزمن الحاضر تجذب نفسها منعكسة في القصص العصرية على صورة مناقشة للفكرات . ولم تنج الدراما من تلك النزعة حيث دخلتها الفكرات والنظريات . وهى وإن أشبعت ميول الناس ، إلا أنها أسدلت شيئاً من الغموض على ذلك الصنف من صوغ الشخصية صياغة مؤكدة قوية وبها قدر من الحياة يعظم مالها في الواقع ؛ وهو أعلى ما تمتاز به القصة في العهد الفكتورى .

وليس هناك من يشك أن في الإمكان أن يلمس الإنسان في أدب العصور الخوالى ابتداء من « قصة الحمار الذهبي » فما تلاها ، - إرهاسات بكل هذه التطورات في القصة العصرية تتجه نحو نقد جوال سهل هين للحياة وما فيها من وجهات نظر . ولكن شيئاً من هذه الإرهاسات في ناحيتي الشكل والحجم لم يظهر في أى شيء

ظهوره في التنوع الكبير والحجم الفخم اللذين تمتاز بهما كتابات القرن التاسع عشر مهما يكن مدى قربها أو بعدها من شكل الرواية ، ولا تكاد أى منها تحتوى تلك الصفة الخاصة : صفة الحكم الحر غير الموجه في شئون الحياة جملة وتفصيلا ، وهى الصفة التى تميز ذهن القرن التاسع عشر وبها يتفاضل عن كل الأدوار التى سبقتها .

وكان قيام « الدراما »^(١) يعتمد حتى ذلك الحين على وجود مجتمع مستقر ، له عادات ومعتقدات ثابتة ، يستطيع أن يعلها بجمهور نظارة مستمر عامر القلب بالعطف عليها . وكان من الطبيعى فى عصر من الفوضى الاجتماعية وإعادة بناء المجتمع ، أن يتقوض ما استقر فى الناس من عادات الذهاب إلى المسارح . ومن ثم فقد انقضى نصف قرن أو يزيد تحولت فيه عن المسرح الحشود المتنوعة الأشكال من الناس الذين كانوا يفكرون ويناقشون ويبحثون عن الحديد من الأشياء . وممر المسرح الأوروبى فى دور تهاة وانحطاط وأخذ يدارج الروايات والقصص الرومانسية الشعبية فى نزعتها إلى تمكين الناس من قضاء الوقت فى سمر لطيف .

وكانت « الدراما » الفرنسية رشيقة وإن كانت جوفاء وكذلك كان شأن الدراما فى إنجلترا . وإن لم تصل مطلقاً إلى درجة الرشاقة الفرنسية . والحق إن القوى العظيمة التى كانت تطالب بالمناقشة والفكرات أخذت تبدى أثرها فى العالم الدرامى بغاية التدرج وفى وجه معارضة هائلة من النقاد . وكان لإيسن النرويجى (١٨٢٨ - ١٩٠٦) هو الشخصية الفعالة المركزية التى بفضلها عادت الدراما إلى الاتجاه نحو مناقشة الحقيقة المعاصرة . وكان لنزوة بارى (Baire) اللطيفة أثر كبير فى تحطيم التقاليد الجامدة « للمسرحية المحبوكة » كما كانوا يسمونها فى إنجلترا ، ثم شرع برناردشو (Shaw)^(٢) المولود فى (١٨٥٦ - ١٩٥٠) يكافح فى بطء مرتفعاً إلى أوج التفوق والنفوذ .

(١) الدراما هى فن التأليف والتمثيل المسرحى . (المترجم)

(٢) جورج برناردشو : المتوفى فى نوفمبر ١٩٤٠ وهو الكاتب القصصى والمسرحى العظيم . ولد بديلن وانتقل إلى لندن حيث زاع صبيه وراحت مؤلفاته التى تعد بالمشات وحصل على جائزة نوبل ١٩٢٥ . (المترجم)

ومن أبرز الدراميين الألمان في هذا الدور الجديد دور الاخلاص والقوة ، هوبمان المولود في (١٨٦٢) وسودرمان المولود في (١٨٥٧) وقد أوقفت الحرب حركة النشاط الدرامي ربحاً من الزمن ، ولكن انتهاءها أطلق فيضاً عميقاً من النشاط الحى المبشر بالخير على كل من جانبي المحيط الأطلسي . وبنعم المسرح في كل أوروبا وأمريكا في الوقت الحاضر بظل وارف قوى من الاستحداث والتجديد .

فإذا حولنا أنظارنا إلى تطور الأدب الأمريكي ، وجب علينا أن نميز بين دورين متباينين أشد التباين ، أولهما دور السيادة الأوربية ، ما بين الإنجليزية وفرنسية ، وثانيهما دور الفكاهة وانطلاق السراح . وقد مضى على النشاط الأدبية الأمريكية حين طويل من الدهر تركزت أثناءه في نيوانجلند ، ولم تكن إلا محض فرع وإن يكن فرعاً غنياً عارماً من الأدب العام الإنجليزي والأوربي . وكان مركز ذلك مدينة بوسطن . وأكثر كتاب هذا الدور من الحديث في إعلان الاستقلال ، ولكنهم من حيث استمرار « الشكل والمنهج » كانوا كمن لم يدرك بعد أن الاستقلال قد وقع فعلاً . وكانت لأمريكا أذواقها المميزة ، فإنها كانت أسرع من إنجلترا إلى التقاط كارليل ، وأخذت ترسل نغمة من عندياتها تتجلى في مقالات لمرسون (١٨٠٣ - ١٨٨٢) ؛ على أن لونغفلو لم يكن إلا مجرد شاعر لإنجليزية تصادف أن ولد في أمريكا وأن كتب في موضوعات أمريكية . وكان إدجار آلان بو (١٨٠٩ - ١٨٤٩) يتبع في كتابته مناهج أوربية أكثر منها إنجليزية ، وأبدى هوثورن (١٨٠٤ - ١٨٦٤) أن به لمسة من شعوضة تيوتونية لها وعيها الذاتي . وكذلك كتب و . د . هاولز (١٨٣٧ - ١٩٢٠) سلسلة من الروايات المتزمنة الممتازة ، بطريقة تسلكه في سمط مع توماس هاردى تحت نوع المدرسة الفرنسية في تصنيف عام للرواية . وكان هنري جيمس (١٨٤٣ - ١٩١٦) أمريكياً ولكنه لم يكن يكتب على شاكلة الانجليز ولا شاكلة الأمريكان ، بل كأمرىكى انتقل إلى بيئة أوربية ، وكانت مناظره على الدوام أوربية ، وكان موضوعه الأثير لديه هو الاصطدام بين الأمريكى الساذج وبين معقدات المدنيات القديمة

ولعل أشد كتاب القرن التاسع عشر اضطباعاً بالروح الأمريكية مارك توين^(١)
(١٨٣٥ - ١٩١٠) .

ولم يحدث إلا بعد بزوغ فجر القرن الجديد أن شرع الكتاب الأمريكيون بوصفهم هيئة في مهاجمة ظواهر الحياة الاجتماعية الجديدة ومشكلاتها في أمريكا ،
مُهاجمة يتجلى فيها شيء يشبه القوة الطليقة التي يتحلى بها خير ما أثر عن أوربا
من تقاليد . وإنما تظهر كتب من أمثال شارع مين « Main street » « وبابيت »
لسنكلير لويس (١٨٨٥ - ١٩٥١) والتراجيديا الأمريكية لدرائزر (١٨٧١ -
١٩٤٦) ، وقد أصبح الذكاء الأمريكي مهتماً بأمريكا اهتماماً مباشراً بحثاً غير ناظر
بعد ذلك أبداً صوب الشرق يطلب المنهاج والاستحسان من أوربا . والواقع أن
الشعر ورسائل الغرام الأمريكية قد أصبحت مستقلة استقلالاً توشك أن تبدو فيه
روح العدوان . ويحاول أمثال مينكن (١٨٨٠ - ١٩٥٦) من الكتاب الناقدين أن
يروعوا العالم بما يمتازون به من القشابة وصفاء الرؤيا ، بمحاولات يتجلى فيها الجدل
والاجلاب والخلد . وكذلك يتكشف كتاب من أمثال شروود أندرسون (١٨٧٦ -
١٩٤١) وجيمس برانش كابل (المولود ١٨٧٩) عن جدّة وقوة ابتكار تبشر
بكل خير . ومع أنه لا يوجد حتى الآن في عالم الأدب الأمريكي العصري أسماء
عظيمة ممثلة لتفّت الأنظار^(٢) ، ولا إنتاج متقن إتقاناً كبيراً ، فإنه من العسير على
المرء إذا راعى ما عليه حال ذلك الجمهور الكبير الجديد الميل للقراءة ، من
الثراء والوفرة والتطلع الضخم ، أن يعتقد أنه لن تظهر هناك للفور هيئة ضخمة
لإنتاج أدبي من الطراز الأول تظهر استجابة لما تتطلبه الفرص الأمريكية السانحة .
وليس من اليسير في الوقت الحاضر على كاتب أورب أن يقدر درجة جودة
الأدب الهندي إبان القرن الأخير . فإن الحكم البريطاني يمنح إلى تجاهل الجهد

(١) مارك توين اسم القلم الذي أطلقه على نفسه الكاتب الأمريكي صمويل لايجهورن
كليمنز ، المولود في فلوريدا ، وكان كاتباً فكها مسلماً . (المترجم)

(٢) لقد ظهرت الأدب الأمريكي بعد وفاة المؤلف أسماء لامة كثيرة منها إرنست هنج
واي . (المترجم)

الفكرى الهندى أو التقليل من شأنه ، وليست توجد إلا ترجمات قليلة من بين العدد الضخم من الحكايات والقصص المكتوبة باللغات الوطنية حول الحياة المعاصرة - والننى أنتجت فى السنوات الأخيرة . ولرابندرانات طاغور^(١) (١٨٦١ - ١٩٤١) شهرة عظيمة فى الغرب . على أنه معروف بوصفه شاعراً أكثر منه روائياً وكاتباً سياسياً ، ويلوح أن الشرق يتعقب خطى الغرب فى تطورات الاقتصادى والاجتماعية ويوم تصبح القوى الجديدة التى كونت القصة العظيمة والرواية القصيرة والأفصوصة والقصيدة الغنائية القصيرة ، وهى الأشكال القائمة للتعبير الأدبى فى الغرب - ذات أثر فعال فى آسيا ، فلعلها تنتج نتائج مماثلة . وتنطوى اليابان والصين على حركة اختار ذهنى كبيرة جداً . وما يزال فن الترجمة والتأويل بين الشرق والغرب فجاً غير متطور كما لا يزال بحاجة إلى التنظيم ، على أن هذه أمور لا يبرح يلحقها التحسين والتوسع السريع ، وقد لا يكون بعيداً ذلك الزمن الذى يصبح فيه كتاب المنشور على الأقل إن لم يكن كتاب الشعر الغنائى منذ فجر حياتهم العملية تقريباً موضع إعجاب جمهور من القراء يعم أرجاء العالم كلها .

فأما البحث العلمى والفكر الفلسفى والنشاط الأدبى العام فى هذه المدة التى تأملناها ، فكانت أوفر كثيراً وأعلى كثيراً فى كنهها عامة وتصل إلى يد عدد أوفر من الناس ، ونسبة أكبر من سكان العالم تفوق ما كان عليه الحال من قبل . وليس هناك أبداً ما يدل على أى توقف جسيم فى هذا الفيض الفكرى الذهنى الطرد الاتساع .

(١) طاغور (١٨٦١ - ١٩٤١) شاعر وكاتب هندى ، ولد فى كلكتا . وكان من أعظم رجال الهند الحديثة ، وكان كاتباً وقصصياً ومريباً ووطنياً عظيماً . وكانت مثله العليا تدعو إلى البساطة فى العيش وإلى إيجاد علاقة بين التربية الغربية والفلسفة الشرقية . حصل على جائزة نوبل سنة ١٩١٣ .
(المترجم)

الفصل الثامن والثلاثون

كارثة الإستعمار العصري^(١)

- ١ - السلام المسلح قبل الحرب العظمى
- ٢ - ألمانيا القيصرية
- ٣ - الروح الاستعمارية في بريطانيا وإيرلندا
- ٤ - الرعاع الاستعمارية في فرنسا وإيطاليا واللقاق
- ٥ - الروسيا تصبح ملكية عظمى
- ٦ - الولايات المتحدة والفكرة الاستعمارية
- ٧ - الأسيات المباشرة للحرب العظمى
- ٨ - حلاصة للحرب العظمى حتى ١٩١٧
- ٩ - الحرب العظمى منذ إنهياري الروسيا إلى الهدنة

١ - السلام المسلح قبل الحرب العظمى

احتفظت أوروبا طوال ستة وثلاثين عاماً بعد معاهدة سان استيفانو ومؤتمر برلين ، بسلم مقلقل داخل حدودها ولم تنشب أية حرب بين الدول الكبرى إبان تلك المدة . بل كانت إحداها تحتك بالأخرى وتخيفها وتهدها ولكنها لا تصل إلى الحرب الفعلية وقد أدرك الناس عامة بعد ١٨٧١ أن الحرب العصرية أمر أشد خطورة بكثير من الحرب التي كان يقوم بها الجند المحترفون في القرن الثامن عشر ، وأنها مجهود للشعوب بكلياتها ربما حض على التكوين الاجتماعي عضاً عنيماً ، وأنها مغامرة يجدر بالناس ألا يتهوروا بالإقدام عليها . ذلك أن الانقلاب الميكانيكي ما برح يقدم أسلحة مطردة القوة متزايدة النفقة في الر والبحر ، ويستجدث وسائل للمواصلات أسرع ؛ كما كما يزيد كل يوم في تعذر مواصلة الحرب بدون إحداث زعزعة تامة لحياة المجتمع

(١) أطلق الجميع القوى كلمة التسلطية لتكون مقابلاً للفظـة (Imperialism) وهي المبدأ الداعي إلى توسيع رقعة الدولة بالاستعمار والاستلحاق والإضافة كلها وكيفما أمكن ذلك ، وإلى ربط الدولة أو الإمبراطورية مختلف ممتلكاتها حتى تصبح وحدة وثيقة الترابط ؛ وقد استعملنا لفظـة الاستعمار أحياناً حين رأينا المقام يقتضيها فصلاً عن استخدامنا لفظـة إمبريالية لنفس المعنى . (المترجم)

الاقتصادية . بل لقد بلغ الأمر أن وزارات الخارجية نفسها أخذت توجس من الحرب خيفة .

ومع أن الناس كانوا يخشون الحرب كما لم يخشوها قط في العالم فيما سلف ، لم يقد أحد بعمل يرمى إلى إقامة رقابة اتحادية لمنع الشئون الانسانية من أن تسير في طريق الحرب . حقاً إنه حدث في ١٨٩٨ أن القيصر الشاب نيقولا الثاني (١٨٩٤-١٩١٧) أصدر تصريحاً ملكياً يدعو به الدول الكبرى الأخرى إلى عقد مؤتمر دولي يرمى : « إلى تمكين الفكرة الكبرى لفكرة السلام العام من النصر على عناصر الشغب والفرقة . » وبذكرنا تصريحه هذا بالاعلان الذي أعلنه سلفه إسكندر الأول والذي كان يدعو فيه لفكرة المحالفة المقدسة ، ولكن الشيء الذي أفسد التصريح إقراض هؤلاء السادة بأن السلام يمكن أن يؤسس بين حكومات ذات سيادة ، لا بالجوء الشامل إلى حاجات وحقوق شعب البشرية الواحد . فأما الدرس المستفاد من الولايات المتحدة الأمريكية وعظمتها التي أظهرت أنه من المحال أن توجد وحدة في العمل أو سلام حتى تتغلب على النعرة القائلة « الشعب فرجينيا » - « وشعب ماساشوستس » فكرة « شعب الولايات المتحدة » جمعاء - فقد أغفل إغفالاً تاماً في كل ما بذل من محاولات للسلام في أوروبا .

وعقد مؤتمران في لاهاي بهولندة ، أحدهما في ١٨٩٩ والثاني في ١٩٠٧ ، وكانت كل دول العالم ذات السيادة ممثلة تقريباً في ذلك المؤتمر الثاني . على أن تمثيل تلك الدول كان تمثيلاً دبلوماسياً ، ولم يصدر أى توجيه يلفت الفطنة العالمية العامة إلى مناقشات المؤتمر وأعماله . بل إن الرجل العادى لم يكن ليعرف حتى مجرد أن هذين المؤتمرين كانا ينعقدان ، وكان الممثلون المجتمعون يقومون في معظم أمرهم بمراوغات ثعلبانية حول نقط في القانون الدولى تمس الحرب ، مهملين موضوع إلغاء الحرب زعماً منهم أنها وهم مخيف لا ظل له من الحقيقة . ولم يسفر هذان المؤتمران عن ثمرة ما تبدد الفكرة القائلة بأن الحياة الدولية إنما هى حياة منافسة بحكم الضرورة . بل على العكس فإن المؤتمرين فيهما سلموا بهذه الفكرة . ولم يقوموا بأى شيء يطورون به الوعي الخاص بالدولة العامة العالمية التى تعلو هامات الملوك

١٤٠٠

وزارات الخارجية . وكان رجال السياسة والقانون الدولي الذين حضروا هذين الاجتماعين غير ميالين إلى الإسراع بإنشاء دولة عالمية على مثل هذا الأساس ، شأنهم في ذلك شأن رجال السياسة الروسيين في ١٨٤٨ في عزوفهم عن الترحيب ببرلمان يمثل ألمانيا كلها ويسمو فوق حقوق وسياسة ملك بروسيا .

وفي أمريكا عقدت سلسلة من ثلاث مؤتمرات ترمي إلى إنشاء كتلة أمريكية في ١٨٨٩ ، ١٩٠١ ، ١٩٠٦ فسارت شوطاً ما في سبيل وضع خطة لإيجاد تحكيم دولي في القارة الأمريكية بجمعها .

ولن نناقش هنا في أي إسهاب شخصية وحسن نية نيقولا الثاني الذي كان صاحب الفضل في عقد مؤتمر لاهاي هذين ، فلعله زعم أن الزمان كان حليف روسيا . على أن الأمر الذي لا شك فيه أن الدول العظمى قد نفرت جميعاً من احتمال قيام قوة تغطي على الدول ذوات السيادة وتغمرها في طياتها ، وهي القوة التي لا تكون مشروعات السلم الدائم بدونها إلا سخفاً وهراء . ولم يكن ما يرغبون فيه هو إيقاف التنافس الدولي ومرحلته الحامية العنيفة وأعنى بها الحرب ، بل يبتغون تخفيض نفقات الحرب التي أخذت تصبح باهظة ثقيلة . وكانت كل من الدول ترغب في الاقتصاد فيما ينتج عن المنازعات والمشاحنات الصغرى من سرف ، وتشريع قوانين دولية تربك أقوى خصومها أثناء الحرب دون أن تضايق نفسها بشيء . تلك هي الغايات العملية التي يطلبون من مؤتمر لاهاي . كان اجتماعاً حضروه ليرضوا نيقولا الثاني على نفس الشاكلة التي اشترك بها ملوك أوروبا في المقترحات الدينية المسيحية الخاصة بالخلف المقدس لكي يرضوا إسكندر الأول ، ولما أن حضروه حاولوا جاهدين أن يحصلوا منه على ما ظنوه شيئاً من الإفادة به لأنفسهم .

٢ - ألمانيا القيصرية

غادر صلح فرانكفورت ألمانيا موحدة مصطبغة باللون البروسي ، وخلفها اشد دول أوروبا الكبرى منة . وكانت فرنسا قد أصبحت ذليلة عاجزة وبات محتملاً أن

تحويلها إلى النظام الجمهوري قد يفضي إلى تركها وحيدة بغير صديق في أي من البلاطات الأوروبية . وكانت إيطاليا حتى آنذاك مجرد دولة حديثة العهد . وأخذت النمسا تتدهور سريعاً آنذاك إلى مرتبة الولاية التابعة في السياسة الألمانية . وكانت روسيا دولة ضخمة ولكنها غير مطورة ولا منظمة . ولم تكن الإمبراطورية البريطانية ذات بأس إلا على صفحة البحر . فأما خارج أوروبا فإن الدولة الوحيدة التي كانت ألمانيا تحسب حسابها فهي الولايات المتحدة ، وقد تنمو عند ذلك وتصبح أمة صناعية كبيرة ، وإن لم يكن لها جيش ولا أسطول جديران بأي اعتبار حسب المعايير الأوروبية .

وكانت ألمانيا الجديدة التي ضمتها الإمبراطورية التي خلقت في فرساي ، مزيجاً مركباً مدهشاً من قشيب القوى الذهنية والمادية في العالم ، مع أضيق ما في النظام الأوروبي من تقاليد سياسية . اتجهت إلى التعليم بكل قوتها ، فكانت أشد دول العالم قاطبة اهتماماً بالتعليم . فهي صاحبة سبق في التعليم والقائدة لكل جيرانها ومنافسها .

وفي هذا الوقت الذي نقدم فيه حساب ألمانيا ، ربما ساعد القارئ البريطاني على اتخاذ موقف متزن منها أن تذكر تلك الاستثارة التعليمية التي تدين بها بلاده للأمير الألماني زوج الملكة فكتوريا أولاً ثم للمنافسة الألمانية . فإن تلك الغيرة الوضيعة التي كانت تخالج طبقة الحكام في بريطانيا من الرجل العادي المتعلم ، والتي لم يستطع أي شعور بالكبرياء الوطني أو بالدافع السمع الكريم أن يتغلب عليها أبداً ، تلك الغيرة قد تقوضت إزاء ذلك الخوف المتزايد من الكفاية الألمانية . وحملت ألمانيا نظام البحث العلمي ونظام تطبيق الطريقة العلمية في التطورات الصناعية والاجتماعية ، على مستوى من الإيمان والنشاط والهمة لم يصل إليه مجتمع آخر من قبل قط

فكانت ألمانيا طيلة كل هذه فترة الهدنة المسلحة تحصد وتبذر من جديد ثم تعود وتحصد المحاصيل ، المحاصيل الثابتة المضمونة ، العائدة من العرفان المنشور نثراً طليقاً . وسارت ألمانيا بخطى سريعة حتى أصبحت دولة صناعية وتجارية كبرى . وقد بز

إنتاجها في الصلب لإنتاج بريطانيا ؛ وأصبحت ألمانيا قائدة العالم ورائده في ميثاق من الميادين الجديدة للإنتاج والتجارة ، حيث المعول الأول على الذكاء والنظام أكثر منه على مجرد مكر التاجر ، من أمثال صناعة زجاج العدسات ، والأصباغ وعدد كبير من المنتجات الكيماوية ، وفيما لا يحصى من العمليات المستحدثة . وقد اعتاد أصحاب المصانع البريطانيين أن يروا المخترعات تنحدر إلى مصانعهم مصحوبة برجاء قبولها واستعمالها ، ودون أن يعرفوا من أين جاءت تلك المستحدثات ولا لماذا جاءت ، ولذا كانوا يرون في هذا الأسلوب الألماني الجديد الذي يحتفظ برجال العلم ويدفع لهم المرتبات ، معاملة ظالمة ظلماً بشعاً . وكانوا يشعرون بأن ذلك ضرب من اجتذاب الأموال قسراً . أو قل إن ذلك في نظرهم كان ضرباً من رصص أوراق اللعب بقصد الغش والتدليس . وكان ذلك أمراً ينطوي على تشجيع طققة دنسة من ذوى العقليات الذكية أن يتدخلوا في شئون رجال الأعمال الشرعيين . ولذا فإن العلم غادر موطنه الأول إلى الخارج كما يغادر الطفل المكروه دار أبيه . إذ أن صناعة ألمانيا الكيماوية الفاخرة كان الأصل فيها عمل السيروليم يركن ذلك الرجل الانجليزي ، الذي لم يجد من بين رجال الأعمال الانجليز رجلاً « عملياً » يناصره .

كذلك قادت ألمانيا العالم في كثير من أشكال التشريعات الاجتماعية . إذ أدركت ألمانيا أن العامل « رصيد » قويم ، وأن ذلك الرصيد تبليه العطالة ، وأنه لا بد من أجل الخير المشترك من أن يُعنى به خارج المصانع . وكان صاحب العمل البريطاني ما يزال متأثراً بالخدعة القائلة بأنه ليس من حق العامل أن يعيش خارج المصنع ، وأنه كلما ساء حال عيشه الخارجى ذاك ، كان ذلك خيراً له على شاكله ما . زد على ذلك أن أصحاب الأعمال كانوا بسبب تفشى الأمية بينهم شديدي النزعة الفردية ، ولذا فإن المنافسة الشائعة بينهم كانت من الصنف الأحمق الذي يتميز به العقل السوقى . وكان الواحد منهم يكره من يحيطون به من أصحاب المصانع كرهه عماله وزبائنه . فأما المنتجون الألمان فكانوا من الناحية الأخرى ، مقتنعين بالفوائد الكبيرة التي تجنى من التضامن والدمائة . ولذا كانت مشروعاتهم تنزع إلى السير كتلة واحدة وتتخذ رويداً رويداً سمة العمل القويم .

الدولة العصرية الحديدية الممتازة عقل عصرى ممتاز يقودها إلى السيادة العالمية في خدمة العالم ، بل كان بتولاها .منكبوت عجوز يتحرق شوقاً إلى القوة . فكانت ألمانيا البروسية هى في نفس الوقت أحدث وأقدم شيء في أوروبا الغربية . كانت خير الدول في زمانها وأشدّها شراً .

ولم تزل سيكولوجية الأمم علماً بدائياً ليس غير . فإن علماء النفس لم يكادوا يبدأون بعد في دراسة ناحية المواطن في الرجل الفرد . على أننا نرى من الفائدة القصوى لموضوعنا أن يوجه دارس التاريخ العام شيئاً من تفكيره إلى النمو العقلى في أجيال المتعلمين الألمان منذ انتصارات ١٨٧١ . فنن الطبيعى أن يداخلهم الغرور لما أصابوه من انتصارات جارفة ليسوا أهلاً لها ، ولما نالوه من انتقال سريع من الفاقة النسبية إلى الثراء المطلق . ولعلنا نكلفهم ضد طبيعة الإنسان إذا توقعنا منهم ألا يغلب عليهم شيء من الإسراف في الغرور الوطنى . ولكن هذا رد الفعل قد أمسك به قصداً وتعمداً ونُسى بواسطة استغلال ينظمه ورقابة مُحكمة للمدرسة والجامعة والأدب والصحافة لمصلحة آل هوهنزولرن .

فكل مدرس أو أستاذ في الجامعة لا يدرّس ولا يبشر بمناسبة وبغير مناسبة باستعلاء الألمانين العنصرى والذهنى والخلقى والجهلى على بقية الشعوب جميعاً ، وتعلقهم غير العادى بالحرب وأسرهم المالكة ، ومركزهم الذى لا محيص للأيام من أن تبوئهم إياه تحت هذه الأسرة في قيادة العالم ، — ف شخص شاذ قد ندد عن الجماعة وقدر عليه الفشل وضباع المستقبل . وأمسى تعليم التاريخ في ألمانيا تزيفاً هائلاً منظماً لماضى البشرية ، لا ينظر إلا لمستقبل آل هوهنزولرن . وكانت كل الشعوب الأخرى تُمثّل لأنظارهم في صورة المنحلة غير ذات الكفاية ؛ وأن البروسيين هم قادة الجنس البشرى ومجددو شبابه .

فيقرأ شباب ألمانيا هذا القول في المدرسة ويسمعونه في الكنيسة ، ويجددونه على صفحات كتب الأدب ، ثم يصبه فيهم بحمية وإيمان وثيق أستاذهم ، ويثبته فيهم كل أساتذتهم بلا استثناء . وإن المحاضرين في علم البيولوجيا والرياضيات لينفثون من موضوعاتهم الأصلية لينعموا بفقرات طويلة من الهذر الوطنى . ولم يكن

ليستطيع أن يقاوم مثل هذا السيل المتهمر من الإيحاء إلا من أوتوا عقولا قوية ذات أصالة غير عادية . وهكذا أقيمت في ذهن الألمان دون أن يشعروا فكرة تصور ألمانيا وقبصرها في صورة الشيء المستعلى الفاخر الفخم الذى لم ير العالم مثله من قبل ، صورة شعب صيغ على غرار الآلهة وألبس « دروعاً سابغات لامعة » وهو يهز « الحسام الألمانى البتار » وسط عالم من شعوب أدنى مرتبة ذات نفوس ميالة للشر .

ولقد أسلفنا إليك قصة أوروبا ، وفي إمكان القارئ أن يحكم هل كان بريق السيف الألمانى يخطف الأبصار حقاً بشكل ليس له من ضريب ؟ . إن « جرمانيا » كانت تُعطى المخدر عمداً ، ثم تُستبقى ثمة بطريقة مرتبة منظمة ، بواسطة هذا الضرب من البلاغة الوطنية . وإن أكبر جريمة اقترفها آل هوهنزولرن أن تاجهم كان يعبث بالتعليم عبثاً متواصلاً ملحاحاً ، وبوجه خاص بتعليم التاريخ . ولم تقترف أية دولة عصرية أخرى مثل هذا الاسم في حق التعليم . أجل إن حكم القلة (الأوليجركية) في الجمهورية البريطانية المتوجة ربما يكون عرقل التعليم ومنع عنه القوات ، ولكن آل هوهنزولرن قد أفسدوه واتخذوا منه بغياً .

ولسنا نغالى مهما بالغنا في توضيح تلك الحقيقة — التى هى أعظم حقائق تاريخ نصف القرن الأخير أهمية — إذا قلنا إن الشعب الألمانى قد بنت فيه بطريقة منهجية الفكرة القائلة بسيادة ألمانيا العالمية المؤسسة على القوة والجبروت ، والنظرية القائلة بأن الحرب ضرورة من ضرورات الحياة . وإنك لتعثر على مفتاح السياسة الألمانية في تعليم التاريخ فيما أثر عن الكونت مولتكه من قوله : « إن السلام الدائم حلم من الأحلام بل إنه ليس حلماً جميلاً . وإنما الحرب عنصر من عناصر نظام العالم أمر به الله . فلولا الحرب لأسن العالم وفقد نفسه في الروح المادية . » كذلك وجد الفيلسوف الألمانى نيتشه نفسه متفقاً في الآراء مع هذا الفيلد ماريشال الورع ... فيقول « إن من محض الوهم وجميل العاطفة ، أن يتوقع المرء شيئاً كثيراً ، بله أى شيء من البشرية إذا هى نسيت كيف تشب نار الحرب ولا يعرف الناس حتى يومنا هذا وسيلة تدعو كل شيء إلى الحركة والنشاط قدر ما تفعل إحدى الحروب الكبرى : تلك الطاقة

الحشنة التي يتخضع عنها المعسكر ، وذلك الضرب العميق من فناء الشخصية الذي يستقى وجوده من الكراهية ، وذلك الضمير المستقى من القتل ورباطة الجأش ، وتلك الحمية الراجعة إلى الجهد المبذول في إبادة الأعداء ، وذلك الكبرياء الذي يوحى بعدم الاكتراث بالخسائر ، بل بوجود المرء نفسه ، بل بوجود زملائه أيضا ؛ وذلك الضرب من رج النفوس رج الزلزال الذي يحتاجه الشعب إذا هو فقد حيويته .

وكان حتما أن يلحظ الناس في الخارج ذلك النوع من التعليم الذي كان يأخذ بأطراف الإمبراطورية الألمانية من أقصاها إلى أقصاها ، وكان حتما أن تنزعج له كل دولة أخرى وكل شعب آخر في العالم ، وكان حتما أن يستثير تحالفاً ضد الألمان ، خاصة وقد صاحبه مظاهره من استعدادات القوة العسكرية ، سرعان ما عقبها استعدادات للقوة البحرية ، هددت فرنسا والروسيا وبريطانيا على السواء . وأثرت تلك التربية أيضاً في أفكار الشعب الألماني وأخلاقه ومعنوياته .

فبعد ١٨٧١ كان الألماني في خارج بلاده يبرز صدره ويرفع عقيرته . فنزل العالم يحيط به جو من الدفع بالمناكب والدوس بالأقدام حتى في العمليات التجارية البحتة . وجاءت آلاته إلى أسواق العالم وغمرت سفنه البحار فكان لها رشاش من التحدى الوطني . بل لقد طالما استعمل مناقبه ومحاسنه نفسها وسيلة لتكدير صفو من عداه . (والراجع أن معظم الشعوب الأخرى ، ما كانت لتسلك إلا مثل هذا السبيل ، لو أنها لقيت مثل تجاربهم وتلقت نفس تعليمهم .)

وقد حدث بسبب بعض ما يحدث في التاريخ من مصادفات تتقمص الكوارث وتعجل بها ، أن حاكم ألمانيا وأعنى به القيصر غليوم الثاني كان يتجسم فيه التعليم الجديد لشعبه والتقاليد الهوهنزولرنية بأكمل أشكالها . تولى العرش في ١٨٨٨ وهو في التاسعة والعشرين ؛ وكان أبوه فردريك الثالث قد عقب جده غليوم الأول في مارس ولكنه توفي في يونيو من تلك السنة نفسها . وكان غليوم الثاني حفيداً للملكة فكتوريا من ناحية أمه ، ولكن لم يبد على مزاجه أى أثر للتقاليد الألمانية التحريرية التي تمتاز بها عائلة ساكس كوبرج جوتا . بل كانت رأسه مليئة بذلك الزبد الأجوف عن « التسلطية » الجديدة . وقد ميز توليته العرش بخطاب وجهه إلى جيشه وأسطوله ،

وجاء خطابه إلى شعبه بعد ذلك بثلاثة أيام . وبذلك ارتفعت في الجو نغمة عالية من الإحتقار للديمقراطية : « إن الجندي والجيش وليس الأغلبية البرلمانية هما اللذان التحمت على أيديهما أجزاء الإمبراطورية الألمانية بعضها ببعض ، وإلى لأضع ثقتي في الجيش » وهكذا أنكر الإمبراطور عمل المدرسين الألمان الذي قاموا به بصبر .

وكانت ثانياً دائرة الملك الشاب ، أن يأسر من مستشاره الشيخ بسمارك (١٨١٩ - ١٨٩٨ م) ، الذي تولى الإمبراطورية الألمانية الجديدة عيان عزله في (١٨٩٠ م) ولم تكن هناك أية خلافات عظيمة في الرأي بينهما ، ولكن الأمر كان كما عر عنه بسمارك . أن الإمبراطور قرر أن يتكون مستشاراً للشعب .

وماتان المبادئان هما التمسك بالانتماء الألماني للحياة ، إلى فيها التمسك والتمسك . وكان غليوم الثاني هذا يرى إلى إحصاءات صينيه في العالم ، فحبة احدى صموتاً مما أناه أي ملك آخر في العالم . بسمارك كان ما عرفت في كل أوروبا شخص الباهل الجديد ، وهو على الامور في ذي ، ما كبرني أشد ما يكون بريقاً والشاعرا ، وبشفرس بعينه تفرس ، الكمي التسجاع وقد قتل سارباة قتلا عظيمًا ، كما أخفى بمهارة ذراع الأيسر الأكثع الصغير الحجم . وكان يضع على صدره لوحات من المعدن الفضي البراق ويرتدي عباءات طويلة بيضاء . وتجلت في الأفق سحاب عظيمة من القلق . وكان واضحاً أنه يرى في نفسه شخصاً وضعت بين يديه مقدرات أمور عظيمة ، ولكن انقضى على الناس زمن لم يتبينوا فيه ما هي تلك المقدرات الخاصة العظيمة . فلم يكن هناك هائف يهتف في دلي أنه لا بد محط إمبراطورية عظيمة (١) .

وقد داخل الانزعاج كثيراً من رعاياه لما شهوده عليه من مظاهر مسرحية أعقبا عزل بسمارك ، ولكن اطمأنت قلوبهم من فورهم إلى أنه إنما يستعمل نفوذه في توطيد السلم وفي تمكين الروابط المتينة بين أجزاء ألمانيا . ولقد أكثر من السفر ، إلى لندن

(١) يشير المؤلف هنا إلى النبوءة التي تلقاها كروسوس من وحى دلفي عندما استشاره في أمر محاربة قورش (انظر ص ٣٤٣ ط ٢ المعالم) . (المترجم)

وفيينا وروما (حيث قام بمحادثات خاصة مع البابا) وإلى أثينا ، (حيث تزوجت شقيقته من الملك في ١٨٨٩) وإلى القسطنطينية . فكان أول عاهل مسيحي حل ضيفاً على سلطان . كذلك ذهب إلى فلسطين . ونقبت له في سور بيت المقدس القديم بوابة خاصة حتى يستطيع أن يدخل المدينة راكباً ؛ إذ كان الدخول إليها على القدم أمراً لا يتناسب ومكانته . وحمل السلطان على البدء بإعادة تنظيم الجيش التركي على أسس ألمانية وبقيادة ضباط ألمان .

وفي ١٨٩٥ أعلن أن ألمانيا « دولة عالمية كبرى » وأن « مستقبل ألمانيا يقوم في صفحة البحر » — غير عانى إلى أن البريطانيين كانوا يعدون أنفسهم مستوين على سطحه من قبل وأصحاب الحق فيه . وأخذ يهتم أكثر فأكثر ببناء بحرية عظيمة . كذلك وضع الفن الألماني والأدب والألماني تحت رعايته ؛ واستعمل نفوذه للاحتفاظ بالحروف الألمانية الخاصة السوداء المتعبة للبصر دون الحروف اللاتينية التي تستعملها بقية أوروبا الغربية ، كذلك ناصر حركة الكتلة الألمانية الكبرى التي تدعى انضواء الهولنديين والإسكندناوين وفلمنكي بلجيكا وألمان سويسرا في عضوية أخوة ألمانية عظيمة — وهي في الواقع مادة طيبة يمكن تمثلها في إمبراطورية جائعة صغيرة تريد أن تكبر وتنمو . وغطى ضياؤه الباهر على ضياء كل عاهل في أوروبا .

واستغل الشعور العدائي العام الذي فشا في كل أوروبا ضد بريطانيا بسبب الحرب بينها وبين جمهوريتي البوير ، لكي يواصل خططه الرامية إلى تكوين أسطول عظيم ، فأدى ذلك عدا الفم السريع والتحدى الظاهر في اتساع مستعمرات الإمبراطورية الألمانية في أفريقيا والمحيط الهادى ، إلى غلبة الانزعاج على البريطانيين وإثارة ثائرتهم . وألنى أحرار الرأى في بريطانيا بوجه خاص أنفسهم تحت ضرورة تقضى لها نفوسهم حقاً ، تضطروهم أن يناصروا فكرة الاستمرار في زيادة أساطيلهم البحرية البريطانية زيادة متواصلة . قال : « لن يهدأ لى بال حتى أرفع بحريتي إلى نفس المستوى الذى يتبوأه جيشى » . ولم يكن أشد الناس في الجزائر البريطانية حباً في السلام ليستطيع أن يتجاهل هذا التهديد . وكان

١٤٠٩

قد أخذ من بريطانيا في ١٨٩٠ جزيرة هليجولند الصغيرة ، فحولها إلى قلعة بحرية عظيمة .

وكان كلما كبرت بحريته كثرت مشروعاته ومطامحه . فأعلن أن الألمان هم « ملح الأرض » وأنهم يجب « ألا يمسهم في خدمة المدنية لغوب » ، وأن ألمانيا شأن روح روما الإمبراطورية يجب أن تتسع وتفرض على الناس نفسها . وقد نطق بهذا التصريح في الأراضي البولندية مناصراً به ما تبذله ألمانيا من مجهودات متواصلة للقضاء على اللغة البولندية والثقافة البولندية ، ولصبيغ نصيب ألمانيا من بولندا بالصيغة الألمانية . ولقد نعت الله بأنه « حليفه المقدس » . وكان الملك في الدول الاستبدادية القديمة إما هو الرب نفسه أو وكيل الرب المختار ؛ فأما القيصر فكان يعد الله تابعه الأمين . قال في كثير من مظاهر المحبة والتودد « ربنا الشيخ » . وعندما إستولى على كياوتشاو انطلق يتكلم عن « القبضة الفولاذية الألمانية » . وعندما ناصر النمسا على الروسية تكلم عن ألمانيا في « دروعها اللامعة » .

ولما أصيبت روسيا بالكوارث في منشوريا في ١٩٠٥ إنطلقت الروح الاستعمارية الألمانية من عقالها لتقوم باعتداءات أكثر جراءة . إذ بدأ أن الخوف من قيام فرنسا والروسيا بهجوم مشترك أخذ خطره يزول . وقام الإمبراطور بشيء يشبه الرحلة الملكية في الأراضي المقدسة ، ونزل في طنجة ليؤكد لسلطان مراكش مناصرته له على الفرنسيين ، ثم أنزل بفرنسا إهانة بليغة بإجبارها على عزل وزير خارجيتها دلكاسيه تحت التهديد بإعلان الحرب عليها . كذلك زاد في شد الروابط بين النمسا وألمانيا ، وفي (١٩٠٨) تحدت النمسا - بمناصرته - كل أوروبا بأن أخذت من الترك الولاياتين اليوغسلافتين البوسنة والهرسك . وبهذا التحدى البحري لبريطانيا وبهذه الاعتداءات على فرنسا والسلافيين أجبر بريطانيا وفرنسا والروسيا على إنشاء تفاهم دفاعي ضده ؛ وكان لضم البوسنة أثر آخر هو إغضاب إيطاليا ، التي كانت حليفة له حتى ذلك الحين .

تلك هي الشخصية التي أبى شوئم الطالع إلا أن يجلسها على عرش ألمانيا لكي يستثير العالم كله وينظمه في سمط واحد ويجعل من المستحيل عليه أن يطيق الكبرياء

الطبيعى والاعتداد بالذات من شعب عظيم أفلت آخر الأمر بعد قرون طويلة من
الفرقة والضعف - من قبضة حكم متفرق لثلة من الأمراء . ثم اتخذت كلمته
وحاز لإحترام العالم . وكان طبيعياً أن قادة ألمانيا الجديدة هذه في ميادين التجارة
والصناعة الذين أخذوا عند ذلك يثرون ، وأن المالكين المهتمين بأعمال الاستغلال
وراء البحار ، وأن الموظفين والسوقة ، - لا بد واجدون في هذا الزعيم شخصياً
يروقهم كثيراً ويتفق مع أذواقهم تماماً . والكثير من الذين كانوا يظنونهم أهوج
شديد التظاهر في قرارة نفوسهم ، كانوا ينصرونه في العلن لأنه كانت له نغمة
نجاح أخاذة . ليحيا القيصر (Hoch der Kaiser) .

ومع هذا فإن ألمانيا لم تسلم نفسها دون مقاومة للتيار الاستعماري المنهم . فإن
عناصر هامة في الحياة الألمانية كانت تكافح ضد هذه الأوتوقراطية الجديدة المختلة .
فرفضت الشعوب الألمانية القديمة والبافاريون بوجه خاص أن تبذلهم الروح البروسية .
وكذلك حدث مع انتشار التعليم وانتقال ألمانيا السريع إلى الصناعة ، أدت طورت
هيات العمال المنظمة فكراتها وأن ظهرت حركة عداء مطرد لشقشقة حاملها في شئون
العسكرية والوطنية . وأخذ ينمو في البلاد حزب سياسى جديد ، هو حزب
الديمقراطيين الاشتراكيين الذى كان يقول بمبادئ ماركس . واطرد نمو هذا الحزب
بالرغم من كل أنواع المعارضة التى صدرت من ناحية الهيئات الرسمية والدينية ،
وبالرغم من قوانين القمع الصارمة التى صدرت ضد دعايته وضد كل اتحاد
أو تكتل .

وراح القيصر يتوعده المرة بعد الأخرى . وسبق زعمائه إلى السجون أو طردوا
خارج ألمانيا . ومع هذا فإن الحزب تزايد ونما . فإن عدد ناخبيه عند ما تولى القيصر
العرش لم يكن يتجاوز نصف المليون . وأربى ناخبوه في ١٩٠٧ على الثلاثة الملايين عدداً .
وحاول القيصر أن يقبل أشياء كثيرة كالتأمين ضد الشيخوخة والمرض متخذاً منها
منحة يمن بها عليهم ، وهى أشياء كان الحزب يطالب بها للعمال بوصفها حقاً أصيلاً
لهم . وكان اعتناقه مذهب الاشتراكية أمراً ملحوظاً ، ولكنه لم يكسب مذهب التسلطية
(Imperialism) أنصاراً جديداً . وشرع الحزب يشهر بأطباعه البحرية تشهيراً مريراً

تجلت فيه الكفاية والافتقار . وأخذ هذا الحزب القائم على الرجل العادى وما ركب فيه من سداد البصر بالأمور يهاجم مغامرات الرأسماليين الألمان المحدثين فى بلاد المستعمرات مهاجمة متواصلة لا هوادة فيها . على أن الحزب الاشتراكي الديمقراطي كان يولى الجيش مناصرة متوسطة ، لأنهم مهما بلغ من كراهيتهم للأوتوقراطي المستبد الذى يتضخم فى أرض الوطن ، فلهذا ما كانوا يكرهون ويريدون القضاء على الأوتوقراطية الروسية الهمجية (المتبررة) الرجعية الرابعة على العالمين .

وكان الخطر البارز أمام ناظرى ألمانيا هو أن تورم هذه الروح الأممية الألمانية ، بريطانيا والروسيا وفرنسا على القيام ضدها بهجوم متوحد مشترك عليها . أى التراجع خطة هجومية دفاعية . وكان القيصر يتأرجح بين اتخاذ موقف الشك والحيطة وبين محاولات سمجة لاسترضائها ، على حين كان أسطول يأسو رثان يصر التماس للاشتباك مع الروسيا وفرنسا . وعندما اقترحت الحكومة الألمانية فى ١٩١٤ أن تطلب من البلانيين عن إقامة المنشآت البحرية لمدة عام واحد ، رفض الاقتراح .

ومن نكد طالع القيصر أن نكته الأيام بولى عهد ووريش أنه تعصباً ذات هو هنزولرن ، وللإستعمار والكتلة الألمانية من أبيه نفسه . تغذى بالبيان الشهادة الإستعمارية . وكانت لعبه جنوداً وبنادق ومدافع . فحاول أن يختطف قبل الأوان محبة شعبه بأن يز أباه فى إتخاذ مظاهر الوطنية والعدوان . وكان الناس يشعرون أن أباه قد دلف إلى الكهولة وإلى ما يرافقها من زيادة حذر واحتراس . فجدد ولى العهد شباب أبيه . ولم تكن ألمانيا بلغت قط من قبل مثل هذه الدرجة من القوة ، ولا من الاستعداد لمغامرة جديدة كبيرة ولحصول جديد من الانتصارات . وقد علم أن الروس فى أضمحلال وأن الفرنسيين فى فساد وانحلال وأن الانجليز على شفير حرب أهلية .

ولم يكن هذا الولى العهد الشاب إلا نموذجاً لشباب الطبقة العليا الألمانية الوثاب الوفير العدد فى ربيع ١٩١٤ . إذ كانوا بأجمعهم نهلوا من كأس واحدة . فكان أساتذتهم ومعلموهم وخطباؤهم وزعمائهم وأمهاتهم وحيبياتهم ، يعدونهم للمناسبة العظيمة التى كانت عند ذاك وشيكة فى متناول الأيدى . وكان يملأ نفوسهم شعور

فياض مختلف بالصرع الداني الوشيك ، وبالنفي يدعوهم إلى القيام بأعمال جسام هائل ، وبالنصر على البشرية في الخارج ، والفوز على العمال المعاندين في الداخل . وكانت البلاد متوترة تنفزز للحرب كما يتوثب متبار رياضي عند نهاية تدريبه .

٣ - الروح الإستعمارية في بريطانيا وإيرلندا

كانت ألمانيا طيلة فترة الهدنة المسلحة هي البادئ بكل شيء والقدرة المحتدة في كل شيء في أوروبا بأجمعها . وكان تأثير مبادئها الجديدة الخاصة بالاستعمار العدواني قوياً بوجه خاص في الذهن البريطاني^(١) ، الذي كان واهن القدرة على مقاومة أية طعنة ذهنية قوية توجه إليه من خارج بلاده . وكان دافع النشاط التعليمي الذي بعثا إليه « الأمير الزوج » قد ذهب بوفاته ؛ وحال بين جامعي أوكسفورد وكبردج وبين قيامهما بواجبهما في تنقيح تعليم الطبقة العليا تنقيحاً فعالاً ، ما قام في سبلهما من ألوان المخاوف والتحيز التي ثارت بسبب ما يسمونه باسم « الكفاح بين العلم والدين » - في نفوس رجال الدين الذين كانوا يتسلطون عليهما بواسطة المجامع الإكليروسية ؛ وأدت الحصومات الدينية إلى تعجيز التعليم العام وخلقت كسيحاً هزبلاً ، وزاد حاله سوءاً شدة تفتير السلطات العامة عليه في النفقات ، ورغبة أصحاب الأعمال في استخدام الأطفال ، واعتراض أصحاب مذهب الفردية على « تعليم أبناء الناس الآخرين » .

وكانت تقاليد الانجيز القديمة ، وأعني بها تقاليد الصراحة في القول واحترام القانون والرغبة في العدالة ، وقدر بعينه من الحرية الجمهورية ، قد ذوت ذوياً جسيماً أثناء ويلات الكفاح ضد نابليون . وكانت الروح الرومانسية ، التي كان بطلها الأكبر هو الروائي الكبير السيروتراكوت ، قد دست في الخيال القومي عدوى التلهف على الزاهي البراق والجميل الرائع . وكان المستربريجز الشخصية

(١) يتحدث المؤلف عن قوة أثر ألمانيا وروحها الاستعمارية العدوانية في الذهن البريطاني ، كأنما ذلك الذهن طفل ساذج غريب ليس له تاريخ القرون الطويلة من المكيافلية الماكرة والاستعمار العدواني الأسود ! ! . (المترجم)

الكوميديّة الإنجليزيّة في مجلّة بَنَش (Punch) في ١٨٥٠ ، ١٨٦٠ ممثلاً تمثيلاً لأبأس به
لروح الحركة الجديده باتخاذ زى أهل المرتفعات الاسكتلنديّة وترصده الغزلان .

وسرعان ما خطر ببال المستر بيريمز شيء عدّه حقيقة مشرقة جديرة بالتصديق لم
يلحظها من قبل ، هو أن الشمس لا تغرب عن ممتلكاته أبداً ! ! ! . فاقطر الذي
قدم للمحاكمة كلايف ووارن هاستنجس لمعاملتهما الآمة لأهل الهند قد اقتنع الآن
تمام الاقتناع بأن يعدهما شخصين من أهل الفروسية النامة والاخلاص المطلق . إذ أنهما
من « ناة الإمبراطورية » . وحدث بتأثير سحر خيال دزرائيلي الشرقى الذى جعل
من الملكة فكتوريا « إمبراطورة » ، أن التفت الرجل الإنجليزي راضياً مسروراً
نحو الأبهات الغامضة التى تنطوى عليها « الإمبريالية » العصرية .

وشرع كل من علم السلالات البشرية (الإثنولوجيا)^(١) المحرف والتاريخ المشوه
الذين كانا يصدد إقناع الخليط الألماني المكون من العناصر السلافية والكتلية
والتيوتونية بأنها جنس مدهش قائم بذاته ، — أن يكون مثلاً يحتذيه الكتاب الإنجليزي
الذين أنشأوا يفخمون اختراعاً إثنولوجياً جديداً هو « الأنجلو ساكسون » . وقدم هذا
المزيج العجيب إلى العالم بوصفه الأوج الذى بلغته الانسانية ، والتاج والثواب الأوفى
للجهود المتراكمة التى بذلها الإغريق والرومان والمصريون والأشوريون واليهود والمغول
وأمثالهم من السلف المنحط ، المؤذن بفخامته البيضاء . وكان للأسطورة السخيفة
الخاصة بالفوق الألماني أثر كبير في إيفار صدور البولنديين في بوزن والفرنسيين
في اللورين ، ولم يقتصر أمر الأسطورة الأشد مهزلة أسطورة تفوق الأنجلو ساكسون ،
على مجرد زيادة الحق من الحكم الإنجليزي في إيرلندا ، بل حطت من روح
المعاملات البريطانية مع الشعوب « المحكومة » في كل أرجاء العالم قاطبة . ذلك أن
إنقطاع حبل الاحترام والتوقير عن ازدراع الأفكار الرفيعة ليس لها إلا معنى
واحد هو امتناع التأدب والعدالة .

ولم تقف محاكاة المفاهيم الألمانية الخاطئة في الوطنية عند حد هذه الخرافة

(١) الإثنولوجيا : السلالات البشرية وتفرعاتها . (المترجم)

« الأنجلوساكسونية » . فإن الناهين من الشبان في الجامعات البريطانية إبان العقدين التاسع والعاشر عمدوا وقد برموا بما يتبدى في السياسة الداخلية من تفاهة وقلة إخلاص ، إلى تقليد ومنافسة هذه التعاليم الجديدة التي كان ينشرها خصم إستعماري لومى النزعة صلف ، خبيث قوى وأعنى به ذلك المزيح بين مكيفللي وأبيلا الذي كان يفرص على فكر ومناشط ألمانيا اللتية . فقد رأى شباب بريطانيا أوثلك أن بلادهم كذلك يجب أن تكون لها دروعها اللوامع وأن تلوح بحسامها البتار

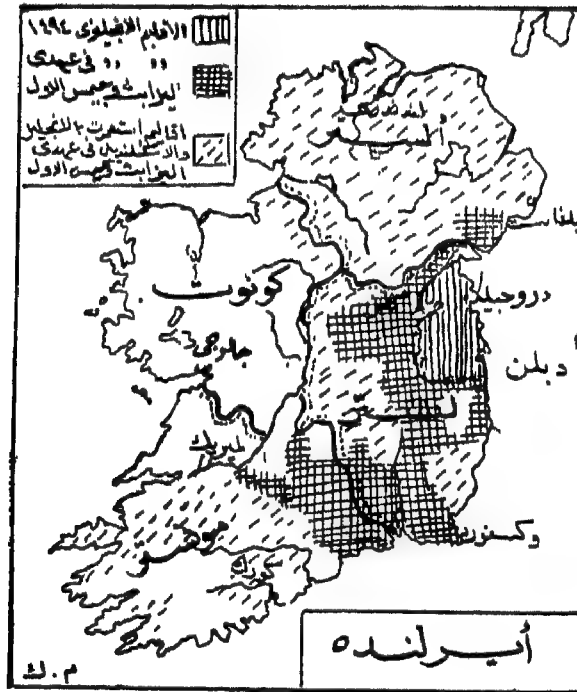
وقد وجد الاستعمار البريطاني الجنديد شاعره في شخص المستر كبلنج ووجد تأييداً عملياً من جانب عدد من أرباب المصالح المالية وأصحاب الأعمال الذين كان يضحى لهم نور الاستعمار طريق الاحتكار والاستغلال . وحمل هؤلاء الانجليز من دعاة المطالبون بالصباغ البروسى محاكاتهم لألمانيا إلى أبعد الغايات . ولا مرأى في أن أوروبا الوسطى هى مجموعة إقتصادية واحدة متصلة الحلقات ، تُشغّل على أحسن حال بوصفها وحدة واحدة ؛ وقد فازت ألمانيا الجديدة باتحاد جمركى عظيم الشأن ، وهو إتحاد زولفرين^(١) (Zollverein) يضم كل أعضاء أسرتها الألمانية . وطبيعى أن تصبح مجموعة متماسكة تهاسل قبضة اليد المقبوضة . على حين كانت الامبراطورية البريطانية مفتحة الجنبات مثل يد مبسوطة في كل أجزاء العالم . وكان أعضاؤها مختلفين في الطبيعة والحاجات والعلاقات ، لا تربطهم مصلحة مشتركة اللهم إلا الضمان المشترك للأمنة والدفاع . على أن الاستعماريين الجدد كانوا عن هذا الفارق في عمارة وضلال . فلئن كان لألمانيا الجديدة إتحاد جمركى ، فإن الإمبراطورية البريطانية يجب أن تجارى العصر والزى ؛ ولا بد لها أن تعرقل في كل مكان التطور الطبيعى لعناصرها الأولى بواسطة « التفضيلات والتمييزات الإمبراطورية » وما إليها . . .

ومع هذا فإن الحركة الاستعمارية في بريطانيا العظمى لم تبلغ قط من السلطان والإجماع ما بلغت في ألمانيا . فلإنها لم تكن نتاجاً طبيعياً لأى من الشعوب البريطانية الثلاث المتحدة وإن تفارقت ، فلم تكن مما يشاكل طبائعهم^(٢) . ولم تكن الملكة

(١) زولفرين : تطلق هذه الكلمة على الاتحاد الجمركى الذى تم بجهود بروسيا في سنة ١٨٣٤ متدرجاً من إدماج إتحادات جمركية صغرى بعضها ببعض إلى تكوين الاتحاد القومى الألمانى . (المترجم)
(٢) يشير الكاتب هنا إلى المؤلفين الأحرار الذين كتبوا في إنجلترا ضد الاستعمار مثل برنارد شو وغيره . (المترجم)

١٤١٥

ثكنوريا وخلفاؤها إدوارد السابع وجورج الخامس بميالين لا بحكم الجنس (بين ذكر وأنثى) ولا بحكم الشخصية والمظهر أو المزاج أو التقاليد ، أن يرتدوا « دروعاً لامعة » ولا أن يلوحوا « بقبضات من حديد » ولا أن يهزوا « سيوفاً بتارة » على طريقة آل هوهنزولرن . وكان لهم من الحكمة ما حملهم على الامتناع عن القيام بأى تدخل صريح فى الأفكار العامة . كذلك أثارت هذه الحركة الاستعمارية البريطانية منذ أول نشوئها عداوة العديد الكبير من الكتاب الإنجليز



(شكل ٢٠٩)

والإيرلنديين والاسكتلنديين الذين أبوا أن يعترفوا بهذه القومية البريطانية الجديدة أو أن يقبلوا النظرية القائلة بأنهم هم الأنجلو ساكسون أصحاب مرتبة السوبرمان هذه . وفضلا عن ذلك كانت كثير من المصالح الكبيرة فى بريطانيا ، تخص بالذكر منها شركات الملاحة ، قد أقيمت على أساس التجارة الحرة ، وكانت ترمق المقترحات المالية للاستعماريين الجدد ، والمغامرين الماليين والتجارين الجدد الذين كانوا يرتبطون بهم ، — بنظرة ارتياب لها ما يبررها .

على أن هاته الفكرات انتشرت انتشار النار في الهشيم في الطبقة العسكرية وهيئات الموظفين بالهند ومن إليها . وكان هناك حتى ذلك الحين جو من التماس المعاذير يحيط برجال الجيش في إنجلترا . فإنهم كانوا غرباء عن تلك الأرض . وما قد حانت الفرصة في تلك الحركة التي تجعلهم على درجة من الأهمية الفاخرة تعادل ما لقرينهم حامل السلاح في بروسيا . كذلك وجدت فكرة الاستعمار مناصرة بين صفوف أصحاب الصحف الشعبية الرخيصة التي أخذت عند ذاك في الظهور لكي تمنح طبقة القراء الجديدة التي أوجدها التعليم الأولى . وكانت بهذه الصحافة حاجة إلى فكريات صريحة زاهية بسيطة مكيفة وفقاً لحاجات القراء الذين لم يكادوا يشرعون في عملية التفكير بعد .

وبالرغم من هذه المناصرة ومن مواءمتها القوية للغرور القومي لم يستطع المذهب الاستعماري البريطاني أبداً أن يتشرب الشعوب البريطانية بكامل كبتاتها . فليس الإنجليز شعباً طبعاً من الناحية العقلية . وكان من أثر الحماسة الصاخبة التي تكاد تكون قسرية ، تلك الحماسة للمذهب الاستعماري وسياسة التعريفات الجمركية المرتفعة التي ينتهجها حزب التوري^(٢) القديم ، وطبقة العسكريين ورجال الدين في المناطق الريفية ، وصلات الموسيقى والأجنبي المتجنس والثرى السوقي وأصحاب الأعمال الجدد الكبار ، - أن مالت طبقات العامة البسطاء ، وبوجه خاص الذين تنظمهم الجماعات ، إلى اتخاذ وضع التشكك والارتياب . فلئن كانت القروح الأليمة التي مستنا من هزيمة ماچوبا دفعت البلاد إلى مواصلة القتال لفتح جمهوريتي البوير في جنوب إفريقيا ، ذلك الفتح الفادح النفقة الشديد المتاعب الذي لم تكن لنا به حاجة ، فلقد أنتج الإعياء من هذه المغامرة ارتكاساً نحو الاعتدال والعدالة بلغ من قوته أن أعاد الحكم إلى يد حزب الأحرار ، وأن أزال أسوأ آثار الشر بإنشاء اتحاد جنوب أفريقيا الكنفدرالى .

واطرده التقدم الحسيم في التعليم الشعبي وفي استرداد المصالح العمومية والثروة

(١) حزب التوري القديم : هو حزب المحافظين في الزمن الحاضر . (المترجم)

العامة من قبضة القلة المالكة لها . كذلك حدث في سنوات الهدنة المسلحة تلك ، أن أصبحت الشعوب البريطانية الثلاثة أقرب ما تكون من تسوية ما بينها ، وبين إيرلندا من سوء تفاهم طال أمده ، تسوية تقوم على أسس عادلة معقولة نوعاً ما . ومن سوء طالعهم أن الحرب العظمى فاجأتهم وهم في غمرات أزمة هذا الجهد .

وإيرلندا شأن اليابان لم تبرز شخصيتها إلا قليلاً في هذه المعالم التاريخية ، وذلك لسبب واحد يجمع بين البلدين ، هو أن كلاهما أرض جزيرة متطرفة تتلقى الكثير ولا تعطى حتى يومذاك إلا الشيء القليل لحقل الدراما البشرية العامة . وسكانها شعب مغلط جداً . فإن أساسه وربما مادته الكبرى أيضاً ، من نبعة البحر الأبيض الدكناء العيون والشعر ، السابقة على النوردين والآريين على السواء ، شأن شعب الباسك وسكان البرتغال وجنوب إيطاليا . وقد غمرت هذا الأساس الأصل قرابة القرن السادس ق . م (بدرجة لا ندرى مداها) موجة من الشعوب الكلتية ، بلغت على أقل تقدير من القوة ما جعلها تُرسى في البلاد أسس لغة كلتية ، هي اللغة « الإيرلندية الجالية Irish . Gaelic » . وحدثت غدوات وروحاح ، ثم غزوات تلتها غزوات أخرى مضادة ، قام بها هذا أو ذاك من الشعوب الكلتية والمصبوغة باللون الكلتى بين إيرلندا واسكتلندا . وويلز وإنجلترا . ودخلت الجزيرة في الدين المسيحي إبان القرن الخامس . ثم حدث بعد ذلك أن أغار أهل الشمال على الساحل الشرقى واستوطنوه ، على أننا لا ندرى المدى الذى بلغوه في إحداث تغيير عنصرى .

وجاء الإنجليز النورمان في ١١٦٩ في زمان الملك هنرى الثانى وما تلاه . وربما كان العرق التبتونى معادلاً للكتلى في القوة أو أقوى منه في إيرلندا العصرية . وقد كانت إيرلندا حتى ذلك الحين قطعاً قبلياً همجياً ليس به إلا القليل من مواطن الأمانة التى وجدت فيها الميول الفنية للعنصر القديم مجالا تبرز فيه نفسها في أشغال المعادن وتحلية الكتب المقدسة بالصور . وقد حدث في القرن الثانى عشر أن التاج البريطانى قام بفتح البلاد فتحاً غير تام ، وأنشأ الإنجليز والنورمان في نواح مختلفة من البلاد مستقرات متناثرة هنا وهناك . وكان جلياً منذ البداية أن هناك فوارق عميقة في المزاج بين الإيرلنديين والإنجليز ، وهى فوارق زاد في شدة وطأتها

الفوارق اللغوية ، وأصبحت هذه الفوارق أشد وضوحاً بعد الإصلاح الديني البروتستانتي . فاعتنق الإنجليز المذهب البروتستانتي ، وتجمع الإيرلنديون بحافز رد الفعل الطبيعي حول الكنيسة الكاثوليكية المضطهدة .

وكان الحكم الإنجليزي في إرلندة منذ البداية حرباً أهلية متقطعة ترجع إلى ما بين الشعبين من الخلاف في اللغة وإلى الاختلاف في قوانين ملكية الأراضي والإرث . وما نحن بمستطيعين أن نحدد في هذا المقام عن الفتن والمذابح والقهر التي حدثت بالجزيرة التعسة إبان عهدي إليزابيث وجيمس الأول . على أنه حدث في عهد جيمس خلاف جديد بسبب مصادرة مساحات عظيمة من مقاطعة ألستروسكني مستوطنين اسكتلنديين من معتنقي المذهب البرزبترى (Presbyterian) . فكونوا بذلك مجتمعاً بروتستانتيًا يتنازع بحكم الضرورة تنازعاً مستديماً مع سائر إرلندة الكاثوليكية .

ولما حدثت المنازعات السياسية في حكم شارل الأول والجمهورية وحكم جيمس الثاني ووليم وماري ، كان الجانبان المتنازعان الإنجليزيان يحدان في الأحزاب الإيرلندية من يعطف عليهما ومن يخالفهما . وهناك في إرلندة مثل سائر يقول إن مصائب إنجلترا فوائدها عند إرلندة ، كذلك كان الشقاق الأهلي الإنجليزي الذي أفضى إلى إعدام سترافورد ، مناسبة أخرى لإعمال الذبح في الإنجليز بإرلندة (١٦٤١) . وحدث فيما بعد أن انتقم منهم كرومويل على هذه المذبحة بأن نكل تنكيلاً شديداً بكل رجلا، وجده يحمل السلاح ، وهي قساوة لا تزال ذكرها الشديدة المرارة عالقة بأذهان الإيرلنديين الكاثوليك . وعادت إرلندة فيما بين سنتي ١٦٨٩ ، ١٦٩١ فزقتها الحرب الأهلية . فإن جيمس الثاني طلب عون الإيرلنديين الكاثوليك على وليم الثالث ، فهزم أنصاره هزيمة منكرة في معركة بوين (١٦٩٠) وأوغريم (١٦٩١) .

ثم تمت بين الطرفين تسوية هي معاهدة يمبريك ، وهي تسوية كانت بدورها مثار نزاع ، وعدت فيها الحكومة الإنجليزية وعوداً كثيرة في شأن التسمح مع الكاثوليك ومن إليهم ، ولكنها لم تف بوعودها . وما برحت لمعاهدة يمبريك ذكرى مريرة في قصة الحزازات الإيرلندية الطويلة الأمد . وليس بين الإنجليز من سمع قط باسم معاهدة

ربك هذه إلا أقلية نسبية ، فأما في إرلندة فلإنها لاتنى تُقرح النفوس إلى يومنا هذا

وكان القرن الثامن عشر قرناً تجمعت فيه المظالم والإحزن . فإن أنانية الإنجليز في الشئون التجارية أدت إلى فرض قيود ثقيلة على التجارة الإيرلندية ، وقضت في الجنوب والغرب على تطور صناعة الصوف . وما كان أهالي آلستر البرونستانت يلقون معاملة أحسن مما كان يلقاه الكاثوليك ، ومن ثم كانوا في مقدمة العصاة . وقامت في القرن الثامن عشر فن على توزيع الأراضي كان شوبها في الشمال أشد منه في الجنوب .

سنوجز لك فيما يلي بقدر ما يتيح لنا ضيق هذا المقام من الوضوح وجوه التشابه والتباين بين موقعي الإنجليز والإرلنديين في هذا الزمان . كان لإرلندة برلمان ، ولكنه كان برلماناً يروتستانتياً ، تكوينه وسلطاته أضيق حدوداً ورجاله أشد فساداً من البرلمان الإنجليزي المعاصر له . وقامت في دبلن وما حولها حضارة جسيمة ، وقدر كبير من النشاط الأدبي والعلمي ، يدور باللغة الإنجليزية ويتمركز في جامعة ترينتي (Trinity) كولدج البروتستانتي . تلك هي إرلندة التي أنتجت سويت وجولد سميث وبرك وبركلي وبويل . وكانت في جوهرها شعبة من الثقافة الإنجليزية . ولم يكن فيها خصيصة إرلندية واحدة تميزها . ذلك أن الديانة الكاثوليكية واللغة الإيرلندية كانت أشياء منبوذة مضطهدة مزوية في الظلمات في ذلك الزمان .

ومن إرلندة هذه التي تغشاها الظلمات نشأت إرلندة القرن العشرين المتكرهة المعاندة . وكان البرلمان الإيرلندي وأدب إرلندة الرفيع وعلمها وثقافتها أموراً كان من الطبيعي أن تنجذب صوب لندن ، لأنها كانت جزءاً لا يتجزأ من العالم اللندنى . وكان كبار أصحاب الأراضي يذهبون إلى إنجلترا للمقام بها ويعلمون أبناءهم في ربوعها . وكان معنى هذا هو استنزاف مستمر للثروة من إرلندة إلى إنجلترا في شكل إيجار الأراضي ، الذي ينفق أو يستثمر خارج البلاد . وكان من أثر الزيادة في سهولة المواصلات أن اطردت هذه الحركة ازدياداً ، وأن استنفضت ما في دبلن واستنزفت دماء إرلندة . وفي (أول يناير ١٨٠١) صدر « قانون توحيد البرلمانيين » فكان هو

الائتلاف الطبيعي بين مجموعتين متقاربتين تقارباً تاماً . أعنى بين البرلمان الأنجلو إيرلندى والبرلمان البريطانى ، وكلاهما هيئة أوليجركية وكلاهما فاسد من الناحية السياسية فساداً متشاكلاً . وقامت ضد الاتحاد معارضة قوية لم تصدر من جانب الإيرلنديين الكاثوليك بنفس القوة التى صدرت بها عن البروتستانت المستقرين فى إرلندة ، وحدث فى ١٨٠٣ عصيان فاشل بقيادة روبرت إرمت . وبعد أن كانت دبلن مدينة أنجلو إيرلندية رائعة فى منتصف القرن الثامن عشر ، غادرتها الحياة الذهنية والسياسية شيئاً فشيئاً ، وغزاها إيرلنديو إرلندة الأقحاح . وذوت منها الطبقة الراقية رويداً رويداً وحلت محلها حياة طبقة الموظفين التى تركز حول نائب الملك نزيل قلعة دبلن ، وخفقت حياتها الفكرية خفقة ثم همدت ردىاً من الزمان وهى بين الحياة والموت .

ولكن على حين كانت إرلندة فى عهد سوفت وجولد سمث جزءاً لا يتجزأ من انجلترا فى زمن پوب (PoPe) والدكتور جونسون والسير چوشوا رينولدس ، وعلى حين لم يكن هناك مطلقاً ولا يوجد حتى اليوم أى فارق محدد اللهم إلا الفارق الجغرافى - بين الطبقتين الحاكتين فى كل من انجلترا وإرلندة ، فإن عالم العامة والدعماء الإيرلندى وقرينه الإنجليزى كانا متباعدين فى الجوهر أشد التباعد .

كان كفاح الديمقراطية الإنجليزية الشاخص نحو التعليم ، والمتطلع إلى الاعتراف بحقوقه السياسية مخالفاً فى كثير من الوجوه لكفاح الطبقات الدنيا الإيرلندية . فإن بريطانيا كانت تنتج شعباً صناعياً عظيماً من بروتستانت أو متشككين . حقاً إنه كان بها عمال زراعيون ولكن لم يكن بها فلاحون من صغار الملاك . وكانت إرلندة وهى بلاد خلو من الفحم ولها تربة أضعف وأصحاب أملاك يعيشون فى انجلترا ، قد أصبحت أرض فلاحين من صغار الملاك الذين يدفعون الإيجارات . وسمح المسئولون لزراعتها بأن تنحط المحطاطاً مطرداً حتى أصبحت قاصرة على زرع البطاطس وتربية الخنازير . وكان الناس يتزاوجون ويُعقبون . ولولا احتساء شىء من الويسكى لمن استطاع إليه سبيلاً وقليل من العراك ، فإن تسليتهم الوحيدة كانت منحصرة فى " . وإليكم النتائج الرهيبة لتلك الحال ، فإن عدد سكان إرلندة :

١٤٢١

في ١٧٨٥ كان ٢,٨٤٥,٩٣٢ نسمة

في ١٨٠٣ بلغ ٥,٥٣٦,٥٩٤ نسمة

وبلغ ١٨٤٥ ٨,٢٩٥,٠٦١ نسمة

وحدث في تلك السنة أن البطاطس المسكين المكثود لإنهار تحت حمله الضخم المتزايد من السكان ، فحدثت مجاعة رهيبة . فمات الكثيرون ، وهاجر الكثيرون ، إنتقلوا إلى الولايات المتحدة بوجه خاص ؛ وأبتدأ سيل من الهجرة جعل لإرلندة ردياً من الزمان أرض شيوخ وبيوت خاوية .

وكان من نتائج توحيد البرلمان ، أن الانتخابات كانت تجرى عند الانجليز والإرلنديين في وقت واحد . وكان معنى منح الكاثوليك حق الانتخاب في إنجلترا هو منحه للكاثوليك في إرلندة أيضاً . وكان الانجليز يحصلون على الأصوات لأنهم كانوا يرغبون فيها . أما العامة الإيرلنديون فحصلوا على الأصوات لأن الانجليز حصلوا عليها . وكان تمثيل إرلندة في برلمان الاتحاد أكثر مما يجب ، لأن المقاعد الإيرلندية كان التصرف فيها أسهل - منذ البداءة - على الطبقة الحاكمة منه في الإنجليزية ؛ وبذا حدث أن إرلندة هذه الإيرلندية القحة والكاثوليكية التي لم يكن لها قبل ذلك أى جهاز سياسى مطلقاً ، وجدت نفسها صاحبة القوة على قذف هيئة مترابطة من الأعضاء في قلب الهيئة التشريعية لبريطانيا العظمى .

وبعد الانتخابات العامة في ١٨٧٤ ، سقط الأعضاء الإيرلنديون المأجورون السابقون ، ووقفت الديمقراطية الإنجليزية التي منحت عند ذاك حقوقها الوطنية حديثاً ، وجهاً لوجه أمام ديموقراطية إرلندية عجيبه محيرة ، مختلفة عنها في ديانتها وتقاليدها وحاجاتها ، متحدة بقصة من المظالم لم يسمع بها عامة الإنجليز من قبل قط ، صاحبة تطالب في حدة بإنفصال لم يكن الإنجليز ليفهموا له معنى ، ولكنه أشعرهم بوجه خاص أنه تصرف عدائى لا ضرورة له .

والأناية القومية لدى الإيرلنديين حادة شاحذة ؛ لأن ظروفهم جعلتها كذلك ؛ فلم يكن في استطاعتهم أن يقدروا حالة الأمور في إنجلترا ؛ وجاء الحزب الإيرلندى

الجديد إلى البرلمان الإنجليزي وقد عقد النية على عرقلة مصالح الإنجليزي وإفساد نظامهم إلى أن تفوز إرلندة بحريتها ، وليجعلوا من أنفسهم شجى في حلوق الإنجليزي . وما كان هذا الروح إلا موضع الترحاب الشديد من الأوليجركية التي كانت ما تزال تحكم الإمبراطورية البريطانية ؛ فتحالفوا مع بروتستانت الشمال المواليين — أعنى المواليين للحكومة الإمبراطورية بسبب خوفهم من تسلط الكاثوليك الإيرلنديين عليهم في إرلندة — كذلك أخذوا يراقبون عن كثب ويزيدون في إذكاء نار التسخط الذى حل بالعامّة الإنجليزي على التدرّج بسبب هذه العداوة العمياء التي يبدئها عموم سكان إرلندة .

وقصة العلاقة بين إرلندة وإنجلترا في نصف القرن الأخير من القصص التي تكسو الطبقة الحاكمة للإمبراطورية البريطانية أقصى غاية الخزي ، ولكنها ليست شيئاً يحتاج عامة الإنجليزي أن ينجلوا منه . فإنهم أبدوا مراراً وتكراراً أعظم الشواهد على حسن النية . والتشريع الإنجليزي بالعلاقة إلى إرلندة طيلة نصف قرن تقريباً ، يكشف لنا عن سلسلة من محاولات سمجة بذلها الأحرار رغبة في القضاء على أسباب شكوى الإيرلنديين وإقامة العلاقة بين القطرين على قدم الزمالة والأخوة ، ولكن كانت تقوم في وجه تلك المحاولات معارضة قوية من جانب حزب المحافظين وسكان آلستر الإيرلنديين . وبرز اسم هارنل وهو إرلندى بروتستانتى بوصفه الزعيم الأكبر لحركة الحكم الذاتى (Home Rule) . وفى ١٨٦٦ جلب جلاستون ، رئيس وزراء الأحرار العظيم ، كارثة سياسية على نفسه بتقديمه إلى البرلمان أول مشروع قانون للحكم الذاتى الإيرلندى ، وهى محاولة صادقة من جانبه لتسليم شئون إرلندة لأول مرة في التاريخ إلى أبدى الشعب الإيرلندى . وانصدع حزب الأحرار شطرين بسبب مشروع هذا القانون ، وقامت حكومة ائتلافية ، هى حكومة الاتحاديين ، فحلت محل حكومة المستر جلاستون .

واستطردنا هذا إلى تاريخ إرلندة يبلغ بنا الآن إلى زمان نفشى عدوى المذهب الاستعماري في أوربا . فإن حكومة الاتحاديين التي خلفت المستر جلاستون كان يسودها عنصر المحافظين . وكانت « إستعمارية » الروح بصورة لم تكن لأية حكومة

بريطانية سابقة قط . والتاريخ السياسى البريطانى فيما عقب ذلك من سنوات هو فى جُل أمره تاريخ للصراع بين المذهب الإستعمارى الحديد ، الذى حاولت بواسطته نزعة قومية بريطانية صلفة أن تظاً بأقدامها بقية الإمبراطورية وبين ماركب عليه المزاج الإنجليزى الميال بطبعه إلى التحررية والتعقل ، ذلك المزاج الذى كان ينزع إلى التطور بالإمبراطورية إلى اتحاد احتلافى (كنفدرالى) مكون من أحرار راضين راغبين .

ومن الطبيعى أن أصحاب المذهب الإستعمارى البريطانيين كانوا يريدون الشعب الإيرلندى خاضعاً مقهوراً ، ومن الطبيعى أيضاً أن الأحرار الإنجليز كانوا يرغبون فى شعب إيرلندى حر مشارك لهم فى العمل . وفى ١٨٩٢ كافح جلادستون حتى عادت إليه مقاليد الحكم بأغلبية صغيرة تدين بالحكم الذاتى ، وفى ١٨٩٣ مر مشروع قانونه الثانى للحكم الذاتى فى مجلس العموم ، ولكن مجلس اللوردة رفضه ومع هذا فلم تتول الحكم حكومة استعمارية (امبريالية) إلا فى ١٨٩٥ . ولم يكن الحزب الذى تستند إليه الحكومة ينعت بصفة الاستعمار والاستعماريين بل يسمى حزب « الاتحاديين » ، وهو اسم غريب عن مسماه إذا راعينا الجهود الجهيذة التى واصلوا بذلها لتخظيم كل احتمال يبشر بقيام دولة حكم شعبى متحرر^(١) تضم أجزاء الإمبراطورية . وظل السلطان فى يد هؤلاء الإستعماريين عشر سنوات . وقد سبق أن أشرنا إلى غزوهم لجنوب إفريقيا . وقد خلدوا فى ١٩٠٥ فى محاولة قاموا بها لإنشاء حاجز من التعريفة الجمركية على الطراز اليتوتوفى . وعند ذلك حولت حكومة الأحرار التالية الهولنديين المقهورين فى جنوب إفريقيا إلى رعايا زملاء راضين قريرى الأعين بإنشاء دومنيون جنوب إفريقيا الذى يحكم نفسه بنفسه . ثم دخلت فى أعقاب ذلك فى نعمرات نزاع طالما تهددها شره ، هو النزاع مع مجلس اللوردة المصر دائماً على مبادئه الاستعمارية .

وكان هذا كفاحاً جوهرياً جداً فى الشئون البريطانية . وإنك لتجد فى ناحية أغلبية أهالى بريطانيا العظمى التحرريين وهم حريصون حرص الحكيم الشريف على

(١) دولة الحكم الشعبى المتحرر هى ما يعبر عنه بالإنجليزية باسم Common Weal .

(المترجم)

أن يضعوا هذه المسألة الإيرلندية على أساس جديد يبشر بالأمل ، وأن يحيلوا إن استطاعوا عداوة الإيرلنديين إلى مودة ؛ وتجد في الجانب الآخر كل عوامل هذا الاستعمار البريطاني الحديد وقد صممت أن تعمل بأى ثمن وبالرغم من كل نتائج الانتخابات — وبطريقة قانونية إذا أمكن ، فإن تعذر فبطريقة غير قانونية — على أن تحتفظ بتسلطها على شئون الإنجليز والإسكتلنديين والإيرلنديين وسائر أجزاء الإمبراطورية على السواء .

والحق إن هذا الصراع هو الكفاح الداخلى الدائر في المجتمع البريطاني منذ أقدم العصور ؛ وهو نفس النزاع الذى سبق أن عالجناه في حديثنا عن تحرير أمريكا ، النزاع الدائر بين العامة الأحرار ذوى الروح التحررية وبين الأقوياء من الزعماء والمغامرين الكبار والأشخاص المستبدين . وكانت إرلندة كما كانت أمريكا من قبل محض مسرح للقتال . ومن عجب أن الطبقة الحاكمة ومن يرتبط بها من مغامرين كانت في الهند وإرلندة وإنجلترا تدين بمبدأ واحد . ولكن الشعب الإيرلندى لم يكن له بفضل فوارقه الدينية ، أى إحساس بالتماسك مع الإنجليز . ومع هذا فإن من بين الزعماء الإيرلنديين أمثال ردموند ، زعيم الحزب الإيرلندى في مجلس العموم ، من تسامى عن هذه القومية الضيقة رداً من الزمان ، وأظهر من جانبه استجابة كريمة لنوايا الإنجليز الطيبة . وأخذت العقبة المتمثلة في شخص مجلس اللوردات تتحطم تحطماً وثيداً أكيداً ، وتقدم المستر أسكويث رئيس الوزارة في ١٩١٢ بمشروع قانون ثالث للحكم الذاتى الإيرلندى . وظل هذا القانون طوال ١٩١٣ والقسم الأول من سنة ١٩١٤ يلقي هجمات وحملات متكررة توجه عليه عن طريق البرلمان . وكان المشروع بادئ الرأي يمنح الحكم الذاتى لإرلندة بأكملها . ولكن سرعان ما أعلنت الحكومة وعداً بإصدار قانون يعدل القانون الأول ويستبعد آلستر بشروط خاصة . ودام هذا الكفاح في طريقه حتى شوب نار الحرب الكبرى . وصدق الملك على القانون بعد ابتداء الحرب فعلاً ، كما صدق أيضاً على قانون يوقف تنفيذ الحكم الذاتى الإيرلندى حتى تنتهى الحرب . وأضيفت هذه القوانين إلى سجل قوانين الدولة .

على أن المعارضة لقانون الحكم الذاتى الثالث اتخذت منذ تقديمه شكلاً عنيفاً شديد التطرف . فإن السير إدوارد كارسون وهو محام في دبلن أصبح من رجال المحاربة

الإنجليز ، وتولى منصباً قضائياً في وزارة المستر جلادستون (قبل تصدعها بسبب الحكم الذاتي) ، وكان في الحكومة الاستعمارية التالية ، هو المنظم والزعيم لهذه الحركة الرامية إلى مقاومة الصلح بين الشعبين . ثم شرع بالرغم من أصله الدبليني يتزعم أهالي آلستر البروتستانت ، وأدخل في معمعان النزاع ذلك الاحتقار للقانون الذي هو مميز خاص عادي جداً لكل محام ناجح في عمله ، كما أنزل في الميدان تلك العداوة اللجوج المطلقة بلا قيود والصلبة بلا هوادة التي كان يمتاز بها طراز معين من الإيرلنديين . كان أبعد الناس عن الإنجليز إذ كان أدكن العينين والشعر ، رومانسي النزعات عنيفاً ، وكان منذ مبتدأ الكفاح ، يتكلم في جذل عن المقاومة المسلحة لهذا الاتحاد الحر بين الإنجليز والإيرلنديين الذي كان يبشر به مشروع الحكم الذاتي الثالث .

وتألفت في آلستر ١٩١١ جماعة من المتطوعة ، وأخذت الأسلحة تهرب إلى داخل البلاد . وشرع السير إدوارد كارسون ومعه محام ناشئ اسمه ف . و . سمث يجوبان آلستر في زى شبه عسكري ، ليفتشا على هؤلاء المتطوعة ويؤكدوا نار العداوة المحلية . وكان هؤلاء العصاة المنتظرون أول إشارة للثورة ، يحصلون على السلاح من ألمانيا ، ولطالما لحت أقوال متنوعة صدرت من خلطاء السير إدوارد كارسون إلى مناصرة « ملك بروتستانت عظيم لهم » . وعلى النقيض من آلستر ، كان سائر إيرلندا في ذلك الزمان أرض نظام واتزان ، تعتمد على زعيمها العظيم ردموند وعلى حسن نية الشعوب البريطانية الثلاثة .

ولم تكن هذه التهديدات المنذرة بالحرب الأهلية في إيرلندا شيئاً استثنائياً ولا مستغرباً في تاريخ هذه الجزيرة الناعسة وسجالاتها ؛ ولكن الشيء الذي يجعلها ذات قيمة ودلالة في تاريخ العالم في ذلك الزمان هو ذلك التعصيد العنيف الذي لقيته بين الطبقات الحاكمة والعسكرية في إنجلترا ، وتمتع السير إدوارد كارسون وأتباعه بالحصانة من كل عقوبة أو تقييد .

ذلك أن جرثومة الفساد الذي ترتب على ما أصابه الاستعمار الألماني من فحامة ونجاح قد انتشرت عدواها انتشاراً عظيماً ، بين كل الطبقات القوية الغنية في بريطانيا العظمى كما سبق أن أوضحنا لك . ونشأ جيل تناسى تقاليد أجداده العظيمة ،

وتهمياً للتخلي عن عظمة العدالة والحرية الإنجليزية مقابل أشد أنواع الاستعمار زيفاً وبهرجة سخيفة . واكتتب الناس في بريطانيا وبخاصة إنجلترا بترعات مالية قدرها مليون جنيه لمعاونة ثورة آلستر ، وتكونت لآلستر حكومة مؤقتة ، ونزل إلى الحومة رجال مبرزون من الإنجليز وأخذوا يجوبون بسياراتهم أرجاء آلستر ، وهم يعاونون في تهريب البنادق ، وهناك من الشواهد ما يدل على أن فريقاً من الضباط والقواد البريطانيين كانوا على استعداد للقيام بأعمال أشبه بأساليب أمريكا الجنوبية منها بالطاعة للقانون .

وكانت النتيجة الطبيعية لهذا الخروج على النظام المتفشى في الطبقات العليا أن عمّ الانزعاج الجزء الرئيسي من لارلندة ، التي لم تقبل يوماً ما على صداقة إنجلترا ؛ وأن شرعت لارلندة بدورها أيضاً في تنظيم المتطوعين الوطنيين وتهريب السلاح . وأظهرت السلطات العسكرية اهتماماً بقمع الوطنيين أشد مما أظهرت في قمع إستيراد السلاح لأهالي آلستر ، وفي يوليو ١٩١٤ أفضت إحدى المحاولات لتهريب السلاح في هاوث بالقرب من دبلن إلى شوب القتال وإراقة الدماء في شوارع دبلن . وبذا أصبحت الجزر البريطانية على شفير الحرب الأهلية .

تلك هي خلاصة موجزة لقصة حركة الاستعماريين الثورية في بريطانيا العظمى حتى ليلة الحرب الكبرى . ذلك أن حركة السير إدوارد كارسون وأشياعه هذه كانت ثورية لا جرم . إذ أنها كانت محاولة صريحة لدفع الحكومة البرلمانية جانباً وإزالة ما نالته الشعوب البريطانية من حريات ناقصة نمت في بطء ومهل ، والقيام بمساعدة الجيش بإحلال طراز من الحكم أقرب إلى البروسى ، مع استعمال النزاع الإيرلندى نقطة ارتحال تبدأ منها الحركة أعمالها . وكانت تلك حركة رجعية قام بها عشرات قلائل من آلاف الرجال لإيقاف حركة العالم المتجهة صوب القانون الديموقراطى والعدالة الاجتماعية ، وهى أشد ما تكون مشابهة وأوثق ما تكون عطفاً على الحركة الاستعمارية الجديدة التى قام بها الأشراف والأغنياء الألمان . على أن الاستعماريين البريطانى والألمان كانا يتفارقان من وجهة واحدة هامة جداً . فإنه كان يتركز فى ألمانيا حول التاج ؛ وكان أشد أنصاره ضجيجاً وبروزاً هو ولى العهد .

على حين أن الملك في بريطانيا العظمى وقف موقف المتباعد فلم يحدث أن أبدى الملك جورج الخامس بأى عمل علنى أدنى موافقة على الحركة الجديدة ؛ كما أن سلوكه ولى العهد البرنس أوف ويلز ابنه ووريثه يعدل سلوكه سلامة واستقامة .

وفى أغسطس ١٩١٤ هبت على العالم عاصفة الحرب الكبرى . وفى سبتمبر كان السير إدوارد كارسون يطعن فى وضع قانون الحكم الذاتى الثالث فى سجل القوانين . فأوقف العمل به حتى ينتهى الحرب . وفى نفس اليوم كان المستر جون ردموند زعيم الأغلبية الإيرلندية والممثل الحقيقى لإرلندة يهيب بالشعب الإيرلندى بأن يتحمل نصيبه الأوفى من عبء الحرب ومجهودها . واستمرت إرلندة ردىاً من الزمان تقوم بدورها فى الحرب إلى جوار إنجلترا بإخلاص واهتمام ، حتى حلت فى ١٩١٥ وزارة ائتلاف محل حكومة الأحرار ، فدخل الوزارة هذا السير إدوارد كارسون بسبب ضعف أخلاق المستر أسكويث ، وشغل منصب النائب العام (بمرتب قدره ٧٠٠٠ جنيه تضاف إليها الأتعاب) ، على أنه استبدل للوقت بالسير ف إ سميث زميله فى التعبير بالستر

وهى إهانة لم يصب بأبلغ منها شعب صديق ، وكانت نتيجة ذلك أن العمل على الصلح والتراضى الذى ابتدأه جلادستون فى ١٨٨٦ ، وأوشك أن يبلغ غايته فى ١٩١٤ ، تحطم الآن تحطماً نهائياً تاماً . وفى ربيع ١٩١٦ قامت فى دبلن ثورة فاشلة ضد هذه الوزارة الجديدة . وأعدم رمية بالرصاص جميع زعماء هذا العصيان وكان الكثيرون منهم مجرد غلمان ، ونفذ الحكم بقساوة سمجة متعمدة ، كان من أثرها وبالنظر إلى المعاملة المتهاونة التى لقيتها الثورة فى آل سير ، أن شعر الناس فى إرلندة بأجمعها بأنها ظالمة ظلماً فظيماً بالغاً . وحدث أن أحد الجونة وهو السير روجر كاسمنت وكان قد نال لقب فارس لسابق خدماته للإمبراطورية حوكم وأعدم بحق وعدل ، ولكن المدعى العام كان هو السير ف . إ . سميث أخو العصيان آلستر - وكان اجتماع هذين الشخصين مدعاة للغضب والانزعاج .

والواقع أن تمرد دبلن لم يلق الشئ الكثير من التعضيد من إرلندة بعامة ، ولكن الذى حدث أن حركة المطالبة بجمهورية مستقلة نمت من بعده نمواً هائلاً

وكان ينافح ضد هذا الاندفاع العاطفي القوي أصحاب الفكرات المعتدلة بين رجال السياسة الإيرلنديين من أمثال السير هوراس بلانكت ، الذى كان يتمنى أن يرى إيرلندة وقد أصبحت دومنيونا ؛ أى « جمهورية متوجة » داخل الإمبراطورية ، تعيش على قدم المساواة مع كندا وأستراليا .

٤ - النزعات الاستعمارية فى فرنسا وإيطاليا والبلقان

تبرز لنا دراستنا للنزعات الاستعمارية العصرية فى ألمانيا وبريطانيا قوى بأعيانها مشتركة بين البلدين ، وسوف نجد تلك القوى نفسها وهى تعمل على درجات مختلفة ومع تعديلات متنوعة فى حالة المجتمعات العظيمة العصرية الأخرى التى سوف ننظر الآن فى شأنها . وليس هذا الاستعمار العصرى بحركة توليفية ترمى إلى توحيد العالم شأن النظم الاستعمارية القديمة ؛ بل هو فى الجوهر « روح قومية تنطوى على جنون العظمة » ، وهى قومية أحالها الثراء عدوانية ؛ ولأنها لتلقى على الدوام أقوى عضد لها بين طوائف الموظفين والجيش ، كما تجده من طبقة المجتمع المقدمة صاحبة المشروعات والميالة إلى الاحتياز ، أى فى أصحاب الثراء الحديث والأشغال الكبيرة ؛ وتجد أشد نقادها بين جماهير المتعلمين الفقراء وأعظم خصومها بين الفلاحين والعمال . وهى تقبل الملكية حيث تجدها ، وإن لم تكن بالضرورة حركة ملكية . ومهما يكن من شئ فإن بها حاجة إلى وزارة خارجية من الطراز التقليدى لكى تهئ لها أسباب تطورها كاملة . ويبين تلك الحقيقة بأتم وضوح مصدرها الذى تأثرناه بغاية العناية فى كتابنا هذا المؤرخ بلجنسا . والاستعمار العصرى إنما هو التطور الطبيعى لنظام الدول الكبرى الذى نشأ مع منهاج وزارة الخارجية فى السياسية ، ناجماً عن الملوك المكيافليين بعد تحطم عالم المسيحية . ولن ينهى أمره إلا عندما تحل جمعية إتحادية محل ما بين الأمم والشعوب من علاقات قوامها السفارات ووزارات الخارجية .

وكانت الإمبريالية (الاستعمار) الفرنسية أثناء مدة « الهدنة المسلحة » فى أوروبا يتجلى فيها بطبيعة الحال قدر من الثقة والاطمئنان أقل مما لدى الألمان . وكانت تسمى نفسها « بالقومية » لا بالإمبريالية ، فنصبت نفسها باللجوء إلى الكبرياء الوطنى لإحباط

جهود أولئك الاشتراكيين والعقليين^(١) الذين كانوا يحاولون أن يتصلوا بالعناصر الرسمية في الحياة الألمانية . وكانت لانتى عن التفكير في « الانتقام Revanche » أى في الجولة التالية التى ترد بها الكيل لبروسيا . ولكنها بالرغم من انشغالها بهذا الخطر نصبت نفسها لمغامرات الضم والاستغلال فى الشرق الأقصى وفى إفريقيا ، حيث نجت بأعجوبة من الحرب مع بريطانيا فى الحلف على فاشودة (١٨٩٨) ، كذلك لم تتخل قط عن أحلامها فى امتلاك سوريا .



(شكل ٢١٠)

وأصبحت إيطاليا كذلك بحمى الاستعمار . على أن النزف ١١ ؟ . . . الذى أصيبت به فى عدوة هدا من ثائرتها بعض الزمان ، ثم عادت إليها السورة فى ١٩١١

(١) العقليون (Nationalists) : الذين يذهبون إلى أن العقل هو مصدر المعرفة الثابتة المؤكدة (المترجم)

بحرب أشبّتها على تركيا انتهت باستلحاق طرابلس . وكان الاستعماريون الإيطاليون يحضون أبناء وطنهم على نسيان مازينى والتعلق بذكرى يوليوس قيصر ؛ أليسوا ورثة الإمبراطورية الرومانية ؟ ومست يد الإمبريالية بلاد البلقان ؛ فإن دولا صفاراً لاتبعد عن الاستعباد أكثر من مئة عام أخذت تنبدى فيها بوادر الهمم الشفاء والمقاصد العالية !! ؛ فإن فرديناند ملك بلغاريا اتخذ لقب قيصر ، فكان بذلك آخر قيصر زائف ، وفى أثينا كان الطالب الطلعة يستطيع أن يدرس فى نوافذ الدكاكين خرائط تبين الحلم بإمبراطورية يونانية ضخمة فى أوروبا وآسيا .

وفى ١٩١٢ انقضت دويلات سربيا وبلغاريا واليونان على تركيا ، وكانت واهنة القوى من قبل بسبب حربها مع إيطاليا ، وطردتها من كل ممتلكاتها الأوروبية فيما عدا الأراضى بين أدرنة والقسطنطينية ؛ وفى السنة التالية دب الخلاف فيما بينهم على تقسيم الغنائم . وانضمت رومانيا إلى اللعبة وساعدت على سحق بلغاريا . واستردت تركيا أدرنة . وفى تلك الأثناء كان الاستعمار الأكبر استعمار النمسا والروسيا وإيطاليا يرقب هذا النزاع ويرقب بعضه بعضاً فى الوقت عينه . . .

٥ - روسيا تصبح دولة ملكية عظمى

بينما كان العالم بأجمعه إلى الغرب من روسيا يتغير تغيراً سريعاً ، ظلت تلك الدولة تتغير طوال القرن التاسع عشر تغيراً بطيئاً جداً ولا جرم . فلما كانت فى نهاية القرن التاسع عشر ، كما كانت عند بدايته ما تزال ملكية عظمى ذات طراز يرجع إلى النصف الثانى من القرن السابع عشر ، تقوم على أسس همجية ، ولم تبرح قابضة بالمرحلة التى تستطيع فيها دسائس البلاط والمقربون إلى القيصر أن يتصرفوا فى علاقاتها الدولية . وكانت مدت سكة حديدية عظيمة عبر سيبيريا ، فلقبت فى نهايتها كوارث الحرب اليابانية ؛ وكانت تستعمل الأساليب العصرية والأسلحة العصرية بالقدر الذى تسمح لها به صناعاتها غير المتطورة وما لديها من عدد قليل من المعلمين تعليماً كافياً ؛ وقد استحدثت لها كتاب من أمثال دوستويفسكى ضرباً من المذهب الاستعماري التصوفى يقوم على فكرة روسيا المقدسة ورسالتها ، ويصطنع بألوان الخداع العنصرى

والمناهضة للسامية^(١)؛ ولكن هذا المذهب ، كما ستبدى لك الحوادث لم يتغلغل كثيراً إلى سويداء خيال الجماهير الروسية .

وكانت تسود حياة الفلاحين الأميين مسيحية مبهمة بسيطة جداً ، يخالطها شيء كثير من الخرافات . وكانت حياتهم شبيهة بحياة فلاحى فرنسا وألمانيا قبل الإصلاح الدينى . وكان مفروضاً أن الموجيك (Xilnow) أعنى الفلاح الروسى يعبد قيصره ويوقره وأنه يجب أن يخدم أحد السادة السراة ؛ وكان الرجعيون من الكتاب الانجليز ما يزالون فى ١٩١٣ يثنون على ولائه البسيط غير المتردد ولا المتشكك . ولكن كان يخالط هذا التوقير للملكية فكرة تقول بأن المليك أو النبيل لا بد له من أن يكون طيباً نافعاً شأن ما حدث فى حالة الفلاح الأوروبى الغربى فى أيام ثورات الفلاحين ؛ وكان من الميسور أن ينقلب هذا الولاء البسيط — إن تمهياً له القدر الكافى من الاستفزاز إلى نفس التعصب القاسى ضد انعدام العدالة الاجتماعية ، ذلك التعصب الذى أدى إلى إحراق القصور أثناء فتنة الفلاحين^(٢) ، وأقام الدولة الدينية فى مونستر^(٣) . وقد حدث مرة أن دب الغضب فى العامة ، ولم يكن هناك روابط للتفاهم تتمثل فى تعليم واسع الانتشار فى روسيا حتى تخفف من حدة الانفجار . وكانت الطبقات العليا تبعد عن مناط عطف الطبقات الدنيا بعدها عن أى جنس آخر من الحيوان . وكانت هذه الجماهير الروسية متخلفة ثلاثة قرون عن تلك الترععات القومية التسلطية التى كانت تبديها ألمانيا .

كذلك اختلفت روسيا من وجهة أخرى عن أوروبا الغربية العصرية ، ومماثلت حالة أوروبا فى القرون الوسطى ، وذلك أن جامعاتها كانت مثابة لكثير من الطلبة الفقراء المدقعين الذين لم تكن تربطهم بالحكومة البيروقراطية^(٤) الاستبدادية أية صلة

(١) مناهضة السامية (Anti-semitism) مصطلح سياسى يطلق على كراهية اليهود أو كراهية^{٥٠} انتشار نفوذهم . (المترجم)

(٢) فتنة الفلاحين أو الجاكرى (Jacquerie) : هى ثورة الفلاحين بفرنسا فى سنة ١٣٥٨ . (المترجم)

(٣) الدولة الدينية بمونستر . انظر المعالم (ج ٣ ط ١) ص ٧٨٧ ، أى ص ٩٧٥ من الطبعة الثانية . (المترجم)

(٤) البيروقراطية : هى الحكومة المعتمدة على الموظفين (المترجم)

ولا تعاطف . وقبل ١٩٨٧ لم يحس الفكر الأوربي بالدلائل المؤذنة باقتراب عاملى الثورات الأصليين هذين - وأعنى بهما وقود التذمر وثقاب الفكرات الحرة ، وقل من الناس من كان يدرك أنه كانت توجد فى روسيا أكثر منها فى أية بلاد أخرى احتمالات نشوب ثورة جوهرية .

٦ - الولايات المتحدة والفكرة الاستعمارية

إذا انصرفنا عن هذه الدول الكبرى الأوربية بما لها من إرث هو وزارات الخارجية والسياسات القومية ، والتفتنا إلى الولايات المتحدة الأمريكية التى انفصلت إنفصالاً تاماً عن نظام الدول الكبرى فى ١٧٧٦ ، لوجدنا حالة مناقضة على أعظم درجة من الإمتاع تتجلى فى عمل القوى التى تمخضت عن نزعات التوسع الاستعماري فى أوربا .

فقد جلبت الثورة الميكانيكية على أمريكا كما جلبت على أوربا ، قرباً أصبح معه العالم بأجمعه قيد رحلة لاتتجاوز بضعة أيام . وكانت للولايات المتحدة شأن الدول العظمى مصالح مالية وتجارية تغشى العالم بأجمعه ؛ ونشأت فى البلاد حركة صناعية كبرى تضخمّت وأمسّت بحاجة إلى أسواق خارجية وراء البحار ؛ وحدثت فى العالم الأمريكى نفس الأزمة التى أملت بالمعتقدات والتى جلجلت أركان التماسك المعنوى الأوربي . وكان شعبها على الوطنية وثاب الروح كأي شعب آخر . فلم لم تطور الولايات المتحدة إذن الجيوش المسلحة والسياسة العدوانية ؟ ولماذا لا ترفرف النجوم والشقق^(١) فوق بلاد المكسيك ؟ ولم لم تقم فى بلاد الصين تحت تلك الراية شبه قارة هندية أخرى .

وكان للأمريكي فضل فتح مغاليق اليابان . حتى إذا تم له ذلك ترك هذه الدولة تُسبغ على نفسها اللون الأوربي وتصبح قوية جبارة دون أن يصدر منه أى احتجاج على ذلك . وكان هذا وحده كافياً لجعل ميكافلي أبى السياسة الخارجية العصرية يتقلب فى رمسه .

(١) النجوم والشقق : فى هذا إشارة إلى علم الولايات المتحدة المكون من نجوم بضء ومن سقق أفضيه من القماش ذى اللونير الأبيض والساوى . (المترجم)

١٤٣٣

فلو أن دولة كبرى مصطبغة بالصباغ الأوربي كانت في مكان الولايات المتحدة ، لا اضطرت بريطانيا العظمى إلى تحصين الحدود الكندية من أقصاها إلى أقصاها - وهي الآن خالية من السلاح خلواً تاماً - ولا اضطرت إلى الاحتفاظ بترسانة أسلحة عظيمة على نهر السانت لورنس . ولكانت دول أمريكا الوسطى والجنوبية المنقسمة على نفسها غيلت وأخضعت من زمن بعيد ووضعت تحت الرقابة النظامية لموظفي الولايات المتحدة من « طبقة الحكام » . ولكانت تقوم حملة مستمرة تستهدف ضم استراليا ونيوزيلندا إلى أمريكا ، هذا إلى مدعٍ جديد بنصيب في إفريقيا الإدارية الاستوائية .

وقد حدث طوعاً لصدفة عجيبة أن أنتجت الولايات المتحدة في شخص الرئيس روزفلت (الذي تولى الرئاسة من ١٩٠١ - ١٩٠٨) رجلاً ذا همة تعادل في عدم استقرارها حال القيصر الألماني ، كما يعدله في التشوق إلى جلائل الأمور وفي الفصاحة وذلاقة اللسان ، فهو رجل مغامر فيه انحياز إلى ناحية السياسة العالمية ، وفيه غريزة تدعوه إلى التسلح والجيش المسلح ، وهو الرجل عينه الذي نستطيع أن نتصور منه أن يقحم بلاده في التخاطف على الممتلكات واء البحار .

وليس يبدو أن هناك أى تفسير آخر لذلك التحرم والامتناع العامين من ناحية الولايات المتحدة إلا نظمهم وتقاليدهم واختلافها عما لدينا من نظم وتقاليدهم . ففي المقام الأول : ليس لدى الولايات المتحدة وزارة خارجية وهيئة دبلوماسية على الطراز الأوربي ، ولا مجموعة من « الخبراء » مهمتهما الاحتفاظ بتقاليد سياسة عدوانية . وللرئيس سلطات واسعة ، ولكن توقفها عند حدها سلطات مجلس الشيوخ الذي ينتخبه الشعب انتخاباً مباشراً . فلا بد لكل معاهدة تعقد مع دولة أجنبية من من أن تنال أولاً موافقة مجلس الشيوخ . ومن ثم فإن العلاقات الخارجية للبلاد تحت رقابة صريحة علنية عامة . فالمعاهدات السرية مستحيلة إذن تحت مثل هذا النظام ، وتشكو الدول الأجنبية من صعوبة التفاهم مع الولايات المتحدة .^{١٥٠}م التحقق من

الأيدى من الناحية الدستورية ، عن القيام بنوع السياسة الخارجية التى جعلت أوروبا طيلة زمان مديد على شفير الحرب باستمرار .

ومن الناحية الثانية : لم يوجد فى الولايات المتحدة حتى الآن أية منظمة تدبر شئون ما قد يسميه الناس باسم « الممتلكات غير القابلة للتمثل » ولا أية تقاليد لمعالجة مثل هاته الممتلكات . وفضلاً عن ذلك فحيث لا يوجد تاج لا يمكن أن توجد مستعمرات للتاج^(١) . وكانت الولايات المتحدة لإبان امتداد رقعتها عبر القارة الأمريكية قد طورت أسلوباً مميزاً لها تماماً فى معالجة شئون الأراضى الجديدة ، وهو مكيف تكيفاً بديعاً للأراضى غير المسكونة ، ولكنه غير ملائم تماماً إذا هو طبق بملء الحرية على مناطق تحوى من قبل سكاناً أجنب . وكان هذا الأسلوب يقوم على فكرة أنه لا يمكن أن يوجد فى مجموعة الولايات المتحدة شعب تابع تبعية أبدية .

وكانت أول مراحل عملية التمثل العادية هى إنشاء « منطقة » تحت حكم حكومة الاتحاد ، يكون لها قدر جسيم من الحكم الذاتى ، وترسل إلى الكونجرس مندوباً (ليس له أن يعطى صوته) ولا بد لها إن سارت أمورها سيراً طبيعياً ومع استقرار الناس فيها وزيادة عدد سكانها ، أن تزدهر آخر الأمر فتنال كل حقوق الولاية تلك هى عملية التطور فى كل ولايات الاتحاد الأحدث عهداً ، وكانت آخر مناطق بلغت مرتبة الولاية هى آريزونا ونيومكسيكو فى ١٩١٢^(٢) . على أن برية ألاسكا المتجمدة المشتراة من روسيا ، ظلت غير متطورة من الناحية السياسية لمجرد أنها لم تحو عدداً من السكان يكفى للقيام بإنشاء ولاية .

ولما كان ما ضمته ألمانيا وإنجلترا من أراض فى المحيط الهادى هدد البحرية الأمريكية بالحرمان من محطات للفحم فى ذلك المحيط ، فقد ضمت الولايات المتحدة إليها جزءاً من جزائر ساموا (١٩٠٠) كما ألحقت جزائر سندوتش (هوائى)

(١) فى هذه الفقرة يذكر المؤلف القراء بجميع أنواع المستعمرات البريطانية ويطرق الحكم التى تتبعها بريطانيا فى حكمها لها . (المترجم)

(٢) لقد حدث فعلاً ما تنبأ به المؤلف ، فإن الولايتين وهما ألاسكا وهوائى قد أنشئت فعلاً وضممتا إلى الاتحاد . وبذلك أصبح عدد الولايات المتحدة خمسين . (المترجم)

(١٨٩٨) . وهنا وجدت الولايات المتحدة لأول مرة شعوباً محكومة تتعامل وإياها ولكن أمريكا اتبعت فيها نفس أسلوبها في معالجة « المناطق » الجديدة في بلادها ، وذلك لعدم وجود أية طبقة تماثل الموظفين الإنجليز في الهند الذين يتسلطون على الرأى العام البريطانى . وقد بذل كل مجهود لرفع المستوى التعليمى فى هواى إلى نفس مستواه فى أمريكا ، ونظم مجلس تشريعى داخلى على غرار مجالس الولايات حتى ليخيل إلينا أن من الحتم أن ينال هؤلاء الجزريون السمر القاتمون فى النهاية كامل الحقوق المدنية للولايات المتحدة . (ويهمن على جزائر ساموان الصغيرة مدير من قبل الولايات المتحدة تابع للبحرية) .

وفى ١٨٩٥ نشب بين الولايات المتحدة وبريطانيا العظمى خلاف حول فنزويلا ، واستمسك الرئيس كليفلند بغاية الشجاعة بمبدأ مونرو . وعند ذلك صرح المستر أولنى^(١) بهذا التصريح الهام : « اليوم تصبح الولايات المتحدة صاحبة السيادة الفعلية على هذه القارة ، كما أن أوامرها قانون فى الموضوعات التى تقصر عليها تدخلها » . ويشير هذا مجتمعاً مع ما عقد من المؤتمرات المنوعة التى تدعو إلى اتحاد الأمريكتين ، إلى « سياسة خارجية » حقيقية علنية تقوم على التحالف والمساعدة المتبادلة فى كل أرجاء أمريكا . ومعاهدات التحكيم نافذة المفعول فى كل أرجاء تلك القارة ، وكأنى بالمستقبل مشيراً إلى الاتجاه إلى تطور تدريجى نحو إنشاء منظمة دولية أى « سلم أمريكى Pax Americana ^(٢) » الذى يضم الشعوب الناطقة بالإنجليزية والناطقة بالأسبانية وتكون فيه الأولى بمثابة الأخ الأكبر . وهنا نرى شيئاً لسا بمستطيعين حتى أن نسميه إمبراطورية ، وهو شئ يتجاوز كثيراً التحالف الكبير فى الإمبراطورية البريطانية من ناحية المساواة الصريحة بين أجزائه .

(١) ريتشارد أولنى (Olney) : (١٨٣٥ - ١٩١٧) سياسى ومحام أمريكى . أصبح وزيراً ، كتب فى سنة ١٨٩٥ رسالته الشهيرة طالب فيها بضرورة خضوع بريطانيا للتحكيم فى خلافها مع فنزويلا . (المترجم)

(٢) فى ذلك وفى « السلم البريطانى » إشارة للسلم للرومانى (Pax Romana) الذى كان يفرض الأمن والسلام بالعالم إبان عظمة روما (المترجم)

ومما يتسق مع هذه الفكرة الهادفة إلى الصالح الأمريكي المشترك ، أن تدخلت الولايات المتحدة في ١٨٩٨ في شئون كوبا ، التي ظلت في حالة من العصيان المزمّن على أسبانيا طيلة سنوات عديدة . ثم عقب ذلك حرب وجيزة الأمد انتهت بالاستيلاء على كوبا وبورتوريكو وجزائر الفلبين . وكوبا الآن جمهورية مستقلة تدير شئونها بنفسها . وأعطيت بورتوريكو وجزائر الفلبين نوعاً خاصاً من الحكم فيه مجلس نواب ينتخب الشعب أفرادهم ومجلس أعلى يحتوى على أعضاء عنهم بادئ الرأي مجلس الشيوخ بالولايات المتحدة . ومن البعيد أن تصبح أى من بورتوريكو والفلبين يوماً ما ولايات في الاتحاد الأمريكى . والأرجح أن تصبحا دولا حرة على أساس تحالف شامل مع كل من أمريكا الناطقة بالإنجليزية وأختها اللاتينية .

ولقد استقبلت كل من كوبا وبورتوريكو التدخل الأمريكى في شئونها بالترحاب التام ، ولكن ظهرت في جزائر الفلبين حركة مطالبة بالحرية التامة الناجزة بعد الحرب الأسبانية ، كما نشبت مقاومة جسيمة للإدارة العسكرية الأمريكية . هنالك اقتربت الولايات المتحدة أشد اقتراب من طراز استعمار الدول الكبرى ، وأصبح سجلها في هذا المضمار أبعث ما يكون على الريبة على أن الشعب الأمريكى أبدى شيئاً كثيراً من العطف على العصاة . وهاكم الآن وجهة نظر الرئيس روزفلت كما كتبها في ترجمته الذاتية ١٩١٣ .

« فأما عن الفلبين فقد كان اعتقادى أنه يجب علينا أن ندرّب أهاليها على الحكم الذاتى بأسرع ما يستطاع ، ثم نتركهم أحراراً في تقرير مصيرهم . ولم أكن ممن يؤمنون بتجديد الموعد الذى يجب أن نعطيهم فيه الاستقلال ، لأننى لم أكن أرى من الحكمة أن يتنبأ المرء بمقدار السرعة التى يصبحون فيها أهلاً للحكم الذاتى ؛ فإذا قطعت ذلك الوعد فإنى أشعر بأنه من المحتم على أن أبرّ به . ولم تمض بضعة أشهر على توليتى مهام عملى حتى قضينا في جزائر الفلبين على آخر مقاومة مسلحة وهى مقاومة لم تكن مجرد حركة متفرقة ولا متناثرة ، وما أن توظد السلام في البلاد حتى وجهنا كل هممتنا إلى تطوير الجزر لمصلحة أهل البلاد ، فأسسنا المدارس في كل

مكان ؛ وأنشأنا الطرق ؛ وأقننا عدالة نزيهة ؛ وفعلنا كل ما في استطاعتنا لتشجيع الزراعة والصناعة ؛ وأخذنا نزيد باطراد في استخدامنا لأهل البلاد للقيام بحكم أنفسهم وأخيراً أزودناهم بمجلس تشريعى . . .

« لقد كنا وما زلنا نحكم جزر الفلبين لمصلحة أهلها أنفسهم . فلو قرر الفلبينيون في الوقت المناسب أنهم لا يرغبون أن يحكموا على هاته الشاكلة ، فإني موقن بأننا سنغادر بلادهم عند ذلك . على أننا إذا غادرناهم بالفعل فيجب أن يكون مفهومًا فهما بيتنا أننا لا نحفظ بأى حماية على الجزر ، وأننا فوق كل شيء لن نساهم في أية حماية مشتركة — ولا نمنحهم أى ضمان بالحياة أو عدم الحياة ، وأننا بالايجاز خلوا خلواً تاماً من كل تبعة ، من أى نوع ووصف قبلهم » .

تلك وجهة نظر مخالفة أتم المخالفة لوحدة نظر وزارة للخارجية بريطانية أو فرنسية أو موظف في وزارة المستعمرات . على أنها لا تبتعد كثيراً عن تلك الروح التي خلقت الممتلكات المستقلة في كندا وجنوب أفريقيا وأستراليا ، وقدمت مشروعات قوانين الحكم الذاتي الثلاثة لإرلندة . وهى شىء يتمشى والتقاليد الإنجليزية القديمة التي اختصصنا بها والتي انتهل منها لإعلان الاستقلال . وهى تنبذ بلا مناقشة تلك النكرة المفقوتة . فكرة « الشعوب المحكومة » . وإن ندخل هنا في المعقدات السياسة التي صحبت لإنشاء قناة بناما ، لأنها لا تلتقى أى ضياء جديد على هذا الموضوع الشائق موضوع منهج أمريكا في السياسة العالمية . وتاريخ بنا تاريخ أمريكى بحث . ولكن من الواضح أنه كما كان التركيب السياسى الداخلى للاتحاد الأمريكى شيئاً جديداً في العالم ، فكذلك كانت علاقاته بالعالم خارج حدوده .

٧ — الأسباب المباشرة للحرب العظمى

لقينا بعض المشقة في الفحص عن حالة أوروبا وأمريكا العقلية بالنظر إلى العلاقات الدولية في السنوات التي انتهت بمأساة ١٩١٤ العالمية ، لأن تلك الحرب الكبرى وأمثالها — كما أخذ عدد متزايد من الناس يشعر بذلك — كانت نتيجة ضرورية لعقلية الزمان . فإن جميع الأشياء التي تصدر عن الأفراد والأمم إنما هى نتيجة

لدوافع غريزية لها رد فعل على الفكرات التي وضعها في رعوس الناس الخطابة والكتب والصحف والمدرسون إلى غير ذلك من وسائل الإعلام وربما أخرجت نمو التاريخ الإنساني عن جادته وانحرفت به وشوهت معالنه أشياء من أمثال الضرورات الطبيعية والأوبئة وتغيرات المناخ وما إليها من أشياء آخر ، ولكن الفكر هو الجذر الحى لذلك التاريخ .

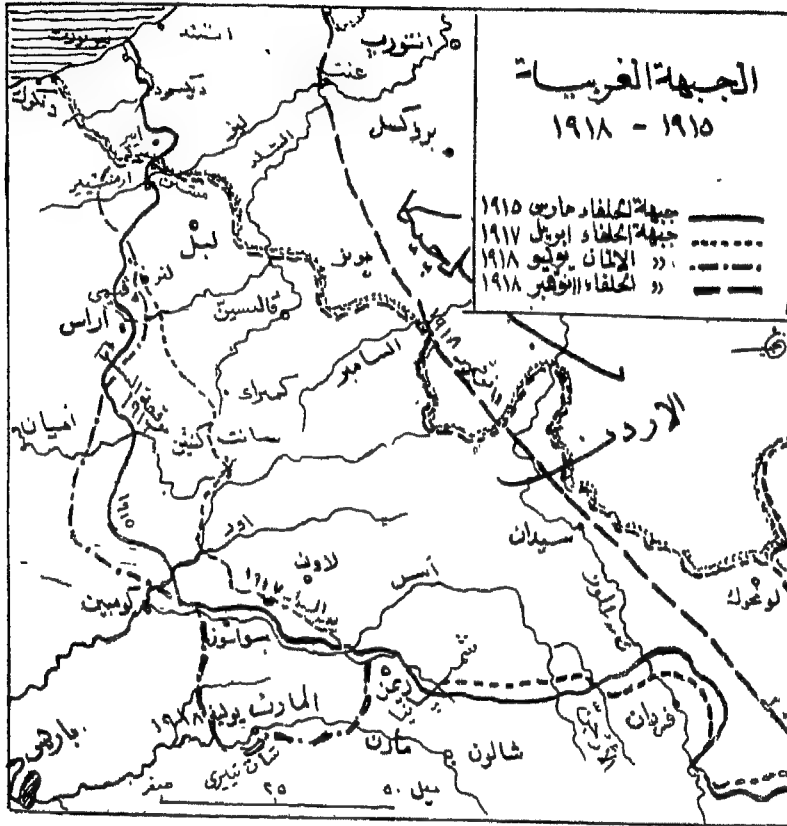
فالتاريخ البشرى بأجمعه إنما هو فى جوهره تاريخ فكرات . فإن ما بين إنسان هذا الزمان ورجل الكرومانيون من فروق جثمانية وعقلية طفيف جداً ؛ وينحصر الفارق الأساسى بينهما فى سعة ومحتويات « الخلفية العقلية » التى اكتسبناها فى الأجيال الخمسمئة أو الستمئة التى تفصلنا عنهم .

ونحن من الحرب العظمى على مقربة بلغ من شدتها ألا نستطيع أن ندعى أن فى إمكان هذا الكتاب أن يسجل حكم التاريخ عليها ، على أننا ربما خاطرنا بأن نركن أنه عندما تخف انفجالات النزاع ، فستكون ألمانيا صاحبة القسط الأوفى من اللوم على التسبب فيها ، وإنها لتلام لأنها كانت من الناحية الذهنية والحلقية مختلفة جداً عن جيرانها ، بل لأنها كانت مصابة بما تشركها فيه الدول جميعاً من داء الاستعمار ولكنه فيها على أتم صورة وأقواها نشاطاً . وليس هناك من مؤرخ يحترم نفسه ، مهما بلغت مراميه من السطحية والرغبة فى استرضاء العامة ، يستطيع أن يقبل تلك الأسطورة التى أنتجتها آلام الحرب وويلاتها ، والقائلة بأن الألمان نوع من الكائنات البشرية أشد قوة وأدعى للكراهية من أى جنس آخر من أجناس الناس . فإن دول أوروبا الكبيرة كافة كانت فى ١٩١٤ فى حال من القومية العدوانية ، وكانت تنساق نحو الحرب ؛ ولم تقم حكومة ألمانيا بأكثر من قيادة الحركة العامة . فكانت أول من وقع فى الحفرة ، وهوت تتخبط فى أعماقها . وأصبحت المثل الفظيع الذى استطاع زملاؤها فى الإثم أن يشهروا به .

ذلك أن ألمانيا والنمسا ظلنا زمناً طويلاً تبحثن عن متسع للنفوذ الألمانى شرقاً خلال آسيا الصغرى إلى بلاد الشرق . وتبلورت الفكرة الألمانية فى عبارة « برلين إلى بغداد » . وكانت أحلام الروسية عدوة لأحلام ألمانيا ، فالروسيا كانت تدبر

١٤٣٩

الخطط الرامية إلى إمتداد السيادة السلافية (الصقلية) إلى القسطنطينية وللوصول بطريق صربيا إلى البحر الأدرياتي . وكانت هذه الأطماع متضاربة متعارضة .



(شكل ٢١١)

وكانت حالة الحمى المتسلطة على شئون البلقان نتيجة طبيعية جداً للمؤامرات والدعايات التي تواصل القيام بها الخطط الألمانية والسلافية . ومدت تركيا يدها إلى ألمانيا لتلتمس العون ، والتفتت صربياً صوب الروسية ، واتبعت رومانيا وإيطاليا وكلتاها لاثنية التقاليد ، وكلتاها حليف إسمي لألمانيا ، خططاً مشتركة بينهما أبعد مجالا وأعرق غوراً . وكان فرديناند قيصر بلغاريّاً يطلب غايات أشد حلوكة وسواداً ؛ كما أن خفايا البلاط اليوناني الذي كان ملكه صهراً للقيصر الألماني تخرج عن مجال مقدرتنا الحالية على البحث والتقصي .

ولكن المعضلة لم تنته عند تربص ألمانيا في جانب والروسيا في الجانب المقابل . فإن جشع ألمانيا في ١٨٧١ جعل من فرنسا عدواً لدوداً لها . وأدرك الشعب الفرنسي عجزه عن أن يسترد بقوته وحده مقاطعاته المسلوبة ، وعلل النفس بفكرات مضخمة عن قوى روسيا ومساعداتها . وأسهم الشعب الفرنسي في القروض الروسية إسهاماً هائلاً . وكانت فرنسا حليفة لروسيا . فإذا اعتدت قوات الألمان على روسيا فلامراء في أن فرنسا تهاجمهم .

وكانت الحدود الفرنسية الشرقية القصيرة محصنة تحصيناً قوياً جداً . وبفضل هذا الحاجز لم يعد أمام ألمانيا إلا أقل الاحتمالات في تكرار نجاحها في ١٨٧٠-١٨٧١ . على أن الحدود الفرنسية البلجيكية كانت أطول وأضعف تحصيناً . فالقيام بهجوم على فرنسا بطريق بلجيكا بقوات جارفة لا قبل لأحد بمقاومتها ، قد يعيد ١٨٧٠ على درجة أكبر وأبلغ . وربما رُدت الميسرة الفرنسية نحو الجنوب الشرقى إلى فردان جاعلة منها قطب دوران ، ثم تتزاحم متراجعة على الميمنة كما تطبق المدية أو الموسيقى .

وقد دبر الاستراتيجيون الألمان هذه الخطة بعناية وإحكام بالغين . وكان في تنفيذها اعتداء على حرمة قانون الأمم : (أعنى القانون الدولي) ، لأنّ روسيا تعهدت بضمان حياد بلجيكا ولم يكن بين الفريقين خلاف ، كما أن فيه خطر إدخال بريطانيا العظمى في الموضوع (وهى دولة كانت كذلك متعاهدة بحماية بلجيكا) من ألمانيا . ومع هذا فإن الألمان اعتقدوا أن أسطولهم بلغ من القوة مبلغاً يكتفى لجعل بريطانيا تتردد في التدخل ، وقاموا — ناظرين إلى الاحتمالات التى قد تجى بها الأيام — بإنشاء مجموعة عظيمة من الخطوط الحديدية الاستراتيجية^(١) تصل إلى حدود بلاد البلجيك ، وأعدوا كل عدة لتنفيذ هذه الخطة . لعلمهم بذلك يستطيعون أن يقضوا على فرنسا بضربة واحدة ، ثم يلتفتون بعد ذلك إلى روسيا وقما يمليه عليهم هواهم .

وفى ١٩١٤ كان يلوح أن جميع الأمور متكافئة حسبما تهوى الدولتان الوسطيان . نعم إن روسيا كانت تستعيد قواها منذ ١٩٠٦ ، ولكن ذلك لم يكن إلا ببطء

(١) الاستراتيجية : فن القيادة بصفة عامة وعلم أو فن جمع الموارد العسكرية بعضها إلى بعض أو القيام بمناورات الجيوش . (المترجم)

١٤٤١

شديد . وكانت فرنسا مبللة الفكر لما أصابها من فضائح مالية . ولم يلبث الحادث المذهل الذى صرع فيه المسبوكالميت محرر جريدة الفيجارو على يد زوجة المسبو كايو^(١) وزير المالية ، أن بلغ بهذه الفضائح أوجها فى مارس . فأما بريطانيا ، فإن ألمانيا بأجمعها كانت موقنة بأنها على شفير الحرب الأهلية فى إرلندة . وبذلت جهود متكررة من أقوام أجنب وانجليز على السواء للحصول على بيان محدد عما تنوى بريطانيا أن تفعله إذا هاجمت ألمانيا والنمسا دولتى فرنسا والروسيا . ولكن وزير الخارجية البريطانى السير إدوارد جراى ظل محتفظاً بستر من الغموض حتى نفس اليوم الذى دخلت فيه بريطانيا الحرب . ونتيجة لذلك ، كان يعم القارة الأوروبية إحساس بأن بريطانيا إما لا تنوى أن تحارب أو هى سوف ترجئ القتال . وربما شجع هذا ألمانيا أن تواصل تهديدها لفرنسا .

ومما تعجل سير الحوادث فى ٢٨ يونيه اغتيال الأرشييدوق فرانسيس فرديناند ، وارث عرش الإمبراطورية النمساوية وهو فى زيارة رسمية لسراچيفو عاصمة مقاطعة البوسنة . وعند ذلك لاح أنسب الأعذار لدفع الجيوش إلى التحرك . قال إمبراطور الألمان « إما الآن وإلا فلا » . واتهمت صربيا بالتحريض على القتل ، وبالرغم من أن المندوبين النمساويين قدموا تقريراً يتضمن أنه ليست هناك أدلة على أن للحكومة الصربية ضلعاً فى الجريمة ، فإن حكومة النمسا والمجر دبرت التدابير لتوجيه هذا الاعتداء إلى ناحية الحرب . فى ٢٣ يوليو أرسلت النمسا إلى الصرب إنذاراً نهائياً ، وبالرغم من تقدم الصرب بالخضوع الفعلى ، ومن جهود السير إدوارد جراى وزير الخارجية البريطانية لدعوة الدول إلى مؤتمر ، فإن النمسا أعلنت الحرب على صربيا فى ٢٨ يوليو .

وعبأت روسيا جيوشها فى ٣٠ يوليو ، وفى أول أغسطس أعلنت عليها ألمانيا الحرب . وعبرت القوات الألمانية الحدود الفرنسية فى اليوم التالى ، وابتدأت الحرب

(١) كايو (Caillaux) ، (١٨٦٣ - ١٩٤٤) : سياسى فرنسى . تول المالية ورئاسة الوزارة . قتلت زوجته المحرر لأنه هدهدها بنشر رسائل من كايو إليها وهى زوجة لرجل آخر .
(المترجم)

الكبيرة ، حركة الهجوم على الجناح الأيسر خلال لوكسمبرج وبلجيكا . وسارت إلى الغرب راكبة الكشافة وحرس الطبيعة . وانطلقت إلى الغرب أرتال من السيارات المحملة بالجنود . وتبع ذلك طوابير هائلة من المشاة ذوى البذلات الرمادية ؛ وكان معظمهم شباناً ألمانين جميلي العيون شُقر الشعور ، وهم أحداث متعلمون ممن يطيعون القانون ويحترمونه ومن لم يحدث أن رأوا من قبل رصاصة تطلق غضباً . لقد أخبروهم « أن هذه هي الحرب » . وأهم يجب أن يكونوا شجعاناً لا تجدد الرحمة إلى قلوبهم سييلاً . وبذل بعضهم قصاراه في تنفيذ تعليمات سادته العسكريين هذه على حساب أهالي بلجيكا التعساء .

وقد أثرت حول تفاصيل فظائع الألمان في بلجيكا ضجة لا تتناسب في الحق مع الفعلة الجهورية الشنعاء التي اقترفت في أغسطس ١٩١٤ ، وأعنى بها اجتياح بلاد البلجيكي . فلو سلمنا بهذا فإن كل ما يقع بعد ذلك من قتل ونهب ، ومن تدمير طائش للممتلكات ، ومن نهب للفنادق والمطاعم والمشارب يقوم به رجال جياح مكودون ، وما يترتب على ذلك من إغتصاب للنساء ومن حرائق ، فأمور تعقب ذلك بحكم طبيعة الأشياء . وليس إلا البسطاء من الناس من يعتقدون بأن جيشاً في ميدان القتال يقدر أن يحافظ على مستوى للأمانة واللياقة والعدالة ، كما يقدر أن يحافظ عليها مجتمع مستقر في وطنه . هذا إلى أن تقاليد حرب الثلاثين سنة كانت ما تزال تؤثر أثرها في الجيش البروسي^(١) . فقد جرت العادة في البلاد المتحالفة ضد ألمانيا أن يعالجوا هذا الانتصاع وسفك الدماء أثناء شهور القتال بالبلجيكي كأنما هما أمران لم يحدث لهما مثل من قبل أبداً ، وكأنما كانا يرجعان إلى نبعة شريرة تتميز بها أخلاق الألمان .

فأطلقوا عليهم اسم « الهون » تشهيراً بهم . ولكن جرائم الألمان في بلجيكا أقل الأشياء شهاً بالتدمير المنظمة التي ارتكبها هؤلاء المترحلون (الذين فكروا مرة

(١) يحلو لكتاب الإنجليز أن يصموا جيوش غيرهم بكل نقيصة وينسون ما قامت به جيوشهم البريطانية من فظائع وشناعات على مر الأيام يندى لها جبين التاريخ وما مذابح الهند وبورما والعزيرية ببيعة عن الأذهان . (المترجم)

١٤٤٣

فى إبادة السكان الصينيين على بكرة أبيهم لكى يعيدوا بلاد الصين إلى الرعى)
 وكان الشيء الكثير من هذه الجرائم وحشية تسبب عن سكر رجال صاروا لأول
 مرة فى حياتهم أحراراً فى استخدام أسلحة مهلكة ، وكان الكثير منها هو العنف
 المستيرى الذى يصدر عن رجال أزعجهم ما بدر منهم من تصرفات ، أو ألم بهم خوف
 قاتل من إنتقام الأهالى الذين وقع منهم الاعتداء على حرمة بلادهم ، وكان الكثير منها
 يحدث تحت ظروف من الاضطراب والضيق بسبب النظرية القائلة بأن الرجال يجب
 أن يكونوا فى الحرب فظيعين وأن خير وسيلة لإخضاع الأمم هى الخوف . وقد جمع
 العامة الألمان من حالة طاعة نظامية وزجوا فى هذه الحرب على صورة جعلت من
 المحتم أن يترتب عليها الفظائع . فإن أى شعب يجهز للحرب ويساق إلى غمراتها كما
 حدث للألمان فهو لابد متصرف على شاكلة مماثلة .

وفى ليلة ٤ أغسطس ، وبينما أوروبا ما تبحر مستغرقة فى مجبوحة نصف قرن من
 السلم ، وما تبحر تستمتع الاستمتاع المعتاد بالحرية والرخص والوفرة الشاملة التى
 لن يراها أى حى مرة أخرى ، وتفكر فى إجازاتها الصيفية ؛ — كانت قرية فيزيه
 (Visé) البلجيكية الصغيرة فى أتون من النيران ، ثم كان فلاحوها المشدوهون
 يؤخذون ويعدمون رمياً بالرصاص بدعوى أن أحد الناس أطلق النار على الغزاة .
 ومن المؤكد أن الضباط الذين أصدروا هذه الأوامر والجنود الذين نفذوها شعروا
 بالرعب لغرابة ما أتوا . إذ لم يسبق لمعظمهم أن شهد حتى ذلك اليوم موتة عنيفة .
 وكانوا قد أضرموا النار لافى قرية بمفردها بل فى عالم بأجمعه . كانت تلك بداية
 نهاية لعصر من الاستحجام والثقة والسلوك الرقيق اللائق فى أوروبا .

وما كاد العالم يتحقق أن بلاد البلجيك سوف تغزى ، حتى كفت بريطانيا العظمى
 عن التردد ، وفى الساعة الحادية عشرة من مساء ٤ أغسطس أعلنت الحرب على
 ألمانيا . وفى اليوم التالى ضببطت سفينة ألمانية من ملقيات الألغام عند مصب نهر التيمز
 إذ اكتشفتها الطرادة (أمفيون Amphion) وأغرقتها — وهى أول مرة التقي فيها
 الألمان بالإنجليز فى حرب تحت راياتهما القومية سواء أكان ذلك فى البر أم فى البحر .
 وما تزال أوروبا بأكملها تتذكر الجو الغريب لأيام أغسطس المشمسة المليئة

بالأحداث هذه ، وتذكر نهاية السلم المسلح . وقد ظل العالم الغربي قرابة نصف قرن وهو ساكن تبدو عليه الأمانة . ولم يكن هناك في فرنسا إلا القليل من الكهول والشيوخ الذين شربوا لبان الحرب فعلا وتمرسوا بها عملياً . وطفقت الصحف تتحدث عن كارثة عالمية ، ولكن هذا الحديث لم يكن له إلا معنى ضئيل جداً لدى أولئك الذين كان العالم يبدو في نظرهم على الدوام في أمانة وسلام ، ومن كانوا في الواقع لا يستطيعون تصوره إلا مستظلاً بظلال الأمانة والسلام .

وتواصلت في بريطانيا بوجه خاص روتينات زمن السلم وأحواله العادية تواصلت لا يخلو من اهتزاز وتردد . كانت الحال تشبه حال رجل ما يزال يمشي في هذا العالم غير مدرك أنه مصاب بداء عضال سوف يغير كل مجرى حياته وكل عادة فيها . فاستمر الناس في إجازاتهم الصيفية ؛ وكانت الدكاكين تطمئن زبائنهم بإعلانهم بأن « العمل يجري كالمعتاد » . وكان الحديث يكثر والإنفعال يشتد عندما تظهر الصحف ، ولكنه كان حديثاً وكان انفعالا لنظارة ليس لديهم شعور واضح بالاشتراك في هذه الكارثة التي أوشكت أن تغمرهم جميعاً على الفور .

٨ - خلاصة للحرب العظمى حتى ١٩١٧

سنستعرض الآن بمنتهى الإيجاز الأدوار الرئيسية للكفاح العالمي الذي ابتدأ كما رأيت . وكما دبرت ألمانيا الأمر ، بدأت الحرب بهجوم سريع يهدف إلى ضرب فرنسا « ضربة قاضية » ؛ بينما تكون روسيا منهمكة بتجميع قواتها في الشرق . وسارت الأمور على ما يرام رديحاً من الزمان . ومن المعروف أن العلم العسكري ليس بالعلم المماشي لتقدم زمانه في ظروفنا العصرية هذه ، لأن العسكريين من الرجال إنما هم بوصفهم طبقة - رجال واهنو الخيال ، فهناك في كل آن مخترعات لم تتطور ، تجدد الفطنة العسكرية قد رفضتها ، بينما هي تستطيع أن تحطم ما جرى عليه العرف في فني التكتيك^(١) والاستراتيجية .

(١) التكتيك : فن قيادة الجند في إحدى المعارك وفق قواعد مقررة وخطة مرسومة .
(المترجم)

١٤٤٥

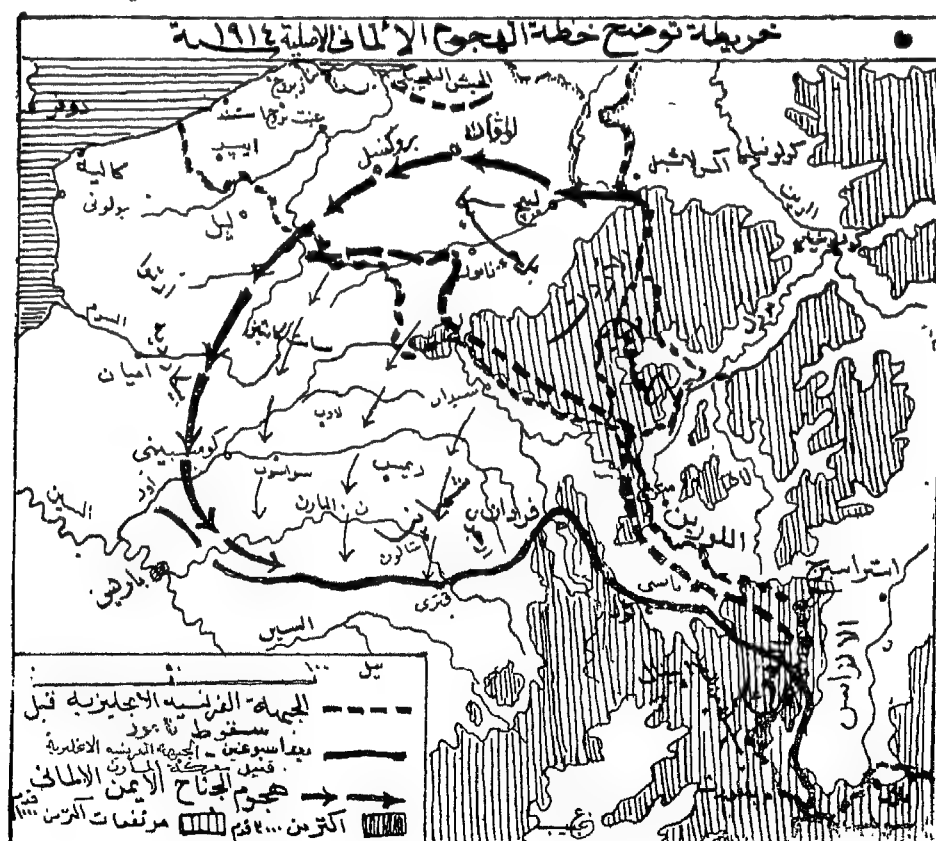
وكانت الخطة الألمانية مدبرة من سنوات عدة . فهي من ثم خطة عتيقة آسنة . ولعلها كانت تحبب منذ البداية لو أنها قوبلت باستعمال الخناق والأسلاك الشائكة والمدافع الرشاشة استعمالاً صحيحاً ، ولكن الفرنسيين لم يكونوا بأى حال متقدمين فى فهم العسكرى تقدم الألمان ، فركنوا إلى أساليب الحرب المكشوفة التى كانت متأخرة عن الزمان بما لا يقل عن أربعة عشر عاماً . ولم يكن لديهم عتاد مناسب لامن الأسلاك الشائكة ولا من المدافع الرشاشة ، وكان هناك تقليد مضحك يقول بأن الفرنسى لا يحسن القتال وراء المتاريس .

وكان الدفاع عن الحدود البلجيكية موكولا بحصون لياج (Liège) ، وهى حصون قديمة الطراز عشر سنوات أو اثنتى عشرة سنة ، وفيها استحکامات زودها بالأسلحة وركبها فى كثير من الحالات مقاولون من الألمان ، وكان العتاد فى الحدود الفرنسية الشمالية الشرقية رديئاً جداً . وطبيعى أن شركة الأسلحة الألمانية المسماة كروپ أعدت لهذه الحصون الهزيلة معاول تتمثل فى مدافع ذات ضخامة استثنائية تقذف بقتابل شديدة التفجر . وأثبتت هذه الحصون أنها ليست إلا مجرد مصايد لحماها المدافعين .

وقام الفرنسيون بهجمة فاشلة فى جبال الأردن الجنوبية . وتأرجحت الجيوش الألمانية حول الميسرة الفرنسية حتى أيقن الناس أنها جيوش لا قبل لأحد بمقاومتها ؛ وسقط آخر حصن فى لياج فى ١٦ أغسطس ، وبلغ الألمان بروكسل فى ٢٠ أغسطس ، وعند مونز (Mons) أصيب الجيش البريطانى الصغير المكون من سبعين ألفاً والذى وصل إلى بلجيكا ، بضربة قاضية من قوات ساحقة ، ودفع إلى الخلف بالرغم من درس تاكتيك البنادق المهلك الذى تلقاه فى خرب جنوب أفريقيا . ودفعت القوة البريطانية الصغيرة إلى الجنوب . وانحدرت الميمنة الألمانية بصورة تترك باريس فى الغرب وتهرس الجيش الفرنسى بعضه فى بعض .

وبلغ من شدة ثقة القيادة الألمانية فى هذه المرحلة بأنها كسبت الحرب ، أنه قبل نهاية أغسطس كانت الجيوش الألمانية تسحب وتنقل فعلا إلى الميدان الشرقى ، حيث كان الروسيون يهلكون الحرث والنسل فى بروسيا الشرقية والغربية . وعند ذلك

ومزقت معركة المارن الخطة الألمانية الأصلية . ونجت فرنسا إلى حين . ولكن



(شکل ۲۱۲)

الجيش الألماني لم يهزم ؛ بل كان لا يزال لديه الفوق العدواني العظيم في المهارة العسكرية والعتاد . وكان خوفه من الجيش الروسي في الشرق قد زال أو كاد بنصر هائل أحرزه في تاننبرج . وكان الدور الثاني من أدوار الحرب حملة مدبرة تدبيراً أقل إحكاماً ترمى إلى تطويق ميسرة جيوش الحلفاء والاستيلاء على ثغور القنال الإنجليزي ومنع المدد الآتي من إنجلترا إلى فرنسا . ومن ثم امتد كل من الجيشين غرباً وانطلقا إلى الساحل فيما يشبه السباق . ثم انطلق الألمان بما لهم من تفوق عظيم في المدافع والعتاد محاولين إنزال ضربة بالإنجليز بالقرب من إيبير (Ypres) وكادوا أن يحدثوا ثغرة في صفوفهم ، لولا أن صمد لهم الإنجليز .

وكدت الحرب في الميدان الغربي متحولة إلى حرب خنادق . ولم يكن لدى أحد من الطرفين من العلم والعتاد ما يكفل حلّ مسألة اختراق الخنادق العصرية وأحاطيل المعوّقات الحديثة ، وعند ذلك اضطر كل من الطرفين إلى الالتجاء إلى أهل العلم والاختراع ومن إليهم من غير العسكريين يسألونهم النصيح والمعونة فيما هم فيه من ورطة . وفي ذلك الوقت كانت المشكلة الجوهرية في حرب الخنادق قد حُلّت فعلاً ؛ إذ كان يوجد في إنجلترا مثلاً نموذج دبابة كانت تمنح الحلفاء ولا ريب نصراً سهلاً سريعاً قبل ١٩١٦ . ولكن العقل العسكري المحترف إنما هو بحكم الضرور . - قلّ منحنط سقيم الخيال ؛ فليس هناك إنسان رزق مزبة ذهنية عالية يرضى بمحصن اختياره بحبس مواهبه في مثل هاته المهنة ؛ وجميع العسكريين المتفوقين العظيمة يكادون أن يكونوا إما من الشبان الأغمار الناضري الأذهان أمثال الإسكندر ونابليون وهوش^(١) ، أو من السياسيين الذين انقلبوا إلى سلك الجنديّة أمثال يوليوس قيصر ، أو من المترحلين أمثال قواد الهون والمغول أو هواة من أمثال كرومويل وچورج واشنطن . على أن هذه الحرب الناشئة بعد خمسين سنة من التيهو العسكري كانت حرب محترفين أقحاح ؛ وكان من المستحيل منذ بدايتها حتى نهايتها استخلاصها من يد القواد العاديين ،

(١) هوش (١٧٦٨ - ١٧٩٧) قائد فرسي نابغ ، دخل الجيش جندياً ورقى جنرالاً ، وفي ١٧٩٣ تولى القيادة في اللورين وطرد منها لجيوش البروسية . وقام بمحاولة محققة لغزو إنجلترا في ١٧٩٦ . (المترجم)

ولم يكن أى من قيادة الألمان أوقيادة الحلفاء بميالة إلى أن تنظر بعين التسمح إلى أى اختراع يقضى على أساليبهم التقليدية .

ومهما يكن الأمر فإن الألمان استحدثوا بالفعل بضعة مستحدثات . فإنهم فى ٢٨ فبراير أنتجوا مستحدثة تكاد تكون غير ذات أثر ، هى قاذفة اللهب التى كان من يستعملها معرضاً على الدوام أن يحرق حياً ؛ وفى ١٠ مايو وعند افتتاح هجوم عظيم ثان على البريطانيين (معركة إبير الثانية من ٢٢ أبريل إلى ٢٤ مايو) استخدموا سحابة من الغاز السام . وقد استعملت هذه الوسيلة الفظيعة ضد جيوش جزائرية وكندية ؛ فزلزلهم العذاب الجسماني الذى كان يصيبهم منها ، وآلام النزاع التى يلقيها من يسلمون الروح منهم ، ولكنها فشلت فى إحداث ثغرة فى صفوفهم . وجاءت بضعة أسابيع كان الكيماويون فيها أعظم أهمية من الجنود فى جبهة الحلفاء ، وما مضت ستة أسابيع حتى كان بين يدي الجيوش المدافعة أساليب ومستحدثات وقائية . وانقضت مدة عام ونصف حتى يوليو ١٩١٦ ، استمر فيها الميدان الغربى فى حالة توتر غير حاسم . وقام كل من الطرفين بهجمات شديدة كانت تنتهى بصدها بعد إراقة كثير من الدماء . وقام الفرنسيون بطعنات غالية الثمن فى آراس وفى شمبانيا فى ١٩١٥ ، وقام الإنجليز بمثلها فى لوس (Loos) .

وكان يمتد من سويسرا إلى بحر الشمال خطان مستمران من الخنادق لا ينقطعان ، لا يفصل بينهما فى بعض الأحيان إلا مسافة ميل أو يزيد ، وربما بلغت المسافة بينهما أحياناً بضعة أقدام (كما كان الحال فى آراس مثلاً) ، وفى داخل خطى الخنادق هذين ومن حولهما كان ملايين الرجال يكدحون ويقاسون الويلات ، وبغرون على أعدائهم ، ويعدون العدة لهجمات دموية محتومة الفشل . ولو كانت هذه الجموع الآسنة فى أى عصر سلف لأنتجت الأوبئة الوييلة ولا مناص ، ولكن فى هذا الموطن أيضاً استطاع العلم العصرى أن يغير ظروف الحرب . وظهرت أنواع بعينها من الأمراض الجديدة ، مثل « مرض الأقدام الخندقية ^(١) » ، المترتب على الوقوف طويلاً فى المياه الباردة ،

(١) مرض الأقدام الخندقى أو غضة الصقيع للأقدام (Trench Feet) وهى حالة مرضية تصيب أقدام الجنود بالخنادق بسبب تعرضهم للبرد والرطوبة أثناء حرب الخنادق . (المترجم)

١٤٤٩

وأشكال جديدة من الدوسنتاريا وما أشبهها ، ولكن واحداً لم يتطور تطوراً يؤدي إلى تعجيز أى من القوتين المتحاربتين .

ومن خلف هذه الجبهة كانت كل حياة الأمم المتحاربة تُحوّل أكثر فأكثر نحو القيام بإنتاج مدد مستمر من الطعام والمهمات الحربية ، وللقيام قبل كل شيء بتقديم رجال يحلون يوماً فيوماً محل من يقتلون أو يصابون . وكان من حسن حظ الألمان أن كان لديهم عدد ضخم من مدافع الحصار الكبيرة المعدة لحصون الحدود . فاستعملوا هذه في تحطيم الخنادق بالقنابل الشديدة الانفجار ، وهو استخدام لم يكن يتوقعه أحد . وكان الحلفاء طيلة السنوات الأولى أقل من الألمان بدرجة محسوسة فيما لديهم من المدافع الكبيرة والدخائر ، وكانت خسائريهم على الدوام أعظم من خسائر الألمان .

وشن الألمان على الفرنسيين هجوماً هائلاً دام طيلة النصف الأول من ١٩١٦ حول فردان . ولكن الألمان أصيبوا بخسائر فادحة ثم صدوا ، بعد أن تقدموا في الخطوط الفرنسية بضعة أميال . وعدلت الخسائر الفرنسية خسائر الألمان أو أربت عليها . وكان المشاة الفرنسيون يرددون قولهم « لن يبروا . Ils ne Passeront pas » أويشدونه غناء وقد يبروا بكلمتهم .

وكان طول الجبهة الألمانية الشرقية أكبر وخنادقها أقل انتظاماً من الجبهة الغربية . وواصلت الجيوش الروسية حيناً من الدهر ضغطها غرباً بالرغم من كارثة تاننبرج . فاستولوا من النمساويين على كل غاليسيا تقريباً ، وفتحوا المبرج في ٢ سبتمبر ١٩١٤ ، وقلعة پرزيميل الكبيرة في ٢٢ مارس ١٩١٥ . وبعد أن فشل الألمان في اختراق جبهة الحلفاء الغربية ، وبعد هجوم فاشل قام به الحلفاء دون الاستعداد له بما يلزمه من عتاد ومواد ، عاود الألمان التفاتهم إلى روسيا . وأصابوا الروسيين بسلسلة من الضربات الفادحة استحدثوا فيها طريقة جديدة من الحشد الشديد للمدفعية ، فهزم موهم بها في جنوب الجبهة الروسية أولاً ثم في شمالها . وفي ٣ يونيو استردوا پرزيميل ، ودفنوا بكل نخط القتال الروسى إلى الخلف حتى وقعت قتلنا (في ١٨ سبتمبر) في قبضة الألمان

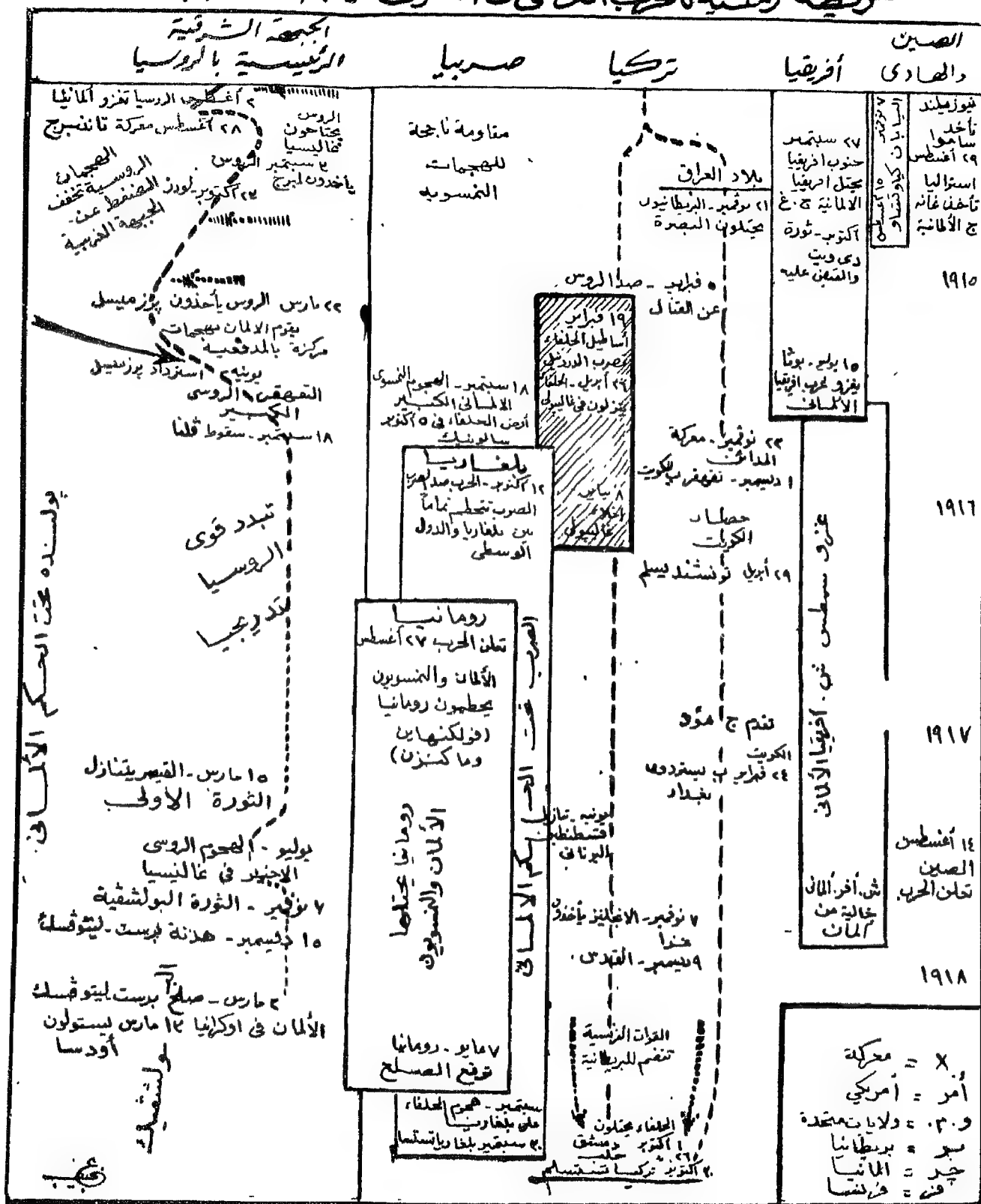
وفي ٢٣ مايو ١٩١٥ انضمت إيطاليا إلى الحلفاء وأعلنت الحرب على النمسا . ولكنها لم تعلن الحرب على ألمانيا إلا بعد ذلك بأكثر من سنة) . فدفعت حدودها الشرقية نحو جوريتزيا (التي سقطت في صيف ١٩١٦) ، ولكن تدخلها كان قليل الجدوى في ذلك الأوان لأى من روسيا أو الدولتين الغربيتين . وكل ما فعلته أن أقامت خطاً آخر من حرب الخنادق بين الجبال العالية الموجودة على حدودها الشمالية الشرقية الرائعة الجبال .

وعلى حين كانت الجهات الرئيسية للمتقاتلين الكبار فيما رأيت من حال الجمود والتوقف المنهك للقوى ، كان كل من الطرفين يحاول أن يكيل ضربة يلف بها حول خطوط خصمه . وقام الألمان بسلسلة من الغارات بمناطيد زبلن ، ثم بالطائرات فيما بعد على باريس وعلى شرق إنجلترا ، وكان هدف هذه الغارات الظاهري هو المستودعات ومصانع المقاتلة الحربية وما إليها من أهداف ذات أهمية عسكرية ، ولكن الواقع أنهم كانوا يقذفون قذائفهم بلا تمييز على الأماكن المسكونة .

وكان المغيرون يسقطون بادئ الأمر قتابل غير كبيرة الأثر ، ولكن حجم ونوع القذائف أخذ يتزايد بعد ذلك شيئاً فشيئاً ، فأصيب من جراء ذلك عدد جسيم من الناس ما بين قتلى ومصابين ، وترتب عليه أيضاً أضرار كبيرة . وثار الشعب الإنجليزي ثورة غضب شديدة لهذه الاعتداءات . ومع أن الألمان كانوا يملكون مناطيد زبلن منذ بضع سنين ، فلم يفكر أحد من ذوى السلطان في إنجلترا في أمثل الطرق للقضاء عليها ، ولم يحدث إلا في مؤخرات ١٩١٦ أن أعدت مقادير كافية من المدافع المضادة للطائرات واستعملت إستعمالاً ناجحاً ، وأن هاجمت الطائرات الإنجليزية هؤلاء المغيرون مهاجمة منظمة .

ثم أعقب ذلك سلسلة من الكوارث حلت بمناطيد زبلن ، حتى أنها بعد ربيع ١٩١٧ لم تعد تستخدم لأى غرض إلا الاستطلاع البحري . وحل محلها في الإغارة الطائرات الكبيرة (من طراز جوثا) . وأصبحت غارات هذه الآلات على لندن وشرقي إنجلترا زيارات منظمة بعد صيف ١٩١٧ . واعتادت لندن أن تسمع في كل ليلة مقمرة من ليالى شتاء ١٩١٧ - ١٩١٨ دوى صواريخ الإنذار وصفير التحذير

خريطة زمنية للحرب العظمى في الشرق ١٩١٤ - ١٩١٨



خريطة زمنية للحرب العظمى في الغرب ١٩١٤ - ١٩١٨

البيان: خريطة توضح مسار الحرب العالمية الأولى من ١٩١٤ إلى ١٩١٨. تظهر الخريطة التقدم الألماني في ١٩١٤، والهجوم الفرنسي في ١٩١٥، والعمليات المتكررة في ١٩١٦ و١٩١٧، والاندفاع النهائي في ١٩١٨. تشمل الخريطة المدن الرئيسية مثل باريس، لندن، والحدود الجغرافية مثل القناة الإنجليزية والمحيط الأطلسي.

الحاد من البوليس ، وإخلاء الشوارع سريعاً من المارة ، ودمدمة بعيدة تصدر عن عشرات ومئات من المدافع المضادة للطائرات تعلو بإطراد حتى تصبح عزيزاً فظيلاً من أصوات الاصطدام والهددة والتكسر ، وصفير القنابل المنطلقة ، وأخيراً دوى القنابل المكتوم الثقيل إن قدر لإحدى الطائرات أن تخرق نطاق الدفاع الجوي . ثم يحدث للوقت إبان تناقص هزيم المدافع أن يسمع صوت عدد المطافئ الذي لا يخطئه إنسان وإسراع عربات الإسعاف . . . لقد وصلت الحرب إلى دار كل لندي بواسطة هذه الخن .

وبينما كان الألمان يهاجمون هذه الطريقة أعصاب شعب أعدائهم في قرارة بلاده ، كانوا كذلك يهاجمون تجارة البريطانيين وراء البحار بكل ما في مستطاعهم من وسيلة . إذ كانت لهم في بداية الحرب مدمرات تجارية متنوعة ماثلة في كل أرجاء العالم ، وسرب من الطرادات القوية العصرية في المحيط الهادى ، نذكر منها الطراد شارنهرست وجينسناو وليتزج ونورنبرج ودرسدن . واستطاعت بعض الطرادات المنعزلة وبخاصة الطراد إمدن أن تحطم قدراً جسيماً من السفن التجارية قبل أن أمكن القضاء عليها ، وأمسك السرب الرئيسى بقوة بريطانية أصغر منه بالقرب من ساحل شيلي وأغرق الطرادين جود هوب (Good Hope) ومونموث في أول نوفمبر ١٩١٤ . وبعد شهر وثبتت قوة بريطانية بقيادة الأميرال ستاردى على نفس هذه السفن الألمانية فأغرقتها كلها (ما عدا الطراد درسدن) في معركة جزائر فوكلاند . وبعد ذلك القتال ظل الحلفاء سادة للبحر بغير منازع ، سيادة لم تزل لها معركة جاتلند البحرية الكبرى (٣١ مايو ١٩١٦) أدنى زلزلة .

وأخذ الألمان منذ ذلك الحين يزدون في تركيز التفاتهم على حرب الغواصات يوماً بعد يوم فأصابوا منذ بداية الحرب انتصارات ضخمة بواسطة الغواصات . ففي يوم واحد هو ٢٢ سبتمبر ١٩١٤ أغرقوا ثلاث طرادات قوية هي أبو قير وهوج وكريسسى (Cressy) ومعها ١٤٧٣ رجلاً . وظلوا يصيبون من السفن البريطانية طوال الحرب ، وكانوا في البداية يستوقفون سفن الركاب والتجارة ويفتشونها ، ولكنهم أهملوا هذه العادة خشية الوقوع في الأحابيل ، وفي ربيع ١٩١٥ شرعوا يغرقون السفن بلا إنذار .

وفي مايو ١٩١٥ أغرقوا باخرة الركاب العظيمة لوزيتانيا بلا إنذار ، فغرق بسبب ذلك عدد من الرعايا الأمريكيين . فحز ذلك في نفوس الأمريكيين وأثار ثائرتهم عليهم ، ولكن احتمال إيقاع الضرر ببريطانيا وربما اخضاعها بحصر بحرى بواسطة الغواصات هدف كان لديهم من العظم بحيث دفعهم إلى الإلحاح في حملة الغواصات هذه ومواصلة التزيد من النكير والعنف ، غير آبهين بخطور جر الولايات المتحدة إلى صفوف أعدائهم .

وفي نفس الوقت كانت الجيوش التركية المزودة بأسوأ عتاد تبدى نحو مصر حركات التهديد خلال شبه جزيرة سيناء . وعلى حين كان الألمان يكيلون الضربات لبريطانيا على ما رأيت بطريق الهواء ومن تحت أطباق الماء ، وهى خصمهم الأشد قوة والأبعد عن منال أيديهم ، كان الفرنسيون والإنجليز كذلك مقبلين على هجوم مدمر في الشرق على جناح دول الوسط عن طريق تركيا . وقد دبرت حملة غاليبولى أبدع تدبير ولكنها نفذت بأكبر معرة . فلو أنها نجحت لاستولى الحلفاء على القسطنطينية في ١٩١٥ . ولكن الأتراك تلقوا إنذاراً قبل المشروع بشهرين وذلك عندما ضرب الدردنيل بالقنابل في فبراير ، وربما كشف البلاط اليوناني كذلك سر الخطة بخيائته ، وعندما نزلت القوات البريطانية والفرنسية آخر الأمر في شبه جزيرة غاليبولى في أبريل ، وجدوا الأتراك قد أعدوا الخنادق أحسن إعداد كما رأوهم مزودين بما يلزم لحرب الخنادق خيراً منهم .

واعتمد الحلفاء في ناحية المدفعية الثقيلة على مدافع السفن الضخمة ، التى كانت غير ذات جدوى نسبياً في تحطيم تحصينات الخنادق ، ومن بين الأشياء الكثيرة الأخرى التى فاتهم أن يقدرُوا وجودها احتمال ظهور الغواصات المعادية . فضاعت لذلك سفن حربية عظيمة عديدة ، هوت إلى نفس المياه الصافية التى مرت عليها سفن إجزرسييس يوماً ما إلى مصيرها المحتوم في سلاميس^(١) . وقصة حملة غاليبولى من ناحية الحلفاء تجمع بين ظواهر البطولة وعوامل الأسى ، فهى قصة

(١) سلاميس : انظر العالم - ٢ من ٣٠٨ (ط ١) ، ص ٣٦٢ ، ٣٦٤ من الطبعة الثانية . (المترجم)

١٤٥٣

شجاعة وقلة اقتدار وقصة أنفـس ذهبت بدداً وموارد أهـلكت وهـيبة ضـاعت ، وبلغت حضيضها في انسحاب مهين تم في يناير ١٩١٦ .

ومما يتصل اتصالاً وثيقاً بتذبذب بلاد اليونان طيلة ذلك الزمان دخول بلغاريا الحرب (في ١٢ أكتوبر ١٩١٥) . وقد ظل ملك بلغاريا متردداً أكثر من سنة قبل أن يتخذ قراراً حاسماً في الانضمام إلى أحد الطرفين . ولكن دفعه إلى ناحية الدول الوسطى ما رأى عند ذلك من فشل البريطانيين في غاليبولى ، وقيام النموسيين والألمان في الوقت نفسه بهجوم عنيف في بلاد العرب . وبينما الصربيون في شغل شديد بالمغيرين النموسيين والألمان على ديارهم الدانوبية ، هاجم الملك صربياً من الخلف ، وما مضت بضعة أسابيع حتى كانت البلاد قد غزيت تماماً . وتقهقر الجيش الصربي قهقرة فظيعة عابراً جبال ألبانيا إلى الساحل ، حيث أنقذ فلوله أسطول للحلفاء .

ونزلت قوة متحالفة إلى سالونيك . واندفعت في البلاد نحو مناستر ، ولكنها عجزت عن تقديم أى مساعدة فعالة للصربيين . وكانت عملية سالونيك هي التي ختم بها مصير حملة غاليبولى . وإلى الشرق من ذلك في أرض الجزيرة (: العراق) قام البريطانيون مستخدمين في غالب الأمر جنوداً من الهنود بهجوم جناح جانبي أبعد من الأول على الدول الوسطى . فأنزل إلى البر في البصرة جيش كاسوأ ما تكون الجيوش عدة وعتاداً في نوفمبر ١٩١٤ تهبواً للحملة التي تنتظره ، ثم دفع نحو بغداد في السنة التالية . ففاز بنصر عند المدائن (كتيشفون) عاصمة الأرشكيين والساسانيين العتيقة وهي على مبعده خمسة وعشرين ميلاً من بغداد ، ولكن الأتراك تلقوا أمداداً عظيمة ، وتراجع البريطانيون إلى كوت الإمارة^(١) ، وهناك أحيط بالجيش البريطاني تحت قيادة الجنرال تاونشند حتى ألجأه الجوع إلى التسليم في ٢٩ أبريل ١٩١٦

وكانت كل هذه الحملات الدائرة في الجوف وتحت أطباق البحار وفي روسيا وتركيا وآسيا ثانوية بالنسبة للجهة الرئيسية جهة الفصل في الأمر ، الممتدة بين

(١) كوت الإمارة : مدينة على نهر الدجلة بالعراق ، وهي مركز لتجارة الجبوب وصنع الساجيد . (المترجم)

سويسرا والبحر . وهناك كانت حشود الملايين الرئيسية ترقد في خنادقها ، وتتعلم في بطء الأساليب الضرورية للحرب العصرية العلمية . وحدث تقدم سريع في استخدام الطائرة . ففي بداية الحرب كانت الطائرة تستخدم أغلب ما تستخدم . الكشف بصفة رئيسية ، ثم استخدمها الألمان في إلقاء علامات تسترشد بهاء المدفعية . ولم يكن الناس قد سمعوا بعد بتسعى اسمه النزال الجوى . ولكن في ١٩١٦ حلت الطائرات المدافع الرشاشة وأخذت تتقاتل في الهواء ؛ وكانت أهمية ضربهم الأعداء بالقنابل تتزايد وضوحاً ، وقد طوروا فن التصوير الجوى وهو فن مدھش حقاً . كما أن جميع الجانب الجوى من أعمال المدفعية سواء أتم بواسطة الطائرات أم بالونات المراقبة ، قد ألم به تطور هائل . ولكن العقل العسكرى لم يفتأ يقاوم استخدام الدبابات . التى هى السلاح الواضح للفصل في حرب الخنادق .

وكان الكثير من أذكىء الناس خارج الدائرة العسكرية يفهمون هذا الأمر فهماً جلياً . فإن استخدام الدبابات ضد الخنادق كان تدبيراً واضحاً وضوحاً مطلقاً . وقديماً اخترع ليوناردو دافنشى دبابة مبكرة . وما أن انتهت حرب جنوب أفريقيا في ١٩٠٣ حتى ثارت في المجلات قصص تصف معارك خيالية تظهر فيها الدبابات ؛ وعُرض على السلطات العسكرية البريطانية نموذج كامل شغال لإحدى الدبابات قام بصنعه المسترج . ا . كرى (I. A Corry) أحد أهالى ليدز ، ولكنها بالطبع رفضته في ١٩١١ . والواقع أن الدبابات اخترعت ثم أعيد اختراعها من جديد قبل أن تبدأ الحرب . ولو أن الأمر كان كله بيد العسكرين لما استخدمت الدبابات على الإطلاق .

وكان المستر ونستون تشرشل وزير البحرية في ١٩١٥ - ١٩١٦ هو الذى أصر على صنع أول الدبابات ، ولقى لإرسالها إلى فرنسا أشد معارضة وأعنفها . فإلى البحرية البريطانية وليس إلى الجيش يدين العلم العسكرى باستخدام هذه المستحدثات . وكان رأى السلطات العسكرية الألمانية مضاداً لها كذلك . وفي يوليو ١٩١٦ شرع السير دوجلاس هابج القائد البريطانى العام في القيام بهجوم عظيم أخفق في اختراق صفوف الألمان . وقد تقدم في بعض الأماكن بضعة أميال ، وهزم في

البعض الآخر هزيمة تامة . وحدثت مذبحة هائلة في الجيوش البريطانية الجديدة . ومع ذلك لم يستخدم القائد الدبابات .

وفي سبتمبر عندما أخذ الفصل يصبح غير مناسب للقيام بهجوم متواصل ، ظهرت الدبابات لأول مرة في الحرب . فقد استخدم القواد البريطانيون عدداً قليلاً منها استخداماً لا يتبدى فيه كثير من الذكاء . وكان مفعولها في الألمان عميقاً ، فإنها أحدثت فيهم أثراً أشبه ما يكون بالهلع البالغ ، وليس إلى الشك من سبيل أنها لو استعملت في يولييه بأعداد كافية ، وأدار دفتها جنرال ذو خيال رحيب وهمة عالية ، لأنهت الحرب على الفور . ففي ذلك الوقت كان الحلفاء أقوى من الألمان في الميدان الغربي وكانت النسبة على وجه التقريب ٧ إلى ٤ . وكانت روسيا وإن اقتربت سريعاً من مرحلة الإعياء — لا تبرح تقاتل ، وكانت إيطاليا تضغط على النمساوين ضغطاً شديداً ، ورومانيا قد دخلت من فورها الحرب في صف الحلفاء . ولكن الإسراف في إزهاق أرواح الرجال في شهر يولييه الكارث ذلك أوقف الحلفاء على حافة الكارثة نفسها .

وما أن اطمأن الألمان لفشل البريطانيين في يولييه ، حتى انقضوا على الرومانيين . وشهد شتاء ١٩١٦ في رومانيا نفس المصير الذي حل بصربيا في ١٩١٥ . فالسنة التي ابتدأت بالتهقير عن غاليليو والتسليم في كوت انتهت بسحق رومانيا وإطلاق مئات الطلقات من جمهور من الحزب الملكي في شوارع آثينا على فئة من البحارة الإنجليز والفرنسيين نزلوا إلى البر . فكأنما كان قسطنطين ملك اليونان ينوي أن يقود شعبه في أثر الملك فرديناند البلغاري . ولكن الساحل اليوناني أشد ما يكون تعرضاً للأعمال البحرية . فضرب الحصار البحري على بلاد اليونان ، واتصلت قوة فرنسية من سالونيك بقوة إيطالية آتية من فالونا لتقطعاً على ملك اليونان سبيل الاتصال بأصدقائه في أوروبا الوسطى . (وفي يونية ١٩١٧ أجبر الحلفاء قسطنطين على التخلي عن العرش ، وتولى ابنه اسكندر العرش مكانه) .

وجملة القول أن بؤادر الأمور كانت تبدو أقل خطراً على أمبريالية آل هوهنزولرن . نهاية ١٩١٦ مما كانت عليه بعد إخفاق الاندفاع الأول العظيم في المارن . وكان الحلفاء أضاعوا سنتين من الفرص الذهبية . وكانت بلاد البلجيك وصربيا ورومانيا

وأجزاء عظيمة من فرنسا والروسيا تحتلها قوات ألمانية نمساوية . وكانت الضربة المضادة تفشل تلو الضربة المضادة ، وأخذت الروسية تترنح عند ذاك تهبواً للسقوط . فلو كان لدى حكام ألمانيا مسحة من حكمة لأبرموا معها صلحاً معقولاً في تلك الآونة . ولكن لمسة النجاح كانت قد أسكرت استعاريها . فلأنهم لم يريدوا السلامة بل النصر ولم يريدوا خير العالم بل إمبراطورية العالم . وكان شعارهم : « إما سيادة العالم وإما السقوط » ، ولم يجد خصومهم إزاء شعارهم هذا بدا من مواصلة القتال حتى نهايته الفاصلة .

٩ - الحرب العظمى من انهيار روسيا حتى الهدنة

انهارت روسيا في بواكير ١٩١٧ . وفي ذلك الوقت كانت شدة الحرب الهائلة تؤثر تأثيراً شديداً على كل الشعوب الأوروبية . فقد فسد نظام المواصلات فساداً عظيماً في كل مكان ، وانقطع الإصلاح العادي وتوقف استبدال وتجديد السفن والسكك الحديدية وما إليها ، واستنفدت المواد بجميع أنواعها وتدهور إنتاج الأطعمة وسُحِبَت من الصناعات للجواهر متزايدة من الرجال وتوقفت أعمال التعليم وتناقص باطراد ما اعتاده الناس من أمن الحياة ونزاهاتها .

وكان يتزايد في كل يوم عدد السكان الأوروبيين الذين ينقلون من بيئات وأحوال ألفوها ، إلى ظروف جديدة كانت تؤلمهم ، وتضيق عليهم وتستثيرهم وتفسد أخلاقهم . ولكن روسيا كانت أول الدول وأكثرها مكابدة وعناء من جراء ما أصاب المدنية من زعزعة عامة خلعتها من جذورها . ذلك أن الأوتوقراطية الروسية لم تكن شريفة ولا ذات كفاية . وكان القيصر شأن كثير من أسلافه قد استسلم لحالة تقوى جنونية ، وتسلط على البلاط دجال ديني ، هوراسيوتين ، الذي كانت تحلته ذات شناعة لا نستطيع التحدث عنها فهي فضيحة صارخة في وجه العالم . ومن وراء حكم هذه التصوفية القذرة ، كانت النذالة والبلادة تسيء لإدارة الحرب .

فكان الجنود الروس العاديون يرسلون إلى ميدان القتال بغير مدفعية تعضدهم ، وبدون ذخائر للبنادق نفسها ، وكان ضباطهم وجنرالاتهم يضعونهم ويلقون بهم في حالة هذيان من الحماسة العسكرية . وظلوا زمناً ما يتألمون في صمت كما تتألم البهائم ، ولكن

١٤٥٧

هناك حداً لتحمل الناس ، حتى أشدهم جهلاً . فكان يسرى في هذه الجيوش التي يغدر برجالها كباراً واهم ويضيعونهم ، شعور عميق بالاشمئزاز من القيصرية . ومنذ نهاية ١٩١٥ فما بعدها كانت روسيا مصدراً للقلق المتزايد لدى حلفائها في الغرب . وظلت طوال ١٩١٦ متخذة في الغالب خطة الدفاع ، وراجت إشاعات تذكر صلحاً منفرداً مع ألمانيا . كما أن رومانيا لم تلق منها إلا مساعدة لا تذكر .

وفي ٢٩ ديسمبر ١٩١٦ قتل الراهب راسپوتين أثناء مأدبة غداء أقيمت في بتروجراد ، وبذلت محاولة متأخرة لإعادة تنظيم القيصرية . وما وافي مارس حتى أخذت الأمور تتفاقم بسرعة ؛ فتطور الشغب على الطعام في بتروجراد إلى عصيان ثورى ؛ وحاولت الحكومة إيقاف جلسات مجلس الدوما ، وهو الهيئة النيابية ، كما قامت محاولات للقبض على الزعماء الأحرار ، وتكونت حكومة مؤقتة تحت رئاسة الأمير لثوف ، وتنازل القيصر عن العرش في ١٥ مارس .

ومضى زمان لاح فيه أنه عسى أن تتمخض الأمور عن ثورة معتدلة مقيدة غير جامحة ، وربما كان ذلك في ظل حكم قيصر جديد . ثم أصبح من الحلى أن ثقة الشعب الروسى قد دمرت تدميراً تجاوز كثيراً حدود مثل هاته التسويات . فلإن الشعب الروسى استبدت به السامة من النظام القديم لكل ما في أوروبا من أشياء : من القياصرة والحروب والدول الكبرى ؛ وكل ما كان يطلبه هو الراحة ، والراحة السريعة مما كابده من شقاوات لا تطاق . ولم يستطع الحلفاء فهم ما في روسيا من حقائق ؛ فلإن رجال السياسة والديبلوماسية منهم كانوا أجهل الناس بالروسية ؛ فلإنهم لما كانوا من المهذبن الذين يوجهون اهتمامهم إلى البلاط الروسى لا الروسيا نفسها ، فقد وقعوا في الخطأ تلو الخطأ حيال الموقف الجديد . ولم تكن النزعة الجمهورية لتلقى كثيراً من رحابة الصدر من رجال السياسة والديبلوماسيين ، بل ظهر منهم ميل جلى إلى مضايقة الحكومة الجديدة بأكبر قدر مستطاع . وكان على رأس الحكومة الجمهورية الروسية زعيم بليغ جذاب اسمه كيرينسكى وجد نفسه هدفاً لهجمات قوى سرية لحركة ثورية أبعد غوراً ، هى « الثورة الاشتراكية » فى أرض بلاده ، وموضع إعراض من الحكومات المتحالفة فى الخارج . ولم يكن حلفاؤه ليسمحوا له

بأن يعطى الشعب الروسى مستقراً ولا سلاماً خارج حدودهم . فكانت الصحافة الفرنسية والبريطانية لاتنى تلاحق ذلك الحليف المنهك بالمطالبة بهجوم قوى جديد ، ولكن عندما حدث للفر أن الألمان قاموا بهجوم قوى على ريجا بجزراً وبراً ، هلعت وزارة البحرية البريطانية خوفاً من احتمال القيام بحملة فى البلطيق لنجدة الروس .

وكان أن اضطرت الجمهورية الروسية الجديدة إلى القتال بلا معين . وبالرغم من تسلط الحلفاء البحرى العظيم ومن الاحتجاجات المريعة التى نشرها الأدميرال فيشر الانجليزى (١٨٤١ - ١٩٢٠) فإننا نسجل أن الحلفاء فيما عدا قيام غواصاتهم ببعض الهجمات ، تركوا للألمان السيادة المطلقة على بحر البلطيق طوال الحرب كلها . وكانت الجماهير الروسية مصرة على إنهاء الحرب . وقد ظهر إلى عالم الوجود فى بتروجراد هيئة تمثل العمال والجنود العاديين ، هى السوفييت ، وكانت هذه الهيئة تصخب مطالبة بمؤتمر دولى من الاشتراكيين يعقد فى استوكهولم . وكثرت برلين فى ذلك الزمان حوادث الشغب من أجل الطعام ، واستبد السأم من الحرب بالألمان والنموسيين على السواء ، وليس لدينا شك إذ نستضى الآن بنور ما أعقب ذلك من حقائق ، أن عقد ذلك المؤتمر كان لابد معجلاً بصلح معقول على أسس ديمقراطية فى ١٩١٧ ومحدثاً ثورة ألمانية عاجلة .

وتوسل كيرينسكى إلى حلفائه فى الغرب أن يسمحوا لهذا المؤتمر أن ينعقد ، ولكنهم خشوا أن يحدث انعقاده انفجاراً للمذاهب الاشتراكية والجمهورية يعم العالم ، فرفضوا طلبه ، بالرغم من الاستجابة الحسنة التى أبدتها أغلبية صغيرة لحزب العمال البريطانى . وظلت الجمهورية الروسية « المعتدلة » تحارب بلا معاونة مادية ولا معنوية من الحلفاء ، ثم قامت فى يولييه بجهد هجوى مستئثس أخير . ولكنه فشل بعد أن أصاب شيئاً من النجاح المبدئى ، ونزلت بالروسين مذبحه أخرى كبيرة .

وكان احتمال الروس قد بلغ عندئذ أقصى مداه . فنشبت فى صفوف الجيوش الروسية حركات التمرد ، وبخاصة فى الميدان الشمالى . وفى ٧ نوفمبر ١٩١٧ ، سقطت حكومة كيرينسكى وتملكت السلطة هيئة السوفييت التى يسيطر عليها

الاشتراكيون البلاشفة برياسة لينين ، وتعهدت بإبرام الصلح غير آبهة بالدول الغربية . وبذلك « خرجت » روسيا من الحرب خروجاً قاطعاً .

وفي أبريل من ١٩١٧ قام الفرنسيون بهجوم في شيمانيا أخفق دون اختراق صفوف الألمان وكلف المغيرين أفدح الأثمان ولم يأت بأية ثمرة . وإذن فقد جاء في نهاية ١٩١٧ دور من الحوادث أشد ما يكون مواءمة لألمانيا . لو أن حكومتها كانت تحارب من أجل الطمأنينة وحسن الحال لا للفخار والانتصار . ولكن شعوب الدول الوسطى ظلت حتى النهاية نفسها وحتى بلغت أشد درجات الاعياء ، مقيدة بغاية ثابتة هي بذل الجهد للوصول إلى النصر التام .

وللوصول إلى تلك الغاية لم يعد من الضروري فقط مقاومة بريطانيا بل إخضاعها وإذلالها ، ولكي تبلغ ألمانيا تلك الغاية جرّت أمريكا إلى دائرة أعدائها . فلإن حملة الغواصات ظلت تزداد حدة طوال ١٩١٦ ، ولكنها كانت حتى ذلك الحين تحترم السفن المحايدة . وفي يناير ١٩١٧ أعلنت ألمانيا أنها ستفرض على بريطانيا وفرنسا حصاراً بحرياً أشد وأكمل ، وحذرت جميع الدول المحايدة بأن تسحب سفنها من البحار البريطانية . وابتدأت عملية إغراق لسفن العالم بلاميز ، مما اضطّر الولايات المتحدة أن تدخل الحرب في ٦ أبريل ١٩١٨ . وبينما روسيا تنداعى طيلة ١٩١٧ وتصبح غير قادرة على شيء ، كان الشعب الأمريكي يتحول بسرعة وإطراد إلى أمة حربية عظيمة . ولم تؤت حملة الغواصات المتحلبة من كل قيد التي من أجلها قبل الاستعماريون الألمان خطر خلق هذا الخصم الجديد لأنفسهم ، — ما كان متوقعاً لها من توفيق . إذ أظهرت البحرية البريطانية أنها أوسع حيلة وأكثر تفنناً من الجيش البريطاني ؛ وتحدث تطور سريع في الوسائل المضادة للغواصات تحت الماء ، وعلى صفحته وفي الهواء ؛ وبعد أن انقضى شهر أو أكثر من التدمير الخطيرة المنخفض أثر الغواصات كثيراً . ووجد البريطانيون أن من الضروري أن يعيشوا على نظام جريات الأطعمة ؛ ولكن القواعد وضعت وضعاً متيناً وأديرت بكفاية ، وأظهر الجمهور روحاً رائعة وذكاء كبيراً ، وأبعد عن البلاد خطر المجاعة والفوضى الاجتماعية ، وإن على قيد بضعة خطوات .

ومع ذلك فإن الحكومة الإمبراطورية الألمانية واصلت القتال . فلئن لم تقم الغواصات بكل ما كان متوقعاً منها ، ولئن كانت جيوش أمريكا تتجمع تجمع السحاب الممطر الراعد ، فقد كان من المقطوع به أن روسيا قد انهارت وزال كل خطر لها . وفي أكتوبر وجه الألمان نفس النوع من هجوم الخريف الذى أسقط صربياً في ١٩١٥ ورومانيا في ١٩١٦ إلى إيطاليا فسحقها سحقاً . فانهارت الجبهة الإيطالية بعد معركة كابوريتو ، وانثالت الجيوش النمساوية الألمانية في مقاطعة فينيتيا (Venetia) حتى أصبحت على مرمى المدافع من مدينة البندقية . ومن ثم شعرت ألمانيا بأن لها ما يبرر التشدد لإزاء مقترحات الصلح الروسية ، وكان من أثر صلح برست ليتوفسك (٢ مارس ١٩١٨) أن أخذ الحلفاء في الغرب فكرة عن النصر الألماني ومغزاه ومعناه عليهم . ذلك أنه كان سلاماً ساحقاً فادحاً ، أملى مع أقصى ما قد يبديه منتصر واثق مطمئن من الصلف والكبرياء .

وظلت الجيوش الألمانية تنتقل طوال الشتاء من الميدان الشرقى إلى الغربى ، والآن في ربيع ١٩١٨ سيق ما تبقى لألمانيا الجائعة المكدودة النازفة من الحاسة الكائلة الواهنة للقيام بالجهود النهائية العظمى الذى قدر له أن ينهى الحرب حقاً وفعلاً . وبقيت القوات الأمريكية بضعة أشهر في فرنسا ، ولكن كتلة الجيش الأمريكى كانت ما تزال وراء الأطلسى . فكان ذلك أنسب الأوقات لتسديد الضربة النهائية للجبهة الغربية إن كانت هذه الضربة ستسدد يوماً ما .

فشنوا أول هجوم على البريطانيين في منطقة السوم . فأخذوا على غرة قواد الخيالة غير الكبارى الذكاء الذين مازالوا يتولون القيادة في جبهة لاشك أن الخيالة فيها عبء لاغناء فيه . وفي ٢١ مارس في « كارثة جوغ Gough » رد الجيش البريطانى الخامس في غير نظام حتى وصل إلى قريب من أميان . وكان التحاسد بين القواد البريطانيين والفرنسيين قد حال دون توحيد القيادة لجيوش الحلفاء في فرنسا ، ولم يكن هناك أى احتياطى عام أيا كان شأنه خلف جوغ . فقد الحلفاء قرابة ألف مدفع ، وعشرات من آلاف الأسرى . وظل الألمان طيلة شهرى أبريل ومايو يمتطرون الجبهة المتحالفة بالهجوم وراء الهجوم . وأوشكوا أن يحددوا ثغره

صفوف الحلفاء في الشمال ، ثم دفعوا كل ما أمامهم دفعاً إلى المارن الذي وصلوه في ٣٠ مايو ١٩١٨

وكان هذا أقصى غاية الجهد الألماني . ولم يكن من ورائه من شيء إلا وطن منك . ووضع المارشال فوش في القيادة العليا لكل الجيوش المتحالفة . وكانت هناك جيوش جديدة تسرع من بريطانيا نحو الميدان عبر القنال الانجليزي ، وكانت أمريكا تصب عند ذاك الرجال بمئات الألوف إلى فرنسا . وفي يونية قام النمسيون المتعبون بجهد نهائي في إيطاليا ، وانهاروا أمام هجوم إيطالي مضاد . وفي أوائل يونية بدأ فوش^(١) يقوم بهجوم مضاد . ولما وافى يولية كان المد أخذ ينحسر وأخذ الألمان يرتدون إلى الوراء . وأظهرت معركة شاتوتيرى (١٨ يولية ١٩١٨) جودة صنف الجيوش الأمريكية الجديدة . وفي أغسطس افتتح البريطانيون طعنة عظيمة موفقة ، وتحادل الانبعاث في الخطوط الألمانية نحو أميان ثم انهار . قال لودندورف « كان يوم ٨ أغسطس يوماً أسود في تاريخ الجيش الألماني » . وأكد الهجوم البريطاني في سبتمبر على خط هندنبرج نصر الحلفاء .

لأنتهت ألمانيا وولت روح القتال من جيشها ، وكان أكتوبر شهر هزيمة وقهقرى على امتداد الجبهة الغربية بأكملها . وفي أوائل نوفمبر كانت الجيوش البريطانية في فالنسيين والأمريكيون في سيدان . وفي إيطاليا كذلك كانت الجيوش النمسية في حالة تقهقر غير منتظم . ولكن قوات آل هوهنزولرن وآل هابسبرج كانت تنهار آنذاك في كل مكان . وكان التحطم في النهاية سريعاً سرعة مذهشة . ولم يستطع الفرنسيون والانجليز أن يصدقوا صفهم وهي تنشر يوماً إثر يوم أخبار الاستيلاء على مئات أخرى من المدافع وألوف أخرى من الأسرى . وفي سبتمبر ترتب على هجوم للحلفاء على بلغاريا اندلاع الثورة فيها وتقديم مقترحات الصلح . وأعقبها تركيا بالتسليم بلا قيد في نهاية أكتوبر ، والنمسا والمجر ٣ نوفمبر . وحاولت ألمانيا أن تخرج

(١) المارشال فوش (١٨٥١ - ١٩٢٩) هو مارشال فرنسا ، وكان له الفضل في صد الألمان وكيل الضربة النهائية لهم في أخريات الحرب . وشغل منصب رئيس هيئة أركان حرب جيوش الحلفاء ثم صار قائداً عاماً . (المترجم)

أسطولها ليقوم بآخر نزال ، ولكن البحارة تمردوا في ٧ نوفمبر . وفر القيصر وولى العهد عجلة وبلا أقل كرامة إلى هولندية . وفي ١١ نوفمبر وُقعت الهدنة ووضعت الحرب أوزارها .

لقد دامت الحرب أربع سنوات وربعاً بعد أن جرت إلى أنونها بالتدريج كل إنسان تقريباً في العالم الغربي على الأقل . ويربى عدد من قتل فعلاً أثناء القتال على ثمانية ملايين فرداً ، كمات عشرون أو خمسة وعشرون مليوناً آخرين بسبب المصاعب والفوضى التي ترتبت عليها . وقاس عشرات الملايين الأمرين أو ألم بهم الضعف والهزال بسبب سوء التغذية والشقاء . وكانت نسبة عظيمة من الأحياء تشتغل عند ذاك في أعمال الحرب ، في التدريب والتسليح وفي صنع المقاتلات وفي المستشفيات وفي العمل بدلا من الرجال الذين انضموا إلى الجيش ، وما أشبه ذلك من أعمال . وراح رجال الأعمال يكيّفون أنفسهم وفقاً للأساليب المعتلة التي لا بد منها لجمع الربح في عالم محوط بالأزمات . فلقد أصبحت الحرب بالفعل جواً وعادة من عادات الحياة ونظماً اجتماعياً جديداً . ثم انتهت بغتة .

في لندن أعلنت الهدنة حوالى الساعة الحادية عشرة من صباح يوم ١١ نوفمبر . فأنجحت توفيقاً عجبياً في كل عمل روتيني عادي من أعمال الحياة . فعُرج الكتب من مكاتبهم وأبوا أن يعودوا إليها ، وهجر عمال المحلات دكاكينهم ، وأخذ سائقو سيارات الأومنيبوس وسيارات اللورى التابعة للجيش يقومون برحلات من تلقاء أنفسهم مع من يركب معهم من جمهور ذاهل هاتف لا مقصد خاصاً له ولا يهتمه أنى ذهب به . وسرعان ما ازدحمت الشوارع بجماهير غفيرة مندهشة ، ورفعت الأعلام من أعلى كل بيت وكل دكان له علم . ولما حل المساء أنير بأسطع الأنوار عدد كبير من الشوارع الكبرى التي كانت تطفأ أنوارها خشية الغارات الليلية . وكان من العجيب جداً أن يرى الإنسان حشوداً متزاحمة من الناس تحت الأنوار الصناعية من جديد . وشعر كل إنسان بأنه فقد الغاية في الحياة ، مع ضرب من شعور الارتياح المتأزم المؤلم . لقد انتهت الحرب آخر الأمر . لن يقتل بعد ذلك أى إنسان في فرنسا ولن تحدث أية غارات جوية على لندن ، وسيصبح كل شيء على ما يرام .

١٤٦٣

وأراد الناس أن يضحكوا وأن يبكونا فلم يجدوا إلى الضحك ولا البكاء سبيلاً .
وأخذ الشباب الناهض والجنود الذين في أجازات الراحة يكونون مواكب هزيلة
صاحبة كانت تشق طريقها خلال الجماهير المتحركة ، وتبذل قصاراها للتعبير عن
المراح والسرور . وجرت الجماهير مدفوعة ألمانيا من الغنائم أخذته من البول مول^(١) ،
حيث نصب للعيان عدد عظيم منها (أى الغنائم) ثم جرّ إلى ميدان الطرف الأغر
حيث أحرقت مركبته . وكانت الصواريخ ومفرقات الأطفال تلقى في كل مكان .
ولكن مظاهر السرور المتجمع كانت قليلة . فإن كل إنسان تقريباً قد خسر كثيراً
أو تألم كثيراً حتى لم يعد يستطيع أن يفرح بأى قدر من حماسة .

(١) البول مول : شارع عظيم بلندن بالقرب من حديقة سان جيمس وقصر بكنجهام .
(المترجم)

الفصل التاسع والثلاثون

عشرون سنة من التردد

- | | |
|----------------------------|--------------------------------------|
| ١ - دور إجهاد خلقى . | ٧ - الشرفان الأقصى والأدنى . |
| ٢ - الرئيس ولسن في فرساي . | ٨ - الديون والنقود والتثبيت النقدي . |
| ٣ - دستور عصبة الأمم . | ٩ - الانهيار العظيم في ١٩٢٩ . |
| ٤ - معاهدات ١٩١٩ - ١٩٢٠ . | ١٠ - المأساة الأسبانية . |
| ٥ - البلشفية في روسيا . | ١١ - قيام النازية . |
| ٦ - دولة إيرلندا الحرة . | ١٢ - العالم ينزل نحو الحرب . |

١ - دور إجهاد خلقى

كان عالم الحضارات الأوربية الغربية في السنوات التي أعقبت نهاية الحرب العظمى أشبه شيء برجل أجريت له عملية جراحية خطيرة الحيوية تمت كأسوأ وأخشن ما تجرى العمليات ، حتى لقد أضحي في شك أفي استطاعته أن يواصل الحياة أو أن كيانه بلغ من التزلزل وبلغت إصابته من الخطورة الحد الذي يقرب بينه وبين منيته . كان عالماً ذاهلاً مأخوذاً مبهوثاً . هزمت فيه الروح الاستعمارية العسكرية ، ولكن بضمن باهظ فادح ، بعد أن أصبحت ذات يوم قاب قوسين أو أدنى من النصر . وعاد كل شيء إلى مجراه بعد أن زال التأزم الشديد الذي ولده النزاع ، وإن كانت العودة في شيء من التراخي والوهن وبطريقة عاصفة متقلقلة . كان هناك ظمأ عام إلى السلام ، وحنين عام إلى ما فقدته الناس أثناء الحرب من حرية ورخاء ، دون وجود أى قوة عزيمة تحصل للناس على هذه الأشياء وتحفظ بها في أمان :

ولقد حل الفساد بكثير من النواحي . وكما حدث في حالة الجمهورية الرومانية إبان محنة الحروب البونية ، فقد انساب الآن أيضاً مظاهر عارمة من العنف والقساوة . وأصبحت أخلاقيات الشؤون المالية والاقتصادية بانحلال كبير . فإن أرواحاً كريمة

ضحت بنفسها رخيصة في سبيل مطالب الحرب المستعجلة ، ولكن مكرة الرجال وسفلتهم على الأعمال والمال ظلوا يرقبون فرص الزمان العvisية القلابة حتى استطاعوا أن يقبضوا بيد من حديد على موارد بلادهم وعلى مقاليد السلطان السياسى فيها . إذ استحوذ على القوة والسلطان فى كل مكان رجال كانوا يعدون مغامرين مريبين مغموراً فى سمعتهم قبل ١٩١٤ على حين كدح من هم أفضل منهم بغير طائل . وكان من العسير إيقاف هذه الطبقة ، طبقة الأغنياء المحدثى الغنى والأقوياء الحديثى القوة عند حدهم فى هذا الدور من الانهك الذى أعقب الحرب .

وتمت أثناء الحرب فى كل البلدان التجارية تقريباً تجارب خارقة فى الإدارة الجماعية . إذ أدرك المسئولون أن الوسائل العادية لتجارة أو ان السلم من أمثال المحاكمة فى السوق والتسك انتظاراً لصفقة ملائمة ، أمور لا تستقيم مع حاجات الحرب السريعة . فوضعت تحت الرقابة العامة ، شئون النقل والوقود ومواد الغذاء وتوزيع المواد الخام التى لم يقف الأمر فيها عند حد الثياب والإسكان وما أشبهها وحدها ، بل كل شىء لازم لمهمات الحرب .

ولم يعد من حق الفلاحين أن يتركوا شبراً من أرضهم لا يستغلونه فى الزراعة أيما استغلال ، ووضعت الماشية فى حداثق الغزلان وحرثت أراضي الكأ ، سواء برضاء صاحبها أو بغير رضاه . وقيدت عمليات مبانى الترف وعمليات تحسين مراكز الشركات فى ميدان المضاربة . والواقع أنه تأسس ضرب من دولة الطوارئ الاشتراكية فى معظم دول أوربا المتحاربة . كانت عملية تنطوى على الارتجال والفجاجة والاسراف ولكنها كانت أجدى من معقدات اقتناص الربح الذى لانهاية له ، وأصلح مما كان يأتبه أصحاب المشاريع « والمسامى الخاصة » من احتكار ومن اخزان للمواد ومن إنتاج لا ترابط بين أجزائه .

كذلك عم الناس فى سنوات الحرب الأولى فى كل الدول المتحاربة شعور عميم بالأخوة وبال حاجة إلى تأدية الخدمة من أجل المصلحة المشتركة . وكان عامة الرجال يضحكون فى كل مكان بالنفس والصحة من أجل ما اعتقدوا أنه خير الدولة العام . ولطالما تلقوا مقابل هذا وعوداً بأن الظلم الاجتماعى سوف يتناقص بعد الحرب ،

وسوف يزداد الإخلاص العام للمصلحة المشتركة ويصبح أعم وأشمل . ففي إنجلترا مثلاً كان المستر لويد جورج مصرّاً بوجه خاص على جعل بريطانيا بعد الحرب « أرضاً تليق بالأبطال » . وأخذ يتنبأ بدوام هذه الاشتراكية الجديدة التي أوجدتها الحرب وبقائها إلى زمان السلم بخطب ألقاها مليئة بالحماسة والروعة .

وأنشئت في بريطانيا وزارة للتعمير ، كان مفهوماً أنها تخطط نظاماً اجتماعياً جديداً أحدث وأكرم ، وظروفاً للعمال أحسن ، واسكاناً خيراً من الموجود ، وتوسعة لنشر التعليم ومراجعة كاملة وعلمية للنظام الاقتصادي . وكانت كلمة « التعمير » تضيئ على حياة الناس لوناً جميلاً وتحى آمال الجماهير المحزونة . في كل مكان . كذلك بذلت وعود جميلة كهذه تبشر بعالم أفضل فأجيت آمال عامة جنود فرنسا وألمانيا وإيطاليا وقوت من عزائمهم . ولكن ستار هذه الخديعة انكشف في روسيا مبكراً فأفضى إلى انهيارها . ولذا كان يسرى في أدمغة الناس في أوروبا الغربية قرب نهاية الحرب تياران من الآمال المرتقبة كل منهما خطر على أخيه . فكان الأغنياء والمغامرون وبوجه خاص المستغلون لظروف الحرب يدبرون خططهم لمنع تطورات من أمثال أن يصبح النقل الجوى ملكاً للدولة ، ولاختطاف الصناعات وإدارات السفن والمواصلات البرية وتجارة مواد الغذاء الرئيسية والخدمة العامة على وجه العموم ، واستردادها من يد الدولة مرة ثانية إلى قبضة طلاب الأرباح الخصوصيين . ومن أجل بلوغ تلك الغاية أخذوا يُعنون مقدما باحتياز الصحف ويشغلون أنفسهم باللجان الحزبية وما إليها ؛ على حين كانت جماهير الناس من الناحية الأخرى ، تشخص أماماً في سذاجة انتظاراً لحالة للجماعة الإنسانية يكون الرائد في تخطيطها هو مصلحتهم فقط ويكون الأساس فكرات عامة سخية . وتاريخ ١٩١٩ يغلب عليه الاصطدام بين تيارى الآمال المرتقبة هذين . وسارعت حكومة « رجال الأعمال » التي في الحكم إلى بيع كل مشروع عام مربح إلى المضاربين الخصوصيين .

وعند منتصف ١٩١٩ كانت جموع العمال في أرجاء العالم كافة خائبة الرجاء خيبة ظاهرية ومنفعلة غاضبة كل الغضب . ذلك بأن « وزارة التعمير البريطانية »

وضريباتها في البلدان الأجنبية اتخذت خدعة للعيون ترمى إلى تهديئة الأعصاب .
وشعر الرجل العام بأنه قد خُدع . فلن يكون هناك تعمير ، بل استرداد
للنظام القديم ليس غير - ولكن على صورة أشد كآبة وبشاعة تملئها ظروف
الفقر المتفشى في هذا الزمن الجديد .

وقد ظلت مأساة الحرب أربع سنوات وهي تحجب المسألة الاجتماعية التي كانت
تتطور في الحضارات الغربية طوال القرن التاسع عشر . والآن وقد وضعت الحرب
أوزارها ، فإن هذه المسألة ظهرت جبهة الشكل عارية مجردة ، على صورة
لم يرها الناس من قبل .

ومما زاد تلك الاستثارات والصعاب شدة وزاد من أثر ماعم العالم من عدم
طمأنينة في هذا الزمان الجديد ، ظهور اضطراب عميق أصاب النقد والائتمان^(١) .
فإن النقود وهي نمو معقد من الأوضاع والتقاليد أكثر منها نظام للقيم ، حُرمت
داخل الدول المتحاربة من سند معيار للذهب^(٢) . إذ احتفظ الناس بالذهب للتجارة
الدولية دون غيرها ، وكانت كل حكومة أفرطت في إصدار ورق النقد لاستعماله
داخلياً . حتى إذا تحطمت حواجز الحرب بات التداول الدولي ضرباً من الاضطراب
التأرجح تأرجحات جنونية ، ومصدر غم وكرب لكل الناس فيما عدا عدد قليل
من المقامرین والمضاربين . فتصاعدت الأسعار وتصاعدت - وكان لذلك أسوأ الأثر
على كل كاسب أجر . فصاحب العمل يقاوم كل مطالبة له بزيادة الأجور ؛
على حين كانت شئون الطعام والمسكن والثياب تحتكر لغير مصلحته وتبهظ
كاهله . أضف إلى ذلك أمراً هو أخطر ما في الموقف وهو أنه أخذ يفقد كل
ثقة اختلجت في نفسه قط في أن يؤدي أي صبر من ناحيته أو إقبال على الصناعة
إلى التخفيف حقاً من ذلك الإعواذ وتلك المتاعب التي كان يقاسى من
جرائمها ما يقاسى .

(١) الائتمان (Credit) . هو في علم الاقتصاد الثقة بأن يدفع الشخص ثمن البضائع مؤجلاً .

(المترجم)

(٢) معيار الذهب (Gold Standard) . التثبيت القانوني لإحدى العملات على ما يبادلها من

الذهب . (المترجم)

وكانت الحاجة ماسة إلى المنازل في معظم الأنظار الأوروبية . إذ توقف الناس طيلة الحرب لاعن البناء وحده بل عن الإصلاحات كذلك . وبلغ النقص في المنازل في ١٩١٩ إلى رقم يتراوح بين ٢٥٠,٠٠٠ إلى مليون منزل في بريطانيا وحدها . وتكاد الأحوال في ألمانيا وفرنسا أن تكون أسوأ وأنكى . فإن جماهير غفيرة من الناس كانوا يعيشون في حالة من التزاحم الشديد تُسخط النفوس ، وكان أوقع أنواع الاستغلال الجشع للشقق والبيوت يحدث في كل مكان . كان الموقف عسيراً وإن لم يكن مستحيلاً . فلو اتاحت نفس الحماسة والهمة وتضحية الذات التي طوعت التغلب على الأزمة الهائلة في ١٩١٦ ، لأمكن القيام بالواجب الأكثر سهولة بكثير ، واجب إنشاء مليون من المنازل ، في مدى سنة أو أكثر قليلاً . ولكن الابتكارات كانت تضيق الخناق على مواد البناء ، وكان النقل في حالة غير منتظمة ، ولم يكن بناء المنازل يعود على أصحاب المشروعات الخاصة بالإيجار الذي يكون في متناول من يحتاجون إليها من الناس . ولذا فإن أصحاب المشروعات الخاصة^(١) ، وهم أبعد ما يكونون عن الاهتمام بالحاجة العامة إلى المباني ، قصروا همهم على الاحتكار والمضاربة بالإيجارات وبالتأجير من الباطن . وكان الحال عند ذلك يستدعي أن تقدم الحكومة المنح للنهوض بالمشروع لكي يكون بناء المنازل عملاً مربحاً .

وتم مثال آخر نسوقه هنا دليلاً على عدم كفاية نظام الاستغلال الجشع في حل مشكلات ذلك الأوان ، فقد حدث تكلس شديد للبضائع في المستودعات وتزعزع في أنظمتها ، بسبب نقص وسائل النقل على الطرق البرية عما يكنى . فكانت الحاجة ماسة إلى السيارات الرخيصة حتى تنقل البضائع والعمال من مكان إلى آخر . ولكن أصحاب المشروعات الخاصة في صناعة السيارات تصوروا أنه مما يزيد في أرباحهم كثيراً أن ينتجوا عربات فاخرة غالية الثمن من أجل أولئك الذين ملأت الحرب جيوبهم بالمال . وكان من أيسر الأمور أن تُحول مصانع

(١) أصحاب المشروعات أو المساعي الخاصة (Private enterprise) : هم الرأسماليون الذين يقومون باستثمار أموالهم في الصناعة وغيرها . (المترجم)

١٤٦٩

المهمات وهى مبنية بمال مدفوع نقداً إلى مصانع لإنتاج السيارات الرخيصة بالجملة ، ولكن الرأسماليين أصحاب المشروعات الخصوصية أصروا على أن تبيع الدولة تلك المصانع ؛ فلا هم لاقوا حاجة الجمهور بانفسهم ، ولا هم سمحوا للدولة بأن تفعل ذلك . كذلك أيضاً أصر أصحاب المشروعات الخاصة - والعالم فى أفقع الحن والمتاعب بسبب نقص السفن - على اغلاق مصانع السفن التى أنشأتها الدولة حديثا . وتزعزع النقد فى كل مكان ، ولكن أصحاب المسعى الخاص كانوا فى شغل بشراء وبيع الفرنكات أو الماركات وزيادة الحال حرجاً .

تلك حقائق لا بد لمؤرخ الإنسانية أن يلحظها بأقل قدر مستطاع من التعليق . فإن صاحب المسعى الخاص فى أوروبا ١٩١٩ و ١٩٢٠ لم يظهر رغبة ولا كفاية لمقابلة حاجات ذلك الزمان الماسة . ولم يكادوا يشعرون بانطلاق أيديهم من قبضة الرقابة حتى انسابوا انسياً طبيعياً إلى المضاربة والاحتكار وإنتاج الترف . وساروا فى طريقهم طريق الحصول على أقصى ما يستطيعون من الأرباح . ولم يظهر لهم أى إدراك لما يتكنفهم من أخطار ؛ كما كانوا يقاومون كل محاولة للحد من أرباحهم أو جعلها معتدلة ، أو للتحويل إلى طريق الخدمة والإفادة ولو كان ذلك فى مصلحتهم .

واستمر هذا فى وجه أبلغ مظاهر التكره المفرط من جانب جمهرة السكان الأوروبيين ، تلقاء ما يقياسونه من الحرمان والمتاعب المطولة الأمد . وكانت هذه الجماهير تعيش فى ١٩١٣ كما عاشت منذ مولدها ؛ وكانوا يألفون نوع الحياة التى يعيشون . فأما جماهير ١٩١٩ فهم من الناحية الأخرى ، قوم انتزعوا من ديارهم فى كل مكان لكى ينخرطوا فى الجيوش ولكى يذهبوا إلى مصانع المهمات ؛ وهكذا فقدوا عادات الرضا والتسليم بالواقع ، وغدوا أشد جرأة وأقدر فى التصرف تصرف اليائسين . وقد مرت جماهير عظيمة من الرجال فى أدوار تدريب بثت فيهم الوحشية الصارخة ، كالتدريب على السونكى مثلاً ؛ فتعلموا القذاعة والشراسة ، وقلّت مبالاتهم بارتكاب القتل والتعرض له على السواء . ومن ثم أصبح القلق الاجتماعى أشد خطراً بكثير .

ولم يكن الأمر أن الجماهير كان لها أو خالت أن لها خطة نظام جديد اجتماعى وسياسى واقتصادى . إذ الواقع أنه لم يكن لهم خطة ولم يكونوا يعتقدون بأن لهم خطة . ولم تكن النقائص التى أومأنا إليها فى خطة الاشتراكيين خافية عليهم . بل كان الأمر يتعلق بشيء أشد خطرا من ذلك بكثير . ذلك أنهم بلغ من سخطهم على النظام الحاضر وما فيه من ترف وسرف وتعاسة عامة ، أن أصبحوا لا يأبهون بما يحدث من بعده ماداموا يستطيعون تدميره . كان هذا عودة إلى حال عقلية تقارن بتلك التى مهدت السبيل لتفكك الإمبراطورية الرومانية .

أخذت قوى الثورة تتحرك فى كل مكان فى أوروبا ولاسيما فى إيطاليا وألمانيا . وأبدت الشيوعية فى إيطاليا روحا عدوانية غير عادية . فظهر «عمد»^(١) شيوعيون فى نواح مختلفة من إيطاليا ، وجرت فى بولونيا محاولة مشفوعة بالقوة لتنفيذ مبادئ الشيوعية عمليا . وفى يوليو ١٩٢٠ تولى جيوليتى وهو من دعاة الحياد الذين عارضوا الحرب ، رئاسة الحكومة مكان السنيور نيتى . فقام بتجارب متنوعة فى « التشارك » بين عمال الصناعات وأصحابها . وفى سبتمبر استولى العمال على كثير من مصانع الصلب وغيرها من المصانع وأخذوا يديرونها على أسس اشتراكية . ولقيت هذه التصرفات تعصيذا ومصادقة من الحكومة .

واستمر الانزلاق نحو الشيوعية طوال ١٩٢١ فى وجه مقاومة متجمعة ، وشبت الفتن والأعمال العنيفة فى فلورنسا وتريستا وبوجليا وبيزا وأماكن أخرى كثيرة . ذلك أن تدابير جوليتى الرامية إلى صبغ البلاد بالاشتراكية (: تشريكها) أفضت إلى رد فعل عنيف بين الطبقات التى تهمها الملكية الخاصة ، ونشأت منظمة للشباب هى جماعة الفاشست الذين جعلوا ستمهم الميزة الشعر الكثيث والقمصان السود والقومية المفرطة الشدة ومناهضة الاشتراكية (Antisocialism) . كانوا يقابلون العنف بالعنف ، ويبلغون به درجات من التطرف لا عهد للناس بها ، فأقاموا عهد إرهاب مضاد للإشتراكية . ووجدوا لهم زعيما ذا همة عالية

(١) عمد جمع عمدة وهو رئيس القرية أو المدينة كما هو معروف . (المترجم)

وروادع أخلاقية واهنة هو بنيتوموسوليني ، وكان فيما قبل ذلك صحفياً راديكالياً^(١) ، وسرعان ما تغلبت الفاشستية تحت إدارته الماهرة على اعتداءات الشيوعيين المتفرقة العاطفية . وكانوا يقطعون الطريق على الزعماء والكتاب المتحررين ثم يضربونهم بالهراوات . وكانت هناك طريقة حبيبة إلى الفاشستيين هي أن يعطوا جرعات كبيرة من زيت الخروع إلى من ينتقدون تصرفاتهم . وأصبح القتل والضرب والتعذيب وإحراق الأملاك الخاصة للمفكرين المتحررين هي وسائل الرقابة الاجتماعية في إيطاليا . فكان حكم المناسر قد حل محل شبح الشيوعية البعيد .

وبلغ الفاشيون في أكتوبر ١٩٢٢ حداً من القوة أتاح لهم أن أصبحوا في الواقع جيشاً حقيقياً وأن استطاعوا الزحف على روما . وأعلنت الوزارة الأحكام العسكرية واستعدت للقتال ، ولكن الملك أبي التصديق على هذه التدابير ودعا موسوليني لتولي مقاليد الأمور . فلبى الدعوة وأصبح رئيساً للحكومة ، ووافق على حل فرق القمصان السود — وهو وعد لم يبره أبداً . ووضع الفاشيون موضع الهيمنة على البوليس وعلى قوات البلاد المسلحة ، وقضوا على حرية الصحافة وأصبحت الانتخابات مهزلة من المهازل ، وظل الفاشيون يهاجمون أعداءهم السياسيين ، ويلقون في قلوبهم الرعب ويقتالونهم . بينما أصبح موسوليني بلقب الدوتشي^(٢) ديكتاتوراً حقيقياً ، على حين أخذت أهمية الملك تقل نسبياً .

ومضى زمان استرجعت فيه إيطاليا ضرباً معيناً من الكفاية الاقتصادية الخشنة التي لقيت استحساناً عظيماً في بعض الدوائر الأوربية . ولكن موضع اهتمام العالم بأسره بالموقف في إيطاليا ، كان منحصرأ في التجربة التي مرت بها إذ تجلى فيها على أحسن الأشكال وأشدّها فجاجة ماهية اليسار المتطرف واليمين المتطرف في الشئون الإنسانية المعاصرة . وفيها ظهرت قلة كفاية الأولين وانعدام السمة العملية لديهم ، كما تجلت السرعة التي ينحدر بها إلى العنف وقطع الطرق أصحاب الملكيات والمشروعات الخاصة ،

(١) الراديكالي . حزب متطرف يدعو إلى التغيير التام في السياسة والإصلاح الشامل (المترجم)

(٢) الدوتشي : معناها الزعيم . (المترجم)

عندما يصطرون إلى إلزام خطة الدفاع . وقد أصبحت إيطاليا كاليوسيا سجنًا لكل إنسان حر العقل ..

ولذلك لتجد ذلك المرض المتسلل وأعنى به مخالفة القوانين الذى سبق أن ذكرناه فى نقدنا لرواية ستوكي وشركاه لرديارد كهلنج ، — زاهياً زاهراً فى هذين القطرين . على أن إيطاليا لا تقف بمفردها فى هذا المضمار ، وإنما هى أشد الأمثال اكتمال تطور وسط نزعة عمت هذا الزمان كله . فإن الفاشية وجدت فى ألمانيا وفرنسا وبريطانيا العظمى مطاولين ومقلدين ، ولكن نشاطهم فى تلك البلاد وإن أصبح مضايقة أو إزعاجاً إلا أنه لم يصل إلى مرتبة الطغيان والاستبداد شأنه فى إيطاليا :

٢ - الرئيس ولسن فى قرساي

أشرنا من قبل إلى تفشى الفوضى الاجتماعية والاقتصادية فى جميع المجتمعات الأوروبية إبان السنوات التى أعقبت الحرب ، وذلك قبل أن ندلى إليك بأى بيان عن العمل الذى بذل فى التسوية العالمية التى كان مركزها مؤتمر الصلح فى باريس ، وكان مرد ذلك أن حالة إنشغال البال والقلق التى لحقت كل من يشتغلون بالمشاكل الخاصة من أمثال الدخل والأسعار والعمل وما إليها ، — كافية تماماً لتفسير جو الإنهاك الذى تقدم فيه ذلك المؤتمر نحو الواجب الضخم الملقى عليه . وليس يجوز للإنسان أن يتوقع حياة عامة قوية على حين يشمل الغم والارتباك حياة الأفراد .

وتدور معظم قصة المؤتمر حول مغامرة رجل بعينه ، وهو أحد أولئك الرجال الذين تنتخبهم المصادفة أو الصفة الشخصية وتتخذ منهم طرازاً تقصد به إلى تخفيف العبء عن المؤرخ . ولقد أصبنا فى كتابنا هذا شيئاً كثيراً من الراحة فى تركيز انتباهنا على شخص بعينه إما أن يكون بوذا ، أو الاسكندر الأكبر أو يوان تشوانج أو الإمبراطور فردريك الثانى ، أو شارل الخامس ، أو نابليون الأول مثلاً — وأن نتخذ منه نبراساً يعكس النور على الزمان الذى يعيش فيه . وأسهل زاوية ننظر منها خاتمة الحرب العظمى هى زاوية ارتقاء الرئيس الأمريكى ولسن مراقى الأهمية العليا فى سماء آمال العالم وانتباهه ، ثم فشله فى تبرير تلك الرفعة .

وكان الرئيس ولسن (١٨٥٦ - ١٩٢٤) فيما سلف من أيامه عالماً مبرزاً ومدرساً ضليعاً للقانون الدستوري والعلوم السياسية عامة. وقد شغل مناصب جامعية كثيرة ، وتولى رئاسة جامعة برنستون (Princeton) بنيوجرسي . وإن هناك لقائمة طويلة من الكتب تشهد له بالكفاية وتبدي فيه ذهنًا متجهًا اتجاهاً كلياً إلى التاريخ الأمريكي والسياسة الأمريكية . تقاعد عن العمل العلمي وانتخب حاكماً لولاية نيوجرسي في ١٩١٠ . وفي ١٩١٣ رشحه الحزب الديمقراطي لرياسة الجمهورية، وأصبح رئيساً للولايات المتحدة نتيجة لخلاف عنيف شجر بين الرئيس السابق روزفلت والرئيس تافت ، تصدع بسببه الحزب الجمهوري صاحب السلطان .

وكأنما أخذت أحداث أغسطس ١٩١٤ الرئيس ولسن ومواطنيه على غرة . فلما نراه يرسل برقية في ٣ أغسطس يعبر فيها عن استعداد للتوسط . ثم أخذ يراقب النزاع ردحاً من الزمان هو وأمريكا . وقد لاح بادئ الرأي أنه لا الشعب الأمريكي ولا رئيسه كانوا يفهمون فهماً واضحاً ولا فهماً عميقاً تلك الكارثة التي تجمعت قواها في زمن غير قصير . فقد أقاموا تقاليدهم قزناً من الزمان على عدم الاهتمام بأمور العالم القديم ، ولم يكن تغيير هذا الاتجاه بالأمر الهين . على أن الصلف الإستعماري الذي أبداه البلاط الألماني ، وما زعمه بعض الناس من ميل السلطات العسكرية إلى بث الذعر الميلودرامي ، وغزوهم لبلجيكا ، واستعمالهم للغاز السام ، ومضايقتهم العالم بحملة الغواصات ، قد أوجدت في الولايات المتحدة عداً للألمان لم يبرح يزداد حدة وعمقاً مع تقدم الزمن بالحرب . ولكن ما درجوا عليه من تقاليد عدم التدخل السياسي في شئون أوروبا ، وذلك الاقتناع العميق الأسس القائل بأن لأمريكا من الخلق السياسي ما يسمو على خلافات أوروبا كل السمو ، منعت الرئيس عن التدخل الفعلي . فاتخذت نغمة الترفع والتسامي . وصرح بأنه غير مستطيع أن يحكم على أسباب الحرب الكبرى وعدالتها . واتخذ لنفسه موقف مسالمة ودعوة إلى التهدئة يرجع إليه الفضل في إعادة انتخابه لرياسة الجمهورية .

ولكن حال العالم لا ينصلح بمجرد النظر إلى فعلة سوء نظرة عدم استحسان شاملة لا تكاد تميز بين هذا وذاك . وعند نهاية ١٩١٦ شجع الألمان على الاعتقاد

بأن الولايات المتحدة لن تدخل الحرب بأى حال ، وفى ١٩١٧ ابتدأوا حملة الغواصات التى لا تتقيد بشىء وإغراق السفن الأمريكية بلا إنذار . وجرت هذه الحماقة الأكيدة الرئيس ولسن والشعب الأمريكى إلى الحرب جرأ . كذلك 'دفعوا كرها إلى محاولة تحديد علاقتهم بسياسة العالم القديم على أسس أخرى غير مجرد التعالى والتباعد . وتغيرت أفكارهم وخلقهم بغاية السرعة . فدخلوا الحرب فى صفوف الحلفاء وإن لم ينضموا معهم فى أى حلف . خاضوا الحرب باسم مدنيّتهم العصرية ، لكنى يوقعوا النكال بالمعتدين وينتخوا من موقف سياسى وعسكرى لا يطاق .



(شكل ٢١٥) الرئيس ولسن

والأحكام المترتبة المتأنية كثيراً ما تكون خير الأحكام . فإنّ الرئيس ولسن حاول فى سلسلة من « المذكرات » أطول وأكثر تنوعاً من أن تتحملها المعالجة التفصيلية فى هذا الكتاب ، حاول وهو فى حالة تشبه من يفكر بصوت مرتفع على مسمع من العالم قاطبة ، أن يبين الفروق الجوهرية بين الدولة الأمريكية وبين دول العالم

١٤٧٥

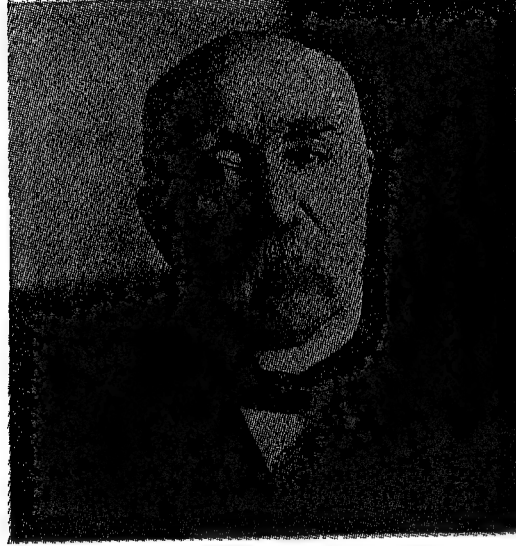
القديم الكبرى . وبسط للناس فكرة للعلاقات بين الدول هبطت على نصف الكرة الشرقي بأجمعه هبوط التنزيل ، هبوط أمل في نشوء عالم أفضل .

وكان المأمول بمقتضى هذه الفكرة أن تتوقف الاتفاقيات السرية ؛ وتقرر « الأمم » مصائرهما بأنفسها ؛ ويكف الناس عن العدوان العسكرى . وتصبح طرق البحار حرة مباحة للبشرية كافة . فهذه الأمور العادية المألوفة لدى الفكر الأمريكى ؛ هذه الرغبات الخفية المستقرة فى نفس كل سليم العقل ، هبطت على ما كان يخيم على أوروبا من ظلمة الغضب والنزاع هبوط نور عظيم . وأخيراً شعر الناس أن صفوف الديبلوماسية قد تصدعت ، وأن أقنعة « سياسة » الدول العظمى قد تمزقت لإرباب . فهنا عبر الرئيس بغاية الوضوح وبما له من سلطان وما وراءه من قوة شعب قوى جديد عن رغبة الرجل العادى فى العالم بأجمعه

وواضح أن الموقف كان يستلزم وجود هيئة حكومية ذات يد مطلقة لتقيم أركان القانون العالمى وتحافظ على سريان هذه القواعد العامة الإجمالية التحريرية على علاقات الناس بعضهم ببعض . وكم من خطة حلق بها خيال الناس للوصول إلى تلك الغاية . وكانت هناك بوجه خاص حركة ترمى إلى إنشاء نوع ما من العصبة العالمية ، هى « عصبة الأمم » . فاستعمل الرئيس الأمريكى هذه العبارة وحاول أن يحققها . فإنه صرح بأن الشرط الضرورى للسلام الذى كان ينشد هو إقامة صرح هذه الأداة الاتحادية (الفدرالية) . كان المفروض أن تكون عصبة الأمم هذه محكمة الاستئناف النهائية فى الشئون الدولية . وكانت على أن تصبح الجسم المادى المحقق للسلام . وهنا كذلك أثار الرئيس صدى هائلا .

وأصبح الرئيس ولسن أمد روح من الزمان الخطيب المتحدث باسم عصر جديد . واستمر محتفظاً بهذه المكانة الرفيعة فى عين العالم القديم طوال الحرب وبعد انتهائها بزم من قصير . فأما فى أمريكا حيث كانوا يعرفونه خيراً منا فكانت حوله نغمة من الشكوك . ونحن إذ نكتب الآن وبين أيدينا عظمة الأحداث التالية ، نستطيع أن نفهم هذه الشكوك . فإن أمريكاطورت طوال قرن ونصف قرون قصتها فى الاعتزال والأمنة مثلاً عالياً جديدة ومبادئ فى الفكر السياسى مستحدثة ، دون أن تدرك

إدراكاً بعيداً أن هذه المثل العليا والمبادئ قد تستلزم تضحياتاً حاراً صادقاً في حالات الشدائد والخطر . وكانت هناك أشياء عديدة تعد في نظر مجتمعاتها من السخافات بينما هي عند مجتمعات العالم القديم ، الذي كان لا يزال متورطاً في المعتقدات السياسية



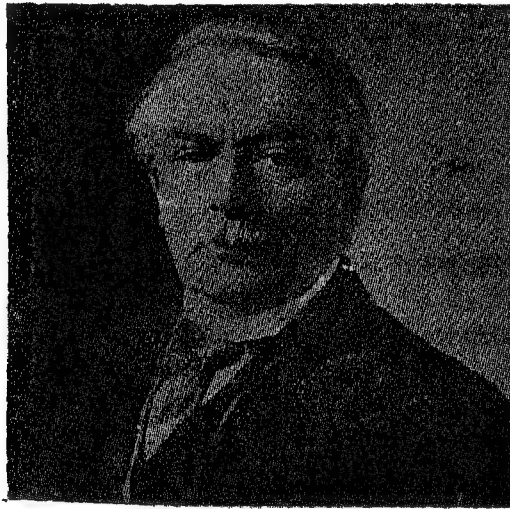
(شكل ٢١٦) كليمنصو

العهد ، بمثابة إنجيل يخرج الناس من الظلمات إلى النور . فكان الرئيس ولسن مستجيباً لفكر وأحوال قومه ووطنه هو ، ذلك الفكر المنبعث من تقاليد تحررية وجدت لأول مرة أوفى تعبير لها في اللغة الإنجليزية . فأما في رأى أوروبا وآسيا فإنه بان كأنما يقول ويفكر لأول مرة في التاريخ في أشياء لم تتطور بعد وأسرار خفي وجودها على الناس كل الخفاء . ولعله كان يشرك الناس في هذا الرأى الخاطئ .

وإننا لنعالج هنا أستاذاً للعلوم السياسية ناجحاً مقتدراً ، لم يدرك تمام الإدراك ما يدين به لمعاصريه ، ولا عرف الجو الأدبي والسياسي الذي ظل يتنفسه طوال حياته ، كما أنه سرعان ما انتقل بعد إعادة انتخابه للرياسة من الحالات العقلية لزعيم سياسي إلى وضعة المسيح المخلص . وما « مذكراته » إلا عمليات ارتياد واستكشاف لعناصر الموقف العالمي . وعندما أبرز آخر الأمر في خطابه الذي ألقاه في الكونغرس

١٤٧٧

في يناير ١٩١٨ نقاطه الأربع عشرة بوصفها بياناً محدداً لمقاصد أمريكا في السلم ، كانت بوصفها بياناً أحسن كثيراً في روحها منها في ترتيبها ومادتها . وكانت هذه الوثيقة تطالب بالاتفاقات الصريحة بين الأمم والكف عن السياسة السرية ، وحرية الملاحة في أعالي البحار وحرية التجارة ونزع السلاح وعدد من التسويات السياسية تقوم على الاستقلال القومي للشعوب . وهي تطالب في النقطة الرابعة عشرة بإنشاء « جمعية عامة للأمم » بغية ضمان سلام العالم . كان ينشد « السلم بلا نصر » .



(شكل ٢١٧) لويد جورج

وقد استقبلت هذه المواد الأربع عشرة استقبالا رائعا في كل أرجاء العالم . فهنا لاح أخيراً شبح سلم يتقبله المعقولون من الناس في كل مكان ، سلم طيب مقبول لدى خيار الألمان والروسين وأكارمهم ، كما هو طيب مقبول لدى خيار الإنجليز والفرنسيين والبلجيكيين وأكرمهم . وظل العالم بأكمله بضعة شهور ينيره نور الإيمان بولسن . فلو أمكن جعل هذه المواد أساساً لتسوية عالمية في ١٩١٩ ، لفتحت منذ ذلك الحين حقبة جديدة للشئون الإنسانية عامرة بالآمال .

ولرام علينا أن نخبرك أن أحدا لم يقيم بهذا الأمر . إذ كان يحبط بالرئيس ولسن

سحابة بعينها من الأنانية الضيقة ؛ وكان جيل شعب الولايات المتحدة الذى وافته هذه النهضة العظيمة - وهو جيل ولد فى بحبوبة الأمانة ، وتربى فى ظلال الوفرة ، فهو لذلك جيل بمنآة عن المنازعات المؤلمة التى أحزنت قلب أوربا ؛ - كان ينطوى على قدر بعينه من الطيش والنظرة السطحية للأمور . ولم يكن واقع الأمر أن الشعب الأمريكى كان سطحياً بحكم الطبيعة والضرورة ، بل إن حاستهم لم تحركها بالقدر العميق الكافى فكرة قيام مجتمع عالمى أكبر من مجتمعهم . كان لديهم فكرة ذهنية ولكنها لم تكن عقيدة روحية . فكنت تجد فى ناحية هذا الشعب الجديد نزيل العالم الجديد بمألم من أفكار جديدة ، أفكار أعشى وأروع عن السلم والصلاح العالمى ، وتجد فى الناحية الأخرى فى العالم القديم ، شعوباً لدودة العداء متورطة أشد التورط فى نظام الدول الكبرى ؛ وكان الأولون أفجاجاً أغماراً يدانون الأطفال فى قلة خبرتهم المروعة ، وكان الآخرون مجربين مريرى المذاق معقدى التكوين .

وقد عالج الروائى الكبير هنرى جيمس منذ سنوات عديدة موضوع الاصطدام بين الشباب الغمر المثلثى المنتمى لعصر جديد وبين نضج القديم المحنك فى قصة جد نموذجية تسمى « ديزى ميلر Daisy Miller » . وهى قصة محزنة لفتاة أمريكية صريحة شديدة الثقة فى الناس رفيعة العقل ، ولكنها تكاد تبلغ حد البساطة ، وفيها ميل حقيقى إلى الصلاح ورغبة عظيمة فى « الاستمتاع » ، وكيف أنها وصلت إلى أوربا ووقعت فى الحبائل من فورها وتورطت فى الأخطاء ، ثم دفعت أخيراً إلى الترحيب بالموت بسبب ما فى العالم القديم من التواءات مركبة من قيود جامدة . وإن فى الحياة نفسها لآلآفاً متنوعة من أوضاع هذا الموضوع ، وآلآفاً من أمثال هذه المآسى التى تنحدر عبر الأطلسى ، وما قصة الرئيس ولسن إلا واحدة من هذه المآسى . ولكن ينبغى للقارئ ألا يتصور ، لما يرى من تغلب الداء القديم على الأداة الجديدة ، أن ذلك هو الحكم النهائى عليها بالقضاء الأخير .

ولعل أحداً من البشر المذنبين بفطرتهم لم يُصب وهو يبذل قصارى جهده وسط ظروف جارفة لا يقوى على إحتمالها - بمثل هذا الفحص الدقيق والنقد القاسى الذى تُعرض له الرئيس ولسن . وهو يلام لأنه أدار دفة الحرب وما تلاها من مفاوضات

الصلح على أسس حزبية محضة . وهم تهمونه بأنه ظل الرئيس الممثل للحزب الديمقراطي ، على حين كانت تأتمر به الظروف لتجعل منه ممثلاً لمصالح البشرية عامة . ولم يقم بأية محاولة ليضم إلى جانبه بعض الزعماء الأمريكيين الكبار من أمثال الرئيس السابق روزفلت والرئيس السابق تافت ، ومن إليهما . وهو لم يستغل تماماً الموارد المعنوية والفكرية للولايات المتحدة ؛ بل جعل الموضوع كله أمراً شخصياً . بحثاً ، وأحاط نفسه بمن هم مجرد أنصار شخصيين له . وكان استقرار رأيه على حضور مؤتمر الصلح بنفسه غلطة خطيرة ، ويكاد رأى الناقدین الحريين يجمع على أنه كان يجدر به أن يبقى في أمريكا ، يمثل دور أمريكا وأن يتكلم بين الفينة والفينة كأنما كان الشعب يتكلم . فإنه استطاع طيلة السنوات الأخيرة من الحرب أن يحصل بهذه الطريقة على مكانة لا ضريب لها في العالم .

ويقول الدكتور ديلون^(١) : « كانت أوروبا عندما لمست قدما الرئيس أرض ساحلها أشبه الأشياء بصلصال ينتظر لمسة الخزاف المبتدع . ولم يحدث قط من قبل أن كانت الأمم على مثل هذا الشوق إلى اتباع نبي كموسى يأخذ بيدهم إلى الأرض الطيبة الموعودة حيث تمنع الحروب ويجهل الحصر البحري . وكانوا يرون فيه ذلك الزعيم العظيم . وكان الناس في فرنسا ينحنون أمامه محبة ورهبة . وأخبرني زعماء العمال في باريس أنهم سكبوا دموع الفرح بين يديه ، وأن إخوانهم كانوا على استعداد أن يهتفوا بالنار ويخوضوا اللجج لكي يساعده على تحقيق خططه النبيلة . وكان اسمه عين الطبقة العاملة في إيطاليا بوقاسماوياً تنجدد الأرض حين يدوى صوته فيها . وكان الألمان يعدونه ومبادئه الإنسانية بمثابة الأمل الذي إليه يلوذون . وقال الهرموهلون الشجاع غير الهيابة : « لو أن الرئيس ولسن خطب في الألمان وحكم عليهم حكماً قاسياً لقبلوه مذعنين دون أن يتفوهوا بكلمة ولأنشأوا يعملون من فورهم » . وكانت شهرته في النمسا الألمانية شهرة مخلص منقذ ، وكان مجرد ذكر اسمه بلسماً لآلام المنكوبين وترياقاً لأحزان المحزونين » .

تلك هي الآمال الجارفة التي كانت تعتلج في صدور النظارة الذين استعد الرئيس ولسن للظهور أمامهم . وصل إلى فرنسا على ظهر الباخرة جورج واشنطن في ديسمبر ١٩١٨ . وأحضر معه زوجته . ولا شك أن هذا كان يبدو أمراً لا غبار عليه من وجهة النظر الأمريكية . وأحضر عدد جم من ممثلي أمريكا زوجاتهم . ومن سوء الطالع أنه دخلت إلى حظيرة التسوية العالمية بمقدم هؤلاء السيدات سمة اجتماعية لا بل سمة سياحية . فقد كانت وسائل المواصلات ضيقة الحدود في ذلك الزمان ، على أن معظمهن وصلن إلى أوروبا يحيط بهن جوازهن من الامتيازات . وجئن كمن يريد أن يحضر مأدبة - فكن - كما نوه بعض الناس - يتفرجن على أوروبا مستمتعاً بظروف شائعة غير عادية . وإنهن ليرغبن في زيارة آثار تشستر أو قلعة وارويك أو وندسور إذ قد لا تتاح لهن في المستقبل فرصة أخرى يرين بها هاتهن المواضع الشهيرة . ثم لقد تقطع بعض المقابلات الهامة لكي تزار دار ذات أهمية تاريخية .

وربما لاح هذا من الأمور التافهة التي لا يليق أن ندونها في تاريخ للبشرية . على أن مثل هذه الهنات الإنسانية الهينة هي التي أُلقت على مؤتمر الصلح في ١٩١٩ ظلاً من اليأس في ثمرته . إذ اكتشف الناس بعد برهة وجيزة أن ولسن أمل البشرية ومعتقد الرجاء منها قد تلاشى ، ولم يبق منه إلا صور تنشرها صحف الطبقة الراقية لسائح يسير متبهجاً مع زوجته ، يحيط بهما جو باس من الرؤوس المتوجة وما إليها من الصخب الذي يُحسد الناس عليه ومن أيسر الأمور أن يدعى الإنسان الحكمة بعد وقوع الأحداث وأن يشعر بخطئه بعد حدوثه وأن يعرف أنه كان ينبغي له ألا يحضر .

وكان الرجال الذين تحم عليه أن يتصل بهم اتصالاً خاصاً أمثال المسيو كلمنصو (فرنسا) ولويد جورج وبالفور (بريطانيا) ، والبارون سونينو والسنيور أورلندو (إيطاليا) رجالاً ينحدرون عن تقاليد تاريخية تخالف تقاليدهم مخالفة بعيدة . على أنهم كانوا يشابهونه من وجه واحد يروقون فيه لميوله وعواطفه . فإنهم كذلك كانوا سياسيين حزبيين قادوا أمهم في الحرب . وقد فاتهم مثله أن يفهموا ضرورة أن يناط عمل التسوية العالمية برجال أكفاء أكثر منهم أهلية وتخصصاً .

ولم يكونوا ليزيدوا عن مجرد صغار مبتدئين في الشؤون الدولية . وكانت علوم

الجغرافيا والاثنولوجيا (علم السلالات البشرية) وعلم النفس والتاريخ السياسى صناديق مقللة دونهم . وقدماً قبل إن مدير جامعة لوفان حدث أوليفرجولد سميت بأنه لما كان قد أصبح رئيساً لتلك المؤسسة دون أن يعرف اليونانية ، فإنه لا يدري لماذا يجب أن تُعلم فيها تلك اللغة ، وعلى نفس الشاكلة فإن رؤساء الدول - وقد حصلوا على أعلى المناصب فى بلادهم دون أن يكون لديهم من العلم بالشئون الدولية ما يزيد على قلامة ظفر - لم يستطيعوا أن يدركوا أهمية التمكن منها ولا استحالة سد هذا النقص فيهم بالدراسة بينما هم ماضون فى طريقهم .

ولقد كان فى المستطاع تدارك ما كان ينقصهم تداركاً محسوساً. بضم مساعدين لهم من الرجال الذين أسعدتهم الحال بمواهب خير من مواهبهم . ولكنهم عمدوا قصداً إلى اختيار رجال متوسطين غير أفذاذ . ومن الدلائل على الأرواح الأصلية أن تجد المعاوين الخالصين . على أن المندوبين المفوضين فوق العادة فى ذلك المؤتمر لم يختصهم القدر بهذه الخصيصة . ولاتنس عاملاً فى المؤخرة بعيداً عن الأنظار ، ذلك أنه كان لبعضهم عائلات أو محرضون يتصلون بهم أحياناً وقد اعتادوا أن يصغوا لنصائح هؤلاء وأولئك ، على أن كثيراً من الملحقين والمساعدين الذين سُلطت عليهم الأضواء على المسرح العالمى كانوا أشباحاً لاروح فيها ولاشجاعة .

« ولما كان رؤساء الحكومات الكبرى يدعون لأنفسهم ضمناً أنهم هم المتكلمون المفوضون عن الجنس البشرى ، وأن بين أيديهم سلطات لاحتها ، فإن من الجدير بالملاحظة أن هذه الدعوة لقيت تحدياً جريئاً من الصحافة المعبرة عن الشعوب . فإن جميع الصحف تقريباً التى تقروها جماهير الشعب اعترضت منذ البداية على ديمقراطية تلك التلة من رؤساء الوزارات باستثناء الرئيس ولسن . »

ولن يسمح لنا ضيق المقام فى هذه المعالم أن نحدثك ها هنا كيف تقبض مؤتمر الصلح من مجلس عشرة إلى مجلس أربعة هم (ولسن وكلمنصو ولويد جورج وأورلندو) ، وكيف أخذ يفقد بالتدرج سمته بوصفه مناقشة صريحة علنية لمستقبل البشرية ، وأصبح شيئاً فشيئاً أشبه ما يكون بمؤامرة دبلوماسية

قديمة الطراز . كانت الآمال التي انعقدت على باريس وتجمعت فيها عظمة عجيبة . ويقول الدكتور ديلون « إن باريس إبان ذلك المؤتمر كفت عن أن تكون عاصمة فرنسا ، إذ أصبحت (مسافرخانة) أودار ضيافة دولية هائلة تعج بمظاهر غير مألوفة من الحياة والاضطراب ، مليئة بأشكال غريبة من الشعوب والقبائل والألسن جاءوا من القارات الأربع ليرقبوا وينتظروا ما يخبئه لهم الغد الخفى .

« وقد أضيف إلى الصورة لمسة من لمسات ألف ليلة وليلة بظهور زوار عليهم طابع الغرابة وفدوا من بلاد التتار وكردستان وكوريا واذريجان وأرمينيا وإيران وبلاد الحجاز - ما بين رجال لهم لحي البطارقة وأنوف كالسيف الأحذب ، وآخرين جاءوا من الصحراء والواحة ، ومن سمرقند وبخارى . وما بين عمائم وطرايش وقبعات مخروطية كأقاع السكر وأغطية رومس شبيهة بقلانس الأساقفة وبدل عسكرية قديمة فُصلت بلجوش قامت كالجنيين في دول جديدة نشأت ليلة السلام الأبدى ، وبرانس بيضاء شاهقة البياض وجلابيب فضفاضة وثياب رشيقة تشبه التوجا الرومانية ، اجتمع كل أولئك هناك وأسهموا في إيجاد جو من اللاحقيقة والوهم الخالم في المدينة التي كان بعض الناس يواجهون فيها ويصطرون مع أشد الحقائق تجهما .

« ثم جاء أهل الثراء من الرجال ، وأهل الذكاء وأصحاب المشروعات وحلة بذور التنظيم الأخلاقي الجديد ، وأعضاء لجان اقتصادية في الولايات المتحدة وبريطانيا وإيطاليا وبولندا والروسيا والهند واليابان وممثلو صناعات النفط ومناجم الفحم البعيدة الشاسعة والحجاج والمجدوبون المتعصبون ، ومهرجون (شرلتانون) من جميع الأجواء ، وقساوسة من جميع الأديان ومبشرون بكل عقيدة ، مختلطين بالأمراء والقيادمارشالات ورجال السياسة ، والفوضويين ودعاة الإنشاء والهدم . وكان كل يتحرق شوقاً إلى أن يقترب من تلك البوتقة التي ستصهر فيها نظم العالم السياسية والاجتماعية ثم تخلق خلقاً جديداً .

١٤٨٣

« وكنت في كل يوم أثناء مروري في الطرقات وفي شقني وفي المطاعم التي مبعوثين عن بلاد وشعوب لم يكذب يسمع الناس في الغرب حتى بمجرد اسمها إلا نادراً . وزارني وفد من يونان منطقة البونت إيوكسين^(١) ، وتحدثوا معي عن مدنيهم القديمة طرابزون وصامسون وطرابلس وكيراصوند ، التي أقمت بها منذ سنوات عدة ، وأخبروني أنهم هم كذلك يرغبون في أن يكونوا من أنفسهم جميعاً جمهورية إغريقية مستقلة ، وأنهم جاءوا للحصول على طلباتهم . وكان يمثل الألبانيين صديق القديم طرخان باشا من ناحية وصديقي أسعد باشا من ناحية أخرى - وكان الأول يرغب في حماية إيطاليا ويطالب الثاني بالاستقلال التام . وكان الصيني والياباني والكوري والهندي والقرغيزي واللسغيني^(٢) والجرماني والمنجولي والبورياتي والملاي والزنجي وشبه الزنجي (النجرويدي) من أفريقيا وأمريكا من بين رجال القبائل والألسن التي اجتمعت في باريس لتلاحظ عن كتب إعادة بناء نظام العالم السياسي ولتعرفوا مكانهم فيه » .

وإلى باريس هذه المزدحمة الرائعة التي بلغ بها الاندھال كل مبلغ والفاغرة فاما إرتقبا للعالم الجديد جاء الرئيس ولسن ووجد قواها المتجمعة ، تحت سلطان شخصية أضيق منه أفقا من كل وجه وأصغر حدوداً وأقوى منه منة حتى لا مجال للمقايسة بينهما : وأعني به رئيس الوزارة الفرنسية المسيو كلمنصو . وانتخب المسيو كلمنصو رئيساً للمؤتمر تلبية لرغبة الرئيس ولسن . قال الرئيس ولسن : « كان ذلك اعترافاً خاصاً وتقديراً لما لقيت فرنسا من آلام وبذلت من تضحيات » . ولسوء الحظ أن ذلك القول كان النعمة الأساسية في المؤتمر ، الذي كان ينبغي ألا يشغل نفسه إلا بمستقبل البشرية .

وكان جورج بنيامين كلمنصو (١٨٤١ - ١٩٢٩) صحافياً وسياسياً على السن ،

(١) البونت إيوكسين (Pont Euxine) : منطقة الساحل الجنوبي للبحر الأسود وهي التي كان يطلق عليها قديماً اسم إقليم بنطش . (المترجم)

(٢) اللسغينيون (Lesghiens) : شعب يسكن بلاد القوقاز . البوريات : إحدى الجمهوريات السوفييتية وتقع بسiberia الشرقية . (المترجم)

وكان من أعظم المولعين بالتشهير بمثالب الناس وأخطائهم ، ومن لهم النصيب الأوفر في قلب الحكومات ، وكان طبيباً ظل وهو يشغل منصب الاستشارة في البلدية محتفظاً بعبادة مجانية ، كما كان مبارزاً عنيفاً ذا دربة وتجربة . ولم تنته واحدة من مبارزاته بالموت ولكنه كان يلقاها ثابت الجأش جم الإقدام . وقد انتقل من مهنة الطب إلى الصحافة على المذهب الجمهوري في أيام الامبراطورية وكان في تلك الأيام « يساريا » متطرفاً . واشتغل بالتدريس في أمريكا ردهاً من الزمان ، وتزوج من زوجة أمريكية ثم انفصل عنها . وكان قد بلغ الثلاثين في عام ١٨٧١ الحافل بالأحداث الجسام . ثم إنه عاد إلى فرنسا بعد معركة سيدان ، وألقى نفسه في المععان العاصف المضطرب لذلك الشعب المقهور مُظهراً حمية عظيمة وقوة بالغة . ومنذ ذلك الحين أصبحت فرنسا عالمه الخاص ، فرنسا صاحبة الصحافة القوية والخلافات الشخصية الجريئة الحادة والتحديات والمجاهات والخلافات العنيفة والتأثيرات الدرامية والنكات البارة التي تكال مهما تكن النتائج . كان ممن صيغ من « مادة حادة ملتهبة » فلقبه الناس « بالنمر » ، ويلوح أنه كان يخالجه بعض الزهو بهذا اللقب . كان وطنياً محترفاً أكثر منه سياسياً مفكراً ؛ ذلكم هو الرجل الذي نهضت به الحرب إلى أعلى عليين ، وأتاحت له أن يمثل عقلية فرنسا الممتازة وروحها الكريمة أسوأ تمثيل .

وكان لضيق أفقه أثر عميق في المؤتمر ، الذي زاد في تلونه باللون الدرامي اللجوء إلى جعل مكان التوقيع هو نفس قاعة المرايا بفرساي التي انتصرت فيها ألمانيا وأعلنت وحدتها في كبرياء الظافر . هناك قضى على الألمان أن يوقعوا .

ولم تعد الحرب تبدو في هذا الجو في عين المسيو كلمنصو وعين فرنسا حرباً عالمية ؛ بل كانت مجرد فصل ثانٍ للنزاع القديم الذي قام في « السنة الفظيعة » (كما يسميها الفرنسيون) وكانت السقوط والنكال اللذين حلا بألمانيا الآثمة . قال الرئيس ولسن « كان من الضروري أن توطأ السبيل لأمن الديمقراطية في العالم » . وكان هذا من وجهة نظر المسيو كلمنصو التي عبر عنها صراحة « ضرباً من الكلام على طريقة يسوع المسيح » يلوح أمراً مضحكاً جداً في نظر العدد العديد من أولئك الدبلوماسيين والسياسيين الأذكياء — وخاشى أن أقول المتزين —

الذين جعلوا سنة ١٩١٩ سنة ممتازة في تاريخ انعدام الكفاية الإنسانية . (ولعلنا نذكر هنا كذلك ومضة أخرى وهاجة لذكاء « النمر » ونكاته اللاذعة . هو قوله إن الرئيس ولسن ونقاطه الأربعة عشر كان « أسوأ » من الله القادر على كل شيء إذ لم تكن لله الطيب Le bon Dieu إلا عشر وصايا فقط . . .)

قال كاينز (Keynes) ، كان المسيو كلمنصور يجلس هو والسيور أورلندو في المقاعد التي تتوسط نصف دائرة تتكون من أربعة أمام الموفدة . كان يرتدى بدلة فراك سوداء وقفازين رماديين من جلد الأروى لم يكن يخلعهما قط أثناء جلسات المؤتمر . وينبغي لنا أن نلاحظ أنه كان — بين هؤلاء البناة الأربعة للعالم — الوحيد الذي يستطيع أن يفهم ويتكلم الإنجليزية والفرنسية كليهما .

وكانت أهداف المسيو كلمنصور بسيطة كما كانت من بعض أوجهها سهلة المتناول . فإنه كان يطالب بنقض كل ما أبرم في تسوية ١٨٧١ . وكان يطلب معافاة ألمانيا كأنما كانت شعباً أثماً إثمياً فريداً في نوعه ، وكأنما كانت فرنسا شهيداً مطهراً . وكان يريد أن يفسد من حال ألمانيا ويبث فيه من الدمار ما يقعدها بعد ذلك عن أن تقف قبالة فرنسا أبداً . وكان يريد أن يؤلم ألمانيا ويحقرها أكثر مما أولت فرنسا وحقرت في ١٨٧١ . ولم يكن يعنيه إذا كانت أوروبا تنحطم إذا انحطمت ألمانيا . فإن ذهنه لم يتجاوز نهر الراين التجاوز الذي يجعله يدرك هذا المحتمل . ولقد قبل عصبة الأمم التي ارتأها الرئيس ولسن بوصفها مقترحا عظيماً إذا كانت تضمن لفرنسا الأمانة مهما فعلت ، على أنه كان يفضل محالفة ترتبط بها الولايات المتحدة وإنجلترا وفرنسا للمحافظة على فرنسا وتعظيمها وتمجيدها في أي ظرف كان . كان يريد فرصاً أوسع وأشمل لاستغلال سوريا وشمال أفريقية وما إليها على يد بعض الجماعات المالية الباريسية .

كان يريد تعويضات يضمدها جراح فرنسا ، وقروضاً وهبات وجزبات لفرنسا ومجداً وتوقيراً لفرنسا . ذلك أن فرنسا قد قاست ولابد لفرنسا من أن تنال جزاءها الأوفى . وكانت البلجيكت والروسيا وسربيا وبولندة وأرمينيا وبريطانيا وألمانيا والنمسا قد تعذبت كلها . كذلك تعذبت البشرية جمعاء ،

ولكن ماذا يهم ؟ إن ذلك لم يكن شأنًا يعنيه . وإن هذه إلا كائنات تافهة (أو كماله عدد -) في دراما تلعب فيها فرنسا في نظره دور النجمة البطلة . . . وبمثل هذه الروح حاول السنيور أورلندوف فيما يلوح أن يتقصى صالح إيطاليا .

وأدخل المستر لويد جورج معه إلى « مجلس الأربعة » ، لباقة وحبث الرجل الويلزي ، وتعقيد الرجل الأوربي ، وضرورة ملحة تقضى عليه بأن يحترم الأناية القومية التي طبع عليها الأمبريالون والرأسماليون البريطانيون الذين أعادوه إلى رئاسة الوزارة . وإلى خفيا هذا المؤتمر السرى ذهب الرئيس ولسن يحمل بين جنبيه أنبل المقاصد من أجل ما وضعه للعالم من سياسة أمريكية اكتشفها حديثاً ، وأغنى بها نقاطه الأربع عشرة التي يكاد يطبعها طابع التشريع ، ومشروعاً عاماً أكثر منه خطة تفصيلية لإقامة « عصبة للأمم » .

« وقلم وجد رجل دولة من الطراز الأول أكثر عجزاً وقلة كفاية من الرئيس وسط النشاط الجلم المتجلى في قاعة المجلس »^(١) . ومن ذلك الهمس في الظلام ومن المنازعات التي دارت حول الموقدة في ذلك المجلس ، وبعد غدوات وروحات لا مجال لوصفها في هذا المقام ، خرج الرئيس آخر الأمور معه نقاطه الأربعة عشرة ممزقة مشعثة بحال يبعث على الأسى ، وهو يحمل بين يديه طفلاً عتيلاً هو عصبة الأمم ، التي ربما تموت والتي قد تعيش وتنمو - فما يستطيع إنسان أن يتنبأ لها بشيء . ولكنه استطاع على أقل تقدير أن ينقذ هذه . . . ! !

٣ - دستور عصبة الأمم

إن هذه القزمة الإنسانية الشوهاء الموضوعة في قارورة حاضنة والتي ناط بها الناس الأمل في أن تصبح آخر الأمر « إنساناً كاملاً » يحكم الأرض ، هذه عصبة الأمم كما تجسدت في ميثاق ٢٨ أبريل ١٩١٩ ، لم تكن البتة عصبة شعوب .

(١) نقلاً عن كايترز (١٨٨٣ - ١٩٤٦) : وهو اقتصادى إنجليزى . كان يمثل وزارة المالية البريطانية في مفاوضات الصلح ، واستقال احتجاجاً على الشروط المالية لمعاهدة فرساي .
(المترجم)

بل كانت كما تبين العالم « عصابة دول وممتلكات مستقلة ومستعمرات ». وكان مشروطاً في هذه كلها أن تكون ممن « تحكم نفسها بنفسها تماماً ». ولكن لم يوضع لهذه العبارة أى تعريف مطلقاً . ولم يكن هناك أى قيد يستبعد البلاد ذوات الانتخابات المقيدة ولا أى تدبير من شأنه أن يضمن قيام أى رقابة مباشرة لشعب أى دولة من الدول . وقد شخصت فيها الهند على افتراض أنها دولة « تحكم نفسها بنفسها تماماً » ! ولا ريب أن دولة استبدادية أو توتوقراطية ما كانت إلا لتقبل في عضويتها بوصف كونها ديمقراطية « تستمتع بكامل حكم نفسها بنفسها » ولها انتخابات وحقوق مدنية قاصرة على فرد واحد !! .. وكانت العصبة التى تألفت بمقتضى ميثاق ١٩١٩ فى الواقع عصابة « ممثلين » لوزارات الخارجية ، وهى لم تستطع حتى أن تحل محل السفارات فى عاصمة كل دولة .

ظهرت فيها الإمبراطورية البريطانية مرة بوصفها كلا موحداً ، ثم ظهرت الهند (! !) والدومنيون الأربع (أى الممتلكات المستقلة كندا وأستراليا وجنوب أفريقيا ونيوزيلندا) بوصفها دولاً منفصلة ذات سيادة . ثم حصلت لإرلندا فيما بعد على مكان منفصل . ومن المحقق أن ممثل الهند لم يكن إلا شخصاً يعينه البريطانيون . فأما ممثلو الدومنيون فينبغى أن يكونوا من رجال السياسة فيها . ولكن إذا كانت الإمبراطورية البريطانية تشرح على هذا النحو ، وجب أن يتبدل بممثل الإمبراطورية من يمثل بريطانيا العظمى ، وكان لابد من أن تعطى مصر أيضاً حق العضوية . زد على ذلك أن كلا من ولايتى نيويورك وفرنسيا كانت من الناحية التاريخية والقانونية دولة ذات سيادة مثل نيوزيلندا وكندا سواء بسواء . وترتب على إدخال الهند مطالبات منطقية بدخول أفريقيا الفرنسية وآسيا الفرنسية . بل إن أحد المندوبين الفرنسيين قد اقترح بالفعل منح صوت لإمارة موناكو الصغيرة .

وكان مقرراً أن تلتئم للعصبة جمعية تمثل فيها كل دولة عضو وتكون أصواتها سواسية ، ولكن الإدارة القائمة بالعمل فى العصبة كانت على أن تتحول إلى مجلس يضم مندوبى الولايات المتحدة وبريطانيا وفرنسا وإيطاليا واليابان ومعهم

أربعة أعضاء آخرين تنتخبهم الجمعية . ويجتمع المجلس مرة في كل عام ؛ وتكون اجتماعات الجمعية على « فترات مسماة » ولكن لم تتم تلك الفترات .

وفيما عدا حالات نوعية خاصة لم تكن قرارات عصبة هذا الميثاق تصدر إلا بإجماع الآراء . فإن ندد فرد واحد ولم يوافق في المجلس تعطل أى مقترح - وهو وضع يجرى على نظام النقض المطلق (Liberum veto) البولندى القديم . وهو شرط أنزل أفدح الضرر بكيان العصبة . فإنه جعل الكثيرين من المفكرين يرغبون في عدم وجود العصبة أكثر مما يرغبون في عصبة الميثاق هذه . إذ أنه ينطوى على اعتراف تام بما للدول من سيادة لا يمكن التنازل عنها ، كما أنه رفض لفكرة قيام « دولة تحريرية مشتركة » (Commonweal) تظلل البشرية جمعاء . والواقع العملى أن هذا الشرط كان يسد الطريق على كل إصلاح لدستور العصبة في المستقبل إلا باللجوء إلى طريقة مرذولة هي أن ينسحب من العصبة في وقت واحد غالبية الأعضاء الراغبين في التغيير ، ليعيدوا تكوين العصبة على أسس جديدة . وقد جعل الميثاق إيجاد مثل هذه التسوية النهائية للعصبة التي أنشأ أمراً لامندوحة منه . ولعل هذا خير ما فيه .

وقد اقترح أن تستبعد من العصبة الأصلية الدول الآتية : وهى ألمانيا والنمسا والروسيا وكل ما عسى أن يتبقى من الإمبراطورية العثمانية . على أن في الإمكان أن تدخل أى واحدة من هذه الدول فيما بعد بموافقة ثلثى أعضاء الجمعية . وكانت العضوية الأصلية في العصبة كما يحددها مشروع الميثاق مقصورة على : الولايات المتحدة الأمريكية وبلجيكا وبوليفيا والبرازيل والإمبراطورية البريطانية (كندا وأستراليا وجنوب أفريقيا ونيوزيلندا والهند) ، والصين وكوبا وإكوادور وفرنسا واليونان وجواتيمالا وهاتي والحجاز وهندوراس وإيطاليا واليابان وليبيا ونيكاراجوا وبنما وبيرو وبولندا والبرتغال ورومانيا ودولة السرب والكروات والسلوفان وسيام تشيكوسلوفاكيا وأوروغواي . ويضم إليها بتوجيه الدعوة الدول الآتية التي لزم الحياذ أثناء الحرب ، وهى : جمهورية الأرجنتين وشيلي وكولومبيا والدانمارك وهولندا والنرويج وباراجواي وإيران وسلفادور وأسبانيا والسويد وسويسرا وفنزويلا .

وما دام ذلك هو دستور العصبة ، فلن يكون هناك مجال للعجب من أن سلطاتها كانت خاصة ومحدودة . وجُعِلَ مقرها مدينة جنيف وجُعِلَت لها سكرتارية . ولم يكن لها أى قوة حتى في التفتيش على الاستعدادات الحربية التي ينشئها أعضاؤها المؤسسون ، ولا أن تعطى التعليمات إلى هيئة عسكرية وبحرية لوضع خطة التعاون المسلح اللازم لحفظ السلام في العالم .

وقد أصر المندوب الفرنسي في كوميسيون عصبة الأمم وهو المسيو ليون بورجواه في جلاء وتكرار على الضرورة المنطقية لوجود مثل هذه السلطات والقوى في يدها . على أنه كان كخطيب مسهباً مفيضاً وينقصه شيء من « حرافة » المسيو كلمنصو وإليك وصفاً محكماً للمنظر الختامى لجلسة ٢٨ أبريل الكاملة التي سبقت تبني الميثاق كما دبحه المستر ولسن هاريس . كانت قاعة الولاثم المزدحمة في الكاي دورساي^(١) بما فيها من صفوف المناضد للمندوبين وما فيها من سكرتارين وموظفين ومصطفين بجوار الجدران وكتلة متراصة من الصحفيين في الطرف الأدنى من القاعة . - « وجلس الأقطاب الثلاثة في صدر القاعة يُسَلِّتون أنفسهم على حساب المسيو ليون بورجواه المحترم وقد أخذ - بمساعدة أكداش من المذكرات لا بد أنها كانت تبدو غير ضرورية بتاتاً ، يلقي لخامس مرة خطابه الذي يناصر به تعديلاته الشهيرة » .

ولقد أذكروا من « تسلية أنفسهم بالتهماس » وأعنى بهم هؤلاء الثلاثة الذين كان من سخرية الأقدار أن ألفت بين أيديهم مقاليد أعظم فرصة أتاحتها التاريخ . ويعطينا كايترز أمثلة أخرى مما بدر في هذه الجلسات من صنوف الطيش والطابع السوقي وعدم مراعاة الشعور وقلة الالتفات وانعدام الكفايات .

وعاد هذا الميثاق المسكين الذي وصلوا إليه على هذه الشاكلة إلى أمريكا بصحبة الرئيس ولسن ، وهناك لقي كل معارضة من الحزب الجمهورى المستاء وكل خصومة من الرجال الذين أهمل شأنهم في الرحلة إلى أوروبا . وأبى مجلس الشيوخ أن يصادق على الميثاق ، وعلى ذلك فقد عقد أول اجتماع للعصبة من غير حضور ممثلى أمريكا .

(١) الكاي دورساي (Quai d'Orsay) : هو مقر وزارة الخارجية الفرنسية . (المترجم)

وشهدت خاتمة ١٩١٩ وبداية ١٩٢٠ تغيراً عجيباً جداً في الشعور الأمريكي بعد التحمس للانجليز والفرنسيين لإبان الحرب . ذلك بأن مفاوضات الصلح ذكرت الأمريكيين بطريقة مضطربة ومثيرة ، بما يفرق بينهم وبين الدول الأوروبية من الفوارق العميقة في وجهة النظر الدولية ، وهي الفوارق التي ساعدت الحرب على نسيانهم إياها رداً من الزمان . إذ أحسوا أنهم « دفعوا دفعاً عاجلاً » إلى أمور كثيرة دون ما يكنى من التروى وإعمال الفكر . ومر بهم تحول عنيف نحو سياسة العزلة التي تحطمت في ١٩١٧ . وشهدت خاتمة ١٩١٩ دوراً ؛ دوراً واضح الدلالة مفهوماً تماماً - من أدوار « التقوقع الأمريكي والتمسك بالعزلة » حاداً قاسياً يكاد يبلغ العنف ، دوراً كانت فيه الاشتراكية الأوروبية (والاستعمار) الأوربي بمنزلة سواء من التسخط واللعنة . وربما كان هناك عنصر من الخسة في ميل أمريكا إلى « قطع » حبال التبعات الأدبية التي أثارها الولايات المتحدة في شئون العالم القديم ، وفي الحصول على المزايا المائلة المالية والسياسية التي خولتها الحرب العالم الجديد . على أنه يلوح أن سليقة الأمريكيين كانت في مجملها سليمة صحيحة في عدم ثقتهم بالتسوية المقترحة .

٤ - معاهدات ١٩١٩ - ١٩٢٠

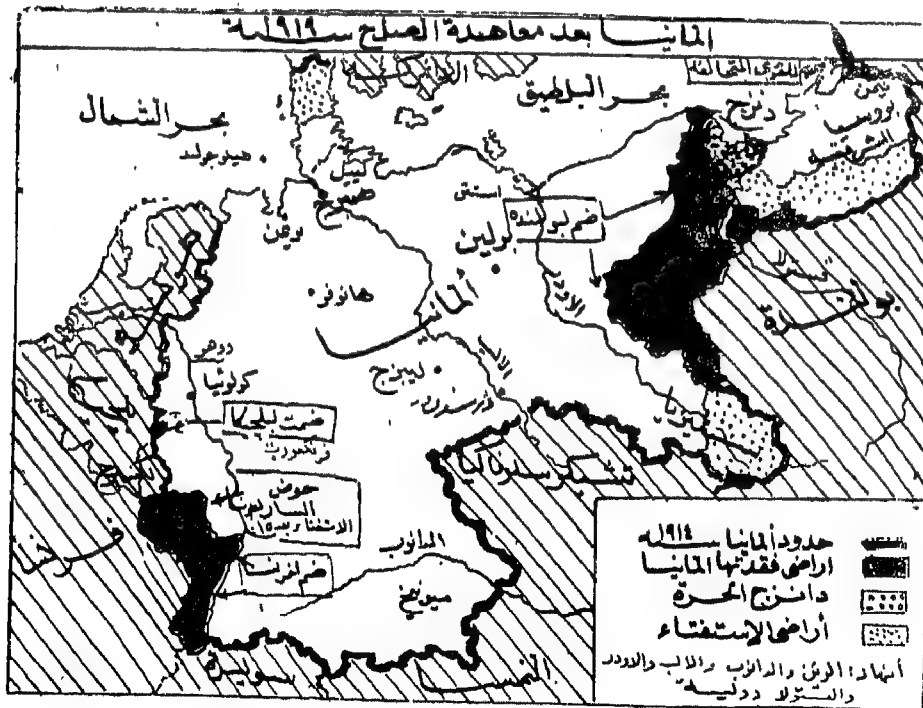
تجسدت قرارات فرساي في مجموعة من المعاهدات . ولإننا لنقدم إليك ها هنا أولاً خريطة تمثل التقسيمات الأرضية التي أوجدتها معاهدة الصلح مع ألمانيا . ويعطيك قلم المستر هوراين الناطق الواضح ، الحقائق الضرورية بشكل أوضح مما يستطيع أن يبلغه أى شرح . زد على ذلك أن التسوية اشترطت تجريد ألمانيا من السلاح تجريداً تاماً ، وأنها يجب أن تسلم أسطولها وأن تدفع تعويضات حربية عظيمة ، وأن تدفع مبالغ طائلة لإصلاح ما دمرته الحرب . وانتدبت لجنة متحالفة للإشراف على عملية نزع السلاح . وكان مقرراً أن يسلم الأسطول للبريطانيين في ٢١ يونيو ١٩١٩ ، ولكن الضباط والثوتية لم يطبقوا تلك الفعلة ، وبدلاً من أن يسلموه أفلتوا به وأغرقوا سفنهم عند سكاپا فلو^(١) (Scapa Flow) على مرأى من البريطانيين .

(١) سكاپا فلو : متسع مائ يقع جنوب جزر أوركني باسكتلندة . (المترجم)

١٤٩١

ومزقت إمبراطورية النمسا والمجر تمزيقاً تاماً . وبقي من ورائها دولة صغيرة هي النمسا التي تعهدت بعدم الانضمام إلى ألمانيا . ودولة أخرى مشذبة مقطعة الأوصال هي المجر ؛ وامتدت رومانيا امتداداً بالغاً وراء تخومها الشرعية حتى سويداء ترنسلفانيا . ومنحت بولندة معظم غاليسيا ، وعادت بوهيميا إلى الظهور بعد إضافة سلوفاكيا وموراثيا فظهرت تحت اسم تشيكوسلوفاكيا . وأصبح الصربيون والكرواتيون وسكان الجبل الأسود (مع معارضة ضعيفة من الأخيرين) دولة يوجوسلافية جديدة ، وابتدأ بينها وبين إيطاليا للفور نزاع عنيف على مرفأ فيومي ، الذي ادعى الإيطاليون ملكيته دون أى وجه حق .

وبقيت بلغاريا على قيد الحياة بعد أن تنازلت لليونان عن الأراضي التي استولت عليها حديثاً في تراقيا . فأما بلاد اليونان فإنها بالرغم من خيانتها لحملة غاليليو ، ظلت



(شكل ٢١٨)

ردحاً من الزمان الطفل الذي يدله الديبلوماسية في فرساي . فأعطيت أرضاً مأخوذة من بلغاريا وسمح لها بأن تتقدم حتى تصبح على قيد خطوة من القسطنطينية ،

وكان من نصيبها أيضاً قطعة كبيرة من الأرض حول مدينة أزمير . ومع هذا فإنها لم تسترد رودس وجزر الدوديكانيز ، بالرغم من أنها يونانية صميمة . إذ كانت هذه على أن تكون جزءاً من السلب الإيطالي . وتمسك البريطانيون بقبرص .

وكانت المعاهدة التركية عسيرة الإنشاء مستحيلة التنفيذ . وقعت عليها حكومة تركية اسمية في القسطنطينية ، ولكن حكومة تركية حقيقية أخرى تكونت في أنقرة ورفضت التوقيع عليها . وغزا جيش رومي منطقة أزمير ، وحلت معاهدة تركية هي معاهدة سيفر (أغسطس ١٩٢٠) محل المعاهدة الأولى . وجاءت في أعقاب ذلك تنقلات معقدة في الهيمنة على الأراضي . وأقيم في القسطنطينية رقابة مشتركة للحلفاء (يناير ١٩٢١) ، وتبخرت حكومة القسطنطينية التركية ، وأنشأت الحكومة التركية الأساسية في أنقرة علاقات سياسية مع البلاشفة في موسكو . وتواصل ازدياد عدوان اليونان ، بما كانوا يتلقونه في الحفاء من صنوف التشجيع المبهم . وحاول اليونان في فترة تضخم الأطلع هذه أن يستولوا على القسطنطينية . وشرعوا في هجوم عظيم على أنقرة يرمون من ورائه إلى القضاء على الأتراك إلى الأبد . وتقدم هجومهم حتى اقترب من أنقرة ثم تزلزل وتداعى . ومنذ أغسطس ١٩٢٢ لما عقبها لم يكن منهم إلا التقهقر والفرار أمام الأتراك . وفر مع الجيوش حشود مذعورة من السكان اليونانيين الآسيويين . ولم يبق لليونان شيء في آسيا . فأخليت أزمير قبل نهاية سبتمبر ، وغادر آسيا ما يقارب المليون عدداً من اللاجئين اليونان جنساً ولغة ولم يعودوا إليها بعد ذلك أبداً .

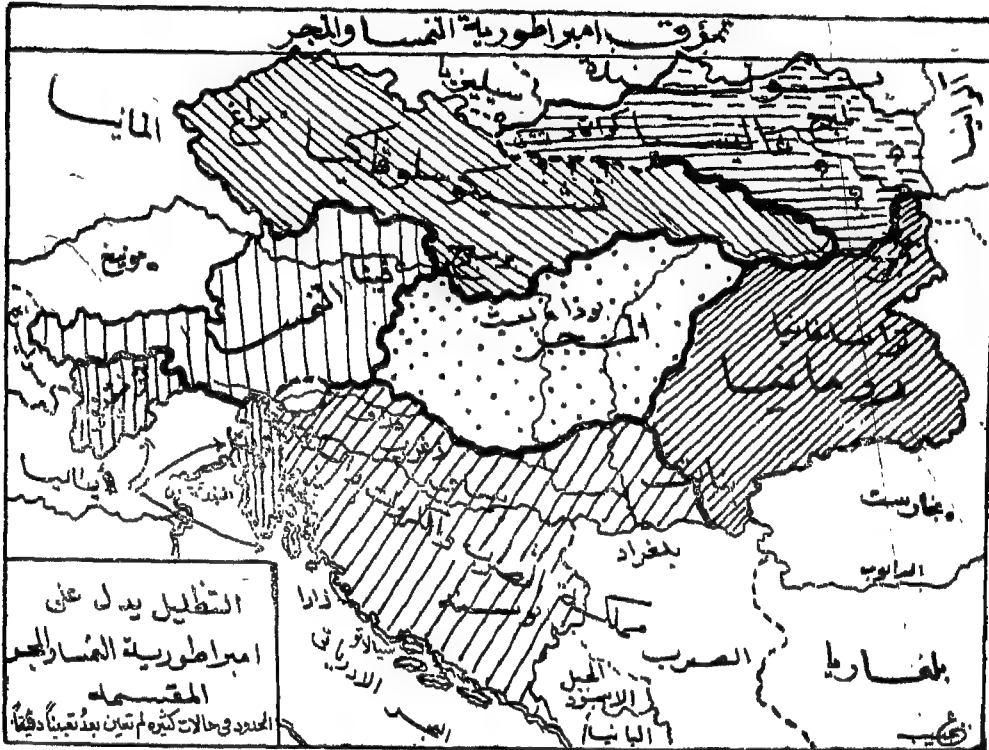
وحيوية الأتراك في هذا الدور رائعة جديرة بالإعجاب . فإن التركي لم يكن يقوم فحسب بدفع اليونان المعتدين عليه إلى الخلف ، بل كان جرياً على تقاليده التي ورثها أمد العصور يذبح الأرمن ، كما كان يدفع بالفرنسيين خارج قيلقيا . ومن بين الآيات الكثيرة الدالة على اضطباعهم بالروح العصرية أن تخلص الأتراك من السلطان وأنشأوا حكومة جمهورية الطراز . وأظهروا الرغبة في القتال في منطقة المضائق واسترجعوا القسطنطينية . وواضح أنه كان من مصادر القوة لهم لا الضعف ، انقطاعهم تمام الانقطاع عن النزاع الطويل الأمد غير المجدى مع العرب . وفصلت سوريا وأرض الجزيرة فصلاً تاماً عن الحكم التركي . وجعلت فلسطين ولاية منفصلة



داخل الدائرة البريطانية ، وخصصت وطناً قومياً لليهود ، وانهار إلى داخل الأرض الموعودة فيض من فقراء اليهود ما عثم أن وقع في كفاح خطير مع السكان العرب . وكان العرب قد تماسكوا ضد الأتراك وألهموا فكرة الوحدة القومية بفضل جهود عالم شاب من أكسفورد هو الكولونيل لورنس . فأما حلمه بقيام مملكة عربية تتخذ دمشق عاصمة لها فقد حطمه للفر تنافس الفرنسيين والإنجليز المسعور على مناطق الانتداب ، وانتهى الأمر بأن تقلصت مملكته العربية إلى مملكة الحجاز الصحراوية الجرداء ، وإلى إماميات وإمارات وسلطنات أخرى متنوعة ضعيفة . فلو حدث يوماً ما أنهم توحدوا وأنهم كافحوا حتى بلغوا المدنية فلن يكون ذلك وظل الرعاية الغربية مبسوط عليهم .

وإذا راعينا تلك السمة الوقتية التي تتسم بها التسويات التي أججزها الدبلوماسيون ، راعينا على الفور وهن دبلوماسيتهم وأدركنا القوى القاهرة الجبارة التي قضت على

مناوراتهم وترتيباتهم ويرونا أكثر وأكثر ما باعت به المثل القومية العليا الجديدة التي أدخلها الرئيس ولسن في العلاقات الأوروبية من قلة تأثير تدل على جهل الأوربيين



(شكل ٢٢٠)

المطبق . فإن هذه المعاهدات تركت نقاطه الأربعة عشر كصف من المنازل الخربة المهدامة في قرية أصيبت بالقنابل . فذهب بعضها ذهاباً لا رجعة له ، وشوه البعض حتى لا يكاد الناس يميزونه . وضاعت أول محاولة لإنتاج قانون عالمي كما تضع موجة من الضحك الصاحب في إحدى الحانات .

ومن أهم العقبات الدائمة التي أدت إلى فشل ذلك المشروع العظيم الهادف لوحدة العالم — ذلك المشروع المعبر عن الرغبة العالمية في إيجاد سلام منظم — ما أظهرته الامبراطورية البريطانية من نفور تام وكراهية مطلقة للخضوع لأي تمزيق لنظامها وأي تكييف له ولا لآلية رقابة على تسليحها البحري والجوى . والامبراطورية البريطانية كما هو معلوم ، عصبية أمم قديمة سبقت الوجود عصبية الميثاق تلك

وتكونت من أمم ودول محكومة ومناطق مستغلة . وثمة سبب يماثل هذا يرجع إليه هذا الفشل هو عدم استعداد الذهن الأمريكى هو أيضاً لقبول أى تدخل فى شأن سيادة الولايات المتحدة على العالم الجديد .

ولعل واحدة من هاتين الدولتين العظيمتين اللتين كانتا بالضرورة الدولتين المتسلطتين الزعيميتين فى باريس ، لم تفكر تفكيراً صحيحاً فيما ينطوى عليه قيام عصبة للأمم بالعلاقة إلى هذه التنظيمات القديمة ، ولذا فإن معظم النظارة الأوربيين كانوا يرون أن تعصيدهما لهذا المشروع يخالطه جو عجيب من النفاق السافر . فكأنما كانتا تريدان الاحتفاظ والتكهن لسيادتهما وأمنتهما الخاصة الهائلة مع الحد فى نفس الوقت من تقدم أى دولة أخرى إلى ميدان مثل هاته التوسعات والاستلحاكات والمحالقات تقدماً ربما ترتب عليه قيام استعمار آخر منافس مناهض . وكان امتناعهما عن إقامة مثال من الثقة الدولية قاتلاً لكل احتمال فى قيام الثقة الدولية فى الدول الأخرى الممثلة فى باريس . وأنكى من هذا وأنعس ، رفض الأمريكيين الموافقة على طلب اليابان الاعتراف بالتساوى العنصرى بين الأجناس .

زد على ذلك أنه كان يخيم على وزارات الخارجية البريطانية والفرنسية والإيطالية جو خائق من الخطط التقليدية القائمة على عدوان لا يتسق البتة مع الفكرات الجديدة . وكانت وجهة نظر الفرنسيين والإيطاليين متخلفة أشواطاً كثيرة عن وجهة نظر الإنجليز والأمريكيين أنفسهم من حيث حدة الأناية القومية . وغنى عن البيان أن أية عصبة أمم يراد أن تكون لها أية قيمة للإنسانية لابد لها من أن تقتلع الاستعمار من أساسه وتحل محله ، فهى إما أن تكون دولة شاملة علياً أى إمبراطورية عالمية تحررية مكونة من دول (ولايات) متحدة ، تشترك بعضها مع بعض أو يتولى الوصاية^(١) بعضها على البعض وإلا فهى لا شئ . على أنه قل بين الرجال الذين حضروا مؤتمر باريس من كان

(١) إن هذا رأى موضع نقد كثير أثير على المؤلف ، إذ بلى حق وعلى أى أساس وبأية مؤهلات تتولى إحدى الدول الوصاية على أخرى ؟ لكأننا هدنا الاستعمار غير الشرعى ليرثه بهذا الرأى استعمار شرعى . (المترجم)

له من قوة العقلية ما يهيئ له أن يعبر عن هذه العاقبة الواضحة المنعثة عن مشروع إنشاء العصبة .

ذلك بأنهم أرادوا أن يكونوا مقيدين وأحراراً في نفس الوقت ؛ وأن يضمنوا السلام إلى الأبد على أن يحتفظوا بأسلحتهم في أيديهم . وبناءً على هذا فإن المشروعات القديمة التي كانت تستهدف ضم الأراضي في أيام الدول العظمى قد سُئرت في عجلة بستار رقيق من الخداع بأن وصفت بأنها من التصرفات التي يقترحها ذلك الطفل العليل المولود في ٢٨ أبريل . ومن ثم صُورت هذه العصبة الحديثة الميلاد الخامدة الأنفاس صورة من يوزع - بكل ما يديه بابا مأسور من دلائل السخاء الأهوج - « الانتدابات » (Mandates) على الدول الاستعمارية القديمة ، إلى حد أنها لو كانت تمثلت هيئة هرقل الفتى الجبار الذي كنا نود لو اتخذت صورته حقاً - لمات في مهاده اختناقاً . وتقرر أن تعطى بريطانيا « انتدابات » عظيمة في أرض الجزيرة وأفريقيا الشرقية ، وأن تعطى فرنسا مثل ذلك في سوريا . وأن تعطى إيطاليا كل ما يدها في غرب مصر وجنوبها الشرقي بعد أن يضم بعضه إلى بعض ليكون منطقة انتداب .

وواضح أنه لو كان ذلك العليل الضعيف الذي يمرضه سكرتيره في مهده بجنيف ، آملاً أن يدب فيه شيء يشبه ديب الحياة ، قد قضى نحبهُ للفور بسبب ضعف الطفولة الذي يصيب كل مؤسسة تولد بلاحماسة ويقضى عليها ، لأصبحت كل هذه الانتدابات أراضي مضمومة لتلك الدول ضماً صريحاً . زد على ذلك أن جميع الدول أخذت تتدافع في المؤتمر بالظفر والنااب طلباً لحدود ذات قيمة « استراتيجية » - وهذا لعمرى أقبح مظهر ظهروا به فلماذا تريد دولة من الدول الحصول على حدود استراتيجية ما لم تكن تضم التفكير في الحرب ؟ وعلى أساس هذه الحجة أصرت إيطاليا مثلاً ، على ضرورة ضم منطقة التيرول الجنوبية وإن وجد بها سكان من الألمان الخاضعين للرعية الإيطالية وعلى ضم دالماسيا وهي إقليم سكانه من اليوجسلافيين .

١٤٩٧

والأنكى من هذه التسويات الجغرافية السيئة والأشد خطورة على مر الزمان فرضهم على ألمانيا مبالغ « للتعويضات » تتجاوز كل قدراتها على الدفع ، مخالفين بذلك أسس التفاهم الصريحة التى سلمت بمقتضاها . فاضطرت إلى موقف من العبودية الاقتصادية وأهبط كاهلها بديون تعويضية هائلة دورية مستحقة التنفيذ ، ونزع منها السلاح وهو نقص كان يجعلها معرضة فعلياً لأى اعتداء من ناحية دائئها ولكن لم تستبن تماماً الإمكانيات الكاملة لهذه التسوية إلا بعد مرور سنة أو ما يزيد على السنة . ثم عجزت ألمانيا عن الدفع ، وفى يناير ١٩٢٣ تقدم الفرنسيون بجيوشهم إلى وادى الرور ، وظلوا فيه حتى أغسطس ١٩٢٥ ، وهم يستغلون المناجم بقدر ما يستطيعون ، ويدبرون السكك الحديدية ، وينكأون^(١) قروح الألمان المولمة بمئات لآمئيص منها من صغار المظالم وأعمال العنف .

ولسنا بداخلين هنا فى أى تفصيل عن عواقب أخرى معينة لما طبعت عليه معاهدة فرساي من العجلة والاطمئنان فى التصرف - وكيف خضع الرئيس ولسن لليابانيين وأقر حلولهم محل الألمان فى كياوتشاو ، وهى من خالص أملاك الصين . وكيف أن مدينة دانزج الألمانية الصميمة تقريباً ، قد ألحقت ببولندة إلخاقاً عملياً إن لم يكن قانونياً . وكيف تنازعت الدول حول إدعاء الاستعماريين الإيطاليين ، ذلك الادعاء الذى قوته هذه التصرفات - فى الاستيلاء على مرفأ فيومى اليوغسلافى وحرمانهم اليوغسلافيين بذلك من ثغر جيد على البحر الادرياتي . واحتل المدينة متطوعة من الإيطاليين بقيادة الشاعر دانو نزيو ، وأقاموا فيها جمهورية من العصاة ، حتى ألحقت بإيطاليا نهائياً فى يناير ١٩٢١ .

كذلك لن نتجاوز حد النظرة السريعة إلى الترتيبات والتبريرات المعقدة التى وضعت وادى السارقى يد الفرنسيين ، وهو أرض ألمانية بحتة - ولا عن الاعتراف الصارخ على حق « تقرير المصير » الذى منع النمسا الألمانية - منعاً فعلياً من الاتحاد مع سائر ألمانيا مع أن اتحادها وإياها أمر طبيعى صائب لا غبار عليه .

(١) ورد بمعم الوسيط ما نصه : « نكأ القرحة نكأاً قشرها قبل أن تبرا فنديت » .
(المترجم)

٥ - البلشفية في روسيا

سبق أن لاحظنا ثورتي روسيا في ١٩١٧ . وقد آن لنا أن نعالج بإسهاب أوفى ذلك التغير الخارق الذي غير اتجاه الأمور في روسيا في ذلك الزمان . ولم يكن ذلك التغير إلا انهيار المدنية الغربية العصرية في روسيا . ولكن ما استولى على مقاليد الشعب الروسى كان أمراً يتجاوز كثيراً حدود تجربة اشتراكية . وكان له مظهر خداع ، يظهره كأنما هو امتحان قاطع ونهائى تبثلى به فكرة الاشتراكية الغربية بلاء عمليا . والواقع أن التجربة أظهرت بالفعل نفس نقائص النظرية الاشتراكية . كذلك أثبتت صحة المبدأ القائل بأن أية ثورة لا تستطيع أن تخلق من العدم شيئاً لم يناقش ولم تدبر خططه ، ولم يفكر الناس فيه مقدماً ولم يفسروه على أوفى وجه قبل شروعه فيهم فيه وإلا لم يزد ما عمله أية ثورة عن مجرد تحطيم حكومة أو أسرة مالكة أو منظمة من المنظمات - حسبما يكون الحال . فالثورة إن هي إلا عملية طرد واستبعاد للنفايات وليست عملية خلق .

وقد أدلينا إليك ببيان عن نمو الفكرات الاشتراكية في النصف الثانى من القرن التاسع عشر ، وأوضحنا الدور الكبير الذى لعبه في هذا التطور فكريات « حرب الطبقات » التى ارتأها كارل ماركس . وكانت هذه الفكرات تدهن الكبرياء وتثير الأطماع لدى الأشخاص المتذمرين الأشد همة في كل مناطق العالم الصناعية . وأصبحت الماركسية في كل مكان عقيدة العامل الصناعى القلق . ولكن لما لم يكن في المبدأ الاشتراكى ما يروق الفلاح ، الذى يملك أو يريد أن يملك الأرض التى يزدرع ، ولما كانت المجتمعات الكبيرة في مدن أوربا الغربية وأمريكا تتكون من الناحية العقلية من أفراد من الطبقة الوسطى أكثر منهم من الطبقة الصناعية ، فإنه سرعان ما أدركت الماركسية أن الثورة الاجتماعية والاقتصادية التى يدبرون لم تكن لتستطيع أن تنتظر الأساليب البرلمانية وأصوات الأغليات ، فلا بد لها قبل كل شئ من أن تكون ثمرة عمل أقلية ، أقلية من عمال الصناعة ، الذين يقبضون على زمام السلطة ، ويؤسسون نظاماً شيوعية ، وبذا يدربون بقية العالم على سعادة

العصر الذهبي^(١) ، التي تعقب ذلك . وهذا الدور من حكم الأقلية المرجومنه أن ينتج العصر الذهبي المنتظر كان يسمى في مصطلح الماركسيين باسم « دكتاتورية البروليتارية » .

فإن رجالا من المتعصبين كانوا في كل مكان ، وبنشيط الداعية المتعصب ، يفنون حياتهم وطاقاتهم في بث تلك الفكرة لا يبتغون على ذلك أجراً . وربما كان هناك في العشرات الأولى من سنى القرن العشرين ما يقارب المليون عدلاً من الرجال المقتنعين بأنه إن تم الأمر لهذه « الدكتاتورية البروليتارية » التي يفكرون فيها تفكيراً مبهماً غير واضح ، لأعقب ذلك نظاماً اجتماعياً جديداً أحسن من سابقه يكاد ظهوره يتم تلقائياً بطريقة أوتوماتيكية . وقد سبق أن أظهرنا لك أثناء مناقشتنا للاشتراكية كم كانت هذه الفكرة خيالية خداعه .

ولم يكن لدى الماركسيين أى خطط واضحة مستقرة لآعن طريقة دفع أجر العامل ولا عن المناقشة العلنية ولا عن كيفية الإدارة الاقتصادية - يوم يتم تحطيم « الرأسمالية » . وقد دبر نظام الرأسمالية الفردية من الناحية الأخرى حلولاً لكل هذه الأشياء على طريقة كانت ولا شك غير عادلة وتقوم على التجارب الشخصية دون الأسس العلمية ، ولكنها كانت مع هذا طريقة عملية . وذلك على حين لم ينتج الماركسيون أبداً أى بديل لهذه الطريقة ، التي تداربها تلك المسائل ، ولم يبد عليهم أنهم أدركوا أن الناس بحاجة إلى طريقة جديدة بدل الأولى . والواقع أنهم قالوا للعمال : « سلمونا السلطة ، يتم كل شيء » ، وغلب اليأس على روسيا فاستسلمت إلى « دكتاتورية البروليتارية » ، بعد أن عليها ويدد مواردها وتخلّي عنها الحلفاء الذين خدمتهم بغاية الإخلاص .

وقد تفاوت عدد أعضاء الحزب الشيوعي في روسيا ، فإنه لم يدع حتى زمن قريب جداً أن له أكثر من ٨٠٠ ٠٠٠ نصير ، بل لقد كانوا في الزمان

(١) العصر الذهبي : يشير المؤلف إلى الألف سنة المذكورة في بعض أسفار الكتاب المقدس التي يعتقد أصحاب مذهب الألف عام السعيد أن المسيح سوف يحكم الأرض فيها ومعه رسله .
(المترجم)

الذى نتكلم الآن عنه يقلون فيما يرجح عن ربع مليون . ولكن هذه الهيئة الصغيرة نسبياً ، استطاعت بما لها من عزم وإصرار وإخلاص ، ولأنه لم يكن هناك شيء غيرها يتصف بالعزم والإخلاص أو يتسم بالقدر الكافي من الاقتدار في كل تلك البلاد غير المنظمة ويستطيع أن يقف في وجهها ، استطاعت أن ترسي أسسها في بطرسبرج وموسكو ومعظم مدن روسيا ، وأن تضم إلى صفها نوتية الأسطول (الذين قتلوا معظم ضباطهم واحتلوا قلاع سفاستبول وكرونستاد) ، وأن تصبح الحاكم الفعلى لروسيا .

ونشأ ثمة دور من حكم الإرهاب . إذ يدعى البلاشفة أنه لم تكن لهم مندوحة من أن يحكموا البلاد بادئ بدء بالرعب والإرهاب . إذ كان انحلال النظام الاجتماعى في البلاد بالغاً منتهاه . فإن الفلاحين قد ثاروا في مناطق كبيرة ضد أصحاب الأراضى ، وقام بعض الناس بتقسيم المزارع الكبيرة . واطرد حرق القصور على شاكلة ما حدث في الثورة الفرنسية الأولى . واقترب الكثير من الفطائع البشعة . واستولى الفلاحون على الأراضى وقسموها بين أنفسهم ، وذلك لجهلهم التام بتعاليم كارل ماركس في هذا الصدد . وفى نفس الوقت أخذ مئات الألوف من الجنود يضربون في الأرض عائدين من منطقة الحرب إلى قراهم وأسلحتهم في أيديهم . وكانت حكومة القيصر قد جندت عدداً بلغ الثانية الملايين - وهو عدد يفوق بكثير عدد من كانت تستطيع أن تسلحه من الرجال أو تستخدمه في جبهة القتال - وكانت اقتلعتهم من قراهم اقتلاع النبات من جذوره ، وأضحت جماهير عظيمة من هؤلاء المجندين قطاعاً حقيقين للطرق على حساب المناطق الريفية . وقد غصت موسكو في أكتوبر ونوفمبر من ١٩١٧ بمثل هؤلاء الرجال . فكونوا من أنفسهم عصابات ، وأخذوا يطرقون المنازل يهبونها ويعتدون على الأعراض فيها فلا يعترض أحد سبيلهم . وتلاشى القانون والنظام وأداة الحكم من الوجود . وكان الرجال المسروقون والمقتولون يرقدون لى مهملا في الشوارع أياماً متتالية .

تلك هى الحال يوم تقلد البلاشفة مقاليد الحكم وهو أمر لا بد لنا من تذكره . ولم يكن هذا الحال ناشئاً عن اغتصابهم للسلطان . ولقد قضوا زماناً يحاولون إعادة النظام . وكان كل من بضبط حاملاً سلاحاً يقتل رمياً بالرصاص . فقبض على آلاف

١٥٠١

وأعدموا ، ومن المشكوك فيه أنه كان في الإمكان إعادة أى قدر من النظام في موسكو دون الالتجاء إلى مثل هذا الإجراء . وقد بلغ من تفكك عرى روسيا القيصرية أنه تقوض صرح النظام العام في البلاد وأن فقد الناس ما ألفوه في ظله من عادات . « كانوا مضطرين أن يقتلوا الناس بالرصاص » ، وذلك ما قاله الرئيس مازارينك مرة لكاتب هذا الكتاب ثم أردف ذلك بقوله : « ثم تواصل القتل بقساوة وبغير تعقل » .

وفي ربيع ١٩١٨ كانت قبضة البلاشفة تمكنت من المدن الكبرى ومن السكك الحديدية والسفن في معظم روسيا . وتكونت جمعية تأسيسية ولكنها ما لبثت أن حُلّت وشتت أعضاؤها في يناير ، ذلك أن البلاشفة لم يستطيعوا العمل معها . إذ كان فرط التفرق - فيما زعموا - رائدها في مرامها ومشوراتها بحيث يعوق كل عمل قوى . وفي مارس أبرموا مع ألمانيا في برست ليتوفسك صلحاً اتسم بالخضوع والذلة .

وكان على رأس الديكتاتورية البلشفية التي نصبت نفسها لحكم روسيا آنذاك لينين ، وهو رجل على الهمة موفور النشاط متوقد الذكاء قضى معظم حياته منفياً في لندن وجنيف ، مشغلاً بالنظريات السياسية وبالسياسة الغامضة الخفية للتنظيمات الماركسية الروسية . كان رجلاً ثورياً شريفاً من أصحاب المبادئ النظرية البحتة ، يعيش عيش البساطة ولا يكلّ مهماً عمل ، ولم تكن لديه أى خبرة بالإدارة العملية للشئون . وكان يشترك معه في العمل تروتسكى وهو شخص مبعّد عن نيويورك ، قدر له أن يظهر للفرق اقتداراً عسكرياً عملياً جسيماً . وكان راديك ولوناخارسكى وزينوفيف وزورين وكامينيف وكراسين بين الأعضاء المبرزين في الفئة القليلة التي نصبت نفسها آنذاك لإعادة تنظيم روسيا وإنهاضها من الكبوة الكارثة التي أوقعها الحرب فيها حتى وفقوا في النهاية إلى إعادة وحدتها الاجتماعية .

وفي بادئ الأمر كانت أطباع زعماء البلاشفة تتجاوز روسيا كثيراً . إذ ليس العمل في روسيا وحدها على درجة من الضخامة تستغرق نشاطهم . فأعلنوا الثورة الاجتماعية في أرجاء العالم قاطبة ، وأهابوا بالعمال في كل مكان أن يتحدوا ، وأن

يقلبوا نظام الرأسمالية ، وبذلك يجلبون عصر الماركسية الذهبي ، الذى لا شكل منتظماً له ولا خطة مرسومة . وطبعى أن يقذف بهم هذا الإجراء إلى معمعان الصراع مع كل الحكومات القائمة . فأضاف إلى عبء إقرارهم الشيوعية فى روسيا عبئاً جديداً هو المحافظة عليها ضد سلسلة من الهجمات المضادة التى تعرضت لها من جراء تشهيرها ذاك بالحكومات الأجنبية .

ولم تمض سنتان أو ثلاثة حتى تجلى فشل الروسيين فيما حاولوا أن يقيموا من شيوعية عامرة مثمرة ، كما تجلى على أيديهم فى تلك السنين عقم المبادئ الماركسية وتجردها من كل خلق وابتكار عقماً تاماً بالغا . لم يستطيعوا أن ينهضوا الروسيا على قدميها ثانية . ولقد عجزوا تمام العجز عن أن يعيدوا دولاب الصناعة الروسية المحطمة سيرته من الدوران . وكان معظم زعمائهم من الطراز الذى يحسن فقط أن يكتب ويتكلم ، دون أن تكون له أية خبرة فى إدارة الأعمال وتنظيمها .

ولقد حملهم كرههم الأعمى للطبقات الأخرى فى مبتدأ حكمهم أن يقضوا على معظم من كان باقياً فى الروسيا من أفراد طبقة مديرى المصانع والخبراء الفنيين ورؤساء العمال ومن إليهم . ولم يكن لديهم أية معرفة منظمة ، كما دفعهم غرورهم كأصحاب المبادئ الماركسية النظرية البحتة ، إلى احتقار كل معرفة يجهلونها : — عن سيكولوجية العامل فى عمله . بل لم يكن بين أيديهم تلك المعرفة العملية التى تهيأت للرأسمالى القديم الذى يحتقرون . وكل ما كانوا يعرفونه فى ذلك الشأن هو سيكولوجية العامل أثناء الاجتماعات الحافلة . فحاولوا أن يسيروا بالروسيا بطريق الحث والتضيض ، ولكن لم يستجب لهم لا العامل عندما عاد إلى مصنعه ولا الفلاح يوم رجع إلى محراثه . وأخذ النقل والإنتاج الميكانيكى فى المدن يهبطان باطراد حتى تزعزعت أركانها وهوى بنيانها ، وشرع الفلاح ينتج لنفسه ما يكفيه ويخفى ما زاد عن حاجته .

وعندما زار كاتب هذه السطور بطرسبرج فى ١٩٢٠ شهد منظراً مروّعا من الدمار . كانت تلك هى أول مرة تنهار فيها مدينة عصرية على هذا النحو . فإن شيئاً واحداً لم تمتد إليه يد الإصلاح فى مدى أربع سنوات . وكانت هناك حفر عظيمة فى الشوارع التى سقط سطحها فى الحجارى المتهدمة من دونه ؛ وكانت أعمدة المصابيح

ملقاة حيث سقطت ؛ ولم تكن في المدينة ذكاة واحدة مفتوحة ؛ وكان معظمها مقفلاً بألواح خشبية تظهر نوافذها (قتريناتها) المكسورة . وكان المارة في الطريق على قلتهم يرتدون ثياباً رثة غير متجانسة ، إذ لم تكن هناك في روسيا ثياب جديدة ولا أحذية جديدة . وكان كثير من الناس يرتدون لفائف من الليف حول أقدامهم . وكان الناس والمدينة وكل شيء رثا بالياً . بل إن (القوميسيرين)^(١) البلاشفة أنفسهم كانوا يسيرون بذقون خشنة إذ لم تكن المواسي تصنع في البلاد ولا تستورد من الخارج . وكانت نسبة الوفيات هائلة ، وكان عدد سكان هذه المدينة التي جرى عليها القدر المحتوم يتناقص بمئات الآلاف كل عام .

وهناك أسباب كثيرة تدعو إلى الاعتقاد بأنه حتى في ١٩١٨ ، ١٩١٩ كانت الدكتاتورية البلشفية تدرك أخطاء طرائقها وأن تشرع في تكييف نفسها طوعاً للمعامل غير المنتظرة في الموقف الذي وجدت فيه نفسها . أجل إنهم كانوا ضيق العطن محدودى الأفق مستمسكين بحرفية المبادئ ، على أن الكثيرين منهم كانوا رجالاً ذوي خيال فسيح ومرونة ذهنية ، ولا سبيل إلى المشاحة في أنهم كانوا في كل ما أتوا من شر ، شرفاء في مقاصدهم متوفرين بإخلاص على منهجهم . وكان جلياً أنهم يقومون بتجربة ذات قيمة عظيمة للإنسانية ، وكان ينبغي أن يتركوا وشأنهم . فلو حدث ذلك لاضطروا أن يصلوا ما بين نظامهم وبين تقاليد النظام النقدي البطيئة التطور ، ولوصلوا إلى التعامل مع الروح الفردية المستعصى علاجها روح الفلاح الزارع . ولكنهم لم يتركوا وأنفسهم . لأنهم أثاروا منذ مبتدأ حياتهم معارضة جنونية من ناحية أوروبا الغربية وأمريكا . ولم يبد أحد نحو المغامرين الماركسيين شيئاً من ذلك التسمح الذي لقيته حكومة القيصر التي تعادله تماماً في عدم الكفاية وجر الكوارث على البلاد . فقاطعتهم الدول مقاطعة شاملة ، وكانت الحكومات الرجعية في فرنسا وبريطانيا العظمى تمول وتساعد كل مغامر داخل روسيا وخارجها وتشجعه على مهاجمتهم .

(١) القوميسيرين : هم مندوبو الشعب الروسى الذين يتولون الوظائف في الحكومة السوفيتية .
(المترجم)

وشرعت حملة صحفية تبلبل أفكار الجماهير بسلسلة من الترهات الخيالية السخيفة والآراء المرجفة عن البلاشفة . نعم إنهم كانوا رجالا عديمي الكفاية مستمسكين بحرفية المبادئ وناحياتها النظرية البحتة ولهم نظرية اجتماعية واقتصادية ناقصة سيئة ، وهم يخوضون في الأحوال وسط بلاد مهتمة . وكان بين أتباعهم رجال أدنى إلى الوحشية وسوء السريرة . وإن أية حكومة في روسيا ما كانت لتجد في إدارتها للأعمال الحكومية إلا مادة هزيلة وتحس في نفسها ضعف يدها عن الهيمنة عليها . ولكن الدعاية المضادة للبلاشفة كانت تمثل مغامرى موسكو في صورة شيء بشع لا ضريب له في تاريخ العالم ، وتلوّح بأن مجرد إزالة كابوسهم يكفي لإعادة السعادة والرجاء إلى روسيا . وكان الدعاة يقومون بين الناس ضد البلاشفة بما يشبه الحملة الصليبية ، ولكن تكون لمصلحتهم رد فعل مشرق في أذهان المفكرين المتحررين الذين ربما كانوا لولا هذا الحال يظلون أميل إلى جانب التروى في الحكم .

ونتيجة لهذه العداوة المنظمة ، اضطرت البلاشفة في روسيا منذ البداية نفسها إلى التزام وضع دفاعي يحميهم من العدوان الأجنبي . وعادت عليهم العداوة الملحاحة التي كانت تبديها نحوهم الحكومات الغربية بأعظم القوة في داخل روسيا . وبالرغم من نظريات الماركسيين الدولية ، فإن الحكومة البلاشفية في موسكو أصبحت حكومة وطنية تدفع عن نفسها عدوان الأجانب ، وتدافع بوجه خاص عن الفلاحين ضد عودة ملاك الأراضي وجباة الديون . كان ذلك موقفاً فيه كثير من التناقض والشذوذ . فقد أنتجت الشيوعية في روسيا ملاكاً من الفلاحين . وكان تروتسكى يطمع رجلاً مسلماً ، ولكنه تمرس بفن الحرب حتى أصبح جنرالاً عظيماً بالرغم منه .

على أن هذه الروح العسكرية وهذه الوطنية التي فرضت هكذا قسراً على حكومة لينين ، وهذا الانتباه الكلى المركز على التخوم ، كان يحول دون إعادة تكوين البوليس والقوى النظامية التأديبية في الداخل إعادة فعالة ، حتى ولو كان البلاشفة قادرين على مثل هذا الإعادة . والواقع أن الحكومة الجديدة عاودت عملياً استخدام البوليس القيصري القديم بكل ما فيه من جور وطرائق محاكم التفتيش . وتقلدت هيئة قبيحة

مختلة من البوليس السرى زمام سلطات تنفيذية عرفية ، واتخذت لنفسها تقاليد من سفك الدماء ثم أخذت تكافح الجواسيس الأجانب الواردين من الخارج وتناهض الإغراء والخوف والخيانة فى الداخل ، وتشجع تبعا لذلك تلهفها القبيح إلى إنزال العقوبة بالناس . وفى يوليو ١٩١٨ أعدم القيصر وعائلته بأمر من موظف صغير حين علم بظهور بواذر تدل على أن قوة رجعية من الجنود يحتل أن تنقلهم . وفى يناير ١٩١٩ أعدمت حكمدارية البوليس أربعة من المجراندين هم أعمام القيصر بمدينة بطرسبرج فى تحدٍ صريح لما قرره لينين من إرجاء التنفيذ .

وظل الشعب الروسى زهاء خمس سنوات قضاه فى ظلال هذا الحكم الغريب الذى ليس له من مثيل ، وهو محتفظ بتماسكه مقاوم كل محاولة لتزيق وحدته وإخضاعه . وفى أغسطس ١٩١٨ نزلت إلى البر فى أركانجل قوات بريطانية وفرنسية ، ثم سحبت فى سبتمبر ١٩١٩ . وبذل اليابانيون جهوداً جبارة منذ ١٩١٨ فما تلاها ليقرروا أنفسهم فى سيبيريا الشرقية . وفى ١٩١٩ لم يكن الروس يحاربون البريطانيون فقط فى أركانجل واليابانيين فى سيبيريا ، بل كانت ضدهم أيضاً قوة رجعية فى سيبيريا بقيادة الأميرال كولتشاك ، كما كان يهاجمهم كذلك الرومانيون فى الجنوب ومعهم مجندون فرنسيون ويونان ، ويقاثلهم فى بلاد القرم الجنرال دينيكين ومعهم جيش من الرجعيين الروس مزود بكميات هائلة من المهات الحربية والذخائر ما بين بريطانية وفرنسية ويعاونه الأسطول الفرنسى .

وفى يوليه كان كولتشاك ودينيكين قد اتحدا وأصبح فى يديهما جنوب روسيا الشرقى من أودسا إلى يوبا ، وكذلك أخذ جيش أوستوفى بقيادة الجنرال يودنيتش يتقدم نحو بطرسبرج . وكأنما لم تكن خاتمة البلشفيك إلا رهن زمان يعد بالأسابيع أو الأيام . ومع هذا فإنه ما كاد الحول ينتهى حتى كان جيش يودنيتش قد شئت ونُسى أمره ، وحتى أخذ كولتشاك بكل أسباب التراجع إلى سيبيريا وتقهقر دينيكين إلى البحر الأسود . وحملت السفن البريطانية والفرنسية دينيكين والبقية الباقية من جنوده فى مبتكر ١٩٢٠ ، وقبض على كولتشاك وأعدم بالرصاص فى سيبيريا .

ولكن أعداء روسيا لم يكونوا ليعطوها أية مهلة ولاراحة . فإن البولنديين قاموا بتحريض من الفرنسيين بحملة جديدة عليهم في أبريل ١٩٢٠ ، وواصل مغير رجعى جديد هو الجنرال رانجل أعمال دينيكين. في غزو بلاده وإهلاك الحرث والنسل فيها . ولم يلبث البولنديون بعد أن دفعوا إلى الخلف حتى وارسو أن استطاعوا أن ينتعشوا بمساعدة الفرنسيين وامدادهم وتقدموا ظافرين في الأراضي الروسية ، وعقدت في ريفا في أكتوبر ١٩٢٠ معاهدة يغلب فيها صالح بولندة اتسعت بها رقعتها . ولقى رانجل بعد أن دمر الطعام والمحاصيل فوق مساحات شاسعة عظيمة نفس المصير الذى لقيه دينيكين ، ثم تقاعد في نهاية السنة وأخذ يعيش على حساب مكارم الدول الغربية . وفي مارس ١٩٢١ اضطرت الحكومة البلشفية — واستطاعت بالفعل — أن تخدم عصيانا قام به البحارة في كرونستاد ، وهم « حرس البلشفية البريتورى »^(١) وركنها الذى كانت تعتمد عليه .

وأخذت العداوة للبلشفية في أوروبا الغربية وأمريكا تُخلى مكانها في ببطء طيلة ١٩٢٠ ، لتفكير في الموقف يغلب عليه طابع الحكمة والتبصر . وكانت هناك صعوبات كثيرة تعترض سبيل « الاعتراف » بالحكومة البلشفية كاملاً تاماً ، وهى صعوبات ترجع في الكثير من شأنها إلى عدم التعقل الذى كان يسود الجانب البلشفي أيضاً ، ولكن حدث عند نهاية ١٩٢٠ أن نوعاً رديئاً من السلم الغليظ غير الأدنى ساد العلاقات بين روسيا ومعظم بقية العالم ، وأصبح في إمكان الباحثين الأمريكيين والبريطانيين والفرنسيين أن يدخلوا تلك البلاد ويخرجوا منها . وفي مستهل ١٩٢١ عقدت كل من إنجلترا وإيطاليا اتفاقيات تجارية مع روسيا . وأعاد مندوبون للروسيا جاءوا في هيئة « الوفود التجارية » فتح باب التواصل بين ذلك القطر المنبوذ وبين بقية العالم .

ولكن كارثة من أعظم الكوارث وأشدّها هولاً كانت تهباً آنذاك للانقضاض

(١) الحرس البريتورى (Pretorian) : حرس خاص أنشأ أوغسطس قيصر لنفسه وتبعه في الاحتفاظ به أباطرة الرومان . (المترجم)

على هذا الشعب الروسى . فقد حل بيلاده فى ١٩٢١ قحط شديد لم يألف الناس له مثيلا . ولا بد أن القارئ اللبيب لهذا الكتاب قد لاحظ فيها سلف مقدار تقلب المناخ فى المنبسطات الأرضية العظيمة المحيطة ببحر قزوين . فهذه الأراضي إنما هى بطبيعتها أرض قوم رُحَّل ؛ ومن المشكوك فيه أنها ستكون يوماً مستقرا مطمئناً لعدد كبير من السكان الزراعيين . والآن وقد حل القحط والجفاف فإن المحاصيل تلفت- تلتاً تاماً فى مساحات هائلة من الجنوب الشرقى للروسيا ، وعقب ذلك ظهور أفضع مجاعة عرفها العالم فى سجل التاريخ المدون بأكمله . فهلك الملايين من الناس . وهناك كانت جماهير غفيرة من الناس وقرى بأكملها ومدن بكليتها تجلس فى بيوتها تنتظر الهلاك ، ثم تهلك فعلا . وطعم الكثيرون الدريس والثرى وأقذاراً ليس إلى وصفها من سبيل . وأخذ الناس ينبشون القبور عن الموتى ويأكلون لحوم البشر . وخلت مناطق عظيمة من سكانها .

ومع هذا كان هناك قح فائض يحرق لافى أمريكا وحدها بل حتى فى أوكرانيا ورومانيا والمجر . ولكن المواصلات فى تلك البلاد كانت متحطمة تحطماً لا مطلق فى إصلاحه بسبب حملات كولتشاك ودينيكين ورائجل ، ولم يكن فى يد الحكومة البلشفية من الموارد ولا الكفاية ما تستطيع به أن تواجه هذه الكارثة المهولة .

وتألفت لجنة أمريكية ولجنة أخرى بقيادة الدكتور نانسن المكتشف القطبى العظيم ونظمتا وسائل المعونة بمساعدة الحكومة وموافقتها ، وأدركت الأمريكيتين نوبة لا بأس بها من الأريحية فأخذت مؤنهم تصب فى البلاد . ولكن الحكومات الأوروبية الكبرى استجابت مستكرهة أو لم تستجب مطلقا لاستغااث الموقف المتطرفة . فأما الحكومة البريطانية التى انفتت من قبل مئة مليون من الجنهات فى عمليات عسكرية غير مشروعة ضد حليفها السابقة ، فإنها لطخت اسم بريطانيا الناصع بالعار برفضها أن تشترك فى أعمال المساعدة . وبذا يكون الدرس - درس التماسك الإنسانى الذى كان يجب أن تلقنه الحرب العظمى للبشرية - درساً بلغ حتى ذلك الحين منتهى الضآلة والصغر .

وعلى حين كانت الجماهير التعسة المنكودة تهلك في روسيا ، كان القمح يضيع بدداً في أجرانه على بعد بضعة مئات من الأميال ، وكانت السفن في أوروبا الغربية ملازمة للمرافئ لقلة المواد المشحونة ، وكانت مصانع الصلب حيث كان في الإمكان صنع القضبان والقاطرات — تقف جامدة لآحراك بها ، وكان الملايين من العمال عاطلين من الأعمال ، لأن أصحاب الأعمال قالوا « إنه ليس لهم شيء يعملونه » . وذلك بينما أصبحت مئات من الأميال المربعة في الجنوب الشرقي للروسيا صحراءً بلقاً من الحقول المهجورة ومن بلدان الموتى وقراهم .

ومع ذلك فإن الحكومة البلشفية استمرت قائمة وسط هذا الخراب الماحق . وأخذت الضرورة الداعية إلى الاعتراف بهذا النوع الجديد الغريب من الدولة ، والتعامل معه مهما خالفت طبيعتها طبيعتهم — تبدو بوادرها في الذهن الأوربي . ولما يزل العالم الغربي إلى يومنا هذا يصطرع وتلك الضرورة . ومسألة إيجاد الترابط بين نظام رأسمالي وبين نظام شيوعي يضمهما كوكب واحد أخذت فواصل المسافات الكبيرة تنعدم منه — لاتزال مسألة غير محلولة حتى وقت كتابة هذه السطور .

وأخذت الدعاية البلشفية وقد أدارت وجهها عن الغرب المعادي لها ، تبدو قدراً متزايداً من الرغبة في إرضاء الجماهير المدقعة في الهند والصين . وكان للبلاشفة على الدوام ناحيتان ، ناحية المتجهين نحو الغرب وهي تتجنح إلى استخدام العلم والمكينات والتنظيم الإنتاجي الكبير ، ويمثلها لينين وتروتسكي ، وناحية « المتجهين صوب الشرق » ولهم ميول عسكرية وبدائية وتصوفية ، وعلى رأس هؤلاء زينوفيف . وكانت سياسة الحكومتين البريطانية والفرنسية تبعث روسيا على توجيه دفة اتجاهها نحو الشرق على الدوام . ويلوح أن العالم الإسلامي قد أخذ متأثراً بمثال روسيا يسترد تطوره الذي طال الأمد على اعتقاله . وأخذ موقف الحكم البلشني حيال مدنات الأطلسي ، التي سادت العالم نيفاً وقرنين ونصفاً من الزمان يشابه بالتدريج موقف الإسلام . فإن كلا منهما اتخذ موقف التشدد الصلب والصمود الحاقد . ذلك بأن الدول الغربية المنقسمة على نفسها بما بينها

من منافسات ومصالح متناحرة ، لقيت كذلك مقاومة مطردة الزيادة لأساليبها واستغلالاتها في روسيا وتركيا وأفريقيا الشمالية وآسيا بأجمعها . فهذه المقاومة المجتمعة وهذه الطاقة المتداعية التي اتسمت بها الطعنة المضادة لها من جانب دول أوروبا ، تعطيك المقياس الحقيقي لكارثة ١٩١٤ - ١٩١٨ . فإن أيام السيطرة الأوروبية الغربية على العالم قد أوشكت على الزوال .

وفي ١٩٢٤ توفي لينين . وخلفه ستالين ، وهو رجل من أهل جورجيا قوى الروح طرد وأعدم الكثيرين من زملائه السابقين وبخاصة تروتسكى ذلك المنقذ المقنن للجمهورية السوفيتية في أحلك أوقات حاجتها . وتجلّى أن ستالين شيوعى متمسك بالشيوعية لا تأخذه فيها هواة ولا موادعة ، وأنه وطيد العزم على صد المجتمع الروسى عن الانزلاق نحو الرأسمالية أو المسيحية سواء . وقد حدث في إبان زعامته أن هُدم العدد الكبير من الكنائس وأن قاربت معاملته لليهودية الرسمية والعبادات المسيحية حد الاضطهاد . وكان لينين قد تساهل بعد ما أصاب البلاد ما أصابها من محن ١٩٢٠ - ١٩٢١ ، فاتجه إلى التسمح مع الملكية الخصوصية والمساعى الخصوصية وأوجدت « سياسته الاقتصادية الجديدة N. E. P. » حالة للأمر في روسيا تكاد تشبه حال الأمور في الولايات المتحدة الأمريكية قبل ذلك بمئة سنة . وشرع بعض الفلاحين وهم يستمتعون بحرية التجارة الجديدة يزدون في الثراء عن جيرانهم ويطلبون المنافع لعائلاتهم . ويسمى هؤلاء الفلاحون الأكثر ثراء باسم كولاك . وظهر التجار وصغار أصحاب المصانع وحالفهم اليسر والربح . وقد وقف ستالين مناهضاً لهذه العودة إلى عدم المساواة بين الناس . وتحاول الحكومة الروسية محاولة خشنة جداً أن تقضى على الكولاك الذين أنتجهم « سياستها الاقتصادية الجديدة » السابقة . ولقد كان الاتحاد السوفيتى بأكمله يعاني آلام تجربة عظيمة هي أوسع وأعجب تجربة لإعادة إنشاء الحياة الاقتصادية ظهرت في العالم على مر تاريخه كله . وهي تسمى مشروع الخمس سنوات وقد ابتدأت في أكتوبر ١٩٢٨ . فإذا نجح المشروع فلن روسيا تصبح في مدى خمس سنوات أرض مزارع ضخمة تديرها حكومة الشعب . وبها يصبح الفلاح عاملاً أى زارعاً أخلى

من ملكيته ، كما ظل شأنه في إنجلترا مدة قرنين ، ولكنه عامل يعيش في ظلال حكم شيوعى ولا بد من أن يُجعل بينه وبين العامل في المدن الصناعية تشابه وتماثل . ولا بد للاتحاد السوفييتى من أن يصبح منظمة منتجة هائلة تدير مزارعها من أجل الفائدة المشتركة .

وهكذا حدث أثناء السنوات السابقة للحرب العالمية الثانية ، أن اجتاحت روسيا ثلاث ثورات ، وهى تعيش تحت هيمنة مجموعة واحدة من الزعماء ، فلمها حاولت على التوالى أن تحقق أفكار المذهب الشيوعى وفكرات الاشتراكية المتحررة وفكرات رأسمالية الدولة المنظمة تنظيمياً صارماً .

٦ - دولة إيرلندة الحرة

خرجت الإمبراطورية البريطانية من الحرب العظمى مضعضة منهكة القوى مادياً ومعنوياً . فإن زهرة الشباب قد فُتت ، أو أضعفتها الجروح وشوَّهتها المعاناة أثناء العمل العسكى المذل . وأصبحت روتينات الحكم فيها وعادات الحرية فى أرضها باختلال عظيم نشأ عن تشريع الطوارئ الضرورى أثناء الكفاح ، واختلت صحافتها أسوأ اختلال بسبب توجيهها للدعاية . فإن الأخبار التى تروى عن المسائل الأجنبية قد داخلها فساد ملحوظ . وتعرض الجمهور العام لحملة من سوء الإعلام حول مسؤولياته قبل الإمبراطورية ، وفضلاً عن ذلك فإن ما ألم بالأعمال من جوائح مزلّزة شغلته حتى تعذر عليه أن يقسم للشئون الإمبراطورية نصيباً من عنايته . كان ذلك زمان فرصة سنحت للموظف الأحمق المعتر بذاته ، وكان يستفيد فى كل مكان أعظم الفائدة من نهزاته .

فكانت هناك فى كل مكان ، اللهم إلا فى تلك الأجزاء التى تحكم نفسها من قبل بنفسها - عملية متائلة تعمل عملها : وأعنى بها تسخّطاً يكاد ينتشر بصورة منظمة صادراً عن الشعوب المحكومة لما لقيت من ألوان التضييق والتنظيمات غير المعقولة والإهانات والاعتقالات التعسفية وما شاكل ذلك من التدخل فى الحركات . ففى كل مكان كانت طبقة العسكريين والموظفين خارجة على كل نظام وسلطان .

وفي كل مكان ظهر عنصر المحافظين (التورى) القديم بمظهر المكب على أحداث إنفجار .

وهذا الحال يصدق على كل من الهند ومصر وإرلندة على السواء . ففي تلك السنوات ، سنوات الإحمال وضعف الرقابة المركزية أثارت سياسة القمع ونكث العهود المقطوعة لأهالى البلاد ، والاصلاحات الوهمية الخداعة التى تهدف إلى تسكين هياج الضمائر القلقة بأرض الوطن (إنجلترا) ، نائرة الناس جميعاً ، (حتى السكان الهنود المسالمين أنفسهم) إلى درجة استشرفت العصيان . وجاءت فترة من الزمان كان التحذير واللوم يذهبان أدراج الرياح . وكانت الأساليب السمجة التى تستخدمها فى تجنيد الجنود إدارة الحكومة فى الهنداب سبباً فى انقلاب هذا الجزء من الهند من ولاية من أشد الولايات ولاءً إلى حال شديدة من القلق والاضطراب . وحدثت القلاقل ، وهجوم الأوربيون وقامت حالة تشبه حكم إرهاب الموظفين بلغت أوجها فى مذبحة أمريتسار (أبريل ١٩١٩) عندما أطلقت النار على جمهور كبير كان فى معظم أمره غير مسلح . فقتل ٣٧٩ شخصاً وجرح عدد يربو على الألف . ولم تبلغ أخبار هذا الاعتداء المنكر إلى ضمائر الجمهور البريطانى فى أرض الوطن حتى صدر تقرير هنر فى أخريات ١٩١٩ . وعند ذلك أظهرت العناصر الطيبة فى الحياة البريطانية أثرها ردهاً من الزمان . ومع هذا فإن طوراً مجديداً من الحكم يرمى إلى الصلح والراضى برئاسة اللورد ريدنج بوصفه نائب الملك قد أحبطته وادعت فساد آرائه عناصر الرجعية فى الحكومة البريطانية . وفى ١٩٢٢ حكم على المستر غاندى^(١) وهو مبشر بالمقاومة السلبية يشبه القديسين ، بالسجن ست سنوات ، وبذا صار أحد الشهداء .

(١) المستر غاندى (١٨٦٩ - ١٩٤٨) : ويلقب بالمهاتما أى الحكيم الأعظم . وشهرته أعظم من أن تحتاج إلى بيان ، فهو زعيم الهند الإجتاعى والسياسى . ولد بالهند ودرس القانون بلندن واشتغل بالمحاماة سنة ١٨٨٩ وفى سنة ١٨٩٣ أصبح محامياً بمجوهانسبرج . وهناك قاد حملة المقاومة السلبية ضد التفریق فى المعاملة بين الملونين والبيض ، وعاد إلى الهند سنة ١٩١٥ واستعمل طريقته تلك فى الكفاح ضد الحكم البريطانى . وظل يكافح ويقم العصيان تلو العصيان لا يرتد عنه حتى يراه أخذ ينحول إلى العنف - حتى وفق فى جهاده وظفرت الهند باستقلالها فى ١٩٤٧ . =

وتواصل نزاع مماثل لهذا في مصر. وكان يعوق النزوع إلى التفاهم ويحبطه. دافع غريب متسلط ينزع إلى القمع. ولكن أشد القصص إبلاماً وأدعائها إلى الأسى في كل هذا الثبت المحزن الذي يسجل على البريطانيين العجز وعدم الاقتدار في زمان سنحت فيه الفرص البديعة، هي قصة الثغرة المتزايدة المفرقة بين الشعبين الإنجليزى والإرلندى.

ففي أيام السياسيين الإيرلنديين العظميين المسماحين وأعني بهما الأخوين ريدموند، كان ما يزال يبدو أن في الإمكان أن تعيش كل من الجزيرتين إلى جانب أختها متعاونتين تعاوناً حراً تدفعه الرغبة، وفي حال من الوحدة الودية القائمة على المساواة على حين تتشاركان مسئولية بريطانيا في الإمبراطورية وتواجهان العالم معاً. فإن المسافة الدانية بينهما تتطلب مثل هذه الرابطة الوثيقة. فرخاء إرلندة وإنجلترا يشابه رخاء التوأمين السياميين اللذين يرتبط جسماهما برباط العروق والشرايين. ولم يكن ينبغي أن يسمح للأحقاد القديمة والفوارق الدينية أن تكون سبباً لمنع نشوء تعاون صحيح ذكى. ولكن الأمر لم يكن هو الأحقاد القديمة، بل إن الأحقاد الجديدة هي التي دفعت لإرلندة في طريق الانفصال. وقد أسلفنا عليك كيف أن السير إدوارد كارسون نابغة الشر في الشعوب البريطانية، أدخل الأسلحة لأول مرة إلى إرلندة ثم أيقظ وحرك عملية مرعبة من العنف والانتقام في البلاد، وكيف خدعت إرلندة في أول الحرب عن حكمها الذاتي، وكيف أن الحكومة البريطانية وعلى رأسها المستر آسكويث قد أهانت إرلندة إما عن عمية وغفلة أو عن قصد وتدبير، بإدخالها هذا الرجل الملطخ اليد بالدماء والتغريب بالأبرياء عضواً في حكومة الائتلاف. وأخبرناك كذلك كيف قمع العصيان في دبلن وأنزلت من أجله العقوبات، وكيف زاد ذلك في مرارة حفيظة إرلندة. ونتائج كل هذا صريحة واضحة على صفحة التاريخ.

= وكان يلعب من وراء الستار دوراً فعالاً في المفاوضات التي انتهت بالاستقلال في ١٩٤٧ م. وغازلت جهوده لصالح المسلمين بعض المتطرفة من الهندوك فاغتيل في نيودلهي ٣٠ يناير ١٩٤٨ م. (المترجم)

ففي ١٩١٤ نزلت إرلندة ساحة الحرب العظمى بساحة وإقدام كانبجطرة سواء بسواء . وكانت ما تزال بلداً منظماً ممدناً . وعند نهاية ذلك الكفاح كانت إرلندة قد أصبحت أرض فتنة نائرة لا تمسك إلا بالقوة القاهرة . فإن الاستعمار المتطرف قد أوتى رد فعله في صورة الوطنية المتطرفة . وكانت إرلندة قد غدت آنذاك مصرّة كل الإصرار على أن تصبح جمهورية منفصلة تماماً عن بريطانيا العظمى .

وأجيز في البرلمان البريطاني قانون حكم ذاتي جديد في ١٩٢٠ . وبه تأسس برلمانان منفصلان ، أحدهما في آلستر والثاني في الجزء الباقي من إرلندة ، مع وجود ترتيبات ترمي إلى التعاون بينهما وإمكان إدماجهما أحدهما في الآخر . وكان بالقياس إلى مشروعات قوانين الحكم الذاتي السابقة تدبيراً فيه شيء كثير من السخاء ولكن الإيرلنديين رفضوه بحذافيره .

فإن أعضاء حزب السين فين الذين انتخبوا أعضاءً في برلمان ١٩١٩ لم يقبلوا حتى أن يظهروا في وستمنستر لمناقشته . وفي الوقت ذاته كانت أساليب العصيان والتسخط من ناحية ، وسياسة القمع من ناحية أخرى تحوّل البلاد إلى مسرح لحرب العصابات ، فكان العصاة يغيرون ويكننون ويقتلون ثم تراموا في النهاية إلى أن أصبحوا يقاتلون في معارك صغيرة حامية الوطيس بفصائل صغيرة من الجنود . فأما الجنود الإنجليزية وكانت حسنة السلوك في البداية ، فإنها أغريت للفور وشجعت على الدخول في دور « الانتقام » بالمثل . ونظم بوليس إضافي خاص هو « السود والصفير »^(١) ميز نفسه بأساليبه الخشنة الشديدة .

وأخذ شر الاعتداءات يتفاقم نفاقاً مطرداً . فكان مقتل كل فرد في هذا الجانب أو ذاك يفضي إلى قتل أفراد . فإذا قتل جندي أو فرد من أفراد القوة الإضافية المسماة بالسود والصفير قتل نظيره فرد من الطرف الآخر ، ربما كان أو لم يكن له ضلع في الجريمة الأولى . وكان كل طرف في هذا التناحر يجهد أن يبذ أخته في القساوة .

(١) السود والصفير (Black and Tans) فرقة إضافية من الشرطة أنشئت لقمع ثورة الإيرلنديين ، وسُميت كذلك بسبب قلائبها وأساورها السوداء وبدنها الكاكي . (المترجم)

حتى تنهى الأمر إلى أن لم يعد أحد بمأمن في منزله ولا فراشه . فإن رجالا من أحد الحزبين أو الآخر ربما جاءوا بليل يطرقون باب أحد الناس بتهمة حقيقية أو خيالية . فكان الرجال يقتلون بالرصاص على أبواب منازلهم ، وسرعان ما تحول هذا إلى إعدام العائلات بأسرها . وفي ديسمبر ١٩٢٠ انفجر العسكريون انتقاماً من وقوع أحد عشر تلميذاً في المدرسة الحربية في كمين ، فأقدموا على القتل والسلب حتى لقد دُمرت أملاك يبلغ ثمنها ثلاثة ملايين من الجنيهات . وبديهي أن تتفاقم السرقات ويزدهر قطع الطرق في مثل هذا الجو .

وأصبح مشروع الحكم الذاتي قانوناً سارى الأحكام في ١٩٢١ ، وتكون بمقتضاه برلمانان لإرلنديان ، أحدهما للشمال والثاني للجنوب . وانتخب البرلمان الشمالى في وقته المعين ، وفتح الملك في احتفال فخم في ٢٢ مايو ١٩٢١ . ورفض أهل الجنوب قبول البرلمان الجنوبي فلم يجتمع أبداً ، واجتمعت في دبلن هيئة كونت نفسها بنفسها ، هي الدليل إيريان (Dail Eireann) ، معلنة أنها برلمان لإرلندة المستقلة ، ومنتخبة لكرسى رياستها المستر ديقالبرا الذى كان مؤسسها الأكبر .

وكان الملك قد ألقى في خطاب افتتاحه البرلمان الشمالى خطبة ملؤها التسامح والرغبة السلام . وانتهر المستر لويد جورج رئيس الوزارة البريطانية هذه المناسبة فدعا المستر ديقالبرا والسير جيمس كريج لحضور مؤتمر يعقد في لندن لبحث الشؤون الإيرلندية ، ودعى الطرفان إلى إنشاء هدنة عن العنف ، وهى هدنة نفذت على أحسن ما تسمح به حالة البلاد المضطربة ، وفي ١١ أكتوبر ١٩٢١ افتتح في لندن مؤتمر تباحث فيه المستر ديقالبرا وزملاؤه المختارون عن (الدليل إيريان) وعليهم بوجه خاص سيما رجال قادوا ثورة مسلحة إلى نصر مؤزر ، - مع ممثلى الحكومة البريطانية في موضوع مستقبل إيرلندة .

وكان هذا أمراً يسر كل إنجليزى مفكر سروراً يقارب جذل أى أمريكى في ١٨٦٣ لدى رؤيته جفرسون دافيز يتفاوض مع أبراهام لنكوان في واشنطن بشأن مستقبل ولايات القطن . ذلك أن انفصام لإرلندة التام عن بريطانيا ليس مجرد أمر ثقيل تأباه الأنفس فحسب ، بل هو أمر خطر جداً ربما كانت فيه الكارثة على كل من

البلادين . ولكن هذا الاعتراف الفعلي بالهزيمة كان برشامة ، سمح الرجل الإنجليزي لأصدقائه المختارين أنصار كارسون بأن يصنعوها له ، وكان عليه أن يزدردها على أحسن ما يستطيع من التجميل والوقار . وكان المشهد في هوايت هول^(١) في أكتوبر ١٩٢١ أثناء مؤتمر دوننج ستريت مشهداً عجبياً جداً . فقد رفع قدر عظيم من الرايات الإيرلندية والشعارات القومية الإيرلندية في حال تحدٍ ظاهر ، ولكن سلوك جمهور لندن لم يكن منطوياً فقط على التسمح بل تبدى فيه المودة والعطف .

وبعد مهاترات كثيرة وصل الطرفان إلى تسوية أقرها البرلمان البريطاني كما أقرها (الدليل لإيرلان) ، في كثير من التمتع والمقاومة . وفيها دانت إيرلندا في النهاية بالولاء للتاج البريطاني ، وتقيدت ببعض القيود البحرية والجوية وأصبحت كلها (فيما عدا آلستر البروتستانتية التابعة لحكم البرلمان الشمالى) ، دولة مستقلة هي دولة إيرلندا الحرة . وكان هذا نصراً عظيماً للتعقل والتبصر والرغبة في السلام . فاستقرت بذلك حرية قائمة وصيغت وحدة شكلية . ولكنها كانت تسوية مهددة من كلا الطرفين .

واعترض المستر ديقاليرا على المشروع لأنه يجزئ إيرلندا ولا يذل بريطانيا إذلالاً كافياً ، وحرص أنصاره على الثورة على الدولة الحرة الجديدة . كذلك بذل السير إدوارد كارسون وهو عند ذاك قاض برتبة اللوردية قصارى جهده — بالرغم مما ألفه القضاء من الوقار ، ليوثظ ويدكى روح العنف وسفك الدماء في آلستر . وكان من أثر هذا أن دولة إيرلندا الحرة كافحت في سبيل الحياة بصعوبة شديدة وعلى نغمت الطلقات النارية والصرخات المدوية في بهيم الليل . وكانت البلاد مليئة بالشبان الذين لم يتعلموا أية صناعة إلا حرب العصابات ، وكانت عادات العنف والإخلال بالنظام قد تمكنت من قلوب السكان ، وأعقب ذلك حرباً أهلية بين الجمهوريين وعلى رأسهم ديقاليرا وبين جيش الدولة الحرة .

(١) شارع رئيسى بين ميدان ترافالجار ودارى البرلمان يلتدن وتقع به معظم دور الحكومة - (المترحم)

ذلك بيان موجز لقصة انفصال أيرلندا عملياً عن إنجلترا . وكان كل ما عقب ذلك من أحداث يعمل على توسيع هوة الخلاف وتعميقها — وقد اغتيل الزعيمان ميشيل كولنز وكيثن أوهجنز ، وهما السياسيان الأيرلنديان اللذان لعلهما كانا يستطيعان رتقها . وتخلّى ديثاليرا عن الحرب الأهلية ووصل إلى مقاليد الحكم بالوسائل البرلمانية وكرس جهوده لزيادة الهوية اتساعاً . وصدر دستور جديد أعلن أن أيرلندا جزء من دولة جديدة أسموها «آيار Eire» ومعناها «التهديد» ؛ ومن حسن الحظ أن التهديد اقتصر فقط على اللفظ لا التنفيذ . ثم انتهز ديثاليرا فرصة تنازل الملك عن العرش في ١٩٣٦ والأزمة التي نشأت من جرائه لقطع كل علاقة دستورية له بالكومنولث البريطاني ، فيما عدا مسألة تعيين السفراء والمبعوثين الأيرلنديين باسم الملك . علماً أن هذه الرابطة كانت من الوهن بحيث استطاعت دولة آيار أن تلزم الحياد في الحرب العالمية الثانية ، واستبقت سفيرها في برلين ، وأعلنت تعزيتها الرسمية للألمان عند وفاة هتلر . ثم تمكن منافسوا ديثاليرا من إقصائه عن كرسي الحكم حين أنشأوا ضده ائتلاًفاً ، ولكن ذلك الائتلاف زاد في بتر العلاقة الواهنة الباقية .

إن هذه سلسلة الأحداث التي ينبغي أن تكون مصدراً لعيق القلق والأسف لدى الشعبين الأمريكي والبريطاني على السواء ، كانت نتيجة قسرية للطرائق التي استخدمتها الطبقة البريطانية الحاكمة إبان فترة ما بين الحربين في معاملتها للشعوب الخاضعة للإمبراطورية . وقد جاء أوانٌ بدت فيه الإمبراطورية البريطانية في صورة الأمم المنشئة لاتحاد كنفدرالي ومثالي مكون من شعوب حرة ، إما تتكلم الإنجليزية أو تتخذ منها لغة دولية عامة (Lingua Franca) ، وتطور تقاليد عظيمة واحدة مدارها الصراحة في القول والمعاملة الواضحة والعدالة في كل أرجاء العالم . وقد جاء حين من الدهر بدا للناس أثناءه أن هذه الشبكة الضخمة التي سيقوها التفاهم المشترك الذي يزداد في كل آن عمقاً والتعاون الذي يزداد على الأيام اتئافاً مع الولايات المتحدة الأمريكية ، ربما لعبت دوراً قائداً في ربط أجزاء العالم بعضها ببعض في وحدة تعظمهما جميعاً . وكم أطافت مثل هذه الأحلام بخيال كاتب هذه السطور نفسه ، ولكن المؤرخ

١٥١٧

ملزم أن يدون ما لديه من حقائق - والحقائق التي نسوقها هنا لا تسير هاتيك الأحلام إلا أسوأ مسيرة .

وقد أظهرت الأيام أن تعليم الطبقات البريطانية الحاكمة لم يبلغ من الانساع والسلامة القدر الكافي المناسب لما بين أيديهم من نهزات . فإن الرجال الإنجليز الذين بيدهم الأمر لم يبلغوا من بُعد الهمة وقوة الشخصية ولا من الحتمانية الحد الكافي الذى يؤهلهم للتبعات التى تصدوا لها وتولّوها . والعالم لا يستطيع أن ينتظر البريطانيين حتى يقودوه . وقد فشلت الشعوب الناطقة بالإنجليزية عن أن تطور المنظمة التعليمية والعظمة الخلقية التى تسوغ ادعاءها زعامة البشرية ، ومن ثم تهزأ النهزات والفرص بهم وتمر سراعاً . فإن الأجناس والشعوب التى كانت فى يوم من الأيام تلميذاً للمدنية الغربية مريداً لها وراغباً فيها اخذت الآن ترسم لنفسها نهجاً جديداً من التجريب وتفكر على أسسها الخاصة بها . ويتسع ميدان التقدم ويأتى يوم يجب أن يقنع فيه أولئك الذين كانوا هم القادة فى زمان ما بأن يسايروا سائر الناس .

٧ - الشرق الأقصى والأدنى

(١) الصين : أشرنا فيما سلف إلى سقوط أسرة مانشو فى الصين فى ١٩١١ . ويدل هذا على إدراك الذكاء الصينى للطبيعة الرثة التى عليها نظامهم الإمبراطورى العهد . لذا لم يترددوا فى نبذ الرداء القديم . ولكن أننى لم الرداء الجديد الذى أعدوه لترتيبه بلادهم . فإن الجمهرة الكبرى من السكان ظلت فى سبيلها الذى ما فتئت تسلكه قرناً بعد قرن ، أمة منتجة للنسل فقيرة مسالمة ، محافظة على القديم ؛ ومن فوق هؤلاء كانت الأقلية المتعلمة تكافح محاولة أن تكشف نظاماً جديدة ذات كفاية تحلها محل الحكومة العليا التى شاخت ثم تلاشت من الوجود .

وانتشرت فى الجنوب مبادئ جمهورية ترتجى صبغ البلاد بالروح الغربية تحت

زعامة الدكتور صَن يات سِن^(١) . وكانت الحكومة الجديدة التي أقيمت في بكين جمهورية برلمانية شكلاً . إلى أن القوة الحقيقية كانت في يد صاحب التصرف في قوات البلاد المسلحة ، ولاح في الأفق ردحاً من الزمان احتمال نشوء أسرة مالكة جديدة يؤسسها موظف عظيم ورجل دولة كبير هو يوان تشيه كاي . والواقع أن الملكية أعيدت بالفعل في ١٩١٥ ، ولكنها ما لبثت حتى تلاشت ثانية في السنة التالية . ولعب اليابانيون دوراً دبلوماسياً فيما لم يكن مناص من حدوثه بين الصينيين من خلافات . فكانوا يناصرون هذا الحزب أولاً ثم ذاك ، تحدوهم سياسة عامة هدفها منع الصينيين من أن يعيدوا بناء دولتهم الناهضة بناءً قوياً متماسكاً .

وانضمت الصين إلى الحلفاء ضد ألمانيا في ١٩١٧ انضماماً متأخراً غير ذي أثر ، مؤملة أن تظفر من وراء ذلك بمركز دولي تقاوم به ضغط اليابان العدائي عليها . وازداد تاريخ الصين يوماً بعد يوم اضطراباً منذ وفاة يوان تشيه كاي . فإن عدداً من القواد العسكريين وثبوا بمناطق فسيحة وأخذوا يتنازعون فيما بينهم على السلطة العليا . وقامت بالصين حكومات متنافسة كانت كلها ترسل السفراء إلى أوروبا ، وأخذت الولايات المتحدة واليابان والدول الأوروبية الكبرى تدبر المؤامرات المعقدة وتنصر هذا الرجل أو ذاك . وفي نفس الوقت واصلت الحياة العامة مسيرها في السبل التليدة المكرمة التي كانت على أيام الأجداد ، ولكن ظهرت تطورات جسيمة في إنتاج المصانع وأعمال البنوك . وأصبح التعليم عصرياً . وأجريت التجارب في تبسيط الخط والكتابة . وإن هناك شيئاً يهز خيال المؤرخ هزاً عميقاً في شهوده هذا العدد الضخم من الناس وهو يحل الروابط القديمة لكيانه الإداري ويحاول في عماية وتحسس لطريقه أن يبحث عن- فرجة يصل بها إلى الاحتمالات الجديدة الكامنة في التنظيم الاجتماعي والقوة الحشدة .

(١) عن هذا الموضوع وعن تاريخ الشرق الأقصى بأكمله وعث الاستعمار الإجماعي به انظر للمترجم كتاب « آسيا والسيطرة الغربية » للردار بانيكاز - طبع للمؤسسة المصرية للتأليف والترجمة والطباعة والنشر . (المترجم)

وقد قضى على الصين بعد فتن البوكسر بأن تدفع تعويضات باهظة للدول المختلفة التي أصيب رعاياها في هذه الفتن . وقد تجاوز الأمريكيان - في شيء عظيم من الحكمة - عن هذه التعويضات على شريطة أن تخصص للتعليم ، وأرسل عدد ضخم من الطلاب الصينيين إلى الجامعات الأمريكية بوصف كونهم بواكير ثمار هذه الفكرة الكريمة . وكان الفرنسيون أميل إلى إنشاء البنوك ومشروعات السكك الحديدية . ووجه البريطانيون واليابانيون نصيبهما توجيهها غير واضح مقسما بين أعمال التعليم والصحة والاسعاف وبعض الأعمال الاقتصادية النافعة .

وقد نجاء أوان بات محتملا فيه أن يصبح الأمريكيون آباءً روحين للصين . بيد أن الجامعيين الشبان الذين كانوا يعودون من الولايات المتحدة وقد امتلأ وطاهم علما غزيراً بالثقافة الغربية ، وبالتقدم الصناعي الغربي ، أصبحوا جميعاً بلا استثناء من أتباع الفيلسوف الصيني صن يات سن ، الذي سبق ذكره . وانقضى رديح من الزمن أصبح فيه الدكتور صن كمعلم وفيلسوف ، على نفس أهمية لينين لدى الروس . وظل الناس ربع قرن يقرؤون « وصيته » في المجتمعات العامة كأنما هي إحدى الشعائر ، وينحنون أمام صورته ، ويسلمون بأن « مبادئه الثلاث » هي الأساس الذي يقوم عليه كل برنامج سياسى . وهذه المبادئ الثلاث هي : (١) - الوطنية ، ولم يكن يعنى بها الوطنية العادية ، التي أهلك الحرث والنسل بأوروبا وآسيا ، ولكن يقصد بها إحلال الإخلاص للمجتمع محل الإخلاص للعائلة ؛ وقد وجد أن لامندوحة له في ذلك الزمان وهو ببلاد الصين من أن يدخل في هذا المبدأ الأول فكرة الحاجة إلى حرمان الأجانب من امتيازاتهم . (٢) - الديمقراطية ، أى حكم الشعب بما في ذلك النساء اللاتي كان يفترض حتى ذلك الحين أنهن جنس أدنى من الرجال ؛ (٣) - العدالة الاجتماعية أو كفالة وسائل العيش للناس جميعاً ، وهى تعبير صيني من العسير ترجمته . وكان ثمانون بالمئة من الشعب الصيني من الفلاحين ، وكانوا جميعاً بلا استثناء تقريباً مدينين للمرابى أو لصاحب الأرض أو لهما كليهما . وربما كانت العبارة مبهمة ؛ ولكن معناها لم يكن ليخفى على أوساط الناس بين الصينيين ولا على الدكتور صن .

ولم تكن مبادئ الدكتور صن بعيدة كثيراً عن مبادئ نيقولاى لينين ، ولا كانت شقة الحلف بعيدة بين حاجات الثوريين الصينيين والروسين . وما أسهل ما توصل الطرفان إلى إتفاق ، وفى ١٩٢٤ تولى عضو بالحزب الشيوعى الروسى هو ميخائيل بورودين مساعدة الدكتور صن فى تنظيم الكومنتانج ، وهى حزب تأسس على مبادئ الثلاثة . وفتحت للحزب فروع محلية وفرض عليه نظام دقيق والتحق به العمال والفلاحون ونظم منه فصيلة عسكرية بكانتون (وهى المدينة الكبرى الوحيدة التى كانت تحت سلطان الدكتور صن) تحت قيادة ضابط صينى شاب اسمه تشيانج كاي شك . على حين أن بقية الصين كلها كانت تحت سيطرة « أمراء حرب » شأن بريطانيا لإبان حكم الممالك السبع^(١) : لذا لم يعبروا أى النفات لما كان يجرى فى الجنوب . وانقضت بضع سنوات وأسماء مثل ين و (وو Wu) وفنج ولو تشانج تطرق الأسماع كأنما لها شيء من الأهمية ؛ وقام فى بكين ظل للحكومة مهمتها تغطية عملياتهم الحربية ، ولكن لم تكن لديها السلطة الكافية لإيقاف الحرب بينهم عندما يختارونها لهم سيلا . وفى ١٩٢٦ أحس الكومنتانج وقد أعيد تنظيمه أن لديه القوة الكافية للتصرف وإياهم . فإن جنده المدربين حديثاً قضوا على جند أمراء الحرب المتدمرين العديمى التدريب والكفاية ؛ فكان « الماريشالات » يسقطون كأعواد الهشيم . ولم تنقض بضعة شهور حتى أصبح جنوب الصين بأجمعه فى أيديهم . وكان لابد لهم للوصول إلى الشمال ، من الاستيلاء على حوض نهر يانج تسى كيانج ، وهو النهر العظيم الذى كان يعتمد عليه الشطر الأعظم من التجارة الصينية ويحول دون التغلب عليه عقبة كأداء وعدو أشد رهبة من الماريشالات هو الأجانب . وكان البريطانيون أشد هؤلاء الأجانب بأساً وصلفاً . وقد نظم الكومنتانج عليهم حملة مشددة لمقاطعة التجارة دامت بضعة أشهر . ومرت لحظة عصيبة حين استولى الكومنتانج على هانكاو ، وهى المدينة المثلثة الهائلة الواقعة

(١) الممالك السبع (Heptarchy) : يعتقد بعض الناس أنه مرت على إنجلترا فترة تقسمت فيها إلى سبع ممالك : وسكس ، سسكس ، كنت ، إيسكس ، إيست أنجليا ، مرسيا ، فورمبيريا . وهى التى يرد ذكرها فى أدب شكسبير . (المترجم)

١٥٢١

بعيداً في أعلى اليانجسى ، وكان بتلك المدينة « منطقة امتياز » بريطانية ، ولكن الكومنتانج أوضح بما ليس وراءه شك بوسائل الاضراب والتهديدات المسلحة أنه لم يعد للرقابة الأجنبية بقاء بالصين . ومن حسن الحظ أن الحكومة الإنجليزية كانت أعقل من « رجالها القدماء بالصين » الذين كانوا يكتبون المقالات بالصحف مطالبين بالحرب : ففتحت باب المفاوضات وسلمت للصين « مناطق الامتياز » هانكاو وكيوكياج . لقد هزم الأجنبي وانتهى أمره . وزحفت جيوش الكومنتانج شمالا واستولت على بكين بقيادة تشيانج كاي شك الذى تزوج من شقيقة زوجة الدكتور صن . وعندئذ لم يبق بالصين من أمراء الحرب سوى تشانج الذى كانت فى يده إمارة منشوريا المنعزلة . وكان إلى الجنوب منه بالضبط الجنرال فينج وهو « قائد مسيحي » كانت له فى يوم ما شهرة واسعة (ويقال إنه عمده جيشه على المسيحية بفتح خرطوم المياه عليه) فأعلن اعتناقه التام لمبادئ الكومنتانج .

ولكن كتب التحطم على الأمل فى وحدة الصين وسلامها ، إذ أن الدكتور صن مات فى ١٩٢٥ . وفى ١٩٢٧ رأى زعماء الشيوعية الدولية أنه قد آن الأوان للقيام بالخطوة التالية (وهى خطوة ضرورية منطقياً من وجهة نظرهم) وأعنى بها خطوة الانتقال بالبلاد من حكم الكومنتانج القائم على السيطرة المبلبلية « للبرجوازية الصغيرة والفلاحين الملاك » إلى الدكتاتوية البروليتارية . ويقال إن بورودين نفسه قد احتج على ذلك هو وأرملة الدكتور صن ؛ ولكن ذلك لم يغن فتيلاً . وبدئ بالمحاولة التى أقاموها على نقابات العمال المشاغبة التى أنشئت حديثاً ؛ وكان جواب الجنرال تشيانج كاي شك ساحقاً قاضياً . وكانت هانكاو عند البداية فى قبضة الثوار ، على حين جعل الجنرال قاعدته فى عاصمته الجديدة نانكين . ولم تنقص بضعة أسابيع إلا وقد صار الشيوعيون أشلاء متناثرة وأصبح تشيانج قابضاً على الجهاز الحكومى الصينى بأكمله . ولكن القبض على الجهاز الحكومى شىء والقبض على الصين ذاتها شىء آخر ، ولو أن تشيانج نفذ « المبادئ الثلاثة » لسارت الأمور على خير ما يرام ، بيد أنه اضطر فى سبيل القضاء على ثوار هانكاو إلى الإعتماد على الطبقات القديمة من

أرباب الأملاك والموظفين وأصحاب الأعمال ، وعندئذ أصبح من المحال عليه أن يدعى أنه يقوم بثورة اجتماعية .

وأنشئت الطرق ومدت أميال عديدة من خطوط السكك الحديدية وبدى في إنشاء المصانع وتم قدر عظيم من المشروعات التعليمية وساهمت الدول الأجنبية في المشروعات واستمرت رؤوس الأموال الأجنبية . ولكن الفلاحين لم يتخلصوا البتة من ديونهم (فضلا عن الإيجارات) ووجد عمال المدن أن الحكومة تحظر عليهم كل جهد يبذلونه لتحسين أحوالهم عن طريق اتحادات العمال ونقاباتهم . أما المبادئ الثلاثة ، فإن الشعب الصيني حصل من الكومنتانج على شيء قليل من « المبدأ الأول » وهو : (الوطنية) ، أما الأجنبي فأعيد بشدة إلى مكانه الأول ، كما أن عبادة العائلة قد أبطلت بعض الشيء . وبقي النذر اليسر من المبدأ الثاني (: الديمقراطية) ، وذلك لأنه رغم أن الصين صارت جمهورية يعامل فيها النساء معاملة لا بأس بها ويستمسك القوم فيها ببعض الشعارات والسنن الديمقراطية ، فإن الدولة لم تكن في الواقع إلا دكتاتورية حزبية يرأسها الجنرال تشيانج كاي شك ؛ ولم يبق أى شيء من المبدأ الثالث (: العدالة الاجتماعية) . ووجد الشيوعيون المنهزمون كثيراً من الأعوان والأنصار بالقرى وتهاياً لهم أن ينشئوا بولايي كيانج سى وهونان المركزيتين وحدات حاكمة تمكنت في مدى عدة سنوات من تحدى محاولات تشيانج للقضاء عليها ، ويرجع ذلك إلى أن الحزب الشيوعي تعلم أثناء الأزمة المدمرة التي مرت به كيف يصغى لمطالب الفلاحين ولا يأبه كثيراً بنظريات معهد ماركس لإنجل بموسكو . وقد حالت هذه الوحدات الحاكمة فضلاً عن حرب العصابات التي تكاد تفوقها في تقدير صفو الحكومة — دون تمكنه من تحويل الصين إلى دولة موحدة . وبقي بعد هذا كله قائدان من أمراء الحرب ؛ أولهما تشانج الذي كان مستقلاً استقلالاً فعلياً بمنشوريا ، وثانيهما الجنرال المسيحي الماكر فنج ، وقد تمكن من جعل جنده في قبضة يده شمالي بكين . ولم تكن هذه الأمور ذات خطر كبير ما استمتع العالم الخارجي بالسلام .

(ب) اختار الإسلام : كان نفس ارتشاح الأفكار الغربية وأساليبها وتطبيقاتها ، الذي ترتب عليه تقويض مدينة الصين العتيقة يعمل عمله في كل أرجاء الشرق الأدنى

بقوة تزايد كل يوم منذ الحرب العظمى . إذ يلوح أن ذلك السبات الطويل المنطوى على القدرية وعدم التسمح الذى ران على الإسلام قد أخذ يقترب من نهايته . فإن العالم الإسلامى يستخدم الآن الصحف والتلغراف واللاسلكى والتطبيقات التعليمية العصرية والدعاية العصرية . وقد أسلفنا عليك شيئاً عن نهوض التركى بعد هزيمته ، وعن وحدة العرب المؤقتة . وإنا لنلحظ فى إيران اشتداداً فى مقاومة الإسلام لاستغلال الغرب المجرد .

وكانت إيران قبل الحرب العالمية الأولى مرتعاً خصباً يجد فيه قنّاصو الديبلوماسية الأوربية كل ما يشتهون من الصيد ، ويجد الرجال والنساء من سكانه أنكد مكان للعيش . وكانت روسيا تضغط على القطر التعس من الشمال . وتضغط عليه بريطانيا من الخليج الفارسى ، وبذلت كل واحدة منهما كل ما تستطيع لإضاعة الثقة بالأخرى وإيقاع الأذى بها . واكتشفت فى البلاد موارد عظيمة للبترول ومن ثم أخذت الدوائر الأمريكية المهتمة بالزيت تروء طرقاً منحرفة من التحريض والمناصرة . وكانت للبلاد أمسوخة لحكومة برلمانية أوربية برياسة الشاه ، على حين أن القوة الحقيقية كانت تنتقل بين أيدي رؤساء إقطاع يتخاطفونها . فكان أحدهم يغير على الآخر ويقتله . وكان الروسيون قد وضعوا فى البلاد لواء من القوزاق ليكون فى طاعة الحكومة إسمياً وإن رموا منه فى الواقع إلى السيطرة عليها . وأنشأ البريطانيون هيئة مقابلة هى شرطة النظام^(١) ضباطها من السويديين ، كان مفهومها أن لها سمة دولية . وكانت هذه الهيئات المتناحرة تعيث فى البلاد فساداً وتقتل الآمنين باسم النظام الأوروبى . ولم يفت الألمان أن يدبروا المؤمرات بواسطة الأتراك بغية القضاء على كل من البريطانيين والفرنسيين .

وكانت حماية خطوط أنابيب الزيت أو تحويلها أو تدميرها هى قطب الرعى فيما يدور حوله الموقف من خطط استراتيجية معقدة . وكانت الحرب العظمى فى إيران

(١) فرقة شرطة النظام أو الجندرية (Gendarmerie) : فرقة من الجنود المسلحين تقوم كلكوات الخفر والنظام بمصر بضبط الأمن وبعض الأعمال البوليسية . (المترجم)

قصة غارات وزخوف للجنود واستيلاء ومغامرات يقوم بها القوزاق تارة والألمان حيناً والبريطانيون حيناً آخر وقوات القبائل من الأهالي طوراً . وكلما تأرجح النصر بين الألمان وخصومهم كان الإيرانيون الذين لم تكن تعنيهم هذه المنازعات الأوربية في كثير ولا قليل ، يسترضون البريطانيين أو يهاجمونهم . وأقام البريطانيون دهرأ بعد الحرب وهم أصحاب الكلمة الأولى في فارس ، ولكن مركزهم بدأ في ١٩٢٠ يهدده تهديداً خطيراً غزو بلشفي أعاد سابق الضغط القديم الذي كان يمارسه النظام القيصري . ولكن روحاً أوفر قومية وأكثر استقلالاً عن أوضاع الدبلوماسية أخذ يثبت وجوده على التدرج . وذلك أن الوعي القومي الإيراني أخذ يترعرع ، وأن هيئة الغرب أخذت تذوى . وظهر رجل قوى هو رضا خان ، وأمسك بزمام الحكومة في ١٩٢١ ، محتفظاً برياسة الشاه الإسمية . ثم عقد مع روسيا السوفيتية تحالفه ركزت البلاد على أسس من استقلال أعظم وأكبر مما كانت فيه أمد سنوات عديدة . وفي ١٩٢٦ تخلص من الشاه وحل في العرش محله ، وهو عمل لم يغير الوضع إلا بالإسم فقط .

ومن فارس شرقاً إلى ساحل مراكش على الأطلسي ، على كامل امتداد خط التماس بين عالم المسيحية القديم وبين العالم المحمدي ، تظهر هذه السنوات التالية للحرب حالة معقدة من المنازعات والشغب بين الإسلام والدول الغربية وتبدى في الجانب الإسلامي مقداراً أكبر كثيراً من التماسك ووحدة الغرض ، بل لقد أبدى ذلك الجانب في النهاية وحدة في العمل أقوى وأبرز مما أبداه الجانب الغربي . فأما الدول الأوربية فقد عييت عن الخطر النامي المهدق بها ، ومن ثم فهي تواصل الكيد لإحداها للأخرى على نفس منوالها القديم المتبع في القرنين السابع عشر والثامن عشر . فقد ازدهر الاتجار في الأسلحة إما علانية أو خفية وأخذ الاحتفاظ بولاء الجنود البلديين يزداد صعوبة من يوم إلى يوم .

ففي مراكش واصلت أسبانيا حرباً باهظة النفقة لانهاية لها ضد عصيان محتشد يزود بالسلح الأوربي والأمريكي . وكم من مرة ألت بهم الكوارث والتهقورات والانسحابات ، وارتفع شخص بعينه اسمه عبد الكريم إلى مرتبة الزعامة في

١٥٢٥

الريف . وفي نفس الحين كانت فاس بيد الفرنسيين الذين مدوا سلطانهم وثبتوا أملاكهم إلى جنوبى أراضى قبائل الريف ، ممتنعين عن إسداء أى تعاون مع الأسبان حتى انقلب عبد الكريم فى ١٩١٥ يصبوب مدافعه وبنادقه عليهم ويشير إلى احتمال بدء حرب طويلة خطيرة .

وسرعان ما بلغ عدد الرجال المشتغلين بتلك الحرب فى الجانب الفرنسى مئة وعشرين ألف رجل ، وأنتج قع الفرنسيين للثورات فى مراکش صدى فى أراضى الانتداب السورية . فإن الدورز^(١) ثاروا على الفرنسيين وأوقعوا بهم خسائر بالغة . وامتنع السكان العرب عن معاونة الفرنسيين وأصبحوا مصدر خطر عليهم . وأصبح الخطر على فاس خطراً على دمشق أيضاً . وإلى الجنوب استطاع العرب الوهايون أن يرغموا ملك الحجاز الذى يحميه البريتانيون على التنازل عن العرش (١٩٢٣) ، وأن يدفعوه إلى المنفى . فاستولوا على مكة ومدوا سلطانهم فى تودة ورسوخ قدم فى الأراضى الحجازية المرموقة . وقامت بمصر اضطرابات لا تنقضى ، فإن المصريين تحت الحكم البريطانى كانوا أشبه شىء ببلن يغلى فى إناء مسبل الغطاء .

وفى كل مكان من العالم الإسلامى راحت إيطاليا وفرنسا وبريطانيا وألمانيا تقضى على الهية القديمة للعالم الغربى بما تقوم به أجهزة دعاياتها من نشاط وتسثير فى الإسلام وعيا ذاتيا جديدا . وأخذ الأتراك والعرب والمصريون والهنود المسلمون يتباحثون معاً فى الامبريالية الغربية ، واكتشفوا أن لهم مصلحة مشتركة فى القضاء عليها . وقد خفف للوقت الضغط الذى كان متسلطا على الفرنسيين فى مراکش ، ويرجع ذلك إلى مارزقه الماريشال ليوتى من عبقرية عسكرية وإدارية ، فأسر عبد الكريم وأرسل إلى المنفى فى ١٩٢٦ . فأما الحكومة البريطانية

(١) إن الذى حدث فى الواقع هو أن الجنرال سراى الفرنسى دعا إليه زعماء الدورز ثم اعتقلهم فجأة وغدرا ، وفيهم عبد الغفار باشا الأطرش فثار الجبل كله بقيادة سلطان باشا الأطرش . (المترجم)

فإنها اتبعت عاداتها القديمة من الرضوخ غير الكريم والإذعان تحت الضغط للشىء الذى كان ما فطر عليه التحرر الطبيعى لمواطنيها الإنجليز من الميل الى التفاهم وحسن النية مستعدا للسباح به عن طيب خاطر . فقبلت بعد كفاح دام طويلا بينها وبين زغلول باشا والهيئة الوطنية التى تكونت بمصر وسميت باسم الوفد المصرى ، إلغاء الحماية البريطانية على مصر وسمحت بإعلان استقلال مصر فى (١٩٢٨)^(١) وجعله حقيقة فعالة . فحلت محل الحماية القديمة معاهدة تحالف هجومية دفاعية وضع مشروعها أولا فى ١٩٣٠ ووقعت فى (١٩٣٦) ، وبها أصبح فى الإمكان دخول مصر عضو بعصبة الأمم بوصفها دولة مستقلة ذات سيادة . وتعقد الموقف على البريطانيين فى شرق البحر الأبيض ، لأن وزارة الخارجية البريطانية أصيبت فيما يتعلق بالمسألة الفلسطينية بداء الشيزوفرانيا (الفصام النفسى) ، فأخذت تعطى الوعود المتناقضة للعرب واليهود الصهيونيين جميعاً . ومما يشهد بتفوق الادعاء التاريخى وتغلبه على الحقيقة الواقعة ، أن يتوج بالنجاح كفاح طويل ومعقد قام به فرع معين من المجتمع اليهودى فى العالم كله ، للعودة إلى بلد انقطعت صلته ولو الاسمية باليهودية منذ أيام الملك ألفريد الكبير (انظر الفصل ١٨ قسم ٢ ، ٣) ، بلد أعظم الاحتمالات أن الغالبية العظمى من أجدادهم لم يعيشوا فيه مطلقاً . ومن عجب أن مسألة قيام دولة إسرائيل الصغيرة الناطقة بالعبرانية أصبحت لدى عدد ضخم من اليهود العصريين الذين جمع التلمود وأسفار العهد القديم شملهم فى مجتمع واحد من العادات والسلوك والمعاونة المتبادلة — أصبحت من الأهمية القصوى بحيث غطت فى عقولهم تماماً على احتمالات أعظم من ذلك كثيراً ، هى احتمالات توحيد العالم التى تواجه البشرية . ومما يزيدنا أسفاً على ذلك الوضع ، ضياع رصيد الطاقة الفكرية الهائل والتعاون العالمى الرحب الذى تحول بهذه المسألة عن سبيل الخدمة العامة للبشرية . فإن الصهيونية جعلت اليهود يقفون بمعزل تام عن واجب بث الطابع العصرى فى المجتمعات السامية والإسلامية الأخرى ، التى ربما كنا نتوقع منهم أن يقوموا فيها بدور يتسم بالوداعة التامة . إلى لأكتب هذه التعقيبات الواضحة هنا وأضعها إلى جوار

(١) الصحيح أن ذلك كان فى ٢٨ فبراير سنة ١٩٢٢ . (المترجم)

انتقادات لى أشد قسوة وتعنيفاً لأفكار البريطانيين وأساليبهم . ويقبى أنه لن يقرأها يهودى واحد من المنمرسين بالصهيونية دون أن يصاب بالحق الشديد والاستياء المرير والاثام لى بأى داعية شرير من دعاة « السياسة البريطانية » .

٨ - الديون والنقود والتثبيت النقدى .

أسلفنا إلك فى بياننا عن الثورة الفرنسية ، بحثاً فى العلاقات الأولية بين الائتمان والنقود وبين الحياة الاجتماعية . ولكن التزعزع الاجتماعى الذى ورثته فرنسا عن الثورة والحروب التى نجمت عنها ، كان تافها بالقياس إلى التخلخل الهائل بعد الحرب العظمى . فالجتماع فى نهاية القرن الثامن عشر كان من جميع نواحيه مجتمعاً أشد بساطة وأكثر استقلالاً من الجتماع الأوروبى العصرى المعقد النسيج . وكانت حياته الاقتصادية والاجتماعية محصورة بين دفتى حدوده . ولكن الصعوبة الخاصة فى الموقف العصرى ، هى أنه بينما العلاقات وردود الأفعال الاقتصادية ، قد تسامت من أمد طويل على تخوم الدول القائمة ، بسبب التغير الضخم فى وسائل المواصلات ، وعلى حين أن فى الإمكان اليوم نقل السلع الغذائية الرئيسية والعمال كتلة وجملة من أى جهة فى العالم تقريباً إلى الأخرى — وهو أمر لم يشهد الناس له من قبل مثيلاً إلا فى المؤن المرسلة إلى روما الإمبراطورية — كان الرجال لا يفتأون يتعلقون بالأقسام السياسية الصغيرة ، والدول المنعزلة ذات السيادة ، المؤسسة فى ظلال الأحوال البائدة .

والحق إن التضليل والأوهام التى تساور الناس حول السيادة القومية وما يلازمها من ألوان التعصب نحو « الله والملك والوطن » وما إليها ، هى أفضع الخرافات الناشطة الأثر فى الناس فى هذا الزمان . ولا بد لكل دولة من أن تكون حرة فى تكوين نقودها الخاصة بها ، وتنظيم ائتمانها ، وإعاققة مرور وسائل المواصلات فى أرضها وإقامة حواجز من التعريفات لإيقاف فيض التجارة . ولا بد لكل منها أن تستدين ديونها الخاصة وأن تظل على ما هى عليه من الوقوف فى سبيل الغير وإظهار العدواة له والتسلح التام ضد جيرانها المماثلين لها مماثلة جوهرية . ولا بد لكل منها من إقامة

نظامها التعليمي الخاص ، ومن تعليم النشء فيها تاريخاً متحزباً كاذباً ، وبث غرور قومي مسمم وعداوة للأجانب سامة في كل جيل جديد .

وكانت العقبي التي عادت على أوروبا من تلك اللعنة الموروثة : الدول ذات السيادة ؟ التي لا يربطها فيما بينها اتحاد ، — تفاقم تعقيدها بسبب الموقف الدولي الخرج الذي ظهر عندما تكررت في أوروبا على صورة أضخم كثيراً بعد الحرب العظمى ، عملية الارتباك والانهاك الاقتصادي التي أصابت فرنسا بعد الثورة الفرنسية . لقد عض الفقر كل دولة ، ولكن كل دولة كانت قد جمعت حساب الديون التي لها على كل دولة أخرى مقابل المساعدة القومية في الحرب التي كانوا فيها حلفاء ، كذلك فرضوا على المغلوبين فريضة من ديون خيالية مضحكة . ومع أن الولايات المتحدة كانت في المدة الأخيرة من الحرب العظمى خصماً لألمانيا ولقيت من الآلام أقل من أية دولة أوروبية لها أصبح في الموضوع ، فإن الدخائر والميرة الأمريكية قدمت لكل حلفائها بثمن باهظ مبالغ فيه ، فكانت أوروبا لذلك مدينة عند ذلك لأمريكا ديناً يعقد الألسنة دهشاً .

ولا شك أن الرفض الصريح لمعظم ديون الحرب ومدعيات الحرب هذه كان خيراً ما يصفى الجو في العالم بأكمله ، ولم يكن شيء يستطيع أن يتذرع بالقدر اللازم من الجراءة والصراحة إلا حكومة اتحادية قوية في أوروبا . ولكن لم تكن لأوروبا حكومة اتحادية ، ولا سياسيون عالميون ولا قادة رحيب الفكر ، بل كان هناك كل ضيق الأفق من الملوك ورجال الدولة والسياسيين وزعماء رجال الأعمال الذين يعتمدون على التعريفية الجمركية ، والصحف المحدودة الأفق القاصرة نظرتها على لغتها ومناطق توزيعها ، والمعلمين الذين تعولهم الدولة ، والجامعات القومية وجماعات المالبين « الوطني النزعة » ؛ وكل كان ينخلع فؤاده فرقاً لجرد التفكير في أي نظام أكبر من نظامهم يحو المزايا الشخصية العميقة التي ينعمون بها على حساب الدولة الأوربية الحرة (Commonweal) . إنهم ليرفضون أن تكون لهم أوروبا مشتركة . وإنهم ليأبون أن يسمعوا في ذلك كلمة واحدة . وإنهم ليفضلون أن تموت أوروبا على

أن تزول قومياتها . وكأني بهم ذباب يقع على كومة من قاذورات ويأبى إلا أن تبقى .
ليستمتع بها ما ساعفه الاستمتاع .

وهكذا فإن أوروبا إلى الغرب من روسيا دخلت من الناحية السياسية في د
تقمصت فيه شخصية شاييلوك^(١) ؛ فإن الخبط المدبرة لتسديد ديون الحرب الخيالية
هذه كانت تستنفد الطاقة الذهنية بأكملها للرأى العام ؛ وفي نفس الوقت اتبعت
كل دولة ذات سيادة طرائق خاصة بها في شئون النقد . وحلت كوارث الفقر
ومحنة بكثير من الناس ، وأثرى الكثيرون ثراء فاحشاً خيالياً عن طريق المضاربات ،
ولاح للناس أن إنفاق النقود أصوب من جمعها . فلن توقف إنشاء المنازل للناس
العاديين ، فلم يكن هناك ما يحول دون بناء وتحسين فنادق الترف . ولم يحدث قط
في أوروبا مثل هذا الاقبال الشديد على الرقص ولم يحدث قط مثل ذلك الاهتمام الكبير
بإقتناص اللهو واللذات . وكان وجه أوروبا يتوهج بحمرة الحمى المهلكة .

وجاء انهيار النقد في روسيا أولاً . وهناك شجعت الحكومة الشيوعية
ورحبت به . فأخذت المطابع تنتج الروبلات بلا حساب ، وهبط التبادل وارتفعت
الأسعار حتى أصبحت البيضة أو التفاحة تباع بعشرة آلاف روبل . ولم يعد للفلاح
ما يمدعه إلى اكتناز النقود أو إلى العمل من أجل اكتنازها . وكان في نية غلاة
الشيوعيين إلغاء كل بيع أو شراء حر . وكانوا يرمون إلى جعل النقود بلا قيمة .
على أن يقدر عمل المواطن ببطاقات تسلم إليه على فترات دورية ولا يمكن تبادلها بين
الأفراد ، ولكنها تحمل كوبونات قابلة للفصل تنتظم الطعام والكتب والسفر وما إليها .
ولكن الحكومة البلشفية اقتنعت في ١٩٢١ بالحاجة إلى استعادة هذه السيولة الاقتصادية
التي لايتيحها لنا النقود ، وظهرت عملة روبل جديدة ، كان فيها كل روبل
مساوياً لعشرة آلاف من القديمة . واستبدلت بهذه في ١٩٢٣ عملة الشرفونتر
(Chervonetz) وهي روبل ذهبي يعادل في القيمة الروبل القيصرى قبل الحرب .
وذلك هو قاعدة العملة اليوم . وقد أصدر بحكمة وتبصر فاحتفظ بقيمته إلى

(١) شاييلوك : شخصية مراب يهودى جشع . في رواية تاجر البندقية لشكسبير .
(المترجم)

١٥٣٠

يومنا هذا ، وهو يسجل عجز النظام الاقتصادي البلشفي عن فصل نفسه عن الأساليب والتبادلات والديون المعقدة القائمة إلى الغرب منه . فإن مسألة النقود في العالم واحدة ولا يمكن أن تحل إلا بوصفها مسألة عالمية .

ولم تجر إلى الغرب من روسيا أية محاولة للتخلص من استعمال النقود تخلصاً نهائياً ، ولكن كان هناك في كل دولة تضخم متفاوت مقداره . وكان ابتلاء ألمانيا بالنقود بالغاً أقصاه وهو يبرز لنا العملية العامة في أكل صورها . ولجأت الحكومة إلى المطابع لعجزها عن أن تجمع بالضرائب الأموال الكافية لمقابلة التزاماتها الخارجية وحاجاتها الداخلية . وكلما زادت مقدار الماركات المتداولة ، ارتفعت تكاليف الإدارة وارتفع سعر العملة الأجنبية اللازمة لدفع التخصيصات وهذا الأمر استلزم من الحكومة اللجوء مرة ثانية إلى المطبعة . وفي يناير ١٩٢٣ بلغت قيمة الدولار ٧٢٦٠ ماركا . ثم حدث انهيار سريع . فإنه كان يساوي في فبراير ٢١٢١٠ ماركا ورقياً . وتجاوز في يولييه حد المليون . وفي نهاية السنة كان قد بلغ أربعة بلايين من الماركات الورقية .

وكانت الآثار الاجتماعية لهذا التغير الخيالي المضحك للنقود الموثوق بها وتحولها إلى ورق لا قيمة له ، آثاراً عميقة حقاً . فإن جميع طبقات الناس الذين يعيشون على استثمارات ذات فوائد ثابتة كأرباب المعاشات والأرامل والأيتام ذوي المرتبات السنوية وغيرهم ، — قد أدفعت ودفعت إلى إتيان أحقر وأذل الوسائل في سبيل العيش ؛ وتوقفت كل أعمال النشاط العلمية والأدبية والتعليمية المعتمدة على الهبات . ولم يستطع الموظفون ولا المدرسون ولا أرباب الحرف ومن إليهم من أشخاص يعيشون على مرتبات ثابتة أن يزيدوا أبداً في دخلهم زيادة تتناسب مع ارتفاع الأسعار . وكان ما يحدث إنما هو في الواقع نوع من الذبح الاقتصادي للمتعمدين الفقراء . واختفت الإيجارات من الوجود ولكن أثمان جميع الضروريات حلقت في السماء تحليقاً مضحكاً . وفي نفس الوقت أصبح كل راهن أملاكه وكل شركة أعمال في مركز مخولهم أن يدفعوا ديونهم ورقاً لا قيمة له ، وتبخر دين الحكومة الداخلي وسُلف البلديات .

في الداخل وانقضى وقت نشطت فيه عمليات التصدير نشاطاً محموماً . وأصبح من الضروري فرض حواجز قوية لمنع تصدير كل شيء ثمين في البلاد . ولكن استيراد الطعام والمواد الخام هبط إلى لا شيء ، وهبط استخدام العمال هبوطاً سريعاً بعد أن ابتدأ بنشاط قوي . وأمسى الطعام نادراً في المدن لأن الفلاحين ، وقد أدركوا لإنعدام قيمة النقود لم يعودوا يقبلون في التعامل إلا بطريقة المقايضة . وكان الجوع والألم والهلم نصيب كتلة الطبقات الوسطى والفقراء الطيبين المقتصدين . وارتفعت نسبة الانتحار ارتفاعاً شديداً . وهبطت نسبة المواليد ١٥ في المئة بالمقارنة إلى السنة السابقة . وبالرغم من هذا فإن نسبة وفيات الأطفال زادت ٢١ في المئة .

وكانت المتاعب السياسية تضطرم في كل مكان حركات رجعية وعصيانية . ولعل شعباً واحداً لم يكن يستطيع تحمل هذه العاصفة إلا الألمان ، ذلك الشعب المتعلم النظمي . وفي نوفمبر أنشأت الحكومة عملة جديدة . فأصدرت ماركاً جديداً هو « الزنمارك » بضمانة ما في البلاد من الأرصدة العامة ، وأوقفت طبع الماركات القديمة ؛ وكان المارك الجديد ماركاً مكافئاً لـ ١٠٠ ليلين من المارك الورقي . وترتب على تقييد الطبع تقييداً شديداً ، أن ارتفع المارك الجديد بالتدريج حتى بلغ مراقي النجاح ، وبذلك استطاعت ألمانيا أن تعود أيضاً إلى ولائها القديم لمعيار الذهب . وحل الرايخ مارك الذهبي محل الزنمارك في ١٩٢٥ ، بقيمة معادلة لقيمتة ، ومن ثم أخذت الدولة في سحب الزنمارك شيئاً فشيئاً .

وقد حدث في أقطار عديدة من أمثال النمسا وبولندة أن قصة النقود أوشكت أن تبلغ فيها مبلغها المحزن في ألمانيا . وظلت كل منهما تترنح حتى عادت إلى عملتها الحالية الجديدة المعدلة . فاستخدم النمساويون عملة جديدة للمحاسبة هي الشلن ؛ وأوجد البولنديون الزلوتي وكلاهما يعتمد على أساس الذهب ، فأما عملات الأقطار الأخرى من أمثال تشيكوسلوفاكيا واليونان وفنلندة ، فلماها وإن تضخمت ، فلقد تضخمت في حدود الاعتدال واحتفظت بوحدة النقدية الأصلية في ضرب من الثبات على صورة تعدل خمس أو سدس قيمتها الذهبية السابقة . وتضخمت عملة إيطاليا وفرنسا والبلجيك في حدود أضيق من هذا كثيراً . فهبطت الليرة من ٢٥١ إلى مئة للجنين الإسترليني

قبل زمان موسوليني ، وبعد أن مرت في دور من أدوار الطمأنينة المشكوك فيها أخذت تواصل الهبوط تدريجياً إلى ١١٠ و ١٢٠ و ١٣٠ . وعند ذلك وضعت في حالة من التضيق القاسي « وثبتت » على مستوى جديد يزيد قليلاً على ربع قيمتها الأصلية . على أن الفرنك الفرنسي والبلجيكي والبيزيتا الأسبانية هبطت بدرجة أبداً منها نوعاً ما . وتجاوز الفرنك حد المئة للجنيه في ١٩٢٥ ، ثم أصيب بأزمة ، وحدثت نوبة زعر مالى عُدل بعدها إلى خمس قوته الشرائية قبل الحرب الأولى .

وتدهور الجنيه البريطانى عن قيمته الذهبية بعد الحرب العظمى ، ولكنه لم يبلغ قط إلى حد فقدان أكثر من ثلث قيمته ، وفي ١٩٢٤ - ١٩٢٥ ، وبعد مجهودات مضنية وتقييد للائتمان ، وإيقاف للمشروعات والأعمال وأزمة خطيرة في البطالة ، جُذِب من جديد إلى معادلته القديمة للدولار الذهبي . ومرت على الأقطار السكندنافية وعلى هولندا وسويسرا تجارب صغيرة نسبياً في ارتفاعات العملة وانخفاضاتها .

وما هذا إلا تاريخ العالم نسطره لك على هيئة الحساب والأرقام . ولا بد للقارئ من أن يتخيل بنفسه ضخامة المخاوف وصنوف الحرمان والقلق واليأس القاسي والمحن الفاجعة والأمراض والقنوط والموت التي سببتها هذه الألاعيب البارومترية القلابة في العملات الأوربية لو أنها ترجمت إلى لغة الشعور الإنساني .

وعادت بريطانيا بصعوبة إلى معيار الذهب رشحاً من الزمان . ولم تقدم للعالم عملة مثالية ، ولكنها لاحت خير معيار في مستطاع العالم ، على حين كانت النقود ما تزال تحت هيمنة عدد كبير من الحكومات المستقلة . ونظراً لأنه لم تكن هناك حكومة عالمية عامة ولا حكومة اتحادية تستطيع أن تتصرف في هذه الشؤون ، فقد لاح من الضروري أن يسلم الناس السيادة الاقتصادية في الأرض إلى أحد المعادن . وكان المعدن مادة مواتاً ، ولم يكن يستطيع أن يستجيب للزيادة والنقصان في الثروة الحقيقية ، وكان يجعل كل نشاط إنتاجي جديد يدفع الجزية لأرباح الماضي . ولكنه لم يكن على الأقل يستطيع أن يغش أو يكذب ولم يكن كالبشر فيه شيء من سوء الظن بالغير والتحامل الوطني على الغير .

١٥٣٣

ولكن كان في المستطاع إمساكه واحتباسه . وكان من أثر دفعات الدين الهائلة التي دفعت لأمريكا وفرنسا أن تراكت كميات عظيمة جداً من الذهب في هذين القطرين . وهناك اكتنزوه وأصبحت القيمة الفعلية للدولار المسكوك من الذهب أقل من عملة «دولار الذهب» الورقية العادية . وكانت العودة إلى معيار الذهب في زمان كانت فيه إنتاج السلع يفوق على وجه العموم إطلاق الذهب لتصنع منه النقود - أمراً لصالح الدائنين دون غيرهم . هبطت الأسعار فجنى الدائنون أكثر مما بذروا وتعرق كل جهد ومسعى اقتصادي .

٩ - الانهيار العظيم في ١٩٢٩

سار العالم في طريق الانتعاش حتى شتاء ١٩٢٩ . وكان لا يزال يعاني من آثار الحرب ، وكانت تتنازع عوامل التبدد والارتباك من أكثر من ناحية ، ولعله كان في غير وعي منه يرجو ظهور عام ١٨٣٠ - أو ١٨٤٨ لكي يصفيا له المسائل وينقيا الجو من حوله . على أن الزمن كان يخفي له شيئاً مختلفاً عن ذلك تماماً ، ولم يكن ذلك ثورة يوجهها رجال - مهما يكن عدم كفايتهم عملياً - فقد كان لهم مثل عليا تلهمهم وأفكار يقدمونها لأتباعهم من الناس ، ولكنه كارثة عامة مجتاحة وقاسية ، لم يفهم العالم مصدرها ، وكانت عواقبها شراً كلها عليه . وقد شددنا من التأكيد في الأقسام السابقة من هذا الكتاب ، على عيوب عالم ما بعد الحرب وخيبات آماله ، بحيث لم يعد يجب علينا أن نوجه إلا متسعاً صغيراً من الكتاب لتبيان السبب الذي من أجله أصبحت سنة ١٩٢٩ لدى ملايين من الناس سنة أخيرة في السنوات الذهبية التي كانوا يشخصون إليها بأبصارهم .

وأول أسباب ذلك شعورهم بالأمن من الحرب . أجل إن عصبية الأمم كانت حتى آنذاك مجرد عصبية لبعض الأمم فقط ؛ فقد ظلت الولايات المتحدة غائبة عنها غيبة المغضب ، ولم تكن روسيا ميالة إلى دخولها كما لم يسمح لها أصحاب العصبة بالانضمام إليهم . وعلى الرغم من قص جناحها على تلك الشاكلة ، فلإنها حالت دون اتساع رقعة

حروب صغيرة شبت في جزر الآلان وسيليزيا ومقدونيا ؛ أجل ربما لم تجمع من القوة ما يمكنها من إيقاف الدول الكبرى عند حدها ، ولكن دولة واحدة كبرى لم تبد رغبة في تحديها . مثال ذلك ، أن إيطاليا أعلنت أن « الفاشية ليست سلعة للتصدير للخارج » وغالبا ما أظهرت نحو رأى العصبة من الاحترام أكثر مما كانت تظهره كثير من الدول الأخرى الأكثر ديمقراطية . وثانيا : حدث تقدم عظيم في المعرفة العلمية والصناعية ؛ وكان مما أدهش الرجل العادى بوجه خاص اتخاذ الطيران وسيلة عادية وبسيطة للسفر وشيوع استخدام اللاسلكى فى التواصل بين أجزاء العالم ، وأخيراً جاءت فترة يسر ورغد للرجل العادى . أجل كانت هناك مستثنيات من هذه القاعدة العامة ، فكان ثم بريطانياون حتى من المالمين الذين تركوا مليون رجل عاطلين بلا عمل يعملونه ، وكان ثمة قطر مثل بلاد الصين ، حيث الفقر داء متوطن . ولكن سكان العالم على الجملة كان لديهم متسع أكبر من الوقت للمتعة والتسلية وقدر أكبر من المواد الغذائية مما كان لديهم من قبل . أجل إن سكان الولايات المتحدة كانوا يبدون فى صورة الثراء الذى يكاد يكون خياليا . وقد انعكست هذه الأحوال الميسرة السهلة ، حرية سياسية أكبر . حقاً إن شعوب شرق أوروبا لم تكف عن اضطهاد أقليتها ، ولكنها أصبحت أكثر اعتدالا . وعادت لجان العصبة المختصة بالأقليات والانتدابات بالخير العميم ، إذ جعلت الظلم والاضطهاد أصعب منالا وأبغض إلى النفس . أجل إن أمم الشرق الأدنى كالعراق ومصر لم تحصل على حكومات غير فاسدة ولا ديمقراطية حقاً ؛ ولكن الحكومات التى قامت بها لم تكن ثقل عن حكومة بريطانيا فى القرن الثامن عشر ، وهو تقدم عظيم فى تلك الظروف . ولقد بلغ الأمر أن كان هناك تقارب بين الإنجليز وبين الوطنيين الهنود . وتغيرت الظروف ، فكف العالم الخارجى عن ملاحقة روسيا بالإيذاء ؛ ودارت خصومات بين تروتسكى وستالين ، حول إمكان قيام « الاشتراكية فى دولة واحدة بمعزل عن الدول الأخرى » ، فاز فيها الثانى وطرده تروتسكى من البلاد (١٩٢٧) فخرج حاملا معه نظريته فى :

١٥٣٥

« الثورة المستديمة^(١) ». ولم يحزن لذلك من أحد سوى الثوريين المحترفين . ولم يلبث الاتحاد السوفييتي أن تحول في السنة التالية إلى « مشروع خمس سنوات » بقصد التزود بالصناعة ، وهو أمر بدا في عين جيرانه على كل حال - ضمناً للمقاصد السلمية . وكان الاعتدال الذي عامل به البلاشفة زعيمهم الخلع الذي لم يزد خروجه من البلاد على كونه نفياً - كان ذلك لاعتدال إجراء اعتبر نقيضاً للوحشية التي أبدتها الثورة الفرنسية .

ويذكر كل من عاشوا أزمة ١٩٢٩ كيف بدأت في شارع وول ستريت (Wall Street) في الرابع والعشرين من أكتوبر . وكانت بواورها عاصفة هوجاء من بيع الأسهم وانحدار سريع في الأسعار وهبوط شديد في الضمانات التي كان عقلاء المشتغلين بها يعرفون أنها متضخمة السعر . ولكن الذعر شاع منذ تلك اللحظة حتى شمل سطح الأرض بأجمعه شلل صناعي ، والشلل هنا كلمة تناسب المقام ، وذلك لأن الانهيار كان أشبه بمرض ، ولكنه مرض لا سبب له في الطبيعة . وكان انتشار الجوع والمصانع الصامتة والبضائع الملقاة جانبا والرجال المتعطلون ، - نتائج طبيعية لأعمال البشر . أجل لم تحدث مجاعات ولا فيضانات ولا كوارث قومية ولو أنه حدث ذات يوم فعلاً أن الناس صلوا إلى الله طالبين إليه أن ينزل بهم هذه الشدائد جميعاً لتخلصهم مما كانوا فيه من عسرة ؛ ولم تحدث حتى أية حرب ولا أي فساد في الأرض . ومع ذلك ، فقد حدث في أغنى بلاد العالم وهي الولايات المتحدة فيما يقول المستر هامبدن چاكسون : « أن ما يداني العشرين مليوناً من الأنفس كانوا يواجهون الموت جوعاً وبرداً في الشهور الأولى من ١٩٣٣ » . وكانت أحوال الأقطار الأقل ثراءً أسوأ نسيباً . ودامت الأزمة إلى ما بعد ١٩٣٣ - بل لقد يمكن القول أنها لم تتوقف حتى جاءت الحرب والاستعدادات للحرب فوضعت حداً لها .

(١) يشير الكاتب إلى المهادين الأساسيين اللذين قامت عليهما ثورة البلاشفة وسياستهم وهما :
(١) الدولية الثالثة أي نشر المبادئ الشيوعية في العالم و (ب) الثورة وحرث الطبقات .

(المترجم)

وكانت هناك أزمات تجارية دامت ما يقارب القرن . وكان الاقتصاديون يشهدون هذه الأزمات دون تأثير ولا انفعال كأنما هي ظواهر لا سبيل إلى ضبطها والتحكم فيها (وهو شأنها في الواقع ، ما دامت الملكية الخاصة بمنجاة من كل تحكم أورقابة) ، وكانوا يلاحظون أن تلك الأزمات تعاود الظهور كل عشر سنوات تقريباً . ولكن أزمة واحدة من تلكم القديمة لم تكن طاحنة كهذه ؛ وذلك أن هذه الأزمة الأخيرة قد زاد من حدتها حماقات معينة ارتكبت . وقد ذكرنا لك آنفاً معظم هذه الحماقات ، ولكن ربما كان القارئ في حاجة إلى تذكيره بها . وكانت أولى الحماقات الفقرات السياسية والاجتماعية التي وردت في معاهدة فرساي ، فقد تحققت في النهاية تنبؤات كاينز وغيره من الرجال إذ تحطمت وحدات قديمة التكوين مثل الإمبراطورية النمسية ، وقامت مكانها دويلات صغيرة هزيلة كل تحيط نفسها بسياج من التعريفة الجمركية . وحتى الإصلاحات المرغوبة في حد ذاتها قد تجلى أنها مصدر خطر ؛ فمثلاً كان إحلال الفلاح المالك مكان كبار أصحاب الأملاك شبه الإقطاعيين في وسط أوروبا وشرقها ، سبباً في إحداث هبوط في الإنتاج الزراعي ، في بلاد لم تكن بمستطاعة أن تعيش إلا على الزراعة . ومما زاد الطين بلة ، سوء أثر « التعويضات » — فإن الاعتقاد بأن دول الحلفاء تستطيع أن تعيش إلى الأبد على حساب ألمانيا ، أخذ يوثق بنتائج السيئة التي لامناص منها . وقد قُدر أن مشروع داويز كان يعنى أن ألمانيا تستطيع دفع ٨٠ ماركاً في الثانية الواحدة أي ٢٨٨,٠٠٠ ماركاً في الساعة لمدة لاحد لها ؛ وجاء التعديل الذي أدخله مشروع يونج محمداً للمدة إلى ٥٩ سنة . . . ولم يكن تحقيق مثل هذه الأخلام الجشعة ممكناً مالم تكن أمريكا مستعدة لإقراض النقود لألمانيا بلا حساب لتمكينها من الدفع ، فما يكاد ذلك الوضع يتوقف حتى يكون في توقفه انهيار ألمانيا بل وكل من يعتمدون عليها . والراجع أن شر ما جلب الكوارث على العالم سياسة الولايات المتحدة المالية . فإن الولايات المتحدة حاولت ما وسعها الجهد أن تتوصل بكافة الوسائل عدا الحرب إلى حمل حلفائها على تسديد « ديون الحرب » . وفي الحين نفسه كان

١٥٣٧

القائمون على الحكم لدى الحلفاء ، وهم قوم يجمعون بين قصر النظر والجشع يحولون دون تسديد الدفعات . وانتهى الأمر بأن صار لابد من دفع جميع المدفوعات المالية ذهباً أو عيناً ، وأخذت مجالس الكونجرس الأمريكية المتعاقبة تزيد في التعريفات حتى صارت البضائع الأجنبية مبعدة إبعاداً فعلياً . (وقد نفذت آخر تعريفية جمركية معروفة في عام ١٩٣٠) . وأمكن إلى حين تجنب المشكلة بتكديس قناطير مقنطرة لانفع لها من الذهب سحبت من كل بلاد العالم وأودعت في فورت نوكس ؛ وكذلك أمكن تجنبها فترة أطول قليلاً بما قدمته الولايات المتحدة من قروض للأقطار المدينة ، ولكن لا يغيين عن البال أن الكارثة لابد وأن تقع بمجرد المطالبة بتلك الديون . وكأنما شاءت الولايات المتحدة التحقق من مكابدة شعوب تلك البلاد العذاب الشديد ألواناً ، فعمد رجال الأعمال فيها إلى طريقة البيع بالتقسيط المسماة (الشراء بالإيجار) ونشروا ذلك بحيث أن عائلة من كل اثنتين أصبحت مدينة بثمن سلعة أو أخرى ، وزادت المقامرة بالأسهم والسندات في المدن الكبرى زيادة فاحشة حتى لقد اشترك فيها العمال وصغار الموظفين .

وكانت لهذه الكارثة التي أصبحنا نراها اليوم خطأ فاصلاً في التاريخ ، نتائج سياسية مزدوجة . فسقطت الحكومات في البلاد التي كان في الإمكان تغيير حكوماتها بمقتضى الدستور . فإن كانت « يسارية » تولت الحكم فيها حكومة « يمينية » والعكس بالعكس — وكان الأمر كله تقريباً يقوم على محض الصدفة . فإن كانت في دست الحكم ديكتاتوريات ، صارت الحكومات عديمة الرحمة في الداخل ، وأدركت من حيث علاقتها بالخارج أن في إمكانها في خاتمة المطاف أن تتصرف حسبما يمليه عليها أشد نوازع الجشع فيها . ولم يعد لدى الدول المحبة للسلام أية قدرة ولا رغبة في حماية بدايات المنظمات الدولية ؛ وأصبح في إمكان الدكتاتوريات مهاجمة جيرانها الأضعف منها (بل لقد هاجمتها فعلاً) وبذا بدأت تدب في الطريق الموصل إلى الحرب العالمية الثانية .

وقد حادت بعض البلاد إلى طريق « اليسار » كما كانوا يقولون . وسارع ألفونسو ملك أسبانيا إلى مغادرة بلاده وتركها للجمهوريين . وكان الرئيس هوفر طالما ادعى

3



—

2

١٥٣٩

فركز جيتوليو فارغاس نفسه في البرازيل في أخريات ١٩٢٩ . وفي العام التالي أصبحت بوليفيا وبيرو والأرجنتين دكتاتوريات هي الأخرى ؛ وتبعتهن شيلي في ١٩٣١ . وفي ١٩٣٢ تجاهلت بوليفيا وباراجواي رجاء عصبة الأمم واشتبكتا في حرب ضروس دامية بسبب غابة تسمى جران تشاكو ؛ وكانت الحرب فرصة انتهزها دعاة الفاشية والنازية لدخول أمريكا الجنوبية وممارسة مهنتهم المختارة . فأما في الهند ، فانتهت فترة التعاون الوجيزة بين الهنود والبريطانيين بمعاودة حركة « العصيان المدني » في ١٩٣٢ ؛ وفي الشرق الأدنى طرد الملك فؤاد ملك مصر برلمانه ، واحتفلت الحكومة العراقية في ١٩٣٣ بحريتها الجديدة من قبضة البريطانيين بإعمالها الذبح قصداً وبهدوء تام في الأشوريين لأنهم مسيحيون .

وإذا نظرت إلى أوروبا ، وجدت بيلسودسكى يكبل الانتخابات البولندية بالأغلال ليجعل من نفسه دكتاتوراً في نهاية ١٩٢٩ ؛ وتخلص ملكا يوغوسلافيا ورومانيا الإسكندر وكارول من الرقابة البرلمانية ، وأقيمت دكتاتورية بلغارية عسكرية في ١٩٣٤ ، كما قامت أخرى يونانية (برئاسة متكساس) في ١٩٣٥ . وانتقلت أستونيا ولتفيا إلى الحكم الدكتاتوري في ١٩٣٤ . وأهدى سالازار دكتاتور البرتغال إلى نفسه سلطاناً قانونياً جديداً في ١٩٣٣ ؛ وقضى دولفوس وهو سياسي كاثوليكي نمسوى على الاشتراكيين النمساويين بالقوة والعنف في فيينا ، وأنشأ دولة فاشية في فبراير ١٩٣٤ . ولعل أسوأ نتائج الأزمة تأثيراً في المستقبل ، تسليم مقاليد السلطة للنازيين في ألمانيا في ١٩٣٣ ، وسنعود الحديث في ذلك فيما بعد ؛ ولكن أشد الحركات إزعاجاً للعالم آنذاك كان غزو اليابان لمنشوريا في ١٩٣١ . فإن ضباط الجيش طردوا حكومة اليابان السلمية من الحكم ، ثم قتلوا بعد ذلك أهم أعضائها بطريقة منظمة . وصدق حدس الحكومة الجديدة حين زعمت أن دول العصبة لن تتدخل ، فتلمسوا ذريعة تافهة لغزو منشوريا ، وهي ولاية صينية لم يتمكن تشيانج كاي شك من فرض سيطرته عليها ، ومن ثم احتلوها ورفضوا التحرك منها .

والشيء الذي جعل الأزمة تبدو مستعصية على الحل (وإن كانت أسبابها أعمق كثيراً دون ريب) هو مجرى الأحداث ببريطانيا . ذلك بأن لندن لم تبرح مركزاً للعالم

المال . وكانت الحكومة البريطانية حكومة عمال يرأسها سياسى مبهم الأقوال اسمه رامساي مكدونالد . ولم تكن تقوم على أغلبية في البرلمان ، ولو أنها أرادت أن تواجه الأزمة بسياسة اشتراكية ، لما مكنها المجلس من عمل ذلك ، وقصارى القول أنها لم تستطع عمل شيء .

وتوقف استثمار الأموال الأمريكية في ألمانيا والنمسا في ١٩٢٩ . ولكن الماليين المقرضين الأمريكيين بدأوا يسحبون قروضهم في ١٩٣٠ عندما زادت حال وول ستريت سوءاً ويأساً ، وفي مدى أربعة أشهر اضطرب موقف بنك الائتمان (Credit Anstalt) ، وهو البنك الذى كان يمول معظم الصناعات النمساوية وواجه الإفلاس ، واقترح الرئيس هوغر لإنشاء موراتوريوم في دفع التعويضات ، واقترح بروننج مستشار ألمانيا إقامة اتحاد جمركى مع النمسا . ولكن حال دون تنفيذ الاقتراحين سياسى اسمه تارديو كان يرأس حكومة فرنسا وكان يرى أن معاهدة فرساي « شديدة الاعتدال » . واضطرت البنوك البريطانية والألمانية إلى تقديم القروض لإنعاش البنك النمساوى ؛ وبذلك أوقعوا أنفسهم في المخطر وعرضوا مراكزهم للخطر . وهرع الناس إلى البنوك الألمانية يطلبون ودائعهم . وفي يولييه ١٩٣١ ، انهار بنك دارمشتادت الشهير . وعندئذ وقع الثقل كله على لندن ، واشتد اندفاع الناس على الذهب بحيث تجلى تماماً في أغسطس أن بنك إنجلترا لن يستطيع البقاء بغير تلقى مساعدة من الخارج . ولم يكن الذهب موجوداً إلا في باريس ونيويورك ؛ فأما باريس فتأبى أن تقرض فلساً واحداً ؛ وأما نيويورك فأصرت على تغييرات في السياسة البريطانية (أهمها تخفيض إعانات العمال العاطلين) وهو أمر لم تقبله الوزارة البريطانية . واتفق مكدونالد رئيس الوزارة مع خصومه المحافظين على طرد حزبه من الحكم وأقام « حكومة قومية » لإنقاذ الجنيه . ولكن أننى للجنيه أن ينقذ ؟ وفي أواخر سبتمبر أقر البرلمان مشروع قانون بالتخلي عن معيار الذهب . وهبط الجنيه خمس قيمته ، وعندئذ وجدت جميع البلاد التى وثقت بلندن واتحدت منها بنكاً لماليتها وأدارت تجارتها على الجنيه الاسترلى ، — وجدت نفسها مضطرة أن تتخلى عن الاسترلى الذهبى أيضاً . لقد تحطمت جميع نظم العالم المالية والتجارية القديمة .

ونجحت الحكومة البريطانية الجديدة في إصاق اللائمة كلها عن الأزيمة بالحكومة التي سبقتها ؛ ولذا فإن الانتخابات العامة التي أجريت في ١٩٣١ أسفرت عن حصول الائتلاف القوي على ٥٧٠ مقعداً والعمال ٤٦ مقعداً ومع أن هذا الحجم الجبار الذي أحرزته الأغلبية انخفض في ١٩٣٥ ، فإن الانتخابات كانت بادئة عهد حكم دام تسع سنوات مستمرة لإقلية محافظة صغيرة . واحتفظ الجميع باسم « القومية » هذا لأغراض انتخابية ، وكان هناك « الأحرار القوميون » و « العمال القوميون » ؛ ولكن الأغلبية الهائلة كانت من المحافظين . وكانت مقاليد الأمور في يد دائرة أحاطت أولاً بالمستر ستانلي بلدوين ثم بالمستر نيكيل تشمبرلن ؛ وأبعد ونستون تشرشل وأتباعه عن كل عمل . وكان السياسيون الفرنسيون أقل حظاً . ففي ١٩٣٦ تمكن ائتلاف جمع بين الراديكاليين والأشراكيين والشيوعيين وتسمى باسم « الجبهة الشعبية » من إخراج العصابة الحاكمة في البلاد من مناصب الحكم .

وألقيت السياسة الداخلية للولايات المتحدة بكليتها إلى يد رجل أخذ نفسه بمبدأ المحاولة والتجريب . ولم يكن الكونجرس ولا الشعب ميالين إلى معارضة ولا حتى نقد أى علاج للأمور كان يقترحه فرانكلين دي لانور روزفلت . وكان ذلك الرئيس لا يعتنق أية فلسفة منظمة في الحكم ، ومن ثم كان يعتمد قاصداً تجربة شيء بعد آخر . كان عمله يقوم على فكرة « تصيب أو تخيب » ، وراقت الفكرة لدى مواطنيه كل روق حتى لقد أبوا أن يتخلوا عنه رغم ما لقيه من معارضة عنيفة . فانتخب رئيساً للولايات المتحدة في ١٩٣٢ ، ثم أعيد انتخابه في ١٩٣٦ ، ١٩٤٠ ، ١٩٤٤ ؛ ولم ينته حكمه إلا بوفاة (وهو الرئيس الوحيد الذي تتناسب لفظة « حكم » مع رياسته) . وكان أول مشروعاته مشروع قانون الإصلاح الزراعي^(١) (AAA) وقد قصد به رفع أسعار منتجات المزارع بتخفيض الإنتاج ؛ ومشروع قانون الإنعاش الصناعي^(٢) (NIRA) الذي حاول أن ينعش الصناعة بلقناع أصحاب الأعمال والمصانع بمراعاة « أصول » ترفع الأجور وتخفض ساعات العمل وتحسن أحواله

Agricultural Adjustment Act. (١)

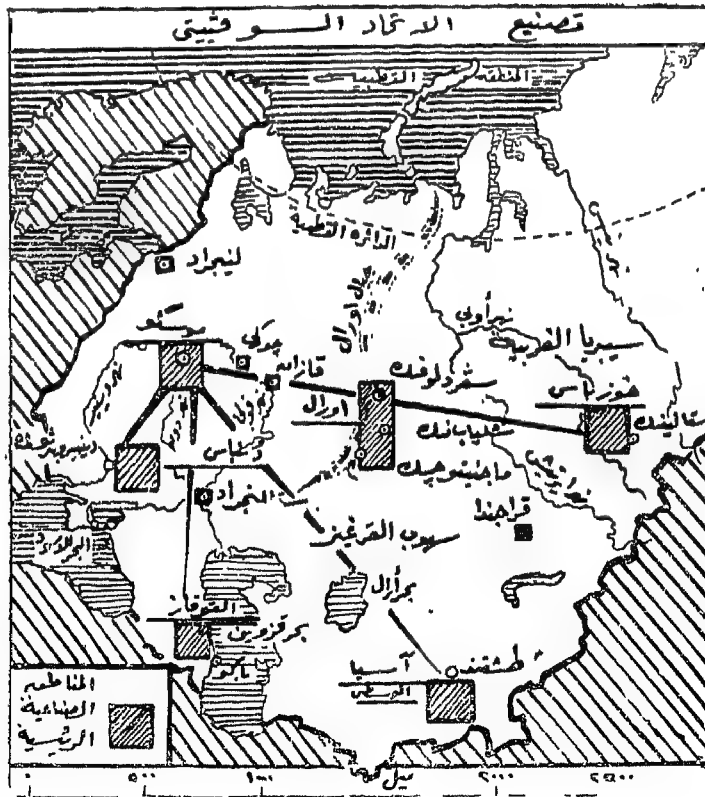
National Industrial Recovery Act. (٢)

وتحرم استخدام الأطفال في الصناعة . وقد تعثر كل من هذين القانونين بما لقيهما من مصاعب ، وثار غضب الدوائر الإدارية أكثر مما ثار أسفها لأن المحكمة العليا أعلنت أنهما غير دستوريين في ١٩٣٥ ، ١٩٣٦ . وبدأ أن من المحتمل بلوغ الهدف منهما بالقيام بمشروع ضخ ومتواصل من الأشغال العامة ، وهو مشروع بدى به فعلاً في ١٩٣٣ وتواصل العمل به تحت أسماء مختلفة حتى تبدى شبح الحرب في الأفق ففضى على الضرورة الداعية إليه . وكان المشروع بعيداً كل البعد عن مشروع إصلاح الطرق الذي كان يستتر وراء اسم كريم هو الأشغال العامة ، فكان يتضمن خططاً لكل فئة من الشعب حتى الممثلين والكتاب ، ومن بينها خطة لمشروع بعث الخشوع في أشد النقاد غضباً - ألا وهو مشروع هيئة وادى تنسى ، وقد بدأت تلك الهيئة عملها بمشروع لضبط هر مدمر ، وأظهرت أنها أعظم وأنجح مثال على التخطيط الإقليمي في بلد حر . وكان أقل فوائد ذلك المشروع ضبط فيضانات النهر . فإن توفير الكهرباء الرخيصة السعر المنتشرة الاستعمال وإعادة زرع الغابات واسترجاع الأرض التي زالت عنها تربتها الزراعية وإدخال صناعات جديدة ، أدخلت تغييراً تاماً على منطقة كانت في يوم ما بائسة يائسة قد عضها الفقر بقسوة . ولقى مشروع قانون واجنز (١٩٣٥) قدراً أصغر من الاستحسان العام ، وهو مشروع كان يجبر رجال الأعمال والصناعة الأمريكيين - وكانوا حتى ذلك الحين أشد الصناعيين في العالم استبداداً - كان يجبرهم على الاعتراف باتحادات العمال والتفاوض معها ، فأخذت هذه الاتحادات منذ ذلك الحين تقوم في السياسة بدور يقوى على توالى الأيام .

ولكن روسيا التي يقوم اقتصادها على النظام الاشتراكي لم تتلق نفس الصدمة التي لقيتها الدول الأخرى : فلم تظهر في شوارعها طوابير العاطلين ، ولم تغلق بها مصانع ، على حين كانت المواد الأولية متوفرة . على أن الاتحاد السوفييتي تأثر من نواح أخرى تأثراً لا يقل خطورة عن سائر الدول . وقد أوضح لينين تماماً أن إيقاف الحريات أثناء الثورة شيء موقوت ، وأن سيعقبه وضع يستمتع بقدر من الحرية أكبر من أي شيء يمكن قيامه في ظل نظام بورجوازي . ولكن بدلاً من زيادة الحريات الشخصية ، كان الاتحاد السوفييتي يتحول أكثر فأكثر إلى دولة

١٥٤٣

بوليسية ؛ فإنه كان يتطور من ديمقراطية يغشاها الاضطراب والدكتاتورية إلى أوليجركية ويبدو كأنما ينحدر إلى طريق الحكم الاستبدادي المطلق . وحدث تقدم مادي عظيم لا يستطيع تجاهله إلا أشد المراقبين تحيزاً . فتم إنجاز مشروع الخمس سنوات في أربع سنين . وأقيمت محطات عظيمة لتوليد القوى - منها واحدة على نهر الدينير ذاعت شهرتها - وحفرت آبار الزيت وأقيمت مصانع الصلب ، وأنشئت مراكز صناعية جديدة تماماً في كوزنتزك بسيبيريا وماجنيتو جورسك بجبال الأورال وفي أماكن أخرى . وقضى على الأمية قضاء جزئياً بهذا البلد ، أشد البلاد اتساعاً وأعظمها تخلفاً ؛ وكانت ألوان التقدم الحضارى قوية مثيرة في أصقاع الاتحاد الخارجية البعيدة الأكثر همجية . ولكن امتلاك الفلاح للأرض الذى هو شئ لا تبيحه النظرية الشيوعية قضى عليه بين سنتي ١٩٢٩ ١٩٣ بوسائل وحشية لا ضرورة لها .



(شكل ٢٢٢)

فأطلق اسم « الكولاك Kulak » على كل فلاح غنى ، وأجبروا جميعاً على الاندماج في المزارع الجماعية أو مزارع الدولة . ورُحِّل آلاف كثار إلى سيبيريا ؛ وانتشرت المقاومة والتخريب المتعمد ؛ فقد ذكر أنه حدث ذات مرة أن ذبح نصف ما في روسيا من الماشية .

وأُتبع مشروع الخمس السنوات الأولى ١٩٣٢ بإعلان مشروع آخر ، ركز على الإسكان والمواصلات وإنتاج السلع الاستهلاكية ورفع مستوى معيشة الشعب . وقد تم بنجاح في كثير من النواحي ، ولكن صحبته تغييرات سياسية أزعجت العالم الخارجي . وتآلب كامينيف وزينوفايف وستالين على تروتسكى وطردوه . ووجد العضوان الأولان من ذلك الثلاث أنهما قد أسلما نفسيهما لقبضة الثالث . فإن ستالين بوصفه سكرتيراً للحزب الشيوعي كان المتحكم الوحيد في السلطة السياسية ؛ ولم يكن ستالين من الناحية الأخرى ممن تجد الرحمة إلى قلوبهم سيلاً . فإنه أعدم ما يزيد على ١١٠ شخصاً انتقاماً لمقتل صديقه كيروف في ١٩٣٠ . ونظر زملاتوه فاذا هم مجردون أولاً من كل سلطة ، ثم ألفوا أنفسهم يحالون إلى المحاكمة : وفي ١٩٣٦ اتهم أربعة عشر من أشهر « رفاق لينين » بينهم كامينيف وزينوفايف وأعدموا رمياً بالرصاص . وأعقبهم ثلة أخرى بعد بضعة أشهر . وفي السنة التالية أعدم توخاتشيفسكى وكثيرون غيره من كبار ضباط الجيش الأحمر : وتعدد في كل أرجاء البلاد هذا النوع من المحاكمة وأعدم أو سجن آلاف من أشخاص أدنى أهمية ، حتى لم يعد في البلاد أحد يعارض سياسة ستالين . وحصل المدعى العام المستر فشنسكى على أحكام بإعدام ٦,٢٣٨ شخصاً في المحاكم العلنية . وكان المتهمون دون استثناء واحد منهم فما نعلم يكتبون اعترافات يعترفون فيها بما اتهموا به بالضبط حتى ولو كانت جريمتهم بعيدة الاحتمال جداً . حتى إذا انتهت « التطهيرات » لم يعد باقياً على قيد الحياة جميع زعماء ثورة ١٩١٧ عدا واحداً . وكان هذا الفرد الواحد في رفعة متعالية ويحيط به رجال أصغر منه أو رجال من الدرجة الثانية : وكان يلقي آنذاك عبادة يدهش لها كثيراً كل من تذكر التقاليد الديمقراطية للاشتراكية . وقد توفي لينين قبل أن

١٥٤٥

يجرؤ أحده على إلغاء اسم مدينة وتسميتها باسمه ، ولكن خريطة روسيا أصبحت آنذاك مملوءة بمدن ستالين وستالينو وستالنسك وستالينجراد وستالينوجورسك وستالينباد وما مثلها !!....

وكانت للتغيرات السياسية العميقة داخل روسيا آثارها خارج حدودها . فقد كانت هناك في ١٩٢٧ أحزاب شيوعية في كل دولة برلمانية تقريباً ، وكان لابد للروسيا أن تضمن انصياعها لإرادتها . فأوقفت الاجتماعات السنوية للشيوعية الدولية مدة ست سنوات للوغم تلك الغاية . وابتدأ الأمر بطرد جميع أنصار تروتسكى . فإن التخلي عن « الثورة المستديعة » تفضيلاً « للاشتراكية في قطر واحد » ، وأعني به روسيا ، أفضى بصورة طبيعية إلى جعل الدفاع عن ذلك القطر الواحد أهم كثيراً من الدوافع والآمال الثورية بموطن كل فرد وبذا أصبحت الأحزاب التي كانت أحزاباً ثورية فردية آلات وأدوات للسياسة الروسية الخارجية . وتوالى في كل سنة بعد سنة طرد كل زعيم أوتابع لا يرضخ لهذا التغير . وكانت « خطة الأحزاب » في البداية توجيه أشنع الحملات على الاشتراكيين والأحرار في الدول الديمقراطية ونعتهم بأنهم « فاشيون قوميون » أو حتى اتهامهم بأنهم يتعاونون مع النازي عليهم كما حدث في أحد اضطرابات الترام ببرلين . وقد اتضحت العواقب الوخيمة لهذه السياسة على روسيا بعد ١٩٣٣ بقليل ، ولم تلبث أن قلبت رأساً على عقب في ١٩٣٥ بعد عقد « حلف ستالين لأقال » . وأضيف إلى هذا الحلف ، وهو تحالف عقيم بين روسيا وفرنسا موافقة رسمية على إعادة تسليح فرنسا : حين طلب إلى الحزب الشيوعي الفرنسي أن يتخلى بين عشية وضحاها عن سياسته المناهضة للروح العسكرية والإمبريالية . ولم تلبث تلك السياسة أن حولت إلى تعاون وثيق مع الاشتراكيين والأحرار فيما كان يسمى باسم « الجهات الشعبية » ضد الفاشية . وحصل الشيوعيون على ألوان عديدة وضخمة من النجاح السياسي بفرنسا بوجه خاص . ولكن المعنى الحقيقي لتلك التغيرات هو أنه أصبحت توجد آنذاك بكل دولة برلمانية هيئتان حزبيتان غير نابعتين من الشعب ولامسئولتين أمام مواطنيهما

كما أنهما لا تشكلان سياستيهما بحسب ما تعتقدان أن بلدهما في حاجة إليه ، ولكنهما تمثلان دولة أجنبية . وكانت إحدى الفئتين تدافع عن مصالح الاتحاد السوفيتي ؛ وتدافع الأخرى عن تحالف هتلر وموسوليني الذي كان يسمى نفسه آنذاك بالخور . فأما تمكن الهيئتين من التعاون فشئء كان يراه كل إنسان أمراً مستحيلاً .

١٠ - المأساة الأسبانية

في أبريل ١٩٣١ ، انهارت الملكية الأسبانية ونحلت أسبانيا إلى جمهورية . فانسحبت الأسرة المالكة من الميدان بسلام ، ولم يحدث إلا النزر اليسير جداً من الصراع أو العنف .

وقبل ذلك قضت أسبانيا الشطر الأكبر من قرن كامل من الزمن ، تعد العدة لثورة تحررية . ولعلك ترى أننا لم نذكر إلا القليل مما مر بها من تجارب بعد سقوط نابليون . والقصة كلها لا تروى إلا حكاية اضمحلال ومذلة ، أو انتشار الجهالة المطبقة على شعب بأكمله ، أو سوء تعليم أو عدم كفاية بظل الكنيسة الكاثوليكية التابعة لروما . وهى حتى الآن أكمل مثال على انحلال الإمبريالية وانهيارها . وقد سبق أن أشرنا إلى الجنرال بوليثار ، وإلى ضياع المستعمرات الأسبانية الضخمة بأمريكا ، وكيف حدث ذات مرة واحدة فقط أن بريطانيا العظمى والولايات المتحدة وصلتا إلى مرتبة التعاون الذكى بقصد حماية الديمقراطية في العالم الجديد . (ف ٣٦ ق ٦) . فإن كاننج ذلك السياسى البريطانى العظيم نادى بضرورة انشاء جمهوريات العالم الجديد قائلاً إن ذلك بقصد : « إصلاح توازن العالم القديم » . ولم تبق لأسبانيا في النهاية سوى كوبا . ويتحدث القسم نفسه (ف ٣٦ ق ٦) عن الثورة المضادة التى ظلت مندلعة في أوربا زهاء أربعين سنة .

وقد كان الكفاح في سبيل الفكر المتحرر والحرية البشرية شاقاً وعراً ككفاح الصاعد جبلاً ، ولعله كان أقل استيئاساً في بريطانيا العظمى منه في أى

١٥٤٧

مكان آخر في العالم عدا أمريكا . وكانت قبضة الظلم تقوم في أسبانيا على أسمع صورة وأثقلها وطأة ؛ ولكن تحرير أمريكا الجنوبية حافظ على روح الفرد حية صاخبة . ولا بد أن أسبانيا كانت أشبه الأشياء بجحيم لا يطيقه ذكاء وطني أثناء تلك الفترة الطويلة من التدلى الأرستقراطي والنقي . وكانت تتعاور عنها أدوار من العصيان الغاضب الذى لا يستمتع بالقدر الكبير من الذكاء مع فترات من القمع والسرقه . واستمرت البلاد في جهالة بالغة تدور حول صراعات بين بوربونيين لهم أشكال وسحن مختلفة وبين كارلوسيين^(١) وما شاكل ذلك وقواد استبداديين يتخذون مظهر « الرجال الأقوياء » وبين ملك متطفل منتخب وافد من سافوى اسمه أماديو . وظلت كوبا في حالة عصيان منذ ١٨٦٩ فصاعدا . وكان الأسبان يمنحون الكوبيون في بعض الأحيان تساهلات غير مخلصه ، وكان « رجال أقوياء » يخرجون في أحيان أخرى للقضاء على المتاعب .

وفي ١٨٩٧ أخذت الولايات المتحدة تهتم بالأعمال الوحشية التي يرتكبها أحد دعاة القمع الصارم الجنرال ويلر ، وتعبّر عن رأيها في ذلك بصراحة للحكومة الأسبانية . وسرعان ما أصبح ذلك الجنرال أكثر ليّنا ومراضاة ، ولكن الذى عجل بالحرب فجأة نسف سفينة حرية للولايات المتحدة هي « المين Maine » بميناء هافانا . وعندئذ طالبت الولايات المتحدة بجلاء الأسبان فوراً عن كوبا وأعلنت أسبانيا الحرب عليها في (١٨٩٨) . ودمر الأميرال دبوى أسطول أسبانيا الشرق في خليج مانيل ، ودمر الأسطول الأسباني الغربى في سانتياجو كوبا ، واستسلمت كوبا للأمريكيين ، وبذلك انتهت الحرب . وبعثاً استنجدت الحكومة الأسبانية بالبابا ، وهي الابنة المخلصه للكنيسة — كما استنجدت بعاهليات رجعية أخرى ترجوهم التدخل ، ولكن صيحتها ذهبت أدراج الرياح ، وتنازلت أسبانيا في المعاهدة التي أبرمت بعد ذلك عن كوبا وبورتوريكو وجزر الفلبين وجزر

(١) الكارلوسيون هم أنصار الدون كارلوس دي بوربون (١٧٨٨ - ١٨٥٥) المطالب هو وأحفاده بعرش أسبانيا من فرع الأسرة المالكة الذى انتهى بالفونسو . (المترجم)

سولو ، أى أنها تنازلت فى الحق عن كل شىء باقى لها وراء البحار عدا مراكش .
 وحدثت ثورات شعبية فى برشلونة وسرقسطة ، وكان الذى أخذها هو الجنرال
 ويلر — ولكن حركة النهضة التحررية الأسبانية كانت تزداد فى كل يوم قوة ،
 وشرع عدد من مفكرى الأسبان وكتابهم يتوفرون على مشكلة أسبانيا الجديدة .
 وتولى ألفونسو الثالث عشر فى ١٩٠٢ . وتزوج من الأميرة الإنجليزية فكتوريا
 أوجينى وهى حفيدة الملكة فكتوريا ، وبنت أخت ادوارد السابع ملك بريطانيا ،
 وقد اعتنقت الأميرة المذهب الكاثوليكي لهذا الغرض خاصة ومنحها البابا
 وسام « الورود الذهبية » دلالة على عطفه الخاص عليها . ومن الطبيعى أن ملكية
 متفوقة يدعمها عسكريون لابد أن تكون لديها حرب دائرة الرضى فى مكان ما ،
 وكادت مراكش فى ذلك الحين أن تكون المجال الوحيد المفتوح أمامهم هم وأصحاب
 الامتيازات والمنح الاستغلالية الذين لابد أنهم كانوا خلطاءهم .

وكانت حرب مراكش تستنفد عدداً ضخماً من الجند الشبان الذين يذهبون
 إلى مراكش فلا يعودون ، وتستلزم المطالبة بالمزيد من الضرائب المجندين حتى نفذ
 صبر الشعب . وحدثت ثورة فى برشلونة حيث أقدم الناس فى تقدير واضح لمصدر
 ما هم فيه من بلاء على حرق الكنائس والأديرة . ذلك أنهم كانوا يعلمون علم اليقين
 أن الأبروشيات لا تدفع ضرائب ، وأن الكنائس رمز للقمع الساحق لكل فكر ،
 وكان طبعياً أن تعد رمزاً للانحطاط القومى الذى حل بهم .

وكانت ثورة برشلونة تلقائية سيئة التنظيم ، فقمعت بعد قتال دام ثلاثة أيام .
 حتى إذا أخذت الثورة قبضت السلطات على رجل من عظماء التربويين بأسبانيا اسمه
 « فرر Ferrer » ، كان أسس « مدارس علمانية » بقطلوניה ، — وأعدمته فى (١٩٠٩)
 دون أن يكون له يد فى الثورة . وكان الرجعيون يستطيعون قتال أعدائهم فى أرض
 الوطن ، ولكن الحال بمراكش كانت مختلفة جداً . وكان رجال قبائل الريف قد
 أنزلوا هزيمة منكرة بالماريشال مارينا قبل إعدام فرر ببضعة أيام . وظل الشعب
 الأسباني ينزف دماءه بمراكش قبل حرب ١٩١٤ — ١٩١٨ وبعدها ، حتى حلت

١٥٤٩

بهم هزيمة قاضية في ١٩٢١ على يد الأمير عبد الكريم الخطاطي^(١) . فإن جيشاً عدته تسعة عشر ألفاً لقي الهزيمة والذبح ، ولم ينج منه سوى تسعة آلاف فروا إلى المنطقة الفرنسية .

ولعلنا بهذا قد وفينا تلك الحركة الجمهورية وأسباب تقويتها حقها من الحديث ، وأوضحنا لماذا حصلت على أغلبية كبيرة في مجلس الكورتيز الذي عاد إلى الانعقاد بعد أن ظل لا يدعى للاجتماع مدة ثمانية أعوام ، وكيف أن الملك ألفونسو شعر بدنو الثورة ، وكيف أنه لدن سماعه أصواتاً في الشوارع حزم أمتعته وفر تاركاً أميرته البريطانية لتتبعه بعد بضعة أيام دون أن يمسه أحد بسوء هي وأسرتها وورثتها الذهبية (١٩٣١) . وجاء بعده حكم جمهوري برئاسة الرئيس زامورا ومعه آزارا رئيساً للوزراء . فوجدا نفسيهما تلقاء عبء ضخم من الإصلاح الاجتماعي .

لقد استنزفت الكنيسة وعلية القوم دماء البلاد حتى خارت قواها ، وصارت متأخرة عن الزمان بمئتي عام . وكانت بحاجة إلى آلاف من المدارس الأولية ، واستلزم الحال لإعادة بناء صرح التربية لإعادة تامة ، وكان لا بد من توزيع المزارع الضخمة المهملة التي تملكها الكنيسة والسراة على الفلاحين ، وكان لا بد من إنقاذ الصناعة من برائن الاحتكاريين من أصحاب المنح والامتيازات . وكان ذلك وحده عملية جبارة هائلة . ولكن الحكومة الجديدة اضطرت أيضاً أن تتفاهم مع قطالونية ومع الانفصاليين من الباسك . ومع نفاذ الصبر الساذج الفجيج الذي أبداه الأميون الجهلة الذين كانت هذه الحكومة تحررهم وأبدى زامورا شيئاً من الميل الرجعي ، وأحدث الملكيون بعض الفورات التي أثارت عليهم خصومة اليمينيين واليساريين على السواء . وكان آزارا يعبر عن الرأي التحرري اليساري ثم اعتقل في ١٩٣٤ . ثم انتخب في ١٩٣٦ رئيساً بدل زامورا . ولكن الاندفاع نحو اليسار أصبحت آنذاك

(١) الأمير عبد الكريم الخطاطي (١٨٨١ - فبراير ١٩٦٣) قائد الريف العربي . أنزل بالأسبان تلك اديمة الماحقة في ١٩٢١ . ولكن جيشاً فرنسياً ضخماً بقيادة بيتان أرغمه على التسليم في ١٩٢٦ . ولفى ل جزيرة ريونيون بالبحيط الهندي . وسمح له في ١٩٤٧ . بالعودة إلى فرنسا ، ولكنه لم يأت إلى مصر في طريق عودته حيث ظل بها إلى أن مات بطلا من أبطال العروبة . (المترجم)

أشد عنفاً . وأصبح من المحال إبعاد جماهير المدن عن الأديرة والكنائس . وكانت كراهية الفلاحين لقسوس الأبرشيات من الشدة بحيث أصبحت مقلقة . فإزاء هذه الحالة أصبحت الحكومة الجديدة عاجزة تماماً عن خلق العهد السعيد المرتقب . فاتهمت ببطء الحركة وقصّر مدى التقدم عما ينبغي أن يكون عليه الحال . واضطرت أن تواجه إضرابات لا تمت إلى التعقل بأذى سبب وتجاهه اتحادات نقابية فوضوية ، اعتنقت ضرباً من التأثير بمذهب روسو يخالطه التذاذ بالوسائل العنيفة . (ويجد القارئ عن ذلك بياناً ممتعاً كتبه رامون سندير في كتابه (« سبعة أيام أحد حمراء Sundays » ، وهو كتاب له قدره الجوهري) . ومع ذلك استمرت هذه الحكومة في كراسيها بشجاعة وصلابة ، فلولا أن قوى الرجعية المتجمعة هاجمتها فلعلها كانت ترفع أسبانيا حتى تقف صفافاً وفي تعاون فعال مع ديمقراطيات الأطلنطي .

وقد حاول مغامر عسكري اسمه فرانكو (١٩٣١) أن يعلن تصريحاً جمهورياً يقوم في ظل الملكية . ثم عفت الحكومة عنه ووكلت إليه إمرة أحد الجيوش بمراكش ، وهناك أيضاً وجد فرصته حيث كان أى رجل نزيه في مكانه يجد فرصة للخدمة وأداء الواجب . فأعلن الثورة على الحكومة المكافحة للأهوال بمدريد (١٩٣٦) . وغزا أسبانيا بجيش من المغاربة ، مدعياً أنه سيرد النظام إلى نصابه ويعيد المسيحية . وحقوق الامتلاك وأى شئ أحس أنه قد يروق قوى الرجعية في البلاد . وأيدته حكومتا الأقليات المطلقة (Totalitarian) بألمانيا وإيطاليا ، التي رأت في أسبانيا احتمالات القيام بحركات خارجية في الكفاح المقبل بينها وبين دول الأطلنطي شبه المتحررة . ثم تلقى كذلك بركات الفاتيكان ، كما حصل أيضاً على عطف فعال من العناصر الرجعية في الحكومات البريطانية والفرنسية ، وهي حقيقة لا سبيل إلى إنكارها رغم إصرار تلك الحكومات الصفيق على نكرانها في البرلمان . وقد بذلوا قصاراهم منذ البداية لتعويق وصول المساعدات والذخائر للحكومة الأسبانية الشرعية ، واعترف كل چنتلمان أوربا بأن فرانكو إنما هو « چنتلمان مسيحي » . فاندفع قُدماً نحو مدريد ، ولكن جند الحكومة صدوه وأوقفوه مكانه ، وأصبحت أسبانيا عند ذاك مسرح مظاهرات لمجموعات القوى الثلاث التي كانت تشغل البشرية آنذاك .

وستناول تلك القوى بترتيبها التاريخي ، فقد كانت هناك أولا المجموعة المعقدة الكبرى من التقاليد والمصالح والكرامات والامتيازات التي ترجع إلى الأيام السابقة للإصلاح الديني البروتستنتي وإعلان الاستقلال الأمريكي والثورة الفرنسية . وقد نستطيع أن نسمى هذه القوة بكل ما يندرج تحتها من قسوسة وملكية عاهلية وقوات مسلحة وغنى وفقر باسم النظام القديم . وقد أخبرناك في كتابنا هذا كيف أن روح الحرية في الإنسان كافحت للتخلص من كابوس الماضي وكيف حدث المرة تلو المرة أن قوى الرجعية قد تسللت عائدة في خفية وإصرار إلى مواطني تحكاتها السابقة . والأمر التالي في الترتيب في استعراضنا هذا هو العنصر الثاني : الروح العسكرية ، فإن الفاتح المغامر جندي العصابات الذي كان أول ما فعله كجندي من المرتزقة أو مترحل من الخارج أو وطني صحاب من الداخل ، أن نظم قوة محاربة لا سبيل إلى مقاومتها مؤقتاً تم وضع يده على زمام النظام الاجتماعي . وهو لا يجتلب معه أية أفكار بناءة ، ولا يصير إلا على شيء واحد هو المدلة الخاضعة والطاعة الطيبة ، ولا بد للنظام القديم من أن يبعث حياً عن طريقه إن عاجلاً وإن آجلاً فذلك هو إيقاع التاريخ . وهو غير صالح إلا وهو مرتد ثوبه العسكري ، ولا بد له من شراء رضا الحياة بشمن . ولا بد أن يقوم على خدمته القسيس وأرباب المنح والامتيازات ، وغالباً ما تكون المرأة الأرستقراطية مستعدة تماماً لتبليغ أخلاقه . والكنيسة الكاثوليكية مستعدة كشأنها دوماً أن تعطي ما لقيصر لقيصر . وبذا يستطيع النظام القديم بشمن بخس هو تجرع الشيء القليل من المدلة الفردية أن يوفق بين نفسه وبين المعتدين الجدد ، وبذا يتجنب لمدة جيل آخر عملية مخوفة من إعادة بناء العالم وتحرير الرجل العادي .

والجموعة الثالثة من القوى المؤثرة في الشئون البشرية أقوى من الإثنين الآخرين أو تكاد . وقد تتبعنا تطورها في هذا الكتاب : المعالم ، منذ فجر نشوء الفكرة في بلاد يونان وفلسطين والهند والصين وأماكن أخرى : بأن في الاصطلاح أنه تكونه هناك مباح أفضل للبشر . والواقع أن هذه الفكرة مرتبطة بالتوسعة المادية المطردة ، التقدمية للمجتمع البشري ، — هي الفكرة الجوهرية التي يدور حولها هذا الكتاب بأكمله . ولم يكن ذلك جزءاً من خطة المعالم الأولى ، ولكن هكذا خرج الكتاب

على أن الرجاء في «قيام أفوة أكبر وأعظم» لم يتجل حتى اليوم إلا بصورة محلية ومتقطعة وغير متماسكة . فالآن وعلى هذا المسرح الأسباني المثير ، تقاربت هذه الدوافع المتناثرة وغير المنتظمة ، الداعية إلى قيام حياة للرجال أفضل ، حيث اجتمعت لتحقيق على الفور روحهم المشتركة وحاجتهم المحزنة إلى سُنّة مشتركة تجتمع حولها رغباتهم . واثال المتطوعون لمعاونة اليساريين الأسبان من كل حذب وصوب في العالم ، وهناك وجدوا أنفسهم مشتركين متماثلين روحاً ومختلفين منهاجاً اختلافاً لا مطمع فيه لبارقة رجاء . وإنهم ليأبون أن يتماسكوا جميعاً حتى وهم غرض لهجوم عاصف متواصل . فكانوا يقتتلون فيما بينهم خلف الجبهة . حتى إذا بذلوا في القتال أشد الجهود بطولية ، أسهموا في النهاية في هزيمة مشتركة .

وهكذا نميز الأقسام الرئيسية الثلاث في الكفاح البشري الدائر اليوم ، كما تجلت في أسبانيا . ولم يبد واحد من هذه الأقسام أى إجماع على الهدف قوى حقاً . فهي لاتزال أقساماً تقوم على الغريزة والتعصب ، لا على الإرادة المفكرة . ففي كل مكان ، توجد احتمالات. لقيام تبادلات ضخمة في القوى . وفي كل مكان تظل عواقب الأمور معماة ونتائجها غير حاسمة .

ومع ذلك فإن الطعنة البشرية المتجهة نحو ذلك النظام الأفضل القائم على الحرية والأخوة تعاود الظهور بعناد لا تفتر له قوة . وهي عمياء تتخبط في مسيرها ، ولكن قد يجئ عليها وقت يصير لها فيه بصيص من بصر ، ووقت تصبح فيه بصيرة تستمتع بالرؤية الكاملة والفهم الصحيح مدركة الغرض المشترك من اندفاعها . هذا وإن ترسمنا لتاريخ الإنسانية إبان السنوات العشرة الآلاف الأخيرة ، فيعلتنا في هذه «المعالم» ، يجعلنا ندرك أننا نسير بحركة قسرية كحركة الأجرام السماوية المضبوطة ، نحو توحيد عالمي شامل مؤسس على ثورة اجتماعية جوهرية . ومع ذلك فأغلب الظن أن تلك الثورة ستكلف نوعنا البشري مزيداً هائلاً لا يمكن حصره من الخسار والدمار والعناء بسبب اتساع الفكر البشري اتساعاً شاملاً لا حد له . وقد يكون للحبوة البشرية حد تقف عنده . ومن المعقول جداً أنه ربما لم تتم هذه الثورة مطلقاً ، وأن نوعنا البشري ربما ترنح

١٥٥٣

في منتصف طريقه إلى هدفه وكبا ثم أخفق دون الوصول إليه . فليس ثم سبب نجده في التاريخ داعيا للزعم بأن الإنسان مستثنى من القاعدة العامة القائلة بأن الفشل في التكيف معناه الإبادة . فهل نحن نتكيف ؟ هل نحن نتكيف بسرعة كافية لتقاء فوضانا الحاضرة ؟

لقد خصصت هذا البراح الكبير وخضت هذا البحث العام في العوامل الأولية في موقفنا الراهن بعد أن كشفها الصراع الأسباني للعيان . على أن التاريخ التفصيلي للصراع الذي دار في تلك السنوات الثلاث ملحمة للبطولة المرتبكة المشوشة تخرج بنا عن مجال هذه « المعالم » . وقد شق فرانكو طريقه قتالا حتى بلغ أرباض مدريد وحصل على موطن قدم في حى الجامعة الحديد قبل نهاية ١٩٣٦ ، ولكنه صد هناك حتى نهاية الصراع في ١٩٣٩ . وفي أثناء تلك المدة ظلت وزارتا الخارجية البريطانية والفرنسية الرجعتان تحافظان على ظاهر من التمسك بالقانون وعدم التدخل ، كان عونا عظيما لفرانكو . وظلت ألمانيا وإيطاليا على معاونتهما العلنية له ، كما واصلت روسيا معاونة الحكومة الشرعية بنفس العلنية تقريبا . ومن ثم أصبحت أسبانيا المعترك والمجتلد الذي تجرب فيه تلك الدول العظمى بأقصى درجات القساوة والعنف تكتيكاتها الجديدة وآلاتها الجديدة . وكانت الجيوش الألمانية والإيطالية تحارب جنبا إلى جنب مع مغاربة سلطان مراکش باسم « القومية » الأسبانية ١١ . فمحت قاذفات القنابل الألمانية من الوجود مدينة جورنيكا الباسكية المقدسة بكل من فيها من السكان في ١٩٣٧ ، وبذلك تسلفت مذبحه روتردام العظمى في ١٩٤٠ . وتقدم شعب الباسك وهو شعب كاثوليكي مخلص إلى الفاتيكان باستغاثة يائسة محزنة لم تجده نفعا . وظلت الحكومة الجمهورية تكافح حتى ابريل ١٩٣٩ وعندئذ دخل فرانكو مدريد منتصرا .

١١ - قيام النازية

هناك كتاب ألفه هانز فالادا وجعل عنوانه : « وماذا بعد أيها الفتى الصغير ؟ » وهو أحد تلك الكتب التي يبرز فيها القصص المؤرخ في عرضه لحوادث فيه وبسببه

الأحداث ؛ وهو كتاب يمثل الحالة العقلية لشاب ألماني في السنوات التي أعقبت الحرب . إن « فتاه الصغير » ذاك شاب عاطل ذليل مهان ومدفوع قسراً إلى التمرد . وهو يقع في الحب ، وتصير أبوته شيئاً مخجلاً ومستقبل كل طفل يلد له هو الوقوع بين برائن نقص التغذية والاستعباد . وليس أمامه مخرج يخرج به من حاله البائسة إذ ليس ثم وراء البحار عالم يستطيع رجل أن يبدأ فيه حياته من جديد . فما السبب في كل هذا البلاء ؟ ليس هناك من أحد يحدّثه عن حماقة ١٩١٤ الصلغة المتكبرة وكل ما يقرأ ويسمع مشبع بالإشارة إلى أن (عقوبة) ثراسى كانت شديدة الإجحاف . وأنه لن يكون إنساناً من البشر إن هو لم يتقبل الفكرة القائلة بأن الجيوش الألمانية لم تهزم في ١٩١٨ ، (وهو أمر حدث بكل تحقيق) ؛ بل كانوا ضحية الخيانة والغدر . خانتهم الدعاية البريطانية الخبيثة وأضاعهم من الداخل الخيانة . وإذن فإن كل هذا الفقر الذي يروح تحته إنما يرجع إلى الحصار البحري الجائر الذي ضرب على بلده وإلى ما تحملت من عبء التعويضات الفادح وإلى دسائس الدوائر المالية العالمية سيما اليهودية وإلى جشع اليهود . وإذ لا يجد أن معظم أصحاب الأعمال الذين يذهب إليهم يائساً يكونون من اليهود - أو يلوح أنهم من اليهود . وأن اليهود يخفون إبان أيام الفقر ويزدهرون أيام الرغد . وربما يكون بعضهم ازدهر ازدهاراً شديداً للمعان قليلاً أثناء السنوات التي أعقبت الحرب . وإن « الفتى الصغير » الذي كان طفلاً غريباً في ١٩١٨ والذي لم تسمع أذناه إلا حديث الانتصارات المحيطة حتى حلت ببلاده كارثة الانهيار وما أعقبه من جوع وفاقة ، لينظر شزراً إلى المطاعم ويرمق ببصره واجهات الدكاكين . فهل يتحول إلى البلشفية ؟ ولكن أينسى أن الديمقراطيين الاشتراكيين ومعهم الشيوعيون كانوا مشتركين في المؤامرة التي أسقطت جبهة الوطن ؟ إن حزب الديمقراطيين الاشتراكي يقدم للفرنسيين والبريطانيين كل أنواع التنازلات ، ولكنه لا يحصل مقابل ذلك على شيء - لا يحصل على شيء يحرمني مما أنا فيه . تلك هي الحالة العقلية لجيل كامل جديد من الألمان ، وللملايين من الشباب الذين ضاقت عليهم الأرض وأذلّتهم الأيام . وأخذت تلك الحال تجمع القوى المتفجرة المدمرة في أيام الانهيار المالي التي عجلت بانصباب كل شباب البرجوازية

١٥٥٥

بأجمعه في طبقة الخنة المفسدة . وقد كان الشكل الخاص الذى تشكل فيه الانفجار ثمرة لصدفة فردية بحتة . واتخذ شكل حرب ضروس كانت أشد الحروب التى منيت بها الإنسانية وأجلها للكوارث عليها .

وكانت الجمرة المتقدمة التى أشعلت هذا المخزن البشرى المكسب بما لا يطيق من أحمال ، رجلاً اسمه أدولف هتلر ، وهو مخلوق مطبوع على الهيجان وكثرة الهز في عرق لا شك فيه يمت إلى الجنون بسبب كبير . وقد زعم بعضهم أن اسمه الأصلي شكلجروبر (Schückigruber) على أن هذا يعد ضرباً من التشهير به . وكان أبوه رجلاً يسمى ألويس شكلجروبر ، وهو ابن غير شرعى لامرأة تسمى شكلجروبر ، ولكن ألويس تربى في بيت رجل شُهر عنه أنه أبوه وهو هتلر ، وهو عامل طحان ، وما لبث ألويس أن اتخذ اسم ذلك الرجل لقباً له فاصبح يدعى شكلجروبر هتلر . ثم أسقط من اسمه لفظ شكلجروبر بسبب بعض دواعى العنجهية والترفع فيما يحتمل . وكان ألويس على شئ من الهمة والطموح ، وكانت له زوجات ثلاث وأحاطت به الظلال حول أطفال شرعيين له وأطفال غير شرعيين ، ولكنه كافح حتى بلغ مرتبة كريمة وأصبح يلقب بالمرء الموظف الكبير هتلر^(١) في خدمة الجمارك . وكان يظهر إصراراً صارماً على التلقب بلقب السيد الرئيس (المرء أوبر) . ثم مات فجأة وابنه لم يبرح تلميذاً بالمدارس ، وترك أرملته في يأس مدقع .

وقد كشف النقاب عن هذه الحقائق وعن تفاصيل حياة هتلر الأولى ، بكل عناية وأمانة رجل اسمه الدكتور رودلف أولدن في كتابه : « هتلر الجندي » . وإن معظم ما جاء في كتابه « كفاحي Mein Kampf » أو سرد على مسامع من حظوا بلقائه من بيانات عن تربيته ومطامحه وأعماله العسكرية العظيمة وما إليها ، لم يحض الخلق أو تسويهاً جريئة للحقائق . وقد أخفق هتلر في دراسته بالمدارس تمام الإخفاق ، ولم يستطع أن يحصل على المؤهل اللازم لدخول مدرسة الفنون التابعة لأكاديمية فيينا . وحدث في عقله شئ غامض لا نعرفه عندما شارف المراهقة وتطور فيه ضرب

مشهور من الجنون يتمثل فيه هو وأشياء أخرى في صورة بغض فاحش لكل غريب ذكر . وهو داء يوجد بالمنطقة الجنوبية من الولايات المتحدة ويتخذ بوجه خاص لزاء الزنوج وكثيراً ما يؤدي إلى أعمال القتل فيهم على يد الأفراد أو الأحزاب التي تنزل بهم قصاصها بيدها دون انتظار الحكومة ، وتركز الداء في حالة هتلر على اليهود . ولا شك أن انحصاراً نفساً^(١) من هذا النوع يجرّد المرء من إنسانيته ويضيق الخناق على ألوان نشاطه ويحددها ويصبح مصدراً للطاقة السقيمة الويلة . وقد طرد من الجيش قبل ١٩١٤ ، ولكنه تطوع قبل نشوب الحرب وأصبح يشتغل مراسلة . غير أنه لم يرتق قط فوق مرتبة أومباشى . وحصل على وسام الصليب الحديدي من الطبقة الأولى ، ولكن أحاديثه عن طريقة حصوله عليه تختلف اختلافاً بعيداً . على أن ملف خدمته في الجيش النظامى (Reichswehr) والحرب قد أتلّف .

وظل هذا المخلوق غير المستقر يعيش في دنياه حالماً متحدثاً إلى نفسه أثناء السنوات القائمة السابقة للحرب ، ويبدو أنه لم يكتسب عيشه قط من صنعة ولا حرفة ، وأنه انحدر حتى لبس الأطوار البالية وسكن البيوت الرثة ، وطرد من الخدمة بالجيش النمساوى بسبب عدم لياقته ، ولكنه عاد فتطوع في ١٩١٤ ، واشتهر بين رفاقه في جبهة القتال بأنه ثرثار هاذر ، وحدث بعد ذلك في ميونخ أن فيضانه الدافق المتزايد من الكلمات كان واضحاً لكل من تحدث إليهم . وكانت بافاريا بعد ١٩١٨ مباشرة في حالة اضطراب شديد . فقامت بها جمهوريتان سوفيتيتان ، ثم رجعية عسكرية . ونظمت هيئة أركان حرب الجيش البافارى ندوات المناقشة السياسية لتربية وعى الشعب وتحذيره من الشيوعية ونزعات التهذئة والسلام . وتحركت عواطف هتلر في أحد هذه الاجتماعات الذى عقد ببعض ثكنات الجيش ، فألقى ضد اليهود خطاباً مقذعاً ..

(١) الانحصار النفسى (Obsession) حالة مرضية مظهرها فكرة مساورة ملحة أو منبهة ، تكون مصطبغة عادة بصياغ قوى من الانفعال ، وتنطوى كثيراً على دافع يحدو إلى الإقدام على بعض الأعمال .
(المترجم)

١٥٥٧

ملتهباً عنيفاً كان له وقع عظيم في أنفوس سامعيه . وكانت عاقبة ذلك أن عين « ضابط تعليم » . ومنذ تلك اللحظة لم يعد مجرد خطيب سليط غير مسئول .

واضطلع هتلر بأعباء منصبه الجديد بحماسة . فكان يغشى ثكنات ميونخ ومقاهيها بفصاحته السيالة . وأنشأ على التعاقب حزب العمال الألماني ، ثم حزب العمال الألماني القومي الاشتراكي ، الذي تحول إلى الحزب القومي الاشتراكي . وكان ذلك الحزب يقدم للناس توليفة مخلطة تجمع بين الاشتراكية والوطنية ومهاجمة اليهود والنشاط الإرهابي والوعود الضخمة ؛ وهي الشيء الذي كان « الرجل الصغير » يحس أنه بحاجة إليه .

لقد نكفت بيضة الجيش عن فرخ أكبر مما كان يقصده . وفي ١٩٢٣ أخذ الحزب القومي الاشتراكي ينمو بنسب هائلة كما كون هتلر تحالفاً مع الجنرال لودندورف ، الذي كان يثير عند الناس دائماً فكرة خوض حرب انتقامية ، فحدث عصيان (Putsch) كان محاولة طائشة للاستيلاء على السلطة في ميونخ والزحف على برلين . ولكن الحركة فشلت فشلاً غير كريم ، فاستولى الحزب القومي الاشتراكي على دار البلدية ، ثم تنازعوا أمرهم بينهم وزحفوا على مركز قيادة الجيش . وهناك أطلق عليهم البوليس النار . وانبطح هتلر على الأرض فأصيب ذراعه برضوض ثم أطلق ساقيه للريح . وجرح جورنج نجيحه وشريكه وفر هارباً هو الآخر . وذلك على حين أن الشجاعة وغرور الكبرياء دعت لودندورف الشيخ الشهم أن يسير ثابت الخطى بين طلقات الرماة الماهرة حتى أخذ أسيراً بين الإكبار والإعجاب .

ولم يكن كل ما حصل ليزيد عن قصة تافهة ربما كان هتلر يمر بعدها من التاريخ لولا وجود تلك الجمهرة من الشباب المتجمعة في الخلفية . وهم لم يكونوا فقط في الخلفية . إذ انهم جاءوا إلى المحكمة ليصيحوا في صالحه ، وكانوا يصيحون آنذاك وبزحفون في كل أرجاء ألمانيا ، ودخل هتلر سجن لاندسبرج على اللبغ لمدة ستة أشهر ، كتب فيها كتابه « كفاحي Mein Kampf » ، وهو إنتاج أمي أشبه بإنتاج تلامذة المدارس ، كتاب رخيص تافه كمجاجة من جعة أزيلت من فوق منضدة بلحدي

المقاهى ، ولكن ذلك الكتاب بُجّل وقُدّس وجعلت مطالعته إجبارية فى كل أرجاء العالم الألمانى .

وتقع فترة عهد شترزيمان فى التاريخ الألمانى بين محبس هتلر فى ١٩٢٤ إلى تجديد نشاطه فى ١٩٢٩ . وقد بدأ جوستاف شترزيمان سيرته وطنياً متحمساً ؛ وقد وجه بواكير نشاطه لأول عهده بالحياة العامة بإثارة المشاعر للمطالبة بإنشاء الأسطول الألمانى ليكون تهديداً فعالاً لبريطانيا ، إن هى تدخلت فى الحرب ضد روسيا وفرنسا وذلك أثناء فترة وضع الخطط لها قبل ١٩١٤ . وواصل شترزيمان القيام بجهوده الوطنية الحامية طوال الحرب ، وظل مثابراً على ذلك حتى بدأ يدرك فرص الموقف الألمانى وأخطاره الحقيقية بعد ١٩١٨ . ثم عاد فأتخذ خطة التسامح والمساهلة وكان ذلك بفضل الجهود الدبلوماسية الكبيرة الاقتدار التى بذلها اللورد د . أبرنون السفير البريطانى . فوجه جهوده لتخفيف دفعات الديون المفروضة على بلاده تخفيفاً مطرداً ، ونصّب نفسه لتحرير الأراضى الألمانية من الاحتلال الأجنبى . وأخذت الخبرة توسع آفاق عقله ، حتى أمسى صديقاً حميلاً للمسيو بريان ، كما أصبح فيما يبدو مدافعاً أصيلاً يدعو معه إلى الاتحاد الفدرائى الأوروبى . وأصبح من المقرر بالقطع أن الأراضى الألمانية ستتححرر من آخر جندى أجنبى فى ١٩٣١ . ولكنه لم يعيش ليشهد ذلك اليوم ؛ إذ توفى فى ١٩٢٩ . ولذا لم يحس تقريباً ببدايات العاصفة الاقتصادية العالمية التى كانت تتجمع من حوله . كما لم يدرك الشر المستطير الكامن وراء تلك العصابات المكونة من أولئك الشبان القلقين الذين كانت نفوسهم تغلى تمرداً فى كل مدينة من مدن البلاد . إذ أن عقله كان ينصب بكليته على أفكار الدبلوماسية القديمة .

وقد أسلفنا إليك الحديث فى القسمين السابقين من هذا الفصل عن الانهيار النقدى الذى حدث بعد الحرب والذى بلغ ذروته فى ١٩٢٣ ، وكيف جاء أوان حاول فيه الناس عمل تأهيل مزعزع للمناهج النقدية ، وكيف حدث أخيراً فى ١٩٣٠ - ١٩٣١ أن خرّ النظام بأجمعه منهاراً . كارثة مالية عمت أرجاء العالم قاطبة . وهنا وافق هتلر فرصته الثانية . وكانت أدواته القريبة المباشرة حركات الشباب

المتوعة التي ازدهرت بألمانيا بقدر ما ازدهرت حركة الكشف الموازية لها بالإمبراطورية البريطانية ، ولكن مع اختلافات ضخمة في الروح والهدف . ولكي يستطيع تنظيم قوة منظمة موحدة الزى من أدواته تلك التي ذكرنا وأعنى بها شباب ألمانيا ، كان لابد له من العون المالى ، وقد حصل على ذلك المال اللازم من المالىين القائمين على الصناعات الثقيلة ، التي كان ازدهارها يستلزم العودة إلى التسليح ، والتي كانت من ثم عدوة لدودا لسياسة السلام التي ينتهجها شترزيمان . فقدم نفسه إلى أولئك الأقطاب في صورة معاون كفاء لهم في القضاء على الاضرابات ووسيط نافع لهم في تحويل قلق الجماهير عن وجهة الثورة الاجتماعية وتوجيهها إلى حملة صليبية تدعو إلى الوحدة الألمانية . فاستطاع الحصول على تأييد هوجنبرج مدير مصانع شركة كروب العظيمة ومنشئ الحزب « القومى الاشتراكى الألمانى » وزعيمه . وكان هوجنبرج اشترى شبكة ضخمة من الصحف ودور السينما وما إليها ، وكان رجلا قصيرا أشيب متغطرسا ميالا إلى التحكم ، وقد زعم أنه بذلك قد اشترى هتلر . ولكنه أخطأ في هذا الزعم . وكذلك ظن روهم (Röhm) أنه قد استمال هتلر كى يملكه هو وفرقة الصاعقة S.A ناصية الجيش الذى أخذ ينتعش ويتسع .

وبذلك أصبحت بين يدى هتلر وخطائه الأقربين ومن ورائهم رجال الصناعة أعظم الموارد الممكنة للقيام بحملة شديدة لاسترجاع الروح العدوانية إلى ألمانيا ، فاندفعوا يقومون بالمهمة بأقصى همة ونشاط . ونظمت في البلاد كلها روح العنف على اليهود وعلى المفكرين وعلى الشيوعيين . وهدد الأخيرون بالإبادة التامة . وكان عملهم هذا محاكاة دقيقة لحملة الوحشية والارهاب التي نهضت بها الفاشية وتسلمت مقاليد القوة بإيطاليا ، ولكن حملة هتلر كانت نظامية أكثر وكانت أوسع مدى وأشد وحشية . وفى ١٩٣٠ كان للحزب القومى الاشتراكى اثنا عشر عضوا فى الريخستاج ، بعد أن كانوا فى ١٩٢٤ أربعة عشر . ثم ظهر الحزب فى ذلك المجلس بعد انتخابات سبتمبر ١٩٣٠ وقد أصبح ممثلوه مئة وسبعة ، يمثلون ستة ملايين ونصف المليون من الناخبين . وهكذا ارتقى هتلر إلى الثلاثة عشر مليوناً الذين أعطوه

أصواتهم في انتخابات الرئاسة في ١٩٣٢ مقابل التسعة عشر مليوناً التي حصل عليها الماريشال الشيخ هندنبرج .

والغدوات السياسية والروحانيات التي أعقبت ذلك أعقد من أن يتسع لتفاصيلها هذا المقام . وفي يناير من ١٩٣٣ تراجع الماريشال هندنبرج - وقد تجاوز آنذاك الخامسة والثمانين وأصابه انحلال الشيوخوخة المفرد - عن تصريحاته التي طالما كرر فيها قوله : « اني أقسم بشرقي كقائد بروسي أني لن أفعل تلك الفعلة » - وفعل الفعلة وعين هتلر مستشاراً إمبراطورياً للدولة . والراجع أن الرجل العجوز نسي تصريحاته ! ! ! ! .

على أن هتلر كان حتى ذلك الحين لا يزال واقعاً في قبضة الجيش ورجال



(شكل ٢٢٣)

(صورة هتلر)

الصناعة ، وبعبداً بعداً شديداً عن مرتبة الدكتاتورية الحقة . وقررت مجموعة أخصائه القيام بانقلاب . فأشعلوا النار في الريخستاج (٢٧ فبراير) وأعلنوا أن ذلك جزء من مؤامرة شيوعية شملت الشعب كله وقاموا بحملة ضارية من العنف على الشيوعيين واليهود . وألغيت نقابات العمال وبنوك العمال . واضطر واحد وثمانون نائباً شيوعياً في الريخستاج الجديد إلى الاختفاء أو الفرار إلى الخارج أو وضعوا

في السجون . وبإلغائهم من ذلك المجلس أصبحت لهتلر الأغلبية الفعالة فيه .

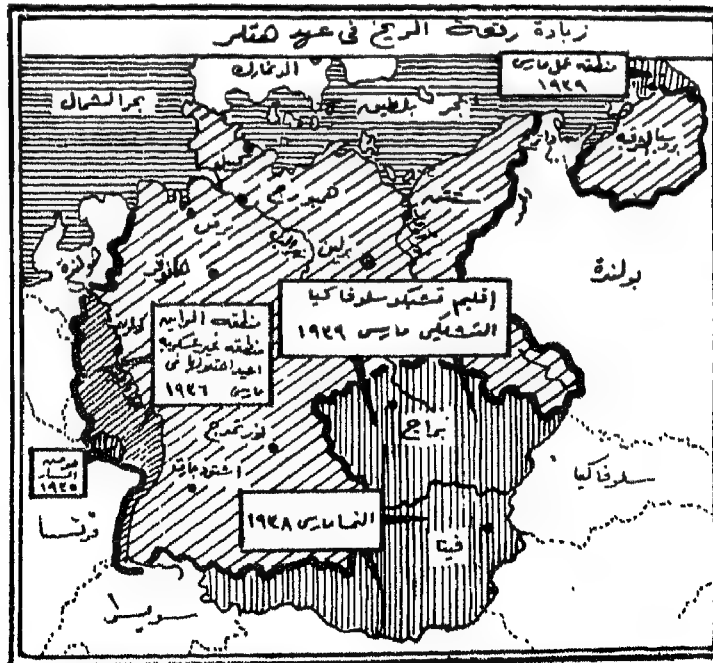
ونجحت عن ذلك حادثة طريفة . فإن الجهاز الارهابي التابع للحزب الديمقراطي الاشتراكي كان فرقة الصاعقة S.A ، وهي جند الصاعقة غير القانونيين الذين نظمهم (روهم) أيام نزع السلاح من ألمانيا . والآن وقد أخذت البلاد تتسلح بجرأة تحدياً للالتزامات التي نصت عليها المعاهدة ، فإن فرقة الصاعقة S.A أصبحت من وجهة نظر الجيش النظامي (The Reichswehr) طغمة مشاغبة ولا ضرورة لها . وقرر هتلر

١٥٦١

التضحية بها . ومن ثم فإن روهم وجريجوز شتراسر وعدداً من الرجال الذين كانوا أشد أخصائه قرباً منه وولاء له في أيامه الأولى ، والجنرال فون شليخر وزوجته وعدداً غفيراً من زعماء فرقة الصاعقة SA أغتيلوا في « حمام الدم » الذي حدث في ٣٠ يونية (١٩٣٤) . ومن بعدها لم يعد هتلر زعيماً للشعب الألماني بقدر ما هو الإله الشاخص أمام أبصاره . ومنذ ذلك الحين أخذت ألمانيا تنحدر بقيادة ذلك المخلوق المخبول الثرثار نحو طريق الحرب رويداً رويداً .

١٢ - العالم ينحدر نحو الحرب

دبر هتلر خطة الحرب فانزلت إليها العالم دون أن يبدل أى جهد لتجنبها . كانت المحاولات الجادة الوحيدة هي التي بذلها الاتحاد السوفيتي ، الذي اعتبر نفسه موضع التهديد المباشر من النازيين . وقد انضم الاتحاد السوفيتي إلى عصبة الأمم في ١٩٣٤ ، فقلب بذلك سياسة لينين رأساً على عقب ، وقرر في السنتين التاليتين كما أشرنا آنفاً أن يحمل الأحزاب الشيوعية بكل أرجاء العالم على تبني سياسة « الجبهة



(شكل ٢٢٤)

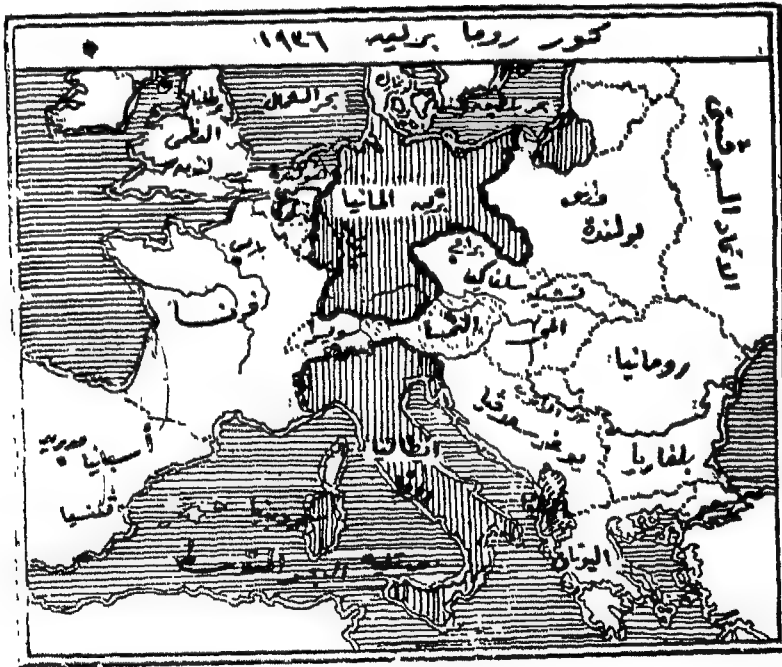
المتحدة» التي تهدف إلى تقوية الحركات المضادة للفاشية بالأقطار الأخرى . وبينما كانت الكارثة تقترب اقترح ليتشوف أكثر من مرة القيام بمقاومة مجتمعة لتقدم المحور ، وهو أمر ظلت الحكومات البريطانية والأمريكية والفرنسية تتجنبه على الدوام .

وكان هناك سببان أورثا بقية العالم ما كان فيه من قصور ذاتي . فأما في الولايات المتحدة فالسبب هو إطلاق العنان لأمانى لا يمكن أن تتحقق . وقد وجهت الولايات المتحدة أثقل ضربة للسلام العالمى حيث انسحبت من العصبة منذ ابتدائها ، ومنذ تلك اللحظة أصبح من العقائد القومية تقريباً أن تتجنب أمريكا التورط في الحرب القادمة بطريقة بسيطة هى الامتناع عن أخذ أى دور في الشئون الأجنبية . وكان الرئيس روزفلت هو السياسى الأمريكى الوحيد الواسع النفوذ الذى رأى في نمو النازية خطراً قد يهدد الولايات المتحدة ، ولكن تصريحاته في هذا الأمر (كخطابه في « الحجر الصحى » مثلاً) لم تكن بالكثيرة ولا القوية ؛ وتلقاها الناس في أمريكا بغاية الفتور . وحدث في عهد متأخر هو يوليو ١٩٣٩ ، أنه اقترح تعديل قانون الحياد ، فأبى مجلس الشيوخ قبول ذلك . ومع ذلك فإن حكومتى بريطانيا وفرنسا لم يكن في استطاعتهما أن تدعيا لنفسيهما أن قيام النازية لا يعنهما في شيء . ومع ذلك فلنهما كانتا تعمدان إبان عدد من السنوات إلى القيام بأعمال من شأنها أن تبني قوة الدولة التى ستدمرهما . ولا بد أن الأسباب التى دعتهما إلى ذلك كانت تقوم على الخلدس والتخمين . ولا يكتفى أن يقال إنهما انتهجتا ذلك النهج لأنهما دولتان عجوزتان وغنيتان داخل الخوف قلبيهما . ولجأت في بريطانيا بوجه خاص في الإصرار على اتباع تلك السياسة (بعد تقاعد مكدونالد وبلدوين) مجموعة رباعية من الرجال هم : نيشل تشمبرلن ولورد هاليفاكس والسير چون سيمون السير صمويل هور ، وهم رجال مكهلون حقاً ، ولكنهم أقوياء وعُنداء وأمناء بشكل فادح كارث . ويبدو أن ما كان يحرك هؤلاء الرجال إنما هو فكرة خاطئة تماماً عما كانوا يواجهونه ، نشأت لديهم عن ضرب مقلوب من الفهم تبادر إلى أذهانهم جول حرب الطبقات . فلنهم رأوا أن النازيين والفاشين كانوا متى انتصروا يقضون تماماً على تنظيمات الشيوعيين

قبل كل شيء ثم على جميع اتحادات العمال والأحزاب الاشتراكية ، وأنهم كانوا يخدمون كل « مخالفة للنظام » وأنواعاً مختلفة من النزعات العصرية غير الصحية في الفنون والأخلاق ، وأنهم كانوا يدرّبون الشباب تدريباً معجباً على القارين العسكرية العنيفة ، وأن مواردهم المالية تعود إلى المساعدات التي يمنحها لهم رجال الأعمال الناشطون . ويبدو أن المحافظين بكل من بريطانيا وفرنسا كانوا يشعرون إزاء هذه المسائل بروح العطف والزمالة للنازيين والفاشيين وإن أحرزتهم فجاجاتهم ووحشياتهم (وإن كانوا على يقين تام بأن تلك الأعمال الفجة والوحشية كانت مبالغاً فيها كثيراً) . ثم إنهم افترضوا وجود مشاركة وجدانية مماثلة لهذه عند الجانب الآخر . وكانوا على يقين من أن الاتحاد السوفييتي والاتحاد السوفيتي وحده هو عدو المحور اللدود ، وأنهم هم الذين يستطيعون وحدهم وبغاية السهولة الوصول إلى تسوية شبيهة بالعمليات التجارية مع هتلر وزملائه . وموجز القول أنهم لم يكونوا يعرفون شيئاً عن طبيعة روح (عصابات المجرمين) ، ولم يكن لديهم أدنى فكرة أنه وقع عليهم الاختيار ليكونوا أول الضحايا وأسمها .

ولسنا نجد نظرية أخرى لتفسير التساهل الذي كانوا يرقبون به بل الذي يساعدون به سلسلة الأحداث التي جردتهم أولاً من كل حلفائهم المحتملين ثم أفضت بهم إلى حرب جائحة مزلّلة . وتعاقب الأحداث يبدو الآن وعلى بعد هذه المسافة الفاصلة الطويلة ، أوضح كثيراً من أن يفوت فهمه أحداً عدا الخادعين لأنفسهم . وفي أول الأمر كانت الحرب تنظم على حدة في الشرق والغرب ، ولم تنسق سياستها ألمانيا واليابان من حيث المبدأ إلا في نوفمبر ١٩٣٦ ، ولم يبدأ التعاون الكامل بينهما إلا في أخريات ١٩٣٧ . فإن اليابان لمسارت أن غزوها منشوريا لم يترتب عليه إلا بعض الاحتجاجات الشفوية ، غادرت العصبة في ١٩٣٣ ، وغزت الصين نفسها ، حيث احتلت ولاية جيهول الشمالية تلقاء مقاومة تافهة جداً . وكان السبب في ذلك أن تشيانج كاي شك كان لا يزال شديد الانشغال بإخضاع الشيوعيين ، وكان أحرز عليهم من النصر العظيم ما جعلهم يفرون في ١٩٣٤ من معقلهم الحصينة في وسط الصين ، وبعد قيامه بزحف شديد مدهش قطع به بضعة آلاف من الأميال عاد إلى

الظهور في ولاية كان سو الغربية ، حيث كان الاتصال بالأعداء أصعب . على أن سياسة روسيا الجديدة كانت وصلت عند ذلك إلى الصين ، وتجلت نتائجها في حادثة تسترعى الاهتمام بطريقتها « الصينية » . إذ أن ابن أمير الحرب الذي طرده اليابانيون من منشوريا اختطف القائد تشيانج كاي شك في ١٩٣٦ ، ثم حمله معه إلى مركز القيادة العليا للجنرال ماوتسى تونج قائد جيش الشيوعيين . وبدلاً من إعدامه تفاهم معه ماوتسى تونج وزملاؤه حول الخطر الياباني الداهم ، وأحضرت زوجة تشيانج كاي شك لتشارك في المباحثات . وبعد قضاء بضعة أيام في التباحث والتأمل أعلن الطرفان أنهما قد حصلا على الاستئارة اللازمة وتعاهدا على الاتحاد لمقاومة الغزو .



(شكل ٢٢٥)

وجاء ذلك في أنسب أوقاته ، إذ أن اليابانيين بدأوا في السنة التالية غزواً كاملاً للصين ، واستولوا على بيكين وضربوا بقنابلهم المدن الصينية وأحرقوها . ووجد الصينيون أنهم غير ند لأعدائهم فاضطروا إلى التراجع ، ولم تحل ١٩٣٨ إلا وكانت هانكاو ونانكين وشنغهاي وكانتون جميعاً في قبضة يد اليابانيين . ولكن التحالف الجديد ثبت

١٥٦٥

على الخطوب (وإن كان كل من الطرفين في ريب من أمر الآخر) ، وانسحب تشيانج كاي شك إلى تشنج كنج في أقصى داخلية البلاد ووجد اليابانيون أنهم لا يملكون إلا السكك الحديدية والطرق المائية والمدن الكبيرة . وكان كل ما يحيط بهم عدوآ لهم مليئاً بعصابات كانت حرباً عليهم . فكأن ما كانوا يحسبونه أرضاً مقبلة ومنطلقاً ينطلقون منه لزخوف وتقدمات أخرى قد ظهر أنه أرض سبخة ، وإذن فإن « حادثة الصين » (كما يسميها اليابانيون) لم تكن لليابان مصدر قوة بل مصيدة وقعوا في حبالها . وعلى ذلك تكون قطعة من خطة الحرب قد ذهبت في الاتجاه الخاطئ .

ولكن لم يحدث مثل هذه الأخطاء في الغرب . فإن عام ١٩٣٣ الذي استولى فيه هتلر على السلطة شهد انحلال المؤتمر الأخير لنزع السلاح وانهار مؤتمر



(شكل ٢٢٦)
صورة بنيتو موسوليني

عالمى لتثبيت التبادلات التجارية (نتيجة لأعمال الأمريكيين) ، واستقالة ألمانيا من عصبة الأمم . فكأنما أمسك أحدهم بقلم ورسم به خطأ أسفل إحدى صفحات التاريخ . ثم أعلن هتلر بعد ذلك في ١٩٣٥ أن معاهدة فرساي لم تعد موجودة ، وأعاد التجنيد وأرجع التسليح العلنى في تحد ظاهر منه لها . واحتجت الحكومة البريطانية ، ثم عمدت على الفور تقريباً إلى توقيع اتفاق يحدد بمقتضاه حجم الأسطول الألماني

الحديد . وصدرت الحركة التالية من موسوليني . ففي أكتوبر من تلك السنة غزت جيوشه أرض عضو آخر في العصبة ، هو الحبشة . وكانت أسباب الاعتداء التي زعمها الإيطاليون مبرراً لذلك منازعات طفيفة على الحدود ؛ ولكن السبب الحقيقي لذلك الاعتداء لم يكن إلا أن الأحياس هزموا عند عدوة جيشاً إيطالياً حاول غزو بلادهم في ١٨٩٦ . وهدم العالم لهذا الخرق المباشر للسلام وأثار عصبة الأمم إلى اتخاذ إجراءات حاسمة . وانفقت اثنتان وأربعون دولة على اتهام إيطاليا بالعدوان وإنزال « العقوبات » بها بزعمه بريطانيا وفرنسا شكلاً وفرضاً . وألقى السير صمويل هور وزير الخارجية

في ١١ سبتمبر خطاباً ذاع صيته آنذاك تعهد فيه بوقوف بريطانيا بجانب ميثاق العصبة روحاً وحرفاً ، ولكنه اتفق في الحقيقة مع بير لافال رئيس وزراء فرنسا على أن لا يفعل أي شيء في هذا السبيل . ومن ثم لم تطبق « العقوبات » على المواد التي تحتاج إليها الجيوش الإيطالية (الزيت والصلب والقمح) وسمح بمرور الغاز السام ضمن حمولة السفن التي عبرت قناة السويس . ولم يحل مايو ١٩٣٦ حتى كان الإيطاليون يحتلون أديس أبابا ، وبذلك دمرت عصبة الأمم بوصفها قوة واقية . وفي نفس ذلك الوقت كان هتلر أرسل جيوشه إلى أرض الراين ، التي كانت المعاهدة تحرم دخولهم إليها . وكذلك أيضاً بدأ في ١٩٣٦ عصيان فرانكو في أسبانيا الذي كانت توازره إيطاليا وألمانيا ؛ وقد أسلفنا إليك تاريخه من قبل .

وفي مارس ١٩٣٨ احتلت جيوش النازي دولة النمسا وسجنت شوشنج الدكتاتور الكاثوليكي الذي خلف دولفوس ، وبدأت حركة المذابح والسجن التي ينزلونها عادة باليهود وأعداء الفاشية .

وفي سبتمبر ١٩٣٨ أعلن هتلر أن « الظلم » الواقع على الألمان في تشيكوسلوفاكيا أصبح لا يطاق ؛ وبدأ شبح الحرب دانيا ، وكانت فرنسا (وإن لم تكن بريطانيا) مرتبطة بتشيكوسلوفاكيا بمعاهدات . وطار تشمبرلن إلى ميونخ ، وعقد مؤتمر رباعي مكون من بريطانيا وفرنسا وألمانيا وإيطاليا أجبر تشيكوسلوفاكيا على التنازل عن مناطق التخوم بها لألمانيا ففقدت معها قدرتها على الدفاع عن نفسها . وعندما عاد تشمبرلن من ميونخ أعلن قائلاً : « أعتقد أن هذا فيه السلام لزماننا » . (وينبغي أن نذكر أن هتلر كان يتبع كل اعتداء من هذه الاعتداءات ببيان يؤكد فيه مقاصده السلمية وعدم رغبته في المطالبة بأية مطالب أخرى . وكان الروس في نفس الحين يقدمون عادة وفي كل مرة مقترحات بضرورة التشاور لإيقاف التقدم النازي كانت تقابل دوماً بالإغفال التام) .

وفي مارس ١٩٣٩ احتل النازيون بقية تشيكوسلوفاكيا ومدوا فيها أركان نظامهم المعتاد . واقتطع هتلر أيضاً مدينة ممل من دولة لتوانيا الصغيرة .

وفي أبريل ١٩٣٩ غزت إيطاليا ألبانيا وفتحتها . وألغى هتلر حلف عدم الاعتداء الذى كان مبرماً بينه وبين بولندا .

وفي ذلك الحين كان الناس جميعاً حتى حكومة تشميرلن قد أدركوا ما كان مقبلاً عليهم بخطوات عظيمة . لقد ذهبت معاهدة فرساي إلى غير رجعة ، ودمرت عصبة الأمم ، ولم يعد ثم باقيا سوى حليف واحد ذى أيدٍ : هو روسيا . وأخيراً أرسلت إلى موسكو بعثة للتفاوض في عقد معاهدة ، ولكن بعد فوات الأوان . فإن روسيا كانت أخذت تغير سياستها تغيراً رمز إليه خلع ليتفينوف البلشفيكي القديم وإحلال مولوتوف الواقعي محله .

وتوقفت خطط الألمان الحربية لخوفهم من أن يضطروا إلى القتال في جبهتين كما يعرف ذلك حتى الهواة في علم استراتيجية الحروب . وكانت هذه النقطة هي مصدر القلق التقليدي لدى جنرالات الألمان . ولم تكن ألمانيا بموقعها المعروف إلا كبندقية بين ذراعى كسارة البندق ، — والجيش الروسية من شرقها والفرنسية من غربها والأساطيل البريطانية تسود البحار . ولم يكن هتلر لبسطيع البدء ببرنامج « واحدة بعد واحدة » الذى اختطه لنفسه ، ما بقى هذا التهديد قائماً . فإن زال أمكن البدء في الحرب . ومن ثم فتح باب المفاوضات لإزالته من الوجود . وبعبارة تفسيرها أصعب علينا من تفسير عناية تشميرلن نفسه ، يبدو أن ستالين ومولوتوف زعما أن بعثى الحلفاء والألمان إلى موسكو ليستا سوى خاطبين متنافسين يخطبان ود الروس ، ويبدو أنهم كانوا يرون الخير في إثارة النازيين على الحلفاء . وفي ٢٣ أغسطس ١٩٣٩ وقع الحلف النازى السوفيتى . وكانت النتيجة المباشرة لذلك أن الجيش الألمانية اجتاحت بولندا في أول سبتمبر وبدأت الحرب العالمية الثانية .

الفصل الأربعون

الحرب العالمية الثانية

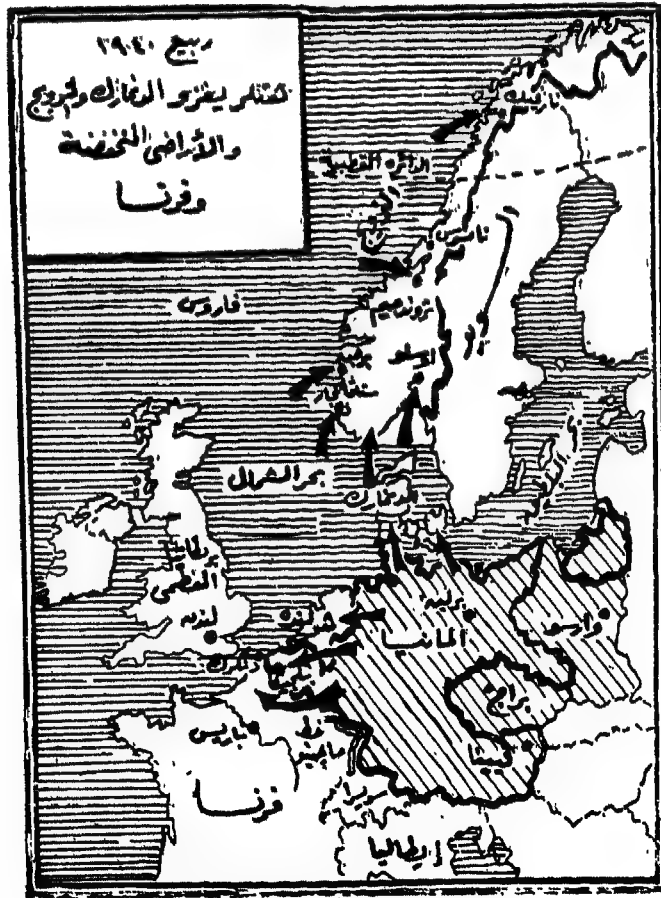
١ - مجرى الحرب . ٢ - مستقبل البشرية .

١ - مجرى الحرب

لم تكن في العالم حكومة لديها أية فكرة عما كان سيحدث في سبتمبر ١٩٣٩
 خلا الحكومة الألمانية وخدمها . أما هزيمة بولندا فكانت شيئاً قوقعه كثير من الناس ؛
 ولكن أحداً لم يكن يتوقع أن يقضى عليها في مدى ثلاثة أسابيع . وفي البداية كما كان
 يحدث غالباً كان عنصر المباغتة في جانب النازيين ، وذلك لأن الجيش البولندي
 لم يكن حتى قد استكمل تعبئته تماماً . ولكن تلت الهزائم الأولى كوارث أخطر
 وأعظم ؛ فبز الألمان البولنديين في الدبابات والمدافع والطائرات بصورة ينقطع معها
 كل رجاء . ولكن البولنديين كانوا إذا وجدوا بين أيديهم ملجأً يتحصنون فيه مثل
 وارسو أو شبه جزيرة هيل المجاورة لدانزج ، فإنهم كانوا يقاتلون قتال المستئس ؛
 ولكن المذابح حلت بجيوشهم الرئيسية . وكان هناك حتى ١٧ سبتمبر بعض أمل
 لعله كان وهماً باطلاً في أن يستطيعوا أن يقيموا خط دفاع على امتداد نهري السان بيج
 والناريق ؛ ولكن منفعة المحالفة النازية السوفيتية تجلت في ذلك اليوم . فغزا الروس
 بولندا من الشرق وبذلك انتهت الحرب فعلاً . فالتقى الحليفان عند بياي ستوك
 وأبرما في ٢٩ سبتمبر التقسيم الرابع لبولندا ؛ وسلم آخر جندي بولندي في أول أكتوبر
 بشبه جزيرة هيل . وظهرت للمحالفة آثار أخرى في الأسابيع الأربعة التالية عندما
 أجبرت جمهوريات البلطيق : استونيا ولاثفيا ولتوانيا على عقد معاهدات تحول
 للروس لإقامة قواعد عسكرية على أراضيها ، وجمال الألمان الروس بسحب جميع
 الألمان من تلك المناطق .

١٥٦٩

ولم يصنع الحلفاء الغربيون أى شىء تقريباً أثناء هذه الأزمة . نعم قام الجنرال جاملان القائد الفرنسى العام بخروج خائف مباغت من خط ماجينو ، ولكنه ما لبث أن عاد بمجرد أن التقى بخط سيجفريد . وبلغ من جودهم عن الحركة أن امتلأ هتلر بالرجاء فعرض عليهم الصلح على أساس قبول الحلفاء لفتح بولنדה . ولكن العرض رفض ، أما عن أية أنواع أخرى من التحديات القوية المحسوسة الأثر ، فإن الشعوب المتحالفة اضطرت أن تقنع بأحداث تافهة مثل تضيق الخناق على البارجة الألمانية المغيرة جراف اشبي على يد ثلاث سفن بريطانية صغيرة فى ديسمبر وتنظيم حصار بحرى على ألمانيا . والحق إن حكاهم كانوا ضئيل الحظ جدا من



(شكل ٢٢٧)

المعرفة بقوة خصمهم بحيث زاغت عيونهم إلى مكان آخر ، وحطت على جزء من العالم ضلت فيه خطة السوفييت السبيل . فقد قدمت إلى فنلندا مطالب تماثل تلك التي قدمت لدويلات البلطيق ، ولكن فنلندا كانت دولة ديمقراطية وطيدة الأركان لادكتاتورية خائفة القوى ، ولذا رفضت المطالب بأدب . وفي اليوم الأخير من نوفمبر ، وفي تحد سافر للمعاهدت وميثاق عصبة الأمم . غزا الروس تلك الجمهورية الصغيرة وضربت بالقنابل عاصمتها هلسنكي . وكانت كفة ميزان القدر عجيبة مضحكة - والنسبة بين الدولتين في عدد السكان ٥٠ أو ٦٠ : ١ ، - ونفس النسبة تقريباً في الأسلحة والعتاد - وكانت النتيجة لدهشة العالم كله أن هجمات الروس الثقيلة ردت على أعقابها . ووقف الفنلنديون وحدهم لا يتلقون أية مساعدة فعالة اللهم إلا بعض العون الخفي من السويد . وتمكنوا من صد المغيرين مدة ثلاثة أشهر ، وبلغ من شدة الغضب من الغزو السوفيتي أن أعد البريطانيون والفرنسيون حملة لمعاونتهم - ولم يحل دون التورط في حرب ثانية سوى أن سدت الطريق عليها الترويج والسويد .

وفي ١٢ مارس ١٩٤٠ انتهت الحرب الفنلندية بفوز الروسيين الذي لم يكن منه بد ، وعاد الحلفاء إلى سابق جودهم الذي يسجله في ٥ إبريل صدور بيان من المستر تشمبرلن ملؤه الاستسلام يقول فيه : « إن هتلر قد فاته الأمنيوس . » وبعد أربعة أيام من ذلك الإعلان استولى الألمان على الدانمرك كلها وعلى الشطر الأكبر من النرويج - فأما الأولى من هاتين الدولتين المسالمتين فلم تبد أية مقاومة وأما الثانية فقد أظهرت مقاومة غير منظمة لم يصادفها النجاح . ولم يستطع تشمبرلن أن يصدق أذنيه ، فإنه عندما أبلغ أن الألمان استولوا على نارفيك في أقصى الشمال ، قرر أمام مجلس العموم أن ذلك لا يمكن أن يكون صحيحاً ، وأن المكان لا بد أن يكون « لارفيك » في أقصى الجنوب . وسارع البريطانيون بإنزال جندهم في نامسوس وأندالشتيس لمساعدة النرويجيين المكافحين ولكنه جيش حُرُم الوقاية الجوية الكافية والدبابات والمدافع الكبيرة والخطة بالمقارنة إلى الألمان ، فكان الإنجليز هم والفرنسيون الذين لحقوا بهم لم يكونوا يزايدون في القوة كثيراً عن البولنديين . ولم تبد الكفاية في شيء من

أعمالهم إلا في العمليات البحرية التي اتخذت في نارفك ، وهي عمليات لم تستطع على كل حال أن تنقذ الحملة . وتم فتح النزويج عند نهاية الشهر .

وعندئذ ضاق صدر مجلس العموم البريطاني (وإن كان رد الفعل الفرنسي أضعف من هذا) . ودارت مناقشة نارية متفجرة ، قال فيها أحد أتباع تشمبرلن مخاطبه : « أستحلفك بالله أن تذهب » ، واقتنع تشمبرلن بعد أخذ الرأي على وزارته بالمجلس بأقلية ٢٠٠ إلى ٢٨١ صوتاً أنه لا بد له أن يستقيل . وحل محله في الوزارة ائتلاف برئاسة ونستون تشرشل ساهم فيه حزب العمال . وجاء التغيير في أنسب الأوقات بالضبط . وفي نفس ذلك اليوم (١٠ مايو) خرق الألمان مجموعة أخرى من المعاهدات بغزوهم هولندا وبلجيكا . وعندئذ شهد العالم الغربي « العزم الألماني » بكامل عمله وقوته . فإن « فرق الهانزر » وهي مزيج من الدبابات والمشاة كانت تشق طريقها عنوة من خلال الخطوط العادية — فكانت الدبابات تهدم الأجزاء الضعيفة ، على حين تقضى جند المشاة الزاحفة وراءها على كل مقاومة . واستخدمت قاذفات القنابل ومعها شيء جديد اسمه قاذفات القنابل المنقضة كأسلحة لتفريق شمل تشكيلات العدو — وكانت تتلقى الأوامر باللاسلكي هي والدبابات على السواء . ولم تعد خطوط التليفون السهلة القطع المستخدمة في ١٩١٩ إلا ذكرى من ذكريات الماضي . وكانت خطة الهجمات توضع حتى « أدق تفاصيلها » . ولم تستطع حصون إبن إيمائيل (Eben Emael) القلعة العظيمة والركن المركزي الذي يعتمد عليه الدفاع البلجيكي أن تصمد إلا يوماً واحداً . ولكن الهجمات لم يقتصر توجيهها على الجنود فقط ، إذ أن هذه إنما كانت : « الحرب الشاملة » . وكانت الدبابات وقاذفات القنابل المنقضة بأصواتها الصارخة الرهيبة تدفع أمامها حشوداً هائلة من المدنيين المدعورين ، وكانت قوات الحلفاء التي هبت لمحاولة إنقاذ البلجيكيين تجد نفسها مختلطة بكتل غفيرة من اللاجئين المدعورين الذين يفرون نحو الغرب في هلع . وكان « المظليون » يهبطون وراء الخطوط ويستولون على الكبارى . وفي هولندا كان جواسيس الألمان الذين كثيراً ما كانوا من قدماء النازلين بأرضها — يقيمون مواقع للدفاع الرشاشة . ورغبة في زيادة أثر الإرهاب ، هاجم « اللوف

قاف Luftwaffe « أى سلاح الطيران مدينة روتردام الغزلاء وقتل ثلاثين ألفاً من سكانها ، وكانت الجريمة متعمدة إذ رأى الألمان أنه يجب على العالم أن يتعلم درساً .

وتم فتح هولندا في أيام خمسة ؛ وبينما كانت الجيوش المتحالفة التي غيرت اتجاهها هسارت شمالاً لإنقاذ بلجيكا تتقهقر ببطء نحو الساحل اخترق الألمان قطاعاً ضعيف الدفاع في الأردن قرب مدينة سيدان المشحونة . وما وافي ١٥ مايو حتى كان الجيش الفرنسي التاسع قد تمزق بدءاً وكان الهانزر ينشالون من خلل فجوة ذراعها خمسون ميلاً شمال خط ماچينو العديم الفائدة . ولم تنقض أربعة أيام أخرى حتى بلغوا البحر ؛ وأحيط بالجيوش البلجيكية والبريطانية وبعض الفرنسية في فلاندر . واستسلم ملك البلجيك ؛ وقد استطاع الجيش البريطاني ومن معه من الفرنسيين الخروج من دنكرك بين ٢٨ مايو ، ٢ يونيو على يد أسطول تجمع على الفجاءة وكان مكوناً من أكثر من ٦٠٠ من الزوارق الخاصة ، ٢٠٠ سفينة بحرية من سفن الأسطول . على أن الجيوش كانت أخذت في ذلك الحين في التصدع والانهار ؛ فإن الهانزر كانوا يخترقون البلاد بسرعة شديدة جداً حتى أن دباباتهم كانت تسبق المشاة المتابعين لهم بخمسين ميلاً في بعض الأحيان . وهناك على الطرق البيضاء الممتدة بين « الليالي والورد » في شمس الصيف المصحبة كانت تنثال جماهير غفيرة مدعورة منها المدنيون ومنها العسكريون بزيهم الرسمي ، وهم يفرون لا يدرون إلى أين ويجرون وراءهم قطعاً غير منتظمة الشكل من متاع بيوتهم تلاحقهم قاذفات القنابل المنقضة بقنابلها ورشاشاتها كلما توقفوا عن الهرولة إلى الأمام . لقد بدت في الأفق بوادر انتهاء إحدى الحضرارات : ولم تشهد الدنيا مناظر كهذه منذ أن دمر البرابرة الإمبراطورية الرومانية . وفي ١٧ يونيو تألفت حكومة فرنسية جديدة برئاسة المارشال بيتان العتيق وأعلنت أنها ستكف عن القتال ، متجاهلة بذلك عرضاً بريطانيا بإنشاء اتحاد انجليزى فرنسى تام .

لقد أدرك النازيون النصر بفضل ما كان لهم من أسلحة أفضل وقيادة أكفأ وعدم رغبة الطبقة العليا الفرنسية في المقاومة وانتشار الدعاية الشيوعية بين صفوف العمال . وعندئذ امتدت أيدى حلفاء النازية تنتق وتلتقط . وبكل شجاعة أعلن موسوليني الحرب على حلفائه المنهرمين ، واقتطع الاتحاد السوفييتى ولاية بساتاريا من

١٥٧٣

رومانيا (وهى دولة يحميها من قبل ضمان انجلو فرنسى) كما ضمت إليها استونيا ولاتفيا ولتوانيا . ثم حدثت وقفة وحزرة .

والمعركة التى جاءت فى أعقاب ذلك ترتفع إلى مرتبة ماراتون وسلاميس بين المعارك التى غيرت وجه التاريخ وأنقذت إحدى الحضارات . فلو لم تقاوم بريطانيا أولو أنها هزمت فى ذلك الكفاح ، فليس من العسير تقدير ماكان سيحدث . فإن خطة النازية صارت الآن واضحة وضوحاً لا بأس به ، وواضح أيضاً كم أشرفت على النجاح . وكانت هزيمة بريطانيا سيعقبها غزو روسيا . والحق أن القوات السوفييتية أصبحت هى الأخرى على نفس شفير الكارثة فى ١٩٤١ ، ١٩٤٢ ، ومن بعيد الاحتمالات أنهم كانوا يستطيعون الصمود أمام ألمانيا بعد أن تهزم بريطانيا ولا تعود بها حاجة للدفاع عن مؤخرتها ، وتجد كل البحار مفتوحة لتزويد جيوشها بما تحتاج إليه . وكانت الخطة تقضى بأنه متى تمت هزيمة روسيا أن تهاجم الولايات المتحدة تلك الدولة الساذجة نصف المسلحة - فهاجمها اليابانيون من الغرب وهاجمها أوروبا النازية على بكرة أبيها من الشرق كما يهاجمها من الجنوب حلفاء ألمانيا بأمريكا اللاتينية - وهم فعلاً فى حالة استعداد . وقد أحبطت مقاومة بريطانيا تنفيذ هذا البرنامج الضخم وغير بعيد التنفيذ .

وكانت هناك من قبل أمم مكسورة كثيرة تحتوى وراء الدرع البريطانى . وقد ظلت هيئة الإذاعة البريطانية شهوراً كثيرة تذيع بعد إذاعة النشيد البريطانى الأناشيد الوطنية لجميع الدول الأخرى التى لحكومتها أشباح فى لندن قبل قراءة نشرة أخبار المساء . كان موكباً طويلاً غلب عليه الأسى قدر ما تجلت فيه الشهامة ، تمر فيه هولندا وبلجيكا والنرويج والدانمرك ولوكسمبرج والحبشة وبولندة وتشيكوسلوفاكيا وفرنسا - ولم يلبث الموكب حتى انضمت إليه يوغوسلافيا واليونان . وقل منهم من كان يدرك كم كان ذلك الدرع رقيقاً . يقول جون بروفي : « لم يكن لدى بريطانيا بعد دنكرك سوى ما يقارب فيلق ونصف من فيالق المشاة وبضعة فرق من مدفعية الميدان وستين دبابة فقط » . أجل إنه كان لديها أيضاً الحرس الوطنى ، وهى قوة من المتطوعين أصبحت فى مدى بضعة أسابيع مكونة من أكثر من مليون

من الرجال مستعدة لمجاهة المظليين الذين حطموا المقاومة الهولندية والدانمركية ؛ ولكن كل ما كان لديهم من سلاح - إن كان معهم سلاح - هو البنادق العادية ، حتى وافي الخريف ووصلت إلى البلاد ٨٠٠,٠٠٠ بندقية من أمريكا . أجل إن الأسطول كان قوياً جباراً لم يتغير من وضعه شيء ، ولكن سلاح الجو الألماني كان يفوق في العدد سلاح الجو الملكي بدرجة هائلة .

وحدد هتلر تاريخ غزو بريطانيا - وهو الحادى والعشرون من سبتمبر ١٩٤٠ - وبدأت الحركة الأولى في هذا السبيل ، وهى تدمير الأسطول الجوى البريطانى في ٨ أغسطس ١٩٤٠ . وأخذت قاذفات القنابل من طراز هاينكل ودورنر وقاذفات يونكرز المنقضة ومقاتلات مسرشميت تجتاح جنوب شرق إنجلترا . وكانت تعرضها أعداد صغيرة من طائرات سبيتفاير وهاريكان تساعد بعضها بعض الطائرات القديمة من طراز ديفايانت (Defiant) . وكانت طائرات الدفاع من القلة بحيث لم يعد فى الإمكان مواصلة مسير الدوريات باستمرار . فلا بد للملاحى الجو من الانتظار حتى يصل الأعداء المهاجمون ، ولا كان فى الامكان عندما تكتشف طائراتهم أن تصعد لهم القوة بأكملها ؛ فلا بد من الاحتفاظ ببعض الأسراب للملاقاة الموجهة الرابعة والخامسة التى كان الفاتح المسرف فى قواته يستطيع إرسالها . وكانت خطة سلاح الجو الألمانى ذات خمس شعب : تدمير القوافل الساحلية التى تمون بريطانيا بالطعام وإغراق الأسطول أو تعجيزه عن الحركة وطرد سلاح الجو الملكى R.A.F من السماء ، وشل الحركة فى الموانى وتحطيم جميع المطارات التى قد تقوم منها الطائرات لقذف أساطيل الغزاة بقنابلها . مثال ذلك أنه حدث يوم ١٢ أغسطس أن ٢٠٠ طائرة هاجمت دوفر على موجات وهاجت ١٥٠ طائرة ميناء بورتسموث وجزيرة ويت . واستمر القتال طوال أغسطس وسبتمبر إلى أكتوبر . وكان كل ما يستطيع رؤيته من على الأرض من الناس خطوطاً من الدخان الأبيض تمر عبر سماءات كنت الزرقاء الصافية وقرقرة المدافع الرشاشة السريعة والانفجارات المفاجئة المكتومة ومظلات بيضاء متطوحة يتعلق بها بعض الرجال وطائرات متقدمة تسقط على التلال . ولكن النتيجة ظهرت وفصل فى الأمر فى سبتمبر : فإن سلاح

١٥٧٥

الطيران الملكي قد طرد سلاح الجو الألماني من السماوات نهائياً . وقال المستر ونستون تشرشل الذي كانت خطبه جزءاً من خطة الدفاع البريطاني متحدثاً عن الطيارين : « لم يحدث قط في تاريخ الصراع البشري أن كان عدد ضخم كهذا مديناً لمثل هذه القلة الضئيلة بمثل هذا الفضل العظيم . »

وفي أكتوبر بدأ سلاح الجو الألماني طريقة جديدة . (وذلك لأن الغزو تأجل ، وتفرقت الصنادل المسطحة القاع التي أعدها هتلر كما أعدها نابليون من قبله) ولكن



(شكل ٢٢٨)

صورة ونستون تشرشل

بريطانيا تكهنت من قبل بالخطوة ؛ وبدلاً من محاولة تدمير المطارات والقضاء على سلاح الطيران الملكي ، أخذ الألمان منذ ٧ سبتمبر يهاجمون أرصفة ميناء لندن ، وكانت السنة الذهب والانفجار تشاهد على بعد ٢٠ ميلاً . وواصل الطيارون الألمان غاراتهم الليلية طوال الشتاء حين لم يكن في استطاع سلاح الطيران الملكي اكتشافهم . ودمر الجزء المركزي من كوفنتري في ١٥ نوفمبر) واخترع الألمان في لغتهم بابتهاج

فعل « أكفتر to caventrate » للدلالة على التدمير المطلق الشامل . وأغاروا على لندن ستة وتسعين غارة منفصلة ؛ أحرقت أحداها في ٢٩ ديسمبر كل المنطقة المركزية من المدينة . ووقعت على المدينة خمسون ألفاً من القنابل الشديدة الانفجار وما لاحصر له من القنابل الحارقة . ولاح في البداية أن الهجمات كانت توجهها خطة استراتيجية مرسومة ؛ فكانت تجعل أهدافها السكك الحديدية والمحطات ومصانع الغاز ومستودعات المياه ومحطات المجارى والموانى ومحطات توليد القوى ؛ ثم بدأ بعد ذلك أن الدافع كان الغضب العشوائى . واستخدمت الألغام الممغنطة التي كانت تعلق عن قاع البحر لتفريق السفن الحديدية التي تمر فوقها ، فأصبحت الموانى معطلة ، حتى وجد لغم سلباً نهايه نوفمبر ففكت أجزاؤه وفحص ، وكانت نتيجة ذلك أن استنبطت طريقة تقييد المجال المغنطيسى للأرض (Degaussing) ، فأبطلت مفعول تلك الألغام .

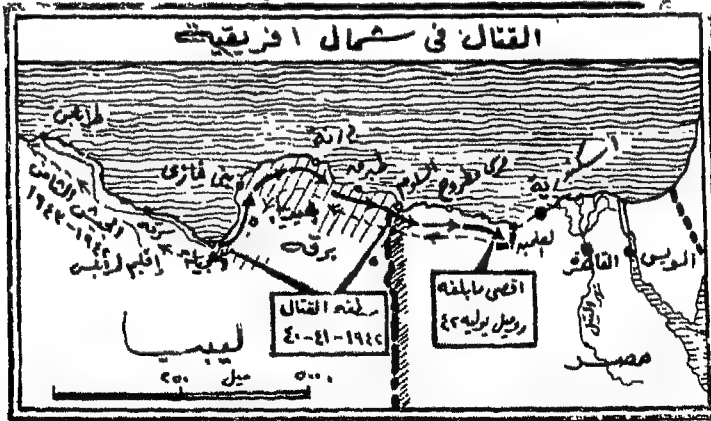
والمصائب تجمع قلوب المحزونين . وقد توقع الألمان أن تحدث غازاتهم نفس الآثار التي أحدثتها في المواطن الأخرى - بل الواقع أن لإذاعتهم أخذت تدب مفرضة أن تلك الآثار نفسها قد وقعت ، وأن سيولا عديدة من اللاجئين المدعورين كانت تكظ الطرق المؤدية من لندن شمالا ؛ وتكرم اللورد هوو (وليم جويس) بنصحهم بأن شمال ويلز هو الجهة الآمنة الوحيدة أمامهم . ولكن الواقع أن الأطفال أبعادوا عن المدينة بطريقة منظمة وأنزلوا عند أصحاب المنازل بالريف ، في وجه شيء من التذمر ، ولكن مع الكفاية ؛ ولم يتبعهم أى جاهل من اللاجئين . وكانت جميع الطبقات تحتوى من الغارات في لندن ومدن الأقاليم في نفس النوع من الخائب ؛ وفوق هذا صدرت قوانين حثمت المساواة ، لو أنها ظهرت قبل ذلك بسنتين لاتهمت بالاثام باشتراكية لا يمكن العفو عنها . ووضعت جميع الممتلكات ، بما في ذلك الأرض ، تحت هيمنة الحكومة ، بمقتضى قوانين صدرت بمجرد تقلد حكومة تشرشل مهام الحكم . ووضعت البنوك تحت الرقابة الحكومية ؛ وتولت الحكومة الاشراف على الاستثمارات الأجنبية ؛ وفتحت دفاتر حسابات أصحاب المصانع والشركات للتفتيش ؛ وكان في الامكان إصدار الأوامر بالزام الأفراد بالقوة بإنتاج أى شيء يحتاج إليه . وفرضت الضرائب على أرباح الحرب ؛ وتقرر أن تكون خسائر الحرب قسمة مشتركة بين الجميع . وقبل العمال أن يعملوا تحت التوجيه ، لم يلبث هذا التجنيد أن بسط على النساء أيضاً . ولم يحدث قط منذ أيام اسبرطة أى قبل ذلك بألفين وخمسمئة عام أن يسجل الناس أسماءهم بمثل هذه الدرجة الكاملة الشاملة .

على أن الحظ كان رغم كل هذه الجهود يعاثر البريطانيون . فإن عدد البريطانيين ، أربعة وأربعون مليوناً من الأنفس مقابل ثمانية وثمانين مليوناً لدى الألمان ؛ فلو أضيف إلى الملايين الأربعة والأربعين من سكان الجزر البريطانية سكان الممتلكات المستقلة المؤيدون لهم ، فقد كان في إمكان هتلر أن يضم إلى من تحت سطرته من ألمان أغلبية سكان أوروبا . أجل إن الأسطول لم يكن يزه في العالم شيء ؛ ولكن تجلت واحدة من أشد تحديات القوة البحرية خطورة عندما أذيعت

١٥٧٧

الأخبار بأن ٥٠٠ ألف طن من السفن كانت تغرقها الغواصات النازية . كل شهر في مستهل ١٩٤١ . غير أن الأسطول ظل مع ذلك يعمل بنشاط . في الثالث من إبريل ١٩٤٠ أغرق أو استولى في وهران على الأسطول الفرنسي الذي يظهران بيتان كان يهيم بتسليمه للألمان . وفي ١٣ نوفمبر هاجم طيران الأسطول بميناء تارنتو ثلاث بوارج وأربع مدمرات وسفن إضافية من الأسطول الإيطالي الذي كان يتوقع منه أن يكون هو المهيمن على البحر المتوسط . وفي الشهر التالي بدأت القوات البريطانية والمتحالفة بمصر بقيادة الجنرال ويقل هجرماً على القوات الإيطالية بليبيا انتهى باحتلال برقة (Cyrenaica) احتلالاً تاماً وأسر عدد من الأسرى يفوق بكثير عدد الجيش المهاجم .

ولكن كل هذه الأعمال الضخمة لم تكن بالحاسمة . ويمكن البريطانيون من استرداد بلاد الحبشة وإعادة الأمبراطور إلى عرشه ؛ كما تمكنوا من إغراق نصف الأسطول الإيطالي في معركة رأس ماثابان مارس ١٩٤١ ؛ ولكن كفة الميزان كانت لا تزال شائلة لغير صالحهم . وبينما كان سيل الغارات الجوية ينهمر على الجزيرة



(شكل ٢٢٩)

البريطانية بلا انقطاع ، حلت بالانجليز هزائم برية أخرى في الشرق الأوسط وحاول موسوليني الحصول على نصر رخيص آخر ، فغزا بلاد اليونان في نهاية أكتوبر ١٩٤٠ من مستعمرته البلقانية ألبانيا . وقد صعد الرجل لأن قواته الضخمة هزمتها قوات

اليونان الصغيرة وأرجعتها القهقهري وأخذت تغزو ألبانيا نفسها . وبعد قليل تقدم هتلر على مهل (كما بدا للناس عندئذ) لمساعدة حليقه ، ولتمهيد السبيل لذلك أُمرت المجر ورومانيا وبلغاريا بالانضمام إلى المحور . وأقر الأمير پول الوصي على عرش يوغوسلافيا تحالفاً عقد مع الألمان في ٢٥ مارس . ولكن اليوغوسلاف أبوا قبول ذلك الحلف ، فطرد الأمير بعد يومين وأجلس ابن أخيه الغلام على العرش باسم بطرس الثاني . وفي السادس من أبريل هاجمت الجيوش الألمانية يوغوسلافيا بسرعة مرعبة . ولم يكن الجيش اليوغوسلافي مستعداً للقتال فشتتوا شمله ، ودمرت بلجراد تدميراً جزئياً في غارة من غارات الارهاب المألوفة ؛ وما وافى ١٧ من الشهر حتى أخذت كل مقاومة إلا ما كان يصدر من بعض عصابات في سربياً بقيادة الكولونيل ميخائيلوفتش .

وعند ذلك دخل الألمان بلاد اليونان . إذ كانت فرق الهانزرتشكل تشكيلا مختلف اختلافاً بليغاً عن الجيوش الإيطالية ، وعندئذ طلبت اليونان المساعدة من بريطانيا على الفور . وأرسل إليها كل الفاضل الذي يمكن الاستغناء عنه من قوات ويقل - في أعداد ربما تجاوزت حد الحكمة - ولكن عاد التفوق الألماني الجوى فأحرز نصره . وربما كان في الامكان التمسك بمضيق ثرموبيلاي ، ولكن كتلة الجيش اليوناني التي قطع عليها السبيل في إبيروس استسلمت واستلزم الأمر إخلاء بلاد اليونان من الجيوش . وحاول اليونانيون التمسك بجزيرة كريت ؛ ولكن ما لبث الألمان أن انتزعوها منهم بقوة السلاح الجوى . وفضلاً عن ذلك نقل الألمان تعزيزات كبيرة إلى ليبيا ، بينما الأسطول البريطاني ينقذ القوات البريطانية من اليونان ، وهناك في ليبيا تمكنت الجيوش الألمانية والإيطالية بقيادة الجنرال رومل من طرد البريطانيين من كل ما كان ويقل فتحه تقريباً .

وانقضت لحظات بدت فيها الكوارث موشكة على الانتشار . واستولى رشيد على الكيلاني أحد أنصار النازي على السلطة من نائب الملك في العراق ، وأمد بالطائرات الألمانية عن طريق سوريا التابعة لحكومة فيشي الفرنسية (برئاسة بيتان ولافان) . ولكن لأول مرة كان الرد سريعاً ، فإن رشيد على قام بأول هجماته في اليوم

١٥٧٩

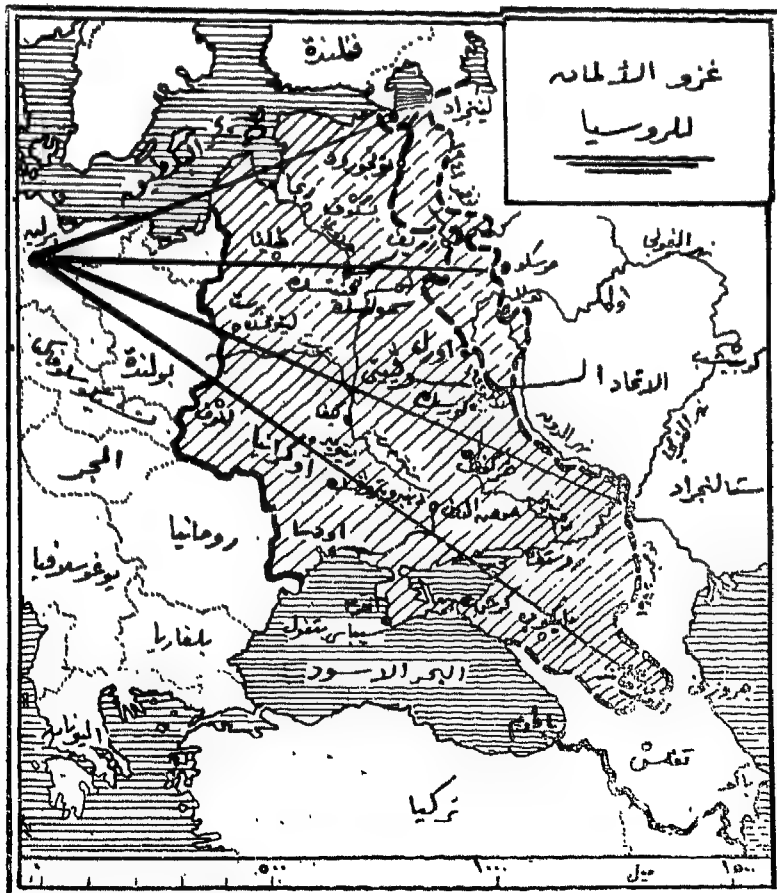
الثاني من مايو ، ولكن لم يلبث البريطانيون أن استولوا على بغداد في أول يونية . وتمكنوا في الأسابيع الخمسة التالية من استرداد العراق بأجمعه كما احتلوا سوريا .

وأزيل عن بريطانيا قلق كبير له حديثه . وبريطانيا كما هو معلوم جزيرة مكتنظة بأكثر مما تطيق من السكان لا تستطيع العيش إلا بما تستورد من لوازم ومواد تدفع بعض أثمانها مما تغله عليها استثماراتها وراء البحار . وسرعان ما بيعت هذه الاستثمارات لشراء الميرة والذخيرة ، وكان بيعها بالولايات المتحدة بوجه خاص ، وبذا أصبح الخراب وشيكاً جداً . وكان الرئيس روزفلت أقنع الكونجرس في ١٩٣٩ بتعديل قوانين الحياض المتعلقة بالحظر البحري للأسلحة والسلاح بنظام « الدفع نقداً وحل البضاعة Cash & Carry » (وهو أمر لم يكن معناه إلا البيع لبريطانيا وفرنسا دون غيرهما بسبب تفوق الأولى البحري) ، ولكن حتى هذا الوضع لقي معارضة عنيفة جداً . وصرح السناتور بوراه أن معنى ذلك هو حمل السلاح ، وصرح ناي أنه لن يكون هناك شيء « أمام أمريكا إلا الجحيم الموقد » ، كما صرح كلارك بأن بريطانيا وفرنسا هما المعتديتان وقال لندين (Lundeen) : يجب انتهاز هذه الفرصة لدفع ديون الحرب العالمية الأولى أو الاستلاء على جزر الهند الغربية . وفي سبتمبر ١٩٤٠ بيعت لبريطانيا خمسون مدمرة تجاوزت العمر القانوني المحدد لها مقابل بعض القواعد البحرية . وفي الحين نفسه تكونت بشيكاغو لجنة سميت : « لجنة رعاية المصالح الأمريكية أولاً » ؛ وكانت هيئة أكثر من الصخب وبدت في ثوب من قوة النفوذ والتأثير . ومع ذلك فقد قدم إلى الكونجرس في نهاية ١٩٤٠ مشروع قانون « الإعارة والتأجير Lease-Lend » ومر القانون في المجلس في ١١ مارس ١٩٤١ . وكان معناه الحق أن الفيض الضخم من الأسلحة الواردة إلى بريطانيا أصبح يقدم إليها منذ تلك اللحظة بغير مقابل .

ولكن الحروب لا يمكن كسبها بالمال ؛ وربما كان من حسن حظ العالم أن بدأ صبر هتلر ينفد . وكان منذ حين يفكر في الشطر الثاني من خطته الحربية العظيمة مع ترك الشطر الأول ناقصاً . وفي مايو قام هيس الرجل نصف المحنون التالي له في القيادة والرئاسة برحلة طيران سرية ليرى هل تقبل بريطانيا أن تتعاون أم

ترفض . وقد اتضح ما كان يدور بعقله على حين بغتة في الساعة الرابعة من صبيحة ٢٢ يونية عندما هجمت القوات الألمانية على طول الحدود المترامية — على أراضي الاتحاد السوفيتي .

وبدا الروس كمن أخذ على غرة . إذ لم يكدهم يمضي أسبوع على إعلان أصدرته وكالة تاس الرسمية للأنباء تصرح فيه أنه : « لا يمكن أن يكون هناك أى سوء تفاهم بين الدولتين » . وبديهي أن قواتهم على الحدود دفعت جميعاً إلى الخلف ، ولم ينقض أحد عشر يوماً حتى كان الألمان يحتلون منطقة أعظم من فرنسا مساحة . ولكنهم دخلوا عندئذ منطقة عميقة من التحصينات تسمى على سبيل التسهيل باسم « خط ستالين » وتمتد بالتقريب على خط حدود روسيا في ١٩٣٨ . وهنا بات القتال أشد



عناداً ؛ إذ لم يكن للثورة المحتمة في أنفوس الطرفين من نظير وكان عنادهما أكثر تعادلاً . ولكن النتيجة كانت واحدة ؛ فاخترق الألمان الخط عند مواطن ثلاثة — أولها في الشمال بالاستيلاء على بسكوف على الطريق إلى لننجراد ، وثانيها في الوسط بالاستيلاء على فيتيسك على الطريق إلى سمولنسك ؛ وثالثها بالاستيلاء على زهيتومير (Zhitomir) على الطريق إلى كييف . وتواصلت قصة الهزائم والتراجعات الروسية متكررة طوال الصيف . وحوصرت لننجراد ، وانتقم الفنلنديون لأنفسهم بالزحف نحوها من الشمال . ثم سقطت سمولنسك في قبضة الألمان الذين شقوا طريقهم في الجنوب ودلفوا إلى أوكرانيا (وهي المستودع الصناعي والزراعي العظيم لدى روسيا) ، واحتلوا كل شيء تقريباً يقع غرب نهر الدنيبر .

وعندئذ قدمت بريطانيا للروسيا كل ما تستطيع من مساعدة بعد أن عقدت مع روسيا معاهدة تحالف . وحذت الولايات المتحدة حذوها ، ولكن كل ما قدمناه كان ضئيلاً جداً . وكانت الدولتان الناطقتان بالإنجليزية حاولتا توضيح أغراض الحرب : فعند بداية السنة كان الرئيس روزفلت يتحدث إلى الكونجرس عن « الحريات الأربع » — وهي : حرية الكلام والعبادة والتحرر من الحاجة ومن الخوف . وفي أغسطس التقى برئيس الوزراء تشرشل على صفحة البحر حيث أعدا ووقعا « ميثاق الأطلنطي » لتنفيذ هذه الحريات — وهي على الجملة أقل وضوحاً من نقاط ولسون الأربعة عشرة ولكنها تحتوى على نفس النوايا . وصدق ستالين على الميثاق مضيفاً إليه التالي : « إن هدفنا هو مساعدة الأمم التي تكافح ضد هتلر تم تركهم وشأنهم ينظمون أحوالهم على حريتهم وبالطريقة التي يرضونها — وينبغي أن لا يتدخل أحد في الشؤون الداخلية للشعوب الأخرى » .

ولكن الكلمات لا تزيد على الأموال قدرة على اكتساب الحروب . وحاول الجيش الألماني مواصلة الزحف . فسقطت كييف وتبعها خاركوف واحتلت أوكرانيا . بأجمعها وكان الروس يحرقون أو ينسفون كل شيء قبل مغادرة كل مكان لكي لا يتركوا للفاتح شيئاً . وكانت الوحشية الضارية سمه التقدم الألماني ، وقد كان جندهم يحسنون في أوروبا الغربية السلوك إلى حد ما (حسب مقتضى المعايير الخفيفة

المقبولة الآن) ، ولكن لم يكن ثمة داع يدعوهم في روسيا لكبح أنفسهم . وأبعد القائدان العامان الروسيان قوروشيلوف وبودينى عن القيادة ، ولكن خليفتهما في الإمرة لم يكونا أسعد حظاً ؛ واحتل حوض نهر الدون ، واجتاحت بلاد القرم ، وصار الألمان على ما يقرب من عشرين ميلاً من موسكو ؛ ونقلت مكاتب الحكومة والبعثات الأجنبية إلى كويبيشيف على بعد ٥٠٠ ميل .

وللمرة الثانية لم يستطع المحور أن ينتظر ؛ إذ لا بد له من التقاط الثمرة قبل نضجها . ففي التاسع من أكتوبر أعلن الألمان بصفة رسمية كان إيمانهم بصحتها واضحاً أن الجيوش السوفييتية في حالة تحلل . والظاهر أن تلك الفكرة أخذت تتضح لدى آخرين غيرهم ، وأنه قد حان الوقت الذى ينبغى أن يبدأ فيه الدور الثالث من فتوح المحور ، إذ هاجمت اليابان الأسطول الأمريكى في الهايسيفيكى الراسى عند بيرل هاربر في اليوم السابع من ديسمبر ١٩٤١ ، فأغرقوا بعض بوارجه الثمانية وأعجزوا بعضها الآخر عن العمل ، كما أغرقوا أو أعجزوا ثلاثة من طراداته السبعة ، فضلاً عن ثلاث مدرعات . وبدا أصبحت أمريكا في حالة حرب مع المحور .

وكان حظ الحلفاء في أوهد حضيضه أثناء الشهور التى عقت ذلك . واجتمعت القوات البحرية الباقية بالحيط الهادى تحت إمرة أمير بحر هولاندى في أسطول أغرق عن آخره قرب جاوة ؛ وسارعت بارجتان بريطانيتان عظيمتان نحو الشرق هما : البرنس أوڤ ولز والريپلس لإنفاذ الموقف ، فأغرقتا بالقرب من الملايو لعدم وجود الدفاع الجوى الكافى . وفتحت بلاد الفلبين . واجتاحت الملايو ، وسقطت قلعة سنغافورة العظيمة في ١٥ فبراير ١٩٤٢ . وبدلاً من أن يمد أهالى جنوب شرق آسيا يد العون للحلفاء ، أظهروا نحوهم فتوراً وعدم اهتمام . فإن سنوات الاستغلال المديدة التى مرت بهم أنتجت ثمارها المتوقعة ، فإن لم يتعاونوا فعلاً مع اليابانيين ، كانوا يحولون (كما فعلوا في بينانج) دون القيام بأية جهود « لإحراق الأرض » كما كان الروس يفعلون . وجاء بصيص الأمل الوحيد من ليبيا ، حيث هاجم البريطانيون رومل ودفعوه إلى العجيلة نقطة الدوران إلى إقليم طرابلس . ولكنه

١٥٨٣

لم يزد عن بصيص ؛ وفي يناير قام رومل بهجوم مضاد واسترد كل شيء حتى درنة .

وكان بصيص أقوى قليلاً من ذلك يحىء من روسيا وإن ظهر فيما بعد أنه لم يكن إلا سراياً . ومن العجيب أن الألمان لم يتزودوا بما يلزم لقتال الشتاء ، كما أن مبادرة الروس بنقل المصانع إلى ما وراء جبال الأورال عوضت خسارتهم لأوكرانيا إلى حد ما .



(شكل ٢٣١)

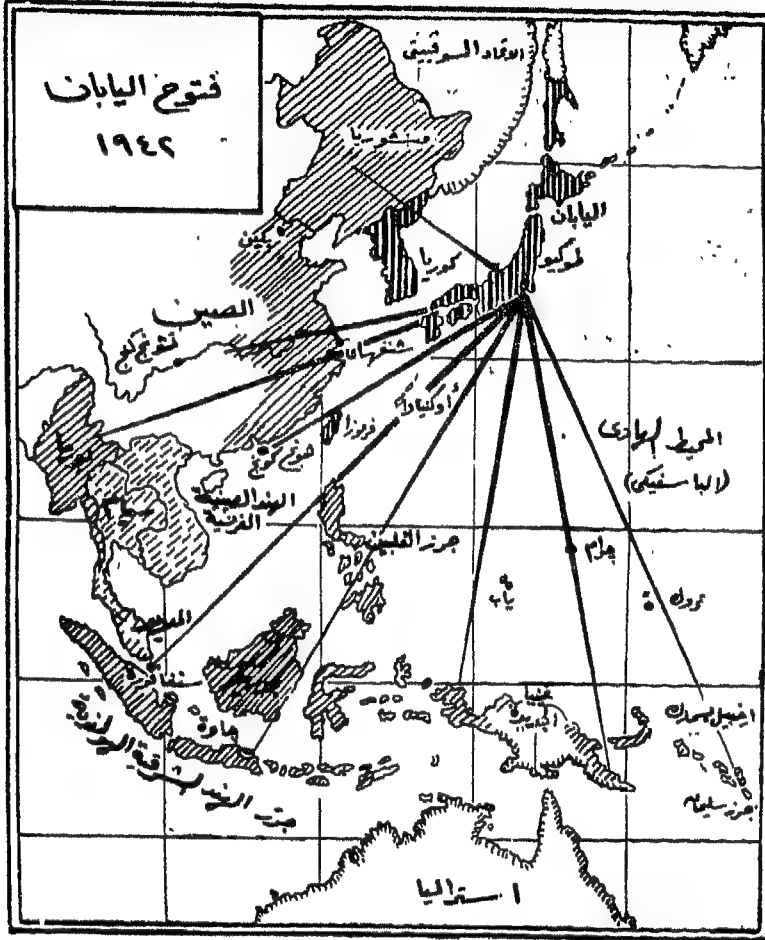
فرانكلين روزفلت

وردتهم في الجنوب الخنزير تيموشنكو على أعقابهم حتى بلغ خاركوف ، وبذلك أبعد الخطر عن موسكو وخفف الضغط عن لننجراد إلى حد ما . على أن تلك الأخبار غطى عليها بدرجة ما فقدان الحلفاء قطراً بأكمله : هو بورما التي طرد منها البريطانيون طرداً عاجلاً وسقطت رانجون في ٧ مارس . وفي يونية قام

الألمان بهجوم آخر في ليبيا ؛ وذلك بعد أن نبطت آمال كبار على الجيش الثامن بعد تعزيزه وتقويته بالدبابات الأمريكية الجديدة ، على أنه دفع إلى العلمين ، ووعد رومل « بمواصلة الزحف وراء البريطانيين المنحدرين إلى وادي النيل . » وفي الشهر التالي أخذ اليابانيون يتجمعون في جزيرة غينيا الجديدة في طريقهم إلى أستراليا ، وحطم الألمان مقاومة الروس في الجنوب . وسقطت سقاستبول كما سقطت روستوف ، وتقدمت جيوش الناري إلى الأمام نحو جروزني وستالينجراد ، وهو أمر يهدد في حالة الأولى بإيقاف مدد الزيت ، وقطع خط إمدادات القوقاز في حالة الثانية .

وحاول البريطانيون استثارة الشعب الهندي لمعاونتهم . ففي مارس أرسل السير ستافورد كريبيس ليعرض على المؤتمر الهندي مبدأ منح الهند وضع المملكة المستقلة (الدومينيون) بعد الحرب ، مع منحهم حق الانفصال ؛ وتحويل الهنود

دستورهم بأنفسهم ؛ فضلا عن إنشاء مجلس تنفيذى يستمتع مباشرة بسلطات وزارة بريطانية ، وأما سلطات نائب الملك فقد احتفظ بها كما يحتفظ بسلطات الملك .



(شكل ٢٣٢)

ولكن المستر غاندى استهزأ بذلك العرض قائلا إنه . « شيك فات أوانه مسحوب على بنك يعلم الناس جميعاً أنه ينهار . » وقرر حزب المؤتمر فى يولية القيام « بنضال شعبي متكامل » ضد البريطانيين ؛ كما قرر أن لا توجه على اليابانيين سوى مقاومة « قوة الروح »

وكأنما شاء الألمان أن يسجلوا تحققهم التام من النصر ، فأنزلوا مقابل مقتل هيدريخ حاكم تشيكوسلوفاكيا عقوبة الإعدام على ثلاثمئة إنسان وحوا من الوجود

قرية ليديس . ولكن هذا النزوع إلى القتل كان في الحقيقة من علائم الضعف ، فنذ أعلن « الكولونيل بربطن » في يولية ١٩٤١ في الإذاعة البريطانية تعبئة « جيش النصر V.army » ، ما برحت المقاومة تشتد وتقوى على الألمان . وكان لا بد من إذكاء تلك الحركة في أخريات الصيف بإعلان أنباء تنظيم موارد الحلفاء تنظيمًا جعل الميرة والدخيرة والعتاد الحربي تنصب إلى بريطانيا والروسيا انصبابًا . وهاجمت قوات الولايات المتحدة اليابانيين في جوادا الكانال بالمحيط الهاسيفيكي في أغسطس ؛ كان قتالا بطيئًا ودمويًا ، ولكنه كان على كل حال هجومًا على المحور ؛ وفي غانا الجديدة طرد اليابانيون إلى البحر . ومع أن الألمان بلغوا القوقاز ورفعوا الصليب المعقوف على جبل إلبروز (Elbruz) أعلى قمة في أوربا ، فإنهم وجدوا الاستيلاء على ستالينجراد أمرًا عسيرًا ؛ ذلك أن دفاع الروس كان هناك عنيذًا بصورة غير منتظرة .

ثم بدا في نوفمبر ١٩٤٢ كأنما تحدث صدع مفاجيء . ففي الساعة السادسة والنصف من صبيحة ٢٣ أكتوبر ، هاجم الجيش الثامن بقيادة الجنرال مونتجومري جيش رومل في ليبيا بعد استعدادات طويلة ضخمة ، فحيت قوات المحور الجوية من السماوات ؛ وفاز مونتجومري بنصر عظيم في معركة العلمين في اليوم الأول من نوفمبر ، ولأول مرة شهد العالم جيشًا نازيًا يجري متفرقًا شذر مذر ولا يقف لحظة في مدى مئات من الأميال . وبدأت الجيوش الألمانية هجومها المضاد في جنوب روسيا ؛ ولم تسقط ستالينجراد بأبدى الألمان وأحاط الروس بالقوة الألمانية المهاجمة لها ؛ وكان أن رأى العالم في يناير جيشًا نازيًا يسير إلى الأسر تحت بنادق الروس .

وبعد هجوم مونتجومري بأسبوع ، نزلت الجيوش الأمريكية والبريطانية على غير انتظار إلى الدار البيضاء والجزائر ووهران ؛ وأنشئت جبهة جديدة بعد مقاومة فائرة أبدتها جند بيتان . وكانت الصعوبات التي تواجه الحلفاء عند البداية سياسيه في معظم أمرها . فقبل القائد الأمريكي العام الجنرال إيزنهاور حاكمًا من أتباع بيتان في البداية هو الأميرال دارلان ، حتى إذا اغتيل ، تعين في مكانه فائد أنظف

سمعة هو الجنرال جيرود (Giraud) ؛ وقد كان تعيين الجنرال جيرود موضع الاستياء من ديجول ، وهو قائد ظل منذ يولييه ١٩٤٠ ينظم مقاومة الفرنسيين من لندن . وقد اعترف الجميع بسلطة ديجول في الوقت المناسب ، ولكن الأثر السيء الذي تركته تلك المسألة كان له أثر ملحوظ على السياسة الفرنسية منذ ذلك التاريخ . وفي الحين نفسه تهباً للألمان بقيادة فون أرنم الوقت الكافي لتنظيم صفوفهم في تونس ؛ ولكن لم يحدث إلا في ٧ مايو ١٩٤٣ أن قواته وقوات رومل ، وقد دفعا جميعاً إلى ما يشبه الحظيرة ، - اضطرا إلى التسليم وسبق جيش ألماني عظيم آخر أسيراً إلى معسكرات الاعتقال . وفي ذلك الحين أيضاً لم تعد الجزر البريطانية ضحية لقذف القنابل الثقيل ؛ ودار الزمن دورته فصار سلاح الجوى الملكي ليلاً والسلاح الجوى الأمريكى نهاراً يبدقان ويحطمان المدن الألمانية والأوربية والأهداف العسكرية ، محدثين تدميراً ضخماً لعله قد ساعد على تقصير أمد الحرب (ونقول لعله لأن تلك مسألة فيها جدل) .

يبد أن إغراق الغواصات والسفن ظل شديداً بدرجة مزعجة ، ومع أن الجيوش الروسية قد أصبحت في ذلك الحين كاملة العتاد والعدة ، إلا أن انتصار الروس في ستالينجراد لم يعقبه أى انهيار آخر للألمان . وظل القتال في الصيف سجالاً - يتقدم فيه الروس حيناً ويدفعون إلى الخلف آخر ، ويفعل الألمان مثل ذلك ؛ حتى إذا حل أغسطس كانت للروس ميزة واضحة على الألمان خاصة في الجنوب . وفي الحين نفسه وثب الحلفاء الغربيون من إفريقية وفتحوا صقلية في يوليو ، ودخلوا أوربا عن طريق « كعب الحذاء » الإيطالي ؛ وكان موسوليني أول من سقط من عمد المحور حيث طرد من الحكم في ٢٥ يولية . وعندئذ قبل روزفلت وتشرشل وقد اجتمعا في كويلك عرضاً إيطالياً بتحول إيطاليا إلى جانب الحلفاء (بعد أن أعلننا من قبل أنهما لن يقبلا إلا التسليم دون قيد ولا شرط في الدار البيضاء في يناير من تلك السنة) ؛ ولكن الظاهر أن المسائل كانت فسدت . وكان رد الفعل الألماني أسرع من ذلك . فإن القوات البريطانية التي حاولت الاستيلاء على الجزر اليونانية التي تخلى عنها الإيطاليون عادت فهزمت مرة ثانية على يد القوات الجوية الألمانية ؛ ولم يكتسب

١٥٨٧

الحلفاء إلا النذر اليسير من الأرض حتى بإيطاليا نفسها ، ونزل الأمريكيون أعلى الساحل الإيطالي عند سالرنو فتعرضوا إلى حين لخطر محقق عظيم ، وبلغ الأمر بالألمان أن أنقذوا موسوليني من أسريه وأنشأوا « جمهورية فاشية » في الشمال .

وإذن فقد جاء الوقت الذي وجب فيه إيقاف الخلافات بين الحلفاء . وكان الروس حلوا بصورة إسمية الشيوعية الدولية في مايو ، ولكنهم في الشهر السابق نظروا إلى المستقبل البعيد فقطعوا علاقاتهم



(شكل ٢٢٣)
ستالين

بالحكومة البولندية المقيمة بالمنفى في لندن . وكانت علاقة المقاومة الشيوعية سيئة بالآخرين في كثير من أجزاء أوروبا . أجل إنهم كانوا يحملون السلاح في يوغوسلافيا ويقاتلون ، فكان الشيوعي الناشط تيتو يقاتل ميخائيلوفتش الملكي الخامل . وبعد التشاور مع تشيانج كاي شك في القاهرة ، التقى روزفلت وتشرشل مع ستالين في طهران عاصمة إيران في نهاية

نوفمبر ، وعقدوا أول مؤتمرات ثلاثة لا يزال العالم يجهل إلى حد جزئي قراراتهم فيها . وكأني بالأحداث التالية أخذت تظهر أنهم قرروا هناك إقامة منظمة « للأمم المتحدة » بعد انتهاء الحرب وأن من بين الترتيبات الحربية إعلان الروس الحرب على اليابان ، ومنح الروس الحق في تحرير أوروبا الشرقية حتى مدينة براج مع دخول المدينة ضمن ذلك التحرير . ووضعت ترتيبات تنسيق المقاومة بما في ذلك التخلي عن ميخائيلوفتش

وكانت دورة الأيام وانتقالها من ١٩٤٣ إلى ١٩٤٤ مؤذنة بتحول الحفظ في الحرب . فقام الروس بهجوم على طول خط القتال كله ولم يستطع الألمان في هذه المرة استرداد ما كسبه الروس منهم — فاسترد الروسيون زهيتومير (چيتومير) كما استردوا بيسكوف وخُلصت ليننجراد واستردت نيكوبول وأوديسا . وعادت القوات السوفييتية إلى حدود ١٩٣٨ وسرعان ما منحتها . واخترق « خط

كاسينو في إيطاليا ، وبعد قتال محطم للأعصاب دار عدة أيام حول رأس على الساحل عند أنزيو ، دخلت الجيوش الأمريكية مدينة روما في ٤ يونية . فأما في الشرق الأقصى ، فإن تفوق اليابان البحري قضت عليه في مارس ١٩٤٣ البحرية الأمريكية في معركة بحر بسمارك . فإن طريقة ماك آرثر تميز البطيئة الفعالة وهي « الثوب على الجزر » التي أصبحت عندئذ ممكنة ظهرت آنذاك جزيرة غينيا الجديدة وجزائر سليمان وأفضت إلى مهاجمة جزيرة طروك (Truk) المحصنة المنيعة . ودخلت الجيوش البريطانية والصينية بورما وأخيراً شرعت في دفع اليابانيين إلى الخلف .

ولكن غطى على كل ذلك حدث في صباح ٦ يونية ، حدث سيظل موضع البحث في كتب التاريخ العسكري . فإن الجيوش الغربية نزلت فرنسا .

كانت حملة مجهزة منذ مدة طويلة ، وكثيراً ما أرجئت (كما تمت يوماً محاولة زائفة لها) ، ثم حدثت الحملة الهائلة في فترة سكون قصيرة في أثناء جو فظيع وفي حدثان أسوأ عاصفة في يونية شهدها بحر المانش منذ عشرين سنة . وعلى الرغم من الأسلحة الهائلة التي جمعت ، كان إنزال الحملة محفوفاً بأشد المخاطر . ويعدها القائد العام الجنرال أيزنهاور واحدة من أخطر اللحظات الثلاث الحرجة الحاسمة في حملته . فقد أعلن الألمان أن لا سبيل إلى اختراق جدارهم الغربي ، ولما شن الكنديون عليه هجومهم الجسور الباسل عند ديب (Dieppe) في ١٩٤٢ ، كانت العاقبة وبيلة مدمرة - وكانت تحت إمرة إيزنهاور ٣٧ فرقة ، ولكن خصمه فون رونشتد كان بيده ستون فرقة . واستخدم الحلفاء ١٧١ سرباً من أسراب الطائرات حطموا بها المطارات والسكك الحديدية والكبارى ما هو من الكثرة بحيث عجز فون رونشتد عن تجميع قواته عند ما تحقق من الموضع الذي تكال فيه الضربة الكبرى الرئيسية . ذلك أن الحلفاء انصرفوا عن منطقتي الكوتنتان ومركاليه اللذين كان ينتظر أن يوجهوا هجومهم إليها ونزلوا على سواحل نورماندى المفتوحة ، منزليين المظليين أمامهم وجالبيين معهم مينائين صناعيتين تسميان باسم ثمرة « التوت Mulbery » . وأنزل الجند في مواضع ثلاثة واجتمعوا سريعاً في موضع واحد ، وكان البريطانيون يكتنون الطرف الشرقى والأمريكيون الغربى . وللمرة الثانية تقرر أن تكون بداية العمل الميدان الجديد على يد رومل ومنتجومي ، فركز رومل كل مصفحاته وخيرة مشاته

١٥٨٩

في الشرق حول مدينة كاين (Caen) لإنقاذ باريس وحوض السين وحماية المواقع التي كان الألمان يضربون منها عندئذ بريطانيا بطائرات تسير بغير طيارين (وهي المسماة «V.1s») وكانت تلك الطائرات تنسف المباني التي تصطك بها - ثم جاءت في إثرها طائرات أسرع من الصوت تسمى («V2s») وكانت تنقض على أهدافها من طباق الجو العليا . وهنا كان التقدم دموياً وبطيئاً ، ولكن جيوش



(شكل ٢٣٤)

الولايات المتحدة دأبت على شق طريقها نحو الغرب بثبات ، حتى قطعوا خط شبه جزيرة الكونتنتان ثم استولوا على شربورج ، وبذلك أصبح في قبضتهم في النهاية ميناء طبيعي كبير . وما حلت نهاية يولية حتى أصبحوا وقد شقوا طريقهم عنوة حول ركن شبه الجزيرة إلى بريتانى بالاستيلاء على أفارانش ، فاتحين السبيل أمام جيش

الجنرال باتون ليّزحف بجيشه في صورة مروحة في مسيره الشهير عبر شمال فرنسا . ووثبت « جيوش الداخل » الفرنسية إلى أسلحتها لاستقباله ، وأخذ الحكم الألماني يتصدع . وسقطت دينان في ٢ أغسطس ورين في ٤ أغسطس وماين في ٦ وليمان في ٩ ونانت وأنجرس في ١٠ ، على حين سارع الألمان إلى الفرار إلى الموانئ المحصنة : برست وسانت نازير وسانت مالو ولوريينت .

ولكن خيل للألمان أن هذا التقدم الرائع يعطيهم فرصة ، فلو أمكن استرداد أفارانش ، إذن لقطع السبيل على باتون وشلت حركته . ومن ثم وجهوا إليها هجوماً قوياً من فرق البانزر في ٧ أغسطس . ولكن الهجوم صد في يوم ١٢ وواصل القواد الألمان هجومهم طويلاً . وكان التقدم السريع الذي أحرزه باتون حول مراكزهم إلى خط امتداد طويل محصور في منطقة فاليز ، التي سميت باسم رهيب ولكنه صحيح هو « أرض القتل » . ولم تبق من جيش البانزر الخامس والسابع إلا بقايا ضئيلة فرت على أعقابها إلى نهر السين الذي لا يقوم عليه هناك جسر ولا معبر ؛ حتى إذا حل يوم ٢٢ كان معظم الجيوش الألمانية بين ميت وأسير .

وفي الحين نفسه اكتسحت حركة باتون مدن : شارتر ودروه ومانت على السين وأورليان وفونتينبلو وترويس ، وكلها سقطت في مدى أسبوعين ؛ وأنزلت دفعة أخرى من الجند في الجنوب بين مارسيليا وطولون قامت بتعقب الألمان على امتداد حوض الرون . ولكن فرنسا خلصت نفسها إلى حد كبير حيث قدر إيزنهاور مقدار قوات المقاومة « بخمسين فرقة » . وولى الألمان الأدبار مهطعين ، إذ اضطروا إلى ذلك لأن القطر المحيط بهم بأكمله تحول إلى منطقة عدوة مسلحة . وخلصت باريس نفسها بعصيان نظمته الشرطة في التاسع من أغسطس ، قبل وصول الحلفاء يوم ٢٥

وعندئذ جاء دور البريطانيين والكنديين ؛ فلأنهم قاموا باكتساحات شمالية جارفة أسكتت — الواحد تلو الآخر من الأحادير العظيمة التي كانت تنطلق منها إلى بريطانيا طائرات « V.1 » التي ليس لها قائد ، ثم انصبوا عبر شمال فرنسا وبلجيكا . وفي ٣٠ أغسطس أصبح البريطانيون في بوقيه وإذا هم في أميان في اليوم التالي — ثم إذا هم يوماً في

١٥٩١

لأثر يوم يستولون على آراس وتورنيه وبروكسل وأنتويرب (أنقرس) ولوفان . واستولى الكنديون والبريطانيون في أول سبتمبر على ديب وروان ؛ وفي الأيام الأربعة التالية اكتنفوا الهافر وبولونيا وكاليه ؛ وفي السادس منه أخذوا أوستند . ولكن بدا عند ذلك أن الاندفاع العظيمة انتهت . وتقدمت جنود الولايات المتحدة إلى لكسمبرج ، وتقدم الفرنسيون إلى الرين من خلل القوچ ، ولكن محاولة البريطانيين مواصلة الغزو حتى هولندة كبدهم خسارة ثلاثة أرباع قوة من جنود المظلات قرب أرهم . . وكانت أول مدينة ألمانية سقطت هي آخن ، وهي في الطرف الأقصى للتخوم الألمانية ، وقد أخذت في ٢١ أكتوبر ، ولكن الأمطار نزلت بشدة في نوفمبر وبدا كأن جيوش الحفاء قد استنفدت قوة الدافع .

وكانت الأنباء الواردة من أوروبا الشرقية طيبة أيضا ، ولكن كانت تشوبها بعض الظلال . فقد أصيب الجيش الألماني بضربة ثقيلة عندما استردت منه مدينة منسك ؛ وأعقبها قلنا ، وفي أغسطس عبرت الجيوش الروسية الحدود الروسية الشرقية قرب مريمبول ؛ واثارت قوات المقاومة البولندية في وارسو لاستقبالهم . ولكن فات الروسين أن يتقدموا لمعاونتهم ؛ ولم يلبث مقاتلة وارسو حتى أبيدوا عن آخرهم بعد أن كافحوا مدة ثلاثة أشهر كفاح المستيئس . ونقل مركز الثقل في الهجوم السوفييتي نحو الجنوب . واعتقل ميتسل ملك رومانيا « الفوهرر Führer » المحلى ببلاده وانضم إلى أعداء الألمان ؛ وسلست بلغاريا ؛ وحرر الماريشال تيتو وطنه يوغوسلافيا . ودخلت الجيوش الحمراء بلاد الحجر . (وحرر البريطانيون بلاد اليونان .)

وفي الشرق الأقصى تمزق شمل الأسطول الياباني في معركة الفلبين ، ونزلت الجيوش الأمريكية بإحدى الجزر (لايتي) ؛ وكانت الجيوش البريطانية تدفع باليابانيين إلى الخلف في بورما ، ولكن ذهابهم كان عسيراً جداً .

وفي شتاء ١٩٤٤ قام الهانزر بآخر هجوم لهم في التاريخ . فقد هاجمت الأمريكيين في منطقة الأردن التقليدية في يوم ١٢ ديسمبر ١٤ فرقة من المشاة ، ١٠ فرق من الهانزر وقوة مجمدة من سلاح الطيران الألماني . فكسروا صفوف الأمريكيين في

جبهة عرضها ٤٥ ميلا ؛ وفرقوا بين ميمنة الجنرال برادلى وميسرته ، وقطعوا الطريق على الفرقة ١٠١ من الجنود الأمريكيين راكبة الطائرات فى ناستونيه على طريق سيدان ؛ وتقدم الألمان ٦٠ ميلا حتى أوشكوا أن يبلغوا نهر الموز ولكنهم ما لبثوا أن أوقفوا عن الزحف ثم دفعوا إلى الخلف . وبعد أكثر من شهر بقليل عادوا إلى حيث كانوا من قبل ، ولم يبق لديهم دبابات ولا طائرات ولا زيت مما كانوا يحتاجون إليه أشد الحاجة .

ومنذ ذلك الحين أصبح انهيار الألمان سريعا عاجلا . وفى يناير ١٩٤٥ كان الروس اجتاحتوا بولندية بأكملها ولتوانيا معها ، ودخلوا سيليزيا ولم يلبثوا حتى أصبحوا على ما لا يزيد عن ٣٠ ميلا من برلين . وفى الغرب صمم الألمان على القتال غربى نهر الراين - وهى الكارثة الحاسمة الثالثة فيما يرى إيزينهاور (وكانت الثانية هى فاليز) ؛ فإنهم لم يلبثوا فى الأسبوع الأول من مارس أن سحقوا مرة ثانية ولم يبق لهم من حدود سوى نهر الراين نفسه . وفى فبراير عقد فى يالنا مؤتمر ثان للأقطاب حضره روزفلت وتشرشل وستالين فنسق الخطط للهجوم النهائى وللتسوية السياسية لأوروبا والشرق الأقصى - وقد نجح المؤتمر فى الحالة الأولى . والواقع أن المقاومة العسكرية الألمانية كانت ترجع آنئذ إلى إرادة رجل واحد هو أدولف هتلر . وقد فشلت محاولة لا غتاله فى ٢٠ يولية ١٩٤٤ ، وإن النازيين ليواصلون المقاومة ما أقام هو على إلقاء خطبه . ولكن أى له أن يغير مجرى التاريخ ؟ فى مارس أصبحت الجيوش الغربية تقف على شاطئ الراين ، وحوصر حوض الرور ولم يلبث حتى سقط بمن فيه من مدافعين . ودخل الروس قيينا فى ١٣ من أبريل ، ولم ينقض زمن طويل على ذلك حتى طوقوا برلين وبها الفوهرر نفسه ، وتقدم باتون نحو تشيكوسلوفاكيا ، وتوقف خارج براج ، وبلغ البريطانيون نهر الإلب . وفى ٢٥ إبريل وعلى نفس ذلك النهر التقت الفرقة ٥٨ الروسية بالفرقة ٦٩ الأمريكية ، وأصبح الريخ مقسوماً إلى قسمين .

وكان المتوقع أن ينسحب هتلر بطريق الجبل إلى « طابية » فى جبال الألب بموقع يمكنه أن يقف فيه وقفة أخيرة ، ولكنه لم يفعل ذلك . ذلك أنه ازداد جنونا فى

١٥٩٣

أيامه الأخيرة وأخذ يغذى خياله حتى النهاية بأوهام وخيالات عن جيوش ألمانية ستقدم لانقاذه ، فصمم على أن يختم حياته ختاماً ميلودرامياً أعنف وأقسى ؛ فبينما كان الروس يشقون طريقهم نحو مكان مخبأه من الغارات في برلين ، أقدم على الانتحار في اليوم الأخير من إبريل ومعه إيقابراون . ثم أحرقت جثتها بعد ذلك بأمره . وقبل ذلك بيومين اغتال رجال الأحزاب الإيطالية موسوليني وخليلته وعلقوها من قدميهما في الشارع .

وقضى ذلك الخبر على كل مقاومة . وفي اليوم الثاني من مايو سلمت برلين ؛ وكذلك فعلت جميع الجيوش الألمانية بإيطاليا ؛ وبعد يومين نحت نفس ذلك النحو الجيوش الألمانية في هولندا وشمال غربى ألمانيا والدانيمركة . وفي اليوم السابع وقع الجنرال يودل (Jodl) رئيس هيئة أركان الحرب على صك استسلام تام . ولم يبق من شىء يعمل بعد ذلك بألمانيا سوى تنسيق أعمال الفاتحين . وبينما الحلفاء يحتاحون أرض الرينخ ويشهدون بلسن وداخاو وأوشفيتز وغيرها من معسكرات الاعتقال ، أدركوا (الحلفاء) أن الروايات التى كانت تروى عن جرائم الألمان ووحشيتهم كانت — على عكس روايات الحرب العالمية الأولى — أقل كثيراً من الحقيقة . لذا لم يظهروا أى ميل إلى الرحمة ، ولما اجتمعوا في بوتسدام في ١٧ يولية اتفقوا على تنظيمات اقتصادية وسياسية لألمانيا كانت فيما بعد موضع النقد لأنها تجعل من الحال بعد ذلك أن يصبح ذلك القطر إلا حى فقراء معدمين يتلقى معونة اجتماعية ؛ وفوق هذا ، فإن الفرنسيين الذين احتلوا جزءا من ألمانيا رفضوا التعاون في تنفيذ تلك الخطط . وكان المؤتمر يضم وجوها غريبة . وكان أحد بناء النصر قد مات عشية وصول الحلفاء إلى نهر الإلب ، وجلس في مقعد روزفلت رئيس قلق اسمه ترومان . ولم يكن تشرشل جالسا في بهرة ذلك المؤتمر لأنه اختفى حيث ربط مصيره بمصير المحافظين ؛ إذ أجريت بالبلاد انتخابات عامة أحلت كلمنت . أثلى زعيم حزب العمال محله في رئاسة الوزارة . وبقي ستالين وحده صامداً لم يُعزل ، صامتا لا يعرف ما يحول بخاطره . ولكن لم يظهر حتى آنذاك خلاف خطير . أجل إن الروس كانوا يبدون شيئا من المبالاة والإيثار للأحزاب الشيوعية بالبلاد التى احتلوها — (وهو

أمر منطقي ومتوقع) ، ولكنهم لم يبلغوا الأحزاب الأخرى . وفوق هذا ، اتخذت خطوة عظيمة في سبيل الوحدة وافقت عليها الشعوب طرا ، وهي توقيع خمسين دولة ميثاق الأمن العالمي بمدينة سان فرانسيسكو في ٢٠ يولية . ولتهدئة روع كل من السوفييت ومجلس الشيوخ الأمريكي أُدخل في المنظمة الجديدة حق الفيتو للدول العظمى .

ولكن لئن لم يكن هناك قتال ينبغى القيام به بألمانيا ، إلا أن الحرب لم تنته مع ذلك . ذلك أن الدراما التي مثلت في أوروبا قد أبعدت عن المسرح مشاهد النضال في الشرق الأقصى ؛ إذ بلغت المرارة بنفس القوات المحاربة في بورما أن أسمت نفسها : « الجيش المنسى » . وكانت الجيوش البريطانية والهندية فتحت من جديد الطريق البرى إلى الصين في يناير ؛ وتيسر لها في مارس فتح ماندلاى وانتقل الجنود البورمانيون غير النظاميين بقيادة أنج سان من جانب اليابانيين إلى صفوف الحلفاء ؛ وفي ٥ مايو فتحت رانجون وحررت بورما . وفي المحيط الباسيفيكي وجدت جيوش الولايات المتحدة البرية والبحرية أن القضاء على الأسطول اليابانى لم يؤثر بأى حال في القتال المرير الذى كانت الجيوش البرية اليابانية تدافع به عن الجزر الحيوية الأهمية في الباسيفيكي . ولم يتم تحرير الفلبين إلا في ٥ يولية . فإن الدادة عن إيوجيا ظلوا يحاربون من ١٩ فبراير إلى ١٥ مارس ؛ وظل المدافعون عن أوكيناوا ، وهي جزيرة قريبة من اليابان قرباً خطراً يقاتلون باستهانة تكاد تصل إلى الجنون من أول إبريل وصمدوا في موقفهم قرابة الثلاثة أشهر . ذلك أنه يظهر أن اليابان كان متبقياً لديها فائض ضخم من الطاقة وأن إعلان روسيا الحرب عليها كان موضع الترحاب لديها .

ولكن الواقع أن اليابان كانت منهكة أكثر كثيراً مما بدا عليها ظاهرياً ، ولم تلبث حين وجه إليها أشد أنواع « الأسلحة الحديثة المروعة أن استسلمت استسلاماً مباغتاً . وكان العالم أليشتين وغيره من العلماء حذر الحلفاء منذ البدايات الباكورة للحرب مما يحاول النازيون فعله ، فأخذ الحلفاء يحاولون « تفتيت الذرة » لكي يطلقوا عقول أقصى ما في هذا العالم من طاقة . وأخذ العلماء الأمريكيون والكنديون والبريطانيون يعملون في تلك المسألة ، وفي اليوم السادس عشر من يوليو فجرت

١٥٩٥

بنجاح أول « قنبلة ذرية » بصحراء ولاية نيومكسيكو . والواقع أن استخدام هذه الآلة الجهنمية كان يتوقف على الرئيس الأمريكي الجديد . وفي النهاية استقر رأيه إلى أنه ربما كان في الإمكان استحياء مئتي ألف نفس أمريكية كما قال الرئيس ذلك فيما بعد لو استخدمت تلك القنبلة ، بل ربما كان في استخدامها الإبقاء على عدد آخر أكبر من أبناء الأمم الأخرى . وفي ٦ أغسطس سقطت على ميناء هيروشيما اليابانية قنبلة ذرية بعد إنذار شكلي عاجل . ويمكن القول بصفة إجمالية أن تلك القنبلة دمرت المدينة بأكملها وقضت على كل كائن حي بها . وبعد ذلك بثلاثة أيام أسقطت على نجازكي قنبلة مماثلة فأحدثت نفس النتيجة . (وقد أعلن الروس في المدة بين القنبلتين الحرب على اليابان ودخلوا منشوريا ، وكأني بتلك الفعلة أصبحت آنذاك مسألة صغيرة الأهمية .) وفي ١٤ أغسطس سلم الإمبراطور الياباني دون قيد ولا شرط ، وفي اليوم التالي أعلن المستر ترومان والمستر أتللي أن يوم النصر على اليابان « V.J Day » يوم انتهاء الحرب العالمية الثانية ، يمكن الآن الاحتفال به رسمياً .

٢ - مستقبل البشرية

مهما يكن مصير البشرية ، فليس ثم مجال للشك في أن الوصول إلى توحيد البشرية كلها في اتحاد فدرالى ، فضلاً عن قيام قدر كاف من العدالة الاجتماعية ، لإبتغاء تأمين الصحة والتعليم وضمان قدر لا بأس به من تكافؤ الفرص لمعظم الأطفال المولودين في هذا العالم ، سيؤدى إلى إطلاق الطاقة البشرية وزيادتها بصورة تفتح دوراً جديداً في التاريخ البشرى . وعندئذ لابد أن يتوقف ذلك الخسار الهائل ، الذى يعود إلى ما يدور بين الدول الكبرى من إضرار متبادل ، فضلاً عن الخسار الأضخم كثيراً ، الراجع إلى قلة إنتاج جماهير غفيرة من الناس ، الذين يقصرون عن الغاية إما لشدة ثرائهم حتى ليعوزهم الدافع المثير وإما لشدة إدقاعهم حتى لتعوزهم الكفاية . وعندئذ لابد أن تحدث زيادة ضخمة جداً في إنتاج حاجيات البشرية الضرورية وارتفاع في مستوى المعيشة وفي أفكار الناس حول ما يعتبر ضرورياً من الضروريات وتطور في النقل وكل نوع من أنواع اليسر والجمال ؛ وعندئذ لابد أن

ينتقل جمهور غفير من الناس من مرتبة الانتاج الخفيض الدرجة إلى صنف أعلى من العمل مثل الفنون على اختلاف أنواعها والتعليم والبحث العلمى وما ماثلها . ولابد أن يعم العالم عندئذ فكالك لعقال الطاقة البشرية ، على صورة لم تحدث إلى اليوم إلا فى مواطن صغيرة فقط وعن طريق أدوار صغيرة وثمينة من الأمانة والرغد . فما لم نفترض أنه قد حدث فى الماضى انبجاسات تلقائية أنتجت مجموعة من الإنسان السوبرمان ، فإن من المعقول أن نستنتج أن أئينة پركليس وفلورنسة آل مديتشى وانجلتره إليزابث وأعمال أسوكا العظيمة وعهدى تانج ومنج فى الفنون ، إن هى إلا عينات لما يمكن أن ينتجه على الدوام وبصورة مجتمعة مكدسة عالم ترفرف على ربوعه كلها الطمأنينة المستمرة . ولا شك أن التاريخ يبرر هذا الشئ الذى نتوقعه ، وذلك دون اللجوء إلى افتراض حدوث أى تغيير فى الصفات البشرية ، اللهم إلا مجرد إفلاته من النظام الحاضر القائم على الخسار المتجاوز كل حد .

وقد شهدنا بأنفسنا كيف أنه حدث منذ ساعة تحرير الفكر البشرى فى القرنين الخامس عشر والسادس عشر ، أن عدداً قليلاً نسبياً من رجال أذكىاء طُلُعَة ظهوروا بخاصة فى أوروبا الغربية ، قد أنتجوا رؤى عن العالم وقدرنا من العلوم تحدث الآن انقلاباً ثورياً فى الحياة من ناحيتها المادية . وقد كان هؤلاء الرجال يعملون فى معظم الحالات تلقاء تثبيت ضخيم للهمم وإقتار فى المال ومساعدة أو مساندة ضئيلة من سائر البشرية . ومن المحال على المرء أن يعتقد أن هؤلاء الرجال هم أقصى ما أمكن جيلهم انتاجه من محصول . فإن انجلتره وحدها لا بد أنها أنتجت فى القرون الثلاثة الأخيرة عشرات من النوابغ مثل نيوتن لم يتعلموا القراءة قط ومئات من أضراب دالتون ودارون وباكون وهاكسلى - ماتوا جميعاً أقزاماً فى بيئات الفقر والجهل العفنة ، أو لم يحصلوا قط على فرصة لإظهار مواهبهم .

ولابد أن العالم كله كان مشحوناً بآلاف من أشخاص كان يمكن أن يكونوا باحثين من الطراز الأول أو فنانين ممتازين أو مفكرين ذوى عقول خلاقة لم يتح لهم قط بصيص من الإلهام ولا فلذة من فرصة مقابل كل فرد واحد من أولئك الذين تركوا أثرهم فى العالم عميقاً محفوراً . وكم مات فى الحروب القريبة من ألوف من

العطاء « قوة » غادروا هذا العالم بسر لم يتم له ازدهار . ولكن العالم لو أُتيح له بارقة سلام دولي وطيد الأركان وبادرة عدالة اجتماعية ، لابد أن يتصيد الكفايات بشبكة دقيقة من التعليم العام الانتشار ، وربما جاز له أن يتوقع الحصول على محصول يفوق كل مقارنة بأي محصول آخر من الرجال الأكفاء اللامعين الذين شهدهم العالم في أي حقبة من تاريخه .

ولعمري إن اعتبارات مماثلة لهذه هي التي تبرر تركيز الجهود في المستقبل القريب على إنشاء دولة عالمية جديدة قوامها أكبر من أنقاض ارتباكاتنا الحاضرة . والحرب شيء فظيع ، يزداد على تقدم الزمان فظاعة ورهبة ، بحيث أنه ما لم يجد الناس لهم منها مهرباً ، فلا بد أن يقضى على الجماعة البشرية ؛ ذلك أن ما تتمخض عنه من الظلم الاجتماعي ومشاهد الكائنات البشرية المصابة والمشوهة يعذب النفس ويثير لواعجها ، ولكن أقوى بواعث العمل السياسي والاجتماعي البناء عند ذوى الأرواح الخائلة لا يمكن في مجرد الأمل في تجنب الشرور قدر ما يمكن في نشوء الفرصة اللازمة للقيام بالمغامرات العظيمة التي يتيحها لجنسنا البشري القضاء على تلك الشرور . ونحن نبغي إلغاء كثير من ألوان التزيد في الملكية الخاصة مثلما قد نرغب في إلغاء حارس أبله يمنعنا من الدخول إلى مرسم يمكن الداخل إليه القيام بأشياء ممتازة .

ومن الناس من قد يتصورون أن قيام نظام عالمي وقانون وعدالة شاملين لابد أن ينهيا المغامرة البشرية . والواقع أنه أمر لا يزيد عن أن يبدأ تلك المغامرة . ولكن بدلا من مغامرة الماضي ، تلك القصة « الرومانسية » لعالم السينما توغراف القائمة على التكرار الدائم للتفاعلات المبتدلة للجنس (Sex) والعراك وتصيد الذهب ، ستكون المغامرة ارتيادا لنهاية له على حافة الخبرة . فكأن هناك رجلا ظل حتى حين قريب يعيش في أحد الأحياء الفقيرة ، يتنقل بين ما تحفل به من ألوان الشجار والانتقام والغرور والمعرفة والدنس والرغبات الحارة والشبهات الحادة . ولم يكده حتى اليوم يتذوق للهواء النقي الحلو طعماً ، ولا عرف للحريرات الضخمة في الحياة ، التي وسع العلم آفاقها له .

ومن أجل التأمّلات التي قد يرتأياها الفرد منا تصوره صورة ما للحياة الأرحب أفقا التي تفتح وحدة العالم رتاجها على مصراعيه . ولا بد أن الحياة ستمضي عندئذ مدفوعة بدافع أقوى ، وستتنفس أنفاساً أعمق وأقوى ، وذلك لأنها عند ذاك تكون قضت على مآثر من صنوف العدوى التي تصيب العقل والجسم والتي تلتسهه اليوم بلسعات المرض والعجز والفاقة . وقد سبق أن شددنا التأكيد على أن الكدح قد أزيل من الحياة الإنسانية بدرجة كبيرة بسبب إيجاد نوع آخر من الرقيق : هو الآلات . وسيرفع هذا عن كاهل أطفالنا ومعه عوامل أخرى منها اختفاء الحرب وتوطئة أكتاف ما لا حصر له من القيود والمنازعات بفضل الترتيبات الاجتماعية والاقتصادية الأكثر عدلا ، — عبء العمل المتعب والعمل الروتيني ، وذلك العبء الذي بذله الإنسان وما زال يبذله منذ ظهور فجر الحضارات الأولى كي يحصل على الأمن البشري . وليس معنى ذلك أنهم سيتوقفون عن العمل ، بل أنهم سيتوقفون عن القيام بالأعمال المضيئة التي يعملونها بدافع الضغط ، وسيعملون بملء حرياتهم واضعين الخطط وصانعين ما يشاءون وخالفين ما يستطيعون خلقه ، كل حسبما تهيب له قدراته وغرائزه . ولن يعودوا يقاتلون الطبيعة على طريقة أصحاب الفأس والمحراث الأغبياء في قديم الزمان ، وإنما هم مقاتلوها التماسا لفتح عظيم يفتحونه . وكل ما في الأمر أن انعدام الروح فيما يحيق بنا من اكتئاب في عصرنا الراهن يعنى بصائرنا عن الإشارات الواضحة التي تشير بها إلينا عقولنا ، وهي التي ترسم لنا أنه لن تنقضي بضعة أجيال حتى تصبح كل مدينة ريفية صغيرة أثينا جديدة ، وحتى يصبح كل كائن بشري رقيقاً في تربيته . صحيحاً في جسمه وعقله ، وحتى تصبح كتلة الأرض كلها منجماً للإنسان ومصدر إنتاج وثروة وأقصى مناطقها بعداً مسترادا له وملعباً .

وقد جهدنا في هذه « المعالم » أن نبين للقارئ نظامين عظيمين للتطور يتفاعلان أحدهما مع الآخر في قصة الجماعة البشرية . فقد شهدنا الثقافة المتأخرة للعصر الحجري الحديث تتمخض في المناطق الرسوبية الدفينة من العالم عن الحضارات الأولية العظيمة ، وهي نظم كانت تربة خصيبة لنمو الإخضاع والطاعة وتكاثرات ضخمة

لأناس مجدين أذلاء . وأوضحنا العلاقة الضرورية بين هذه الحضارات القديمة وبين المعابد الباكورة وبين الآلهة الملوك والملوك الآلهة . وترسمنا في الوقت نفسه خطى التطور ابتداء من مستوى بسيط للعصر الحجري الحديث الذى عاشت فيه الشعوب المتجولة ، التى أصبحت الشعوب المترحلة ، ترسمناها فى تلكم الجماعات الضخمة : الشعوب الآرية النوردية والشعوب الهونية المغولية فى الشمال الغربى والشمال الشرقى كما شهدنا الساميين سكان الصحارى العربية . وقد تحدث تاريخنا عن عمر هذه الشعوب الأشد مراساً والأجراً قلباً والمتحررة روحاً ساكنة السهوب والصحارى ، غمرأ متكرراً ومنعشاً للحضارات السمرأ أصلاً . وأوضحنا كيف أن هذه الانسيابات المتكررة على الدوام لهؤلاء المترحلين غيرت على الدوام كلا من روح الحضارات البدائية القديمة ودمها ؛ وكيف أن أقاليم العالم فى هذه الأيام ومانسميه الآن باسم الديمقراطية ، وما نشهده من شدة جرأة البحث العلمى الحديث والقلق العام المنتشر فى الدنيا ، ترجع كلها إلى « صبح » الحضارة بهذا الصباغ الترحلى . واليوم تدمرت قوة التقاليد . أجل إن قوام حالتنا الراهنة لا يزال هو الحضارة ، ولكن روحها هى روح العالم المترحل . هى روح السهول العظيمة والبحار العليا .

ونتيجة لهذا كله يصبح من العسير علينا أن نقاوم الاقتناع بأنه ما يكاد قانون واحد يسرى فى الأرض وتكف حدة التوترات على الحدود عن إقلاق بالنا ، حتى تحدث أثرها فينا تلك الحاجة الماسة فى طبيعتنا التى تحركنا فى الربيع والخريف أن نهض للسفر والرحلة . وسيكون منا السميع المطيع لما ركب فى دمائنا من دعوة مراعى الصيف ومراعى الشتاء ، ودعوة الجبال والصحراء والبحر . ومنا أيضاً من قد يكون من سلالة أخرى وتجيئه دعوة الغابة ، ومنا من يميل إلى الصيد صيفاً ويعود إلى الحقول تلبية لدعوة المحصول والمحراث . ولكن ليس معنى ذلك أن الناس سيصبحون عندئذ مشردين بغير مأوى منساقين دوماً بدافع النقلة والتحريك . إذ أن حياة الترحل السوية ليست حياة قوم عديمى المأوى ، وإنما هى حياة قوم يتنقلون بين مأوى مختلفة . فإن شعب القلموق يعيش فى هذه الأيام كطه الخطاة ، يتنقلون كما عام ألف ميل من مأوى لهم إلى آخر . وفى اعتقادنا ' .

التالى الجميلة المريحة ستمر عليها مواسم تعج فيها بالحياة ومواسم تغط أثنائها فى النوم .
وستمر بالحياة آناء مد وآناء جزر يمتلىء فيها كل إقليم أو يُصفر على حال موسمية بقدر
ما يزداد الاهتمام بذلك الإقليم أو يفتر .

ولكن يكون فى هذا العالم الأحسن نظاماً إلا القليل من الكدح العسيف . إذ أن
العسيف الكادح للناس جميعاً سيكون قوى الطبيعة ملجئة فى الماكينات . فأما ما كان
من صنوف الكدح لا مندوحة منه ، فسيتم فى صورة خدمة وأداء واجب لمدة بضعة
سنوات أو أشهر تقتطع من حياة كل فرد ؛ وإذن فلن يستنفد ولا يحقر حياة
أى فرد بأكملها . ولن يقتصر الأمر على الكادحين العسفاء فقط ، بل إن أنواعاً
عديدة أخرى من الناس وطرائق أخرى كثيرة للعيش تبدو اليوم ضخمة ضخامة
غير عادية فى الخطة الاجتماعية الجارية ستضوى أهميتها بحكم الضرورة أو تزول من
الوجود زوالاً تاماً ؛ مثال ذلك أن المقاتلين المحترفين سيكونون قلة أو ينعدمون تماماً
وسيزول من الوجود موظفو الجمارك ؛ ولا بد أن يتهياً للعدد الضخم الذى سيصير إليه
المعلمون إلغاء شطر ضخم من قوات الشرطة وشطر آخر ضخم من موظفى السجون ،
وستصبح دور المجانين نادرة أو منعدمة تماماً ؛ وسيم العالم كله نظام صحى شامل
يقلل من عدد المستشفيات والمرضات والمشرفين على غرف المرضى وما إلى ذلك ؛
وستعم الدنيا أجمع عدالة اجتماعية وينقرض منها كل عالة تعيش عائمة على بحر المجتمع
كالغشاشين والمحتالين والمقامرين والمحتكرين والمتطفلين والمضاربين بصفة عامة .
ولكن عالم الأيام المقبلة لن تنقضى فيه المغامرة ولا الرومانس ، كما أنه سيحدث مثلاً
أن مصايد الأسماك فى البحار وتلك الثروات التى نحدثها البحار بلا نهاية ستدعو
طرزها الخاصة القوية من الرجال ؛ كما أن أطباق الهواء العليا ستجأ مطالبة بالرجولة
التي تجرؤ على اختراقها ، فضلاً عن زئير الأماكن الخفية العميقة الخطرة للطبيعة
بالدعوة والطلب .

وسيلتفت الناس ثانية لعالم الحيوان باهتمام مجدد . فإن أيامنا هذه المضطربة تجرى
فيها مذابح غبية لا سبيل إلى ضبطها تنزل أضرارها بأنواع الحيوان — وترى بعض
الدوائر أنها شئ أكثر فجعية من التعاسات الانسانية نفسها ، فقد حدث إبان القرن

١٦٠١

التاسع عشر أن العشرات من أنواع الحيوان أيدت عن آخرها مع أن بعضها أنواع شائعة جداً ؛ بيد أن من أول ثمرات الدولة العالمية الفعالة قيام حماية أفضل لكل ما يسمى الآن بالضواري . ومن أعجب الأمور في تاريخ البشرية أن نشهد ذلك القدر الضئيل الذي تم منذ عصر البرونز في سبيل استئناس الحياة الحيوانية المحيطة بنا واستخدامها ومصادقتها وتقديرها . ولكن ذلك القتل البحت الغبي الذي يسمونه اليوم باسم الرياضة لابد أن يحل محله في مجتمع عالم أحسن تعليماً تعديل للفرائز البدائية التي تعبر عن نفسها بهذه الطريقة يحولها إلى اهتمام لا بموت الوحوش بل بحياتها ، ويؤدي إلى قيام محاولات جديدة قد تكون أيضاً عجيبة جداً وجميلة جداً لمصادقة هذه المخلوقات الدنيا البائسة القريبة النسب منا والتي لم نعد نخشاها عدواً ، ولا نكرها منافساً ولا نحتاج إليها عبداً رقيقاً .

. وليس معنى وجود الدولة العالمية والعدالة العامة الشاملة حبس جنسنا البشري في إطار نظامي من النظم الجرداء . إذ أن الجبال والبحر ستظل كائنة ، وستظل هناك أذغال وغابات عظيمة تلقى العناية حقاً وتقدر أعظم التقدير وتوضع موضع الرعاية والحماية ؛ وستظل السهول العظيمة مبسوطة أماناً وتحقق فيها الأرياح العاتية . ولكن الرجال سيكفون عن البغض إلى هذا الحد الشديد ، وعن الخوف بهذه الشدة ، وعن الغش والخديعة بمثل هذه الدرجة المستثينة التي نشهد ؛ وسيحافظون على عقولهم وأجسامهم أنظف وأطهر .

هذا وإن ضم شتات البشرية مجتمع واحد لا ينطوي ضمنا على خلق مجتمع واحد متجانس ، بل الأمر على العكس من ذلك أو يكاد ، إذ سيقوم الوضع على استخدام الصفات المميزة الخاصة استخداماً كافياً يكون موضع الترحاب من الجميع في جو من الفهم . والأخلاق السيئة المنتشرة بين الناس كافة تقريباً في هذا العصر الذي نعيش فيه هي التي تجعل الشعب لا يطبق أخاه من الشعوب . والمجتمع الذي لعلنا نسير صوبه سيكون أشد اختلاطاً ، وأكثر تنوعاً وأكثر امتاعاً وتشويقاً من أي مجتمع يوجد الآن . وليس معنى ذلك بالضرورة أنه سيكون أكثر تهجيناً . ذلك أن

المجتمعات المصوغة على غرار واحد كصناديق ييادق^(١) اللعب ، إنما هي شيء يمت إلى الماضي لا إلى المستقبل .

يبد أن من أعسر الأمور وأشدّها استحالة على الكاتب ، أن يتصور قيام وضع يعيش فيه قوم أحسن تعليماً وأسعد ظروفًا وأكثر حرية وأصح بدناً منه هو نفسه . ومعارفنا في هذه الأيام من السعة بحيث نعلم يقيناً أن هناك متسعاً لا نهاية له لادخال التحسين في كل ناحية هم البشر . وكل ما يحتاج إليه الأمر إنما هو الجهد الحشدي المشترك والتسامح المتبادل . ولا شك أن ما نرزح تحته من فقر وقيود وأمراض معدية وعسر هضم وما ينشب بيننا من شجار وسوء تفاهم ، إنما هي أشياء يمكن التحكّم فيها وإزالة دواعيها بتجميع الجهود البشرية . ولكن معرفتنا بمعنى الحياة وإحساسها لو انعدمت هذه الأشياء تكون ضئيلة جداً لا تزيد عن معرفة مخلوق فقير قذر يعامل معاملة السوء وتتمرد نفسه بالشراسة ، مخلوق ولد وترعوع بين ظهرائي . وسط قاس قذر في شارع خلقي من شوارع أوربا ، — أقول لا تزيد معارفنا عن معرفة ذلك المخلوق بمعنى الاستحجام يومياً وارتداء الثياب الجميلة وارتقاء الجبال التماساً للمسرة والانطلاق إلى أطباق الجو طيراناً وعدم الالتقاء بأى إنسان إلا المهذّبين الراقين من الناس والقيام بالابحاث العلمية العميقة أو إنتاج كل ما يسر ويهيج من الأشياء . ولكن اليوم الذي قد تكون فيه هذه الطيبات جميعاً في متناول الناس كافة قد يكون أقرب كثيراً مما نظن . وكل مرّة منا يعتقد في ذلك يقرب يوم ذلك الزمان الحسن ؛ وكل قلب يفشل دون تلك الغاية يباعد بيننا وبينه .

ولا يستطيع إنسان أن يتنبأ بالمفاجآت ولا خيبات الرجاء التي يدخرها لنا المستقبل . وقبل أن يبدأ هذا الفصل الخاص بالدولة العالمية بداية جميلة في تاريخ العالم ، فربما احتاج الأمر أن تُكتب فصول أخرى لا نتوقعها الآن ، فصول لا تقل في طولها وامتلائها بالصراع عما أدلينا به إليك عن نمو الدول العظمى ومنافساتها وعن ثورة حكومات القلة الشبيهة بالعصابات . وربما حدثت كفاحات اقتصادية

(١) البيدق هو الجندى المصنوع دمية كما في الشطرنج . [المترجم]

١٦٠٣

فاجعة ، وملا بطات شرسة بين جنس وجنس وبين طبقة وطبقة . وربما حدث أن يعاود أصحاب « المشروعات والمسابى الخاصة » رفضهم تعلم درس بذل الخدمات دون قيام ثورة ككارثة أخرى . تلك أمور لا يدري عنها شيئاً ولا نستطيع أن ندلى فيها برأى . وغنى عن البيان أن هذه جميعاً إن هى إلا نوازل لا ضرورة لها ، ولكن ربما كانت نوازل فظيعة وليس منها محيص . والتاريخ البشرى يتحول أكثر فأكثر إلى سباق بين التعليم والكارثة . وفى الماضى كانت الكارثة هى الفائزة على جهد المسيحية لتوحيد العالم : وكانت هى الفائزة على أثر الانقلاب الميكانيكى النازع إلى الوحدة العالمية . ولسنا نستطيع حتى الآن أن نجزم كم من الانتصارات قدر للكارثة أن تحززه ، وكم من المحصولات الضخمة من حصائد النفوس لا يزال ينتظر الحاصد القاسى . وربما نشأت زيوف وأكاذيب أخرى لم نحلم بها حتى اليوم ، وتمسك بالناس وتزج بهم إلى حين فى ربة أحد الأنظمة قبل أن تنهار تلك الترهات بين ظهرانى التعاسات والمذابح التى تنزل بالأجيال .

على أنه لابد للعالم من أن يتقدم ولسوف يتقدم على شاكلة ما سواء فى تعثر أو فى سهولة ويسر . وقد سبق لنا أن اقتبسنا فى هذه « المعالم » فيما أدلينا به إليك عن إنسان العصر الحجرى القديم ، وصفاً نقلناه عن المستر ورتنجتون سميث لأعلى درجة وصلت إليها الحياة البشرية فى العالم قبل يومنا هذا بما يقارب الخمسين ألف سنة . لقد كانت حياة أدنى إلى حياة البهائم لا جرم . ورسمنا أيضاً اجتماع الناس لتقديم القرбан البشرى قبل يومنا هذا بخمسة عشر ألف سنة . وغنى عن بيان أن ذلك المشهد قاس قسوة لا يكاد يصدقها عقل عند أبناء عصرنا هذا .

ولم ينقض بعد أكثر من خمسةة سنة على إمبراطورية الأزتيك التى كانت تعتقد أنها لا تعيش مالم تسفك الدماء . وكانت مئات من الضحايا البشرية تموت كل عام بهذه الطريقة فى بلاد المكسيك ، وكان الجسم يقوّس كالقوس فوق حجر التضحية الأقى ، وكان الصدر يطعن بسكين من الزجاج البركانى ، ثم يعمد الكاهن إلى القلب المابض فينزعه من جسم الضحية وهى لا تزال حية . وربما كان قريباً ذلك اليوم الذى لا نعود فيه نأكل قلوب الرجال ، ولو كان ذلك من أجل آلهتنا القومية :

وما على القارئ إلا أن يرجع إلى الخرائط الزمنية الباكراة اللى قدمناها إليه فى هذا الكتاب ، ليرى المقياس الحق والسمة العارضة لكل الصراعات والجرفانات والتعباسات اللى شهدتها الانسانية فى هذه الفترة فترة التغيرات الجرداء المؤلة والحافلة بالرجاء جملةا فى الحين نفسه .

والتاريخ إنما هو — ولا بد له على الدوام كذلك — من أن لا يزيد على بيان يسجل البدايات . وفى إمكاننا أن نجروا على التكهن بأن الفصول التالية اللى ستكتب ، ستحدث وإن تخللها فواصل طويلة فى النكسات والكوارث ، عن إحراز الناس فى النهاية للوحدة السياسية والاقتصادية اللى تشمل العالم أجمع . حتى إذا بلغت تلك الغاية ، فلن يكون معناها مرحلة راحة ، ولا حتى مرحلة لالتقاط الأنفاس ، قبل نشوء كفاح جديد وجهود جديدة أعظم كثيراً . فالناس لن يتحدوا إلا لتشديد بحمهم وراء المعرفة والقوة والعيش كشأنهم دائماً فى انتظار المناسبات الجديدة . وعندئذ ستخضع حياة الحيوان والنبات ، والطرائق الغامضة فى علم النفس ، والتركيب الخفى للمادة والأعماق الباطنية لكرتنا الأرضية ، وتسلم أسرارها وتهب عطاياها لفاتحها . والحياة شىء يبدأ باستمرار لا يتوقف . « والحياة » عندما تتجمع فى النهاية بزعامة الإنسان ، المعلم الدارس للكون ، وقد توحّد وتنظم وتسلّح بقوى الذرة الخفية ، وبالمعرفة اللى لا تزال اليوم وراء الأحلام ، تلك « الحياة » اللى تفتأ تموت أبداً لتولد من جديد أبداً ، واللى تفتأ دائماً أبداً صغيرة ومتشوقة ، — ستنهض عند ذاك على قدميها فوق ظهر هذا الكوكب ، وقفها فوق كرسى ممهد وتمد سلطانها بين الأنجم الزهر .

جدول تاريخي

نختتم الآن هذه المعالم بتقديم قائمة بالأحداث العظمى من ٨٠٠ ق. م إلى ١٩٦٥ م .
ويحسن بالقارئ أن يستحضر أمام ذاكرته فكرة واضحة من تناسب الحقيقى بين
الزمن التاريخى والزمن الجيولوجى . ولنقتبس لك الآن فقرة عن كتاب أصدره
حديثاً المستر ج . ه . روبنسون : « لكى يتسنى لنا أن نفهم الضوء الذى يعكسه عمر
البشرية الضخم على مركزنا الحالى ، وعلاقتنا بالماضى ، وأملنا فى المستقبل ،
سنقتبس فى شىء من التعديل (من هنريخ شميت ، أحد تلاميذ هيجل) وسيلة
ذكية ماهرة لتمثيل الصورة التاريخية العصرية المريعة . فعلينا أن نتصور أن تاريخ
البشرية بأكمله مقسم إلى اثنتى عشرة ساعة ، وأنها نعيش فى ظهيرة اليوم الإنسانى
الطويل . وعلمنا لكى نسلك سبيل القصد والتقدير المريح ، أن نفترض أن الإنسان
كان مستقيم العود ومنشغلاً بطلب المستحدثات لمدة مئتين وأربعين ألف سنة لا غير .
وستمثل كل ساعة من يومنا هذا عشرين ألف سنة ، وتمثل كل دقيقة ثلاثمائة
وثلاثين سنة وثلاثاً . لقد انقضى ما يربو على إحدى عشرة ساعة ونصفاً لم يسجل فيها
شىء . فنحن لانعرف فيها شخصاً ولا حدثاً ؛ بل الحق أننا لا نتجاوز حالة
الاستنتاج ، إذ نقول إن الانسان كان يعيش على الأرض ، ذلك أننا نجد آلاته
الحجرية وأجزاء من فخاره ، وبعض صوره التى تمثل الماموث والجاموس البرى
(البizon) . وليس هناك حتى الدقيقة العشرين قبل الساعة الثانية عشرة أى شىء ،
ثم تبدأ أوائل آثار المدينيتين المصرية والبابلية . وليس عمر الأدب والفلسفة والعلم
الإغريقى التى جرت عادتنا أن نسميها بالقديمه إلا سبع دقائق فقط . وفى الساعة
الثانية عشرة إلا دقيقة كتب اللورد باكون كتابه الموسوم « تقدم العلوم » ، ولم تك
تنقضى نصف دقيقة منذ أن بدأ الإنسان لأول مرة يجعل الآلة البخارية تقوم
له بعمله » .

والحق أن ذلك مثال فائق لتمثيل زمنى للتاريخ صغير المقياس .

ولا يبدأ التاريخ أن يتسم بدرجة كافية من الدقة لتحديد سنة أية حادثة بالضبط إلا بعد استقرار فترات الأولمبياد الأول وبعد بناء روما .

وحوالى عام ألف ق . م . كانت الشعوب الآرية تستقر فى أشباه جزائر أسبانيا وإيطاليا والبلقان ، وكذلك استقروا فى شمالى الهند ، وكانت كنوسوس قد دمرت من قبل ذلك ، وكانت عصور التوسع المصرية أيام تحتمس الثالث وأمينحوتب (أمينوفيس) الثالث ورمسيس الثانى قد ولت منذ ثلاثة أو أربعة قرون . وكان يحكم فى وادى النيل ملوك ضعفاء .

وكان سرجون الأول (٢٧٥٠ ق . م) صاحب الإمبراطورية الأكادية السومرية ، ذكرى بعيدة فى التاريخ البابلى ، كان أبعد فى التاريخ البابلى من بعد قسطنطين الأكبر عن عالمنا اليوم . وانقضى على موت حامورابى ألف سنة . وكان الآشوريون يحكمون من قبل البابليين الأقل منهم مراسا حربياً . إذ أن تجلات بلسر الأول استولى على بابل منذ ١١٠٠ ق . م . ولكن لم يقم ثمة فتح دائم ، فكانت آشوريا وبابلونيا لا تزالان إمبراطوريتين منفصلتين . وكانت أسرة تشاو الجديدة تزدهر فى الصين . وكان عمر « ستون هنج » فى إنجلترا ألف سنة فى ذلك العصر .

وشهد القرنان التاليان نهضة فى مصر تحت الأسرة الثانية والعشرين ، وانقسام مملكة سليمان العبرانية الصغيرة القصيرة الأجل ، وانتشار الإغريق فى البلقان وجنوبى إيطاليا وآسيا الصغرى وأيام سيادة الإترسك فى وسط إيطاليا . وقد نستطيع أن نبدأ قائمة التواريخ الممكنة التحقيق بالآتى .

ق م

٨٠٠ بناء قرطاجنة

٧٩٠ غزو الإثيوبيين لمصر (تأسيسهم الأسرة الخامسة والعشرين) .

٧٧٦ الأولمبياد الأول

٧٥٣ بناء روما

ق . م

- ٧٤٥ تجلات بلسر الثالث يفتح بابلونيا ويؤسس الإمبراطورية الآشورية الجديدة
- ٧٣٨ مناحم ملك اسرائيل يشتري رحيل تجلات بلسر الثالث عن بلاده .
- ٧٣٥ الإغريق يسكنون صقلية
- ٧٢٢ سرجون الثاني يسلح الآشوريين بأسلحة من الحديد
- ٧٢١ نقل الإسرائيليين إلى الأسر
- ٧٠٤ سناحريب
- ٧٠١ الوباء يدمر جيشه وهو في طريقه إلى مصر
- ٥٨٠ إيسارهادون يستولى في مصر على طيبة من يد الأسرة الخامسة والعشرين الأثيوبية
- ٦٦٧ ساردانا بالوس
- ٦٦٤ أبسماتيك الأول يسترد خربة مصر ويؤسس الأسرة السادسة والعشرين (في ٦١٠) . وقد ساعدته ضد مملكة آشور جنود ليدية أرسلها الملك جيچيس
- ٦٠٨ نخاو ملك مصر يهزم يوشع ملك يهوذا في معركة مجدو
- ٦٠٦ الكلدان والميديون يستولون على نينوى . تأسيس الإمبراطورية الكلدانية
- ٦٠٤ نخاو يتقدم إلى الفرات وهناك يغلبه نبوخذنصر الثاني
- ٥٨٦ نبوخذنصر الثاني يحمل اليهود إلى بابل . ويفر منهم كثيرون إلى مصر وقيمون بها
- ٥٥٠ قورش الفارسي يخلف سياكسارس
- قورش يهزم كرويسوس
- بوذا كان يعيش قرابة ذلك الزمان . وكذلك كونفوشيوس ولاهوتسى
- ٥٣٩ قورش يستولى على بابل ويؤسس الإمبراطورية الفارسية
- ٥٢٧ مات بيزستراتوس
- ٥٢٥ غزا قبيل مصر . مولد إيسكيلوس

١٦٠٨

ق . م

- ٥٢١ دارا الأول ابن هيستاسبس يحكم من الدردنيل إلى السند
 حملته على بلاد الإسكيذيين
 ٤٩٥ مولد سوفوكليس
 ٤٩٠ معركة ماراتون
 ٤٨٤ مولد هيرودوت . فاز إيسكيلون بأول جائزة له على التراجيديا
 ٤٨٠ معركة ترموبيلاي وسلاميس . مولد يوريبيدس
 ٤٧٩ معركة بلانيا ومنكالي تمان طرد وهزيمة فارس
 ٤٧٤ الإغريق الصقليون يدمرون الأسطول الإترسكي
 ٤٧٠ رحلة هانو
 ٤٦٦ بركليس
 ٤٦٥ مقتل إجزرسييس .
 ٤٣٨ هيرودوت يلقي تاريخه في أثينا
 ٤٣١ ابتداء حرب البيلوبونيز (حتى ٤٠٤)
 ٤٢٩ وفاة بركليز . وفاة هيرودوت
 ٤٢٧ بدأ أرسطوفانيس حياته العملية . مولد أفلاطون . وعاش حتى ٣٤٧
 ٤٠١ تراجع عشرة الآلاف (مع زينوفون) .
 ٣٩٠ نهب برينوس روما
 ٣٦٦ بنى كالمثوس معبد الكونكورديا
 ٣٥٩ أصبح فيليب ملكا على مقدونيا
 ٣٣٨ معركة خايرونيا
 ٣٣٦ عبرت جيوش مقدونيا إلى آسيا . مقتل فيليب
 ٣٣٤ معركة جرانيكوس
 ٣٣٣ معركة إسوس
 ٣٣٢ الإسكند بمصر

- ٣٣١ معركة أرييلا
- ٣٣٠ مقتل دارا الثالث
- ٣٢٣ موت الإسكندر الأكبر
- ٣٢١ قيام شندارجوبتا في البنجاب . السمنيون يهزمون الرومان هزيمة تامة في
- معركة كودين فوركس
- ٣٠٣ شندراجوبتا يطرد سيلوقوس
- ٢٨٥ وفاة بطليموس سوتير (المخلص)
- ٢٨١ غزا بيروس إيطاليا
- ٢٨٠ معركة هرقلية
- ٢٧٩ معركة أوسكولوم
- ٢٧٨ غارة الغالة على آسيا الصغرى ومقامهم بغلاطيا
- ٢٧٥ بيروس يغادر إيطاليا
- ٢٦٤ الحرب البونية الأولى . (بدأ أسوكا حكمه في بهار - حتى ٢٢٧) أول ألعاب
- للمجالدين بروما
- ٢٦٠ معركة ميلاي
- ٢٥٦ معركة إكنوموس
- ٢٤٦ أصبح شي هوانج تى ملكا على تس نى
- ٢٤١ معركة الجزائر الإيجاتية . نهاية الحرب البونية الأولى
- ٢٢٥ معركة تيلامون . الجيوش الرومانية في إليريا
- ٢٢٠ أصبح شي هوانج تى إمبراطوراً للصين
- ٢١٩ الحرب البونية الثانية
- ٢١٦ معركة كاناي
- ٢١٤ بدأت الحرب الصينية العظمى
- ٢١٠ وفاة شي هوانج تى

- ٢٠٢ معركة زاما
- ٢٠١ نهاية الحرب البونية الثانية
- ٢٠٠ — ١٩٧ امتداد الحرب بين روما ومقدونيا
- ١٩٢ الحرب مع السلوقين
- ١٩٠ معركة ماغنيسيا
- ١٤٩ الحرب البونية الثالثة . (وصول يويه تشى إلى التركستان الغربية)
- ١٤٦ تدمير قرطاجنة . وتدمير كورنثة
- ١٣٣ أثالوس يهب برجامة لروما . مقتل تيربوس جراكوس
- ١٢١ كايوس جراكوس يُقتل
- ١١٨ الحرب مع يوجورثا
- ١٠٦ نهاية الحرب مع يوجورثا
- ١٠٢ صد ماريوس الألمان
- ١٠٠ نصر ماريوس . (فوئى يغزو وادى التاريم)
- ٩١ الحرب الاجتماعية
- ٨٩ أصبح جميع الإيطاليين ممانين رومانين
- ٨٦ وفاة ماريوس
- ٧٨ وفاة سولا
- ٧٣ ثورة الأرقاء بقيادة سبارتاكوس
- ٧١ هزيمة سبارتاكوس ونهايته
- ٦٦ قاد بومبي الجيوش الرومانية إلى بحر قزوين ونهر الفرات . والتقى بالآلانيين
- ٦٤ مات ميثريداتس البونطشى
- ٥٣ مقتل كراسوس فى كرهاى . عناصر مغولية مع الهارثيين
- ٤٨ هُزم يوليوس قيصر بومبي عند فارسالوس
- ٤٤ اغتيال يوليوس قيصر

ق . م

- ٣١ معركة أكتيوم
٢٧ أوغسطس قبصر زعيم (حتى ١٤ م)
٤ التاريخ الحقيقي لمولد يسوع الناصري

الحقبة المسيحية

- ٦ تأسست مقاطعة ميسيا
٩ تأسيس مقاطعة بانونيا . مد الحدود الإمبراطورية إلى الدانوب
١٤ وفاة أوغسطس . تيربوس يصبح إمبراطورا
٣٠ صلب يسوع الناصري
٣٧ كاليغولا يخلف تيربوس
٤١ كلوديوس (أول أباطرة الكنائس) ينصبه الحرس البريتوري (الإمبراطوري)
على العرش بعد مقتل كاليغولا
٥٤ نيرون يخلف كلوديوس
٦١ بواديكيما تذبح الحامية الرومانية بريطانيا
٦٨ انتحار نيرون . (جالبا وأوتو وفيتيلوس أباطره على التعاقب)
٦٩ فسبسيان يبدأ الأسرة الموسومة بالفلائية
٧٩ تيتوس يخلف فسبسيان
٨١ دوميتيان
٨٤ استلحاق شمال بريطانيا
٩٦ نرفا يبدأ أسرة الأنطوني
٩٨ خلف تراجان نرفا
١٠٢ بان تشاو على بحر قزوين . (الهندو إسكيزيون يغزون شمال الهند)
١١٧ هادريان يخلف تراجان . الإمبراطورية الرومانية في أعظم مداها .
١٣٧ أنطونيوس بيوس يعقب هادريان

(كان الهندوإسكيزيون فى ذلك الأوان يدمرون آخر آثار الحكم الهليني فى الهند) .

١٥٠ (فى حوالى ذلك الوقت كان كانيشكا يحكم الهند وقشغر ويرقند ونخوتان)

١٦١ - ماركوس أوريليوس خلف أنطونيوس بيوس .

١٦٤ بدأ الطاعون العظيم واستمر حتى وفاة ماركوس أوريليوس ١٨٠ ، وعات فساداً أيضاً فى آسيا بأجمعها .

١٨٠ وفاة ماركوس أوريليوس .

(ابتداء فى الإمبراطورية الرومانية ما يقارب القرن من الحرب والفوضى)

٣٢٠ نهاية أسرة هان . بداية ٤٠٠ سنة من الانقسام فى الصين .

٢٢٦ أردشير الأول (أول شاه ساسانى) يقضى على الأسرة الأرشكية بفارس .

٢٤٢ بدأ مانى تعليمه الناس .

٢٤٧ القوط يعبرون الدانوب فى غارة عظيمة .

٢٥١ نصر عظيم للقوط ، مقتل الإمبراطور ديكىوس .

٢٦٠ استولى سابور الأول ثانى شاه ساسانى على أنطاكية ، وأسر الإمبراطور

فاليريان ، وقطع عليه أوديناثيوس ملك تدمر خط عودته إلى فارس .

٢٦٩ هزم الإمبراطور كلوديوس القوط عند نيش .

٢٧٠ أورليان يصبح إمبراطوراً .

٢٧٢ حملت زنوبيا أسيرة إلى روما . نهاية أمجاد تدمر الوجيزة .

٢٧٥ بروبوس يخلف أوريليان .

٢٧٦ القوط فى إقليم بونطش . الإمبراطور بروبوس يضطر الفرنجة والألماني

إلى التراجع .

٢٧٧ مانى يصلب فى فارس .

٢٨٤ دقلديانوس أصبح إمبراطوراً .

٣٠٣ دقلديانوس يضطهد المسيحيين

٣٠٦ قسطنطين الأكبر أصبح إمبراطوراً

- ٣١١ تخلى جاليريوس عن اضطهاد المسيحيين
- ٣١٤ قسطنطين يرأس مجلسا مسيحياً في آلس
- ٣٢١ الغارات القوطية الجديدة تصد
- ٣٢٣ قسطنطين يرأس مجمع نيقيا
- ٣٣٧ الوندال يحصلون وقد دفعهم القوط ، على الأذن بالمقام في بانونيا
- قسطنطين يعمد وهو على فراش الموت
- ٣٥٤ مولد القديس أوغسطين
- ٣٦١ - ٣٦٣ جوليان المرتد يحاول أن يدخل الميراثية بدل المسيحية
- ٣٧٩ ثيودوسيوس الأكبر (وهو أسباني) يصبح إمبراطوراً
- ٣٩٠ تحطيم تمثال سيرابيس بالإسكندرية
- ٣٩٢ ثيودوسيوس الأكبر إمبراطوراً للشرق والغرب
- ٣٩٥ وفاة ثيودوسيوس الأكبر .
- ٤١٠ استولى القوط الغربيون بقيادة آلاريك على روما
- ٤٢٥ الوندال يستقرون في جنوب أسبانيا . ويستقروا في بانونيا والقوط في دالماسيا . القوط الغربيون والسويثي في البرتغال وشمالي أسبانيا .
- الإنجليز يغزون بريطانيا
- ٤٢٩ الوندال بقيادة جنسريك يغزون إفريقيا .
- ٤٣٩ أخذ الوندال قرطاجنة
- ٤٤٨ بريسكوس يزور آتيلا
- ٤٥١ آتيلا يغزو بلاد الغالة ويهزمه الفرنجة والألياني والرومان في ترويس
- ٤٥٣ وفاة آتيلا
- ٤٥٥ الوندال يهبطون روما

- ٤٧٠ إغارة الإفتاليين على الهند
- ٤٧٦ أودواكر ملك خليط من القبائل التيوتونية ، أبلغ القسطنطينية أنه ليس هناك إمبراطور في الغرب . نهاية الإمبراطورية الغربية
- ٤٨٠ مولد القديس بندكت
- ٤٨١ كلوفيس في فرنسا . الميروفنجيون
- ٤٨٣ الكنيسة النسطورية تنفصل عن الكنيسة الأرثوذكسية المسيحية
- ٤٩٣ ثيودوريك القوطي الشرقي يغزو إيطاليا ويصبح ملك إيطاليا ، ولكنه كان خاضعاً اسماً للقسطنطينية
- (ملوك القوط في إيطاليا . القوط يقيمون في أراضي خاصة مصادرة بوصفهم حامية)
- ٥٢٧ جستنيان إمبراطوراً
- ٥٢٨ طرد ميهراجولا (آتيل الهندي الاثالي)
- ٥٢٩ أغلق جستنيان مدارس آثينا ، بعد أن ازدهرت ألف سنة تقريباً .
- بلسانيوس (قائد جستنيان) استولى على نابلي
- ٥٣١ كسرى الأول (أنوشروان) بدأ حكمه
- ٥٤٣ الطاعون العظيم بالقسطنطينية
- ٥٤٤ وفاة القديس بندكت
- ٥٥٣ جستنيان يطرد القوط من إيطاليا . كاسيوهوراس يؤسس ديره
- ٥٦٥ وفاة جستنيان . فتح اللومبارد معظم إيطاليا الشمالية (تاركين رافنا وروما ليزنطه) . شت الأتراك الإفتاليين بالتركستان الغربية .
- ٥٧٠ مولد محمد عليه الصلاة والسلام
- ٥٧٩ وفاة كسرى الأول (أنوشروان)
- (اللومبارد يسودون إيطاليا)

١٦١٥

- ٥٩٠ الطاعون يحصد الناس في روما . (جريجورى الأعظم وهو جريجورى الأول - ورويا القديس أنجيلو) . بدأ كسرى الثانى (أردشير) حكمه
- ٦١٠ بدأ هرقل حكمه
- ٦١٨ بداية أسرة تانج بالصين
- ٦١٩ كسرى الثانى (أردشير) ويده مصر وبيت المقدس ودمشق وجبوشه
- على الدردنيل
- ٦٢٢ الهجرة النبوية
- ٦٢٣ معركة بدر
- ٦٢٧ هرقل يهزم الفرس هزيمة كبرى عند نينوى . مكة وأحزابها محاصرة المدينة
- تاي تسونج يصبح إمبراطوراً للصين .
- ٦٢٨ قتل قباذ الثانى أباه كسرى الثانى وخلفة على العرش
- ٧٢٩ بدأ يوان شوانج رحلته إلى الهند . فتح مكة . (غزوة الفتح) - كتب محمد (ص) إلى جميع حكام الأرض .
- ٦٣٢ وفاة محمد وخلافة أبى بكر
- ٦٣٤ خلافة عمر
- ٦٣٥ تاي تسونج يستقبل المبعوثين النسطوريين
- ٦٣٦ معركة اليرموك . . العرب يستولون على سوريا
- ٦٣٧ معركة القادسية
- ٦٣٨ تسليم بيت المقدس لعمر
- ٦٤٢ وفاة هرقل
- ٦٤٤ خلافة عثمان
- ٦٤٥ يوان شوانج يعود إلى سنجان
- ٦٥٥ المسلمون يهزمون الأسطول البيزنطى
- ٦٥٦ مقتل عثمان بالمدينة
- ٦٦١ مقتل على . خلافة معاوية . (أول خلفاء بنى أمية)

- ٦٦٨ هاجم الخليفة معاوية القسطنطينية بحراً - أصبح ثيودور الطرسوسى رئيساً
لأساقفة كانتربرى
- ٦٧٥ آخر هجوم بحرى لمعاوية على القسطنطينية
- ٦٨٧ ناظر القصر بين الهرستالى يوحد أوستراسيا ونوستريا
- ٧١١ غزا جيش المسلمين أسبانيا من إفريقية
- ٧١٦ - ٧١٧ سليمان أخو الوليد وخليفته يفشل فى فتح القسطنطينية . الأسرة
الأموية تنحدر عن أوج مجدها
- ٧٢١ شارل مارتل ناظراً للقصر . ممتلكات الخليفة الوليد الأول تمتد من جبال
البرانس إلى الصين .
- ٧٣٢ هزم شارل مارتل المسلمين عند بواتيه
- ٧٣٥ وفاة بيده (Bede) الوقور
- ٧٤٣ الوليد الثانى خليفة - وهو الخليفة الكافر
- ٧٤٩ خلج بنى أمية . أبو العباس أول خلفاء الدولة العباسية . ظلت أسبانيا أموية
ابتداءً من الإمبراطورية العربية
- ٧٥١ بين يتوج ملكاً للفرنسيين
- ٧٥٥ استشهاد القديس بونيفاس
- ٧٧١ شارلمان ملكاً بمفرده
- ٧٧٤ شارلمان يفتح لومباردى
- ٧٧٦ شارلمان فى دالماسيا
- ٧٨٦ هرون الرشيد خليفة العباسيين ببغداد (إلى ٨٠٩)
- ٧٩٥ أصبح ليو الثالث بابا (إلى ٨١٦)
- ٨٠٠ ليو توج شارلمان إمبراطوراً على الغرب
- ٨٠٢ إاجبوت وهو لاجئ إنجليزى ببلاط شارلمان ، يقيم نفسه ملكاً على وسكس
- ٨١١ كروم البلغارى يهزم الإمبراطور نقفور ويقتله
- ٨١٤ مات شارلمان ، وخلفه لويس التى .

- ٨٢٨ أصبح إجبرت أول ملك لانجلترا
- ٨٤٣ مات لويس التى وتمزقت الإمبراطورية الكارلوفنجية . لم يكن هناك
- حتى ٩٦٢ أى تعاقب منتظم لأباطرة الدولة الرومانية المقدسة ، وإن ظهر
- اللقب على فترات
- ٨٥٠ فى قرابة ذلك الوقت أصبح روريك وهو شمالى (نورثمان) حاكما
- لنوفجورود وكييف
- ٨٥٢ بوريس أول ملك مسيحي للغاريا (إلى ٨٨٤)
- ٨٦٥ أسطول الروس وهم الشماليون (Northmen) يهدد القسطنطينية
- ٨٨٦ المعاهدة بين ألفرد الإنجليزي وجوثرورم الدانمركى توطد قدم الدانمركيين
- بانجلترا
- ٩٠٤ أسطول الروسيين (النورثين) خارج القسطنطينية
- ٩١١ رولف العداء يوطد نفسه فى نورماندى
- ٩١٩ هنرى الصياد ينتخب ملكا لألمانيا
- ٩٢٨ ماروزيا تحبس البابا يوحنا العاشر
- ٩٣١ يوحنا الحادى عشر بابا (إلى ٩٣٦)
- ٩٣٦ أوتو الأول أصبح ملكا لألمانيا خلفاً لأبيه هنرى الصياد
- ٩٤١ الأسطول الروسى يعود إلى تهديد القسطنطينية
- ٩٥٥ يوحنا الثانى عشر هو البابا
- ٩٦٠ أسرة صنج الشمالية تبدأ ببلاد الصين
- ٩٦٢ أوتو الأول ملك ألمانيا يتوج إمبراطوراً (أول الأباطرة السكسون)
- بيد يوحنا الثانى عشر
- ٩٦٣ أوتو عزل يوحنا الثانى عشر
- ٩٦٩ الخلافة الفاطمية المنفصلة تقام بمصر
- ٩٧٣ أوتو الثانى
- ٩٨٣ أوتو الثالث

- ٩٨٧ أصبح هيوكابت ملكا لفرنسا . نهاية الأسرة الكارلوڤنجية من الملوك الفرنسيين
- ١٠١٦ أصبح كانيتوت ملكا على إنجلترا والدانمرك والنرويج
- ١٠٣٧ مات ابن سينا البخارى أمير الأطباء
- ١٠٤٣ الأسطول الروسى يهدد القسطنطينية
- ١٠٦٦ ولیم دوق نورماندى يفتح إنجلترا^٤
- ١٠٧١ انتعاش الإسلام تحت الأتراك السلجوقيين . معركة ملازجرد
- ١٠٧٣ أصبح هلدبراند بابا (جريجورى السابع) إلى ١٠٨٥
- ١٠٧٧ هنرى الرابع يقدم التوبة فى كانوسا .
- ١٠٧٩ مولد بطرس أبيلارد
- ١٠٨٢ روبرت جويسكارد يفتح دورازو
- ١٠٨٤ روبرت جويسكارد يهبط روما
- ١٠٨٧ - ١٠٩٩ إربان الثانى بابا
- ١٠٩٤ وباء
- ١٠٩٥ إربان الثانى يدعو فى كليرمونت إلى الحرب الصليبية الأولى
- ١٠٩٦ مذبحة الحملة الصليبية الشعبية
- ١٠٩٩ جودفرى البويونى استولى على بيت المقدس . بسكال الثانى بابا (إلى ١١١٨)
- ١١٣٨ ازدهار إمبراطورية كن . نقل عاصمة أسرة صنج من نانكين إلى هان تشاو
- ١١٤٢ وفاة بطرس أبيلارد
- ١١٤٧ الحرب الصليبية الثانية . تأسيس المملكة المسيحية البرتغالية
- ١١٦٩ صلاح الدين سلطاناً على مصر
- ١١٧٧ فردريك باربروسا يعترف بسيادة البابا (إسكندر الثالث) بالبندقية
- ١١٨٧ استولى صلاح الدين على بيت المقدس
- ١١٨٩ الحرب الصليبية الثالثة
- ١١٩٣ مولد ألبرتوس ما جنوس

- ١١٩٨ وفاة ابن رشد القرطبي الفيلسوف العربي . إنوسنت الثالث بابا (إلى
١٢١٦) ؛ أصبح فردريك الثاني (وعمره أربع سنوات) ملك صقلية
تحت وصايته .
- ١٢٠٢ الحملة الصليبية الرابعة تهاجم الإمبراطورية الشرقية
١٢٠٤ اللاتين يستولون على القسطنطينية
١٢٠٦ أسس قطب الدولة الإسلامية بدلي
١٢١٢ حملة الأطفال الصليبية
١٢١٤ چنكيزخان استولى على بكين
١٢١٥ التوقيع على الماچنا كلارتا
١٢١٦ هونوريوس الثالث بابا
١٢١٨ چنكيزخان يغزو خوارزم
١٢٢١ فشل الحملة الصليبية الخامسة وعودتها . وفاة القديس دومينيك (جمعية
الدومينيكيين)
١٢٢٥ ميلاد توماس الأكويني
١٢٢٦ وفاة القديس فرنسيس الأسيسى (جمعية الفرنسيسكانين)
١٢٢٧ مات چنكيزخان ، وهو يحكم من بحر قزوين إلى المحيط الهادى ،
وخلفه إقطاي خان . جريجورى التاسع بابا
١٢٢٨ شرع فردريك الثاني فى الحملة الصليبية السادسة ، واحتاز بيت المقدس
١٢٣٤ أتم المغول فتح إمبراطورية كن بمساعدة إمبراطورية صنح
١٢٣٩ فردريك الثاني يصدر نضده الحرم للمرة الثانية
١٢٤٠ المغول دمروا كييف . الروسيا تصبح تابعة للمغول
١٢٤١ المغول ينتصرون عند ليجننز فى سيليزيا
١٢٤٤ سلطان مصر يسترد بيت المقدس . فأدى ذلك إلى الحملة الصليبية السابعة .
١٢٤٥ فردريك الثاني يحرم مرة ثانية . رجال شوبز يحرقون قلعة نيوها بسبرج

١٦٢٠

- ١٢٥٠ القديس لويس الفرنسي يدفع القدية . وفاة فردريك الثاني آخر أباطرة أسرة هوهنشتاوفن . فترة خلو العرش الألماني حتى ١٢٧٣
- ١٢٥١ أصبح مانجو خان هو الخان الأعظم . قوبلاي خان حاكما على الصين
- ١٢٥٨ هولاكو خان يستولى على بغداد ويدمرها
- ١٢٦٠ أصبح قوبلاي خان خانا أعظم . هزيمة قطبغا بفلسطين
- ١٢٦١ عاد الروم فاستردوا القسطنطينية من اللاتين .
- ١٢٦٥ مولد دانتى الليجيرى
- ١٢٦٦ . مولد جيوتو
- ١٢٦٩ أرسل قوبلاي خان رسالة استعلاء إلى البابا على يد الأخوين الكبيرين بولو
- ١٢٧١ ماركو بولو يبدأ رحلاته
- ١٢٧٣ رودلف الهابسبرجى ينتخب إمبراطوراً . أسس السويسريون حلفهم الدائم
- ١٢٧٤ وفاة توماس الأكوينى
- ١٢٨٠ أسس قوبلاي خان أسرة يوان بالصين . مات ألبرتوس ماجنوس
- ١٢٥٢ وفاة قوبلاي خان
- ١٢٩٣ وفاة روجر باكون نبي العلوم التجريبية
- ١٢٩٤ بونيفاس الثامن يصبح بابا (حتى ١٣٠٣)
- ١٢٩٥ ماركو بولو يعود إلى البندقية
- ١٣٠٣ وفاة بونيفاس الثامن بعد اعتداء غليوم دى نوجاريت عليه فى أناجنى
- ١٣٠٤ ميلاد بترارك
- ١٣٠٥ كلمنت الخامس بابا
- ١٣٠٨ وفاة دنس الاسكتلندى (سكوتاس)
- ١٣٠٩ إقامة البلاط البابوى فى آفينيون
- ١٣١٨ أربعة من الفرنسيسكيين يحرقون بمرسيليا بتهمة الهرطقة
- ١٣٣٧ وفاة جيوتو

- ١٣٤٧ وفاة أكتام
- ١٣٤٨ الطاعون العظيم - الموت الاسود
- ١٣٥٨ حروب الفلاحين (الجاكرى) بفرنسا
- ١٣٦٨ فى الصين سمطت أسرة يوان المغولية وخلفتها أسرة منج (إلى ١٦٤٤)
- ١٣٦٩ تيمورلنك يتخذ لقب الخان الأعظم
- ١٣٧٤ مات بترارك
- ١٣٧٧ عاد البابا جريجورى الحادى عشر إلى روما
- ١٣٧٨ الصديق الأعظم . إربان السادس فى روما - كلمت السابع فى آفينيون
- ١٣٨١ فتنة الفلاحين بالجلطة . وات تايلور يقتل بحضرة الملك ريتشارد الثانى
- ١٣٨٤ وفاة ويكيليف
- ١٣٨٧ مولد فرا أنجليكودى فيزولى
- ١٣٩٨ بشرهس بتعاليم ويكيليف فى براغ
- ١٤٠٠ مات شوسر
- ١٤٠٥ وفاة نيمورلنك
- ١٤١٤ - ١٤١٨ مجمع كونستانس . إحراق هس (١٤١٥)
- ١٤١٧ نهاية الصديق الأعظم . مارتن الخامس بابا
- ١٤٢٠ ثار الهسيون . دعا مارتن الخامس إلى حملة صليبية ضدهم
- ١٤٣١ تبددت حملة الكاثوليك الصليبية أمام الهسيين عند دومازليس
- اجتمع مجلس بال . مولد قيون . مولد مانتيا
- ١٤٣٦ اصطلاح الهسيون مع الكنيسة
- ١٤٣٩ أوجد مجمع بال صديعا جديدا فى الكنيسة
- ١٤٤٥ اسكشاف البرتغاليين لرأس فردي
- ١٤٤٦ أول الكتب المطبوعة (كوستر فى هارلم)
- ١٤٤٩ نهاية مجلس بال

١٦٢٢

- ١٤٥٢ مولد ليوناردو دافنشى .
- ١٤٥٣ استولى الأتراك العثمانيون بقيادة محمد الثانى على القسطنطينية
- ١٤٧١ مولد ديورر
- ١٤٧٣ مولد كوبرنيك
- ١٤٨٠ خلع إيثن الثالث غراندوق موسكو طاعته للمغول
- ١٤٨١ وفاة السلطان محمد الثانى وهو يستعد لغزو إيطاليا . بايزيد الثانى سلطان الأتراك (حتى ١٥١٢)
- ١٤٨٦ دار دياز حول رأس الرجاء الصالح
- ١٤٩٢ عبر كولبس الأطلسى إلى أمريكا . رودريجو بورجيا ، الإسكندر السابع بابا (إلى ١٥٠٣)
- ١٤٩٣ أصبح ماكسيمليان الأول إمبراطوراً
- ١٤٩٨ دار فاسكودا جاما حول الرأس إلى الهند
- ١٤٩٩ أصبحت سويسرا جمهورية مستقلة
- ١٥٠٠ ولد شارل الخامس
- ١٥٠٩ هنرى الثامن ملكا على إنجلترا
- ١٥١٢ سليم الأول سلطان حتى (١٥٢٠) . اشترى لقب الخلافة . سقوط سودرىنى ومكياڤلى بفلورنسا
- ١٥١٣ ليو العاشر بابا
- ١٥١٥ فرنسيس الأول ملكا لفرنسا
- ١٥١٧ ضم سليم مصر إلى أملاكه . لوثر يبسط نظريته فى وتنبرج
- ١٥١٩ مات ليوناردو دافنشى . الشروع فى رحلة ماجلان حول العالم . كورتيز يدخل مدينة المكسيك
- ١٥٢٠ سليمان القانونى سلطانا إلى ١٥٦٦ ، وكان يحكم من بغداد إلى بلاد الحجز . شارل الخامس إمبراطوراً

١٦٢٣

- ١٥٢١ لوثر بمجلس الدايت في ورمس . جرح ليولا في بامبلونا
- ١٥٢٥ بابر فاز بمعركة بانبيات وفتح دلهي ، وأسس الإمبراطورية المغولية
- ١٥٢٧ الجنود الألمانية بإيطاليا بقيادة كونستابل بوربون ، تستولى على روما وتنهى
- ١٥٢٨ مولد بول الفيروني
- ١٥٢٩ سليمان يحاصر قينا
- ١٥٣٠ غزا بيزارو بيرو . توج البابا شارل الخامس . بدأ هنرى الثامن خلافه مع البابوية
- ١٥٣٢ استولى التعميديون على مونستر
- ١٥٣٥ سقوط حكم التعميديين في مونستر
- ١٥٣٩ تأسست جمعية يسوع (اليسوعيين)
- ١٥٤٥ اجتمع مجلس ترنت (إلى ١٥٦٣) لينظم الكنيسة
- ١٥٤٦ وفاة مارتن لوثر
- ١٥٤٧ إيفان الرابع (الرهيب) اتخذ لقب قيصر روسيا . توفى فرنسيس الأول
- ١٥٤٩ وصلت أول البعثات اليسوعية إلى أمريكا الجنوبية
- ١٥٥٢ معاهدة باساو . تهدئة مؤقتة لألمانيا
- ١٥٥٦ تنازل شارل الخامس عن العرش . أكبر يصبح المغولي الأعظم (إلى ١٦٠٥) . مات إغناطيوس ليولا
- ١٥٥٨ وفاة شارل الخامس
- ١٥٦١ مولد فرنسيس باكون (لورد فيريولام)
- ١٥٦٣ نهاية مجلس ترنت وإصلاح الكنيسة الكاثوليكية
- ١٥٦٤ مولد شكسبير
- ١٥٦٦ مات سليمان القانوني
- ١٥٦٧ ثورة الأراضي المنخفضة

١٦٢٤

- ١٥٦٨ إعدام الكونتين إيجونت وهورن
١٥٧٣ حصار ألكمار
١٥٨٣ حملة السير والتر رالى على فرجينيا
١٦٠٣ جيمس الأول ملكا لانيجلترا واسكتلندا
١٦٠٥ المغولى الأعظم جيهان جير
١٦٠٦ تأسيس شركة فرجينيا
١٦٠٩ استقلال هولندا
١٦١٨ ابتداء حرب الثلاثين سنة
١٦٢٠ حملة الماي فلاور تومس نيوبليموث . أول أرقاء زنوج ينزلون جيمس تون
(فرجينيا)
١٦٢٥ شارل الأول ملك انجلترا
١٦٢٦ توفى السير فرنسيس باكون (لورد فريولام)
١٦٢٨ شاه جيهان يصبح المغولى الأعظم . « التماس الحقوق » الانجليزى
١٦٢٩ شارل الأول ملك انجلترا يبدأ حكمه أحد عشر عاما بلا برلمان
١٦٣٢ لى بوثن هوثك يولد . مصرع جوستاف أدولف فى معركة لوتزن
١٦٣٤ مقتل والنشتين
١٦٣٨ إقفال اليابان فى وجه الأوربيين (حتى ١٨٦٥)
١٦٤٠ عقد شارل الأول ملك انجلترا البرلمان الطويل
١٦٤١ مذبحه الإنجليز بإرلندا
١٦٤٣ بدأ لويس الرابع عشر حكما دام اثنتين وسبعين سنة
١٦٤٤ أنهى المانشو أسرة منج
١٦٤٥ هدم حظائر الخنازير بالمدينة الداخلية من ليزج
١٦٤٨ معاهدة وستفاليا . وبها اعترف بهولندا وسويسرة جمهوريتين حرتين وأصبحت
بروسيا دولة هامة . ولم تتح المعاهدة نصراً نهائياً للتاج الإمبراطورى ولا للأمراء

١٦٢٥

حروب الفروند ؛ وانتهت بنصر التاج الفرنسى نصراً كاملاً

١٦٤٩ إعدام شارل الأول ملك إنجلترا

١٦٥٨ أورانغزيب المغولى الأعظم . مات كروم ويل

١٦٦٠ شارل الثانى ملك إنجلترا

١٦٧٤ أصبحت نيو أمستردام بريطانية نهائياً بمعاهدة ، وسميت نيو يورك

١٦٨٣ آخر هجوم تركى على فيينا هزمه حنا الثالث ملك بولندة

١٦٨٨ الثورة البريطانية . فرار جيمس الثانى . بدأ وليم ومازى حكمهما

١٦٨٩ بطرس الأكبر قيصر روسيا (حتى ١٧٢٥)

١٦٩٠ معركة بوين (Boyne) بارلندة

١٧٠١ فردريك الأول أول ملك لبروسيا

١٧٠٧ وفاة أورانغزيب . إمبراطورية المغولى الأعظم تنفتت

١٧١٣ مولد فردريك الأكبر ملك بروسيا

١٧٣٣ أسس أوجلى ثورب ولاية جورجيا

١٧٣٦ أغار نادر شاه على الهند . (بداية عشرين عاماً من الفوضى والغارات بالهند)

١٧٤٠ ارتقاء فردريك الأعظم عرش بروسيا

١٧٤٠ بدأت ماريا تريزا حكمها . (ولأنها امرأة لم تصبح إمبراطورة . وأصبح

زوجها فرانسوا الأول إمبراطوراً بعد ١٧٤٥ حتى وفاته فى ١٧٦٥ عندما

خلفه ابنها جوزيف الثانى)

١٧٤١ بدأت قيصرية روسيا إليزابيث حكمها

١٧٥٥ - ١٧٦٣ بريطانيا وفرنسا تتقاتلان على أمريكا والهند . وفرنسا تحالف مع

النمسا والروسيا ضد بروسيا وبريطانيا (١٧٥٦ - ١٧٦٣) ، حرب السبع

سنوات .

١٧٥٧ معركة بلاسى

١٧٥٩ استولى الجنرال ولف البريطانى على كوبيك

١٦٢٦

- ١٧٦٠ جورج الثالث ملك بريطانيا
- ١٧٦٢ وفاة الإمبراطورة إليزابيث الروسية . مقتل القيصر بول ، وتولى كاترين العظمى عرش روسيا (إلى ١٧٩٦)
- ١٧٦٣ صلح باريس ، والتنازل عن كندا لبريطانيا . بريطانيا تسود الهند
- ١٧٦٤ معركة بوكسار
- ١٦٦٩ مولد ماثيوس
- ١٦٦٩ مولد نابليون بونابرت
- ١٧٧٤ : بدأ لويس الرابع عشر حكمه . انتحار كليف . بدء الحركة الثورية الأمريكية
- ١٧٧٥ معركة لكسجنتون . مولد ترنر
- ١٧٧٦ : لان الاستقلال بالولايات المتحدة الأمريكية
- ١٧٨٠ : نهاية حكم ماريا تريزا . خلفها الإمبراطور جوزيف (١٧٦٥ إلى ١٧٩٠) في ممتلكات آل هابسبرج الموروثة
- ١٧٨٣ معاهدة الصلح بين بريطانيا وبن الولايات المتحدة الأمريكية الجديدة . إطلاق سراح كواكو بماساشوستس
- ١٧٨٧ مؤتمر فيلادلفيا الدستوري يقيم حكومة الولايات المتحدة الاتحادية . تبين أن فرنسا مفلسة . جمعية الأعيان
- ١٧٨٨ الكونغرس الاتحادى الأول للولايات المتحدة بنيويورك
- ١٧٨٩ مجلس الطبقات العام الفرنسى يجتمع . هدم الباستيل
- ١٧٩١ ثورة اليعاقة . الفرار إلى قارن
- ١٧٩٢ أعلنت فرنسا الحرب على النمسا ، أعلنت بروسيا الحرب على فرنسا . أصبحت فرنسا جمهورية
- ١٧٩٣ إعدام لويس السادس عشر
- ١٧٩٤ إعدام روبسبير ونهاية جمهورية اليعاقة . حكم المؤتمر
- ١٧٩٥ حكومة الإدارة . أخذ بونابرت ثورة وذهب إلى إيطاليا قائداً عاما

١٦٢٧

- ١٧٩٧ دمر بونايرت جمهورية البندقية بمعاهدة كامبوفورميو
- ١٧٩٨ ذهب بونايرت إلى مصر . معركة النيل
- ١٧٩٩ عودة بونايرت . أصبح القنصل الأول مع سلطات هائلة
- ١٨٠٠ الاتحاد التشريعي بين إنجلترا وإيرلندا ينفذ في أول يناير ١٨٠١
- حملة نابليون على النمسا . معارك مارنجو (في إيطاليا) وهو هنلندن (وهي انتصار مورو)
- ١٨٠١ مسودات الصلح بين فرنسا وإنجلترا والنمسا توقع
- ١٨٠٣ بونايرت يحتل سويسرا ، وبذا يعجل بالحرب
- ١٨٠٤ أصبح بونايرت إمبراطوراً . اتخذ فرانسوا الثاني لقب إمبراطور النمسا في ١٨٠٥ وفي ١٨٠٦ أسقط لقب إمبراطور الدولة الرومانية المقدسة وبذلك انتهت الدولة الرومانية المقدسة
- ١٨٠٥ معركة الطرف الأغر . معركتا أولم* وأوسترليتز
- ١٨٠٦ هزيمة بروسيا في يينا
- ١٨٠٧ معركتا إيلاو ، وفريدلند ، ومعاهدة تيلست
- ١٨٠٨ جعل نابليون أخاه جوزيف ملكا على أسبانيا
- ١٨١٠ أصبحت أمريكا الأسبانية جمهورية
- ١٨١١ انسحب الإسكندر من « النظام القارى »
- ١٨١٢ تقهقر نابليون من موسكو
- ١٨١٤ تنازل نابليون عن العرش . لويس الثامن عشر
- ١٨١٥ حملة واترلو : معاهدة فيينا
- ١٨١٩ أول قانون للمصانع يقره البرلمان بناء على جهود روبرت أوين
- ١٨٢١ ثورة اليونان
- ١٨٢٤ شارل العاشر ملك فرنسا
- ١٨٢٥ نيقولا الأول قيصر روسيا . أول سكة حديد من ستوكتون إلى دار لنجتون

١٦٢٨

١٨٢٧ معركة نوارين

١٨٢٩ استقلال اليونان

١٨٣٠ سنة من الفوضى والفتن . سرد لويس فيليب شارل العاشر

انفصلت بلجيكا عن هولندا . أصبح ليوبولد أمير ساكس كوبرج جوتا ملكا

على تلك الدولة الجديدة ، وهي بلجيكا . ثارت بولندا الروسية بغير جدوى

١٨٣٢ قانون الإصلاح الأول بريطانيا يرجع إلى البرلمان البريطاني السمة الديمقراطية

١٨٣٥ استعمال كلمة « الاشتراكية » لأول مرة

١٨٣٧ الملكية فيكتوريا

١٨٤٠ تزوجت الملكة فيكتوريا الأمير ساكس كوبرج جوتا

١٨٤٨ سنة أخرى من الفتن . جمهوريات بفرنسا وروما . مؤتمر الجامعة الصقلية يعقد

في براغ . ألمانيا كلها تتحد في برلمان بفرائنكفورت . ملك بروسيا يدمر

وحدة ألمانيا

١٨٥١ معرض لندن العظيم

١٨٥٢ نابليون الثالث إمبراطوراً للفرنسيين

١٨٥٤ حملة پرى (Perry) (الثانية) تنزل باليابان . احتل نيقولا الأول ولايات

الدانوب التركية

١٨٥٤ — ١٨٥٦ حرب القرم

١٨٥٦ إسكندر الثاني قيصر روسيا

١٨٥٧ العصيان الهندي

١٨٥٩ الحرب الفرنسية النمسية . معركتا ماچنتا وسولفرينو

١٨٦١ فيكتور عمانويل أول ملك لإيطاليا . أصبح أبراهام لينكولن رئيساً للولايات

المتحدة . ابتدأت الحرب الأهلية الأمريكية

١٨٦٣ أطلق البريطانيون قنابلهم على مدينة يابانية

١٨٦٤ أصبح ماكسميليان إمبراطوراً للمكسيك

١٦٢٩

- ١٨٦٥ التسليم في أوبوماتوكس كورت مروس . فتح أبواب اليابان للعالم الخارجى
- ١٨٦٦ بروسيا وإيطاليا تهاجمان النمسا (والولايات الألمانية الجنوبية المتحالفة معها)
معركة سادوا
- ١٨٦٧ مقتل الإمبراطور مكسمليان بالرصاص
- ١٨٧٠ نابليون الثالث يعلن الحرب على بروسيا
- ١٨٧١ سلمت باريس (يناير) . أصبح ملك بروسيا هو غليوم الأول إمبراطور ألمانيا ، صلح فرانكفورت
- ١٨٧٥ الفظائع في بلغاريا
- ١٨٧٧ الحرب التركية الروسية . معاهدة سان استفانو . أصبحت المملكة فكتوريا إمبراطورة على الهند
- ١٨٧٨ معاهدة برلين . سلام مسلح بأوربا دام ٣٦ سنة
- ١٨٨١ معركة تل ماجوبا . تحرير الترنسفال
- ١٨٨٢ وفاة شارلز دارون
- ١٨٨٣ احتلت بريطانيا مصر . (وضحة التاريخ ١٨٨٢) . مات كارل ماركس
- ١٨٨٦ أول قانون للحكم الذاتى الإيرلندى يصدره جلادستون
- ١٨٨٨ الإمبراطور فردريك الثالث (مارس) ثم غليوم الثانى (يونيه) يتوليا الحكم بألمانيا
- ١٨٩٠ عزل بسمارك . اللورد سالسبورى ينزل لألمانيا عن جزيرة هليجولند
- ١٨٩٤ - ١٨٩٥ حرب اليابان مع الصين
- ١٨٩٥ الحكومة الاتحادية (الاستعمارية) بريطانيا
- ١٨٩٦ معركة عدوه
- ١٨٩٨ الخلاف بين فرنسا وبريطانيا على فاشوده . ألمانيا تستولى على كياوتشاو
- ١٨٩٩ ابتدأت الحرب بجنوب إفريقيا (حرب البوير)
- ١٩٠٠ فتن البوكسر بالصين . محاصرة السفارات في بيكين

١٦٣٠

- ١٩٠٤ غزا البريطانيون التبت
- ١٩٠٤ - ١٩٠٥ الحرب الروسية اليابانية
- ١٩٠٦ الأحرار يغلبون حزب الاتحاديين (الاستعماريين) في مسألة التعريفية الجمركية .
- ١٩٠٧ تأسيس اتحاد جنوب إفريقيا
- ١٩٠٨ ضمت النمسا البوسنة والهرسك
- ١٩٠٩ طار المسيو بليريو بطيارة من فرنسا إلى إنجلترا
- ١٩١١ أعلنت إيطاليا الحرب على تركيا واستولت على طرابلس
- ١٩١٢ أصبحت الصين جمهورية . أعلن حلف البلقان الحرب على تركيا
- ١٩١٣ تهريب الاتحاديين السلاح يترتب عليه سفك الدماء بلندنندرى في إرلندة
- ١٩١٤ ابتدأت الحرب العظمى الأوربية
- ١٩١٧ الثورتان الروسيتان . تأسيس النظام البلشفي بالروسيا
- ١٩١٨ الهدنة (نوفمبر)
- ١٩١٩ - ١٩٢٠ معاهدة فرساي
- ١٩١٩ انسحب البريطانيون من أركانجل . هزيمة دنيكين . أوشك يودينييتش أن يستولى على بطرسبرج ثم انهار . الأسطول الألماني يخرج ليسلم للبريطاني ولكن . يغرقه قواده وضباطه عند هيكابافلو
- ١٩٢٠ أول اجتماع لعصبة الأمم ، التي حظرت على ألمانيا والنمسا والروسيا وتركيا ، والتي لم تمثل فيها الولايات المتحدة . قتل كولتاشاك رمياً بالرصاص . بولندة تهاجم روسيا ، ويغزوها رانجل من الجنوب فيدفع إلى الوراء . رضا باشا يقبض على السلطة في فارس
- ١٩٢١ الحلفاء يسيطرون على القسطنطينية . مؤتمر لبحث نزع السلاح البحري يعقد بواشنطن برئاسة الرئيس هاردينج
- ١٩٢٢ مجاعة عظيمة بالروسيا . مؤتمر جنوا الذي حضره الألمان والروس . ازدياد الخلل في المالية الألمانية وعدم مقدرتها على دفع عقوبات الحرب الباهظة .

١٦٣١

الانهيار اليونانى العسكرى بآسيا الصغرى . انفصال إرلندة الجنوبية عن بريطانيا العظمى

١٩٢٣ احتلال الفرنسيين لحوض الروهر والانهيار النقدى بألمانيا . إنشاء الرنت مارك

١٩٢٣ بريطانيا العظمى تسترد لعملتها معيار ما قبل الحرب .

١٩٢٤ أول حكومة للعالم ببريطانيا . وخلفتها حكومة محافظة في نوفمبر بعد انتخابات عامة ، توفي لينين . مقتل ماتيوث ، (وهو كاتب إيطالى حر) بيد الفاشست . مشروع داوز لتخفيض ديون الحرب الألمانية

١٩٢٥ الفرنسيون يهاجمهم عبد الكريم بمراكش والدروز في سوريا . إنشاء الريخ مارك بألمانيا . معاهدة لوكارنو . خلع شاه إيران على يد على رضا خان . رضا خان يصبح شاهها

١٩٢٦ الإضراب العام بنجم في إنجلترا عن إغلاق أصحاب العمل مناجم الفحم . الفرنك الفرنسى ينزل دون البنس الانجليزى ولكن هبوطه يوقف ، وتعاد قيمته إلى بنسبن بحكومة ائتلافيه ، ألقت لمواجهة الأزمة . هزيمة عبد الكريم

١٩٢٧ هاجمت الحكومة البريطانية إدارة الأعمال التابعة للحكومة الروسية بلندن وقطعت علاقاتها الدبلوماسية مع روسيا . فشل مؤتمر لنزع السلاح بجنيف

١٩٢٨ المستر كيلوج وزير خارجية الرئيس كوليدج يبتكر مجموعة من المعاهدات بها تتخلى جميع الدول العظمى في العالم عن الحرب . نشاط لايفتر في صناعة الأسلحة . إتمام تحويل الجيوش إلى وحدات ميكانيكية والاستفاضة في دراسة حرب الغازات والبكتيريا . بدأ مشروع الخمس سنوات في روسيا

١٩٢٩ وزارة العمال الثانية بالإنجلترا بعد انتخابات عامة . إعادة العلاقات بين إنجلترا والروسيا . وفاة شترزمان . أصبح هوثر رئيساً للولايات المتحدة . كانت ظاهرة هبوط الأسعار وتواصل عطالة العمال زادت زيادة واضحة في كل مكان . مشروع يونغ لتخفيض ديون ا.

١٦٣٢

١٩٣٠ عقد بلندن مؤتمر لنزع السلاح البحري وكانت نتائجه تافهة . ظهر في الريخستاغ الألماني حزب فاشي جديد قوى بزعامة نمسوى اسمه هتلر . إنشاء بنك التسويات الدولي

١٩٣١ أصبحت أسبانيا جمهورية (أبريل) . اشتدت حدة محنة ألمانيا الاقتصادية ، واقترح الرئيس هوفر أن يعطل دفع ديون الحرب سنة . جاءت الأزمة المالية في أعقاب ذلك إلى بريطانيا . وحلت محل حكومة العمال ، حكومة طوارئ قومية ، تعهدت بدعم معيار الذهب . ثم تخلت عن تلك الفكرة بعد ثلاثة وعشرين يوماً قضتها في أوضاع اقتصادية هستيرية . واحتفظ المستر رامساي ماكدونالد رئيس حزب العمال السابق بمنصب رئاسة الوزارة بمهارة تامة طيلة تلك التقلبات السياسية

١٩٣١ رفضت عصبة الأمم أن تأذن بقيام اتحاد جرمنى بين ألمانيا والنمسا

١٩٣٢ أنشأت اليابان دولة منشوكو

١٩٣٢ تنظيم الهيئة المالية للتعمير بالولايات المتحدة لاقرض النقود للبنوك وشركات السكك الحديدية والتأمين . لانتخب فرنكلين د . روزفلت (المولود ١٨٨٢) رئيساً للولايات المتحدة عن الديمقراطيين . إعادة انتخاب هندنبرج رئيساً لدولة ألمانيا (١٩ مليون صوت) ؛ هتلر ١٨ مليون ؛ تايلمان (شيوعى) ٣٣ مليون صوت . الزيادة المستمرة بحزب النازى فى ألمانيا . مؤتمر نزع السلاح بجنيف . ألمانيا تترك المؤتمر

١٩٣٣ افتتاح مشروع الصفقة الجديدة . الرئيس روزفلت يقوم باصلاحات اجتماعية واقتصادية بعيدة الأثر . أصبح هتلر مستشاراً للرايخ وصارت ألمانيا دولة نازية . المؤتمر الاقتصادى العالمى بلندن فشل . بدء مشروع الخمس سنوات الثانى بالروسيا . عصبة الأمم تستنكر غزو اليابان چيهول وإنشاء دولة منشوكو الألعبوة . حريق الريخستاغ برلين والانقلاب النازى

١٦٣٣

١٩٣٤ ثبتت قيمة الدولار على ٥٩ ، ٦٠ في المئة من قيمته عام ١٩٠٠ . إعلان هتلر وموسوليني استقلال النمسا عند تقابلهما بالبندقية . هتلر يظهر بلاده من خصومه السياسيين . النازيون يقتلون دولفوس . وفاة الرئيس فون هيندنبيرج . أدولف هتلر الزعيم والمستشار . الاتفاق الودي البلقاني ، عقده بين تركيا واليونان وبلغاريا ويوجوسلافيا للاحتفاظ بالحالة الواقعة بالبلقان . دخلت روسيا عصبة الأمم .

١٩٣٥ المحكمة العليا بالولايات المتحدة تقرر عدم دستورية مشروع التعمير الجديد N.R.A . إنشاء لجنة التنظيم الصناعي (C.I.O) . حصول ألمانيا على منطقة السار باستفتاء . إيطاليا تهاجم الحبشة وتفتحها .

١٩٣٦ إعادة انتخاب الرئيس روزفلت . الجبهة الشعبية تنتخب في فرنسا ؛ ليون بلوم رئيسا للوزارة . هتلر يعيد تسليح منطقة الراين . الحرب الأهلية في أسبانيا ، نشوء التمرد بقيادة الجنرال فرانكو بمساعدة ألمانيا ؛ وإيطاليا وحزب المحافظين البريطاني بدرجة من العلانية أقل .

١٩٣٧ فشل الرئيس روزفلت في محاولته إعادة تنظيم المحكمة العليا . حرب بلا إعلان بين اليابان والصين . تحالف ألمانيا وإيطاليا واليابان على الشيوعية ، الحلف المضاد للكونترن . جيش الجنرال فرانكو ونجاحه في شمال أسبانيا . الجيوش الإيطالية تهزم هزيمة فادحة في جواد الاچارا على يد الجند الموالين . تنويع الملك جورج السادس ملك إنجلترا .

١٩٣٨ ألمانيا تضم النمسا . مؤتمر ميونخ (تشمبرلن - دالدييه - هتلر - موسوليني) يعطى ألمانيا جزءاً من أراضي تشيكوسلوفاكيا ويدمر تحصيناتها .

١٩٣٩ ضمت ألمانيا تشيكوسلوفاكيا . ضمت إيطاليا ألبانيا . فرانكو يدخل مدريد وبرشلونة - السوفييت يوقعون حلفاً مع النازيين . غزت ألمانيا بولنـدة . بريطانيا وفرنسا تعلنان الحرب . لإنهيار بولنـدة . ألمانيا والروسيا تقتسمان

أراضيها . روسيا تمد سلطانها على أستونيا ولاثيا ولترانيا وتغزو فنلندا
نهاية الحرب الفنلندية . ألمانيا تستولى على الدانمركة والنرويج . طرد تشمبرلن
ونستون تشرشل يرأس الحكومة القومية الجديدة . الألمان يجتاحون بوليكيا
وهولندا . دنكرك . سقوط فرنسا ، إيطاليا تعلن الحرب ، حكومة بيتان .
معركة بريطانيا . قذف لندن بالقنابل . تشتت شمل الإيطاليين في برقة
إيطاليا تهاجم اليونان - وتنهزم

١٩٤١ حرب بريطانيا الجوية . البريطانيون يفتحون الحبشة . ألمانيا تفتح يوجوسلافيا
واليونان : وترد البريطانيون في برقة . البريطانيون يهزمون قوات المحور في
العراق وسوريا . هتلر يغزو روسيا . خسائر روسيا الفادحة . اليابان تغرق
أسطول الولايات المتحدة بالباسيفيكي وترج بأمريكا في الحرب . تقهر
الألمان في برقة .

١٩٤٢ اليابان تفتح الفلبين والملايو وسنغافورة والهند الشرقية الهولندية والبريطانية .
الحرب الجوية على ألمانيا ؛ حرب الغواصات في الأطلنطي . اليابان تغزو
بورما . الوطنيون الهنود يرفضون عرض ستافورد كريس . طرد البريطانيون
من برقة . الألمان ينفذون إلى القوقاز ، ولكنهم يفشلون في الاستيلاء على
موسكو أو ستالينجراد . فشل اليابان في فتح جزيرة نيوجني . معركة
العلمين : بدء تحطيم الألمان في ليبيا . الحلفاء ينزلون بشمال إفريقيا .

١٩٤٣ صد الألمان وتراجعهم في روسيا . الحلفاء يفتحون شمال إفريقيا ؛ ويغزون
صقلية ويدخلون إيطاليا . سقوط موسوليني . حرب جوية حامية على أوروبا .
مؤتمر الدار البيضاء .

١٩٤٤ الحلفاء يستولون على روما . غزو نورماندى . طرد الألمان من روسيا ،
تحرير فرنسا وبلجيكا . الروس يدخلون رومانيا والمجر .

١٩٤٥ الأمريكيون يفتحون الفلبين : البريطانيون يستردون بورما . وفاة هتلر ؛
تسليم ألمانيا . قنبلتان ذريتان تسقطان على اليابان . تسليم اليابان .

- ١٩٤٥ إنشاء الأمم المتحدة . إنشاء جامعة الدول العربية .
ميثاق حقوق الإنسان
- ١٩٤٨ اليهود يحتلون فلسطين وينشئون إسرائيل
- ١٩٥٢ حريق القاهرة
- ١٩٥٢ ثورة ٢٣ يوليو المصرية
- ١٩٥٤ سقوط الملكية وإعلان الجمهورية
بروز الرئيس جمال عبد الناصر على مسرح السياسة العالمية
- ١٩٥٥ مؤتمر باننونيغ (١٨ أبريل)
- ١٩٥٦ إستقلال مصر والجلاء .
سحب تمويل السد العالي وتأميم قناة السويس
الثورة الجزائرية
انسحاب المرشدين الأجانب من العمل بقناة السويس
مؤتمر بريوني الأول
جامعات المنتفعين .
العدوان الثلاثي وحرب السويس .
خروج المعتدين من بورسعيد (٢٣ ديسمبر)
مؤتمر بريوني الثاني .
- ١٩٥٧ المؤتمر الآسيوي الإفريقي بالقاهرة
حلف الأطلسي
- ١٩٥٨ إنشاء الجمهورية العربية المتحدة (وحدة مصر وسوريا)
- ١٩٥٩ انحراف ثورة العراق عن ركب العروبة
- ١٩٥٩ ثورة كوبا على يد فيديل كاسترو (يناير)
- ١٩٥٩ تجارب الأقمار الصناعية الروسية . انتخاب الـ
البدء في إنشاء السد العالي

١٦٣٦

مشروع السنوات الخمس الأولى في ج . ع . م
السوق الأوروبية المشتركة
مؤتمر الأقطاب
الحرب الأهلية في لبنان ونزول القوات الأمريكية

١٩٦١ القرارات الاشتراكية

انفصال سوريا

مؤتمر الدار البيضاء للملك ورؤساء العرب
مؤتمر بلجراد

مؤتمر القمة الإفريقي بأديس بابا

إنشاء سور برلين

إطلاق سفينة فضاء تحمل رجلاً

١٩٦٢ الحلف العائلي بين الصين وروسيا

مؤتمر الدول الإفريقية

استقلال الجزائر

١٩٦٢ استقلال قبرص

مقتل كندى

١٩٦٤ زحف الزنوج على نيويورك

عزل خروشوف

سقوط حزب المحافظين ببريطانيا

١٩٦٤ مؤتمر القمة الإفريقي بالقاهرة

اجتماع الملوك والرؤساء العرب الأول

اجتماع الملوك والرؤساء الثاني

مؤتمر الدول غير المنحازة

انتهاء المرحلة الأولى في بناء السد العالي

١٦٣٧

١٩٤٥ - ١٩٦٤ استقلال دول إفريقيا وآسيا :

إندونيسيا - أوغندا - باكستان - بورندي - تونس - تنجانيقا -
زنجبار (تنزانيا) - جامبيا - الجزائر - جابون - داهومي -
السودان - سيراليون - سرازيل - سيلان - ساحل العاج - الصومال -
غانا - غينيا - كينيا - ليبيا - نيجيريا - الهند الصينية - ملاوى -
المغرب - مالى - ماليزيا - الهند - زامبيا - توجو - موريتانيا .

١٩٦٥ انسحاب أندونيسيا من هيئة الأمم المتحدة

مؤتمر رؤساء حكومات الدول العربية

مجلس الأمة يرشح الرئيس جمال عبد الناصر لرياسة الجمهورية

كشاف أجدى للكتاب

الأسطول الفرنسي ١٢٤٨٠ ١٢٢٧
 الاسلام ١١٢٤ ، ١٢٩٢ ، ١٥٢٢
 الاسكندر الأكبر ١١٠٩ ، ١٤٧٢
 الاسكندر الأول ١٢٥٠ ، ١٢٥٣ ، ١٣٩٩
 الاسكندر اليوغوسلافي ١٥٣٩
 الاشتراكية ١٢٢٣ ، ١٢٩٢ ، ١٤٦٦ ، ١٤٧٠ ، ١٥٣٤
 الاشتراكيون ١١٨٧ ، ١٢٢٧ ، ١٥٣٩
 اشتراكية اتحادات العمال ١٣٠١
 اصحاب الأملاك ١٠٦٩ ، ١٠٧٠ ، ١٠٧٨
 الإصلاح الديني ١٠٧٩ ، ١١٤٤
 الإصلاح الزراعي ١٥٤١
 اعلان الحقوق الأمريكي ١١٦٤
 اغناطيوس ليولا ١١٣٤
 أفلاطون ١٣٠٠
 الأكاديمية الفرنسية ١٠٩٩ ، ١٣٨٩
 الأكاديمية الملكية البريطانية ١٣٧٨
 إلبا ١٢٥٩
 ألفا ١٠٧٤
 ألفونسو ١٥٣٧
 الكمار ١٠٧٢ ، ١٠٧٤
 اليزابث ١١٠٣
 الامبراطورية الألمانية ١٤٠٣
 الإمبراطورية البريطانية ١٣٥١ ، ١٣٧٧
 الإمبراطورية البركية ١٣٥٩
 الإمبراطورية الرومانية ١٠٦٧ ، ١١١٥ ، ١١٣٨ ، ١٤٧٠
 الامبراطورية الرومانية المقدسة ١٠٦٧
 امبراطورية المغول العظيم ١٣٥٢ ، ١٣٥٥ ، ١٣٧٤
 الإمبراطورية النمساوية ١٥٣٦
 الإمبريالية ١٣٢٣ (انظر استعمار)

(١)

الاتحاد ١٤٦٧ ، ١٥٢٧ ، ١٥٣٢ ، ١٥٤٠
 إيسن ١٣٩٤
 أبي خير (معركة)
 أبر ما توكس كورت هارس (معركة) ١٣٤٥
 الاتحاد الأوروبي ١٢٧٠
 الاتحاد السوفييتي ١٥٣٥ ، ١٥٤١
 اتحاد عالمي ١١١٠ ، ١١٣٣ ، ١٤٩٧
 اتحاد فدرالي ١١٧٥ ، ١٣٣٣ ، ١٣٤٤
 اتحاد كنفدرالي ١١٧٥ ، ١٣٣٣ ، ١٣٤٤
 اتكنسون (س . ف) ١٢١٤
 اجونت ١٠٧١ ، ١٠٧٢
 الأحرار (حزب) ١١٦٣ ، ١٤١٢ ، ١٤١٦
 اخناتون ١٣٨٠
 الأدب ١٣٨٥ - ١٣٩٧
 الأدب السياسي ١١١٥
 الأدب الإنجليزي ١٣٨٦
 الأدب الفرنسي ١٠٩٩ ، ١٣٨٧
 إدجار آلان پو ١٣٩٥
 أدرنه (معاهدة) ١٢٦٧
 ادينجتون ١٢٤٦
 ادوارد الأول ١٠٧٧
 ادوارد السابع ١٠٧٨ ، ١٠٨٩
 ادوارد السادس ١٠٧٥ ، ١٠٧٨
 الأراضي المنخفضة ، ١٢٦٣ ، ١٢٦٥
 أرسطو ١٣١٢
 ارفورت ١٢٥٢
 أرلندة - الأيرلنديون ١٠٨٤ ، ١٥١٠
 الاسترليني ١٥٤٠
 الاستعمار ١٣١٨ ، ١٣٢٣ ، ١٣٦٠ ، ١٤٠٢ ، ١٤٦٤
 الاسطول الانجليزى ١٠٨٥ ، ١٤٥٩
 الاسطول الألماني ١٤٩٠

١٦٣٩

برجوين (جنرال) ١١٦٧
البرلمان الأثير ١٠٨٤ ، ١٠٨٣
البرلمان الانجليزى ١٠٧٨ ، ١٠٧٦
برلمان الإنسان ١٣٢٦
البرلمان الطويل والقصير ١٠٨٠
برلمان فرانكفورت ١٣٢٩
برست ليتوفسك (صلح) ١٤٩٨ ، ١٤٥٧
برقاردشو ١٣٩٤
برنزويك (دوق) ١٢١١
بروتستانت ١٠٨٥
البروتستانتية ١٠٧١
بسم ١٢٧٤
يسمارك ١٣٣١ ، ١٤٠٣
برهانية ١١٢٥
بروجلي (المارشال) ١١٩١
بروسيا ١٠٩٢
البريزترانية (الكنيسة) ١٠٨٠
بريطانيا ١١٢٤ ، ١٥٤٦
البروليتارية ١٢٨٧ ، ١٢٩٩ ، ١٤٩٩ ، ١٥٢١
بطرس الأكبر ١١٠٣ ، ١١٣٠
بل (الموسيقى) ١١٠٥
بلتسك ١٢٤٨
بلزك ١٣٨٨ ، ١٣٨٩
بلسودسكى ١٥٣٩
البلاشفة (١٣٠٢)
البلشفية ١٤٩٨
بامرسون ١٣٢٧
بلوتارك ١٢٣٦
البلوتوقراطى ١٢٧٩
ابليوخر ١٢٥٩
بليك (أميرال) ١٠٨٥
البنديقية ١٠٨٧
بنيان ١٠٩٩
بوب (اسكندر) ١١٠١
بو١ ١٣٤٧
بورجواه ١٤٨٩

أمير ١٠٦٨ ، ١٠٦٩
إمرسون ١٣٩٥
الأمير الزوج ١٣٢٤
أناتول فرانس ١٣٩٣
الانتخابات ١١٧٨ ، ١٣٠٦ ، ١٤٧١
انتداب ١٤٩٦ ، ١٥٣٤
الأهرام (معركة) ١٢٢٧
انجوس (المصور) ١٣٧٨
الانقلاب الآلى ١٢٦٩ ، ١٢٧٦ ، ١٣٨٠ ،
١٢٨١ ، ١٣٠٨ ، ١٣٠٩ ، ١٣٩٨
الانقلاب الصناعى ١١٤٩ ، ١٢٨١
أوجليشورب ١١٥٦ ، ١١٥٧
أورلندو ١٤٨٠
أورليان ١٢٩٠
أورانيج ١٠٧٤ ، ١٠٧٥
أورنغزيب ١١٢٤ ، ١٣٥٢
أوستلر ١٢٤٨
أوغسطس ١٢٨١
وكسفورد ١٣٢٤
أرلم (معركة) ١٢٤٨
أوليباركية ١٥٤٣
أوين (روبرت) ١٢٩٤
إيران ١٥٢٣
إيلو ١٢٤٨
إيزنهاور ١٥٨٩ ، ١٥٩١ ، ١٥٩٥

(ب)

باخ ١١٠٥
باراه ١٢٢٢
بارثولوميو ١١٩٧
بارى ١٣٩٤
الباستيل ١١٩١
بالوين ١٠٧١
بالفور ١٤٨٠
بالتييمور ١١٥٦
الباليوليشية ١٢٨٠ ، ١٢٩٣ ، ١٣٨٠

١٦٤٠

تروتسكى ١٣٠٢ ، ١٥٠١ ، ١٥٠٤ ، ١٥٠٨ ،
١٥٣٤
تشارلز ريد ١٣٨٨
تشرشل ١٤٥٤ ، ١٥٤١ ، ١٥٧٠ ، ١٥٧٣
تشميرلن ١٥٤١ ، ١٥٦٣
تشانج كاي شيك ١٥٢١ ، ١٥٢٢ ، ١٥٣٩
تشيكوسلوفاكيا ١٥٣١
تشيكوف ١٣٩٠
التصوير ١١٠٧ ، ١٣٧٧
التعاون ١٢٩٧
التعريف الجمركية ١٥٣٦ ، ١٥٣٧
التعليم الضمى والصامت ١١١٣
التعمير ١٤٦٦
تلست ١٢٥١
التلغراف الكهربائى ١٢٧٣
تلى ١٠٩٢
التلمود ١٥٢٦
التمثيل اليابانى ١٣٠٥
تورجنيف ١٣٩٠
تينسون ١٣٢٥ ، ١٣٨٧
التوسع الإستثمارى ١٣٧٣
تولستوى ١٣٩٠
توماس مور ١٢٨٢
ترنكين ١٣٧١
التويلرى ١١٩٩
تيمور لتك ١٣١١
تيمير ١٢٣٨
تيموشنكو ١٥٨٠

(ث)

ثاكارى ١٣٨٨ ، ١٣٩٣
الثورة الاشتراكية ١٤٥٧
الثورة الاقتصادية ١٢٨٥
الثورة الصناعية والميكانيكية (انظر الانقلاب)
١١٤٩ ، ١٢٨٥ ، ١٢٨٦ ، ١٣٢٣
الثورة الفرنسية ١١٠٤ ، ١١٨٥ ، ١٢٨٦
١٥٣٤

البورجوازية ١٥٢١
بوذا ١١٧١ ، ١٢٩٢ ، ١٤٧٢
بوربون ١١٣٩ ، ١٢٤٢ ، ١٢٥٨ ، ١٢٥٩ ،
بورودين ١٥٢٠
پوزن ١٢٥٦ ، ١٢٩٠
بوزويل ١١٠١
بوفون ١٣١٢
بوكساروبلاسى ١١٢٨ (معركتا)
پول ريفير ١١٦٥
بولس ١٣١٠
بولندا ١١١٦ ، ١٤٠٣ ، ١٥٩١ ، ١٥٠٥
بولونيا ١٢٤٧
بوليفيا ١٥٤٦
بيترقان درماى ١٠٧٣
بينوفن ١١٠٧
البيداجوچيون ١٣٨٩
بيديكار ١١٠٤
بيرون ١٣٩٠
بيكونزفيلد ١٠٨٧ ، ١٣٤٨
البيزيتا ١٥٣٢
بيلوك ١٣٨٨
الپيورتيان ١٠٨٦
بيوس السابع (البابا) ١٢٤٧

(ت)

تافت ١٤٧٢
تاميز ١٠٨٦
تأميم ١٣٠٤ ، ١٣٧٣
تافاريف ١٠٨٥
تاونشند ١٤٥٣
تتار ١١٣١
تجارة الرقيق ١١٧٩ ، ١١٨١
التخطيط ١٤٦٦
ترانسيت ١٢٩٩
الترك ١١٣١ ، ١٤٩٢
التركان ١١٣١
ترنر (المصور) ١٣٧٨

١٦٤١

جورج الخامس ١٤١٤ ، ١٤٢٧
جورج واشنطن ١١٧٦ ، ١١٧٨
جوزيف نابليون ١٢٦٢
جوزفين ١٢٣٥
جوستاف أدولف ١٠٩٢ ، ١١٢٢
جوستافوس فاذا ١٠٩٠
جوع (معركة) ١٤٦٠
جوقة الشرف ١٢٤٣
جولد سميث ١١٤٥ ، ١١٥٤
جون الثالث ١١١٨
جون لوك ١١٦٢ ، ١١٨٦
جون هس ١١٣٤
جونو ١٢٣٥
جويلا ١٣٨٧
جيون ١١٠٢ ، ١١٣١ ، ١١٣٥ ، ١١٣٦ ،
١١٣٧ ، ١١٥٠ ، ١١٨٦ ، ١٣١٥
جيمس الأول (استوارت) ١٠٦٩ ، ١٠٧٨ ،
١٠٨٧ ، ١٠٩٥ ، ١١٥٤
جيمس برانش كابل ١٣٩٦
جيمس كريج ١٥١٤
جيمس ملك أسكتلندة ١٠٧٥
جين أوستن ١٣٨٧ ، ١٣٩٣
جيوليتي ١٤٧٠

(ح)

الحرب - الحروب ١٠٦٩
حرب الاستقلال الأمريكي ١١٦٦ ، ١١٨٥ ،
١٣٤٢
الحرب الأهلية الأمريكية ١٣٣٢ ، ١٣٣٧
حرب البوير ١٣١٨
حرب التحرير الألمانية ١٢٥٦
حرب الثلاثين سنة ١٠٩٠ ، ١٠٩١ ، ١١٣٣ ،
١١٦٧
حرب الطبقات ١٢٨٨

الثورة المستديمة ١٥٤٥
التيوقراطية ١٢٩٣

(ج)

چاكسون (هامبدن) ١٥٣٥
جاليليو ١٣٠٩
جامعة باريس ١١٤٣
جامعة لندن ١٣٢٥
جان جاك روسو ١١٠٠
جانكيز ١١٣١ ، ١١٥٩
جتلند (معركة) ١٤٥١
جرافيلوت (معركة) ١٣٣٥
جرائت ١٣٤٥ ، ١٣٤٧
الحركا ١٣٥٥
جستنيان ١٢٦٩
جفرسون دافيز ١١٨٠ ، ١٣٤١ ، ١٣٤٦ ،
١٥١٤
جمال عبد الناصر ١٦٣٥
الجامعيون ١١٨٧
الجمعية الفلورنسية ١٢٧٩
الجمعية الملكية البريطانية ١٢٧٩
الجمعية الوطنية ١٢٠٠ ، ١٢٠١ ، ١٢٠٧
الجمهورية الانجليزية ١٠٧٥
الجمهورية البريطانية المتوجة ١١٣٥
الجمهورية البولندية المتوجة ١١١٦ ، ١٤٠٣
الجمهورية الرومانية ١٤٦٤
الجمهورية الفرنسية ١٣٠٢
الجمهورية الهولندية ١٠٧٠
الجمهورية المتوجة ١٢٠٠
جوتاما (انظر بوذا)
جوجل ١٣٩٠
جودفري البويوني ١٧٠١
جورج الأول ١٠٨٧ ، ١٠٨٨
جورج الثاني والثالث والرابع ١٠٨٨ ، ١١٦٢ ،
١٢٢١

١٦٤٢

الحلف المقدس ١٢٦٠/١٢٦١
الحملة الصليبية الأولى ١٠٧١
الحملة الصليبية الثانية والثالثة والرابعة ١٠٧١
حنا سوبيسكي ١١١٨
الحوليات ١٠٦٨

(خ)

خريطة العالم السياسية الطبيعية ١٢٦٦
الخضر والزررق ١١١٥
خط ماسون وديكسون ١٣٤١

(د)

دارا ١٢٥٤
دارتموث ١١٨٠
دافيد (المصور) ١٣٧٨
دانيال ديفو ١٠٩٢/١١٠٠/١١٤٥/١١٨٠
١٢٨١
داوز ١١٦٥/١٥٣٦
الدايستية (المذاهب) ١١٠١
الدراجوناد ١٠٩٨
الدراما ١٣٩٣/١٣٩٤
درايزر ١٣٩٦
الدرنيل ١٤٥٢
دروجيندا ١٠٨٤
دستور الولايات المتحدة ١١٦٩/١١٧٦
دستوفسكي ١٣٩٠
الدكتاتورية ١٥٣٨
دنبار (مركبة) ١٠٨٤
دنكرك ١٠٨٦ ، ١٥٧١
دوجلاس (السناتور) ١٣٤٣
دوق سانوي ١٠٨٥
الدولار ١٥٣٢/١٥٣٣
الدولة الأوروبية الحرة ١٥٢٨
دولة تحريرية مشتركة ١٤٨٨

الحرب العظمى الأولى ١٠٩٢ ، ١٣٢٣ ، ١٤٥٦
الحرب العظمى الثانية ١٥٦٨
الحرب الروسية التركية ١٣٤٨
حرب الوراثة الأسبانية ١١٠٤
الحرب اليابانية الروسية ١٣٧٢
الحرب اليابانية الصينية ١٣٧١
الحروب الإقطاعية ١٣٦٨
الحروب البونية ١٤٦٤

(ح)

الحروب الصليبية ١٠٧١
حروب الفلاحين ١١٤٣
حروب نابليون ١٢٤٨ ، ١٢٥٢ ، ١٢٥٩
الحرس الحديدي ١٠٨٢
الحرس الخاص ١١٩٩
الحرس الوطني ١١٩٩
حريق لندن ١١٠٩
الحرية الفردية ١٣٠٧
حزب الأحرار ١١٦٣ ، ١٤١٦
حزب التوري ١٤٠٢
الحزب الجمهوري ١٤٧٣/١٥٣٨
الحزب الديمقراطي ١٤٧٩
الحزب الشيوعي ١٤٩٩/١٥٤٥
حزب العمال ١٤٥٨
حزب المحافظين ١٤٠٧ ، ١٥٣٩ ، ١٥٩٤
حزب الهويج ١١٦٣
حكيم الإرهاب ١٢٦٢
الحكيم الدكتاتوري ١٥٣٩
الحكيم الذاتي ١٣٧٣/١٥١٣/١٥١٤
الحكيم المطلق ١٠٨٨
الحكومة الاتحادية ١٥٣٢
حكومة الإدارة ١٢٢٢/١٢١٩
الحكومة العالمية ١١١٠/١٣١٧
الحلف الألماني ١٣٣٠

١٦٤٣

الرقيق ١١٥٨ ، ١١٧٩ ، ١١٨٠ ، ١٣٤٠ ،
١٣٤٥

الرواية (انظر فصة)

الرواية القصيرة ١٣٨٧

روبرت لويس استيفنسون ١٣٩٢

رويسبير ١٢٠٥ ، ١٢١٥ ، ١٢٣٤

روجر باكون ١٢٧١

روسو ١١٨٧ ، ١١٨٨ ، ١٢٠٢ ، ١٢٠٥ ،

١٢٠٧ ، ١٢٣٤ ، ١٢١٥

رينولدز (المصور) ١١٠٩

رنجارك ١٥٣١

رنوار (المصور) ١٣٧٩

رومان رولاند ١٣٩٢

ريتشموث ١٣٤٥ ، ١٣٤٦

ريختر (جان بول) ١٣٨٨

روزفلت (تيودور) ١٤٧٣

روزفلت (فرانكلين) ١٥٤١

الروسيا ١٣٧١

الرومانس ١٠٩٩

الرومانسية ١٣٩١

رومل ١٥٧٨ ، ١٥٨٣ ، ١٥٨٤

ريتشاردسون ١٣٨٣

ريتشارد قلب الأسد ١٠٧٦

ريشليو ١٠٩٥ ، ١١١٤ ، ١١٢٢

(ز)

زافير (فرانسيس) ١٣٦٨

زعلول ١٥٢٦

الزلوق ١٥٣١

زورين ١٥٠١

زيتوفيف ١٥٠١

(س)

ساروم ١٠٨٨

الساسانيون ١٤٥٣

الدولة ذات السيادة ١١١٥ ، ١٤٠٠

الدولة الرومانية الغربية ١٠٦٨

الدولة العالمية ١١١٦ ، ١٣٢٦ ، ١٣٩٩

الدولة العظمى ١١٥١ ، ١٢٩١ ، ١٤٧٨

دومورييه (جنرال) ١٢١١ -

دوننج ستريت ١٥١٥

الديبلوماسية ١١٥١

ديجاز (المصور) ١٣٧٩

ديدرو ١١٨٦

ديروستمبر ١٠٨٥

ديفالبرا ١٥١٤

ديكارت ١٠٩٩ ، ١٣١٢

ديكنز ١٣٨٨ ، ١٣٩٣

الديل إيريان ١٥١٥

الديموقراطية ١١٥٨ ، ١٥١٩

ديبيكين ١٥٠٥ ، ١٥٠٦

(ر)

رابليه ١١٠١

راديك ١٥٠١

راديكاليين ١١٦٧ ، ١٣٤٠

راسبوتين ١٤٥٦ ، ١٤٥٧

رفائيل (المصور) ١٣٧٩

رامبراندت (المصور) ١٣٧٩

رامبويه ٢١٩٦

الرأين ١٠٧٠ ، ١٠٩٢

رأس المال ١١٤٩ ، ١٢٨٨

الرأسمال الجماعي ١٣٠١

الرأساليون ١٤٦٩ ، ١٤٩٩

راسين ١٠٩٩

ردموند ١٥١٢

رسكن ١٣٧٩

رضاخان ١٥٢٤

رطانة ١١١١

١٦٤٤

شارل الخامس ١٠٧١ ، ١٠٨٩ ، ١٤٧٢
 شارل العاشر ١٢٦٢
 شارل ليال ١٣١٢
 شارلوت كورداي ١٢٠٦
 شاتوتيري (معركة) ١٤٦١
 شان دي مارس ١٢٠٥ ، ١٢٠٩ ، ١٢١٧
 الشخوص القبلية ١١١٢
 شتين (فون) ١٢٥٢
 شركة خليج هدسن ١٣٥١
 شركة الهند الشرقية ١١٢٩ ، ١١٦٤ ، ١٣٥٢
 شلمان ١٠٦٨ ، ١٢٤٧
 شرمان ١٣٤٥
 شروود أندرسون ١٣٩٦
 الشعر ١٣٨٧
 الشعور الطبقي ١٣٠٠
 شكشير ١٠٩٩ ، ١٣٩٩
 الشيوعية ١٢٢٧ ، ١٢٩٣ ، ١٣٠٣ ، ٤٧٠
 الشيوعية المسيحية ١١٤١

(ص)

صاحب العمل ١٤٦٧
 الصالون الفرنسي ١٣٧٨
 الصحافة ١٣٧٣
 صلح فرانكفورت ١٣٣٦
 صمويل آدامز ١١٦٥
 صمويل جونسون ١١٠١
 صمويل ريتشاردسون ١١٠٠
 صن يات سن ١٥١٨ ، ١٥١٩
 الصهيونية ١٥٢٦ ، ١٥٢٧
 الصين ١١٣٢ ، ١٣٧١ ، ١٥١٧

(ض)

الضرائب ١٠٧٠ ، ١١٥٢ ، ١١٦١

سلازار ١٥٣٩
 سالونيك ٤٥٣
 الساموراي ١٣٦٨
 ستالين ١٥٠٩ ، ١٥٣٤
 ستانفوردويت ١٣٨٣
 سترانثي ١٣٨٨
 سترافورد (الإيرل) ١٠٨١ ، ١٠٨٤
 سترن (لورانس) ١١٠١ ، ١٣٨٧
 ستوك مار ١٣٢٧
 ستينو ١٣١٢
 سراجيفو ١٣٢٣ ، ١٤٠٢
 سكايفلو ١٤٩٠
 سلاميس ١٤٥٢
 سلفرينو ١٣٢٩
 السلم البريطاني ١٣٧٧
 سنكلير لويس ١٣٩٦
 السود والصفير ١٥١٣
 السين فين ١٥١٣
 السودان ١٣٧٥
 سودرمان ١٣٩٥
 سوليز ١٠٧٤
 السوم ١٢٢٠ ، ١٤٦٠
 سوفت ١١٠١
 السياسة الخارجية ١٠٦٧
 سييريا ١٣٥١
 السيخ ١٣٥٥
 سيدان (معركة) ١٣٣٥ ، ١٤٨٤
 سيمون دي مونت فورت ١٠٧٦

(ش)

شارل الأول ١٠٦٩ ، ١٠٧٩ ، ١٠٨٣ ،
 ١٠٩٦ ، ١١٠٢ ، ١١٩٥
 شارل الثاني ١٠٨٦ ، ١٠٩٨

١٦٤٥

فان ١٣٠٢

فاسكوداجاما ١١٢٧

الفاشية والفاشيون ١٢٢٨ ، ١٤٧٠ ، ١٤٧٢ ،

١٥٣٤ ، ١٥٣٩

فاللى (معركة) ١٢١١

فانى برفى ١٣٨٧

الفتنة الهندية ١٣٥٥

فرانكلين (بنيامين) ١١٧٩ ، ١٢٠٥

فرلنكو ١٥٥٠ ، ١٥٥٣

فرايتاج (جوستاف) ١٣٩٠

فردان ١٢١٠ ، ١٤٣٨

فردريك الأكبر ١١٠٢ ، ١١١٧ ، ١٤٠٣

فردريك الثانى ١٠٨٩ ، ١١١٧

فردريك (الدوق) ١٠٧٣

فردريك وليم الأول ١١٠٢

فرر ١٥٤٨

فرديناند ١٠٨٩

فرديناند البلغارى ١٤٥٣ ، ١٤٥٥

فرسان الثيوتون ١١٣٨

فرساي ١٠٩٦ ، ١١٩٠ ، ١٤٧٢ ، ١٤٩٠ ،

١٥٥٤

فرنسيس الأسيسى ١١٣٤

الفرنك ١٥٣٢

فرنكفورت ١٣٢٩ ، ١٣٣٦

الفروند (حرب) ١٠٩٣

فسيفساء ١٣٧٣

الفكرة الثورية بفرنسا ١١٨٤

فكرة الدولة العظمى ١١١٠

الفلاسفة الأثينيون ١١٦٩

فلاندرز ١١٠٠

فلسطين ١٤٩٢ ، ١٥٢٦

فلوبير ١٣٨٩

فلورنسا ١٠٩٨

الفن الإسلامى ١٣٨٠

الفن البيزنطى ١٣٨٠

الفن القوطى ١٣٨١

(ط)

طاغور (رابندرانات) ١٣٩٧

الطرف الأغر (معركة) ١٢٤٨

(ع)

عالم المسيحية ١١١١ ، ١٣١٣ ، ١١٣٣

العامل والعمال ١٤٠٢ ، ١٤٦٦ ، ١٥٣١

عبادة العقل ١٢١٧

عهد الكريم ١٥٢٤ ، ١٥٢٥

العدالة الاجتماعية ١٥١٩

عده (معركة) ١٣٧٢

العراق ١٤٥٢ ، ١٥٣٤

عصبة الأمم ١٤٧٥ ، ١٤٨٥ ، ١٤٩٤ ، ١٥٢٦ ،

١٥٣٣

العصر الحجري الحديث ١٣٨٠

العصر الحجري القديم ١٣٨٠

عصور الاضطراب ١٠٦٨

المصيان المذنب ١٥٣٩

العقد الاجتماعي ١١٧٣ ، ١١٨٧

العلاقات الدولية ١٣٠٧

العلوم (وتقدمها) ١٣١٢ ، ١٤١٢

العمارة ١١٠٧ ، ١٣٨٢

العمل ١١٥٠

العملة ١٢٢٧ ، ١٢٢٨ ، ١٣٠٦

المعهد الأعظم (فى ماجنا كارتا) ١٠٧٩ ، ١٢٩٦

المعهد القديم ١٥٢٦

(غ)

غاريبالدو ١٣٢٩

غاليبولي ١٤٥٢ ، ١٤٥٣

غليوم الثانى ١٤٠٢ ، ١٤٤٦ ، ١٤٦٤

(ف)

فارجاس (جيتوليو) ١٥٣٩

١٦٤٦

قوانين السياجات ١١٤٤ ، ١١٤٦ ، ١١٤٩
القوزاق ١١٣٠ ، ١١٣١

(ك)

كابوريتو (معركة) ١٤٦٠
كاترين العظيمة ١١٠٣ ، ١١٣٥
كارسون ١٤٢٥ ، ١٥١٢
كارل ماركس ١٢٨٧ ، ١٢٨٨ ، ١٢٩٧ ،
١٣٠٠ ، ١٣٠٧ ، ١٥٠٠
كارليل ١١٠٢ ، ١١٩٤ ، ١١٩٦ ، ١٣٨٨ ،
١٣٩٥
كاربوه ١٢٢٢
كافور ١٣٢٩
كالدرا ١٢٤٨
كالوني ١١٨٩ ، ١٢٠٣
كامبوفورميو (صلح) ١٢٣٦
كامينييف ١٥٠١
كانوفا ١٢٦٨
الكاي دورساي ١٤٨٩
كلنج ١٣٥٧ ، ١٤٧٢
كراسين ١٥٠١
كرستوفر رن ١١٠٩ ، ١٣٨٢
كرملين ١١٠٣
كرومويل ١٠٨٢ ، ١٠٨٤ ، ١٠٨٥ ، ١١٥٨ ،
١١٦١ ، ١١٦٢ ، ١٢٣٩ ، ١٢٨٩
كري (ج . ا .) ١٤٥٤
كلايف ١٣٥٢
كليمنسو ١٤٨٣ ، ١٤٨٤ ، ١٤٨٥
كبريدج ١٣٢٤
كندا ١٣٥٧
كنيسة إنجلترا، الرسمية ١٠٧٩
الكنيسة الكاثوليكية ١٠٦٧ ، ١٢٦٦
الكنيسة المسيحية ١١١٠
الكنيسة اليونانية الأرثوذكسية ١٢٦٦
كوبا ١٣٦٤ ، ١٥٤٧

فنج ١٥٢٠
الفنون ١٣٧٧ ، ١٣٧٨
فوش ١٤٦١
فوكلانده (معركة) ١٤٥١
فولتير ١٠٩٦ ، ١٠٩٨ ، ١١٠٠ ، ١١٠٤ ،
١١٣٥ ، ١٣١٥
فونتينبلو ١٢٤٧
فورت ستر ١٣٤٣
الفيزيوقراطيون ١١٨٧
فيشر ١٤٥٨
فيشينسكي ١٥٤٤
فيكتور عمانويل ١٣٢٩
فيكتوريا ١٢٩٦ ، ١٣٢٩ ، ١٣٨٧ ، ١٥٤٨
فيكتور نا أوجيني ١٥٤٦
فيلاسكويز ١٣٧٩
فيلدنج ١١٠٠ ، ١٢٨١ ، ١٣٨٧
فيليب الثاني ١٠٧١ ، ١٠٧٢ ، ١٠٨٩
فيليب دوق أورلبان ١٢٢٠
فيوي ١٤٩١
فيينا ١١١٨
فوروشيلوف ١٥٨٠

(ق)

قاعة المرايا ١٣٣٦
قانون إصلاح حكومة الهند ١٣٥٦
قانون الحقوق الفرنسي ١١٨١
قانون المثول ١١٨٢
قانون المصانع ١٢٩٦
قباذ ١٢٥٤
قبرص ١٣٥٠
القرون الوسطى ١١٣٤
قسطنطين (الإمبراطور) ١١٤٠
قسطنطين (اليوناني) ١٤٥٥
القصة الثرية ١٣٨٧
قوانين الدمغة ١١٦٣

١٦٤٧

لوثر ١١٤٢
لود ١٠٨٠
لودنلورف ١٤٦١ ، ١٥٥٥
لوسيان ١٢٣٩
لورنس ١٤٩٣
لوك ١١٠٠
لوكريشيوس ١٣١٢
لولي ١١٠٥
لونجفلو ١٣٨٧ ، ١٣٩٥
لونجوى ١٢١٠
لونجارسكى ١٥٠١
لويد جورج ١٤٦٦ ، ١٤٨٠ ، ١٤٨٦ ، ١٥١٤
لويس الثامن عشر ١٢٥٨
لويس الخامس عشر ١١٠٢ ، ١١١٢
لويس الرابع عشر ١٠٩٣ ، ١٠٩٥ ، ١٠٩٨ ،
١١١٦ ، ١٢٤٢
لويس السابع عشر ١٢٥٨
لويس السادس عشر ١١٠٢ ، ١١٧٩ ، ١٢٥٨
ليتون ١٣٨٨
الليرة ١٥٣١
ليكوالتر ١١٩٧ ، ١١٩٨
ليوبولد الأول ١٢٦٦ ، ١٣٢٤
ليوناردو دافنشى ١٣١٢ ، ١٤٥٤
لينين ١٢٩٧ ، ١٤٥٩ ، ١٥٠٨
ليويك ١٥٢٥

(م)

ماجنا كارتا ١٠٧٦ ، ١٠٧٩ ، ١٠٩٣
ماجننا ١٣٢٩
ماجينو ١٥٧٢
مارا ١٢١٠ ، ١٢١٢
مارستون ١٠٨٣
الماركسية ١٤٩٩ ، ١٥٠٢
مارنجو ١٢٤١
المارسليلز ١٢١٣ ، ١٢١٥ - ٢٠٠٠

كوث الإمارة ١٤٥٣
كورتير (مجلس) ١٠٧٥ ، ١٥٤٩
كورموال ١٢٣١
كورتوت ١٣٧٩
كوريا ١٣٦٨ ، ١٣٧٢
كورف ١٠٩٩
كوزكيوسكو ١١١٩
كولتشاف ١٥٠٥
كولونيل پرايد ١٠٨٣ ، ١٠٨٧
كومنتانج ١٥٢٠ ، ١٥٢١
الكومنولث البريطانى ١١٥١٦
كوميون باريس ١٢١٠ ، ١٢١٩ ، ١٢٤٠
كونجرس ١١٦٤ ، ١٣٣٨ ، ١٣٤٥ ، ١٤٧٦ ،
١٥٣٧
كوندورسيه ١٢٤٤
كونستابل ١٣٧٨
كهرباء ١٢٧٦
كيرينسكى ١٤٥٧ ، ١٤٥٨
كيفن أوهمجنز ١٥١٦
الكيمياء ١١٣٩ ، ١٢٧٣

(ل)

لبرادور ١٣٢٣
لاس . كاساس ١١٨٠
اللاسكى ١٥٣٣
دى لامبال (الأميرة) ١٢١١
لاهور ١٣١١
لاوتى ١٢٩٢
لتفونف ١١٨٠
لغة (بأنواعها) ١٠٧١
لغوف ١٤٥٧
لكسمبورج ١٢٦٥ ، ١٣٣٥
لنگولن ١٣٣٧ ، ١٣٤١ ، ١٥١٤
لوتفيلج ١٥٢٠

١٦٤٨

مذهب التنقيح ١٣٠٠
 مركاتور ١٣٥١
 مزرعة فريمان (معركة) ١١٦٧
 المستعمرات ١١٥٣ ، ١١٦٠
 المسعى الجماعي ١١٧٨ ، ١٢٣١
 المسعى الخاص ١١٤٧ ، ١١٥٠ ، ١١٦٣
 ١١٧٨ ، ١٤٦٥ ، ١٤٦٨ ، ١٤٦٩
 مشروع الخمس سنوات ١٠٥٩ ، ١٥٤٣
 المسيحية ١٢٩٢
 المسيحية (توحيدها) ١٠٨٩
 المسيحية أخوة عالمية ١١١٤
 المسيح المنتظر ١٢٣٢
 مصر ١٣٧٤ ، ١٥٢٦ ، ١٥٣٤
 معاهدة أميان ١٢٤١ ، ١٢٤٥
 معاهدة باريس ١١٦٨
 معاهدة برلين ١٣٤٨
 معاهدة سان استفانو ١٣٤٩ ، ١٣٩٨
 معاهدة فرساي ١٤٩٠ ع ح ، ١٥٣٦
 معاهدة فيينا ١٣٢٤
 معاهدة وستفاليا ١٠٧٥ ، ١٠٩٣ ، ١١٥٣
 المعرض الدولي ١٣٢٥
 المعرض الكبير ١٣٢٤
 معيار الذهب ١٥٣٢ ، ١٥٣٣ ، ١٥٤٠
 المغول ١١٣١
 المغول الأعظم ١٣٥٢
 المقصلة ١٢١٢ ، ١٢١٦
 مكدونالد ١٥٦٢
 مكسميليان ١٣٣٣
 المكسيك ١٣٣٠
 مكيفلي ١٠٦٨ ، ١٠٨٨ ، ١٠٩٣ ، ١٠٩٥
 ١١٠٢ ، ١٤٠٣
 ملتش الخقوق ١٠٧٩
 ملتون ١٠٩٩
 الملاك والملكية ١٢٢٧ ، ١٢٢٨

مارك توين ١٣٩٦
 المارن ١٤٥٥
 ماري ١٠٧٥
 ماري انطوائيت ١١٨٩ ، ١١٩٥
 ماري تريزا ١١٠٣ ، ١١٢٠
 ماري لويز ١٢٥٣
 ماريينا ١٥٤٨
 مازاريك ١٥٠١
 مازارين ١٠٩٣ ، ١٠٩٥ ، ١١١٤
 ماكولي ١١٤٢ ، ١٣٨٨
 مالك العقار ١٠٧٥
 المانشو ١١٣١
 مانيه (المصور) ١٣٧٥
 مايار ١١٩٥ ، ١١٩٦
 المبشرون ١٣٥٣
 متاكساس ١٥٣٩
 مرنينغ ١٢٨٩
 مجتمع لإرادة ١١٧٣ ، ١١٧٦ ، ١٢٢٣
 مجتمع بشري ١١١٠
 مجتمع طاعة ١١٧٣
 مجتمع فكري ١٠٧٠
 مجد بورج ١٠٩٣
 مجلس الدايت ١٠٩٠ ، ١١١٨
 مجلس الدوما ١٤٥٧
 مجلس الطبقات ١٠٧٥ ، ١٠٩٠ ، ١١٩٠
 مجلس العموم ١٠٧٨ ، ١٠٨٣ ، ١٠٩٥ ، ١١٦٠
 ١١٦١ ، ١١٧٤ ، ١١٩٢ ، ١٢٩٨
 مجلس الكورتيز ١٠٧٥ ، ١٥٤٩
 مجلس اللوردة ١٠٧٨ ، ١٠٨٣ ، ١٠٩٣
 محاكم التفتيش ١٢٦٢
 محكمة الثورة ١٢١٦
 المدائن ١٤٥٣
 المدرسية ١٣٨٧
 المدن ١٠٧١
 مدنية ١٠٦٧
 مذبة كونهور ١٣٥٥

١٦٤٩

مولتكه ١٤٠٥
موليير ١٠٩٩
مونتجومري ٥٨٣
مولرو ١٢٦٢ ، ١٣٣٣ ، ١٣٤٦ ، ١٣٥٨
موهلون ١٤٧٩
ميشولوجيا (رطازة)
ميرابو ١٢٠٢ ، ١٢١٥
الميروفنچيون ١٠٨٩
ميشيل كونلز ١٥١٦

(ن)

نابليون بوناپرت ١٢١٣ ، ١٢٢٢ ، ١٢٣٣ ،
١٢٤٢ ، ١٢٤٣ ، ١٢٥٠ ، ١٢٥٩ ،
١٣٢٦
نابليون الثالث ١٣٢٥ ، ١٣٣٦
نادرشاه ١١٢٦
نازميث ١٢٧٤
النازة ١٥٣٧ ، ١٥٥٣
ناظر القصر ١٠٨٩
ناتسن ١٥٠٧
النظام الاجتماعي ١٥٥١
النظام الدستوري ١٢٥٩
النظام الملكي ١٢٦٣
النقض المطلق ١١١٨ ، ١٤٨٨
النقل المصري ١٣٣٩
لقايات المال ١٢٨٤
النقود ١٤٦٧ ، ١٥٢٧ ، ١٥٣١ ، ١٥٣٢
فلسون ١٢٢٧ ، ١٢٤٨
النبضة البحرية الأسبانية ١٥٤٨
نوفجودود ١١٣٠
لوارين ١٢٦٧
نفيي ١٤٧٠
ليسبي ١٠٨٣
نيقولا الثاني ١٣٩٩
نيوا مستردام ١١٢٣
نيو انجلند ١١٢٣ ، ١١٥٣ ، ١٣٩٥

الملاك والملكية ١١٢٧ ، ١١٢٨
الملكية الاستبدادية المطقة ١٠٦٨ ، ١٠٧٠
الملكية البرلمانية ١١١٠ ، ١١٤١
الملكية التحررية ١٣٢٧
الملكية الشخصية ١٠٧٥
الملكية المعطى ١٠٩٣ ، ١٠٩٥ ، ١٠٩٨
١٠٩٩ ، ١١٠٢ ، ١١٤١ ، ١٢٩١
الملكية الفرنسية ١٠٦٨
المكية القومية ١١٠٤
الملكية المقيدة ١٠٧٢
الملكية المكافئة ١٢٧٠ ، ١٣٢٠
الملكية الخاصة ١١٤٧ ، ١٤٧٠
المالك السبع ١٥٢٠
مناطق الامتياز بالصين ١٥٢١
منج ١١٣٢
منشوريا ١١٣٢ ، ١٥٣٩
منغوليا ١١٣٢
مكن ١٣٩٦
المنهاجيون ١١٣٤
المهراتا ١٣٥٤
مؤتمر استوكهلم ١٤٥٨
مؤتمر الصلح (باريس) ١٤٧٢ ، ١٤٨٠ ،
١٤٨٦
مؤتمر فيينا ١٢٥٧ ، ١٢٦١ ، ١٣١٩
مؤتمر لاهاي ١٣٩٩
مؤتمر مونتهجمري ١٣٤١
موال الأرض ١١٩٣
موئل ١٠٧٢
موراتوريوم ١٥٤٠
موراه ١٢٥٦
مورجنتون ١٣٥٣
مورو ١٢٤١
موزار ١١٠٦
الموسويون ١١٦٨
موسوليني ١٤٧١ ، ٥٣٢
الموسيق ١١٠٥

١٦٥٠

نيولانارك ١٢٩٤ ، ١٢٩٥

(هـ)

هايسبرج (أسرة) ١٠٨٩ ، ١٠٩٠ ، ١١١٧ ،

١٢٥٩ ، ١٤٦١

جادو (السيروليم) ١١٠٥

هاردي (توماس) ١٣٨٩

هارلم ١٠٧٣

الخانسا ١١٣٨

هانكوك ١١٦٥

هانوفر (أسرة) هاندل ١١٠٦ ، ١٠٨٧ ، ١٠٨٨ ،

١٠٩٣

هاولز (و د) ١٣٩٥

هتلر ١٥٤٦ ، ١٥٥٥ ، ١٥٥٦ ، ١٥٦١

الهدنة المسلحة ١٤٠١

هكسل ١٣١٤

الهلويلية ١٣١١

الهند ١١٢٤ ، ١٣٢٢ ، ١٣٥٤ ، ١٥٣٩

هندنبرج ١٤٦١ ، ١٥٦٠

هنري الثالث ١٠٧٧

هنري السابع والثامن ١٠٧٥ ، ١٠٧٨

هنري جيمس ١٤٧٨

هوايت هول ١٠٨٤ ، ١١٠٩

هوجو ١٣٨٩ ، ١٣٤١

هوبز ١١٠٠

هون (الكونت) ١٠٧١ ، ١٠٧٢

هوفر ١٥٣٧

هولاندروز ١٢٣٨

هومبروس ١١٠١

هولشتين ١٢٦٥

هونزلون (أسرة) ١٠٩٢ ، ١١٠٢ ،

١٢٥٧ ، ١٤٠٣ ، ١٤٥٥ ، ١٤٦١

هوهشتاوف ١٠٨٩

المويج ١١٦٣

هويستلر (المصور) ١٣٧٩

هيني ١٣٨٨

(و)

وات ١١٤٨ ، ١٢٧١

وترلو (معركة) ١٢٥٩

وارن هاستنجنس ١١٢٩

وارويك (لورد) ١٠٨٢

ولبول (روبرت) ١٠٨٨

والترسكوت ١٣٩٠

وانشتين ١٠٩٢

ورث (معركة) ١٣٣٥

وزارة الخارجية ١١١٥ ، ١١٠١ ، ١٣٩٩

وزير (الوزراء) ١٠٦٨

وستفاليا ١٠٩٢ (انظر معاهدة)

الوطنية ١٥١٩

ولسن ١٤٧٢ ، ١٤٧٣ ، ١٤٧٤ ، ١٤٨٤ ،

١٤٨٦

ولنجتون (دوق) ١٢٥١ ، ١٢٥٩

وليم بت ١٢٤٦

وليم الرابع ١٠٨٩

وليم الصامت ١٠٧١ ، ١٠٧٢

وليم هاركوت ١٣٠١

ويلر ١٥٤٨

ويفل ١٥٧٥ ، ١٥٧٦ ، ١٥٧٧

(ي)

اليابان ١٣٦١ ، ١٣٧١ ، ١٥١٨ ، ١٥٣٩

يسوع ١١١٠ ، ١١٣٤ ، ١١٤٢ ، ١١٧١ ،

١٢٢٦ ، ١٣١٠ ، ١٣١١ ، ١٤٨٤

اليسوعيون ١٢٤٣ ، ١٢٧٧ ، ١٣٦٨

اليعاقبة ١٢٠١ ، ١٢٠٧ ، ١٢١٢ ، ١٢٢٧ ،

١٢٥٣

اليهود ١١١٧ ، ١٤٩٣ ، ١١٥٤ ، ١١٥٦

يوان تشوانج ١٤٧٢

يوان تشيه تاي ١٥١٨

يودينيشت ١٥٠٥

اليوتوبيا ١٢٨٢

يوليوس قيصر ١٢٣٩

يين وو ١٥٢٠

ييينا (معركة) ١٢٤٨ ، ١٢٥٢ ، ١٤٠٣

اقرأ في هذه السلسلة

| | |
|-----------------------|------------------------------------|
| برتراند رسل | أحلام الاعلام وقصص أخرى |
| ي . رادونسكايا | الالكترونيات والحياة الحديثة |
| الدس مكسل | نقطة مقابل نقطة |
| ت . و . فريمان | الجغرافيا في مائة عام |
| دايموند وليامز | الثقافة والمجتمع |
| ر . ج . فوربس | تاريخ العلم والتكنولوجيا (٢ ج) |
| ليسترديل راي | الأرض الغامضة |
| والتر ألن | الرواية الانجليزية |
| لويس فارجاس | فلرشد الى فن المسرح |
| فرانسوا دوماس | آلهة مصر |
| د . قدرى حفى وآخرون | الانسان المصرى على الشاشة |
| أولج فولكف | القاهرة مدينة الف ليلة وليلة |
| هاشم النحاس | الهوية القومية فى السينما العربية |
| ديفيد وليام ماكذوال | مجموعات التقود |
| عزيز الشوان | الموسيقى - تعبير نفسى - ومنطق |
| د . محسن جاسم الموسوى | عصر الرواية - مقال فى النوع الأدبى |
| اشراف س . بى . بوكس | ديلان توماس |
| جون لويس | الانسان ذلك الانسان الفريد |
| بول ويست | الرواية الحديثة |
| د . عبد المعطى شعراوى | المسرح المصرى المعاصر |
| أنور المعداوى | على محمود طه |
| بيل شول أدنبيت | القوة النفسية للأهرام |
| د . صفاء خلوصى | فن الترجمة |
| رالف ثى ماتلو | تولستوى |
| فيكتور برومبير | ستندال |

- رسائل واحاديث من المنفى
الجزء والكل (محاورات في مضمون هيرزبرج
الفيزياء الذرية)
التراث الغامض ماركس والماركسيون
فن الأدب الروائي عند تولستوى
أدب الأطفال
أحمد حسن الزيات
أعلام العرب في الكيمياء
فكرة المسرح
الجحيم
صنع القرار السياسى
التطور الحضارى للإنسان
هل نستطيع تعليم الأخلاق للأطفال ؟
تربية المواجن
الموتى وعالمهم فى مصر القديمة
النحل والطب
سبع معارك فاصلة فى العصور الوسطى
سياسة الولايات المتحدة الأمريكية ازاء
مصر ١٨٣٠ - ١٩١٤
كيف تعيش ٣٦٥ يوما فى السنة
الصحافة
أثر الكوميديا الالهية لنانتى فى الفن
التشكيل
الأدب الروسى قبل الثورة البلشفية
وبعدها
حركة عدم الانحياز فى عالم متغير
الفكر الأوروبى الحديث (٤ ج)
الفن التشكيلى المعاصر فى الوطن العربى
١٨٨٥ - ١٩٨٥
فيكتور هوجو
سدينى هوك
ف . ع . أدنيكوف
هادى نعمان الهيتى
د . نعمة رحيم العزاوى
د . فاضل أحمد الطائى
فرنسيس فرجون
هنرى باربوس
السيد عليوة
جاكوب برونوفسكى
د . روجر ستروجان
كاتى ثير
ا . سبسر
د . ناعوم بيتروفيتش
جوزيف داموس
د . لينوار تشامبرز رايت
د . جون شندلر
بيير ألير
الدكتور غبريال وهبه
د . رمسيس عوض
د . محمد نعمان جلال
فرانكلين . باومر
شوكت الربيعى

اعداد محمد كمال اسماعيل
 الفردوس الطوسي
 بيرتون بورتر
 جاك كرابس جونيور
 محمد فؤاد ، كوبريلي
 بول كونر
 اختيار واعداد صبرى الفضل
 قونى بار
 نادين جورديس وآخرون
 موريس بيربراير
 آدامز فيليب
 احمد الشنوائى
 جوناثان ريلى سميث
 ريتشارد شاخت
 ريجمونت هبى
 الفريد . ج . بتلر
 اعداد . د . فيليب عطية
 ادوارد مرى
 هربرت شيلر
 الحاج يونس المصرى
 ستيفن أوزمنت
 نفتالى لويس
 بيتر نيكولز
 اعداد : موني براح وآخرون

التحليل والتوزيع الأوركستراالى
 الشاهنامه (٢ ج)
 الحياة الكريمة (٢ ج)
 كتابة التاريخ فى مصر ق ١٩٠
 قيام الدولة العثمانية
 العثمانيون فى أوربا
 مختارات من الآداب الآسيوية
 التمثيل للسينما والتليفزيون
 سقوط المطر
 صناع الخلود
 دليل تنظيم المتاحف
 كتب غيرة الفكر الانسانى (٣ ج)
 الحملة الصليبية الأولى
 رواد الفلسفة الحديثة
 جماليات فن الاخراج
 الكنائس القبطية (٢ ج)
 ترانيم زرادشت
 النقد السينمائى الأمريكى
 الاتصال والهيمنة الثقافية
 رحلات فارتيما
 التاريخ من شتى جوانبه ٣ ج
 مصر الرومانية
 السينما الخيالية
 السينما العربية من الخليج الى المحيط

مطابع الهيئة المصرية العلمية للكتاب

رقم الايداع بدار الكتب ١٩٩٤/٧٥٨٤

I.S.B.N 977-01-4050-3

هذا الكتاب - كما يدل عليه اسمه - موسوعة تاريخية شاملة موجزة للحضارة الإنسانية عبر عصورها ويروي قصتها الأديب الإنجليزي الشهير ج. هـ. ويلز، والطبعة العربية من هذا الكتاب سوف تصدر في أربعة أجزاء يتناول الجزء الأول منها نشأة الكون والنظريات العلمية المختلفة التي تفسر تطوره ثم ظهور الإنسان والأجناس القديمة المنقرضة، ويعرض لفكر الإنسان البدائي ومعتقداته الدينية ونشأة اللغة وتقسيماتها ثم لأقدم الحضارات في مصر والعراق والهند، أما الجزء الثاني فيعرض للحضارة الإغريقية والهلينستية والرومانية، ولحقبة من تاريخ العبرانيين، أما الجزء الثالث فيعنى بحضارات العصر الوسيط والجزء الرابع يتناول التاريخ الحديث.